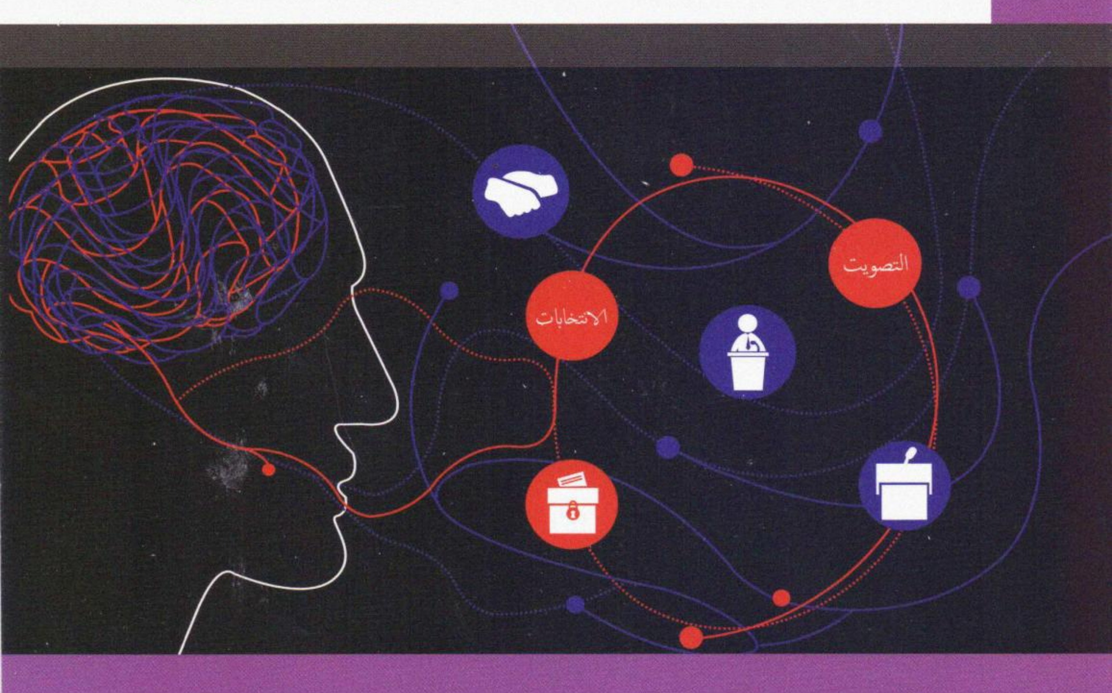
ترجمان

دايفد باتريك هوتون

علم النفس السياسي

ترجمة: ياسمين حداد



المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

علم النفس السياسي

أوضاع، وأفراد، وحالات

هذه السلسلة

في سياق الرسالة الفكرية التي يضطلع بها «المركز العربي للأبحاث ودراســة السياســات»، وفي إطار نشاطه العلمي والبحثــي، تُعنى «سلســلة ترجمان» بتعريف قــادة الرأي والنخب التربوية والسياسية والاقتصادية العربية إلى الإنتاج الفكــري الجديد والمهم خارج العالــم العربي، من طريق الترجمــة الأمينة الموثوقة المأذونــة، للأعمال والمؤلفات الأجنبيــة الجديدة أو ذات القيمــة المتجددة في مجالات الدراســات الإنســانية والاجتماعيــة عامة، وفــي العلوم الاقتصاديــة والاجتماعيــة والإدارية والسياســية والثقافية بصورة خاصة.

وتســتأنس «سلســلة ترجمان» وتسترشــد بآراء نخبة من المفكرين والأكاديميين من مختلف البلدان العربية، لاقتراح الأعمــال الجديرة بالترجمة، ومناقشــة الإشــكالات التي يواجهها الدارســون والباحثون والطلبة الجامعيون العرب كالافتقار إلى النتاج العلمي والثقافي للمؤلفين والمفكرين الأجانب، وشيوع الترجمات المشوَّهة أو المتدنية المستوى.

وتســعى هذه السلســلة، من خلال الترجمــة عن مختلف اللغات الأجنبية، إلى المســاهمة في تعزيز برامج «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات» الرامية إلى إذكاء روح البحث والاســتقصاء والنقد، وتطويــر الأدوات والمفاهيم وآليات التراكم المعرفي، والتأثير في الحيز العام، لتواصل أداء رسالتها في خدمة النهوض الفكري، والتعليم الجامعي والأكاديمي، والثقافة العربية بصورة عامة.

علم النفس السياسي

أوضاع، وأفراد، وحالات

دايفد باتريك هوتون

ترجمة

ياسمين حداد

مراجعة

سامي الخصاونة



الفهرسة في أثناء النشر - إعداد المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

هوتون، دايفد باتريك

علم النفس السياسي: أوضاع، وأفراد، وحالات/ دايفد باتريك هوتون؛ ترجمة ياسمين حداد؛ مراجعة سامي الخصاونة.

464 ص.: إيض. ، جداول ؛ 24 سم. - (سلسلة ترجمان)

يشتمل على بيليوغرافية (ص. 419 - 442) وفهرس عام.

ISBN 978-614-445-046-8

1. علم النفس السياسي. 2. الإرهاب - الجوانب النفسية. 3. العلاقات الخارجية - الجوانب النفسية. 4. الأعصاب، علم. 5. السلوك (علم نفس) أ. حداد، ياسمين. ب. الخصاونة، سامي. ج. العنوان. د. السلسلة.

320.019

هذه ترجمة مأذون بها حصريًا من الناشر لكتاب

Political Psychology

by David P. Houghton

عن دار النشر

Taylor & Francis Group LLC.

All Rights Reserved

Authorized translation from English language edition published
by Routledge Inc., part of Taylor & Francis Group LLC.

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن
اتجاهات يتبناها المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

الناشر

المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

شارع رقم: 826 - منطقة 66
المنطقة الدبلوماسية - الدفنة، ص. ب: 10277 - الدوحة - قطر
هاتف: 44199777 - 00974 فاكس: 44831651 - 00974

جادة الجنرال فؤاد شهاب - شارع سليم تقلا - بناية الصيفي 174
ص. ب: 4965 - 11 - رياض الصلح - بيروت 2180 1107 - لبنان
هاتف: 8 - 1 991837 - 00961 فاكس: 1991839 - 00961
البريد الإلكتروني: beirutoffice@dohainstitute.org
الموقع الإلكتروني: www.dohainstitute.org

© حقوق الطبع والنشر محفوظة للمركز

الطبعة الأولى

بيروت، آب/ أغسطس 2015

المحتويات

قائمة الأشكال والجداول

الأشكال

الجداول

تمهيد

إذا لم تخنّي الذاكرة، فقد دأبت منذ زمن بعيد في الاهتمام بالأسباب الكامنة وراء السلوك السياسي والاقتصادي وغيرها من أشكال السلوك الاجتماعي، ولكنني لم أتبين إلا في وقت لاحق أن ما كان يستحوذ على اهتمامي له اسم محدد، وأنه يكوّن حقلًا أكاديميًا خاصًا به هو: «علم النفس السياسي». والحقيقة أنني لم أعثر على ما كنت أبحث عنه إلا عند قدومي إلى الولايات المتحدة طالب دراسات عليا. فقد نشأت في ظل النظام الجامعي البريطاني، ولا أذكر أنني سمعت بهذا المصطلح أثناء دراستي في جامعة شيفيلد (مع أن هذا الموضوع يدرَّس الآن، لحسن الحظ، على نطاق واسع في بريطانيا). وقد بدأتُ دراستي العليا طالب اقتصاد، معتقدًا أنني سأتعلم شيئًا عن أسباب السلوك الاقتصادي بدراسة الاقتصاد الجزئي. وخاب أملي حين وجدت أن كثيرًا من الاقتصاديين يأخذون بافتراضات مبسطة عن السلوك الإنساني - ويتعاملون معها بوصفها «مسلّمات» - ويبنون عليها نموذجات نظرية مختلفة.

وهناك طرفة قديمة عن مهندس، وقسيس، واقتصادي وقعوا في حفرة عميقة، وراحوا يتجادلون في كيفية الخروج منها. وبعد شيء من التفكير خرج كل منهم بمقترح؛ فقال المهندس «دعونا نحفر حُفرًا لمواقع أقدامنا واحدة بعد الأخرى، ويتسلق بعضنا على أكتاف بعض لنتمكن من الخروج». وجاء بعده القسيس ليقترح حلًا روحانيًا، كما يمكن أن نتوقع، وقال: «فليمسك كل منا بأيدي الآخر ونصلِّ لله، وهو سيسعفنا بحل لمشكلتنا». ثم جاء دور الاقتصادي فأخذ برهة من التفكير، وقال للآخرين ببساطة: «افترضوا أن لدينا سلمًا!» وقد

حاول مدرسو الاقتصاد الجزئي عبثًا ملء رأسي بمنحنيات التفضيل ورسم الخطوط البيانية بناء على افتراضات في السلوك الإنساني، ويتعاملون معها بوصفها معلومات تامة، لا وجود فيها للإعلانات [أو أي متغيرات نفسية]. هم يعترفون أنها معلومات غير حقيقية، ولكنهم يبنون عليها (على خطى ميلتون فريدمان) «وكأنها» حقيقية. ولم يكن هذا بالتأكيد ما أبحث عنه، فلم أمض معهم طويلًا، لأني لم أشأ أن أفترض شيئًا عن السلوك الإنساني، كنت أريد أن أعرف كيف يفكر الناس حقيقة في عالم الواقع، ولماذا يفكرون على النحو الذي يفكرون به.

على الرغم من أن قسم العلوم السياسية بجامعة شيفيلد لم يكن يطرح مساقًا خاصًا في علم النفس السياسي، فإنه وفّر لي تعليمًا جامعيًا ممتازًا. وعرّفني المُنظِّر السياسي المتميز على الدوام، أنطوني أربلاستر (Anthony Arblaster)، بتجارب ستانلي ملغرام (Stanley Milgram) ذات الصدمات الكهربائية، وبكتاب حنة أرندت (Hannah Arendt) **آيخمان في القدس**، وهو ما سنتناوله لاحقًا في هذا الكتاب، وسحرني ذلك الكتاب حتى يومنا هذا. وفي الوقت نفسه أخذت عددًا من المساقات من قسم علم النفس في السنة الأولى من الدراسة، غير أن ما حاولوا تعليمي إياه لم يعلق طويلًا في ذهني. فكانوا معنيين بملاحظة السلوك التعلُّمي (أو غيره) لفئران المختبر، ووضع بحوث غير متناهية لهذه الأغراض، والحديث عن التركيب الفيزيولوجي للدماغ، ولكن ما يدعو للسخرية هو أنني اكتشفت لاحقًا مدى أهمية ذلك كله لفهم السلوك السياسي، غير أنني خرجت بانطباع خاطئ كل الخطأ، على الرغم من أنه كان قويًا في ذلك الحين، مفاده أن علم النفس وعلم السياسة مغلقان إغلاقًا محكمًا وليس لأحدهما شيء يمكن أن يقوله للآخر. وفي السنة الدراسية الثانية كان عليّ أن أختار إما علم النفس وإما السياسة، ولأنني علمت أن السياسة تتضمن الدراسة الميدانية لسلوك الانتخاب، على سبيل المثال، وليس مجرد افتراضات عمّا يفعله الناس في الانتخابات، أو ما يجب عليهم فعله، بدت السياسة لي الطريق الواعد في ذلك الحين.

ولم أتبيّن أن الحقل الذي يغطيه هذا الكتاب حقل قائم فعلًا إلا بعد

وصولي إلى الولايات المتحدة في مطلع العقد الثالث من عمري. ووقع اختياري على مكان ممتاز آخر للدراسة هو قسم العلوم السياسية في جامعة بتسبرغ. ومدينة بتسبرغ شبيهة إلى حد كبير بابنة عمها شيفيلد في إنكلترا، مدينة صناعة حديد في حقبة ما بعد الصناعة. ولعل أكثر ما يشعرني بالندم حين أذكر حياتي كطالب دراسات عليا هو أنه لم يتح لي المجال لأدرس مع الراحل العظيم هربرت سيمون (Herbert Simon) الأستاذ بجامعة كارنيغي ميلون، لأنني لو فعلت لتبيّنت أمري في وقت مبكر. وبوصفي طالبًا في جامعة بتسبرغ، كان أمر السماح بدراسة مواد في جامعة كارنيغي ميلون مستحيلًا (وهي لا تبعد سوى بضعة دقائق سيرًا على الأقدام من جامعة بتسبرغ). ولكن سيمون كان عملاقًا في عدد من الحقول الأكاديمية، وكانت مساقاته تغص بالطلبة على الدوام. غير أنه حالفني الحظ بدراسة مساق السياسة الجماهيرية (Mass Politics) مع جون هورويتز (Jon Hurwitz) في جامعة بتسبرغ، فأثار اهتمامي بعلم نفس الجماهير وحقق توازنًا مع اهتمامي الأولي بتفكير النخبة وسلوكها [وهما جناحا البحث في علم النفس السياسي].

والمثير للسخرية أنني لم أعثر على ضالتي إلا في واحد من أواخر المساقات التي درستها، وجاء «اكتشافي» المتأخر للتراث العلمي الذي يمثّل العمود الفقري لهذا الكتاب فكان بريان ربلي (Brian Ripley) - الذي أصبح صديقًا لي في ما بعد وشريكًا في التأليف - يدرِّس مساقًا في جامعة بتسبرغ بعنوان «الثقافة والمعرفة في السياسة الخارجية» (Culture and Cognition in Foreign Policy) ولم أكن متيقّنًا بما يعنيه هذا العنوان مطلقًا، ولكنني بعد أن تحدثت مع بريان قررت أن أخوض المحاولة. وبمهارة فائقة جلب بريان إلى علمي - وهو أفضل مدرس رأيته في حياتي - موضوع صنع القرار في السياسة الخارجية وأثلج صدري حين وجدته يتكئ على نظريات علم النفس الاجتماعي وعلم النفس المعرفي لتفسير صناعة القرارات. وما أن أخذت في التعمق في هذا الموضوع أكثر فأكثر، حتى أدركت أنه المجال الذي كنت أبحث عنه من وقت إلى آخر طوال سنوات، وأنه إرث لا يقتصر على ما جاء به هربرت سيمون وإنما يشمل عظماء آخرين مثل ألكسندر جورج (Alexander George)،

وروبرت جيرفيز (Robert Jervis)، وأول هولستي (Ole Holsti)، وند ليبو (Ned Lebow)، وآخرين. ووضعت أطروحة الدكتوراه في موضوع قياس التمثيل/ المماثلة (analogical reasoning) في السياستين الداخلية والخارجية، وألفت كتابًا لاحقًا عن صنع القرار في أزمة الرهائن الإيرانية معتمدًا هذا المنظور، وعملت على نشر مقالات عنه وعن غيره من الموضوعات لعقدٍ من الزمن حتى الآن - ولكنني تعمدت ألّا أثقل هذا الكتاب بإسهاماتي المتواضعة.

ومع أن هناك كتابين تدريسيين ممتازين يقدمان علم النفس السياسي للطلبة - بعد أن نفدت جميع طبعات الكتب السابقة - فإن أيًا من الكتابين لا يعكس ما أرغب في تدريسه لطلبة المرحلة الجامعية الأولى بالقدر الكافي. وهذا أمر مفهوم في ضوء ما يتميز به هذا الحقل من خصوصية، فنجد أساتذته المختلفين يدرسونه بطرائق مختلفة. والحقيقة أن الأسباب التي دعتني إلى وضع هذا الكتاب هي نفسها الأسباب التي تدعو كثيرًا من الأكاديميين إلى وضع كتب دراسية؛ فلم أستطع العثور على كتاب من الكتب الموجودة حاليًا يغطي في مجلد واحد جميع المواضيع التي أرغب التطرق إليها. وعلى وجه التحديد، أردت وضع كتابٍ يتصف بالصفات التالية: (أ) أن يقدم تعريفًا عريضًا لعلم النفس السياسي ويتضمن أعمالًا لعلماء نفس وباحثين ممن يتناولون موضوعات سياسية في الأصل - سواء أعدّوا أنفسهم «علماء نفس سياسي» أم لا، (ب) يتناول الإرثين الموقفي والنزوعي في علم النفس على قدم المساواة، (ج) يتضمن مقدمة عامة تشتمل على أداة تنظيمية واضحة تكون ذات فائدة لأغراض التدريس. وها هو ذا الكتاب الذي بحثت عنه. وإني لآمل، بطبيعة الحال، أن يفي بالأغراض التي وضع من أجلها ليس لي فحسب، وإنما للآخرين كذلك. وآمل أن يُقنع الآخرين الذين يدرسون مساقات في هذا المجال أن يضمّنوا مساقاتهم جانبًا، في الأقل، من الموضوعات التي يتناولها هذا الكتاب مما لا يغطونه في العادة. وآمل أن يكون هذا الكتاب ذو فائدة ككتاب دراسي مدخلي للمتخصصين بالسلوك السياسي للجماهير، وللمهتمين بدراسة القادة والنخبة في إطار العلاقات الدولية والسياسة الخارجية؛ فكثيرًا ما يعمل أتباع هذين «المعسكرين» في علم النفس السياسي بمعزل عن بعضهما، ولكنني آمل أن ينجح هذا الكتاب في جذب المتخصصين من كلا الطرفين.

لقد حظيت بمساعدة العديد من الناس أثناء كتابتي لهذا الكتاب، وأود أن أخص منهم بعرفاني آنّا كارول، ومايكل كيرنز، وسارة فيليبس وإليزابث رينير من دار راوتلدج للنشر (Routledge): ولقد شجعني مايكل بوجه خاص لمتابعة هذا المشروع حين كان مجرد فكرة خام ملحقة برسالة بريد إلكتروني، كما أخص آنّا وإليزابث خبيرتا التحرير اللتين أسهمتا في تحسين المخطوطة إلى حد يصعب تقديره. كذلك فقد أسهم العديد من المراجعين (غير المسمّيين) بمقترحات ثمينة أدخلتها الكتاب لما وجدت فيها من فائدة. أما ماركو لاكوبوني (Marco Lacoboni) من جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلس (UCLA)، وجفري بدويل (Jeff Bedwell) من جامعة وسط فلوريدا (UCF) فقد زوّداني أفكارًا قيّمة للفصل الحادي عشر الذي تناول علم الأعصاب، وهو موضوع جديد بالنسبة إلي في معظمه، إذ لم يكن لدى كثير من علماء النفس السياسي في الوقت الذي حصلت فيه على الدكتوراه سوى لمحة إلى الموضوع، هذا إذا ما كان لديهم أي معرفة به على الإطلاق. وكان جيف كريمًا بوجه خاص وقام بمراجعة مسودة أولية من ذلك الفصل، وصحح بعناية بالغة بعض مفاهيمي الخاطئة فيه. كما أن دايفد بيرل (David Pearl) من جامعة ولاية واشنطن ساهم في إثارة اهتمامي بموضوع علم الأعصاب من حيث المبدأ، وأتقدم إليه بالشكر على دفعي إلى الاطّلاع على آخر التطورات في طرائق القياس العصبي التي يدرسها طلبة الدراسات العليا في علم النفس السياسي في الوقت الحاضر. وكان لستيفن دايسون (Stephen Dyson)، أحد طلبتي القدماء في جامعة إيسيكس والذي يعمل أستاذًا مساعدًا الآن في جامعة كنوكتيكوت، دورٌ مماثل في إطلاعي على آخر المستجدات في تحليل عقيدة صانع القرار، وله بدوره أتقدم ببالغ الشكر أيضًا.

وقد قمت بتجريب المسودات الأولى للكتاب على طلبتي في مساق علم النفس السياسي في جامعة وسط فلوريدا (UCF)، والشكر موصول لكل واحد منهم على خدمتهم لي في تجريب أفكاري ومسوداتي الأولى. وأخص منهم بالشكر أولئك الذين قدموا لي الاقتراحات، والنصائح، والتشجيع على مدى الطريق، حتى لو اقتصرت مساعدتهم على تصحيح أخطاء طباعية، وتصحيح عناوين العروض التلفزيونية التي وثقتها في هذا الكتاب! وهؤلاء الطلبة هم

(بالترتيب الأبجدي): داشيا أندرسون، وفريدريك آير، وبريندان باين، ومايكل كرانو، وترافيس داوري، وليسي فتزباترك، وماغي فاندورا، وديل غرينشتاين، وباتريك هاينز، وكيني كلامبر، وبينيت ليسمان، ودايفد ماكفرن، وجنفياف نابوليتانو، وكمبرلي سويفت. وإني على يقين أنكم جميعًا ستنجزون إنجازات عظيمة في حياتكم.

وما كان لهذا الكتاب أن يرى النور، كسابقيه، لولا الحب والتشجيع المتواصلين اللذين لقيتهما من والديّ. كما كان من المستحيل متابعة تعليمي العالي لولا إنقاذهما المتكرر لي من السحوبات البنكية التي تجاوزت الرصيد مرارًا على مدى الطريق، فلهما مني الشكر على ذلك أيضًا. وفي نهاية المطاف يتيح لك إنجاز كتاب قضاء مزيد من الوقت مع العائلة، بعد إهمالك الطويل لهم، وأنت موصد الباب على نفسك في غرفة تنقر مفاتيح كمبيوتر. فأشكر زوجتي آنابيل، وابنتي إيزابيل وابني كارلوس على حبهم وصبرهم، وخصوصًا آنابيل التي تولت ترفيه الأطفال في ديزني وورلد، واستوديوهات يونيفيرسال بينما كان الوالد ملازمًا البيت يكتب، ويأخذ قيلولة بين الفقرات، ويأخذ كأسًا من المارغريتا أحيانًا لعله يأتي بشيء من الإلهام. آملًا أن تتحسن تكنيكات الأبوة لدي من الآن فصاعدًا.

أورلاندو، فلوريدا

نيسان/ أبريل 2008

مقدمة

1

المخطط المفهومي لهذا الكتاب

إن الصور لا تكذب، فهؤلاء جنود أميركيون، رجال ونساء، يضحكون ويشيرون إلى الأعضاء التناسلية لسجناء عراقيين عراة ومذعورين. وهذه صورة أخرى لرجل عراقي جُرِّد من ملابسه ورُبِط من عنقه برسن كالكلب، منبطح على الأرض أمام سجانته. وهذا سجين آخر يظهر واقفًا على صندوق، رأسه مغطى بكيس ورق، وجسمه مربوط بأسلاك تظهر من تحت معطف [على الطراز الأميركي الجنوبي]. هذه الصور لم تصدر عن دعاية معادية وإنما هي صور حقيقية تكشف فظائع ارتكبها أميركيون على أرض الواقع[1].

صُدِم العالم في بداية عام 2004 بالصور المقززة التي نشرتها النيويوركر (*The New Yorker*)، وبثتها شبكة سي بي أس (CBS) الأميركية في برنامج «ستون دقيقة 2» والتي أظهرت التعذيب والإهانة اللتين تعرض لهما موقوفون عراقيون على أيدي جنود أميركيين في سجن «أبو غريب» السيىء الصيت. ومن سخرية القدر أن يكون هذا السجن نفسه قد استخدم لسنين عديدة من دكتاتور العراق السابق صدام حسين لحبس كل من احتسبه عدوًا محتملًا له أو تهديدًا لسلطته، وقد تعرّض عدد لا يحصى من العراقيين في ذلك السجن للتعذيب المبرح

---

(1) Craig Whitney, «Introduction,» in: Steven Strasser, ed., *The Abu Ghraib Investigations*, The Official Reports of the Independent Panel and Pentagon on the shocking Prisoner Abuse in Iraq (New York: Public Affairs, 2004), p.3.

أو الإعدام الفوري. وها هم الآن ممثلو الولايات المتحدة، محررو العراق المفترضون ينتهكون حقوق الإنسان ويصورون فظائعهم في فيلم. ولعل ما فعلته هذه الصور أكثر من أي شيء آخر، هو أنها قوّضت شرعية أميركا في العراق منذ البداية. وبعد العديد من التحقيقات التي اقتصرت على المراتب الدنيا من سلم السلطة، جرى إخضاع سبعة أفراد للمحاكمة بشأن الانتهاكات التي ارتُكبت في سجن «أبو غريب».

وقد تصدّى عالم النفس الاجتماعي فيليب زمباردو (Philip Zimbardo) في كتابه الرائع **تأثير الشيطان** (*The Lucifer Effect*) لتفسير ما جرى في «أبو غريب» – حيث قام حراس سجن عاديون (أسوياء نفسيًا) بتعذيب سجناء عراقيين وإهانتهم – فقال إن ما جرى لم يكن ناتجًا عن خصائص أو نزعات شخصية كامنة لدى الأفراد الذين ارتكبوا تلك الأفعال، وإنما كان ناتجًا عن تأثير القوى الموقفية العصبية التي واجهتهم[2]. وعبر عن موقفه في هذا الصدد قائلًا: «إنني صُدمت ولكني لم أُفاجأ»، وذلك بعد أن تفجرت الفضيحة في أيار/ مايو من عام 2004، وانتشرت صور الإساءة المأساوية للسجناء عبر التلفزيون والإنترنت. ويضيف زمباردو:

> «لقد سألت وسائل الإعلام كما سأل «رجل الشارع» كيف استطاع أولئك الرجال والنساء السبعة ارتكاب مثل هذه الأفعال المشينة، أولئك الذين وصفهم قادتهم العسكريون بأنهم «جنود قذرون» أو «بضع تفاحات فاسدة». أما أنا فقد سألت بالمقابل عن الظروف التي أحاطت بتلك الوحدة في زنزانات السجن فقلبت الموازين، وقادت حتى جنودًا صالحين إلى أن يرتكبوا مثل هذه الأفعال القبيحة. ولا بد هنا من تأكيد أن التحليل الموقفي لمثل هذه الجرائم لا يجيزها أو يجعلها مقبولة أخلاقيًا، غير أني كنت بحاجة إلى أن أجد معنى لهذا الجنون. أردت أن أفهم كيف يمكن أن يحدث تحوّل في شخصيات هؤلاء الشبان في فترة وجيزة ويؤدي بهم إلى القيام بهذه الأفعال التي لا يمكن تصورها»[3].

---

(2) Philip Zimbardo, *The Lucifer Effect: Understanding How Good People Turn Evil* (New York: Random House, 2007).

(3) المصدر نفسه، ص 19.

إن تمييز زمباردو بين «التفاحة» و«الصندوق» يساعدنا على شرح ما نقصده بمصطلحَي الموقفية (situationism) والنزوعية (dispositionism)، وسيكون للتمييز بينهما أهمية خاصة في هذا الكتاب برمته. فهل كان السبب وراء أحداث «أبو غريب» المروّعة يعود إلى «التفاحات الفاسدة» أم إلى الصندوق الذي احتواها وحوّلها إلى تفاحات فاسدة؟ وتُعرّف الموقفية في هذا الكتاب كمقاربة (an approach) أو مدخل لفهم السلوك الإنساني تُعتبر فيه البيئة، أو الموقف المحيط بالفرد - أو «الصندوق» وفق مصطلح زمباردو - أكثر أهمية في تكوين سلوك الفرد من نزعاته أو شخصيته؛ أما النزوعية فتُعرّف أنها المقاربة التي تُعتبر فيها شخصية الفرد وما لديه من اعتقادات وقيم - أو «التفاحة» بحسب تعبير زمباردو - أكثر أهمية في هذا المضمار. ويمكننا النظر إلى السلوك على أنه حدث إما أن يكون مدفوعًا بأسباب داخلية (نزعات) وإما بأسباب خارجية (مواقف)، وإما بمزيج من هذين النوعين من الأسباب بطبيعة الحال. وضمن دائرة الأسباب الموقفية هناك أشكال متنوعة من الأسباب الخارجية التي يمكن أن تؤثر في السلوك - تُراوح بين الموقع الذي تحتله الدولة في النظام الدولي أي [أسباب بعيدة غير مباشرة] والأدوار الاجتماعية المحددة التي نقوم بها في حياتنا اليومية [أسباب قريبة أكثر مباشَرة]. وضمن نطاق المقاربة النزوعية هناك وجهات نظر متنوعة عن ماهية الأسباب التي تقف وراء سلوك الأفراد، تشمل بدورها البنى المعرفية [أو الأفكار] التي يحملونها في أذهانهم، واعتقاداتهم، وشخصياتهم، وما إلى ذلك. ولكننا سنعتمد هذا التمييز البسيط [بين العوامل الداخلية والعوامل الخارجية] لشرح نظريات نفسية متنوعة ذات صلة بالسياسة، والمقابلة بينها، ثم نُبيِّن كيف يمكننا تفسير عدد من الظواهر بناء على هذه النظريات، أي ظواهر من مثل: الإبادة الجماعية، والسلوك الانتخابي، والتعصب العنصري، والصراع بين الدول، وأشكال متنوعة أخرى من السلوك السياسي.

ولقد كانت فكرة التمييز بين العوامل النزوعية والعوامل الموقفية بوصفها قوى فاعلة في السلوك الإنساني فكرة محورية في علم النفس الاجتماعي ولا تزال، ويأخذ بها كبار الباحثين في هذا المجال في الوقت الحاضر[4]. وفي حين

(4) Lee Ross and Richard Nisbett, *The Person and the Situation: Perspectives of Social Psychology* (Philadelphia, PA: Temple University Press, 1991).

يأخذ العديد من علماء النفس الاجتماعي الجانب الموقفي من هذا الجدل، فإن معظمنا، بالمقابل، نزوعيون بالفطرة؛ إذ إننا نميل إلى ظن أن ما نحمله من اعتقادات بشأن العالم، وما نحن عليه من شخصية يؤثر تأثيرًا جذريًا في سلوكنا. كما أن نُظمنا السياسية والقانونية تنطوي بدورها على هذا الافتراض وتُحمِّلنا المسؤولية الرئيسة عما نقوم به من أفعال[5]. ونحن بذلك ننقلب على وجهة النظر الغالبة في علم النفس الاجتماعي، والتي تؤكد أن الموقف الذي نواجهه (أينما نكون) يؤثر في سلوكنا تأثيرًا يفوق تأثير خصائصنا الشخصية في كثير من الأحيان، وإلى حد أكبر مما يمكننا تصوره. ومن هنا، فإننا نميل إلى اعتقاد أن سلوكنا السياسي من قبيل: لمن ندلي بأصواتنا، وما الشكل الذي تتخذه مشاركتنا السياسية، وما مدى تسامحنا أو تحملنا للاختلاف، وما إلى ذلك من أشكال السلوك السياسي نميل إلى اعتقاد أنها يتكوّن بفعل ما نحن عليه من خصائص. فهل هذا صحيح؟ هذا هو السؤال المحوري الذي يطرحه الكتاب الذي بين أيدينا والقضية التي تدور حولها موضوعاته.

ومن الأهمية بمكان أن نشير هنا إلى أن التمييز بين الفرد ومحيطه يظهر عمليًا في المجالات العلمية التي تحلل السلوك الاجتماعي جميعها. ففي العلوم السياسية، وفي فرع العلاقات الدولية على وجه الخصوص، هناك تمييز بين «مستويات التحليل» (levels of analysis) أو بين «الفاعلين/ الوكلاء» (agents) أو «البُنى»[6] (structures). كما أن نظرية العلاقات الدولية تفصل بين النزوعيين (وخصوصًا أولئك الذين يدرسون الجوانب النفسية لصناعة القرار في السياسة الخارجية) والموقفيين (ومن ضمنهم الواقعيون المحدثون مثل كينيث والتز (Kenneth Waltz)، والليبراليون الجدد مثل روبرت كيوهاين (Robert

---

(5) *The Person and the Situation: Perspectives of Social Psychology*, p. 320.

(6) على سبيل المثال، انظر: Kenneth Waltz, *Man, The State and War: A Theoretical Analysis*, Topical Studies in International Relations (New York: Columbia University Press, 1959); J. David Singer, «The Level-of-Analysis Problem in International Relations,» *World Politics*, vol. 14, no. 1 (October 1961), pp. 77-92; Alexander Wendt, «The Agent-Structure Problem in International Relations Theory,» *International Organization*, vol. 41, no. 3 (Summer 1987), pp. 335-370, and Martin Hollis and Steve Smith, *Explaining and Understanding International Relations* (New York: Oxford University Press, 1991).

(Keohane). ومع أننا نجد نظريات موقفية في مجال تحليل السياسة الخارجية، إلا أن معظمها خرج من نظرية التنظيمات (organizational theory) وليس من علم النفس الاجتماعي[7]. وفي مجال الاقتصاد ثمة تمييز شائع بين الاقتصاد الكلي والاقتصاد الجزئي (macro and micro economics) (إذ يشير الثاني إلى اقتصاديات الأعمال أو المؤسسات الفردية ويشير الأول إلى اقتصاد الدولة الكلي). كما أن هناك جدلًا مماثلًا في علم الاجتماع والتاريخ ومجالات أخرى بين من يعتقدون أن الأفراد هم الذين يصنعون الأحداث، ومن يعتقدون أن القوى الموقفية هي صاحبة الأثر الأقوى في صناعة الأحداث.

ومما تجدر ملاحظته أيضًا أن علم النفس السياسي استند إلى الجانب النزوعي من الميدان الأم الذي خرج منه، وهو ميدان علم النفس، إلى حد صارخ. ووفق ملاحظة روز مكديرموت (Rose McDermott)، فإن جانبًا كبيرًا من علم النفس السياسي يعمل على المستوى الفردي من التحليل (the individual level of analysis) - بحسب التعريف التقليدي له كمجال أكاديمي في الأقل - أي إنه نزوعي من حيث إنه يفترض أن الأفراد «عناصر فاعله» وأن سلوكهم يعود إلى فروق في اعتقاداتهم وشخصياتهم[8]، على الرغم من أن كثيرًا من بحوث علم النفس الاجتماعي تتسق مع الموقفية أكثر مما تتسق مع النزوعية. ولم يكن للبحوث التي استقصت دور المواقف الاجتماعية في تكوين السلوك أثر في علم النفس السياسي بمقدار ما كان للفرويدية (نسبة إلى فرويد) وعلم النفس المعرفي (اللذين يدرسان العقل الإنساني وإن كان بطرائق مختلفة). فضلًا عن ذلك، فإن أدبيات علم النفس السياسي لا تعترف بأن بحوث علماء نفس اجتماعي، من مثل ستانلي ملغرام (Stanley Milgram) وفيليب زمباردو (Philip Zimbardo)، بكل ما تحمله من منطويات سياسية عميقة، تبتعد جذريًا عن

---

(7) Graham Allison and Philip Zelikow, *Essence of Decision: Explaining the Cuban Misssile Crisis*, 2nd ed. (New York: Longman, 1999).

الاستثناء الأساس لهذا هو كتاب التفكير الجمعي الذي يبني على التراث الغني لعلم النفس الاجتماعي. وستتناول هذا العمل في الفصل السادس من هذا الكتاب.

(8) Rose McDermott, *Political Psychology and International Relations*, Analytical Perspectives on Politics (Ann Arbor, MI: University of Michigan Press, 2004), p.3.

النزوعية، أي عن الفكرة القائلة إن الخصائص الفردية تؤدي الدور الحاسم في تكوين السلوك. والأسباب القائمة وراء واقع الحال هذا غير واضحة، ولكننا سنفرد نصف هذا الكتاب تقريبًا للنظر في الحجج التي يقدمها كبار الموقفيين لتفسير مظاهر أساسية من مظاهر للسلوك السياسي.

ما هو السلوك السياسي؟

أما وأن هذا الكتاب يتناول السلوك السياسي موضوعًا له فلا بد لنا من أن نوضح المقصود بهذا المصطلح منذ البداية؛ فالسلوك السياسي في تعريفه الواسع يشير إلى أي نشاط يرمي إلى تحقيق غاية سياسية، ويشمل ذلك نطاقًا واسعًا من النشاطات السياسية التي يزاولها البشر، من السلوك المتطرف كالإرهاب والحرب إلى السلوك العادي المألوف كالتصويت في الانتخابات. ويتضمن كذلك صنع القرار - على مستوى الأفراد المصوتين، وعلى مستوى النخبة في الحكومة - وما يتعدى ذلك. وتشمل دراسة السلوك السياسي البحث في أسئلة متنوعة من مثل «لَمَ ينشأ التعصب؟»، «لمَ يشارك البشر في الإبادة الجماعية؟»، «ما الذي يحدد اختيارات الأفراد الانتخابية؟» و«لمَ تذهب الدول إلى الحرب؟» وسترى لاحقًا أن هناك طرائق مختلفة للإجابة عن هذه الأسئلة. إذ إن بعض هذه الطرائق يتبع المنطق الاقتصادي مفترضًا أن البشر مخلوقات عقلانية أساسًا، تزن المرابح والتكاليف للأفعال المختلفة المتاحة لها، وتقرر ما تفعله في ضوء ذلك. في حين أن بعضها الآخر يتبع المنطق الاجتماعي المستوحى من ميدان علم الاجتماع والذي يضع الجماعة (وأهدافها) في بؤرة اهتمامه [ويفسر السلوك السياسي في ضوء اعتبارات اجتماعية]. لذا، فإن علماء النفس السياسي لا يقدمون سوى منظومة واحدة من الإجابات عن مثل هذه الأسئلة، ولكن هذا الكتاب يرمي إلى التحقق من مدى قوة إجاباتهم.

ما الذي يحدد سلوكنا؟

تشير سوزان فسك (Susan Fiske) وشيلي تايلر (Shelley Taylor) (الباحثتان البارزتان في علم النفس الاجتماعي) إلى أن من الصعب عمليًا أن نحدد إذا

كان سلوك شخص ما يعود إلى الموقف الخارجي [الذي يواجهه] أم إلى نزعاته الداخلية [أو الشخصية]. وتقدمان المثال المعبر الآتي: «إذا كانت «بث» شخصًا لئيمًا وعدوانيًا مع الآخرين لأن أختها كانت تضربها وهي صغيرة»، وتتساءلان: «هل السبب في سلوكها الحالي داخلي أم خارجي؟»[9] [أي هل يعود إلى نزعة لؤم وعدوانية لديها، أم إلى الظروف التي مرت بها؟] إن معظم الطلبة المتميزين الذين علمتهم يدركون آخر الأمر، وبعد أن يدرسوا الإطار النظري الذي سنعرضه في هذا الكتاب، أن المرء لن يعدم الحجة إذا رأى أن كل شيء تقريبًا يتحدد موقفيًا في نهاية المطاف. وبعبارة أخرى، إن اعتقاداتنا المعرفية، أو الأطر الذهنية التي نفهم العالم من خلالها، ما هي إلا نتاج خبرة. وكثير من نزعاتنا، إن لم يكن جميع نزعاتنا، إنما تنتج من مواقف عشناها أو مررنا بها. وبالعودة إلى مثال فسك وتايلر، يمكننا اعتبار سلوك «بث» موقفيًا لأن سلوكها الحاضر يعود إلى ظروف واجهتها في الماضي.

من هنا، فإن الموقفية تفترض أن البيئة هي كل شيء وأنها المحدد الرئيس لسلوك البشر. وللدفاع عن النزوعية نقول إن هذه الحجة تستبعد احتمال أن نكون مُعدِّين جينيًا لنسلك بطرائق معينة، ربما نتيجة لآليات التطور التي أتاحت لنا فرصة البقاء كنوع. وإذا كان الحال كذلك، فإننا نكون قد وُلدنا ونحن نحمل في داخلنا نزعات معينة، وتاليًا فإن نزعاتنا هذه هي التي تحدد سلوكنا. وربما يكون من الغباوة أن ننكر الطبيعة الإنسانية، ونتعامل مع الأفراد كأنهم يولدون «صفحات بيضاء فارغة»[10]. وكنوع آخر من الدفاع عن النزوعية، نقول إن الأفراد المختلفين يستجيبون للموقف الخارجي الواحد بطرائق مختلفة، فما هو ذلك الشيء في داخلنا الذي يكوّن هذا الاختلاف في السلوك؟ لكن مؤيدًا للموقفية قد يجيب بأن هؤلاء الأفراد المختلفين تعرضوا في الماضي لمواقف مختلفة، وأن تلك المواقف هي التي كوّنت نزعاتهم المختلفة، واستجاباتهم المختلفة

---

(9) Susan Fiske and Shelley Taylor, *Social Cognition,* Topics in Social Psychology (Reading, MA: Addison-Wesley, 1984), p. 92.

(10) Steven Pinker, *The Blank Slate: The Modern Denial of Human Nature* (New York: Viking Press, 2002).

تاليًا. وهكذا، نستطيع الرجوع إلى الوراء بهذه الطريقة لنتتبع قصة السببية إلى ما لا نهاية، وهو ما يسمى في العلوم الاجتماعية «الرجوع غير المتناهي» (infinite regression)، من حيث إننا نستطيع الاستمرار بالعودة إلى الوراء عبر التاريخ، لتتبع أسباب الأسباب بعيدًا عبر الزمن تتبعًا غير متناهٍ.

وسوف نناقش هذه الإشكالية باستفاضة في الفصل الأخير من هذا الكتاب، ولكننا سنبدأ بنظرة عامة مختصرة لوضع الفصول اللاحقة في إطار مناسب. وبطبيعة الحال، لا بد لأي قصة جيدة من أن تبدأ من نقطة ما، لأسباب عملية بحتة؛ فنحن لا نستطيع أن نستحضر تاريخ البشرية كله لتفسير حادثة معينة. فحرب فيتنام وقعت في جانب منها نتيجة للدروس التي تعلمناها من الحرب العالمية الثانية، على سبيل المثال. والحرب العالمية الثانية وقعت بدورها نتيجة لردود فعل القادة الأوروبيين للحرب العالمية الأولى. والحرب العالمية الأولى وقعت جزئيًا نتيجة لسوء الفهم بين القوى الكبرى في تلك الحقبة، وهكذا دواليك. ويذكرني هذا الموضوع بفيلم كوميدي يدعى «الطائرة (2)» (Airplane 2) يدور حول طائرة مفقودة، فيطلب من راصد جوّي يدعى «جاكوب» أن يقدم تقريرًا موجزًا عن مصير الطائرة. وأصدر إليه رئيسه تعليمات قال فيها: «أريد أن أعرف كل ما حدث حتى الآن بالتفصيل التام». فيقوم جاكوب بإعطاء إجابة غريبة يقول فيها: «في البداية بردت الأرض، ثم ظهرت الديناصورات، ولكنها كانت كبيرة جدًا فماتت، وتعفن كل شيء وتحول إلى بترول واشترى العرب سيارات المرسيدس بنز...» وتابع على هذا المنوال.

هذه إجابة صحيحة على نحو ما - فمجيء الديناصورات واختفاؤها ربما يكونان ذوَي صلة إذا رغب المرء في استكشاف التاريخ السببي الكامل لكل ما حدث حتى نقطة معينة من تاريخ البشرية. أما الفكاهة في إجابة الممثل (جاكوب) فتكمن في أنها تخالف معيارًا اجتماعيًا نتبعه عندما نقدم تفسيرًا لحدث ما؛ إذ إننا نأخذ الكثير من الأشياء كمسلّمات ونقتحم سلسلة الأسباب عند نقطة معينة من دون تفكير في الأسباب البعيدة، آخذين الأسباب المباشرة أو القريبة بالحسبان دون سواها.

وعلى أي حال، هناك «منطقة رمادية» بين مفهوم النزوعية ومفهوم الموقفية. فكما أشرنا في ما سبق، يمكننا تصنيف أي نظرية نزوعية على أنها نظرية موقفية من حيث إن نزعاتنا تتكوّن جزئيًا من خلال المواقف التي نخبرها في خلال حياتنا. غير أن هناك نقطتين هامتين لا بد من الإشارة إليهما هنا: **أولاهما** أننا عندما نصف نظرية ما بالنزوعية فإننا نقصد أن النزعات تؤثر في السلوك كعامل مباشر/ قريب العهد، فعلى سبيل المثال، على الرغم من أن انتماءنا الحزبي أو اتجاهاتنا نحو استخدام القوة العسكرية ربما تكون قد تكوّنت أصلًا بفعل مواقف، فإنها تصبح نزعات دائمة لا تتغير كثيرًا من انتخاب إلى انتخاب أو من حرب إلى حرب. **ثانيًا** - ولعلها النقطة الأكثر أهمية - وهي أن معظم المقاربات النزوعية تفترض أن الأفراد يختلفون في ردود أفعالهم نحو المواقف، فالدروس التي استقاها كولن باول من حرب فيتنام، مثلًا، تختلف عن الدروس التي استقاها سايروس فانس أو جيمي كارتر، لأن الناس كثيرًا ما يكوّنون اتجاهات واعتقادات مختلفة بناء على موقف خارجي واحد بعينه.

وإضافة إلى «المنطقة الرمادية» بين النزوعية والموقفية، هناك أشكال مختلفة من كل منهما، فضمن المدرسة النزوعية، على سبيل المثال، هناك معسكران على الأقل يتفقان على أن نزعاتنا الأساسية (وليس المواقف التي نواجهها) هي التي توجه سلوكنا، إلا أن أحدهما يرى أن كلًا منا يحمل نزعات مختلفة عن الآخر؛ فبعضنا يحمل اعتقاد (س) والآخر يحمل اعتقاد (ص)، وهذه النزعات تقود إلى سلوكيات مختلفة [والإشارة هنا إلى النزعات التي تكوّن الفروق الفردية بيننا. أما المعسكر النزوعي الثاني، بالمقابل، فيأخذنا إلى مستوى أعلى من التجريد ويقول إننا جميعًا كبشر نحمل النزعات المسبقة نفسها [والإشارة هنا إلى النزعات الموروثة العامة لدينا]. ومن أتباع هذا المعسكر مثلًا هانز مورغنثاو (Morgenthau)، الواقعي الكلاسيكي (الذي كان يحمل نظرة سوداء إلى الطبيعة الإنسانية، معتمدًا على إرث هوبز (Hobbes) ومكيافيلي (Machiavelli))، وقد رأى أن استمرار الحروب عبر التاريخ يمكن أن يُعزى إلى الطبيعة الإنسانية (أي إلى نزعات دائمة لدى البشر جميعًا، بكل بساطة).

وبالمثل، ترى المقاربات البيولوجية - السياسية (biopolitical approaches) أننا نولد جميعًا بتركيب جيني يحمل في بنيته نزعات معينة - على الرغم من أن العديد من هذه المقاربات يتصور النزعات الإنسانية على نحو مخالف جذريًا لتصور مورغنثاو وأتباعه. ويعتقد أصحاب هذه الاتجاهات أن عمليات التطور والانتقاء الطبيعي ضمنت وجود نزعات لدينا عند الولادة حتى لا نأتي «كصفحات بيضاء فارغة»، ونكون فريسة للقوى الموقفية تدفعنا في طريقها حيث تشاء. ولأننا ستتعرض في الفصول اللاحقة من هذا الكتاب للمقاربات البيوسياسية سيكون من المفيد أن نوضح للقارئ لمَ نضع هذه المقاربات تحت المظلة النزوعية لا المظلة الموقفية.

وهناك أنواع مختلفة من المقاربات الموقفية كذلك كما سيرى القارئ لاحقًا؛ بعضها يتناول الضغوط المباشرة التى تواجهها الجماعة في مواقف اتخاذ القرار، كما في دراسات ظاهرة التفكير الجمعي (groupthink)، والتي ستتم مناقشتها في الفصل السادس. وبعضها الآخر يتناول الأشكال المباشرة وغير المباشرة من الضغوط الاجتماعية التي تؤثر في السلوك في المواقف التي يتلقى فيها الفرد تعليمات أو أوامر، والتي تظهر في تجارب ملغرام في الطاعة، حيث تعمل هذه الضغوط، إضافة إلى قوى السلطة، وغير ذلك من المعايير الاجتماعية على توجيه سلوك الفرد - وهو ما سنتناوله في الفصل الرابع. وهناك مناح موقفية تتناول التأثيرات الخفية للأدوار الاجتماعية كالتي ظهرت في تجارب فيليب زمباردو في جامعة ستانفورد، حيث عملت الأفكار الشائعة عن السلوك المتوقع اجتماعيًا من حراس السجن والمساجين على التأثير في الأفراد الذين قاموا بهذه الأدوار في تجاربه، وهو ما سنتناوله في الفصل الخامس. وبوجه عام، يمكن أن يشير الموقف إلى السياق الاجتماعي المباشر الذي يتعامل معه الفرد، أو إلى جماعة ينتمي إليها في مجال العمل، أو إلى الجماعات التي تكوّن هوياتنا داخل المجتمع، أو إلى عوامل الشد والجذب في التحالفات التي نطورها تجاه أمتنا ودولتنا. وكما سنرى في الفصل السادس عشر، هناك منظورات موقفية مُغالية في موقفيتها، مثل منظور كينيث والتز الذي رأى أن الدول تستجيب حصريًا وفق الأدوار المرسومة لها في النظام الدولي. وهو بذلك يمثل المنطق «الموقفي المفرط».

ولن تُقام في هذا الكتاب أي محاولة لحل الجدل القائم بين الموقفية والنزوعية حلًا تامًا، حتى فصل الختام في الأقل. والسبب في ذلك يعود جزئيًا إلى هدف الكاتب من وضع كتاب من هذا النوع؛ إذ إن هناك أسلوبان في التدريس من حيث الأساس؛ أسلوب يعرض فيه المدرسون تصورهم عن العالم ويتوقعون من طلبتهم تقبله، بعد أن يُشبع أولئك المدرسون رغبتهم في نسف وجهات نظر الطلبة (في ما لو اجترأوا على البوح بها)، مستخدمين مهارات معدّة مُسبقًا تدربوا عليها وشذبوها كفن رفيع عبر السنين. ولا شك في أن النبرة التي تصبغ العبارات السابقة ستدعوك إلى اعتقاد أن المؤلف سيدعي أنه من النوع الثاني من المدرسين الذى يعرض على طلبته وجهات النظر المتعارضة ويترك لهم حرية الاختيار بينها. وثمة سببان للانحياز إلى الاتجاه الثاني: أولهما يعود إلى أن تدريس السياسة يجب أن يتسم بدرجة من التواضع على الدوام لأنه ليس هناك جواب قاطع للعديد من القضايا في هذا المجال، وكل من يدعي أنه اكتشف «قوانين» السلوك السياسي يجب ألا يؤخذ بجدية. وثانيهما، أن مؤلف هذا الكتاب لا يزال في عمر يستطيع معه أن يتذكر كلا الأسلوبين وأنه وجد الأسلوب الأول منفرًا عندما كان الطرف المتلقي للتعليم (خصوصًا عندما كان يخالف وجهة نظر المدرس بشأن العالم، والتي عادةً ما تكون نظرة غاية في الوضوح ولا تحتمل جدلًا!).

وفي حين أننا قد لا نستطيع حل اللغز الذي يطرحه هذا الكتاب حلًا نهائيًا على الأرجح، فإن واحدًا من أهدافه الرئيسة هو تشجيعك على التفكير بعمق وأنت تقرأ فصوله المتعاقبة عندما يعرض حالة ممثلة لوجهة نظر أو أخرى في تفسير السلوك السياسي. وكما سترى وأنت تقرأ هذا الكتاب، فإن الفصول اللاحقة منظمة حول التوجهين الموقفي والنزوعي، مع أن الفصول الأخيرة قصدت أن تدفعك برفق في هذا الاتجاه أو ذاك - من دون أن ترغمك أبدًا على أخذ أي منهما. وبعد قراءة هذا الكتاب قد تستطيع أن تقرر ما إذا كنت موقفيًا أم نزوعيًا؛ أو أن تتبنى منحًى يدمجهما معًا، بناء على مجال السلوك السياسي الذي تحاول تفسيره ربما. والأمر يعود لك، أو «أنت من يقرر»، كما درجت إحدى وكالات الأخبار البارزة في الولايات المتحدة أن تقول في مثل هذه الحالة.

تنظيم الكتاب

إذا ما أخذنا بالفكرة القائلة إن الأفراد بوصفهم أشخاصًا لهم أهمية في صنع السياسة فعلًا، وإن المواقف لا تحدد استجابات الأفراد لها بالكامل، فإن السؤال المطروح هنا هو «ما مدى - ومتى تبرز - أهمية كل منهما؟» يرى المتأثرون بعلم النفس الاجتماعي أن العوامل الفردية أقل أهمية من الضغوط الاجتماعية وبنية الموقف المحيط. وبالمقابل، فإن أولئك المتأثرين بعلم النفس المعرفي، وبالإرث الأقدم لعلم النفس التحليلي أو السيكوديناميي، يتبنون الحجة المضادة. وبوجه عام، فإن علماء النفس الذين يبحثون في المسائل السياسية يميلون إلى المقاربة الأولى، أما علماء السياسة فإنهم يبنون على النظريات النفسية التي تميل إلى المقاربة الثانية.

والتمييز الأساس بين العوامل الفردية والعوامل الموقفية الذي نعتمده هنا، يضع لنا الأساس التنظيمي لهذا الكتاب. إذ إننا سنقوم في الباب الأول بفحص مناح متنوعة من المقاربات القائمة على علم النفس الاجتماعي والتي تؤكد أهمية الموقف قياسًا بدور الأفراد وخصائصهم في توجيه السلوك. وسنبدأ بالتحليل الموقفي الأكبر المتمثل بالسلوكية (behaviourism). فقد كان لهذه المقاربة تأثير خاص في علم النفس السياسي في خلال الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي، عندما انتقلت بؤرة الاهتمام في كل من علم النفس وعلم السياسة، بتأثير المد السلوكي، بعيدًا عن دراسة العقل واتجهت إلى التركيز على المفهوم «الأصلح علميًا» وهو مفهوم السلوك. ولدى البحث في أفكار ب. ف. سكنر (B. F. Skinner) في الفصل الثالث سنبحث وجهة نظره القائلة إن الدول تحسن صنعًا إذا عملت على إشراط مواطنيها [أي تعلمهم بالثواب والعقاب] على الأخذ بالسلوك «المرغوب فيه اجتماعيًا» وتجعلهم أفضل حالًا.

أما الفصل الرابع فيتناول موضوع الطاعة وتجارب ستانلي ملغرام في هذا الموضوع، ولعلها أبرع ما أُجري من تجارب في علم النفس (وإن كان بعضهم يصفها بالتجارب السيئة الصيت). وقد كان لأعمال ملغرام هذه تأثير كبير في فهمنا للطاعة (obedience) السياسية في إطار البنى التراتبية للسلطة. ولكن علينا

أن نلاحظ أن نتائج تجارب ملغرام تبعث على القلق لأنها توحي أن معظمنا - وليس جميعنا - قادر على ارتكاب أفعال تخالف معتقداته الأخلاقية، حين يتم تشجيع هذه الأفعال من سلطة يراها سلطة شرعية. وسنحاول في الفصل الرابع أيضًا أن نفسر، ولو بصورة أولية، ظاهرة الإبادة الجماعية، مع تركيز خاص، وليس حصريًا، على المحرقة النازية في الثلاثينيات. وفي الفصل اللاحق سنضع تحت المجهر تجربة مناظرة - في البراعة والإثارة - لتجربة ملغرام هي تجربة فيليب زمباردو، أو تجربة ستانفورد الشهيرة التي درس فيها سلوك «السجناء» و«السجانين»، وسيكون التركيز هنا على متطلبات الموقف، وكيف أن الأدوار المحددة اجتماعيًا يمكن أن تكوّن سلوكنا. كما سيتم البناء على تجربة زمباردو في الفصل الخامس لإلقاء الضوء على فضيحة «أبو غريب».

أما الفصل السادس، وهو الفصل الأخير من هذا الباب فيبحث في سلوك الجماعة (group behavior)، ويتناول بوجه خاص أعمال إيرفنغ جانيس (Irving Janis) عن كيفية تغير سلوك الفرد استجابة لضغوط الجماعة. ويزعم جانيس في كتابه الشهير التفكير الجمعي (*groupthink*) أن الضغوط الاجتماعية المختلفة التي يتعرض لها الفرد في جماعات صنع القرار قد تُكبِّل أذكى الأذكياء. ويضيف جانيس أن هذا الأمر قد يؤدي إلى نتائج كارثية يكون بالإمكان تجنبها لو أن أفرادًا عملوا على المهمات الموكولة إلى الجماعة على انفراد وأنعموا النظر في البُدَلاء العديدة المتاحة[11]. وسنكرس هنا انتباهًا خاصًا لاثنتين من دراسات الحالة (Case studies) رأى جانيس أنهما توضحان ظاهرة التفكير الجمعي على أفضل وجه، وهما حملة خليج الخنازير عام 1961، وقرار «أمركة» الحرب في فيتنام. كما نتناول في هذا السياق النقد الذي يوجه إلى مقاربة جانيس هذه، والمنظورات الأكثر حداثة التي تحلل عملية صنع القرار الجماعي.

أما الباب الثاني، وهو الباب المخصص لوجهة النظر النزوعية، فيبحث في النظريات النفسية القائمة على أساس فردي. ولا بد من القول هنا إن وجهة

---

(11) Irving Janis, *Groupthink: Psychological Studies of Policy Decisions and Fiascoes*, 2nd ed. (Boston, MA: Houghton Mifflin, 1982).

النظر هذه كان لها ولا يزال تأثير أكبر في علم النفس السياسي من وجهة النظر الأولى [أي وجهة النظر الموقفية]، سواء أكان هذا التأثير مبررًا أم غير مبرر. وربما يعود ذلك إلى أنها تضع الفرد في موقع أكثر أهمية من الموقع الذي تضعه فيه المقاربات الأخرى التي ناقشناها حتى الآن.

وكما سنرى في الفصل السابع كان للمقاربات القائمة على التحليل النفسي تأثير مبكر في تطور علم النفس السياسي بوصفه حقلًا علميًا قائمًا بذاته. فقد تركت أعمال سيغموند فرويد وأتباعه بصمة قوية على هذا الحقل في بداية تشكله، ويعود ذلك جزئيًا إلى أن علم النفس السياسي تأسس في زمن كانت فيه النظريات السيكودينامية (التي تركز على الدوافع المحركة للسلوك) في أوج شعبيتها. وكان من الطبيعي حينئذٍ أن تأخذ الشخصيات المؤثرة في حقل علم النفس السياسي - ومن أبرزها تشارلز ميريام (Charles Merriam) وهارولد لاسويل (Harold Lasswell) - بالمقاربات الفرويدية الطابع وتدخلها في دراسة السياسة.

وقد أنتجت الصبغة التحليلية - النفسية التي طبعت العلوم السياسية إذاك تراثًا كاملًا يعرف بالسيرة النفسية (Psychobiography) أو التاريخ النفسي (Psychohistory). هذا، ولا نزال نشعر بتأثيرات التحليل النفسي في علم النفس السياسي حتى الآن. ويعتبر كتاب ودرو ولسون والكولونيل هاوس لمؤلفيْه ألكسندر جورج وجولييت جورج (Alexander George And Juliette George)، وكتاب ليندون جونسون والحلم الأميركي لمؤلفته دوريس كيرنز غودوين (Doris Kearns Goodwin) عملين نموذجيين في هذا الفرع من فروع علم النفس السياسي. ويؤكد نموذج السِيَر النفسية أن خبرات الطفولة تؤدي دورًا حاسمًا في تطور الشخصية مستقبلًا وفي أدائها السياسي[12]. فقد ذهب جورج وجورج - مثلًا - متأثرين بأستاذهم في جامعة شيكاغو، هارولد لاسويل (الذي رأى أن السلوك السياسي ينطوي جزئيًا على عملية إحلال (displacement) للصراعات الخاصة أو الشخصية على الحياة العامة)، ذهبا إلى القول إن تصلب ودرو ولسون في قضايا

(12) Alexander L. George and Juliette L. George, *Woodrow Wilson and Colonel House: A Personality Study* (New York: Dover Publications, 1956), and Doris Kearns Goodwin, *Lyndon Johnson and the American Dream* (New York: Harper and Row, 1976).

هامة كموقفه من إقرار معاهدة عصبة الأمم، إنما يمثل تعويضًا للميل المفترض لدى والده، الدكتور جوزيف ولسون، إلى حرمان ابنه الدفء والمكافآت العاطفية. وسنبحث في الفصل السابع هذا أعمالًا كلاسيكية من السير النفسية، وغيرها مما هو أكثر إثارة للجدل، وإن كان أكثر حداثة من غيره من الإسهامات في هذا التراث.

إن مصطلح «الشخصية» مصطلح محيِّر جرى استخدامه في أدب العلوم السياسية بطرق مختلفة، وهو يُستخدم أحيانًا كمصطلح يختصر جميع الخصائص الشخصية للفرد بما في ذلك ما يحمله من اعتقادات. ومما له صله بهذا المجال كتاب جيمس دايفد باربر (James David Barber) **الشخصية الرئاسية**. وعلى الرغم من كل ما تعرضت له هذه الدراسة من نقد، تظل مثيرة للتفكير في الشخصية الرئاسية. والكتاب عمل رائد في مجال السِيَر النفسية المقارن، وكان له من التأثير ما يجعل خلو أي كتاب في علم النفس السياسي من الإشارة إليه صعب التصور[13]. وسيجري بحث هذا العمل المقارن للسير النفسية مع غيره من نظريات الشخصية في الفصل الثامن، آخذين في الاعتبار نقاط القوة ونقاط الضعف في هذا النوع من التحليل. ومع مرور الوقت أخذت مناحٍ جديدة تحتل بؤرة الاهتمام - بدل المفاهيم الفضفاضة من مثل مفهوم الشخصية - تقوم على دراسة اعتقادات القادة، وأبرزها ما يعرف بـ «تحليل عقيدة صانع القرار» (operational code analysis)، وهو ما تمت تغطيته في الفصل الثامن أيضًا.

أما الفصل التاسع، فيتناول ما يسمى «الثورة المعرفية» لفترة الثمانينيات والتسعينيات، وهي الحركة التي عمدت إلى طمس آثار المقاربات الفرويدية الطابع وإن ظلت تحافظ على منطلق نزوعي في الأساس، ونقلت بؤرة الاهتمام إلى البنى المعرفية القائمة في الذاكرة الإنسانية وكيفية تأثيرها في تكوين السلوك، حيث ينظر إلى السكيمات [أو المخططات المعرفية الأولية] (schemas) والنصوص/ السيناريوهات (scripts)، والمماثَلات/ التشبيهات (analogies) وغيرها

(13) James David Barber, *The Presidential Character: Predicting Performance in the White House* (Englewood Cliffs, NJ: Prentice-Hall, 1985).

كـ «لبنات البناء» المكونة للعقل الإنساني، والتي تؤثر بدورها تأثيرًا جذريًا في كيفية معالجتنا للمعلومات. وانطلاقًا من هذا المنظور تنامى اعتقاد أن البشر «بخلاء معرفيًا» (cognitive misers) يستخدمون طرائق مختصرة، وموجهات ذهنية [أو قواعد مبنية على الخبرة العملية] (heuristics) حين يتخذون القرارات، على الرغم من أن هذا الاقتصاد المعرفي قد يكون ضروريًا في عالم نتعرض فيه لوابل متواصل من المعلومات، هو يعرّض تفكيرنا لأشكال متعددة من المخاطر.

ولا بد من ملاحظة أن البشر لا يتلقون المعلومات بسلبية، ولا يقومون بمعالجتها بحيادية، أو يُجرون العمليات الذهنية بتجرد، وهو ما يصطلح على تسميته بالعمليات المعرفية «الباردة»، إذ إنهم يتأثرون أيضًا بعمليات «ساخنة» كالغضب، والحب، والحزن، وما إلى ذلك. لكن الحماس الزائد لدى علماء النفس السياسي للتركيز على المظاهر المعرفية الباردة، وخصوصًا لدى الذين عملوا في مجال سلوك النخبة وسلوك الجمهور في خلال الثمانينيات والتسعينيات، قاد لاحقًا إلى تركيز تعويضي على العاطفة والانفعالات، وهذا ما سيتم تناوله في الفصل العاشر. وعلى الرغم من المشكلات الكثيرة التي تكتنف دراسة الانفعال دراسة دقيقة، فإننا سنبحث في الفصل الحادي عشر إحدى الطرائق التي تمثّل (ربما) خطوة إلى الأمام في هذا المجال مع نظرة عامة إلى بعض التطورات الحديثة جدًا والمثيرة للاهتمام في دراسة علم الأعصاب (neuroscience). إذ يبدو أن هذه الدراسة تعِد بتطورات على صعيد المقاربات النظرية ذات الصلة بالسياسة، إضافة إلى أنها تعِد بتطوير طرائق جديدة لفحص الفرضيات - القديم منها والجديد. فنحن نشهد الآن تطورًا في علم النفس السياسي يمكن أن نسميه «علم الأعصاب السياسي» (political neuroscience) تُستخدم فيه تكنيكات متقدمة من مثل التصوير الوظيفي بالرنين المغناطيسي (functional magnetic resonance imaging) (FMRI). وقد دخلت تكنيكات التصوير المتقدمة هذه في دراسة سلوك التصويت، على سبيل المثال، لفحص الانفعالات التي يستشعرها المقترعون عندما ينظرون إلى مثيرات سياسية (Political Stimuli) كالدعايات الانتخابية.

أما الباب الثالث والأخير، والذي يشمل الفصول من 12 إلى 17، فهو أكثر إمبيريقية [من حيث إنه يتناول ظواهر خضعت للدراسة العلمية القائمة على الأدلة الملاحَظة]. وسنحاول فيه جمع الموقفية والنزوعية معًا، ولو بصورة أولية، ثم نقوم باستخدام هذه الوسيلة المفهومية لتصنيف النظريات التي حاولت تفسير الظواهر المدروسة. فالفصل الخامس عشر مثلًا يسأل إذا كان بالإمكان اعتبار مرتكبي الأعمال الإرهابية أفرادًا «أسوياء» نفسيًا؟ من حيث إن كثيرين يفترضون أن الإرهابيين لا بد من أن يكونوا غير أسوياء، على نحو ما، أو حتى مختلين عقليًا. ولكن البحوث الحديثة عن سيكولوجية السلوك الإرهابي التى أجراها جون هورغان، وأندرو سيلك (John Horgan and Andrew Silke) وآخرون، أسقطت هذه النظرية الشائعة من الاعتبار إلى حد بعيد. كما أن محاولات اكتشاف «الشخصية الإرهابية» أو (وسم جميع الإرهابيين بسمات غير سوية كالنرجسية) قد باءت جميعها بالفشل. لذا، فإنه لم يبق لنا سوى الاستنتاج الذي خرج به ملغرام لتفسير الإبادة الجماعية، وهو أن الناس العاديين يمكن أن يرتكبوا أفعال عنف متطرفة في ظروف معينة. والفصل الخامس عشر يتناول البحوث التي تردّ الإرهاب إلى قوى موقفية وخصوصًا ما يتصل منها بآليات سلوك الجماعة. كما أننا سنفحص في الباب الثالث نظريات القومية والصراع العرقي، والعنصرية وعدم التسامح السياسي، وسلوك الانتخاب، والأمن الدولي، ونسأل في كل حالة عما إذا كانت المقاربة الموقفية تقدم التفسير الأفضل للسلوك موضوع البحث أم المقاربة النزوعية. وأخيرًا، نختتم نقاشنا في الفصل السابع عشر باقتراح طرائق نستطيع بها دمج الموقفية والنزوعية معًا، ومناقشة الاستنتاجات المحتملة التي يمكن الخروج بها.

قوة الموقف

ربما سيكون من الصعب عليك أن تتخيل ما سندعوك إلى تخيله، لكن حاول، ففي ذلك اختبار لقدرتك على التخيل من جهة، وقدرتك على التعاطف من جهة أخرى. تخيل أنك شاب ألماني ترعرع في فترة الثلاثينيات ورأى طوال حياته صورًا تُظهر اليهود على أنهم جشعون، وفاسقون، وأنانيون، وبشكل كان

يبدو لك مقنعًا. نشأت وأنت تضحك على أفلام كرتون تصور اليهود بشعين، بُدنًا، ومعقوفي الأنوف، ورأيت رفاقك في المدرسة يضحكون على أشياء من هذا القبيل. إضافة إلى ذلك جرت تنشئتك اجتماعيًا لتشعر بالنفور من اليهود، وكبقية أصدقائك تنظر إلى اليهود بوصفهم أشخاصًا قذرين، وضيعين، وحتى أدنى من البشر. وهم لا يطابقون صورة «الألماني النموذجي» ولا يشبهون في شيء الصورة النمطية للأشقر، المفتول العضلات التي تعلمت أن تحملها في ذهنك للشخص الآري النموذجي. ثم تلتحق بالشبيبة الهتلرية لأنه ينبغي لك ذلك، من ناحية، ولأنك تتعاطف مع الموقف أو الوضع الوطني المحيط بك من ناحية أخرى. وبعد هذا وذاك ليس أمامك وجهة نظر أخرى، فالجميع يفكرون بالطريقة ذاتها، أو هكذا يبدو.

غير أنك ربما لا تكون مقتنعًا في قرارة نفسك بتلك المحاولات المهينة لتجريد البشر من إنسانيتهم. وربما لا يكون لديك اهتمام خاص باليهود أو قد يكون لديك بعض الجيران والأصدقاء منهم. صحيح أنهم يمارسون شعائر دينية مختلفة ويتبعون تقاليد مختلفة، ويرتدي بعضهم ملابس غريبة الشكل تعطيهم مظهرًا مختلفًا عن مظهرك، ولكنك لا تجد ذلك شيئًا مستهجنًا. وربما أنتَ لم تولِ ممارساتهم الثقافية المختلفة هذه كثيرًا من التفكير. وفي الوقت ذاته أنت ترى نفسك شخصًا حميد الأخلاق، يحمل قيمًا دينية حقة، وتقول لنفسك لا شيء يمكن أن يقودك إلى إيذاء غيرك من البشر ما لم يكن ذلك ضروريًا للدفاع عن النفس.

ثم تنشب الحرب العالمية الثانية، ويتم تجنيدك في الجيش الألماني، ويتبيّن لك أنك لن تذهب إلى الجبهة الروسية، فتشعر بكثير من الارتياح. وعوضًا من ذلك تُكلف جمعَ الأسرى اليهود وعائلاتهم في قطارات والإشراف عليهم. أما القطار الذي تتولى أمر الإشراف عليه اليوم فهو قطار متجه إلى منطقة تدعى داتخاو (Dachau)، وأثناء تأديتك لهذه المهمة ترى العديد من اليهود يبكون وهم يقادون إلى القطارات - غالبيتهم من النساء والأطفال - ولكنك ترى بعض الرجال يبكون كذلك، وترى أمهات ينادين أطفالهن، وأزواجًا ينادون زوجاتهم. يضايقك هذا الأمر في البداية، ولكنك تشعر بالضجر ونفاذ الصبر بعد حين،

ويداخلك شعور كأنك منفصل عن نفسك. ولكن لديك عمل يجب أن تؤديه، ومع أنك تعرف أن هؤلاء الناس يساقون إلى حتفهم لكنك لست من يقتلهم. أنت مجرد سن في عجلة، جزء صغير من عملية كبيرة خارجة عن سيطرتك. لا ينتابك الإحساس بالمسؤولية، مع أن العمل الذي تقوم به عمل بغيض. لديك قائمة من الأسماء ومهمتك أن تنفذ عملية نقلهم، وتضبط سير القطارات في الوقت المحدد. لم يساورك عصيان الأوامر الموجهة إليكٍ في أي حال، ففي نهاية الأمر أنت جندي تدرّب على تنفيذ التعليمات التي يكلّفك بها الرؤساء.

ربما يكون تخيل السيناريو التالي أسهل قليلًا من سابقه، فأنت أميركي تعيش في نيويورك بعد الحرب العالمية الثانية بعشرين سنة، تشاهد حلقة معادة من برنامج «Tonight's Show» لجوني كارسون ثم تسمع صوت امرأة تصرخ في الشارع فجأة، فنيويورك مدينة مجنونة، إلا أن شيئًا ما في صرخات هذه المرأة يبدو حقيقيًا جدًا (لا هذاءً)، يائسًا، كما يبدو صادقًا، الأمر الذي يستثير فضولك إلى حد كبير فتترك التلفزيون وتنظر من نافذة شقتك إلى الخارج فتشاهد امرأة تتعرض لهجوم، يطاردها شخص يبدو مخبولًا، يمسك بها ويطعنها بسكين مرارًا فتسقط على الأرض. لا تصدق ما ترى، ولكنك تلاحظ أن هناك أشخاصًا آخرين يشاهدون ما يجري، بعضهم يقف على سلّم الحريق في الخارج، والعديد منهم يخرجون رؤوسهم من الشبابيك ويتابعون المشهد. لديك هاتف في شقتك فهل تطلب الشرطة؟ تفكر في الأمر قليلًا، ولكن ما يدهشك، ربما أنت قبل أي شخص آخر، أن تجد نفسك عائدًا لمتابعة البرنامج التلفزيوني. فهناك في نهاية الأمر أناس آخرون شاهدوا ما حدث، ولا بد أن أحدًا منهم قد اتصل بالشرطة. تشعر بالاضطراب لما حدث، ولكنك في الحقيقة لا تقوم بفعل شيء. وتجد صعوبة في الخلود إلى النوم تلك الليلة، ولكنك تقنع نفسك أن شخصًا ما لا بد من أن يكون قد مد يد المساعدة إلى تلك المرأة التعسة.

أما الحدث الثالث فيجري في أواسط الثمانينيات، وأنت تعمل في شركة مورتون - ثيوكول (Morton-Thiokol) خبيرًا في ما يدعى «حلقات O» وهي الأجزاء التي تربط المكوك بالصاروخ الذي يدفعه في الفضاء، وشركتك تعمل مع وكالة الفضاء الأميركية (NASA) مقاولًا فرعيًا على درجة كبيرة من الأهمية.

وكان مقررًا أن يجري إطلاق مكوك الفضاء من كيب كانافرال في غضون شهر أو شهرين، وتشعر بكثير من القلق حيال ذلك، لأن المناخ في فلوريدا بارد بشكل غير مألوف في هذا الوقت من السنة، وأنت خبير في «حلقات O» على دراية أن هذه الحلقات لم تُختبر في درجات حرارة من المستوى الذي .قد يُواجهه المكوك عند الانطلاق. وتُتذكر الحسابات أن حلقات الوصل تلك لن تثبت طوال الرحلة في الفضاء. وتستلقي في فراشك يقظًا في خلال الليل تتصور وقوع كارثة إذا جرى إطلاق المكوك في هذه الدرجة من الحرارة. وتجمع شجاعتك أخيرًا لتخبر رئيسك بما يساورك من قلق ولكنه يخيب ظنك، ولا يأبه لما تقول، ويرى أن قلقك البالغ بشأن «حلقات O» يعود إلى كونها مجال عملك لا غير، ويحثك على عدم الاهتمام الزائد بها ويقول «انظر إلى الصورة الكلية للمهمة». وتحاول تحذير زملاء آخرين، لكن معظمهم يرد على تحذيراتك على غرار رد الرئيس، قائلين إن البيانات العلمية عن درجات الحرارة غير حاسمة، حتى إن أحدهم يقارنك باستخفاف بالشخصية الطفولية الخيالية «الدجاجة الصغيرة» (Chicken Little) لا تنفك عن الصراخ محذرة بأن «السماء ستسقط».

ثم يجري تأجيل إطلاق المكوك مرات متتالية في خلال الأسابيع القليلة القادمة، ويتزايد الشعور بالإحباط لدى ناسا ولدى الشركة التي تعمل بها أنت. ويأتي اليوم المشؤوم إذ يبدو أن قرار الإطلاق غدا وشيكًا، فيجري عقد مؤتمر تشاوري على الهاتف بين مسؤولي مورتون - ثيوكول وناسا. وكانت ناسا حريصة على المضي قدمًا في إطلاق المكوك وكذلك كان حال الغالبية العظمى من مسؤولي الشركة الجالسين حول طاولة المؤتمر. لكنك تظل تشعر بقلق شديد بشأن «حلقات O» وإمكان وقوع كارثة. ويسأل رئيس الاجتماع الحضور، هل نسير قدمًا في عملية الإطلاق؟ ويجيبون واحدًا تلو الآخر بالإيجاب. ويسأل رئيس الاجتماع «هل يشعر أحد من الحاضرين بأن علينا تأجيل إطلاق المكوك»؟ الجميع في الشركة يعلم علم اليقين أن لديك تحفظات شديدة بهذا الشأن، فتستدير جميع العيون نحوك بخشية ونفاد صبر. ولكن شيئًا مفاجئًا يجري في داخلك ولا تنطق ببنت شفة، فلا تثير قضية «حلقات O»، مع أن الجميع يتوقع منك أن تعزف عليها مرة أخرى، وتبقى صامتًا. وبهذا الصمت

تكون قد أعطيت الموافقة على أمر تشعر بأنه خطأ، غير أن مزيجًا من العوامل يمنعك من أن تصرح بما تفكر به فيه حقيقة الأمر.

ويجري إطلاق المكوك أخيرًا من مركز كينيدي للفضاء وسط فلوريدا، وينظر مشاهدو التلفزيون في الولايات المتحدة وفي أنحاء العالم بذهول ورعب إلى المكوك وهو يتحول إلى شظايا في السماء. أما فريق المكوك المؤلف من سبعة رواد فلم يقتل على الفور، لكنهم كانوا فاقدي الوعي على الأرجح عندما ارتطم ما تبقى من المكوك بالمحيط الأطلسي. كان يومًا عصيبًا لكثير من الناس داخل الولايات المتحدة وفي أنحاء العالم، لكن قلة من صنّاع القرار في ناسا ومورتون - ثيوكول انتابهم ما انتابك من مشاعر عندما وجدت لجنة لاحقة أن سبب الانفجار يعود إلى تفكك إحدى «حلقات O» في صاروخ الدفع الأيمن من المكوك، وهي النكبة بعينها التي تنبأت بها وحاولت تحذير زملائك من وقوعها. لقد كنت على صواب طوال الوقت، فلماذا لم تنطق بكلمة حين أتيحت لك الفرصة؟ ربما كان بمقدورك أن تجبر مسؤولي ناسا على الانتظار ريثما ترتفع درجات الحرارة في كيب كانافرال، أو ربما كان هناك شيء ما باستطاعتك أن تفعله، غير أنك في ذلك الاجتماع الحرج لم تقل شيئًا.

أما السيناريو الرابع فيدعوك إلى تخيل أنك شاب أميركي من مدينة ديربورن بولاية ميشيغن بعد أيام قليلة من هجمات 11 أيلول/ سبتمبر، 2001، وكنت قد شاهدت الأحداث المروعة التى وقعت في ذلك اليوم على التلفزيون وشعرت بالعجز والغضب كالعديد من الأميركيين. ولكن ذلك الحدث أثار لديك رغبة في أن تخدم وطنك للدفاع عنه ضد أولئك الحيوانات الذين ذبحوا آلاف الأبرياء في ذلك اليوم. وتود أن تفهم ما الذي دفع أولئك الإرهابيين إلى مهاجمة مركز التجارة العالمي والبنتاغون، غير أنِ الحاجة الملحة لديك الآن هي ضمان عدم تكرار ما حدث مرة ثانية، تريد أن تفعل شيئًا حيال ذلك. فتقوم في اليوم التالي بالالتحاق بالجيش، وفي خلال بضعة أشهر يتم إبلاغك النقل للخدمة في خليج غوانتامو. وبعد سنة من ذلك، تطير إلى العراق ضمن قوة الغزو الأميركية الموجودة هناك. فتتصور نفسك في الطريق إلى هناك على الخط الأمامي لمعركة مصير، تحرر فيها الشعب العراقي من الطاغية، السيِّىء

الذكر. ولم ينقض وقت طويل على وصولك حتى أوكلت إليك مهمة مملة لم تتدرب عليها من قبل، ألا وهي حراسة مشتبه فيهم جرى إلقاء القبض عليهم في الحرب ضد القوات الأميركية. ويجري إبلاغك أن هؤلاء يجب ألا يعطوا الحقوق التقليدية للسجناء المنصوص عليها في معاهدات جنيف التي وقّعت عليها الولايات المتحدة عام 1949. كما أن معاملة هؤلاء السجناء يجب ألا تتحدد بمعاهدة الأمم المتحدة ضد التعذيب التي وقّعت الولايات المتحدة عليها كذلك. وللصدق عليك الاعتراف بأنك لا تعرف على وجه التحديد ما هي الحقوق التي ضمنتها هاتان المعاهدتان للسجناء. وللإنصاف علينا أن نؤكد أن هؤلاء الناس أنفسهم لا يحترمون معاهدات جنيف، وهم من النوع الذي يقطع رؤوس سجنائنا ويبث صورهم على الإنترنت، فما الحقوق التي يستحقونها؟ لقد أبلغوك أن هؤلاء الناس هم من القاعدة، حثالة الأرض.

صدرت إليك تعليمات بتطويع هؤلاء «المقاتلين غير الشرعيين» وإخضاعهم لأشكال من التعذيب تحت إشرافك، كحرمان النوم، والسجن الانفرادي، والإذلال الجنسي، والتجريد من الملابس، والتقييد بالسلاسل، والتعرض لموسيقى روك صاخبة، واستخدام الكلاب الشرسة للترويع. وبعد أن تتلقى هذه التعليمات ينتابك تدريجًا شعور بأنك تجتاز حدًا ما؛ فقد بدأتَ هذه المهمة وأنت تشعر بأن ما تقوم به هو عين الصواب، جئت لتحمي بلدك من 11/ 9 أخرى. وعوضًا عن ذلك أخذ يغالبك شعور بأن ما تقوم به ليس في شيء مما يجب على القوات الأميركية القيام به. هناك عائلات بكاملها في «أبو غريب» - نساءً وأطفالًا - لا يملك العديد منهم أي معلومات استخبارية يمكن أن يفيدوك بها. فتجد نفسك في النهاية تأخذ صورًا لسجناء عراة، على رؤوسهم أكياس ورق، تعرضهم لجلسات تعذيب ساخرة ثم ترسلهم إلى جلسات، تكتشف لاحقًا، أنها جلسات تعذيب حقيقية يقوم بها خبراء مختصون من الاستخبارات. وتسأل نفسك: ما الذي أوصلنا إلى هنا؟ هل هذا ما تعمل الولايات المتحدة من أجله؟ هل هذا ما تعمل أنت شخصيًا من أجله؟

لا بد أنك تعلم، أو تكون قد خمنت أن السيناريوهات السابقة جميعًا تمثل أحداثًا حقيقية وليس فيها حدث واحد من ضرب الخيال. فالمثال الأول

منها، وهو مثال الألماني الذي تجرد من إنسانيته إزاء محنة اليهود، مأخوذ في نطاقه العام من تفسير كريستوفر براوننغ (Christopher browning) للهولوكوست/ المحرقة في كتابه **رجال عاديون**، والذي يزعم فيه أن التصوير النمطي لليهود، وتجريدهم من إنسانياتهم، وتصويرهم كشياطين يسّر أعمال القتل الجماعي التي ارتكبتها الشرطة الألمانية، وساعد في جعل «رجال عاديين» يرتكبون فظائع لا تخطر على بال. كذلك فإن هذا المثال مبني على كتاب دانيال غولدهاغن (Daniel Goldhagen) **جلادو هتلر الطوعيون** المثير للجدل الذي يزعم فيه أن العداء الثقافي الواسع للسامية كان موجودًا في ألمانيا لسنين أو حتى لقرون قبل الهولوكوست[14]. أما المثال الثاني الذي يصور ألمانيًا لامباليًا يطيع السلطة بهدوء، فهي مبنية على تفسير حنة أرندت لسلوك الموظف النازي أدولف آيخمان في كتابها **آيخمان في القدس**، ومبنية أيضًا على فيلم عن الموضوع نفسه بعنوان «المتخصص». وأخيرًا، فإن هذه الصور مبنية أكثر من أي شيء آخر على بحوث عالم النفس الاجتماعي الراحل ستانلي ملغرام[15]، وهو الذي قام بوصفه أستاذًا مساعدًا في علم النفس عام 1961 بتجربة بارعة، ناقشها في الفصل الرابع، وهي التجربة التى صنعت لصاحبها مكانة مهنية مرموقة، وأحاطته في الوقت ذاته بنقد ظل ملازمًا له بقية حياته.

أما الهجوم على الشابة في نيويورك، والمفترض أن يكون حادثًا متخيلًا

---

(14) Christopher Browning, *Ordinary Men: Reserve Police Battalion 101 and the Final Solution in Poland* (New York: Harper Collins, 1992), pp. 161-162 esp, and Daniel John Goldhagen, *Hitler's Willing Executioners: Ordinary Germans and the Holocaust* (New York: Alfred Knopf, 1996).

يؤكد غولدهاغن، على نحو أكثر راديكالية وإثارة للجدل، من براوننغ أن القتلة في الحقيقة كانوا ساديين متحمسين. انظر: Zimbardo, *The Lucifer Effect: Understanding How Good People Turn Evil*, pp. 307-311.

(15) Hannah Arendt, *Eichmann in Jerusalem: A Report on the Banality of Evil* (New York: Viking Press, 1963), and Stanley Milgram, *Obedience to Authority: An Experimental View* (New York: Harper and Row, 1974).

يتّفق براوننغ على أن التجزيء البيروقراطي للعمل المطلوب لتنفيذ خطة القتل في المعسكرات النازية أدى دورًا في تسهيل تلك المهمة على الذين ساهموا فيها. فعندما كان يتمّ النفي «تريبلينكا» لم يكن يجري القتل على يد أشخاص آخرين غير الذين أجلوا المعسكرات وأرغموا اليهود على ركوب قطارات الموت فحسب، بل بعيدًا من أعينهم كذلك. انظر أيضًا: Browning, *Ordinary Men: Reserve Police Battalion 101 and the Final Solution in Poland*, p. 163.

أحجم مشاهدوه عن القيام بأي فعل من شأنه أن ينقذ المرأة، فهو حادث حقيقي تمامًا، يمثل جريمة القتل الشنيعة التي تعرضت لها كيتي جينوفيز (Kitty Genovese) عام 1964. وقد ألهم هذا الحادث علماء النفس الاجتماعي في ما بعد لإجراء فيض من البحوث حول الظروف التى تدفع الفرد لتقديم المساعدة لمن يتعرضون أمامه للخطر أو لأي ضائقة، أو تدفعه للاحجام عن ذلك. وأما المعارض [الذي خالف رأي الأغلبية] ولم يتابع معارضته في قضية مكوك الفضاء - وهي كارثة تشالنجر التي وقعت عام 1986 - ذلك هو روجر بويزجولي (Roger Boisjoly)، الموظف التقني في شركة مورتون - ثيوكول حينئذٍ، والذي أمضى حياته بعد ذلك يحث الناس على عدم الخضوع للضغوط الاجتماعية ومتطلبات السلطة. وأما فضيحة «أبو غريب»، وكما يعلم الجميع، فهي واقعية بالتمام والكمال، وتقوم التفسيرات الواردة أعلاه لجذور تلك الفضيحة على كتاب فيليب زمباردو (Philip Zimbardo) **تأثير الشيطان** (*The Lucifer Effect*) وتجاربه الشهيرة في جامعة ستانفورد عام 1971. كما تعتمد تفسيرات هذه الفضيحة أيضًا على الفيلم الوثائقي الرائع «أشباح أبو غريب» لروري كينيدي[16].

وعلى الرغم من أن جميع هذه السيناريوهات حقيقية، فإن القليلين يتوقعون من أنفسهم أن يقوموا فعلًا بما طُلب منك تخيله. فنحن نرغب أن نكون من أولئك الناس الذين يؤوون اليهود أو أي فئة أخرى [في تلك الظروف] في بيتنا، ونرفض أن تكون لنا يد في ترحيل أناس أبرياء (ناهيك بإعدامهم). ونحن نرغب أن نكون من أولئك الذين يستدعون الشرطة لدى سماع أي إشارة خطر تحيق بمخلوق خارج مساكننا، وبأننا سنقوم بإبلاغ مسؤولي ناسا بشكل قاطع أن المهمة المزمع تنفيذها تتجه نحو الكارثة، ونرفض تحت أي ظرف من الظروف إذلال أو تعذيب أحد من الناس. غير أن هناك قدرًا كبيرًا من البحوث في علم النفس الاجتماعي توحي أن الغالبية العظمى من الناس لن يستجيبوا في ظروف الحياة الواقعية كالتي أشرنا إليها أعلاه على نحو «أخلاقي». فقد كانت واحدة من أبرز النتائج التي توصل إليها ملغرام هي أن معظم الناس، على الرغم من استنكارهم

---

(16) «Ghosts of Abu Ghraib», (Director Roykennedy, Writer Jack Youngelson, Moxie Fireacker Films, 2007).

الشديد لإمكان التصرف بشكل «غير أخلاقي» إذا ما واجهوا المعضلات المشار إليها هنا افتراضيًا، سيخالفون هذه التوقعات إذا ما وُضعوا في تلك المواقف فعلًا. وبالمثل، يؤكد زميل ملغرام، عالم النفس الاجتماعي فيليب زمباردو أن المواقف التي يجد الناس العاديون الطيبون أنفسهم فيها قد تجعلهم يتصرفون بطرائق غير أخلاقية. وباختصار، بينما يحمل معظمنا قيمًا واعتقادات نفترض أنها تحول دون قيامنا بالأفعال المشار إليها أعلاه، إلا أن قوة الموقف المحيط قد تطغى في أحيان كثيرة على هذه القيم والاعتقادات. وسوف ندعو وجهة النظر هذه بـ «الموقفية» أو «الحتمية الموقفية» (situational determinism).

قوة النزعات

يستخدم روبرت جيرفيز (Robert Jervis)، وهو باحث تطبيقي مشهور في مجال علم النفس السياسي، مثالًا نموذجيًا يوضح علاقة الموقفية بالسلوك السياسي[17]. فيدعوك جيرفيز إلى افتراض أن النيران اشتعلت فجأة في الصف الذي تجلس فيه. وإذا رأيت أن هذا المثال شطحة بعيدة في الخيال، افرض أن أحدًا ألقى بعقب سيجارة مشتعل على الأرض وأن النيران شبت فورًا في السجاد الرخيص القابل للاشتعال[18] في غرفة الصف التي نشغلها وأصبح واضحًا أن الغرفة ستحترق بكل ما فيها، أو أننا سنموت جميعًا من استنشاق الدخان إذا بقينا حيث نحن، فيهرع الجميع إلى الخارج.

هل نحتاج إلى دراسة الأفراد وخصائصهم الخاصة لتفسير السلوك في هذه الحالة؟ الجواب عن ذلك هو لا، على الأرجح. فخصائص الموقف أو بنيته هي التي ستحدد أفعالنا؛ فإذا لم نهرع إلى الخروج، سوف نواجه ميتة شنيعة، وليست في أوانها لمعظمنا. وتقترن المقاربة الموقفية لفهم السلوك الإنساني أحيانًا بافتراض العقلانية الذي يزعم أن السلوك الإنساني يخضع لنظام قابل

---

(17) Robert Jervis, *Perception and Misperception in International Politics* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1976), pp. 19-21.

(18) إذا كنت تجلس في غرفة صف في جامعة ذات مستوى متوسط، فإن السجاد سيكون زهيد الثمن؛ وقابلًا للاشتعال، على الأرجح.

للتنبؤ، وفي هذه الحالة، ولأن معظمنا يدرك أن مصلحتنا تقتضي الحفاظ على الذات، فإننا سنسرع إلى مغادرة الغرفة قبل أن تلتهمنا النيران.

هناك بعض السيناريوهات في الحياة الإنسانية ما يشبه مثال البناية المحترقة، بمعنى أنها لا تترك سوى حيز ضئيل لحرية الاختيار، على الرغم من أنه حتى في هذا المثال، هناك متسع لقدر من الاختلاف بين الأفراد؛ فإذا كان هناك مخرجان للغرفة مثلًا، يمكننا أن نسأل: ما هي الخصائص النفسية التي تحدد اختيارنا لواحد من المخرجين دون الآخر؟ والأكثر مدعاة للاهتمام أن بعضنا قد يترك الغرفة بشكل منظم، بينما يتسلق بعضنا الآخر فوق زملائهم في صراع محموم للخروج. فهل تختفي الالتزامات الأخلاقية نحو الآخرين في التسابق المذعور للخروج، أم مثل هذا النوع من المواقف يُظهر نبل بعض منا؟ وقد يأخذ بعضنا دورًا قياديًا (نأمل أن يكون الأستاذ في هذه الحالة)، فيحاول تنظيم الخروج، وربما يحاول أيضًا البحث عن مطفأة حريق، أو ربما أحد الطلبة يكون يائسًا تمامًا من إمكان نجاحه في تلك المادة فيختار البقاء في الغرفة لوضع حد نهائي لمحنته.

هذه مجرد اعتراضات أو (مشاكسات) لا تزعزع الافتراض الأساس بأن معظمنا سيسرع باتجاه المخرج في معظم الحالات. إلا أن واحدًا من هذه الاعتراضات له دلالة خاصة؛ فمعظم السيناريوهات في (مجال) السياسة لا يمكن وصفها كـ «بنايات تحترق» من حيث إنها تتيح في الغالب مجالًا أوسع للاختيار مما هو متاح في المثال المتطرف الذي قدمناه. وينطبق ذلك حتى على موقف يتعرض فيه الأمن الوطني لتهديد خطير، ويتفق جميع المعنيين بالأمر على أن «البناية تحترق» فعلًا. غير أن السياسة في الحياة الواقعية لا تنطوي على خيارات واضحة تمامًا كما في حالة الخروج أو عدم الخروج من غرفة تحترق إلا في ما ندر، إذ إن الموقف قد يكون غامضًا إلى حد يختلف فيه العقلاء على الوجهة التي يجب أن تسير فيها الأمور. ووفقًا لجيرفيز، كثيرًا ما تظهر خلافات عميقة في مجال السياسة حول ما إذا كانت «الغرفة تحترق أم لا» من حيث المبدأ.

لننظر ثانية في الأمثلة التي قدمناها في الجزء الأول، والتي صورت الحالات التي تطغى فيها المواقف على الأفراد في الغالب. فنحن نعرف أنه

في كثير من هذه الحالات هناك أفراد يتغلبون على الظروف، وليس العكس. ولعل أشهر مثال على ذلك في حالة الهولوكوست هو أوسكار شيندلر (Oscar Schindler) الذي وضع الكاتب الأسترالي توماس كينيلي (Thomas Keneally) قصة حياته في رواية درامية وصورها المخرج السينمائي ستيفن سبيلبرغ (Steven Spielberg) في فيلم «قائمة شيندلر»[19]. ومع أن شيندلر كان رجلًا غير عادي في كثير من الوجوه، وكان رجلًا شجاعًا بامتياز، فإنه لم يكن فريدًا في مخاطرته بحياته لينقذ أناسًا لم يقابلهم في حياته من قبل. هناك من يخاطر بكل شيء تقريبًا ليقوم بإطلاق «صفارة الإنذار» لكشف ما يجرى ارتكابه من أفعال مشينة. مثال ذلك كلايف بونتنغ (Clive Ponting) الذي كان أيضًا يشغل وظيفة متقدمة في الخدمة العامة البريطانية والذي لم يخسر وظيفته فحسب، ولكنه خاطر بالذهاب إلى السجن لأنه كشف لعضو البرلمان العمالي البريطاني تام داليل (Tam Dalyell) أن السفينة الأرجنتينية «جنرال بيلغرانو» كانت خارج «منطقة الحذر» التي حددتها الحكومة البريطانية منطقةَ حرب حول جزر الفوكلاند عام 1982[20]. فقام بونتنغ بتسريب وثائق للنائب العمالي تُبيّن أن السفينة كانت خارج منطقة الحذر، إضافة إلى أنها كانت تُبحر بعيدًا عن تلك المنطقة عندما هاجمتها الغواصة النووية البريطانية وأغرقتها. وكانت الحكومة البريطانية برئاسة مارغريت تاتشر حينئذٍ قد ادعت أن السفينة موجودة داخل منطقة الحظر وأنها تمثّل بذلك تهديدًا لحياة بريطانيين. وقد خضع بونتنغ للمحاكمة في ما بعد، إلا أن المحكمة لم تنجح في إدانته بناء على قانون المملكة المتحدة الخاص بأسرار الدولة - والذي لا يسمح لموظفي الخدمة العامة بإطلاق الصفارة حتى عندما يملكون الدليل على أن الحكومة البريطانية كذبت على الشعب - ولكن مهنته بوصفه موظفًا في الخدمة العامة انتهت طبعًا.

ولننظر أيضًا في فضيحة «أبو غريب» وكيف عرفنا بها. ربما كنا سنعرف بما كان يجري وراء الكواليس في سجن صدام السابق عاجلًا أم آجلًا، نظرًا

---

(19) الكتاب الأصلي الذي قام عليه الفيلم هو كتاب توماس كينيلي. انظر: Thomas Keneally, *Schindler's Ark* (London: Hodder and Stoughton, 1982).

(20) دخلت بريطانيا والأرجنتين في حرب عام 1982 بعد أن غزت الأرجنتين جزر الفوكلاند/ ملفيناس (Malvinas) واحتلتها، ولكنهما حصرتا الصراع في المنطقة المحيطة بالجزر.

إلى التداول الواسع لتلك «الصور التذكارية» على الإنترنت. لكن الحقيقة أن انتشار الفضيحة يعود في الجزء الأكبر منه إلى شخصين يتمتعان بشجاعة استثنائية والتزام أخلاقي رفيع هما كين ديفيز (Ken Davis) وجوزيف داربي (Joseph Darby) الموظفان السابقان في القوات العسكرية الأميركية اللذان أخرجا الأمر على الملأ لاعتبارات أخلاقية. وقد كان عليهما محاربة البيروقراطية العسكرية التي لم تكن راغبة في معرفة ما كان يجري في «أبو غريب»، وقد أدى قيامهما بالعمل الصائب إلى خسارتهما للمهنة العسكرية. ولم يرغب أحد من المسؤولين كذلك في أن يسمع شكوى ديفيز أن متهمًا تعرض للتعذيب حتى الموت في «أبو غريب».

كتب هارولد لاسويل (Harold Lasswell)، أحد عظماء المبدعين في علم النفس السياسي «إن العلوم السياسية من دون سِيَر ذاتية هي نوع من التحنيط»، ويعني بذلك أن علماء السياسة يُمضون وقتًا طويلًا في دراسة المؤسسات أو البنى التي يعمل فيها الأفراد المعينون في العمل السياسى من دون دراسة خصائص أولئك الأفراد أنفسهم. وبعبارة أخرى، كثيرًا ما ندرس القواقع المحيطة بالسياسيين ونهمل ما بداخلها. وبطبيعة الحال، فإن ما يكمن داخل تلك القواقع هم أفراد من البشر، وكما أنه ليس بمقدورنا أن نفهم سلوك فيل شاذ (مثلًا) بالنظر إلى نموذج فيل موضوع في متحف، كما يزعم لاسويل، فإننا ولا شك في ذلك، نكون بحاجة إلى النظر داخل المؤسسات السياسة، وإلى ما في داخلها من كائنات بشرية واقعية كي نفهم السلوك السياسي فهمًا تامًا. هذا البديل للموقفية سندعوه النزوعية.

ولقد تبنى علم النفس السياسي تقليديًا هذه المقاربة الأخيرة في الغالب من حيث إنها افترضت أن للأفراد الأهمية القصوى في عالم السياسة. وقد يبدو هذا الافتراض مبنيًا على الفطرة السليمة، وكثير منا يراه مقبولًا سلفًا، ويفترض معظمنا كذلك أن الأفراد يصنعون فرقًا في العمل السياسي لأنه قيل لنا إن هذا الافتراض سليم، ونادرًا ما أوليناه كثيرًا من التفكير. غير أن هذا الكتاب سيظل يشجعك على التفكير بعمق في السؤال الآتي: هل الاعتقاد السائد بأن خصائصنا الفردية تكوّن سلوكنا هو اعتقاد صحيح؟

وكمثال عملي على النزوعية [ودورها في توجيه السلوك السياسي] دعنا ننظر إلى حالة أُشبعت درسًا وهي أزمة الصواريخ الكوبية عام 1962، عندما اكتشفت وكالة المخابرات الأميركية (CIA) دليلًا على أن الاتحاد السوفياتي يقوم بتركيب صواريخ بالستية متوسطة المدى في كوبا، وهي صواريخ قادرة على الوصول إلى شيكاغو ونيويورك. ولقد كان الرئيس جون ف. كينيدي ومستشاروه مجمعين على ضرورة القيام بعمل ما إزاء ذلك، ونظر الجميع إلى الأمر على أنه استفزاز سياسي وعسكري غير مقبول يتطلب ردًا[21]. لكن الاتفاق بين الرئيس ومستشاريه لم يتعدَّ هذا الحد، فحتى في هذه الحالة الخطرة كان هناك خلاف بين مستشاري كينيدي في نوع الخطر الذي يتهدد البلاد. فرأت هيئة الأركان المشتركة، مثلًا، أن المشكلة عسكرية من حيث المبدأ، بينما رأى وزير الدفاع روبرت مكنمارا أن التهديد القائم سياسي أو رمزي من حيث المبدأ، وقال: «الصاروخ صاروخ»، وإن الاكتشاف الجديد لم يغير موضوعيًا توازن القوى النووي.

وكان أخطر من ذلك ظهور اختلاف جذري في كيفية التعامل مع الموقف، حيث أراد بعضهم، ومنهم الجنرال كيرتس ليميه، شن ضربة جوية فورية على مواقع الصواريخ السوفياتية، في حين أراد آخرون التفاوض مع الزعيم الكوبي فيديل كاسترو أو رئيس الوزراء السوفياتي وقتئذٍ نيكيتا خروتشوف، بينما أراد فريق ثالث ضرب حصار بحري على الجزيرة دليلًا على الإصرار وصدق العزيمة، وللحيلولة دون وصول شحنات سوفياتية لاحقة. وفي هذه الحالة أجمع الجميع على أن البناية تحترق على نحو ما، ولكنهم اختلفوا في مدى انتشار الحريق، وما ينبغي القيام به لإطفائه.

نستطيع أن نجد نقطة مماثلة بالنظر إلى الموقف الذي واجهه جورج دبليو بوش بعد الحادي عشر من أيلول/سبتمبر 2001. فقد اتفق معظم المحللين على أنه لم يكن هناك مجال - سواء من الناحية الأخلاقية أم الاستراتيجية أم السياسية - لأي رئيس للولايات المتحدة أن يتقاعس عن الرد على ما فعله

(21) Allison and Zelikow, *Essence of Decision: Explaining the Cuban Misssile Crisis.*

انتحاريو القاعدة ذلك اليوم. ومع أن «الحرب على الإرهاب» بدت أمرًا لا مناص منه في حينه، إلا أن «بوش» صرح لاحقًا أنه امتلك بدلاء عدة للرد حينئذٍ، وهو ما بدا أكثر وضوحًا بالتأمل الاسترجاعي للأحداث. وعلى الرغم من أن معظم الرؤساء، إن لم يكن جميعهم، كانوا سيهاجمون طالبان في أفغانستان بشكل أو بآخر كما فعلت إدارة بوش، يبدو من غير المرجح، إذا شئنا أن نفكر بخلاف ما جرى من وقائع، أن الرئيس آل غور (في ما لو كان الرئيس) كان سيغزو العراق في السنة التالية. ونستطيع ملاحظة هذه النقطة بعينها في استجابة روزفلت لقصف اليابانيين لبيرل هاربر، إذ إنه كان هناك عدد لا بأس به من الانعزاليين في الكونغرس ممن رأوا حصر الضربات الانتقامية في اليابان من دون الدخول في حرب واسعة.

وعلى الرغم من أن كل واحدة من هذه الأحداث - بيرل هاربر، وأزمة الصواريخ، والحادي عشر من أيلول/ سبتمبر - كان لها أثر مزلزل، إلا أنها لا تمثل نموذجًا للأحداث السياسية اليومية. وهي تقف بارزة في التاريخ لأنها تبتعد عن نموذج الأحداث السياسية الرتيبة المعتادة، ولكنها تكشف جليًا حقيقة أن صانعي القرارات يختلفون حتى في أخطر الظروف في رؤيتهم للأحداث، وفي ميلهم للاستجابة لها تاليًا. إضافة إلى ذلك، عندما نأخذ بالاعتبار أحداثًا أقل حضورًا في الذاكرة، وإن كان لا يزال لها دلالة تاريخية، نجد مجالًا لتفسيرات كثيرة محتملة وخيارات كثيرة كانت متاحة. فعندما لا نكون مجبرين على التصرف بطريقة معينة - كما في حالة عمارة تحترق - تزداد قائمة خياراتنا اتساعًا، وتزداد معها أهمية حالاتنا الذهنية والسيكولوجية.

وبعد أن قدمنا الإطار التنظيمي لهذا الكتاب، أصبح علينا أن نوضح ما هو علم النفس السياسي؟ ما الموضوعات التي يشملها؟ متى بدأ طلبة العلوم السياسية بالاهتمام في تطبيق النظرية النفسية على السلوك السياسي؟ كيف كان يُدرس علم النفس السياسي في الماضي، وما النظريات النفسية التي أثرت في دراستنا للظواهر السياسية؟ هذه هي المواضيع التي سنتناولها في الفصل الآتي.

2

موجز لتاريخ علم النفس السياسي

يمكن تعريف علم النفس السياسي ببساطة على أنه العلم الذي يدرس التفاعل بين السياسة وعلم النفس، وخصوصًا تأثير علم النفس في السياسة. وإذا استطعنا أن نصور السياسة على أنها علم مركزي يحيط به كل شيء ويتصل بكل شيء من حوله - على ما في هذا التصور من ادعاء، يجب أن نعترف، على الرغم من قبول أرسطو إياه - فإننا نستطيع أن نصور العلوم السياسية في رسم بياني على شكل دائرة في المركز محاطة بدوائر متداخلة. المنطقة المتداخلة بين الاقتصاد والسياسة تدعى «الاقتصاد السياسي»، والمنطقة المتداخلة بين الاجتماع والسياسة تدعى «الاجتماع السياسي» وهكذا. أما المنطقة المتداخلة بين الرياضيات والسياسة فقد طورت مصطلحاتها الخاصة، من مثل الخيار العقلاني (rational choice)، النظرية الشكلية (formal theory) أو نظرية اللعبة (game theory)، وهي من حيث الأساس «الرياضيات السياسية».

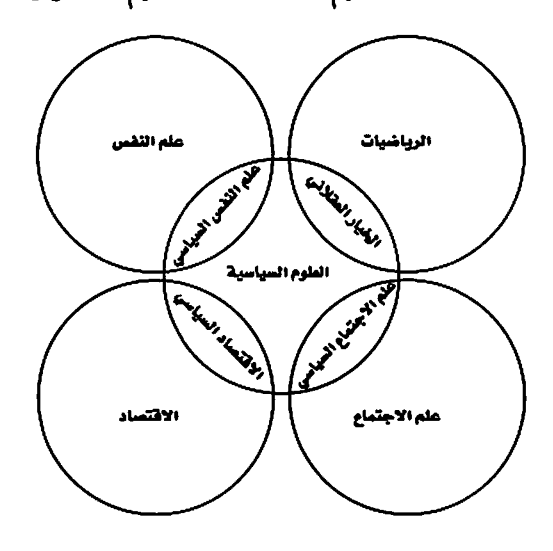
ويمكننا كذلك إضافة التاريخ، والفلسفة، والجغرافيا، والأنثروبولوجيا، وغيرها إلى الشكل الرقم (2-1) - إلا أنني لم أبيِّن التداخل بين الرياضيات والاقتصاد (مثلًا)؛ لأننا غير معنيين بذلك هنا - ولكن لا بد أن الفكرة العامة لما نقصده هنا قد اتضحت. وعلى الرغم من أن العلوم الاجتماعية المختلفة يمكنها طبعًا وضع علوم رئيسة أخرى في المركز، يحمل هذا التصور الذي نطرحه هنا شيئًا من المعنى لمعظم علماء السياسة. ونستطيع تصور علم النفس السياسي

بكل بساطة كجسر بين علمين. وإذا ما تجاوزنا هذا التعريف البسيط ونظرنا إلى بعض الأعداد السابقة من المجلة الأكاديمية المكرّسة لهذا المجال الممتع الذي يعنينا في هذا الكتاب - والمعنونة بحق علم النفس السياسي - نجد هناك حقولًا فرعية مختلفة، وتخصصات مختلفة داخله. لذا، فإن هناك طرائق مختلفة لتدريس مساق في علم النفس السياسي.

وضمن هذا الميدان يمكن التمييز بين فريقين، أحدهما يهتم بدراسة سلوك الجماهير (mass behaviour)، مثل التصويت في الانتخابات، وتأثير الرأي العام على السياسات الحكومة، وما إلى ذلك، وفريق آخر يهتم بدراسة سلوك النخبة وكيف تؤثر وجهات نظر النخبة وتصوراتها في سياسات الحكومة، وتأثير الشخصية في القيادة، وصناعة القرارات في السياسة الخارجية، وما إلى ذلك. وهناك تمييز آخر في هذا الميدان سنناقشه في ما بعد يتعلق بتفسير السلوك السياسي؛ فهناك تفسير متأثر بعلم النفس الاجتماعي - يؤكد أثر المواقف في السلوك، وهناك تفسير آخر متأثر بعلم النفس المعرفي والإرث القديم لعلم نفس غير الأسوياء - والذي يؤكد دور الخصائص الفردية في تكوين السلوك.

الشكل (2-1)

العلاقة بين العلوم السياسية والعلوم الأخرى



وثمة ملاحظات ثلاث على علم النفس السياسي بوصفه تخصصًا فرعيًا في العلوم السياسية لا بد من الإشارة إليها. أولًا وقبل كل شيء، هذا الميدان حديث نسبيًا كميدان أكاديمي معترف به. وعلى الرغم من أن الرواد الأوائل أمثال هارولد لاسويل كانوا يدرسون تأثير علم النفس في السياسة منذ العشرينيات، لم تكن الجامعات تطرح كثيرًا من المساقات في علم نفس السياسة قبل السبعينيات، حيث ظهر أول كتاب في سلسلة من الكتب الدراسية بعنوان كتاب مرجعي في العلوم السياسية (*A Handbook of Political Psychology*) عام 1973[1] وفي الوقت ذاته أخذ جهاز مهني متخصص ينشأ في هذا الموضوع، فشهد عام 1977 تأسيس الجمعية الدولية لعلم النفس السياسي (International Society for Political Psychology) (ISPP) وتأسست مجلة علم النفس السياسي بعد ذلك بعامين.

ثانيًا: إن الموضوع المسمّى «علم النفس السياسي» - كموضوع معترف به ويدرَّس في الجامعات - ذو توجه دولي في جوهره. ومع أن غالبية الأكاديميين فيه هم من الولايات المتحدة الأميركية، فإن شعبيته آخذة في الازدياد في أوروبا وأستراليا ومناطق أخرى من العالم كذلك. وكما أسلفنا، فإن علم النفس السياسي له طابع غير مألوف؛ فالهيئة الممثلة له ISPP (الجمعية الدولية للعلوم السياسية) عالمية الطابع في الحقيقة، تعقد اجتماعاتها في أماكن متباعدة كبورتلاند، وباريس، والبرتغال.

وقد جاء العديد من أصحاب الأفكار الرائدة التي أنشأت المجال الأكاديمي الذي يُعرف الآن بـ «علم النفس السياسي» من أوروبا. والتأثير الفييني (نسبة إلى فيينا) الذي جاء به فرويد، يمثل نموذجًا واضحًا لما نذهب إليه هنا، وهو ما سنتطرق إليه بعد قليل. ولكن نظرة عميقة إلى المادة التي تكوّن علم النفس السياسي تذهب بنا إلى القول إن هذا الموضوع قديم قدم السياسة، فحين يتأمل الناس في موضوع السياسة نجدهم يطرحون على أنفسهم

---

(1) Jeanne Knutson, ed., *Handbook of Political Psychology*, Jossey-Bass Behavioral Science Series (San Francisco, CA: Jossey Bass, 1973).

السؤال النفسي الرئيس: لماذا يفعل الناس ما يفعلونه؟ وأول ما يكتشفه المرء في الصفوف المدخلية للعلوم السياسية هو أن كل نظرة سياسية إلى العالم تُبنى في النهاية على نظرة في الطبيعة الإنسانية (ومن هنا فهي نظرة إلى النفس الإنسانية). فقد كانت نظرة نيكولا مكيافيلي إلى النفس الإنسانية سوداوية جدًا، وكان تفكير المحافظين الكلاسيكيين أكثر تشاؤمًا في هذا الشأن من الليبراليين الكلاسيكيين. وعلاوة على ذلك، طوّر توماس هوبز، وجون لوك، وجان جاك روسو مفاهيم متباينة جدًا لـ «الدولة الطبيعية» تصف وضعًا حقيقيًا أو مفترضًا لحالة غياب الدولة وانكشاف الطبيعة الأصلية للبشر على حقيقتها.

ولقد تتبع وليام ستون وبول شافنر (William Stone and Paul Schaffner)، في كتاب نفِدت طبعته للأسف الشديد، مختلف التأثيرات التاريخية العميقة التي تخمرت عبر القرون قبل أن ينبثق علم النفس السياسي بوصفه موضوعًا أكاديميًا معترفًا به في القرن العشرين[2]، حيث يقولان: «إن الاعتراف بقوة الدفع الألمانية لعلم النفس السياسي لا يفي القارة الأوروبية حقها عما أسهمته في هذا المجال... وخلافًا للاعتقاد السائد، نشأ علم النفس السياسي على يد كتّاب محافظين من الأقطار اللاتينية»، ففي فرنسا، على سبيل المثال، قدّم مفكرون محافظون من مثل هيبوليت تين (Hippolyte Tain) وغوستاف لوبون (Gustave Le Bon) في القرن التاسع عشر تفسيرات «علمية» تقع في باب علم النفس السياسي. أما في إنكلترا، فقد نشر غراهام ولاس (Graham Wallas)، الأستاذ في كلية لندن للاقتصاد والعلوم السياسية، واحدًا من بواكير الكتب عام 1908، ما يؤهله لأن يكون واحدًا من الآباء المؤسسين لعلم النفس السياسي، وهو أمر يدعو للسخرية بالنظر إلى إهمال الجامعات البريطانية نسبيًا لهذا الموضوع. وقد حذّر ولاس في كتابه الطبيعة الإنسانية والسياسة الذي نشر ذلك العام، من النظر إلى القرارات والسلوك الإنسانيين نتيجةً لعمليات فكرية عقلية بحتة. ونصح ولاس بأنه

---

(2) William F. Stone and Paul E. Schaffner, *The Psychology of Politics*, 2nd ed. (New York: Springer-Verlag, 1988).

وقد شاءت الصدف أن يكون هذا الكتاب هو أول كتاب تدريسي في علم النفس السياسي (وصدر عام 1974).

«عندما يعي الرجال العمليات النفسية التي لم يكونوا واعين بها أو كانوا نصف واعين بها، فإنهم بذلك لن يحموا أنفسهم كما لن يحموا الآخرين من تعسف هذه العمليات فحسب، ولكنهم سيتمكنون من التحكم فيها من الداخل»[3]. أما أعظم الإسهامات في هذا الميدان فقد جاء من فيينا وفرانكفورت طبعًا، حيث كان لمفكرين من أمثال سيغموند فرويد (Sigmund Freud) وإريك فروم (Erich Fromm) تأثير خاص في تطور هذا الحقل في الولايات المتحدة - كما سنوضح بعد قليل في الجزء الخاص بدراسات الشخصية في هذا الفصل.

أما الملاحظة الثالثة التي لا بد من الإشارة إليها فهي أن علم النفس السياسي بوصفه تخصصًا فرعيًا من العلوم السياسية يدرس معظم (وليس كل) موضوعه على مستوى يسمى عادة التحليل على مستوى الفرد (The individual level of analysis). ودراسة العلاقات الدولية بشكل خاص تميز بين ثلاثة مستويات من التفسير أو «مستويات التحليل»: مستوى النظام [الدولي] (systemic)، ومستوى الدولة (state)، ومستوى الفرد[4] (individual). فهل تتحدد سياسة الدولة بما تتمتع به من قوة أو موقع في النظام الدولي؟ أم الخصائص الداخلية للدولة هي التي تحسم في تكوين سلوكها؟ أم نفسية قادة معينين هي التي توجه السياسة الخارجية للدولة في نهاية المطاف؟

وتواجهنا في العلوم السياسية العديد من النظريات التي تعمل على مستويات أعلى من مستوى الفرد، إذ تؤكد هذه النظريات، بعبارة أخرى، أهمية السياق أو طبيعة الحقبة الزمنية [المحيطة بالحدث] لا على طبيعة الأفراد. فالنظرية الواقعية الحديثة التي تعزو قدرًا كبيرًا من سلوك الدولة إلى موقعها في النظام الدولي (إذا كانت قوة عظمى، أم قوة متوسطة، أم قوة ضعيفة، وما إلى ذلك)، مثال جيد على هذا النوع من النظريات[5]. وبالمثل، فإن النظرية الماركسية تميل إلى التقليل من

(3) تمّ اقتباسه من: المصدر نفسه، ص 17.

(4) Kenneth N. Waltz, *Man, The State and War: A Theoretical Analysis*, Topical Studies in International Relations (New York: Columbia University Press, 1959), and J. David Singer, «The Level-of-Analysis Problem in International Relations,» *World Politics*, vol. 14, no. 1 (October 1961), pp. 77-92.

(5) Kenneth Waltz, *Theory of International Politics*, Addison-Wesley Series in Political Science (Reading, MA: Addison-Wesley, 1979).

شأن الأفراد في التاريخ، وترى أن العوامل «المادية» هي صاحبة الأثر السببي الأقوى وليس الأفراد. والعديد من النظريات المشتقة من الماركسية، مثل نظرية التبعية (dependency theory)، ونظرية أنظمة العالم (world-systems)، تقوم على افتراض محوري مماثل للافتراض الماركسي هذا. كذلك، فإن نظرية التعددية الكلاسيكية (classic pluralism) وإن كانت قد انبثقت من تراث مختلف عن الماركسية إلا أنها ترى أن الدولة تستجيب للتنافس القائم بين جماعات كبيرة منظمة، ولا تترك للأفراد ونفسياتهم حيزًا كبيرًا لإحداث أي تأثير.

وكما رأينا حتى الآن، يؤكد علم النفس الاجتماعي أهمية الشروط الموقفية في توجيه السلوك الإنساني، وهو ما كان له أثر خاص في علماء النفس الذين اتجهوا نحو المواضيع السياسية. وعلى الرغم من ذلك، فإن علم النفس السياسي كما يُدرس في نطاق العلوم السياسية، كان يميل دائمًا باتجاه من يعتقدون أن الأفراد - بما لديهم من معتقدات، وخبرات حياتية، وشخصيات - لهم شيء من الأهمية، في الأقل، في تحديد المخرجات السياسية. وقد كان الاعتقاد القائل إن التاريخ ليس مجرد رواية لدور الأنظمة والظروف في تأليف التاريخ والسياسة، ذا جاذبية خاصة لدى هؤلاء الذين يرون أن الأفراد هم الذين يؤلفون التاريخ والسياسة.

وهذه واحدة من النقاط القليلة التي يتفق عليها معظم المحللين في علم النفس السياسي، فليس هناك اتفاق حقيقي بينهم مثلًا حول أفضل النظريات لتحليل السلوك الإنساني، وصناعة القرارات. ووفق ملاحظة مكغواير (McGuire) في فصل كثيرًا ما جرت الإشارة إليه، أن طبيعة العلاقة بين علم النفس والسياسة تطورت عبر مراحل تاريخية متعددة في خلال الثمانين سنة الماضية تقريبًا[6].

---

(6) William McGuire, «The Poli-Psy Relationship: Three Phases of a Long Affair,» in: Shanto Iyengar and William McGuire, eds., *Explorations in Political Psychology*, Duke Studies in Political Psychology (Durham, NC: Duke University Press, 1993).

وقد طُبع أيضًا في: John T. Jost and Jim Sidanius, eds., *Political Psychology: Key Readings*, Key Readings in Social Psychology (New York: Psychology Press, 2004).

قام هذا الفصل على العمل الرائد لمكغواير (William McGuire)، على الرغم من أنه لم يحاول تناول الموضوع بالقدر ذاته من العمق والاتساع.

علاوة على ذلك، جرى تطور على نظريات علم النفس الرائجة في الميدان عبر الزمن، ومن حيث إن علم النفس هو الذي أثر في السياسة (وليس العكس) فإن التيارات داخل العلوم السياسية اقتفت التيارات داخل الميدان الأم أو تبعتها. ويميز مكغواير ثلاث مراحل عريضة في تطور علم النفس السياسي:

1- حقبة دراسات الشخصية في الأربعينيات والخمسينيات والتي هيمن عليها التحليل النفسي.

2- حقبة دراسة الاتجاهات السياسية وسلوك الانتخاب في الستينيات والسبعينيات، والتي اتسمت بشيوع افتراضات «الإنسان العاقل».

3- حقبة بدأت في الثمانينيات والتسعينيات وتركزت على دراسة الاعتقادات السياسية، ومعالجة المعلومات وصناعة القرارات، وتهتم بوجه خاص بالسياسة الدولية.

دراسة الشخصية

عُنيت الدراسات المبكرة في علم النفس السياسي - أي تلك التي أجريت في الأربعينيات والخمسينيات - بدراسة الشخصية، وعكست بوجه خاص أفكار نظرية التحليل النفسي، وكانت هي النظرية السائدة في علم النفس حينذاك. وقاد ذلك إلى ظهور العديد من الدراسات التي يمكن أن تسمى دراسات «التاريخ النفسي» (Psychohistory) أو «السيرة النفسية» (Psychobiography). هذه الدراسات مثلت المدخل المبكر والحيوي لدراسة القيادة، إذ إنها تسلط الضوء على الخصائص الشخصية للقادة السياسيين، وكيفية تأثير هذه الخصائص في أدائهم وهم في مواقع السلطة. وتصلح النظرية الفرويدية، أو نظرية التحليل النفسي، بوجه خاص، لتحليل الشخصية إضافة إلى إسهاماتها الأخرى؛ فهي تحلل الحاجات أو الدوافع التي تكمن، أو يُعتقد أنها تكمن لدى المخلوقات الإنسانية. وقد اعتبر فرويد العديد من هذه الدوافع لا شعورية في طبيعتها، لا تكشف عن نفسها إلا من خلال الأحلام وزلات اللسان (وهي التي تعرف بـ «الزّلات الفرويدية»). ويرى فرويد أننا نولد جميعًا ونحن نحمل الهو (Id)

والأنا (Ego) والأنا الأعلى[7] (Super ego). واعتقد أن الهو يمثل الطفل في داخلنا، فهو يسعى إلى تحقيق المتعة والإشباع الفوري. ويتجلّى ذلك في مرحلة الرضاعة أو الطفولة المبكرة جدًا، حيث يسعى الأطفال إلى كل ما هو ممتع في الوقت الراهن من دون اعتبار لأخلاقية الموقف أو أي اعتبار آخر، فالطفل لا يُعنى بالواقع الخارجي أو حاجات أي شخص آخر، وعندما يريد شيئًا، لا يكون هناك أهمية لأمر سواه، لأنه يعمل وفق «مبدأ اللذة»، كما يرى فرويد.

وبعد سنوات قليلة، ومع ازدياد تفاعل الطفل مع العالم الخارجي، يأخذ الجزء الثاني من الشخصية في التطور، وهو الجزء الذي يدعوه فرويد بـ «الأنا». ويقوم هذا الجزء على «مبدأ الواقع»، ويفهم أن للآخرين حاجات ورغبات وأن الأنانية والاندفاعية قد تضرنا على المدى الطويل. وتتمثل وظيفة الأنا في تلبية حاجات الهو، آخذة بعين الاعتبار الشروط الواقعية للموقف المحيط بها. وعندما يصل الطفل إلى الخامسة من العمر أو إلى نهاية المرحلة القضيبية (Phallic stage) من مراحل نموه، يبدأ «الأنا الأعلى» لديه بالتطور. والأنا الأعلى هو الجزء الأخلاقي منا، ويتطور بتأثير القيود الأخلاقية والأدبية التي يضعها علينا الوالدان والمربون. ويساوي العديد من العاملين في هذا الميدان بين الأنا الأعلى والضمير، من حيث إنه يملي علينا شروطه المتعلقة بالخطأ والصواب.

ويعتقد فرويد أن الأنا يجب أن يكون الأكثر قوة بين عناصر الشخصية الثلاث ليكون الشخص سليمًا نفسيًا، فيتمكن من العمل منسقًا بين متطلبات الهو ومتطلبات الأنا الأعلى، آخذًا متطلبات الواقع الخارجي بعين الاعتبار على الدوام. فإذا كانت الغلبة للهو سيطر على حياة الفرد السلوك الاندفاعي، المتمركز حول الذات. وبالمقابل، إذا كان الأنا الأعلى متشددًا تغلب عليه السلوك المتعنت، غير المساوم، والمغالي في الأخلاقية. ومهمة التوفيق التي يقوم بها الأنا بين قوتي الدفع هاتين ليست بالمهمة اليسيرة، وقد تُحدث صراعات

---

(7) كان استخدام فرويد لهذه المصطلحات بوصفها تسميات مفهومية لمكونات الشخصية الإنسانية، وليس بوصفها خصائص موجودة فيزيقيًا في الدماغ ذاته.

نفسية متنوعة. فبينما يجلس الهو كشيطان على أحد الكتفين يجلس الأنا الأعلى كملاك على الكتف الآخر، يخاطبانا معًا ويُحْدِثان نوعًا من حرب الدوافع في داخلنا. ونسمع نحن لكلا الدافعين وننعم النظر في منظوريهما ثم نتخذ القرار بناء على ذلك. ويمثل هذا القرار صوت الأنا الذي يعمل على تحقيق التوازن بين العنصرين الآخرين. ولأن فعل التوازن هذا مهمة صعبة في الغالب، يزعم فرويد أن الأنا يمتلك «آليات دفاع» تساعده على أداء وظيفته. فعندما يواجه الأنا وضعًا يصعب عليه التوفيق فيه بين قوة دفع الهو وقوة دفع الأنا الأعلى يوظف واحدة أو أكثر من هذه الآليات. وتتضمن هذه الآليات الإحلال (displacement)، والإنكار (denial)، والكبت (repression)، والإبدال (transference)، وجميعها، كما يرى فرويد، تعمل كآليات دفاع لحماية الأنا.

وقد شرع فرويد نفسه في كتابة السِيَر النفسية السياسية إلى جانب السفير الأميركي وليام بوليت[8] (William Bullitt). على أن تأثير فرويد في هذا النوع من الأدب جاء من خلال كتّاب آخرين، وقد كان لأفكاره المتعلقة بالدوافع اللاشعورية، والتطور النفسي في مرحلة الطفولة، وآليات الدفاع التعويضية أثر عميق على تطور السير النفسية السياسية في خلال تلك الفترة المبكرة. وكان تشارلز ميريام وهارولد لاسويل، وهما من الآباء المؤسسين لعلم النفس السياسي، أكثر المتحمسين لتطبيق أفكار فرويد في دراسة السياسة. وكان لميريام التأثير الفكري الأولي في لاسويل كونه أستاذًا له، ولأن الأخير هو الذي وضع هذه الأفكار على الورق وطورها، عُدَّ عالم النفس السياسي الأميركي الأول، بل عالم النفس السياسي الأول على الإطلاق. ويعدُّ كتاب لاسويل علم النفس والسياسة الذي نشر عام 1930 معلمًا في هذا المضمار، كذلك يعدّ كتابه القوة والشخصية الذي ظهر عام 1948 أول ما ظهر[9]. وخلافًا لعلماء نفس السياسة اللاحقين، درس لاسويل التطورات الأخيرة في نظرية التحليل

---

(8) Sigmund Freud and William C. Bullitt, *Thomas Woodrow Wilson, Twenty - Eighth President of the United States: A Psychological Study* (Boston, MA: Houghton Mifflin, 1967).

(9) Harold D. Lasswell: *Psychopathology and Politics* (Chicago, IL: University of Chicago Press, 1930), especially pp. 75-76, and *Power and Personality*, New York Academy of Medicine. Thomas William Salmon Memorial Lectures (New York: W. W. Norton, 1948).

النفسي الفرويدية بعناية. ونتيجة لذلك خرج ليزعم أن ما يسمى «الشخصية السياسية» ينتج من إحلال المشكلات الشخصية على الحياة العامة. وكان على اقتناع بأن «الحركات السياسية تأخذ حيويتها من طريق إحلال العاطفة الخاصة على موضوعات عامة»[10]. واعتقد أن الفرد قد يسعى إلى القوة للتغلب على ما يضمره من تقدير متدنٍ لذاته، حيث افترض مثلًا، «أن التغلب على تقويم الذات المتدني يتم إما بتغيير سمات الذات وإما بتغيير سمات المحيط»[11]. وبعبارة أخرى، فإن الأفراد الذين يتجهون إلى السياسة كثيرًا ما يسعون إلى القوة السياسية تعويضًا عن شيء آخر.

وجاء كتاب ألكسندر جورج وجوليت جورج المعنون ودرو ولسون وكولونيل هاوس متأثرًا تأثرًا شديدًا بهذه المقاربة في التحليل[12]. والحقيقة أن هناك سلسلة تربط ميريام بلاسويل بالكاتبين جورج؛ حيث إن ميريام علّم لاسويل أهمية الأبعاد النفسية في السياسة، وهو ما نقله لاسويل إلى الكاتبين جورج في جامعة شيكاغو التي أصبحت نوعًا من الحاضنة الفكرية لتطور علم النفس السياسي في أميركا. وعلى الرغم من أن الكتاب لم يستخدم اللغة الفرويدية مباشرة، فإنه يرد سلوك ودرو ولسون السياسي بوصفها راشدًا، إلى خبراته الطفولية على يد والده القسيس البروتستانتي المتشدد. ولأن الأب لم يُظهر العاطفة لابنه، كما يزعم الكاتبان، ولم يكافئه على أدائه بشكل عام، سعى ولسون إلى كسب حب الشعب الأميركي تعويضًا عن ذلك. وكان للشهرة والجدل اللذين أثارهما كتاب ودرو ولسون وكولونيل هاوس أثر في مجموعة كبيرة من الأعمال اللاحقة من مثل كتاب دوريس كيرنز غودوين (Doris Kearns Goodwin) ليندون جونسون والحلم الأميركي، وكتاب بيتي غلاد (Betty Glad) جيمي كارتر: البحث عن البيت الأبيض العظيم[13].

---

(10) Lasswell, *Psychopathology and Politics*, p. 183.

(11) Lasswell, *Power and Personality*, p.39.

(12) Alexander L. George and Juliette L. George, *Woodrow Wilson and Colonel House: A Personality Study* (New York: Dover Publications, 1956).

(13) Doris Kearns Goodwin, *Lyndon Johnson and the American Dream* (New York: Harper and Row, 1976), and Betty Glad, *Jimmy Carter: In Search of the Great White House* (New York: W. W. Norton, 1980).

الاتجاهات وسلوك الانتخاب

وفي المرحلة الثانية من تاريخ علم النفس السياسي، انتقلت بؤرة البحث من الشخصية والثقافة إلى الاتجاهات وسلوك الانتخاب. وأصبحت الدراسات المسحية الواسعة هي المنهج المفضل وليس التحليل الكيفي المستخدم في مواد السير النفسية. وانتقل علم النفس السياسي عند تلك النقطة من الاعتماد على التحليل النفسي إلى مقاربة أو مدخل أكثر ملاءمة لدراسة الاتجاهات تمثله نظرية الاتساق المعرفي (cognitive consistency theory)، إضافة إلى منظور آخر أكثر «علمية» لدراسة السلوك الإنساني، والمتمثل بالنظرية السلوكية (behaviourism). وستكون السلوكية هي موضوع الفصل الآتي، ولذلك فإننا سنضع هذا الموضوع جانبًا الآن. أما نظرية الاتساق المعرفي أو نظريات التوازن المعرفي (cognitive balance theories) فترى أن التضارب (أو عدم الاتساق) في ما بين الاتجاهات التي يحملها الفرد تُنشىء حالة من التوتر يبعث بدوره على الضيق. ويُسمي ليون فستنغر[14] (Leon Festinger) هذه الحالة تسميته الشهيرة: «التنافر المعرفي» (cognitive dissonance). ولأن البشر لا يحبون هذا النوع من عدم الاتساقية أو التنافر، فإنهم يمتلكون دافعًا لتخفيضه بطريقة ما. وعلى سبيل المثال، أقامت الولايات المتحدة في خلال الحرب العالمية الثانية حلفًا مع الاتحاد السوفياتي ضد ألمانيا النازية، الأمر الذي أزعج غُلاة المناهضين للشيوعية من دون شك. ولكن هؤلاء كانوا يستطيعون التخفيف من التنافر القائم في هذه الحالة بإضافة عبارة أو اعتقاد ثالث لهذا الخليط من الأفكار، كالقول إن الأحلاف زواج مصلحة، ضرورية أحيانًا لتحقيق أهداف نبيلة. وقد بنى روبرت جيرفيز أفضل أعماله في مجال العلاقات الدولية بناء على هذا النوع من التنظير[15].

كما طوّر آنغوس كامبل (Angus Campbell) وزملاءه نموذجًا نظريًا للانتخاب (voting) في كتابهم الناخب الأميركي (*The American Voter*)، وكان لهذا الكتاب

(14) Leon Festinger, *Theory of Cognitive Dissonance* (Stanford, CA: Stanford University Press, 1957).

(15) Robert Jervis, *Perception and Misperception in International Politics* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1976).

توجه نفسي صريح[16]، وبينما انطلق بول لازرفيلد (Paul Lazarsfeld) وآخرون من منطلق يرى أن العوامل الاقتصادية والاجتماعية تحدد اقتراع الفرد، رأى كامبل وزملاءه أن هناك متغيرًا (variable) ذاتيًا، نفسيًا يؤدي دورًا وسيطًا بين العوامل النفسية الذاتية والاقتراع. ويزعم كامبل وزملاءه أن المقترعين يطورون في السنوات المبكرة من حياتهم انتماءً طويل الأمد يربطهم بحزب سياسي معين. ويأخذ هذا الانتماء شكل الارتباط الطبيعي الوثيق لواحد من الأحزاب، شبيه بالولاء الديني[17]. واعتقد كامبل وزملاءه أن هذه الكتل من المقترعين الشديدي التعلق بأحزابهم، كتل ثابتة عبر الزمن نسبيًا، وأنها تمثّل ثلثي الهيئة الانتخابية. وأما الثلث «المستقل» - الذي لم يطور الولاء النفسي (الحزبي) لسبب ما - فهم الذين يقررون نتائج الانتخابات الرئاسية، من حيث إنهم يؤلفون نوعًا من «الصوت المتأرجح» في مركز الهيئة الانتخابية. وقد بُني هذا النموذج النظري، صراحة على أساس من نظرية الاتساق المعرفي، حيث إنه يلمح إلى أن أصحاب الولاء الحزبي الشديد يستبعدون المعلومات غير المحبّذة بشأن أحزابهم أو يبررونها على نحو ما، ويصوتون لأحزابهم حتى وإن كانوا أحيانًا لا يتفقون معها في قضايا معينة (كما فعل الديمقراطيون الجنوبيون الذين كانوا يعارضون الدمج العنصري الكامل، لبضع سنوات بعد إمرار قانون الأحوال المدنية في منتصف الستينيات). ويجادل فيليب كونفرس (Philip Converse) بوجه خاص أن معظم المقترعين يفتقرون إلى نظام مخصوص بهم من الاتجاهات والاعتقادات المتسقة في ما بينها، وأنهم يعتمدون بدلًا من ذلك على الروابط الحزبية الطويلة الأمد لتقرير أصواتهم[18]. فالحزبيون الموالون لأحزابهم بشدة يفسرون الأداء الاقتصادي الضعيف [للشخص

---

(16) Angus Campbell [et al.], *The American Voter:An Abridgment* (New York: Wiley Press, 1964)

(17) تمّ إدخال هذا النموذج في دراسة الخيار الانتخابي البريطاني من دايفد باتلر وشركائه، على سبيل المثال، انظر: David Butler and Donald Stokes, *Political Change in Britain: Forces Shaping Electoral Choice* (New York: St. Martin's Press, 1969).

(18) Philip Converse, «The Nature of Belief Systems in Mass Publics,» in: David E. Apter, ed., *Ideology and Discontent*, Internaional Yearbook of Political Behavior Research; V. 5 (London: Free Press of Glencoe, 1964).

الذي تولى المنصب السياسي عن حزبهم] على أنه نتيجة لشيء آخر غير الخيارات السياسية للحزب. فعندما أُثير الشك في قدرة أدلاي ستيفنسون (Adlai Stevenson) بوصفها مرشحًا للرئاسة عن الحزب الديمقراطي عام 1956، كان يمكن للديمقراطيين المتشددين أن يخفضوا التنافر الذي ينتج من هذا الوضع بالتقليل من شأن المعلومة [المتعلقة بقدرة المرشح] أو حجبها. هذا، ويتوقع أن يكون المتشددون من الحزب الجمهوري قد فعلوا الشيء ذاته عندما ظهر للعلن أن المرشح الرئاسي باري غولدووتر (Barry Goldwater) يحمل وجهات نظر متطرفة حتى إنه قد يمثّل خطرًا على السلم العالمي.

وفي الوقت ذاته، بدأت نظرية الناخب العاقل أو الخيار العاقل (rational actor theory or rational choice) تزداد أهمية [في تلك الحقبة] كنموذج نظري للسلوك الانتخابي قائم بذاته - وهو نموذج مبني على الرياضيات والاقتصاد وليس على علم النفس - وكوّن منافسًا لنموذج الهوية الحزبية (party identification model). وترى هذه المقاربة أن الناخبين أكثر اطلاعًا في واقع الأمر مما تفترضه نظرية الهوية الحزبية، فهم يدلون بأصواتهم بناء على عملية توفيق بين اتجاهاتهم الخاصة ومواقف أحزابهم بشأن القضايا المعينة. وكثيرًا ما يفترض أنصار هذه المقاربة مثلًا أن الناخبين يدلون بأصواتهم بناء على تقدير لمدى النفع المالي الذي تحقق لهم في خلال السنوات الأربع الماضية، ومدى النفع الذي تحقق للبلاد كلها، أو على مزيج من هذين التقديرين. وقد أضحى كتاب أنطوني داونز (Anthony Downs) **نظرية اقتصادية في الديمقراطية** المرجع الأساس لهذه المقاربة[19]. وبمقابلة هذين النموذجين يظهر التباين جليًا بينهما؛ فبينما يذهب النموذج الأول منهما إلى أن الناخبين يدلون بأصواتهم بناء على ولاءات أو تعلقات طويلة الأمد، يذهب أنصار المقاربة الجديدة إلى أن الناخبين يقتربون من «العقلانية الصافية» في قراراتهم الانتخابية. وهذان المنحيان يقابلان نموذجين متنافسين لعملية صنع القرار يصفهما ستيفن أنسولابير (Steven Ansolabehere) وشانتو آينغار (Shanto Iyengar) بـ «الإنسان الاقتصادي» (Homo economicus)

(19) Anthony Downs, *An Economic Theory of Democracy* (New York: Harper and Row, 1957).

والإنسان النفساني (Homo psychologicus)؛ وهما يتعايشان بصعوبة مع بعضهما في الوقت الحاضر، كما سنناقش بعد قليل[20].

الاعتقادات السياسية، معالجة المعلومات، وصنع القرار

أما المرحلة الثالثة من تاريخ علم النفس السياسي التي يتحدث عنها مكغواير فقد أخذت بالتشكل خلال المرحلة الثانية. فمنذ الثمانينيات أصبحت المقاربات المعرفية هي المقاربات الأكثر تأثيرًا في علم النفس السياسي؛ وهي المنظورات التي تؤكد محتوى البنى المعرفية [من الأفكار والتصورات والاعتقادات] التي يمتلكها الناس ودورها في تكوين السلوك، وصناعة القرارات بوجه عام. وهي لا تتمثل في مقاربة واحدة فحسب، ولكنها تتضمن منظورات عديدة، وإذا شئنا أن نلخص أوجه الشبه بين هذه المنظورات المتنوعة، نستطيع القول إنها جميعًا تنطلق من افتراض أن البشر مخلوقات محدودة بالفطرة؛ فهم ليسوا كالكمبيوتر مثلًا، وقدرتهم على معالجة المعلومات التي تردهم محدودة، فماذا يقصدون بذلك؟ حسنًا، لكي تصنع قرارًا عقلانيًا تمامًا، تحتاج إلى كل المعلومات ذات الصلة بذلك القرار، وإلى النظر في جميع السبل المتاحة لتنفيذ ذلك القرار. ولكننا نعرف أن البشر في الحياة الواقعية لا يمتلكون المعلومات التامة على أي حال، ولا الطاقة المطلقة [لتجريب كل السبل المتاحة]. فالعالم مكان معقد إلى حد لا يصدق، والفرد العادي يتعرض لقصف متواصل من المعلومات لا يمكن لدماغ أي فرد منا تمثله تمامًا.

افرض أنك كلما اتخذت قرارًا كان عليك أن تجمع كل المعلومات ذات الصلة بذلك القرار. لنقل إنك رغبت في اتخاذ قرار عقلاني تمامًا عن المكان الذي ستتناول فيه طعامك كل ليلة. فلكي تحقق معايير العقلانية التامة بدقة، يجب عليك أن تقرأ قوائم الطعام في جميع المطاعم والمقاهي في بلدتك أو مدينتك، ويجب عليك أيضًا أن تتذوق الوجبات الرئيسة في كل مطعم متاح

---

(20) Stephen Ansolabehere and Shanto Iyengar, «Information and Electoral Attitudes: A Case of Judgment Under Uncertainty,» in: Iyengar and McGuire, eds., *Explorations in Political Psychology*, pp. 322-328.

ذلك المساء، وتختبر مذاق الطعام، ونوعيته، وسعره، وتقرر الخيار الأمثل بالنسبة إليك وإلى ما تفضله. وبهذه الطريقة كما يقول الاقتصاديون نحقق «المنفعة القصوى» (maximum your utility) باختيار أفضل بديل نسبة إلى تكلفته. وبطبيعة الحال، فإن الفرد الإنساني نادرًا ما يتصرف على هذا النحو، وبدلًا من ذلك، كثيرًا ما نقوم بمعالجة المعلومات من خلال ما يسمى «الطرائق المعرفية المختصرة» (cognitive short cuts) أو الموجهات الذهنية العملية [القواعد المبنية على الخبرة] (heuristics). هذه الطرائق تحدنا في البحث عن معلومات إضافية وتؤدي بنا إلى الوصول إلى قرار أو آخر بسرعة أكبر مما لو لم نتبع تلك الطرائق. ونحن عمليًا نقوم باختيار المطعم أو المقهى ذاته في كثير من الأحيان لأننا نتوقع أن يكون الطعام أفضل أو السعر أفضل أو الاثنان معًا، إذا كان الحال كذلك في المرة الماضية.

وكان الرائد في تطوير وجهة النظر الواقعية هذه في صناعة القرار لدى الإنسان هو هربرت سيمون (Herbert Simon) وهو منظر في مجال التنظيمات وعالم نفس سياسي. وقد جاء سيمون باثنين في الأقل من المفاهيم المهمة سيظل يُذكر فضله بهما وهما: «العقلانية المحدودة» (bounded rationality) و«سلوك الاستكفاء»[21] (satisficing behaviour). ويزعم سيمون أن البشر في صناعتهم للقرار يكونون عقلانيين في حدود المعلومات المتاحة لهم (والتي كثيرًا ما تكون إما محدودة وإما وافرة جدًا يصعب معالجتها ذهنيًا). ونتيجة لذلك، كثيرًا ما «نكتفي» بما يتوافر لنا بدل أن نعمل على «تعظيم المنفعة». وبعبارة أخرى كثيرًا ما نمسك بأول بديل مقبول يمكن أن «يفي بالغرض» من بين منظومة غير محدودة من البُدَلاء الممكنة. لذا، فإنك إذا لم تكن قد قررت أين تأكل ذات مساء، فإنك لن تذرع الشارع من أقصاه إلى أقصاه (والشارع المجاور له أيضًا) وتفحص كل مكان فيه، وتختبر الأسعار ونوعية الطعام بتفصيل دقيق، ولكنك بدلًا من ذلك ستختار أول مكان مقبول تصادفه. وهذا ما يقوم به صانعو السياسة

(21) على سبيل المثال، انظر: Herbert Alexander Simon, «A Behavioral Model of Rational Choice,» in: Herbert Alexander Simon: *Models of Man, Social and Rational: Mathematical Essays on Rational Human Behavior in a Social Setting* (New York: Wiley Press, 1957), *and Reason in Human Affairs*, Harry Camp Lectures at Stanford University (Stanford, CA: Stanford University Press, 1983).

في كثير من الأحيان. فبناء على منظور «العقلانية المحدودة» عندما يواجه السياسيون عددًا غير محدود من الحلول الممكنة لمشكلة ما، فإنهم يختارون أول بديل مقبول متاح لهم. لذا، فإنه حين يتاح لك عدد هائل من البُدَلاء من «أ» إلى «ي»، مثلًا، فإنك ستبدأ بـ «أ»، وتنتقل إلى «ب»، ثم إلى «ج» وهكذا حتى تجد حلًا مقبولًا، ولنقل إنه كان «د»، عند ذلك ستقف على الأرجح ولن تسير أبعد من ذلك. وربما لا يكون «د» هو أفضل البُدَلاء أو الذي يحقق أعظم النفع – فقد يكون ذلك هو «ل» أو «ك» أو «ي» – ولكنك لا تستطيع النظر في كل ما هو متاح.

ومن الطرائق المختصرة التي سنناقشها لاحقًا في هذا الكتاب، طريقة قياس التمثيل/ القياس بالمماثلة [بين موضوعين واستنتاج أن ما ينطبق على أحدهما ينطبق على الآخر] (analogical reasoning) – وتشير هذه الطريقة أساسًا إلى استخدام مواقف سابقة من أجل فهم الحاضر والتنبؤ بالمستقبل. فعندما يواجه صانعو القرارات موقفًا جديدًا يكتنفه الغموض، كثيرًا ما يعتمدون على التاريخ ليفهموا ما يجري. فنسأل أنفسنا (بوعي وفي كثير من الأحيان بغير وعي) «ما الذي أراه في ذلك الموقف؟» كما نسأل أنفسنا، ماذا في خبرتي السابقة، أو في معرفتي بالتاريخ ما يعطيني دليلًا على ما يجري؟ والعلاقات الدولية مملوءة باستخدام القياس التاريخي، وقد جرى دراسة السكيمات (schemas) [الأطر المعرفية]، والنصوص/ السيناريوهات (scripts)، وقياس التمثيل/ المماثلة كطرائق معرفية مختصرة دراسة حثيثة في مجال السياسة الخارجية بوجه خاص.

الإنسان الاقتصادي والإنسان النفساني

لم يتأثر التطور الحديث في العلوم السياسية بعلم النفس فحسب، ولكنه تأثر بالاقتصاد إلى جانب ذلك. وهناك منظوران لتحليل صناعة القرار يهيمنان على تفكيرنا في الوقت الحاضر، أحدهما مشتق من علم الاقتصاد، والآخر من علم النفس[22]. والجدول (2-1) يلخص هذين النموذجين.

(22) Ansolabehere and Shanto Iyengar, «Information and Electoral Attitudes: A Case of Judgment Under Uncertainty,» pp. 322-328.

المنظور الأول منهما يتمتع بشعبية على نحو ما، بوصفه مقاربة لفهم السلوك السياسي، وهو يتلاءم بحق مع تسميته بالخيار العقلاني. وعلى الرغم من أننا سنعود إلى هذا النموذج لصنع القرار في الفصول اللاحقة - كما لا بد أن نسلم أنه يُقدم استبصارات قيمة في السلوك السياسي - فإنه لا يعتبر (من وجهة نظر الكاتب في الأقل) مقاربة لدراسة علم النفس السياسي بالمعنى الضيق للكلمة. ومع أن دمج المنحيين النفسي والاقتصادي لبناء نظرية موحدّة لا يزال مدار بحث، إلا أنه ما من أحد نجح حتى الآن في هذه المهمة. ويسعى منظِّرو الخيار العقلاني بوجه خاص إلى جعل افتراضاتهم أكثر واقعية، إلا أن القوة الكبرى في «الإنسان الاقتصادي» تكمن في أنها تقدم طريقة لتبسيط السلوك الإنساني وجعله قابلًا للتنبؤ بشكل أو بآخر. ويستخدم كثير من الاقتصاديين هذا المنظور إطارًا لمنظومة مبسطة من الافتراضات مع علمهم التام بأن هذه الافتراضات غير واقعية، ولكنهم مع ذلك يستخدمونها أملًا في أن تولد هذه الافتراضات تنبؤات ونموذجات قوية لتفسير السلوك. ولا يسعنا بذلك إلا أن نتكىء على منظور «الإنسان النفساني» نظرًا إلى واقعيته الشديدة، على الرغم من كل ما ينطوي عليه السلوك الإنساني من خصوصية، وعدم قابلية للتنبؤ. وعلى أي حال، فإن ما تبقى من الكتاب سيركز على هذا المنظور الأخير، على الرغم من أننا سنشير إلى منظور «الإنسان الاقتصادي» لاحقًا، لكنه سيُشار إليه أساسًا للمقابلة فحسب لإبراز مزايا نموذج «الإنسان النفساني». وخلافًا للنموذج الأول، فإن علم النفس السياسي حقل إمبيريقي [يعتمد للأدلة العلمية]، ويُعنى بوصف سلوك السياسيين في الواقع وتفسيره، ولا يهتم أساسًا بما يجب أن يكونوا عليه، أو بوضع افتراضات مبسطة عن الواقع[23]. كما أنه ليس هناك اتفاق على الإطلاق بين علماء علم النفس السياسي، بشأن طبيعة الواقع، وتصوراتهم عن هذا الواقع.

---

(23) أقترح على القرّاء المهتمّين بالاتجاه الاقتصادي لتفسير السلوك الإنساني مطالعة كتاب كينيث شيبزل ومارك بونشك. انظر: Kenneth Shepsle and Mark Bonchek, *Analyzing Politics: Rationality, Behavior and Institutions* (New York: W. W. Norton, 1997).

وللاطلاع على نقد أوسع لهذا المنظور، انظر: Donald Green and Ian Shapiro, *Pathologies of Rational Choice: A Critique of Applications in Political Science* (New Haven, CT: Yale University Press, 1994).

لقد أوجزنا حتى الآن الفروق بين منحيين عامين لتفسير السلوك السياسي، هما: الموقفية والنزوعية. وقد عرضنا تاريخ علم النفس السياسي في خطوط عامة، مهّدنا به للعرض التاريخي المفصل الذي سيتبع في الفصول اللاحقة. كما وصفنا بإيجاز مقاربة «الإنسان النفساني» التي تمثّل أساس هذا الكتاب، وتمثّل كثيرًا من افتراضاته الضمنية، إضافة إلى المقاربة المنافسة المنبثقة من علم الاقتصاد. وعليه، فإن المهمة الآتية تتمثل في تحليل المنظورين الموقفي والنزوعي كإطارين عامين يشملان عددًا من النظريات والمقاربات. وسنبدأ هذه المهمة بمثال لنظرية موقفية بامتياز هي النظرية السلوكية والتي تنظر إلى البشر «بوصفهم صفحات بيضاء»، وترى أننا نولد من دون نزعات خاصة مسبقة، وأن البيئة الاجتماعية حولنا هي التي تكوّن سلوكنا، وتحدد في الحقيقة نوع الأفراد الذين سنكونهم.

الجدول (2-1)

ملخص الملامح الخاصة بنموذج «الإنسان الاقتصادي» ونموذج «الإنسان النفساني»

الإنسان الاقتصادي	الإنسان النفساني
- البشر أفراد عقلانيون تمامًا. - يمتلكون معلومات كاملة. - المقاربة مشتقة من الاقتصاد الجزئي أو ترتكز إليه. - يسعى الفرد إلى تعظيم «المنفعة الذاتية». - يوازن الفرد بين التكاليف والفوائد لأفعاله المختلفة. - يختار الفرد من ثم البديل الذي يوفر أعظم الفوائد نسبة إلى التكاليف.	- الفرد الإنساني «عقلاني بحدود». - الأفراد لا يمتلكون معلومات كاملة. - هناك حدود لقدرات الإنسان على معالجة المعلومات. - المقاربة مشتقة من علم النفس الاجتماعي وعلم النفس المعرفي. - الفرد «يقنع» بما هو متاح بدل أن يسعى إلى تعظيم المنفعة. - يوظف الفرد طرائق مختصرة متنوعة لمعالجة «الحمل الزائد من المعلومات» أو المعلومات المحدودة المتاحة. - ضغوط الجماعة أو المحيط العام قد تقود الفرد إلى السلوك بطرق غير عقلانية، أو مناقضة لاعتقاداته وقيمه.

الباب الأول

الموقف

3

السلوكية وحرية الإنسان

هيمنت النظرية السلوكية أو نظرية المثير - الاستجابة (stimulus-response behaviorisim) على حقل علم النفس في خلال الخمسينيات من القرن الماضي. وكان الاعتقاد السائد أثناء فترة المد السلوكي هذه أننا نستطيع من حيث المبدأ إهمال ما يجري في أذهان البشر لأننا لا نستطيع قياسه، ولا يكون تاليًا موضوعًا مناسبًا للبحث العلمي. وظنّ بعض السلوكيين أن فرويد جانب الصواب في محاولته الحثيثة لكشف آليات عقلية، خافية على المشاهدة في معظمها. لذا، اعتبر العديد من السلوكيين ما جاء به فرويد علمًا رديئًا؛ لأن «الحالات النفسية الداخلية» لدى البشر غير قابلة للملاحظة المباشرة، وما يجب التركيز عليه هو ذلك القابل للملاحظة فحسب، أي السلوك الظاهر (ومن هنا جاءت تسمية «السلوكية») لأن السلوك الظاهر قابل للقياس والاختبار.

وقد كان لهذا المنظور أثر كبير على العلوم السياسية كغيره من الأفكار العلمنفسية الشائعة - وكان يتلاءم مع طموح علم النفس (الذي كان شديدًا في حينه) لأن يصبح «علمًا حقيقيًا» - بمعنى أن يطور منظومة من النظريات المختبرة والموثوقة، والتي تقود في النهاية إلى تراكم معرفي أصيل[1]. وبصورة أكثر تحديدًا نستطيع القول إن السلوكية ألهمت علم النفس السياسي في تلك

(1) Heinz Eulau, *The Behavioral Persuasion in Politics*, Random House Studies in Political Science (New York: Random House, 1963).

الحقبة. ووفقًا لمكغواير فإن أحد المصادر الأساسية للتوجه «النظري - البيئي الملهم» الذي ظهر في العلوم السياسية في الخمسينيات كان «نظرية المثير - الاستجابة» السلوكية التي بيّنت أن شخصية الفرد السياسية تتكوّن بتأثير المؤسسات المجتمعية المختلفة وما تتضمنه من مثيرات، واستجابات، ودوافع، ومعززات»[2].

وجون واطسون (John Watson) هو مؤسس المدرسة السلوكية، وقد أثّر بدوره في سلوكيين بارزين مثل إدوارد ثورندايك (Edward Thorndike) وب. ف. سكنر. وينظر السلوكيون إلى العقل الإنساني كصفحة بيضاء، أو «لوح أملس» (tabula rasa) يمكن أن يُكتب عليه أي شيء باستخدام الإشراط البيئي [أي إنه يمكن التحكم في السلوك من خلال التحكم في شروط البيئة المحيطة]. ويصف ستيفن بنكر (Steven Pinker) موقف السلوكية هذا بقوله: «إن مواهب الطفل الرضيع وقدراته لا تهم السلوكية لأنه ليس هناك ما يمكن أن نسميه موهبة أو قدرة، فقد استبعدها واطسون من علم النفس مع غيرها من محتويات العقل مثل الأفكار، والاعتقادات، والرغبات، والمشاعر؛ لأنها ذاتية وغير قابلة للقياس، بحسب قوله، ولا تتلاءم مع العلم الذي يدرس الأمور الموضوعية القابلة للقياس»[3]. وكما أشرنا في نهاية الفصل السابق، فإن وجهة النظر هذه تمثل شكلًا متطرفًا من الموقفية (situationism) القائلة إن أسباب السلوك تكمن في البيئة الخارجية، وليس داخل العقل ذاته. وضمن خطاب ألقاه سكنر في مؤتمر الجمعية الأميركية لعلم النفس عام 1990، وكان خطابه الأخير قبل وفاته، استنكر سكنر دراسة المعرفة (cognition)، والعقل الإنساني ووصفها بأنها من «اختلاقات علم النفس»، وهذا تعبير كلاسيكي عن وجهة النظر التي تقول إننا يجب أن ندرس البيئات التي تصنع الأفراد، وليس ما يفعله الأفراد لصنع بيئاتهم.

---

(2) William McGuire, «The Poli-Psy Relationship: Three Phases of a Long Affair,» in: Shanto Iyengar and William McGuire, eds., *Explorations in Political Psychology*, Duke Studies in Political Psychology (Durham, NC: Duke University Press, 1993), pp. 12-13.

(3) Steven Pinker, *The Blank Slate: The Modern Denial of Human Nature* (New York: Penguin Books, 2002), p. 19.

ومما لا شك فيه أن الفكرة المركزية في جميع أشكال السلوكية هي الإشراط (conditioning). وتمثل تجربة بافلوف (Pavlov) الشهيرة التي أجراها عام 1927 نموذجًا للإشراط في شكله المعروف بالإشراط الكلاسيكي (classic conditioning). وقد جرى في هذه التجربة تدريب كلب بافلوف على إفراز اللعاب لدى سماع صوت جرس؛ حيث كان هناك جهاز يُسقط فتاتًا صغيرة من مسحوق اللحم على لسان الكلب كلما كان المجرب يقرع الجرس. وفي النهاية أصبح الكلب يُفرز اللعاب (وهذه هي الاستجابة المشرطة أو الشرطية) بمجرد سماع صوت الجرس (وهو المثير)، حيث تمكن الكلب من ربط شيء بشيء آخر. والتعلم بالإشراط الكلاسيكي يقوم على رد الفعل المنعكس/ الطبيعي (reflex) وهو رد فعل غير إرادي، ولكن سكنر - على الرغم من تأثره البالغ بيافلوف - كان أكثر اهتمامًا بالسلوك الإرادي وبما أصبح يسمى الإشراط الإجرائي (operant conditioning) الذي يتم فيه تعديل [أو تشكيل] السلوك الإرادي. ويتمثّل الإسهام الخاص بسكنر في السلوكية بالفكرة القائلة إننا نتعلم القيام بفعل ما [أو نكرر القيام بفعل ما] إذا ما استُتبع هذا الفعل مباشرةً بأثر سار - وهو ما يعرف بالتعزيز (reinforcement). وبناء على هذه الفكرة يزعم سكنر أن البشر يمكن أن يُدرّبوا من خلال الإشراط على القيام بالسلوك المقبول اجتماعيًا، والإحجام عن السلوك غير المقبول. وقد حدد سكنر الخطوط العامة لهذا التدريب في روايته وولدن تو[4] (*Walden Two*).

وفي هذه الرواية يخلق سكنر مجتمعًا خياليًا يحكمه «المديرون المخططون» (planner managers) - ما يستدعي إلى الذهن «الملوك الفلاسفة» لأفلاطون[5]. ويتخيل سكنر مجتمعًا يطيح السياسيين ليحل محلهم العلم والعقل. ويسخر بطل الرواية «فريزر» - وهو صورة عن سكنر ذاته بلباس تنكري واهٍ - يسخر من السياسيين والحكومة لعدم قدرتهم على تحسين حياة الناس. ويتضح ما يقوم به فريزر من خلال زيارة أستاذ علم النفس البروفيسور «بوريس» وصديقه

---

(4) B. F. Skinner, *Walden Two* (Indianapolis, IN: Hackett Publishing, 2005).
ظهرت الطبعة الأولى من هذه الرواية عام 1948.

(5) هذا الكتاب محاكاة لـ جمهورية أفلاطون في العديد من النواحي. انظر: المصدر نفسه.

الفيلسوف «كاسل» لمجتمع وولدن تو اليوتوبي. فيلاحظ الزائران أن السكان خالون من العاطفة إلى حد ما، وغير عاديين إلا أنهم سعداء، وأن مجتمعهم خالٍ من مشكلات كالجريمة وإدمان الكحول. ولا يظهر السبب الكامن وراء واقع الحال هذا في الصفحات المئة الأولى من الرواية، إلا جزئيًا، حيث يتم تسليط الضوء في الجزء الأول من الكتاب على كيفية تنظيم الأمور الدنيوية البسيطة في هذا المجتمع (مثل التحكم بدرجة الحرارة في أسرة الأطفال). ويتضح في ما بعد أن فريزر «نجح في إشراط «النقائص» كالغيرة، بعيدًا عن أعضاء مجتمع وولدن تو، ويقول فريزر في هذا الصدد: «لسنا خالين من الانفعالات ولا نريد أن نكون، ولكن الانفعالات المقيتة والمزعجة - تلك التي تولد التعس - فإنها غير موجودة هنا تقريبًا، كالتعس ذاته. لم نعد بحاجة إليها في صراعنا للبقاء، والاستغناء عنها أكثر رفقًا بدورتنا الدموية، وأدعى للسعادة بكل تأكيد»[6].

ومع أن الرواية كانت من نسج الخيال، كأي رواية، إلا أنها توحي لقرائها أن خلق مثل هذا المجتمع أمر ممكن. وينطوي هذا المدخل للمخلصين من أنصار السلوكية على إمكانات واسعة للهندسة الاجتماعية. ويزعم سكنر أنه «إذا استطعنا تحويل المجتمع إلى صندوق سكنر كبير وتحكّمنا في السلوك قصدًا لا عشوائيًا لاستطعنا إزالة العدوان، وضبط الزيادة السكانية، والتخلص من الاكتظاظ، والتلوث، وعدم المساواة، ولاستطعنا تاليًا الوصول إلى اليوتوبيا»[7]. وعلى الرغم من أن نوايا سكنر وراء هذه الدعوة كانت حسنة من دون أدنى شك، فإن الجوانب السياسية الراديكالية في تفكيره ألحقت ضررًا بسمعته إلى أجل طويل بعد وفاته حتى إن هناك في الوقت الحاضر من يعتبره «شريرًا»[8].

وبناء على هذه الخلفية يعرض فيلم «الآلية البرتقالية» (Clockwork Orange) وكتاب أنطوني بورغس (Anthony Burgess) الذي يحمل الاسم ذاته قصة شاب يدعى «ألكس» وهو سفّاح خطر يتم إخضاعه لتجربة اجتماعية؛ فيلقى القبض

---

(6) هذا الكتاب محاكاة لـ جمهورية أفلاطون في العديد من النواحي. انظر: المصدر نفسه.

(7) Pinker, *The Blank Slate: The Modern Denial of Human Nature*, p. 92.

(8) Lauren Slater, *Opening Skinner's Box: Great Psychological Experiments of the Twentieth Century* (New York: W. W. Norton, 2004), p. 7.

عليه ويُعهد به إلى عالم نفس يدعى «برودسكي» (وهو من أتباع واطسون وسكنر بشكل واضح). ويجري إشراطه ليُطور نفورًا من العنف، وذلك من خلال الربط بين رؤية مشاهد عنف والإصابة بالمرض الجسمي؛ حيث كان يُعطى عقارًا يُسبب الاستفراغ بينما كان يشاهد مناظر عنف على الشاشة، ويُجبر على فتح أجفانه للتيقّن من بمشاهدته لتلك المناظر. ويسمي «بورغس» هذا التكنيك في روايته بـ «تكنيك لادوفيكو». وكان أن جعلوا «ألكس»، المجرم الخطر، مسالمًا بالقوة.

وقد طاول بورغس شيء من سوء السمعة، بغير حق، عندما قام المخرج السينيمائي ستانلي كوربرك بتحويل كتابه إلى فيلم عنف في بداية السبعينيات. ولم يكن بورغس يقصد من الكتاب تمجيد العنف، بل كان يقصد طرح قضية فلسفية عن الإنسان وحرية الاختيار وهو ما يتناقض مع طموحات السلوكية لتغيير المجتمع. وبحسب تعبير بورغس ذاته كانت الرواية «إثباتًا لحرية الإرادة»[9]. وتتضح فكرة بورغس هذه عندما يقوم الدكتور برودسكي بتقديم ألكس «المعدّل» إلى جمهور، يُفترض أن يكون صفًا دراسيًا من نوع ما، قائلًا: «هذا الشخص الذي اتخذناه موضوعًا للتجربة، أُرغم على الخير من حيث إنه كان مرغمًا على الشر، ويا للمفارقة!». ويتابع برودسكي مخاطبًا الجمهور: «جعلنا أي نية لديه للقيام بفعل عنف يصاحبها شعور شديد بالإعياء الجسمي، وللتخلص من تلك المشاعر كان عليه اتخاذ اتجاه مضاد تمامًا للنية الأولى بكل ما في الكلمة من معنى». على أن أحد السائلين يعترض قائلًا: «إن ألكس الآن لا يملك خيارًا حقيقيًا، أليس كذلك [...] هو ما عاد يرتكب فعل الشر، ولكنه ما عاد مخلوقًا قادرًا على الاختيار الأخلاقي» [بمعنى أنهم جعلوا امتناعه عن فعلِ الشر أمرًا لا إراديًا، وليس خيارًا إراديًا]. ويرد برودسكي على هذه الحجج قائلًا: لسنا معنيين بالجانب الأخلاقي من الأمور، وإنما نحن معنيون بقطع دابر الجريمة»[10]. ولكن الفكرة الأساس لدى السائل أن القدرة على الاختيار بين

(9) Anthony Burgess, *You've Had Your Time: Being the Second Part of the Confession of Anthony Burgess* (New York: Penguin Books, 1990), p. 245.

(10) Anthony Burgess, *A Clockwork Orange*, Restored Version (New York: W. W. Norton, 1986), p.126.

صدَرَ هذا الكتاب بداية عام 1962، كما ظَهَرَ هذا المشهد في فيلم كوبرك، حيث لعِب كاهن دور السائل.

الصواب والخطأ هي ما يجعل الإنسان إنسانًا، وإذا ما أُخذت منا هذه الميزة، بطريقة أو بأخرى، فإننا نفقد إنسانيتنا. والمغزى السياسي وراء ذلك هو أن الحكومة عندما عرّضت «ألكس» لهذه التجربة ألحقت به أذى يفوق الأذى الذي صنعته جرائمه.

ومن جانب آخر من السهل رؤية الفوائد الاجتماعية لمثل هذه التكنيكات إذا ما وُضعت موضع التنفيذ. لقد توفي سكنر قبل بضع سنوات من نشر كتاب بورغس ولكنه كان سيرد على نقده بشيء كالآتي: لقد تم إشراطنا جميعًا من خلال الظروف التي نعيشها وهذا ما يحدث حاليًا بطريقة اعتباطية، غير منظمة، ولكن ماذا لو سُمح لعلماء النفس والأطباء النفسيين بإِشراط عامة أفراد المجتمع، بدعم من الحكومة بطبيعة الحال، ليسلكوا بطرائق مقبولة اجتماعيًا، أو في الأقل لكي لا يسلكوا بطرائق عنيفة أو مضادة للمجتمع؟ إن كل ما ندعو إليه هو تنظيم عملية الإشراط التي تحدث طبيعيًا على أي حال. خذ على سبيل المثال جريمة الاغتصاب، إن معظم الذكور في المجتمعات الصناعية المتقدمة يربأون بأنفسهم عن ارتكاب مثل هذا الفعل، على الأرجح، حتى لو سمح لهم المجتمع بذلك، على الرغم من صعوبة قياس هذا الاتجاه للتحقق من مدى صحته. ولكن الذكور في المجتمعات التي تسيء معاملة النساء بوجه عام، قد يقومون بالإساءة إلى النساء فعليًا وبطرائق مختلفة إذا كان المجتمع يبيح ذلك أو يشجعه. ولكن ماذا لو تم إشراط جميع الذكور في المجتمع في عمر مبكر كي يجدوا الاغتصاب وغيره من جرائم العنف مقيتة وبربرية؟ ماذا لو تعلموا أن يجدوا هذه الجرائم مقززة إلى حد يجعلها لا تخطر على بال إطلاقًا؟ أليس هذا ثمنًا يستحق أن ندفعه؟ وقبل هذا وذاك لا بد أن يكون هناك حدود للحرية، ونحن نقبل هذه الحدود بقبولنا للقواعد والقوانين، والسلطة بمختلف أشكالها. ومع أن حرية الإرادة أمر مرغوب بلا شك، إلا أن أمورًا كحرية الاغتصاب والتعذيب والقتل لن تجد من يدافع عنها. ألا يكون المجتمع أفضل حالًا في نهاية الأمر لو أن «ألكس» وأمثاله فقدوا حقهم في حرية القرار الأخلاقي؟

ولكن من الذي يحق له أن يقرر السلوكيات التي يجب أن تشجّع، وتلك التي يجب ألا تشجّع؟ فنحن نتفق جميعًا على سبيل المثال على أن الاغتصاب

غير مقبول، ولكن ماذا عن قراءة الكتب الإباحية؟ وماذا عن شرب الكوكايين؟ هل يجب أن يتم إشراطنا جميعًا لنجد تعاطي المخدرات أمرًا لا يخطر على بال؟ هل يجب أن نُشرَط لكي لا نتعاطى تدخين التنباك أو شرب الكحول؟ النقطة المهمة هنا أن أحدًا ما يجب أن يقوم بوضع خط بين المقبول وغير المقبول، وأن يكون هذا الخط محددًا اجتماعيًا، وأن يتاح له تاليًا أن يكون موضوع جدل سياسي. ولنأخذ عددًا من الأمثلة الشهيرة في هذا السياق؛ فتعاطي الماريوانا مثلًا مشروع في مقاهٍ مرخّصة في هولندا، ولكنه قد يقود إلى تمضية ليلتين في السجن مع دفع غرامة كبيرة في لندن - ليس بعيدًا من هولندا. والبغاء مشروع في أجزاء من نيفادا ولكنه ليس كذلك في أوهايو. ويستطيع أي شخص اقتناء بندقية في الولايات المتحدة عندما يبلغ الثامنة عشرة ولكنه لا يستطيع طلب كأس من البيرة، في حين يستطيع كل من يبلغ الثامنة عشرة، أو حتى دونها، طلب ذلك في أي حانة في معظم أرجاء أوروبا الغربية، ولكنه سيجد من الصعب شراء سلاح ناري بطريقة قانونية. والمثير للسخرية أن شرب ويسكي البوربون «جاك دانيالز» في بلد المنشأ غير قانوني، حيث لا يُسمح فيها بشرب الكحول، بينما يستطيع المتسكعون على طول شارع بوربون في نيوأورليانز شربه من الزجاجة. وتُرجَم النساء الزانيات حتى الموت في إيران، في حين أن من يرتكب هذه الجنحة (سواء كان امرأة أم رجلًا) يُعاقب في الولايات المتحدة بمجرد تكشيرة. وهناك أمثلة لا حدود لها يمكن أن نوردها في هذا السياق، لكن النقطة الجوهرية هي أن المجتمعات المختلفة، وحتى الأجزاء المختلفة من البلد الواحد، لها وجهات نظر مختلفة في الصواب والخطأ. ويظهر ذلك واضحًا للعيان في نظام فدرالي كالولايات المتحدة - التي تمتلك خليطًا من القوانين يربك الزائرين لها ويحيرهم.

وقد كان سكنر ذاته واعيًا بهذه القضية، وسأل: «من ذا الذي يصنع البيئة الحاكمة ويحدد غاياتها؟» ويتابع، «يُفترض أن الإنسان الموجّه ذاتيًا يحكم نفسه بنفسه وفقًا لقيم مبنية في داخله، ويعمل لغاية خيّرة في نظره. ولكن، ما الذي يجده الحاكم المزعوم خيرًا، وهل سيعدّ ذلك خيرًا في نظر الذين يحكمهم؟»

إن الإجابة عن مثل هذه الأسئلة يقتضي حكمًا قيميًا طبعًا»[11]. كذلك كان سكنر واعيًا بقضية انتفاء القدرة على صنع القرارات الأخلاقية لدى الإنسان المشرَّط. فقبل نقد بورغس بوقت طويل، جعل سكنر شخصًا يدعى «كاسل» في «وولدن تو» يوجه إلى فريزر نقدًا حادًا لأنه «انتزع الزنبرك الرئيس من الساعة»[12]. وقصد بذلك أن فريزر انتزع من أفراد مجتمع «وولدن تو» الشيء الذي يجعلهم بشرًا. ويتصدى فريزر لاحقًا لمسألة حرية الإرادة بشكل مباشر، فيقول إن الفكرة فكرة وهمية في مجتمع تم إشراطه في حقيقة الأمر بطريقة عشوائية اعتباطية، ويضيف:

صديقنا كاسل قلق بشأن الصراع بين الدكتاتورية الشاملة وحرية الإرادة. ألا يعرف أنه يثير السؤال القديم عن المصير المحتوم وحرية الإرادة؟ كل ما يحدث يحدث وفق خطة معدّة سلفًا، ولكن الأفراد يجرون الخيارات ويحددون النتائج في كل مرحلة من مراحل تلك الخطة. وهذا ينطبق على «وولدن تو». فأعضاء مجتمعنا يقومون عمليًا بما يريدون - أو بما يختارون فعله - ولكننا نعمل على جعلهم يرغبون في ما هو أفضل لهم ولمجتمعهم. سلوكهم محدد [مخطط له]، ولكنهم أحرار»[13].

ويقول فريزر في مناسبة أخرى: إن هذه القضية الفلسفية ليست سوى مماحكة لا أهمية لها، «فنحن [في «وولدن تو»] لا نـخلق الحيرة لأدمغتنا الصغيرة بالمفاضلة بين الحب والواجب... نحن ببساطة نرتب عالمًا لا تحدث فيه صراعات حادة إلا نادرًا، أو إطلاقًا إذا أسعفنا الحظ»[14].

غنت فرقة «الرولنج ستونز» في الستينيات أغنية من تأليفها تقول: «أنا حر أعمل ما أريد في أي وقت مضى». ولكن سكنر شكك في صحة الفكرة (الشائعة) بأننا أحرار لمجرد أننا نفعل ما نريد. ويُشكك سكنر في صحة الفكرة

(11) B. F. Skinner, *Beyond Freedom and Dignity* (Indianapolis, IN: Hackett Publishing, 2002), p. 22.

ظهرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب عام 1971.

(12) Skinner, *Walden Two*, p.103.

(13) المصدر نفسه، ص 279.

(14) المصدر نفسه، ص 149.

الشائعة بأن البشر يختارون اختيارات حرة ومستقلة، ويزعم أن مفاهيم الحرية والكرامة الإنسانية ما هي إلا أوهام - في معظمها، فنحن نريد ما نريد لأننا أُشرِطنا كي نريد الشيء الذي نريده، وذلك من خلال المعززات الإيجابية (المكافآت) والمعززات السلبية (العقوبات) أو كليهما. عند اقتراحه سيطرة الدولة على عملية الإشراط لم يساوره قلق من خطورة التحول إلى التوتاليتارية (الشمولية)، بل نادى بها. هذه الأفكار قرعت أجراس الإنذار لدى العديد من النقاد - في حقبة حارب فيها الغربيون خطر الفاشية، وشُغلوا بالتحدي الذي خلقته الشيوعية العالمية، فكان هذا هو الجانب المظلم من تفكير سكنر وهو ما أساء إلى سمعته إلى أمد طويل بين الطلبة والباحثين الذين لم يعرف بعضهم عن أعماله إلا القليل.

وفي نهاية الأمر قد يكون هذا الجدل عقيمًا - على الرغم من أهمية القضايا مدار النقاش فيه - حيث إن معظم علماء النفس اليوم يشككون في قدرة الإشراط على تغيير سلوكيات الفرد الأساسية من حيث المبدأ. ومع أن كتاب الآلية البرتقالية والفيلم المرتبط به يبينان أن الإشراط يفعل فعله، إلا أن تطبيق تكنيكات شبيهة بلادوفيكو في مواقف واقعية لم تلق النجاح، ومن ضمن هذه المحاولات محاولة تغيير التوجهات الجنسية المثلية[15]. والمشكلة في توقع نجاح هذا النوع من الإشراط تكمن في الافتراض بأننا «صفحات بيضاء» يمكن أن يُنقش عليها ما تحمله الثقافة والبيئة المحيطة من مضامين، ولكن بناءنا الجيني وشبكاتنا العصبية، ونزعاتنا - بالمعنى الذي استعملناه في هذا الكتاب - تؤدي دورًا حاسمًا في تكوين سلوكنا.

إلا أن من الخطأ افتراض أن الإشراط لا يعمل أبدًا - فهذا الافتراض مُجانب للصواب. لكن التكنيكات السلوكية بشكل عام، تعمل على أفضل وجه ممكن حين يكون التغيير المطلوب ليس تغييرًا جذريًا في أسلوب الحياة، حيث يمكن معالجة اضطرابات القلق بنجاح في كثير من الأحيان باستخدام الإشراط. ومن هذه الاضطرابات القلق الاجتماعي وما يصاحبه من نوبات

---

(15) Pinker, *The Blank Slate: The Modern Denial of Human Nature*, p. 94.

هلع في المواقف الاجتماعية أحيانًا. إذ يبدأ علاج هؤلاء الأشخاص بتهدئة روعهم مرات متتالية في مواقف «آمنة» أو تمثيلية حتى يحل الشعور بالأمن محل الشعور بالقلق عندما يكونون مع أناس لا يعرفونهم. فمعظم المدرسين المبتدئين يشعرون بالتوتر عندما يواجهون مئتين من الطلبة لأول مرة - كما حدث مع مؤلف هذا الكتاب قبل بضع سنين. ولكن الإشراط يساعد على التخلص من التوتر حين تتكرر مواجهة الفرد للموقف الباعث على القلق [في ظروف مريحة يوفرها المعالج] فتأخذ مشاعر القلق بالتبدد تدريجًا وتحل محلها مشاعر الارتياح عند مواجهة الموقف لاحقًا.

غير أن هناك حدودًا لتعديل السلوك من خلال الإشراط المنظم. فعلى سبيل المثال، حارب لاعب كرة القدم الأيرلندي جورج بيست معركة طويلة ضد إدمان الكحول. وكان بيست صاحب موهبة استثنائية، لعب مع فريق مانشستر يونايتد في أوج احترافه من نهاية الستينيات إلى نهاية السبعينيات. وأمضى في الولايات المتحدة المرحلة الأخيرة من حياته المهنية ضمن اتحاد أميركا الشمالية لكرة القدم (المنتهي). وعاش حياة المشاهير، وكان يُصَوّر في ملاهي لندن الليلية وهو يرفع زجاجات الشمبانيا بصحبة عارضات أزياء جميلات.

وكالعديد من مدمني الكحول، أصبح بيست شخصية غير موثوق بها في مجاله المهني حتى إنه ما عاد يذهب إلى المباريات. وبعد تقاعده من كرة القدم ظل بيست يشرب ويذهب إلى الحفلات إلى حد مبالغ فيه. وفي إحدى مراحل حياته قام الأطباء بزراعة جهاز في داخله يؤدي به إلى الاستفراغ كلما شرب الكحول - وهذا نوع من الإشراط الكلاسيكي على طريقة كلب بافلوف - أملًا في أنه سيربط بين طعم الشراب والإصابة بالمرض. ولكن ذلك لم ينجح وعاد إلى الشراب حتى بعد إجرائه زراعة للكبد. وتوفي في النهاية عام 2005 عن تسعة وخمسين عامًا فقط[16]. وباستثناء البرازيلي بيليه وربما الأرجنتيني

(16) تتمثّل المشكلة الخاصة في هذا التكنيك عند تطبيقه على الكحوليين في أن كثيرين منهم تعودوا الاستفراغ آخر الليل أو في الصباح الباكر لليوم التالي على أي حال، وبذلك فإن محاولة إشراطهم باستخدام عقوبة يلحقون بها أنفسهم بانتظام لن تؤدي إلى إحداث تغيير في السلوك على الأرجح.

مارادونا، يعتبره كثيرون أمهر لاعب على الإطلاق وأكثرهم موهبة وقدرة على إمتاع الجمهور.

لا شك في أن رؤية سكنر هذه تنطوي على جوانب سياسية راديكالية: فعندما يجادل في أن خياراتنا في الواقع لا تصدر عن إرادة حرة فإنه بذلك يقوِّض - في ما يقوِّض - الفكرة الأساس التي يقوم عليها النظام القانوني الغربي. فذلك النظام يفترض - بأبسط صيغة ممكنة - أننا إذا قمنا بأفعال ذميمة، فإننا نستحق العقاب؛ خياراتنا لها تبعات ونحن مسؤولون عنها. ولكننا إذا ما قبلنا الحجة المضادة القائلة إن خيارات البشر ليست ذاتية [لا تصدر عن إرادة حرة]، فإننا بذلك لا نهدم فكرة أن الأفعال «السيئة» يجب أن تعاقب فحسب، ولكننا نهدم أيضًا فكرة أن الإنجازات «الحسنة» تستحق الثناء والمكافأة. وتصبح البيئة المحيطة بنا كأنها نوع من محرِّك الدمى. ويفيد سكنر أن الرؤية التقليدية للأمور بأن الفرد «يُعتَبر مسؤولًا عن سلوكه، ليس بمعنى أن يُلام أو يُعاقب عندما يخطئ فحسب، بل كذلك بمعنى أن يُنسب إليه الفضل ويُحاط بالتقدير لما يحقق من إنجازات». ومن جهة أخرى، يضيف سكنر: «إن التحليل العلمي ينقل الفضل كما ينقل اللوم إلى البيئة المحيطة، ولا تكون الممارسات التقليدية مبررة تاليًا. في هذه التغييرات في الرؤية راديكالية، وأولئك الذين يلتزمون النظريات والممارسات التقليدية سيقاومونها بطبيعة الحال»[17].

وسنعيد النظر في هذا النوع من الموقفية في الفصل الخامس من هذا الكتاب - وإن كان بمستوى أبسط من التناول - ونبيّن كيف أن هذا المنظور الموقفي يمثل تحديًا لفكرة مسؤولية الفرد القانونية، وذلك عندما نتناول تجربة ستانفورد، وفضيحة «أبو غريب»، وشهادة زمباردو في محاكمة أحد المتهمين في «أبو غريب» ومحاولته بيان أن المتهم لم يكن مسؤولًا عن أفعاله مسؤولية كاملة. وكما أشرنا في الفصل الأول، فإن القول إن المواقف تحدد أفعالنا يمثّل تحديًا هائلًا للأفكار الغربية المتعلقة بالمسؤولية القانونية، والتي تقوم على افتراض أنك إذا قمت بفعل ما، فإنك تُعتبر مسؤول قانونيًا عن ذلك الفعل

(17) Skinner, *Beyond Freedom and Dignity*, p. 21.

(والاستثناء لهذه القاعدة هو حالة القتل غير المتعمد، والذي يتعرض مرتكبه مع ذلك للعقوبة في معظم الأنظمة القانونية، كما أن إثبات الجنون طريقة أخرى طبعًا لتجنب المسؤولية القانونية عن فعلٍ ما).

لكن رؤية سكنر للعالم تنطوي على قدرٍ كبير من الديمقراطية في بعض جوانبها، فهي تلتقي «الحلم الأميركي» على سبيل المثال، الأمر الذي يفسر (ربما) الجاذبية التي تمتعت بها نظريته في حقبة الأمل التي جاءت بها الخمسينيات والستينيات. وربما يكون من السهل تصوير وجهة النظر الثقافية هذه كاريكاتوريًا، فالأميركيون يحملون منذ أمد طويل اعتقاد أن الأفراد أحرار في السعي إلى الأعمال وأساليب الحياة التي يرغبون فيها ماداموا لا يألون في ذلك جهدًا و«يلعبون وفق القانون». وبعبارة موجزة، تستطيع أن تكون ما تريد أن تكونه، وطريق حياتك ليس محددًا مسبقًا. وتتفق السلوكية كثيرًا مع هذه الرؤية وترى أن تطبيقها متاح؛ حيث يرى واطسون كما يرى سكنر أن نزعاتنا ليست ثابتة وإنما هي مرنة جدًا، وإن إنجازاتنا في الحياة تتحدد ببساطة بنوع الإشراط الاجتماعي الذي نتعرض له. فالشخص الذي أُشرط ليعتقد أنه قادر على تحقيق أشياء عظيمة في الحياة سيسعى إلى تحقيقها، على الأرجح، كما أن الشخص الذي أُشرط ليعتقد أن وضعه الاجتماعي يُكبّله لن يسعى إلى الانعتاق من ذلك الوضع [أي إن البيئة هي التي تُحْدث النزعات في كل الأحوال].

تقويم السلوكية

يبدو واضحًا أن هناك حججًا قوية تدعم السلوكية وحججًا قوية تعارضها سواء على صعيد تفسير السلوك السياسي أو على صعيد توجيه الممارسات السياسية. ويقدم الجدول (3-1) تلخيصًا لبعض من هذه الحجج.

خاتمة

إن القارئ مدعو لأن يقرر بنفسه بشأن هذه الحجج وأيها أكثر إقناعًا. ولعله من الغريب أن نجد قلة من الكتب الدراسية في علم النفس السياسي في الوقت الحاضر يُعنى بالمنطويات السياسية للسلوكية، نظرًا إلى أن الاهتمامات القائمة

في علم النفس في الحقبة الراهنة تلتقي بشكل مباشر الاهتمامات القائمة في مجال النظرية السياسية ومجال الممارسة السياسية على حد سواء. كما أن هذا الموضوع يتفق إلى حد كبير مع التمييز المفهومي بين الموقفية والنزوعية الذي ينطلق منه هذا الكتاب، من حيث إن السلوكية تمثل نموذجًا راديكاليًا للأول منهما. وحتى إذا بقيت غير مقتنع بـهذا الشكل الصارخ من أشكال الموقفية، يظلِ هناك مناحِ بديلة متاحة تحت المظلة العامة للموقفية، مما قد تجده أكثر قبولًا. وسنقومٍ بمناقشة هذه البُدَلاء في الفصول القادمة ونبدأ بعرض تجارب ملغرام ونتائجها المدهشة عن طبيعة طاعتنا للسلطة ومداها. ومقاربة ملغرام مقاربة موقفية في الجانب الأكبر منها، على الرغم من وجود بعض العناصر النزوعية في نظريته في الطاعة، كما يوضح الفصل الرابع من هذا الكتاب.

الجدول (3-1)

ملخص الحجج المؤيدة والحجج المعارضة للسلوكية

المؤيدة:	المعارضة:
- يمتلك العلم إجابات لا يمتلكها السياسيون.	- في معرض نقد الآلية البرتقالية، يقال: إن ما يجعلنا بشرًا هو حقنا في الاختيار.
- نحن مُشرَطون [أي يتكوّن سلوكنا بالإشراط]، ولكن بطريقة اعتباطية [غير منظمة أو ممنهجة].	- مَن المخوّل بالقرار بشأن ما يجب أن نُشرط عليه، أو نشرط لئلا نكون عليه؟
- يجب أن نُشرط الناس لئلا يرتكبوا أفعال عنف (حتى إننا نستطيع أن نمنع وقوع الحروب).	- السلوكية قد تقود إلى الفاشية «من سيراقب الحراس؟».
- إن فوائد الإشراط تفوق تكاليفه إلى حد كبير.	- الإشراط ليس فعالًا في كثير من الأحيان.
- السلوكية ديمقراطية حقًا في بعض جوانبها.	

4

علم نفس الطاعة

يعتبر الراحل ستانلي ملغرام عالم نفس اجتماعي، وليس عالم نفس سياسي في أي حال؛ فقد أمضى حياته المهنية في أقسام علم النفس لا العلوم السياسية. ويُستخدم مصطلح علم النفس السياسي حصريًا (تقريبًا) في المجال الثاني، كما أشرنا سابقًا. وعلى الرغم من التسميات المختلفة التي يلصقها المهنيون من الحقول المختلفة بأعمالهم، فإن ملغرام يمكن اعتباره بحق واحدًا من أهم علماء نفس السياسة في زمانه. والحقيقة أن ملغرام بدأ دخوله إلى عالم الأكاديميا بوصفه طالب علوم سياسية، وبقي مهتمًا بالأبعاد النفسية للقضايا السياسية بقية عمره (التراجيدي القصير). ومع أن ملغرام قدم العديد من الإسهامات في دراسة السلوك الإنساني - مما له منطويات سياسية - فإنه سيُذكر دائمًا أكثر ما يُذكر على ما قام به من بحوث في مجال الطاعة السياسية (political obedience). فقد طرح ملغرام أسئلة جوهرية عمّا يجعل الأفراد على استعداد لإطاعة سلطة عليا كالدولة، حتى عندما تصطدم متطلبات تلك السلطة بشدة بالقيم والأخلاق التي نجلها ونقدرها أكثر من أي شيء آخر؟ وفي إجابته عن هذا السؤال قام ملغرام بدور فاعل في قلب التفسيرات النزوعية للطاعة (أو التقليل من جاذبيتها على الأقل)، وخصوصًا تلك التي تلت المحرقة النازية ووجهت اللوم إلى الشعب الألماني، مفترضةً أن لديه خصوصية غير مألوفة قادت إلى ذلك الحدث الكارثي.

الشخصية التسلطية

لكي ندرك التأثير الحقيقي لأعمال ستانلي ملغرام في ما حققنا من فهم

للطاعة السياسية وممارسات القتل الجماعي، لابد أن نفهم طبيعة الحقبة الزمنية التي أجرى بحوثه فيها. فقد عمل ملغرام على تجاربه في وقت كانت السيادة فيه لنظرية نزوعية تُعرف بـ «الشخصية التسلطية» (على الرغم من أنها كانت مثار جدل في ذلك الوقت). ففي الأربعينيات والخمسينيات حاول علماء اجتماعيون من حقول مختلفة فهم الأحداث الراعبة التي وقعت في معسكرات اعتقال مثل أوشويتز (Auschwitz) وداشاو (Dachau)، إذ أصبح سؤال «لماذا وقع الهولوكوست؟» أكثر الأسئلة إلحاحًا في العلوم الاجتماعية بعد عام 1945.

وكانت واحدة من الإجابات في ذلك الوقت تردّ ما حدث إلى شيء «غير عادي» أو استثنائي لدى الشعب الألماني، شيء جعل القتل الجماعي الذي ارتكبه النازيون أمر لا مناص منه، هذا إذا حاولنا تفسير الحدث استرجاعيًا. وبناء على كتاب الشخصية التسلطية الذي وضعه تيودور أدورنو (Theodore Adorno) وزملاءه ونُشر عام 1950، تُعتبر طبيعة الألمان أنفسهم، وبوجه خاص ممارساتهم المتعلقة بالتربية البيتية للأطفال، هي المسؤول المباشر عن خلق عدم التسامح، والتفكير المحافظ. ويؤكد أدورنو وزملاؤه في هذا الكتاب أن جذور الفاشية تعود إلى كبت الوالدين للأبناء والتسلطية التي يمارسونـها عليهم[1]. والكتاب، وفق ما يشير إليه جيمس والر (James Waller)، متأثر بنظريات التحليل النفسي الفرويدية التى كانت مسيطرة في حينه، تأثرًا شديدًا. ويقول الكتاب:

«إن جذور هذه الشخصية تتصل بدوافع فطرية غير مقبولة اجتماعيًا، أي دوافع الجنس والعدوان [بحسب المنظور الفرويدي]. وعندما تكون القيود المفروضة على التعبير عن هذه الدوافع شديدة بشكل غير عادي يصبح الفرد قلقًا، يفتقر إلى الشعور بالأمن، ويعتمد على السلطة الخارجية في توجيه سلوكه إلى حد كبير. ويتجاوز تبجيل هذه الشخصية للسلطة الاحترام المألوف، المتوازن، والواقعي الذي يكنّه معظمنا لها، ما يعكس حاجة عاطفية مبالغ فيها للخضوع»[2].

(1) Theodore Adorno [et al.], *The Authoritarian Personality*, Studies in Prejudice. American Jewish committee, Social Studies Series; no. 3 (New York: Harper and Row, 1950).

(2) James Waller, *Becoming Evil: How Ordinary People Commit Genocide and Mass Killing* (New York: Oxford University Press, 2002), p. 77.

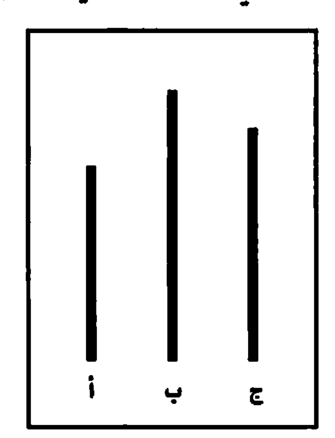
كذلك فإن ممارسات التنشئة المتشددة للأطفال تولّد خوفًا مكبوتًا وعدائية، ما يتطلب مخرجًا في وقت لاحق. ويأتي هذا المخرج على شكل إبدال أو إحلال (displacement)، يُستبدل فيه العداء للوالدين بالعداء لجماعات الأقلية، أو العداء بوجه عام لأولئك «المختلفين» [عن الجماعة التي ينتمي إليها الفرد]. وقد طوّر أدورنو وزملاءه كذلك مقياسًا - يُعرف اليوم ببساطة بـ «مقياس ف» (F-Scale) [وهو مقياس للاتجاهات الفاشية]. وقد جرى استخدامه لقياس الارتباط بين سمات شخصية متنوعة والاستعداد لتصديق الدعاية الفاشية أو المضادة للديمقراطية.

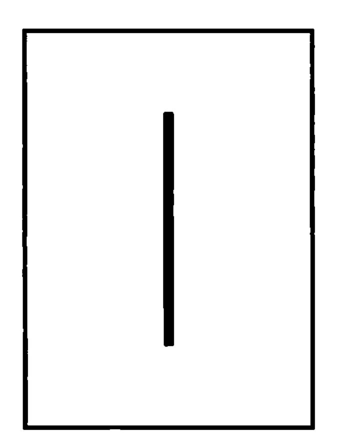
تجارب ملغرام

كان ستانلي ملغرام موقفيًا متشددًا، ومُشكِّكًا في النظريات النـزوعية كتلك التي أشرنا إليها أعلاه لأن هذه النظريات تعزو سلوك البشر إلى نزعاتهم فحسب [من دون أخذ المواقف التي يواجهونها بالاعتبار]. وكواحدٍ من أتباع عالم النفس الاجتماعي سولومون آش (Solomon Asch)، رأى ببصيرته النافذة أن وضع الأفراد في موقفٍ اجتماعي ضاغطٍ بقدر من الشدة، كفيل بجعلهم يسيرون ضد نزعاتهم بما فيها من اعتقادات وقيم، وحتى ضد ما تراه أبصارهم، على غرار ما وجد آش. وكان آش قد بيّن في سلسلة من التجارب التي نالت شهرة واسعة في الخمسينيات، أن الأفراد قد ينساقون فعلًا إلى إجماع الجماعة حتى عندما يتعارض ذلك الإجماع مع ما تراه أبصارهم. وقد اعتمد آش في تلك التجارب مهمة بسيطة، هي مهمة تقدير أطوال خطوط كتلك المبينة في الشكل الرقم (4-1). وكما يظهر في هذا الشكل هناك بطاقة عليها ثلاثة خطوط (أ، ب، ج)، وبطاقة عليها خط واحد. وإذا افترضنا أنك تخضع لهذه التجربة، فإنه سيُطلب إليك الإشارة إلى الخط من الخطوط الثلاثة الموجودة على البطاقة الأولى الذي يُقارب في طوله الخط المنفرد الموجود على البطاقة الثانية، ونتوقع منك إعطاء إجابة صحيحة بكل تأكيد.

الشكل (4-1)

البطاقات التي استُخدمت في تجارب سولومون آش عن ضغط الجماعة





وهذا ما وجده آش في الواقع عندما طلب إلى عدد من المبحوثين القيام بسلسلة من هذه المهمات كل على انفراد. ولم تكن هذه النتيجة شيئًا مزلزلًا بطبيعة الحال، لأن طفلًا بعمر الأربع أو الخمس سنوات يستطيع إنجاز ذلك بنجاح. غير أن آش لم يكن يُعنى بأحكام الأفراد على أطوال الخطوط ضمن هذا الوضع، فلم يكن ذلك الوضع سوى الشرط القاعدي للتجربة [أي الشرط الذي يُعطي الأفراد فيه أحكامهم من دون تأثير خارجي، في هذه الحالة]. وكان الغرض الحقيقي من التجربة استقصاء ما جاء لاحقًا، عندما كان المبحوثون يوضعون في مجموعات ويُطلب إليهم إعطاء تقديراتهم بعد سماع تقديرات الآخرين. غير أنه كان يجرى إدخال شيء من الإيهام (أو الخداع) المثير للاهتمام في هذه الحالة، حيث كان يوضع المبحوث في غرفة مع ستة أشخاص آخرين، هم في الحقيقة معاونون للمجرب يدّعون أنهم يشاركون كمجربً عليهم. وقد تلاعب آش في هذا الشرط التجريبي بحيث جعل الأشخاص الستة يجيبون إجابات صحيحة أحيانًا ليؤكدوا صدقيتهم، ويجيبون جميعًا إجابة خطأً في أحيان أخرى، وجعل ذلك يتكرر في إجابات لاحقة تاركًا المبحوث الحقيقي يواجه معضلة صعبة. فقد كان معاونو المجرب يتفقون جميعًا على أن الخط (ب)، على سبيل المثال، هو الأقرب في الطول إلى الخط المنفرد الموجود إلى اليسار.

افرض أنك تواجه هذا الموقف بنفسك، ماذا كنت ستفعل؟ هل كنت ستقف وتقول للستة الآخرين «أنتم جميعًا على خطأ، وأنا على صواب، ألا ترون أن البديل الذي اخترتموه هو الإجابة الخطأ؟ أم ستشعر بالخجل وتنساق مع الأغلبية حتى عندما تعرف أنهم يجيبون إجابة غير صحيحة؟ هل تجد غضاضة في التشكيك في صحة حكم ستة أشخاص (وفي ذكائهم) وأنت تجلس معهم وجهًا لوجه، حتى إن كنت لا تعرفهم؟ أم ستفكر في زيارة نظاراتي ليفحص نظرك؟ وجد آش أن السيناريوهات الأخيرة هذه هي الأكثر شيوعًا، بعبارة أخرى، انساقت الغالبية العظمى من المبحوثين ببساطة مع الحكم الخاطئ للجماعة، على الرغم من أنهم كانوا يعرفون (أو يشكون) أن ذلك الحكم كان خطأ[3]. فقد ذهب 75 في المئة منهم ضد حكمهم الشخصي [الصائب] مرة في الأقل عندما أجمعت الجماعة على إجابة خطأ.

كان ملغرام مهتمًا اهتمامًا بالغًا بكيفية تأثير مثل هذه الضغوط الاجتماعية في أحكام الأفراد، وبعد تفكير طويل خرج بتصميم بحث غاية في الإبداع - وإن كان يتضمن شيئًا من الإيهام (أو الخداع)، كما في بحث آش - وقد أكسبه ذلك البحث شهرة واسعة، ولكنه أثار حوله في الوقت ذاته جدلًا واسعًا صاحَبه مدى الحياة. فقد أراد ملغرام أن يعرف مدى استعداد الناس لإطاعة الأوامر حين تصدر عن سلطة «شرعية» وتقضي بإيذاء شخص آخر، والحد الذي يمكن أن يذهبوا إليه بعد أن تزداد هذه الأوامر قسوة ولا إنسانية. فابتكر تجربة يقوم فيها شخص في موقع سلطة (تمثّل في رجل يرتدي معطف مختبر) بالطلب من مبحوثين (يوكل إليهم القيام بدور معلمين)، توجيه صدمات كهربائية لضحية لا حول لها ولا قوة (تمثّلت في شخص يقوم بدور تلميذ، يُعاقب كلما أخطأ)[4]، وأن يصعّدوا تلك الصدمات لاحقًا (بحيث تزداد شدة الصدمة كلما ارتكب التلميذ خطأً جديدًا). وكان يُبرَّر هذا الإجراء للمبحوثين بأنه جزء من تجربة

(3) كان لهذا البحث تأثير عميق واحد من أتباع الاتجاه الموقفي المعروفين، وهو إيرفنغ جانيس، كما سنرى في الفصل السادس من هذا الكتاب.

(4) Stanley Milgram, *Obedience to Authority: An Experimental View* (New York: Harper and Row, 1974).

علمية تدرس أثر العقاب على التعلم. وقد طبّق ملغرام هذا التكنيك التجريبي في ظروف (أو شروط) تجريبية متباينة من حيث قرب المبحوث (أي المعلم) من الضحية (أي التلميذ). ففي الشرط التجريبي التقليدي الذي صممه ملغرام كان «الضحية» يجلس في حجرة منفصلة عن الحجرة التي يجلس فيها المعلم بحيث يُسمع من وراء حائط غير سميك ولا يُرى. كذلك عدّل في جوانب أخرى من جوانب تصميمه الأساس هذا، غير أنه ظل يطلب إلى المبحوثين في كل الحالات أن يصعّدوا الصدمات التي يوجهونها إلى المتعلم إلى مستويات تتزايد شدةً.

ولم يكن «الضحية»، وهو في الحقيقة مساعد لملغرام يقوم بدور المتعلم، يتلقى أي صدمة كهربائية في الواقع على الإطلاق. وكان مولد الصدمات زائفًا أيضًا، لكن التجربة رُتّبت بطريقة مقنعة بحيث إن «المعلم» كان يعتقد حقيقة أنه يصدم «المتعلم». وقد أجرى ملغرام استطلاعًا قبل قيامه بهذه التجربة طلب فيه من أطباء ومختصّين نفسيين تقدير نسبة المبحوثين الذين يمكن أن يستمروا بتوجيه الصدمات إلى أقصى حد يُتيحه الجهاز، وهو حد 450 فولتًا. فأفاد هؤلاء المختصّون بأن النسبة لن تزيد على 2 في المئة[5]. غير أن ما أثار الذهول هو أن 65 في المئة من المبحوثين فعلوا ذلك في ظل الشرط التجريبي الذي جاء وصفه، واستمر جميعهم إلى النقطة التي وُصفت على الجهاز بأنها «خطر» أو بأنها درجة شديدة من الخطر «XXX». هذا، على الرغم من أن «الضحية» كان عندما يُصعق بمستويات معينة من الصدمة يصرخ بألم ويستغيث طالبًا الخروج من التجربة. كما لم تتبدل هذه النتائج عندما أدخل ملغرام نساء إلى التجربة كمبحوثات، وبقي معدل الطاعة 65 في المئة. وهذه النتيجة مثيرة للاستهجان لأننا نتوقع أن تكون النساء أقل طاعة (لأنهن يُعتبرن أكثر تعاطفًا) أو أكثر طاعةً (لأنهن يُعتبرن أكثر سلبية). غير أن ما يثير الدهشة أن النوع (الجندر) لم يكن له أثر يذكر.

---

(5) لو أن هذا الاستطلاع كان دقيقًا في تنبؤاته لما نال ملغرام الشهرة التي يحظى بها الآن؛ فالبحوث التي تأتي مطابقة للمعرفة التقليدية القائمة لا تجتذب الانتباه إلا في ما ندر.

ولم يكن هذا كل ما وجده ملغرام، إذ إنه لاحظ كذلك عددًا من ردود الأفعال المثيرة للانتباه - كعلامات ضيق وتوتر ظاهرة للعيان لدى المبحوثين جميعًا - وإن كانت بدرجات متباينة، علاوة على أن بعضهم أخذ في الضحك، وأخذ بعضهم الآخر في البكاء. وبحسب تقدير ملغرام، لم يكن ذلك الضحك ناجمًا عن السادية أو القسوة، وإنما كان ردة فعل للتوتر. كما اشتغل المبحوثون بجوانب تقنية، ضيقة من المهمة التي كانوا يقومون بها بعيدًا عن جوهر ما يفعلونه، ولكنهم في نهاية الأمر أنهم لم يحمّلوا أنفسهم مسؤولية ما فعلوا. ويبدو أن هناك تشابهًا بين ما انتاب مبحوثي ملغرام وما يحدث للطيارين الذين يقومون بقصف المدنيين بالقنابل إطاعةً للأوامر. فقد روى أحد الطيارين الذين قاموا بالعديد من الغارات في فيتنام في فيلم وثائقي، حصل على جائزة الأوسكار للأفلام الوثائقية، أنه كان يشتغل بالمهمة التي كان يقوم بها ولم يكن يفكر في الناس الذين يقصفهم. وروى أنه كان يشعر كأنه «مغني أوبرا، يؤدي لحنًا»[6].

كما عدّل ملغرام في الإجراءات الشكلية لتجربته بطرائق ذات أهمية نظرية؛ فعمل على إجراء تعديلات ليتعرف الآثار التي تنتج، على سبيل المثال، من تغيير: (أ) الطريقة التي كانت تُعطى فيها الأوامر، (ب) الموقع الذي تجرى فيه التجربة، (ج) المسافة بين «المعلم» و«المتعلم». فكانت واحدة من النتائج المثيرة للاهتمام تلك المتعلقة بالقرب المكاني أو المسافة بين المعلم والمتعلم، حيث تبيّن أنه كلما قلّت المسافة بينهما قلّت الطاعة (إلا أنها لم تختف تمامًا). وظهر ذلك بوجه خاص عندما وُضع «المعلم» و«المتعلم» في غرفة واحدة، وعندما كانت إجراءات التجربة تقتضي أن يضغط المبحوث يد الضحية على لوحة الجهاز المولد للصدمة - وهو شرط «القرب - الملامسة»، فانخفضت نسبة الطاعة إلى 18 في المئة، أما في شرط «القرب» الذي كان المبحوث والضحية فيه يجلسان معًا في الغرفة وحسب، فقد زادت نسبة الطاعة قليلًا ووصلت إلى 20 في المئة. ومن الجدير بالملاحظة أن الطاعة ظلت عالية حتى في هذا الشرط.

(6) «Hearts and Minds,» (Directed by Peter Davis; Produced by Bert Scheider, Columbia Pictures Industries, Inc. Appl.au: BBS Productions, 1974).

ومما تجدر الإشارة إليه كذلك أن المبحوثين الذين شاركوا في هذه التجربة (والذين تم انتقاءهم من طريق إعلان في جريدة محلية) كانوا أشخاصًا عاديين، ملتزمين القانون من أبناء المجتمع المحلي لمدينة نيوهيفن، كونيكتيكوت [في الولايات المتحدة]، وكانوا ممثلين لفئات المجتمع المختلفة من حيث المستوى الاقتصادي الاجتماعي، والدين، وغيرها من الخصائص. وعمل ملغرام على استبعاد أي شخص ظهر ما يشكك في صحته النفسيه - وخصوصًا من ظهرت عليه علامات الشخصية السادية - لكي لا تُعزى النتائج التي يتوصل إليها لاحقًا إلى نزعات لدى المبحوثين لا إلى الشروط التجريبية التي يواجهونها[7]، حيث يُفترض أن إجراءات الانتقاء هذه تضمن إظهار تأثير الموقف وتحييد نزعات المبحوثين الشخصية - وخصوصًا اعتقاداتهم الأخلاقية - ووضعها خارج الصورة. والمنطوى الضمني الأبرز لهذا كله هو أننا جميعًا قد نخالف أعز مبادئنا وقيمنا عندما نواجه موقفًا تحثنا فيه على الطاعة سلطة نرى أنها سلطة شرعية. ويرى ملغرام أن المناحي النزوعية الأخرى، كمقاربة الشخصية التسلطية، لا تفسر أثر القوى الاجتماعية على السلوك وكيف أنها قد تكون أقوى أثرًا من النزعات. وترتكب المقاربات النزوعية بذلك خطأً قاتلًا حين تفترض أن «الأفعال الشريرة» لا يرتكبها إلا «أناس أشرار».

اعتياد الشر

ويُبيِّن ملغرام في كتابه الطاعة: وجهة نظر تجريبية (*Obedience: An Experimental View*)، التناظر بين أعماله الخاصة في مجال الطاعة وتحليل حنة أرندت لأدولف آيخمان في كتابها آيخمان في القدس[8]. وكان آيخمان ملاحقًا لمدة طويلة من الاستخبارات الإسرائيلية كمسؤول كبير في العهد النازي، مكلف بنقل اليهود إلى أفران الغاز في خلال المحرقة، وهرب من ألمانيا بعد الحرب. وتم اكتشافه في الأرجنتين عام 1960 يعيش بهوية مزيفة، وقد

(7) Milgram, *Obedience to Authority: An Experimental View*, p. 15.

(8) المصدر نفسه، ص 5، و Hannah Arendt, *Eichmann in Jerusalem: A Report on the Banality of Evil* (New York: Viking Press, 1963).

جرى اختطافه إلى إسرائيل لمحاكمته على ما ارتكب من جرائم. وتمت إدانته في القدس وإعدامه لاحقًا. وقامت أرندت بتغطية محاكمة آيخمان في حينه، لكن ما أثار استغرابها أكثر من أي شيء آخر هو مظهره العادي. وقد تم بث المحاكمة بثًا حيًا وكاملًا في إسرائيل. وبدلًا من الوحش السادي الذي توقع معظم الإسرائيليين رؤيته، رأوا رجلًا عاديًا، شاحبًا يقف أمام المحكمة. كان نازيًا، وظيفته الرئيسة متابعة الملفات والتيقّن بأن القطارات التي تنقل اليهود تسير في مواعيدها.

جرى انتقاد أرندت بشدة على هذه الملاحظة في ذلك الحين لأسباب قد تكون مفهومة، ولكنها ابتدعت تعبيرًا لوصف آيخمان وأمثاله أصبح مشهورًا منذ ذلك الوقت وهو «اعتياد الشر». ولم يكن في ظنها إعفاء آيخمان من المسؤولية عما فعل على الإطلاق، وإنما رأت أن فعل الشر كثيرًا ما يكون نتيجة نهائية لسلسلة من الأفعال لا يتحمل مسؤوليتها شخص واحد بعينه، وأن حلقات تلك السلسلة يمكن أن تتألف (وكثيرًا ما تتألف) من أفعال أشخاص وصفهم المؤرخ كريستوفر براوننغ (Christopher Browning) أخيرًا بأنهم «رجال عاديون»[9]. وبالمثل، وجد ملغرام أن توزيع مسؤولية اختبار «الضحية» (أي المتعلم) وعقابها على عدد من الأفراد، تزيد نسبة الطاعة بشكل ملحوظ. وربما يكون لواقع الحال هذا انعكاس سياسي واضح تمامًا من حيث إن مهمات أي قرار سياسي (أو تنفيذه) تتوزع في الغالب على سلسلة من الأفراد، وهذا ما يدعوه ملغرام «الشر المنظم اجتماعيًا»؛ فلا يكون هناك شخص واحد مسؤولًا عن عمل معين وحده.

وبالنظر إلى هاتين الملاحظتين معًا - واللتين أجريتا بمعزل عن إحداهما عن الأخرى، وكانت الأولى منهما روائية في طابعها (هي رواية أرندت)، والثانية تجريبية (هي تجربة ملغرام)، نجد أنهما تعطيان تفسيرًا لما بدا عصيًا على التفسير وهو الذبح الممنهج لليهود في بلدان «متحضرة» تقع في قلب

(9) Christopher Browning, *Ordinary Men: Reserve Police Battalion 101 and the Final Solution in Poland* (New York: Harper Collins, 1992).

أوروبا. إضافة إلى ذلك فإن كثيرًا من ملاحظاتهم تظل ذات معنى عند تطبيقها على مذابح جماعية أخرى أكثر حداثة. أما ما حدث في ألمانيا النازية من قتل لليهود فما كان له أن يتحقق على ذلك النطاق الواسع لو لا أن أفرادًا عاديين من المجتمع الألماني - يعتبرون أنفسهم مواطنين شرفاء، وعلى خلق، وملتزمين القانون - كانوا على استعداد للمشاركة (بشكل مباشر في بعض الأحيان) في عملية ترمي إلى قتل أناس آخرين، جريمتهم الوحيدة أنهم مختلفون عرقيًا عن رؤية أدولف هتلر لما هو (نموذجي) أو «مثالي». ويمكننا هنا أن نلاحظ بوضوح أن الخط الفاصل بين ما ندعوه «خيرًا» وما ندعوه «شرًا» قد يكون خطًا واهيًا يمكن اجتيازه بسهولة - كما حدث في حالة القتل الجماعي الرواندي السيئة الصيت عام 1994، حين قتل الجار جاره - نتيجة لعداوة حديثة العهد نسبيًا بُنيت على أسس عنصرية أنشأها المستعمرون الغربيون بطرائق مختلفة لتُلائِم أهدافهم.

لماذا نطيع: الاتجاه نحو النزوعية

يفيد ملغرام أن البنى الترتيبية التي يعيش البشر في أُطرها (والمتمثّلة في العائلة، والمدرسة، والكلية، والعمل، والمؤسسة العسكرية، وغيرها) جاءت نتيجة لتحيز في عملية التطور (لأن الترتيبية أدت وظيفة) فتأسس لدينا [بيولوجيًا] الاستعداد لطاعة السلطة. والمثير للاهتمام أن هذه الحجة تمثل النقيض للمقاربات الموقفية المتشددة كمقاربة المثير - الاستجابة السلوكية، التي تنظر إلى الدماغ الإنساني على أنه «صفحة بيضاء». ويُلمح ملغرام إلى أن البشر يولدون وهم يحملون نزعة أساسية للطاعة، وهذا الافتراض يمثّل الحجة الأساس للقائلين إن النزعات تكون موجودة عند الولادة. وبعد هذه النقطة يصبح تفسير ملغرام موقفيًا في طبيعته؛ حيث يؤكد أن هذا الميل التطوري يتفاعل مع البنى الاجتماعية وظروف محددة يجد الأفراد أنفسهم فيها ليؤدي إلى مستويات معينة من الطاعة[10]. فهناك عوامل تاليًا جعلت المبحوثين أميَل

(10) Milgram, *Obedience to Authority: An Experimental View*, pp. 123-134.

إلى الطاعة حتى قبل الوصول إلى التجربة (نتيجة للتنشئة على طاعة «الوحدات العليا» في البنية الترتيبية الاجتماعية)، وهذه بدورها تفاعلت مع الظروف التى صَنَعَتها التجربة لتستدعي الطاعة على المستوى الذي لوحظ في هذه التجارب. وبعد أن أطاع الأفراد، انتقلوا إلى حالة يدعوها ملغرام «حالة الوساطة» (agentic state) – وهي تمثل ظرفًا سيكولوجيًا يرى الأفراد فيه أنفسهم غير مسؤولين عن أفعالهم [لأنهم مجرد منفذين للأوامر]"[11].

نسبة الـ 35 في المئة لدى ملغرام

وما يزيد في تعقيد نموذج ملغرام النظري (الموقفي من حيث المبدأ) أن هناك دليلًا على وجود تباين ثقافي في درجة إطاعة أعضاء المجتمعات المختلفة للسلطة. فقد وجد دايفد مانتل (David Mantell) الذي كرر تجربة ملغرام في ميونيخ في بداية السبعينيات أن معدل الطاعة في الصيغة «الكلاسيكية» للتجربة كان 85 في المئة، أي بزيادة 20 نقطة كاملة على معدل الطاعة الذي وجده ملغرام في نيوهيفن [في أميركا][12]. وهناك دليل روائي مثير للاهتمام يشير إلى أن الرونديين لديهم استعداد خاص لإطاعة السلطة. فعندما سُئل فرانسوا كزافييه نكورونزيزا (Francois Xavier Nkurunziza) وهو محام من كيغالي (في رواندا) أبوه من الهوتو (Hutu) وأمه من التوتسي (Tutsi)، عندما سُئل عن سبب إقدام العديد من الروانديين عام 1994 على قتل أناس كانوا جيرانًا لهم في كثير من الحالات، قال:

> «الامتثال عميق جدًا، ومتجذر جدًا في التاريخ الرواندي، الجميع يطيعون الأوامر. الناس يحترمون القوة، وليس هناك كثير من التعليم، خذ سكانًا فقراء وجهلة وأعطهم سلاحًا وقل لهم: «هذا لك، خذه واقتل»، فإنهم سيطيعون. إن الفلاحين الذين دُفع لهم أجر، أو أُجبروا على القتل كانوا ينظرون إلى ذوي المكانة الاجتماعية الاقتصادية العليا ليقرروا كيف

(11) *Obedience to Authority: An Experimental View*, pp. 123-134.

(12) David Mantell, «The Potential for Violence in Germany,» *Journal of Social Issues*, vol. 27, no. 4 (Fall 1971), pp. 101-112.

يتصرفون. لذا، فإن ذوي النفوذ [...] هم الرجال الكبار أصحاب القرار في القتل الجماعي. قد يعتقدون أن هؤلاء لم يقتلوا لأن أيديهم لم تتلطخ بالدماء، ولكن الناس كانوا يأخذون الأوامر منهم. وفي رواندا، يمكن أن تُلقى الأوامر بكل هدوء»[13].

إذا صح ما قيل عن رواندا فإنه يلتقي تمامًا مع نظرية ملغرام في الطاعة. ولا بد لتفسير ملغرام أن يأخذ بعين الاعتبار إمكان وجود فروق ثقافية في الاستعداد للطاعة، حيث إن البشر ينشأون اجتماعيًا ضمن بُنى سلطوية مختلفة. وفي الحالة الرواندية، هناك دليل كافٍ على أن ذوي السلطة من مختلف الأوساط، كالأمناء الإداريين، ورجال الأعمال، وحتى رجال الدين تغاضوا عمّا حدث في رواندا عام 1994 (أو شجعوا عليه)، فكانت أسرع عملية قتل جماعي في القرن العشرين.

ولكن الاتجاه الموقفي يواجه إشكالية معقدة في عجزه عن تفسير رفض الخمسة وثلاثين في المئة من مبحوثي ملغرام إطاعة السلطة عندما جاءت تلك الأوامر مخالفة لما تمليه عليهم ضمائرهم أو قيمهم. وهذه النسبة من الأفراد وإن كانت تمثّل أقلية إلا أنها أقلية لا يستهان بها. غير أن ملغرام لم يعطِ في تحليله كثير اهتمام لأولئك الذين رفضوا الإذعان للأوامر، ولكن خبرات هؤلاء الأشخاص وقيمهم، على ما يبدو - أو نزعاتهم بعبارة أخرى - كانت من الأهمية بمكان في قراراتهم، فلم يشعروا معها بأنهم «لا يملكون خيارًا» [غير الإذعان]. ومن بين أولئك الذين رفضوا توجيه الصدمة الكهربائية للضحية، امرأة نشأت في ألمانيا النازية (وهي عاملة تقنية في المجال الطبي أطلق عليها ملغرام في كتابه اسم غريتشن براندت (Gretchen Brandt). إذ يبدو أن هذه المرأة أدركت أوجه الشبه بين الأحداث الواقعية التي جرت في ألمانيا وما طُلب إليها القيام به في تجربة ملغرام، وكان الشخص الآخر غير المطيع أستاذًا في العهد القديم (التوراة). كما أننا نعرف أن هناك من رفضوا الإذعان للأوامر لأنهم اعتقدوا أن ما طُلب إليهم فعله كان خطأ. وهذا يوحي في مجمله أن النزعات فعلت فعلها لدى خمسة وثلاثين في المئة من المبحوثين في تجربة ملغرام، هم الذين رفضوا

(13) مذكور في: Philip Gourevitch, *We Wish to Inform you that Tomorrow we Will Be Killed with Our Families: Stories from Rwanda* (New York: Picador/ Farrar, Straus, and Girowx, 1998), p. 23.

الإذعان. كما لم يكن الموقف الذي تصنَّعه ملغرام مؤثرًا بدرجة كافية في الحالة التي اقتضت توجيه صدمة إلى ضحية تجلس أمام المبحوث مباشرة، حيث رفض 80 في المئة منهم الإذعان للأوامر في هذه الحالة. علاوة على ذلك فإن مبحوثي ملغرام جرى إبلاغهم أن ما طُلب إليهم فعله [أي توجيه الصدمات] لن يُلحق ضررًا بصحة الشخص الذي يتلقى الصدمة - وهذا الأمر بحد ذاته يعقد تفسير نتائج التجربة إن لم نقل يدحضها. في حين أن من يشاركون في المذابح الجماعية يعلمون علم اليقين أنهم يلحقون أذى حقيقيًا بالآخرين - يفوق سوءًا كل ما عداه من أنواع الأذى.

وكما أشرنا في مناقشتنا للنزوعية والمحرقة النازية في الفصل الأول، كان هناك العديد ممن رفضوا المشاركة في إبادة اليهود، وعملوا ضد النازيين في هذا الإطار. ومن أبرز هؤلاء أوسكار شيندلر (Oscar Schindler)، الصناعي الألماني الذي خاطر بكل شيء لحماية المئات من اليهود، وهناك كثير ممن خاطروا حتى أكثر مما خاطر به شيندلر لحماية أناس غرباء عنهم تمامًا. ويقال إن راؤول والنبيرغ (Raoul Wallenberg) وبير آنجر (Per Anger)، وهما دبلوماسيان سويديان، أنقذا ما يقارب 100.000 يهودي هنغاري من أفران الغاز باستخدام الحصانة الدبلوماسية وإصدار جوازات سفر سويدية مزيفة. كذلك فإن القس الألماني ديتريش بونهوفير (Dietrich Bonhoeffer) هاجم النازية في مواعظه في كنيسته وتم إعدامه لاحقًا على «جرائمه». وفي الحالة الرواندية، قام رجل أعمال من الهوتو يدعى بول روسيساباجينا (Paul Rusesbagina)، بإنقاذ ما يزيد عن ألف رواندي معظمهم من التوتسي (Tutsis) بإيوائهم في فندق ورشوة المسؤولين بالويسكي، والمال، وغير ذلك، وقد ساهم فيلم «أوتيل رواندا» في ذيوع شهرته[14]. ولعل كتاب «الشخصية الإيثارية»، لا يُجانب الصواب حين يقول إننا لا نستطيع أن نفسر الأعمال البطولية لهؤلاء «المنقذين» إلا بالرجوع إلى شخصياتهم[15].

(14) انظر: Adam Jones, Genocide: *A Comprehensive Introduction* (New York: Routledge, 2006), pp. 275-281.

(15) Samuel Oliner and Pearl Oliner, *The Altruistic Personality: Rescuers of Jews in Nazi Europe*, Foreword by Harold M. Schulweis (New York: Free Press, 1988).

وإضافة إلى ذلك، فإن نموذج ملغرام وحده لا يقدر على تفسير جميع مظاهر القتل الجماعي، على الرغم من أنه يوضح العديد من القوى النفسية التي تجرف الناس العاديين وتجعلهم يسيرون في إثرها في مثل هذه المواقف. فهناك شيء غائب عن تجربة ملغرام، ولكنه حاضر في جميع حالات القتل الجماعي، كما سنرى في الفصل الثالث عشر، ألا وهو الميل الممنهج والمنظم لتجريد الضحايا من إنسانيتهم. ويقول جيمس والر في هذا الصدد: «إن وضع الضحايا خارج دائرة واجباتنا الأخلاقية، واعتبارهم غير جديرين بالعطف تبعًا لذلك، يزيل الضوابط الأخلاقية أمام ارتكاب البشر للعدوان. إن جسد الضحية المجرد من بشريته لا معنى له، هو نفاية، وإزالته أمر تقتضيه النظافة لا غير. وفي هذه الحالة لا يكون هناك أي إطار أخلاقي أو عاطفي يربط المعتدي بالضحية ويردعه عن القتل»[16]. ولعل تجريد اليهود من إنسانيتهم في أوروبا هو أوضح مثال على هذه الحالة. ويصف فيليب جوريفيتش (Phillip Gourevitch)، وصفًا يثير القشعريرة، لما حدث في الحالة الرواندية، وكيف جرى تجريد التوتسي من إنسانيتهم في عيون الهوتو على مدى السنين قبل وقوع القتل الجماعي عام 1994، إذ يقول: «كان يوصف أهل التوتسي في رواندا بإينينزي (Inyenzi)؛ أي «الصراصير»»[17]. وقد جرى إطلاق هذا الوصف بدايةً على عصابات التوتسي التي حاربت نظام الهوتو الجديد الذي تولى السلطة في ثورة عام 1959، بعد أن عانوا طويلًا من التمييز»[18]. وكان يُستخدم هذا التعبير على راديو رواندا باستمرار بعد مقتل الرئيس الهوتي «هابياريمانا»، وكان المذيعون يحرضون الهوتو على قتل التوتسي. وغني عن البيان أن ليس هناك أكثر تحقيرًا وإهانة لإنسان من تشبيهه بحشرة.

ومما يثير الاهتمام أن المبحوثين في تجربة ملغرام قاموا بشيء من هذا القبيل في تعاملهم مع «المتعلم» - حيث قال أحد المطيعين مبررًا الصدمات الكهربائية التي وجهها للمتعلم «إنه يستحق ذلك فقد كان غبيًا جدًا»، على أن

(16) Waller, *Becoming Evil: How Ordinary People Commit Genocide and Mass Killing*, p. 245.

(17) Gourevitch, *We Wish to Inform you that Tomorrow we Will Be Killed with Our Families: Stories from Rwanda*, p. 32.

(18) المصدر نفسه، ص 64.

هذا الجانب [أي كيفية تبرير المبحوثين لما فعلوه] لم يكن ظاهرًا في تصميم ملغرام لتجربته. وأما المظهر الآخر الذي كان غائبًا عن تجربة ملغرام فهو العامل الانفعالي القوي المصاحب للقتل الجماعي عادةً؛ فإلى جانب الغياب التام للكراهية العنصرية في الموقف الذي تصنّعه ملغرام، لم يكن هناك أي مبرر لـ «إهانة» المبحوثين للشخص الذي يوجهون إليه الصدمة. وبالمقارنة، وكما يشير آدم جونز (Adam Jones) «يصعب أن نجد حالة قتل جماعي في التاريخ أو في الوقت الحاضر لا يكون فيها الإذلال دافعًا رئيسًا»[19]. والمثال الواضح على ذلك مشاعر الحنق والمهانة التي اعترت الألمان بعد فرض معاهدة فيرساي العقابية عام 1919. واجتمع إلى جانبها التضخم المفرط لعام 1920، والركود الكبير في الاقتصاد، كل ذلك جعل كثيرًا من الألمان يبحثون من حولهم عن كبش فداء يحمّلونه اللوم على ما حل بهم من مصائب[20]. وبالمثل، حدث في رواندا أن المستعمرين البلجيك وغيرهم من الغربيين ميزوا عن قصد ضد الهوتو وحاربوا التوتسي وعاملوهم كطبقة متميزة (وخلقوا الاستياء الذي لا مفر منه لدى الهوتو)[21]. وبوجه عام، يبدو أن ظروفًا اقتصادية - اجتماعية معينة تؤدي إلى وقوع قتل جماعي، أو أنها في الأقل تهيّئ الظروف المناسبة لوقوعه[22].

وفي حين أن بحوث ملغرام توضح الآليات التي تجعل أناسًا طبيعيين، عاديين يرتكبون الفظائع، إلا أننا لا نستطيع أن نجادل أن هذه الآليات وحدها تفسر وقوع القتل الجماعي تفسيرًا تامًا. ويجب ألا نطلب من ملغرام، طبعًا، أن يعيد إنتاج جميع الشروط المرتبطة بالقتل الجماعي في مختبره - فهناك أسباب عملية وأخلاقية واضحة تحد مما يمكن القيام به في مثل تلك البيئة - وبحوثه في الطاعة تاليًا هي نقطة بداية لا غير في طريق فهمنا لأسباب حدوث القتل الجماعي. وبالمقابل، كثيرًا ما يؤكد ملغرام أنه استطاع استجرار قدر استثنائي

(19) Jones, *Genocide: A Comprehensive Introduction*, p. 268.

(20) المصدر نفسه، ص 269.

(21) Gourevitch, *We Wish to Inform you that Tomorrow we Will Be Killed with Our Families: Stories from Rwanda*, pp. 47-62.

(22) انظر: Kristen Renwick Monroe, «Review Essay: The Psychology of Genocide,» *Ethics and International Affairs*, vol. 9, no. 1 (March 1995), pp. 215-239.

من الامتثال (conformity) لدى مبحوثيه في غياب الكراهية العرقية، والتجريد من الإنسانية، والإذلال، والضائقة الاقتصادية التي أشرنا إليها أعلاه. ويعبر ملغرام عن هذه النقطة في نهاية كتابه قائلًا:

> إن النتائج التي شاهدناها وشعرنا بها في المختبر مثيرة للقلق، وتوحي أن الطبيعة الإنسانية، أو - بشكل أكثر تحديدًا - نوع الشخصية التى ينتجها المجتمع الديمقراطي الأميركي، لا يُرتكن إليها في تحصين المواطنين ضد أوامر سلطةٍ حاقدة تأمر بالقسوة، والمعاملة اللاإنسانية. إن نسبة كبيرة من الناس يفعلون ما يقال لهم أن يفعلوه، بغض النظر عن مضمون ما هو مطلوب، ومن دون رادع من ضمير، ما داموا يرون أن الأمر يصدر عن سلطة شرعية[23].

تقويم نموذج (Paradigm) ملغرام في الطاعة

يبدو أنه من المناسب أن نختم هذا الفصل كما فعلنا في الفصل السابق في بحث السلوكية بنظرة إلى نقاط القوة ونقاط الضعف الرئيسة في مقاربة ملغرام. وسنلخص تاليًا النقاط الرئيسة التي تمت مناقشتها في هذا الفصل. ومع أن هذه القائمة ليست شاملة، إلا أنها لا بد أن تساعدك في تقرير مدى الفائدة التي نجنيها من تجارب ملغرام لتفسير القتل الجماعي والسلوك السياسي المتطرف بوجه عام.

خاتمة

لقد قمنا حتى الآن بتحليل اثنين من تفسيرات السلوك السياسي التي تؤكد قوة البيئة الاجتماعية في تكوين السلوك، هما: نظرية سكنر السلوكية ونموذج ملغرام في الطاعة. وقد بدأنا هذا الكتاب بوصف فضيحة «أبو غريب» التي أضرّت بصدقية أميركا في غزوها للعراق، كما أضرت بالصورة العامة للولايات المتحدة في عيون العالم. وسنتناول في الفصل القادم منظورًا موقفيًا آخر قد

(23) Milgram, *Obedience to Authority: An Experimental View*, p. 189.

يلقي شيئًا من الضوء على «أبو غريب». فهل كان السلوك المشين الذي ارتكبه حراس السجن نتاج شذوذات عقلية لديهم، أم كان صادرًا عن «بضع تفاحات فاسدة»، كما زعم جورج بوش وأعضاء إدارته؟ وبعبارة أخرى هل نُلقي اللوم على النزعات النفسية للأفراد؟ أم هناك محرضات موقفية قد تؤدي إلى تكرار الممارسات ذاتها حتى لو جاء أفراد مختلفون تمامًا ليقوموا بالأدوار ذاتها؟ هذا هو السؤال الذي سنتناوله في ما يلي.

الجدول (4-1)

ملخص الحجج المؤيدة والحجج المعارضة لنموذج ملغرام في الطاعة

المؤيدة	المعارضة
- استطاع ملغرام إقناع الغالبية العظمى من مبحوثيه (وصلت إلى 65 في المئة) أن يقوموا بأفعال مخالفة لنزعاتهم (ما يعكس قوة الموقف). - لم يلجأ إلا إلى قدر قليل من الضغط لاستدراج مستوى عالٍ من الطاعة (فكانت «السلطة» تتمثل برجل يرتدي رداء مختبر رماديًا فحسب). - تلتقي النتائج التي خرج بها مع نتائج بحوث مهمة في علم النفس الاجتماعي مثل بحوث سولومون آش (في التأثير الاجتماعي)، ما يحقق لها دعمًا قويًا. - كانت نتائجه مشابهة لملاحظات أقل منهجية ولكنها لا تقل إثارة للاهتمام، هي ملاحظات حنة أرندت. - إن ما توصل إليه ملغرام من نتائج عن تباين نسبة الطاعة وفقًا لمدى القرب من الضحية يتفق مع الدروس المستخلصة من حروب العصر الحديث.	- لا يستطيع ملغرام تفسير سلوك المتمردين الذين تصرفوا وفق نزعاتهم والذين مثّلوا نسبة 35 في المئة من المبحوثين. - يبدو أن هناك فروقًا ثقافية في الاستعداد للطاعة، تعود إلى نزعات متباينة لدى الشعوب. - يقدم ملغرام ذاته نظرية في الطاعة تقوم على افتراض وجود نزعات تم توريثها في خلال عملية التطور. - كثير من العوامل المرتبطة بالقتل الجماعي غائبة عن تصميمه التجريبي.

5
صناعة «صندوق فاسد»(*)

رأينا في الفصل السابق أن السلوكية ليست هي المنظور الوحيد الذي يؤكد أهمية المحددات الموقفية في تكوين السلوك السياسي، وسنتناول في هذا الفصل منظورًا موقفيًا آخر، ربما يكون - في بعض النواحي - أكثر راديكالية في استنتاجاته من منظور ملغرام، ذلك هو المنظور الذي يقدمه فيليب زمباردو. فمنظور ملغرام، كما سبق أن أشرنا، يتضمن عناصر نزوعية، غير أن بحوث زمباردو التي سنتناولها في هذا الفصل أشد موقفية في منطوياتها من منظور ملغرام.

كان فيليب زمباردو - الأستاذ الشاب في جامعة كاليفورنيا عام 1979 - مهتمًا بدراسة أثر الأدوار التي يقوم بها العاملون في السجون على سلوكهم. وافترض أننا إذا ما انطلقنا من منظور موقفي، فإننا يجب أن نكون قادرين على تحري أثر الموقف إذا قمنا بتعيين أفراد في أدوار معروفة مسبقًا تعيينًا عشوائيًا، ولاحظنا تأثير هذه الأدوار على سلوكهم. فكان هذا هو جوهر ما فعله زمباردو، وكما سنرى بعد قليل، فإن النتائج التى توصل إليها يمكن أن تُعطي تفسيرًا للفضائح التي تقع في السجون مثل تلك التى تفجرت في «خليج غوانتانامو وأبو غريب» عامي 2003 و2004 على التوالي، وهذه النتائج هى الحجة التي استخدمها زمباردو في العديد من المقابلات مع وسائل الإعلام، وتلك التي

(*) يستخدم زمباردو كلمة «برميل» (Barrel) للإشارة إلى الشيء الذي يحفظ فيه التفاح، ولكن الصندوق هو الشيء المألوف لدينا لهذا الغرض.

قدمها بوصفه شاهدًا خبيرًا في محاكمة شب فريدريك (Chip Frederick)، أحد المتورطين في الإساءات التي ارتُكبت في «أبو غريب».

وقد أفصح زمباردو أخيرًا عن النظرة الفلسفية القائمة وراء تجربته الشهيرة[1]. حيث يذهب إلى القول إننا اعتدنا التفكير في «الخير» و«الشر» بوصفها ثنائية شديدة الانفصال، نفترض أن بعض الناس «أشرار» بطبيعتهم، وأن بعضهم الآخر «طيبون» بطبيعتهم. وهذا تفكير شائع عن فلسفة الصواب والخطأ لا نحتاج معه إلى كثير من التأمل. ويميل رجال الدين من مختلف المذاهب والملل إلى رؤية العالم على هذا النحو، كما تقوم الأنظمة القانونية الغربية على هذه الفكرة كما أسلفنا. وعلاوة على ذلك فإن أفلام هوليود تصور انتصار الخير على الشر عادة، وتقودنا إلى نهايات سعيدة تنتصر فيها الفضيلة على الرذيلة. وإذا ما تأملنا في هذا المنظور بعمق نجد أنه يمثل مقاربة نزوعية من حيث الأساس. والافتراض هنا هو أننا نستطيع أن نختار بين الخير والشر ونكون تاليًا مسؤولين عن خياراتنا. غير أن زمباردو يرى أن التفكير في العالم على هذا النحو غير مجدٍ.

ويستخدم زمباردو لوحة م. ك. إشير (M. C. Escher) «حدود الدائرة (Circle Limit IV)» وهي لوحة غامضة إما أن نراها تصور شياطين وإما نراها تصور ملائكة - بحسب منظور المُشاهد (انظر الشكل الرقم (5-1)) - ويقول زمباردو إن هناك خيطًا رفيعًا للغاية بين الخير والشر، ويشير إلى ثلاث ملاحظات في هذا السياق. «أولًا، العالم مملوء بالخير والشر معًا؛ كان، ولا يزال، وسيبقى كذلك». وهذا افتراض لا جدال فيه تقريبًا يأخذ به معظم رجال الدين والفلاسفة على الأرجح. غير أن النقطة الثانية التي يوردها زمباردو أكثر راديكالية، إذ يقول: «إن الفاصل بين الخير والشر ضبابي وقابل للاختراق. وثالثًا، يمكن للملائكة أن تصبح شياطين كما يمكن للشياطين أن تصبح ملائكة - وهذا ما قد يصعب تصوره»[2].

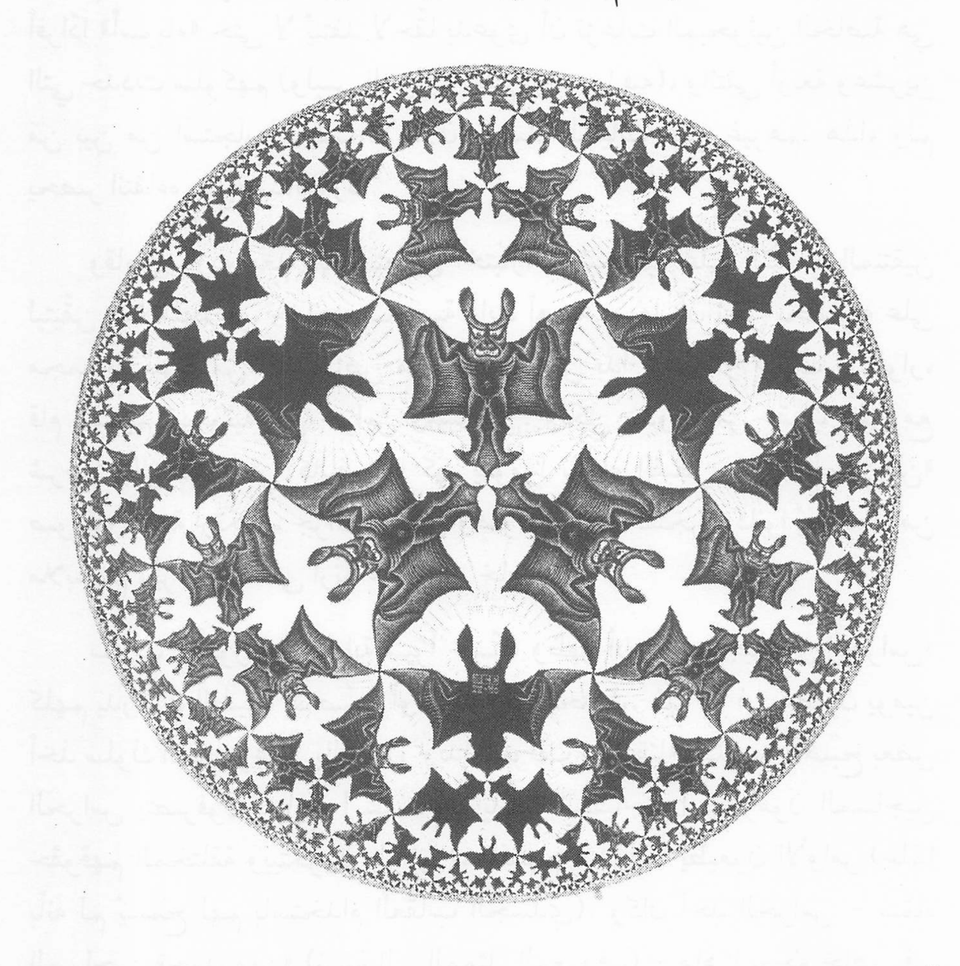
---

(1) Philip Zimbardo, *The Lucifer Effect: Understanding How Good People Turn Evil* (New York: Random House, 2007).

(2) المصدر نفسه، ص 3.

الشكل (5-1)

لوحة م. ك. إشير «حدود الدائرة IV»



المصدر: M. C. Eschers Website (2008), <http://www.mcesher.com>.

تجربة ستانفورد

أراد زمباردو عام 1971 اختبار الآثار النفسية لحياة السجن، وآثارها في الأفراد العاديين، الأصحاء عندما يصبح الفرد منهم سجينًا أو حارس سجن؟ وللقيام بهذا الاختبار نشر زمباردو إعلانًا في صحيفة محلية طلب فيه متطوعين للعمل بوصفهم مبحوثين في تجربة. وجرى إقامة سجن افتراضي في جانب من

طبقة التسوية في قسم علم النفس بجامعة ستانفورد. وكان زمباردو كما كان ملغرام، يرغب في أن يكون الأفراد المشاركون في التجربة بوصفهم مبحوثين أفرادًا «أسوياء» حتى لا يُنتقد لاحقًا بدعوى أن نزعات المبحوثين الخاصة هي التي حددت سلوكهم (وليس الموقف الذي وضعوا فيه)، وانتقى أربعة وعشرين مَن بين من استجابوا لذلك الإعلان مفضلًا الشباب على غيرهم. هذا، ولم يحصر انتقاءه بطلبة ستانفورد.

وقام زمباردو بعد ذلك بتطبيق اختبارات شخصية على الشباب المنتقين ليتيقّن بسلامتهم في جوانب شخصية ذات أهمية. وبعد أن تيقَّن بحصوله على مجموعة سوية من الأشخاص مستبعدًا كل من بدا ساديًا أو غريب الأطوار، قام بتقسيم مبحوثيه إلى حراس ومساجين. ولكي يبدو الأمر حقيقيًا اتفق مع شرطة «بالو ألتو» في كاليفورنيا كي يقوموا بإلقاء القبض على «المساجين» صوريًا، بتهمة ارتكاب جرائم. ولدى وصولهم إلى «السجن» كانوا يُجردون من ملابسهم ويُرغمون على ارتداء ملابس خاصة.

سارت الأمور في البداية سيرًا حسنًا، وظهر أن «المساجين» و«الحراس» كلهم يدركون الطبيعة المصنَّعة أو الزائفة لما يحدث. غير أنه في غضون يومين أخذ سلوك المجموعتين بالتدهور وبدا الموقف «حقيقيًا» لكليهما فأصبح بعض الحراس يتصرفون بسادية [يستمتعون بإيذاء المساجين] فيحرمون المساجين حقوقهم المختلفة ويبتكرون طرائق لمعاقبتهم عندما لا يطيعون الأوامر (علمًا بأنه لم يُسمح لهم باستخدام العقاب الجسدي). وكان أحد الحراس - سمّاه المساجين «جون وين» (نسبة إلى الممثل المعروف) - ماهرًا بوجه خاص في ابتداع وسائل عقاب مهينة، بما في ذلك ألعاب جنسية «أرغم» فيها «المساجين» على القيام بأفعال لواطية افتراضية. وقد تباينت ردات فعل المساجين لهذا الوضع فتمرد بعضهم، في حين اتسمت ردات فعل بعضهم الآخر بالسلبية، وظهرت دلائل انهيار انفعالي سريع على عدد منهم. وخلاصة القول، تدهورت الأمور بسرعة إلى حد أصبح لا بد معه من إيقاف التجربة بعد ستة أيام فقط، وكان مخططًا لها أن تستمر لمدة أسبوعين. وقد قرر زمباردو إيقاف التجربة بعد أن ألحّت طالبة الدراسات العليا المعاونة له في المختبر على أن استمرار التجربة

سيكون عملًا غير أخلاقي. لم يقبل زمباردو نصيحة مساعدته هذه - وهي فتاة تدعى «كريستينا ماسلاك» تزوجها زمباردو في ما بعد - إلا أنه سرعان ما رأى أنها كانت على حق، وأوقف الأمر برمته قبل أن يتسبب بمزيد من الضرر.

وقد قدّم زمباردو لاحقًا تفسيرًا لما لاحظه في تجربة ستانفورد يحمل وجهة نظر كلاسيكية تقليدية تتمثل في نظرية «الصندوق الفاسد». ويوضح زمباردو ذلك بقوله: ضع شبابًا أصحاء عاديين في موقف بغيض، أي في مكان سيء، ستجد أن الموقف يهيمن عليهم. ونتيجة لذلك سرعان ما استولت الأدوار الاجتماعية التى شغلها «السجناء» و«الحراس» عليهم جميعًا وساعدت البنية السلطوية التى تتغاضى عن (أو تسمح) بالإساءة على إحداث بيئة دفعت الأمور إلى التدهور السريع. ونشأت حلقة مفرغة عملت فيها السلطات عمل الصندوق الفاسد الذي حول التفاح بداخله إلى تفاح عفن. ويصور الشكل الرقم (5-2) أدناه مقاربة زمباردو الأساسية هذه.

ويوصف الموقف الذي وضع زمباردو مبحوثيه فيه بـ (تأثير أمير الذباب) (The Lord oF The Flies) إشارة إلى الرواية الكلاسيكية للكاتب وليام غولدنغ (William Golding) التي تحمل هذا العنوان[3]. وتحكي الرواية قصة طلبة إنكليز علقوا على جزيرة استوائية (بعد أن تحطمت طائرتهم) من دون أن يكون بينهم شخص ذو سلطة. وعلى الرغم من أن غولدنغ لم يوضح ملابسات هذه الظروف تمامًا فإن القصة، كما بدا، دارت بعد حرب نووية، وترك الأولاد يتولون أمورهم من دون إشراف من كبير عليهم. هذا السيناريو أعطى غولدنغ الفرصة لوضع شخوص روايته في ما يدعوه توماس هوبز وغيره، حالة الطبيعة أو الفطرة (A State of Nature)، أي ظرف حقيقي أو مُفترض ليس فيه نظام للسلطة يضبط سلوك الأفراد. وعلى غرار هوبز فإن رؤية غولدنغ لما يمكن أن يحدث في مثل هذا الموقف رؤية قاتمة وقاسية، فأصبح سلوك الأولاد وحشيًا بشكل متزايد (وفق تصويره) بعد أن سلخوا أنفسهم عن قيود المجتمع الحديث، ونشبت بينهم حرب كان «الجميع فيها ضد الجميع»، على غرار ما تصوّره هوبز أيضًا.

---

(3) William Golding, *The Lord of the Flies* (London: Faber and Faber, 1954).

ربما لا تكون المقارنة بين أمير الذباب وتجربة ستانفورد متكافئة، لأن التجربة أقامت بنية سلطوية داخلها (وإن كانت سلطة متراخية ومتساهلة). علاوة على ذلك، فإن النقطة التى يطرحها هوبز هي أن الحياة في حالتها الطبيعية تكون لئيمة، وقاسية، وقصيرة في غياب سلطة عليا تفرض القانون والنظام. وهو بذلك رأى أن البشر «أشرار» بالفطرة أو في الأقل مصلحيون وأنانيون إلى حد يكون معه الحفاظ على الذات لديهم هو الهم الوحيد في تلك الحالة الطبيعية. وبالمثل، تبنى غولدنغ وجهة نظر قاتمة في الطبيعة الإنسانية، ظهرت في أعماله المنشورة جميعها. ونرى بذلك أن هوبز وغولدنغ كلاهما نزوعي، أو بعبارة أخرى تبنى كل منهما وجهة نظر ثابتة في الطبيعة الإنسانية. أما زمباردو فيتبنى وجهة نظر موقفية مناقضة تمامًا لوجهة النظر الأولى: فنحن، من وجهة نظره لسنا «سيئين» أو «أشرارًا» ولكننا يمكن أن نتصرف بطرائق غير أخلاقية إذا ما أرغمتنا الظروف على ذلك.

وقد أوضح زمباردو هذه النقطة، على سبيل المثال، في مقابلة مع جون ستيوارت (John Stewart) في برنامج الحوار المسمى «الحوار اليومى» عام 2007، بعد ظهور كتابه **تأثير الشيطان**. وبدا واضحًا أثناء المقابلة أن ستيوارت، مقدم البرنامج، لم يقرأ الكتاب أو أنه لم يفهم الرسالة الرئيسة فيه، حيث لخّص رسالة الكتاب كما فهمها قائلًا: «إن الناس أسوأ بكثير مما يبدون عليه في الظاهر». فرد عليه زمباردو بقوة نافيًا أن يكون ذلك ما قصده على الإطلاق وقال:

> «إن تجربة ستانفورد التي شرحتها بأدق التفاصيل في كتاب أثر الشيطان إنما تصف التحول التدريجي الذي طرأ على مجموعة من طلبة الجامعة في الرابعة والعشرين من العمر تطوعوا للعمل في هذه التجربة. لقد انتقينا الأصحاء الأسوياء منهم فحسب، وعيناهم «بالقرعة» ليكونوا إما حراسًا وإما مساجين. ولكننا رأينا كيف أن الأولاد الطيبين سرعان ما أصبحوا حراسًا قساة، وأن الأسوياء أصبحوا سجناء مرضى»[4].

(4) تستطيع مشاهدة هذه المقابلة في: Comedy Central Website, <http://www.comedycentral.com/motherload/ index. jhtml?ml_video =84518>.

على أن بعض النقاد أفادوا أن نتائج زمباردو لا تتمتع بالوضوح التام؛ من حيث إنه لم ينظم تجربته بالدقة التى اتبعها ملغرام في تجاربه، حتى إن بعضهم يشك في أنها تستحق أن تسمى «تجربة». والسبب في ذلك يعود جزئيًا إلى أنها لم تستكمل مهمتها وقُطعت قبل انقضاء الوقت الذى كان مخصصًا لها. ثم إنه لم يكن هناك تباين منتظم في التصميم (لاستقصاء أثر عوامل معينة في الموقف في سلوك المبحوثين). مثال ذلك، ماذا لو لم يكن الحراس يرتدون الزي الرسمي؟ ماذا لو أن الأدوار جرى عكسها لاحقًا، أو أن فريق العاملين تغير بالكامل؟ ماذا لو أنه تم تغيير الموقع الذي جرت فيه التجربة (مكان غير ستانفورد)؟ ماذا لو أن الحارس الذي سُمي «جون وين» مبتكر أساليب التحكم السادية لم يكن موجودًا؟ هل أدت قيادته دورًا حاسمًا (في ما لوحظ من سلوك)؟ وما إلى ذلك من اختلاف في الظروف. ونتيجة لافتقار التجربة إلى ذلك بقي هناك شك حتى اليوم في ماهية الميكانزيمات التى عملت في سيناريوهات زمباردو. فهل النتيجة الأساسية هى أن وضع أي شخص في دور معين يقود الشخص لأن يسلك على هذه الشاكلة، أم أن الدرس الأساس الذي نستخلصه هو أن غياب السلطة الواضحة بحد ذاته يقود الناس إلى السلوك على هذا النحو؟

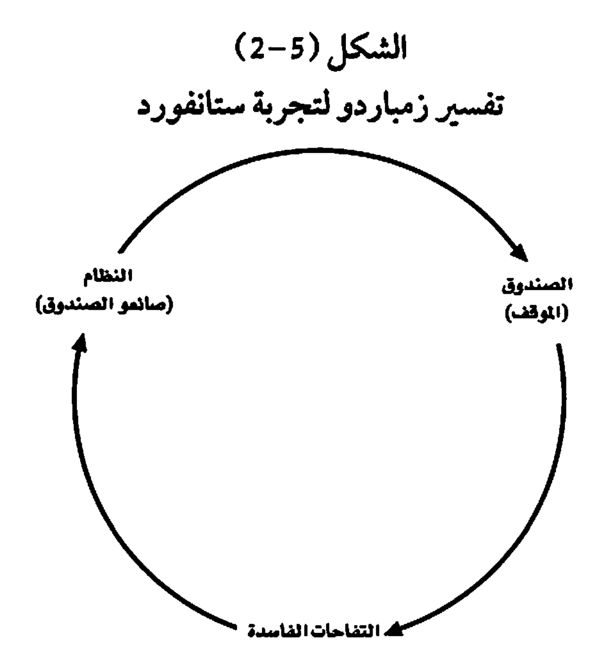
وهناك اعتبارات أخرى لا بد أن نلتفت إليها، **أولًا** وقبل كل شيء، لم يتصرف الحراس جميعًا بطريقة واحدة فكان هناك «حراس طيبون» و«حراس سيئون»، كما اعترف بذلك زمباردو، ولم يتصرف بالطريقة السادية إياها سوى ثلث الحراس فقط. كما كان هناك تباين في سلوك المساجين، فتمرد بعضهم على السلطة، بينما أذعن آخرون، (وكان أحد السجناء - وقد سمي سيرج (Sarge) - سلبيًا بوجه خاص). هذا يوحي بأن نزعات السجناء، وليس الموقف العام، هي صاحبة الأثر الأكبر في سلوكهم. ثانيًا، طلب زمباردو إلى الحراس وضع نظارات ذات زجاج فضي [كالمرآة] وذلك على غرار حارس سجن سادي ظهر في فيلم بعنوان (Cool Hand Luke)[5] لعب دور البطولة فيه بول نيومان (Paul Newman) عام 1967، وقد اشتهر الفيلم في ذلك الوقت،

(5) Zimbardo, *The Lucifer Effect: Understanding How Good People Turn Evil*, p. 52.

وبحلول عام 1971 عندما أُجريت التجربة، لا بد أن يكون قد ظهر على شاشات التليفزيون في الولايات المتحدة وخارجها، ونحن نعرف أن بعض الحراس في تجربة زمباردو لا بد أن يكونوا قد شاهدوا الفيلم. ماذا لو لم يكن ذلك الفيلم قد ظهر إلى حيز الوجود؟ هناك احتمال أن بعض الحراس والمساجين كانوا يمثلون الأدوار التى رأوها في الفيلم، أو افترضوا أن زمباردو يريدهم أن يسلكوا على غرارها (فالنظارات ذات المرآة يمكن أن تكون قد أوحت إليهم بالسلوك المتوقع منهم القيام به). وأخيرًا، كان دخول المبحوثين إلى التجربة، على نحو ما، اختيارًا ذاتيًا أكثر منه عشوائيًا - فقد كانوا يعرفون أنهم يشاركون في تجربة عن حياة السجن - وربما استمر بعضهم فيها لمجرد حاجته إلى النقود (لأن زمباردو كان يدفع لهم أُجرة عملهم في التجربة).

الشكل (5-2)

تفسير زمباردو لتجربة ستانفورد



وقد اعترف زمباردو ذاته أنه ارتكب أخطاءً في تصميم التجربة. وخلافًا لملغرام - الذي كان حريصًا كلَّ الحرص أن ينأى بنفسه عن التجربة ومجرياتها بوصفه باحثًا رئيسًا، فلم يشارك فيها شخصيًا، وإن لم يستطع

أن ينأى بنفسه عمّا آلت إليه من نتائج - فقد زمباردو لعب في تجربته دور مراقب السجن. لذا فإننا لا نعرف إذا كان لحضوره أثر في النتائج أم لا. وقد تعرض زمباردو لكثير من النقد بعد نشره نتائج تجربتة لأسباب أخلاقية. والمعضلة الأخلاقية في هذه الحالة شبيهة بتلك التي واجهها ملغرام؛ فمن جهة، لحق بالطلبة شيء من الأذى، كما هو واضح، مما يدفع المرء إلى خشية أن التجربة لم تكن أخلاقية بالمعنى المطلق. وقد عانى فيها الحراس كما عانى المساجين، وسمح لها زمباردو أن تستمر أكثر مما يجب. ومن جهة أخرى، علينا أن ننظر إلى الأخلاق نظرة نسبية، فنضع في الميزان ما حاق بالمبحوثين من معاناة مقابل ما جنوه من معرفة بذواتهم نتيجة لمشاركتهم في التجربة (فكانت المعاناة مقابل المعرفة). وكما هو الحال في تجربة ملغرام، وافق المفحوصون قانونيًا على المشاركة، وتم تقديم إيجاز لهم عن التجربة وأهدافها بعد انتهائها. وقد وظّف بعضهم هذه المعرفة لتحسين أنفسهم وتحسين حال غيرهم. مثال ذلك دوغ (Doug) الذي كان أول من تعرض للانهيار في السجن، وهو الآن عالم نفس إكلينيكي يعمل في نطاق السجون، ويعترف أن التجربة غيرت حياته. لكن الجدل حول الفوائد الاجتماعية في مقابل الأذى الذي تعرض له المبحوثون جدل يقع حله على عاتقك إن أردت (وإذا كنت تعتقد أنك قادر على حله).

ويروي زمباردو في فيلم وثائقي بعنوان (تجارب في السلوك الإنساني)، أن ملغرام شكره شخصيًا وقال له: «لقد أزحت عني جانبًا من الغضبة الأخلاقية التي تعرّضتُ لها». فالجدل حول تجربة ستانفورد، كما رأى ملغرام، شتّت انتباه العالم أخيرًا عن النقاش الذي اشتعل حول ما قام به ملغرام نفسه من تجارب. فها هنا تجربة أخرى تتعادل مزاياها وعيوبها الأخلاقية، وربما تزيد، عن تجارب الصدمات الكهربائية التي أجراها ملغرام. وبغض النظر عن الجانب الأخلاقي للأمر فإن النتائج التي توصل إليها زمباردو - والتي بيّنت أن مجموعة من الأولاد الأسوياء نفسيًا يمكن أن يُساقوا بالتوقعات المرتبطة بالأدوار التي خصصت لهم، والموقف الذي أُحيطوا به للتصرف بطرائق سادية - هذه النتائج تظل مثيرة للاهتمام إلى

حد كبير. علاوة على ذلك، فقد تجدد الاهتمام بها بعد أحداث سجن «أبو غريب» في العراق عام 2004.

فضيحة «أبو غريب»: تغيير كامل في وجهة النظر

وصلت قصة «أبو غريب» إلى العلن عام 2004، وأحدثت صدمة فورية داخل الولايات المتحدة وفي أنحاء العالم واستعصت على الفهم، حيث أظهرت الصور التى بُثت على نطاق واسع على التليفزيون والإنترنت، رجالًا ونساء من الجيش الأميركي يعذبون موقوفين عراقيين - من خلال أفعال جنسية مهينة وحرمان حسي في معظم الحالات - داخل واحدٍ من أكبر السجون إثارة للخوف في عراق صدام حسين. أدى الاشمئزاز الذي أثارته تلك الصور إلى اعتقال بعض الأشخاص المتورطين، وإجراء العديد من التحقيقات في «مكمن الخطأ» في ما وقع في ذلك السجن.

وكانت واحدة من مشكلات تلك الصور - التي لم تُبث جميعها في الواقع لأن بعضها اعتبر مقززًا إلى درجة غير محتملة - هي أنها تصور أفعالًا جرى ارتكابها من أشخاص مختلفين، وفى سياقات مختلفة [ربما لا يكونوا منتمين إلى الفريق الذي ارتكب معاصي أبو غريب]. مثال ذلك، أن معظم الصور أظهرت جنودًا أميركيين يحدقون إلى سجناء عراقيين عراة، إلا أن الصورة الأشهر في هذه المجموعة، تلك التي تصور «رجل القبعة» المبينة في الشكل الرقم (5-3) فهي تصور شكلًا من أشكال التعذيب التي لا يمكن أن تخطر ببال تلك الجماعة من المجندين الحديثي العهد الذين التقطوا صور الإساءة الجنسية. ووفق ملاحظة مارك دانر (Mark Danner) بهذا الشأن، فإن هذه الصورة تظهر شكلًا مميزًا ومتخصصًا من أشكال التعذيب طورته الاستخبارات البرازيلية ويدعى «الفيتنام»، ولم يُعرف من الذي رتّب وضع الشخص في هذه الصورة.

ويلمّح روري كينيدي (Rory Kennedy) في فيلم «أشباح أبو غريب» (Ghosts of Abu Graib) إلى أن ما حدث في «أبو غريب» كان إطاعة لأوامر عليا، حيث

يبدأ الفيلم بمشاهد من فيلم ملغرام الوثائقى «الطاعة» وبموسيقى تصويرية توحى بالمطاردة. وعلى الرغم من أن الفيلم لم يُفصح صراحة عن صلة نموذج ملغرام بموضوع الفيلم، فإن الاستنتاج الواضح الذي يخرج به المشاهد هو أن من ارتكبوا تلك الإساءات في السجن إنما كانوا يطيعون أوامر رؤسائهم. وهذا الطرح يقدم لنا بالتأكيد طريقة لتطبيق استبصارات علم النفس السياسي على هذه الأحداث البغيضة، وربما تكون أفضل الطرائق لفهم تلك الأحداث.

الشكل (5-3)

واحدة من الصور التي سُرِّبت عام 2004

تُظهر مجندين أميركيين يعذبون محتجزين في سجن أبو غريب



ولا بد من الإشارة أيضًا إلى أن أحداث «أبو غريب» تتشابه إلى حد صارخ مع تجارب ستانفورد. وقد قال زمباردو، بعد أن شاعت أخبار «أبو غريب»، «هناك تماثل مذهل بين تجربة السجن وما حدث في أبو غريب». ويضيف، «بعض المشاهد التي رأيناها تكررت في السجنين، بما في ذلك تجريد السجناء من ملابسهم، ووضع أكياس على رؤوسهم، وتقييدهم بالسلاسل، ودفعهم إلى

القيام بأفعال جنسية مهينة. وفى كلا السجنين تم ارتكاب أفظع الإساءات في المناوبة الليلية». ولكن زمباردو يعترف أن هناك اختلافات طبعًا، ويقول في ذلك: «إن حراسنا لم يستخدموا العنف الجسدي، إلا قليلًا جدًا (...) لقد كنت أقول لهم باستمرار إنه غير مسموح لهم بممارسة الإساءة الجسدية، وعند ذلك لجأوا تمامًا إلى التحكم النفسي، والسيطرة النفسية».

ومن أوجه الشبه الواضحة للعيان بين تجربة ستانفورد و«أبو غريب»:

- وضع أكياس على رؤوس السجناء (لتجريد الفرد من إنسانيته) (dehumanization) وفرض حالة من اللاتفرد (deindividuation)
- تجريد السجناء من ملابسهم (اللاتفرد)
- الإهانة الجنسية (بإرغام السجناء على تمثيل أفعال لواطية)
- تولّي حراس غير مدربين مهمة الحراسة
- إهانة السجناء لمجرد شعور الحراس بالملل
- وقوع أبشع الإساءات في المناوبة الليلية
- تصاعد في طبيعة الأفعال المشينة
- ظهور شخصية «جون وين»[6].
- غموض سلسلة الأوامر المبيحة للسلوك غير المقبول
- وهناك اختلافات أيضًا، كما يمكن أن نتوقع – حيث إن تجربة عام 1971
- لم تطلب فيها الـ سي آي إي (C I A) أو أي سلطات عليا من الطلبة أن «يُليّنوا» السجناء
- لم تستخدم العنف الجسدي
- لم يجر فيها التقاط «صور تذكارية»
- لم ينظر أحد إلى السجناء على أنهم شياطين، ولم يكن الطلبة من الفريقين أعداء «حقيقيين»
- لم يكن هناك فروق عنصرية بين الفريقين عام 1971

---

(6) أدى هذا الدور شالز غرينر في حالة العراق.

- لم يكن هناك ضغوط ناجمة عن الحرب
- لم يكن هناك حاجة إلى معلومات استخبارية

ولأن وجود تطابق تام بين أي موقفين أمر يصعب تحقيقه فإن السؤال البارز هنا ليس سؤال هل هناك اختلافات؟ «وإنما ما أهمية تلك الاختلافات؟». وبحسب ما يرى زمباردو فإن المفتاح لفهم «أبو غريب» يكمن في العملية ذاتها التي وظفها لتفسير نتائج تجربة ستانفورد، ويقارن زمباردو طويلًا بين الحدثين في كتابه تأثير الشيطان مجادلًا: إن صانعي الصندوق (مشيرًا هنا إلى سلسلة الأوامر الممتدة من البيت الأبيض والبنتاغون (وزارة الدفاع الأميركية) فصّلوا بيئة أو موقفًا (أو صندوقًا) أدّى إلى «إفساد التفاحات». فكثير ممن ارتكبوا إساءات «أبو غريب» التحقوا بالجيش طواعية بعد أحداث الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر بدافع الحماس الوطني، والتصميم على الحيلولة دون تعرّض الولايات المتحدة مرة أخرى لهجمات إرهابية قاتلة من هذا القبيل. ولكنهم وجدوا أنفسهم في «أبو غريب» يقومون بأفعال لم يتخيلوا القيام بها في أشد أحلامهم غرابة. قال جافال ديفيز (Javal Davis) أحد المجندين في «أبو غريب»: «هذا المكان حوّلني إلى وحش، كنت غاضبًا جدًا. إن هذا «الأبو غريب» يمكن أن يغير تفكيرك. أتعرف أنك يمكن أن تذهب إلى «أبو غريب» لفترة وجيزة فتتحول من شاب مُسالم مرح إلى إنسان آلي»[7].

يعتقد زمباردو أن الرئيس جورج دبليو بوش، ونائب الرئيس ديك شيني، ووزير الدفاع دونالد رامسفيلد أنشأوا نظام سلطة يشجع التعذيب ضمنيًا أو صراحةً، ثم إن إدارة بوش قررت عام 2002 أن اتفاقيات جنيف (التي وقعتها الولايات المتحدة عام 1949) لا تنطبق على الوضع في سجن «أبو غريب». وقد شجعت الاستخبارات العسكرية الحراس الأغرار في «أبو غريب» - عبر سلسلة الأمر والنهي على «تليين» السجناء لأغراض التحقيق. فكان الصندوق الذى صنعوه إذًا، هو الذي حوّل أناسًا طيبين إلى أنذال. وبالمقابل، فإن الإدارة الأميركية ألقت اللوم على النزعات الخاصة بالأفراد أنفسهم. فدافع بوش عن

---

(7) تمّ اقتباسه في فيلم المخرج روري كينيدي «أشباح أبو غريب». انظر: «Ghosts of Abu Ghraib,» (Director: Roy Kennedy, Writer Jack Youngelson, Moxie Firecracker Films, 2007).

وجهة النظر هذه قائلًا: «إن العراق الجديد سيكون بحاجة إلى نظام سجون إنساني يتم الإشراف عليه بإحكام، ففي عهد الدكتاتور كانت السجون مثل سجن «أبو غريب» رموزًا للموت والتعذيب... هذا السجن ذاته أصبح رمزًا لسلوك مشين ارتكبه قلة من الجنود الأميركيين الذين جلبوا العار لبلدنا وأهانوا قيمنا».

لقد كررنا مرارًا أن الموقفية تمثّل تحديًا للنظام القضائي الغربي وفكرته الأساس القائلة إن الأفراد مسؤولون عن خياراتهم وأفعالهم. ويروي زمباردو في كتابه **تأثير الشيطان** ما واجهه من مشكلات وهو يحاول المساعدة في الدفاع عن الرقيب إيفان شب فريدريك (Ivan Chip Fredrick) الجندي الذي ظهر ضاحكًا أمام هرم السجناء العراقيين العراة. وعلى الرغم من أن مشاعر زمباردو كانت مختلطة إزاء الدفاع عن فريدريك، وافق على تقديم شهادته من خلال الفيديو المباشر. وقد أفاد زمباردو في دفاعه إن فريدريك شخص سوي (وإن كان يفتقر إلى الشعور بالأمن، ومترددًا في اتخاذ القرار) وقد وجد نفسه في موقف شاذ جدًا. ومع أن زمباردو لم يحاول أن يجد العذر لفريدريك، فقد سعى إلى فهم سلوكه، وربما دعا إلى أخذ العوامل الموقفية بعين الاعتبار عند الحكم عليه. وأفاد زمباردو أن شخصًا مثل فريدريك كان يمكن أن يكون بطلًا لو أنه وُضع في صندوق أفضل، ولكنه كان في المكان الخطأ والزمان الخطأ. وكما يمكن أن نتوقع رفض القاضي هذه الحجة، وقال متبنيًا وجهة النظر النزوعية التقليدية: لقد اختار فريدريك أفعاله بكامل إرادته ولم يجبره أحد على التصرف بطرائق غير أخلاقية.

ومرة أخرى نطلب من القارئ أن يقرر بنفسه أيهما على صواب القاضي أم زمباردو، وهل الصندوق هو الذى أدّى إلى إفساد التفاحات، أم التفاحات كانت فاسدة من البداية؟ وهذه القضية كما كررنا مرارًا، تقع في قلب الجدل القائم حول الموقفية مقابل النزوعية. ومهما يكن قرارك، فإنه يجدر ملاحظة أن هناك أفرادًا لا تغلبهم المواقف، أفراد يمتلكون حسًا أخلاقيًا يصعب تجاوزه. مثال ذلك كريستينا ماسلاك ذاتها في تجربة ستانفورد - فعلى الرغم من الضغوط الموقفية القوية عليها (حيث كان زمباردو هو المشرف على رسالتها للدكتوراه) - فإنها قالت له: «إن ما تفعله مع هؤلاء الأولاد خطأ». وفي «أبو غريب»، أدى دور البطولة الضابط جوزيف داربي، وهو الحارس الشاب الذى التقط الصور التذكارية وأرسلها إلى السلطات العسكرية. وقد واجه في البداية

مقاومة بيروقراطية شديدة، غير أنه أصرّ على إطلاق الصفارة على ما يجري في «أبو غريب». وداربي هو الذى يستحق الشكر مع اثنين آخرين في «أبو غريب». ويعود الفضل كذلك إلى جوزيف داربي في توقف تلك الممارسات المخزية. وقد دفع الجندي الشاب ثمنًا باهظًا لعمله البطولي، كما هاجمه بعضهم لكونه خائنًا. ولكي نُبرز النقاط الرئيسة في المقاربة التي تبناها زمباردو نضع تلخيصًا للحجج المؤيدة، والحجج المعارضة لقضيته في الجدول (5-1).

الجدول (5-1)

ملخص الحجج المؤيدة والحجج المعارضة لمقاربة زمباردو المتعلقة بـ «الصندوق الفاسد»

الحجج الداعمة	الحجج المعارضة
- التناظر بين تجربة ستانفورد والوضع في «أبو غريب» صارخ.	- هناك فروق بين ستانفورد و«أبو غريب» كافية لأن تضع التناظر بينهما موضع تساؤل في أقل تقدير.
- بدى الموقف في تجربة ستانفورد حقيقيًا لكل من الحراس والمساجين إلى حد استثنائي وسرعان ما هيمن الموقف على الأشخاص فيه.	- التباين بين سلوك السجين وسلوك الحارس في كلتا الحالتين يوحي بأهمية النزعات وليس المواقف.
- انغمس المبحوثون بوجه عام في الأدوار الاجتماعية المتوقعة منهم بسرعة لافتة للنظر.	- كانت آليات التحكم محدودة في تجربة ستانفورد، وربما معدومة كليًا، ما يعيق معرفة ما إذا كان أي تعديل في ظروف التجربة يمكن أن يقود إلى اختلاف في النتائج.
- كان المبحوثون «أسوياء» نفسيًا - كما كان الحراس في «أبو غريب» - ولكن سلوكهم لم يكن كذلك (هذا ما يحدث «عندما نضع أناسًا طيبين في المكان الخطأ») كما يرغب زمباردو في أن يقول.	- ربما ستانفورد و«أبو غريب» يكشفان جانبًا أساسيًا لا إنسانيًا أو نزعة إلى الشر لدى البشر كما يقول هوبز وكما ظهر في أمير الذباب أكثر مما يكشفان تأثير الموقف.
	- ربما كان المبحوثون في تجربة زمباردو يؤدون الأدوار التي اعتقدوا أن المجرب يتوقع منهم أداءها.
	كانت آليات التحكم التجريبي محدودة في تجربة ستانفورد، وربما معدومة كليًا، ما يجعلنا لا نعرف ما إذا كان أي تعديل في ظروف التجربة يمكن أن يقود إلى اختلاف في النتائج [لقد جرت الإشارة في سياق هذا الفصل إلى عدد من العوامل التي كان يمكن لزمباردو فحص أثرها في سلوك السجناء والسجانين للتحقق من التأثيرات الممكنة لتلك العوامل].

خاتمة

يذكر القارئ أننا في الفصل الأول من هذا الكتاب ناقشنا قضية روجر بويزجولي، المستشار التقنى في الشركة التي تعمل مع ناسا على بناء مكوك فضاء. وكانت ناسا في كانون الأول/ يناير عام 1986 ترزح تحت ضغط شديد لإطلاق المكوك تشالنجر في الفضاء. وكان المناخ في وسط فلوريدا (حيث يجري إطلاق الصاروخ) أبرد مما هو مألوف في ذلك الوقت من السنة، ما أدّى، إضافة إلى صعوبات تقنية مختلفة، إلى إلغاء عملية الإطلاق مرات عدة، وفى مؤتمر عُقد عبر الفيديو بين شركة روجر، وهي شركة موتورن ثيوكول، ومسؤولي ناسا - وهو اجتماع ضم ألمع العقول من المنظمتين - تم اتخاذ قرار بإطلاق المكوك. وكان بويزجولي «مع واحد أو اثنين آخرين» قد حذروا مرارًا وتكرارًا من أن «حلقات O» - وهي الحلقات التى تربط مكوك الفضاء بالصاروخ الذي يقذف المكوك في الفضاء - ربما لا تَثْبت أمام درجة الحرارة المتدانية تلك، وقد تتشظّى كلية، وتتيح المجال لحدوث انفجار كارثي. أما تحفظات روجر فقد أسقطتها الغالبية العظمى من صانعي القرار في المنظمتين، ولكنهم أتاحوا له المجال للمرة الأخيرة في نهاية الاجتماع ليتكلم ويستنكر القرار الذي تبنته الأغلبية إذا أراد، ولكن بويزجولي خلد إلى صمت غريب، ووقعت الكارثة التى تنبأ بها بعد ذلك بوقت قصير. وفي 28 كانون الثاني/ يناير من عام 1986 انفجر مكوك الفضاء تشالنجر بعد ثلاث وسبعين دقيقة من إطلاقه قاتلًا جميع أعضاء الفريق على متنه. ما السبب في أن أناسًا أذكياء يتخذون قرارات ضعيفة في كثير من الأحيان عندما يتخذونها في جماعات؟ وما الذي يدعو أفرادًا على المستوى ذاته من الذكاء ممن يعرفون أو يشعرون بأن القرار الذي تم اتخاذه قرار غير سليم، ما الذي يدعوهم إلى البقاء صامتين في كثير من الأحيان؟ ما الذي يمنع الناس من قول ما يفكرون فيه وهم داخل جماعة؟ هذه الاسئلة التى فتنت عالم النفس الاجتماعي إيرفنغ جانيس هي ما سنحاول الأجابة عنه في الفصل الآتي.

6
صناعة القرارات الجماعية

عندما نفكر في القرارات التي تتخذها الحكومة، نتصور شخصًا يجلس في مكتب بمفرده - هو رئيس الدولة أو رئيس الوزراء - يقلِّب الخيارات أو الأبدال في أمر ما، وبعد تفكير متروٍ يختار القائد السياسي - من الأبدال المتاحة - البديل الذي يحقق في نظره الهدف المرجو. كما أننا نتصور أن القرارات تُتخذ بطريقة نموذجية، على غرار ما تتصوره مقاربة الإنسان الاقتصادي (Homo economicus). وهذا السيناريو يمثل الطريقة التي تُصنع بها القرارات في المستويات العليا من الدولة، في بعض الأحيان على الأقل. فعندما كان رونالد ريغان رئيسًا للولايات المتحدة، على سبيل المثال، رُوي أنه كان يفضل أن تُقدم له ورقة واحدة تحمل عددًا من البُدَلاء، ليقوم هو من بعدئذٍ بوضع إشارة على البديل المفضل لديه، فهو نادرًا ما كان ينزل إلى المستويات الدنيا من إدارته أو يقرأ المذكرات المطولة التي تُعد له. وعلى الرغم من أن ريتشارد نيكسون كان يتمتع بشهية شديدة للمعلومات تفوق شهية ريغان بكثير، كان يتخذ قراراته في عزلة تامة، فيقبع في مكتبه في البيت الأبيض بعيدًا من معظم زملائه في الحكومة. وقد قادته شخصيته الانعزالية إلى اختيار طاقم لإدارة البيت الأبيض يعزز ميله إلى العزلة هذا، ما أدى في نظر كثيرين إلى سقوطه في نهاية المطاف.

غير أن القادة - وحتى الرؤساء التنفيذيون منهم، أمثال ريغان ونيكسون يجدون أحيانًا أن صنع القرار في إطار جماعة يحقق فائدة أكبر من صنعه على

انفراد. ويبدو أن صنع القرار جماعيًا هو النمط المتبع في العادة وليس القرار المنفرد. وثمة عدد من الأسباب وراء ذلك[1]؛ أولها أن القرار الذي تتخذه جماعة يكتسب قدرًا أكبر من الشرعية من القرار الذي يتخذه شخص بمفرده، بعد قليل من التشاور مع آخرين. ثانيًا، يُعطي القرار الجماعي القادة غطاء سياسيًا؛ فبعد أن يقوم المشاركون في اتخاذ القرار بالتوقيع عليه، يصبح من الصعب عليهم الخروج على الملأ بعد ذلك لمهاجمة القرار في الحالة التي يقود فيها ذلك القرار إلى فشل ذريع. ثالثًا، يضمن القرار الجماعي (من حيث المبدأ في الأقل) أن يتعرف قائد صناعة القرار آراء متعددة، وربما معارضة لما لديه من أفكار أو معلومات، ما يزيد احتمال أخذ القائد في الاعتبار جميع الحقائق المتاحة. ويرى ياكوف فيرتزبيرغر (Yaacov Vertzberger):

> أن صنّاع القرار عندما يعملون في إطار جماعة يتلقون معلومات وتحليلات جديدة بشكل أسرع مما لو عملوا على انفراد، كما أنهم قد يسمعون حججًا لا تتاح لهم معرفتها لو أنهم عملوا باستقلال عن الآخرين. وهذان الأمران [تلقي المعلومات، ومعرفة الحجج البديلة] يحسّنان طرائق حل المشكلات لدى أعضاء الجماعة، ومستوى تعلمهم لهذه الطرائق [...] من حيث إن الجدل الذي يُصاحب عملية صنع القرارات الجماعية يعمل على إجلاء الغموض وعدم الاتساقية، من خلال تبادل المعلومات، وتعرّف منظورات بديلة، ما يساعد على كشف نقاط الضعف في البنية المنطقية للاعتقادات القائمة، ونقاط الضعف في المعرفة المتراكمة عن الموضوع»[2].

رابعًا، يفضل بعض القادة العمل في جماعات عندما لا يمتلكون الاطلاع الكافي في المجال السياسي المعين. فعلى سبيل المثال، كانت معرفة ليندون جونسون في مجال السياسة الخارجية محدودة نسبيًا حين وصل إلى الرئاسة، واعتمد إلى حد كبير على من كان يسميهم «جماعة هارفارد» (وهم مستشارو

---

(1) انظر: Fritz Gaenslen, «Decision-Making Groups,» in: Eric Singer and Valerie Hudson, eds., *Political Psychology and Foreign Policy* (Boulder, CO: Westview Press, 1992).

(2) Yaacov Y. I. Vertzberger, *The World in their Minds: Information Processing, Cognition and Perception in Foreign Policy Decisionmaking* (Stanford, Calif: Stanford University Press, 1990), p. 223.

السياسة المؤتمنون لديه من أمثال روبرت مكنمارا ودين راسك). كما أن الصناعة الجماعية للقرار تساعد على تخفيف الضغط النفسي على القادة الذين لا يرتاحون للتعامل مع قضية سياسية معينة أو مجال معين. وأخيرًا، فإن الصناعة الجماعية للقرارات قد تكون ملزمة من المشرع في بعض الحالات، كما في قانون الأمن القومي الأميركي لعام 1948[3].

غير أن هذا كله لا يعني أن الجماعات تصنع بالضرورة قرارات أفضل من القرارات التي يصنعها الأفراد - عندما يعملون على انفراد؛ إذ يؤكد فيرتزبيرغر أن هناك عمليات جماعية [ذات تأثيرات سلبية] تأخذ مجراها في النقاش الجماعي ويمكن أن تطغى على الفوائد المحتملة لصناعة القرار جماعيًا؛ ذلك لأن هناك «أعراضًا مرَضية» تنبثق من النقاش الجماعي، فتؤدي إلى تضييق نطاق المعلومات التي تعالجها الجماعة، من حيث الاتساع ومن حيث مستوى التعقيد، كما أنها تحد من اتساع أفق الجماعة وتشجع على الامتثال (أو الانسياق) لها»[4]. هناك طُرفة قديمة تقول «ما الجمل سوى حصان سباق صممته لجنة». والنقطة الجادة خلف هذه الطُرفة هي أن الجماعات - نتيجة لتشتت السلطة فيها، أو توزع القوة بين أعضائها - تضطر إلى إجراء تسويات بغرض الوصول إلى موقف يُجمع عليه الجميع. افرض أن حصان السباق هذا لم يكن موجودًا وأننا أوكلنا إلى جماعة من هذا النوع مهمة تصميمه. فربما يقترح أحد أعضاء الجماعة جعل الحصان أملس وإيروديناميًا (aerodynamic)، ومن دون أسنمة. وربما يعارضه آخر قائلًا إن سنامًا واحدًا يعطي سائقه شيئًا يتعلق به أثناء السباق. ويقول شخص ثالث، «لمَ لانعطيه ثلاثة أسنمة حتى يستطيع عدد أكبر من الأشخاص قيادته معًا؟» وفي نهاية المطاف ربما لا يتفقون إلا على حيوان بسنامين، شيء يشبه الجمل، ولكنه غريب الشكل قليلًا، ويعاني اختلالًا وظيفيًا. وهناك مثال كلاسيكي نورده هنا كمثال من المجال القانوني هو اتفاقية التجارة الحرة لأميركا الشمالية (North American Free Trade

(3) Alexander George, *Presidential Decisionmaking in Foreign Policy: The Effective Use of Information and Advice*, Westview Special Studies in International Relations (Boulder, CO: Westview Press, 1980), p. 81.

(4) Vertzberger, Ibid., p. 224.

(Agreement – والتي وقّع عليها مجلس الشيوخ في الولايات المتحدة عام 1993. وكان لا بد للاشتراع الذي حوّلها إلى قوانين خاصة بالولايات المتحدة أن يضع فيها كثيرًا من الاستثناءات لضمان إمرار هذه الاتفاقية. وقد قامت جماعات ضغط مختلفة بفرض تلك الاستثناءات، من مثل مزارعي البرتقال في فلوريدا، ومزارعي السكر في لويزيانا، وجماعات ضغط بيئية أخرى، ما جعل تلك القوانين غير مطابقة للاتفاقية الأصلية إلا بشكلٍ جزئي.

يعرض غراهام أليسون وفيليب زيليكوف (Graham Allison and Philip Zelikow) في كتابهما جوهر القرار (*Essence of Decision*) نموذجًا نظريًا شهيرًا لصناعة القرار – هو نموذج السياسات الحكومية أو نموذج (3) – تتوزع فيه قوة التأثير في صنع القرار على الجميع، وتتحدد مخرجات القرار من طريق المفاوضات والتسويات. ويقترح النموذج أن يمتلك كل عضو في الجماعة قدرًا من القوة يستطيع معه الوقوف من دون تحقيق الأعضاء الآخرين لرغباتهم، وأي قرار يتم الوصول إليه لا يمثل ببساطة سوى «القاسم المشترك الأصغر» لآراء الجماعة، أو ذلك الشيء الذي يتفقون عليه جميعًا. ولكنه ربما لا يكون الشيء الذي رغب فيه أحد في الحقيقة، ليس خيارًا أولًا في الأقل[5].

وما هذه الحالة في الواقع (أي حالة توزع القوة) سوى واحدة من الحالات التي تؤدي بالجماعة إلى إنتاج مخرجات غير فعالة أو أدنى مما هو مأمول، أو تؤدي بالجماعة إلى اتخاذ قرارات أضعف بكثير مما يمكن أن يتخذه شخص مطلع يعمل على انفراد. غير أننا سنكرس معظم هذا الفصل لفحص مقاربة نظرية أخرى تبحث في الصناعة الجماعية للقرار، وهي نظرية إيرفنغ جانيس في التفكير الجمعي (groupthink)، المعروفة على نطاق واسع. وهذه المقاربة، كما سنكتشف لاحقًا، تبتعد عن مقاربة الإنسان العاقل أو «الإنسان الاقتصادي» من نواحٍ هامة. وفي سيرها بعيدًا في ذلك، تبيِّن هذه المقاربة أن الأفراد عندما يشاركونَ في صناعة قرار بوصفهم أعضاء في جماعة، فإن ما يعبرون عنه من

---

(5) Graham Allison and Philip Zelikow, *Essence of Decision: Explaining the Cuban Misssile Crisis*, 2nd ed. (New York: Longman, 1999).

وجهات نظر وتفضيلات خاصة، قد يختلف عما يعبرون عنه عندما يعملون على انفراد. والافتراض الرئيس هنا هو أن سلوكنا يتغيّر مع الجماعة بطرائق خفية بحيث إننا نسلك داخل الجماعة بطرائق تختلف عن تلك التي نسلكها عندما نعمل على انفراد. ومرة أخرى نقول ما يؤكد المغزى الرئيس لهذا الباب من الكتاب، وهو أن قوة «الموقف» تفوق في بعض الأحيان قوة الفرد الذي يتعامل معها إلى حد كبير.

كيف يحدث ذلك؟ دعنا نعود قليلًا الى نتائج تجارب سولومون آش المشوقة حول الامتثال أو الانسياق للجماعة (group conformity). فقد رأينا في الفصل الرابع أن الأغلبية تؤثر تأثيرًا قويًا في أحكام الأقلية؛ فعندما كان المبحوثون يوضعون في غرف منفردة، ويطلب إليهم مقارنة أطوال خطوط تعرض عليهم، كانوا يؤدون المطلوب أداءً صحيحًا. ولكنهم أخطأوا في 75 في المئة من الحالات عندما كانوا يجلسون في غرفة ملأى بحلفاء للمجرب يعطون إجابات خاطئة قصدًا. واللافت للنظر في هذه التجربة هو أن المشاركين فيها كانوا مستعدين لتعليق أحكامهم - حتى تلك التي كانوا متحققين موضوعيًا من صحتها - في سبيل الاتفاق مع وجهات نظر تُجمع عليها الجماعة. وقد مثّلت هذه البحوث عن الامتثال للجماعة نقطة البداية ليس لبحوث ستانلي ملغرام عن طاعة السلطة فحسب، وإنما لبحوث إيرفنغ جانيس الشائقة حول الصناعة الجماعية للقرارات في السياسة الخارجية الأميركية.

مخاطر التفكير الجمعي: أذكياء يصنعون قرارات غبية

يُقدم عالم النفس الاجتماعي إيرفنغ جانيس في كتابه الريادي **ضحايا التفكير الجميع** (*Victims of Groupthink*) الذي نشر عام 1972 وتمت مراجعته بعد عشر سنوات تحت عنوان «التفكير الجمعي» (Groupthink) يقدم جانيس تعريفًا للتفكير الجمعي بأنه «عملية تؤدي بالجماعة إلى الوصول إلى إجماع متسرع أو سابق لأوانه، وتغلق الباب على نفسها عن أي أفكار تأتي من الخارج»[6]. وبكلمات

(6) Irving Janis: *Victims of Groupthink: A Psychological Study of Foreign - Policy Decisions and Fiascoes* (Boston, MA: Houghton Mifflin, 1972), and *Groupthink: Psychological Studies of Policy Decisions and Fiascoes*, 2nd ed. (Boston, MA: Houghton Mifflin, 1982).

جانيس نفسه، التفكير الجمعي هو «شكل من التفكير يظهر لدى الجماعة عندما يكون أعضاءها في حالة تماسك شديد تصبح معه رغبتهم في توحيد الكلمة، والوصول إلى إجماع، أقوى من حاجتهم إلى تقويم البُدَلاء المتاحة تقويمًا واقعيًا»[7]. وتظهر حالة التماسك الشديد هذه، على سبيل المثال، عندما يكون أعضاء الجماعة على معرفة سابقة ببعضهم البعض أو عندما يتشابهون في التفكير إلى حد كبير، أو الاثنان معًا. وفي حين تستطيع جماعة من هذا القبيل صنع قرارات فعالة، فإن تماسك الجماعة وحده - وإن كان شرطًا ضروريًا - ليس شرطًا كافيًا لحدوث التفكير الجمعي، ولا تصبح الجماعة فريسة لهذا المرض إلا إذا كان أعضاؤها يفضلون الإجماع والاتفاق على التفكير العقلاني في كل ما هو متاح لهم من سبل للتعامل مع القضية موضوع الاهتمام. ويقارن جانيس بين هذا الوضع والوضع الذي تقوم فيه الجماعة بصناعة قراراتها صناعة متأنية وحذرة مبنية على التقويم الدقيق والشامل لجميع البُدَلاء المتاحة. ويقدم جانيس أزمة الصواريخ الكوبية كمثال بارز لحالة أخذت فيها عملية التفكير الجمعي مجراها على أوضح ما يكون[8].

ووفقًا لجانيس فإن التفكير الجمعي يتضمن عددًا من العناصر (أو «الشروط المسبقة»)، إضافة إلى التماسك الشديد بين أعضاء الجماعة، وهي:

- عزل الجماعة نفسها عن أي نصيحة من الخارج، فلا تسعى، أو لا تسمح لأحد من خارجها بتقديم الرأي لها.

- تكون القيادة قوية وصاحبة رأي، حيث يطرح القائد آراءه بوضوح تام في البداية أو أثناء النقاش على نحو يعيق أي نقاش حقيقي لاحقًا.

- الافتقار إلى معايير خاصة بالبحث الممنهج، أي عدم وجود تقليد داخل الجماعة يشجع البحث الشامل في البُدَلاء المتاحة بطريقة منهجية منظمة.

- التجانس بين الأعضاء في الخلفية أو الأيديولوجية، حين يأتي معظم

(7) Janis, *Groupthink: Psychological Studies of Policy Decisions and Fiascoes*, p. 9.

(8) المصدر نفسه، ص 132-158.

الأعضاء من خلفية اجتماعية وتعليمية متشابهة، إضافة إلى احتمال التشابه الشديد بينهم في طريقة التفكير.

- تواجه الجماعة في حينه ضغوطًا شديدة نتيجة لمشكلة تعترضها، كالحاجة إلى الوصول إلى قرار سريع.

- شعور أعضاء الجماعة بحالة عارضة من التقدير المتداني للذات[9].

كيف نعرف أن التفكير الجمعي أخذ مجراه لدى جماعة قائمة في الحاضر؟ يُعرِّف جانيس بثمانية أعراض يمكن اعتمادها كمعايير لتشخيص هذه الحالة:

- توهُّم الحصانة، أو وجود إحساس غير مبرر بالحصانة - إذ يتطور لدى الجماعة تفاؤل مفرط يُشجعها على المخاطرة.

- التبرير الجمعي، يُسقط أعضاء الجماعة من حسابهم ما يصلهم من تحذيرات، ويُغفلون النظر في ما يكمن خلفها من افتراضات جوهرية.

- الاعتقاد بالصلاح الأخلاقي للجماعة، يتطور لدى الأعضاء اعتقاد بأن قضيتهم صحيحة «أخلاقيًا»، ويسيئون تقدير التبعات المحتملة لقراراتهم من الناحية الأخلاقية.

- النظرة النمطية للجماعة الخارجية [أو الأخرى]، حين تطور الجماعة نظرة مفرطة في تبسيطها، وفي سلبيتها لمن يعتبرونهم «الأعداء».

- ممارسة الضغط المباشر على الخارجين عن الجماعة، يواجه الأعضاء ضغطًا شديدًا من الجماعة عندما يخرجون عن آرائها.

- الرقابة الذاتية، يُحجم الأعضاء عن التعبير عن شكوكهم واختلافهم مع ما تجمع عليه الجماعة.

- وهم الإجماع، يسود الافتراض أن رأي الأغلبية هو الرأي المجمع عليه مع أن بعض الأعضاء تساورهم الشكوك في الواقع حول صحة ذلك الرأي.

- «حراسة فكر الجماعة»، يتولى بعض الأعضاء حماية الجماعة وقائدها

---

(9) *Groupthink: Psychological Studies of Policy Decisions and Fiascoes*, pp. 176-177.

من وجهات النظر المخالفة ومن المعلومات التي قد تهدد الإجماع المفترض لدى الجماعة[10].

وبطبيعة الحال، فإن تناول حالة تاريخية واقعية يجعل من السهل أن نرى كيف تأخذ هذه العملية النظرية [المفترضة] مجراها. وسنقدم هنا مثالين توضيحيين يُعتقد أن التفكير الجمعي أدى فيهما دورًا رئيسًا في صنع القرار، وهما: حملة خليج الخنازير الفاشلة عام 1961، والتصعيد في حرب فيتنام عام 1965. وقد أعطى جانيس هاتين الحالتين مكانة خاصة في كتابه، مبيّنًا أن كليهما يمثل نموذجًا كلاسيكيًا لِـ «متلازمة التفكير الجمعي» (groupthink syndrome). غير أن هناك أدلة جديدة ظهرت في السنوات الأخيرة تصدت لتفسيرات جانيس لكلتا الحالتين، وسنسلط الضوء في ما يلي على التحديات الإمبيريقية والنظرية التي تواجهها نظريته، ثم نختم هذا الفصل بالبحث في مقاربة جديدة - هي «متلازمة الجماعة الجديدة» (newgroup syndrome) التي تُبرز الأعراض المرضية لصناعة القرار في الجماعة، على غرار ما أبرزته نظرية جانيس.

مثال (1): خليج الخنازير

بحلول عام 1961، أصبح النظام الشيوعي المسيطر في كوبا بقيادة الشاب الثوري فيديل كاسترو يمثّل شوكة في خاصرة الإدارات الأميركية المتعاقبة. وعلى الرغم من أن ذلك لم يُعتبر خطرًا أمنيًا بحد ذاته، فإن وصول حكم موالٍ للاتحاد السوفياتي في كوبا أزعج الرؤساء الأميركيين لسببين في الأقل. أولهما، أن تحول حليف سابق «مجاور للعم سام»، لا يبعد عن شواطئ فلوريدا الجنوبية سوى 150 كم، إلى الشيوعية لا بد من أن يكون مدعاة للحرج السياسي. إلا أن ما كان أكثر مدعاة للقلق، هو أن تحول كوبا لن يكون سوى خطوة أولى لانتشار سريع للشيوعية في دول أميركا اللاتينية. وقد خرج الرئيس الأميركي دوايت أيزنهاور في حينه بـ «نظرية الدومينو» الشهيرة التي رأت أن سقوط قطعة دومينو واحدة سيقود إلى سقوط سريع متتابع للقطع الأخرى. وقد أخذ الرؤساء

(10) *Groupthink: Psychological Studies of Policy Decisions and Fiascoes*, pp. 174-175.

الأميركيون اللاحقون - بمن فيهم جون ف. كينيدي - بالمجاز السيكولوجي الذي تنطوي عليه هذه النظرية بحماس شديد (على الرغم من أنها الآن محاطة بكثير من الشك في ضوء النظرة الاسترجاعية للأحداث).

وبهدف الخلاص من كاسترو، دبّرت الـ سي آي إي خطة سرية لغزو كوبا، وإطاحة كاسترو، باستخدام مُبعَدين كوبيين كواجهة للتدخل الأميركي. وجرى تنفيذ الخطة على يد إدارة كينيدي الجديدة التي أعطت إشارة البدء لغزو كوبا من خليج الخنازير في بداية عام 1961. غير أن المغامرة فشلت فشلًا ذريعًا؛ لأن قوات كاسترو توقعت ذلك الغزو، وكانت مستعدة لمواجهته، فتعرّض مئة وأربعون رجلًا من تلك القوة للقتل، وتم القبض على 1200 رجل منهم تقريبًا. ووفقًا لأحد التقارير الرسمية، فإن غزو كوبا أسفر عن مقتل 1800 شخص تقريبًا عند أخذ الإصابات المدنية بعين الاعتبار[11]. وقد تعرضت إدارة كينيدي لكثير من الحرج عندما اضطرت إلى دفع فدية لكاسترو كي تستعيد السجناء المعتقلين لديه.

ويفتتح جانيس النقاش حول قرار كينيدي جمع الموافقة على خطة غزو كوبا باقتباس لما قاله كينيدي ذاته بعد الفشل المدوي لتلك الحملة. إذ يُروى أن كينيدي قال لشقيقه روبرت وآخرين: «كيف يمكن أن أكون بهذه الغباوة؟»[12] وقد سببّت تلك الحملة حرجًا سياسيًا وعسكريًا هائلًا لإدارة جديدة لم يزد عمرها في حينه عن بضعة أشهر. وكان جانيس مهتمًا جدًا بفهم الأسباب التي أدّت بهذه الحكومة بالذات إلى ارتكاب مثل هذا الخطأ الفادح. فقد كانت إدارة كينيدي ملأى بالشباب المتعلم الواثق الذين انتقاهم كينيدي بعناية بالغة لعزمه على جمع أفضل المواهب من الأكاديميين ورجال الأعمال في إدارته.

وفي ضوء نظرة استرجاعية لما حدث يؤكد جانيس، أن كينيدي وزملاءه ارتكبوا ستة أخطاء كبيرة[13]. أولها اقتناعهم بأن عامة الناس - داخل الولايات

---

(11) Peter Kornbluh, ed., *Bay of Pigs Declassified: The Secret CIA Report on the Invasion of Cuba* (New York: W. W. Norton, 1998), pp. 2-3.

(12) Janis, *Groupthink: Psychological Studies of Policy Decisions and Fiascoes*, p. 16.

(13) المصدر نفسه، ص 19-27.

المتحدة وخارجها - سيصدقون رواية الـ سي آي إي أن العملية برمتها قامت على أكتاف «كوبيين مُبعَدين». وقد اقتضت الخطة إنزال فرقة المبعَدين أولئك على الأراضي الكوبية لتلتحق لاحقًا بالجماعات المناوئة لكاسترو داخل كوبا، وتشن هجومًا على هافانا، وتطيح بكاسترو. ولم يكن من السهل إخفاء اليد الأميركية حينئذٍ، حيث إن الخطة لم تكن قد تسربت فحسب، وإنما نُشرت في النيويورك تايمز قبل الغزو! وتَمَثّل الخطأ الثاني في أن كينيدي ومستشاريه اعتقدوا أن سلاح الجو الكوبي كان قاصرًا تمامًا. وثالث هذه الأخطاء أن ذلك السلاح كان من السهل القضاء عليه باستخدام الطائرات الحربية القديمة التي زوّدت الـ سي آي إي فرقة المُبعدين الغازية إياها. وكان كينيدي قد ألغى ضربة جوية أميركية للقوات الكوبية لخوفه من إظهار مشاركة الولايات المتحدة في الغزو بشكل واضح، ما حد من قدرة القوة الغازية على شل الدفاعات الجوية الكوبية [التي اعتقدوا أنها دفاعات قاصرة]. رابعًا، افترضت الإدارة الأميركية أن جيش كاسترو كان ضعيفًا إلى حد يمكن معه للفرقة المُبعَدة إنشاء قاعدة بحرية قابلة للحماية عند نقطة الإنزال. خامسًا، افترضت الإدارة أن الروح المعنوية للقوة الغازية المؤلفة من 1400 كوبي مبعد عالية إلى حد يجعلها دون حاجة إلى دعم من قوة أرضية أميركية. وقد انطوى هذان التوقعان على مشكلات بحد ذاتهما، إذ إن الروح المعنوية لدى المبعدين كانت سيئة جدًا جعلتهم يتمردون على رجال الـ سي آي إي الذين تولوا أمرهم.

وأخيرًا، افترض الرئيس ومعاونوه خطأ أن الغزو سيبعث بشرارة ثورة شعبية «فورية»، وكان هذا الافتراض محفوفًا بالكثير من المخاطر، حيث إن وصول أنباء الخطة لكاسترو منحه الوقت للقبض على كل من اعتقد أنه قد ينضم إلى قوة الغزو، والإلقاء بهم في السجن. وقد ظن كينيدي ومعاونوه أن القوة الغازية تستطيع، في حالة عدم حدوث الثورة الفورية، التراجع إلى جبال إسكمبريه والانضمام إلى العصابات المناوئة لكاسترو. ويبدو أن أحدًا لم يبلغ الرئيس أن موقع الإنزال الأصلي قد تم تغييره، ما جعل الهرب أمرًا مستحيلًا في حال عدم قيام الثورة الفورية المفترضة (وهو ما ثبتت صحته على أرض الواقع لاحقًا). فحتى يتمكن الغزاة من الهرب كان عليهم اجتياز مئات الأميال

من أراضي المستنقعات، ولكن أحدًا من مستشاري كينيدي لم يأبه للنظر إلى الخريطة، وكانت النتيجة «فشلًا تامًا»، كما يقول جانيس[14].

كيف أقنع كينيدي ومستشاروه أنفسهم بأن مثل هذه العملية المعيبة يمكن أن تنجح؟ وما الأسباب التي دعتهم إلى ذلك؟ يرد جانيس هذا الفشل الذريع، كما في حالة حرب فيتنام، إلى خطأ جسيم في عملية صنع القرار. ولدى تطبيق جانيس نظريته على هذه الحالة وجد ما يدل على الأعراض الآتية:

- وهم الحصانة: يرى جانيس أن «الرواد الجدد» (وهو تعبير استُخدم لوصف موظفي كينيدي) ظنوا أنهم «عصيّون على الفشل». إذ يبدو أن العديد من مستشاري كينيدي كانوا يشعرون كأنهم يمتلكون ما دعاه تيد سورنسين (Ted Sorensen) «اللمسة السحرية»، ولم يكن كينيدي نفسه معتادًا خسارة أي شيء في حياته، كما كان حال معظم مستشاريه الرئيسيين.

- وهم الإجماع: لم يُبدِ أحد أي نوع من الشك في صلاحية خطة الغزو عندما نوقشت في الاجتماعات الرسمية العديدة التي عُقدت لمناقشتها.

- كتم الشكوك الشخصية: صرح بعضهم في ما بعد بأنهم أخفوا شكوكًا عميقة لم يصرحوا بها في حينه، ومن أبرز هؤلاء آرثر شلزنجر (Arthur Schlesinger).

- حراسة فكر الجماعة: عمل روبرت كينيدي ودين راسك بشكل خاص كحراس فكر في هذه الحالة على ما يبدو؛ إذ قيل إن روبرت كينيدي طلب من شلزنجر ألّا يصرح بشكوكه لأن الرئيس قد حزم أمره على المضي في تنفيذ الخطة.

- تشجيع القيادة الدمثة (غير المقصود) للانقياد لها: ربما أن كينيدي ذاته شجع الإذعان وسهولة الانقياد لدى أعضاء الجماعة بسماحه للسي آي إي السيطرة على النقاش [وإيلاء تقديراتهم اعتبارًا زائدًا، كما ظهر في ما بعد]، وعدم تشجيع مستشاريه على طرح الأسئلة الصعبة التي قد تُساهم في الكشف عن مكامن الخطأ في الخطة.

---

(14) *Groupthink: Psychological Studies of Policy Decisions and Fiascoes*, p. 14.

- تحريم استعداء الأعضاء الجدد: كان مدير الـ سي آي إي ألان دالز (Allen Dulles) ومدير التخطيط لديه ريتشارد بيسيل (Richard Bissell) كلاهما مؤيدًا للخطة - التي كانت الإدارة السابقة قد وضعتها - وكان لهما اعتبار كبير لدى الجماعة. ويؤكد جانيس أنه في ظروف من هذا النوع يصبح من الصعب - على الصعيد الاجتماعي - تحدي أولئك الذين «يعرفون ما يفعلون» والشك في حكمتهم[15].

مثال (2): تصعيد حرب فيتنام

يؤكد جانيس أن قرار ليندون جونسون ومستشاريه أمركة - حرب فيتنام عام 1965 يُمثّل ظاهرة التفكير الجمعي في أوضح صورها؛ حيث تم اتخاذ قرار إنزال قوات أرضية أميركية على الأراضي الفيتنامية ذلك العام لتبقى ثماني سنوات لاحقة. انتهت الحرب بسقوط سايغون عام 1975 وفرار آخر الأميركيين من سفارة الولايات المتحدة بالهيليكوبتر. وجرى قصف فيتنام الشمالية بالقنابل في تلك الأثناء بمقدار يفوق ما تم إسقاطه في الحرب العالمية الثانية كلها. وقد لاقى 58،000 أميركي حتفهم في تلك الحرب، مع ملايين من الفيتناميين: كل ذلك في محاولة عبثية لدرء خطر كان يمكن تداركه لو أن الولايات المتحدة دعمت إعلان هو شي منه (Ho Chi Minh) الاستقلال عن فرنسا عام 1945. وضاعت الفرصة، التي لاحت حينئذٍ كما في مناسبات أخرى عديدة طوال تلك الفترة، لتجنب الحرب[16].

وقد لاحت واحدة من تلك الفرص بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة، حيث كانت قوات هو شي منه الشيوعية قد تحالفت مع الولايات المتحدة ضد اليابان، ومدت منظمته (المعروفة بفييت منه (Viet Minh)) يد العون في استعادة الطيارين الأميركيين الذين أُسقطت طائراتهم فوق فيتنام وكمبوديا، ولاوس. وفي عام 1945 أعادت بريطانيا فيتنام لسيطرة مستعمريها الفرنسيين، ولكن

(15) *Groupthink: Psychological Studies of Policy Decisions and Fiascoes*, pp. 35-47.

(16) انظر: Robert S. McNamara, James G. Blight and Robert K. Brigham, *Argument without End: In Search of Answers to the Vietnam Tragedy* (New York: Public Affairs, 1999).

هو شي منه اختار إعلان الاستقلال من طرف واحد، وقد حظي ذلك الإعلان بموافقة أعضاء الـ أو إس إس (OSS) الأميركيين وهم أسلاف الـ سي آي إي - حتى إن هو شي منه استهل إعلان الاستقلال بالعبارات الأولى من إعلان الاستقلال الأميركي. لكن ما يدعو للأسى هو أن القرار الذي اتُّخذ في واشنطن قضى بالوقوف إلى جانب الفرنسيين؛ وكانت حجة العديد من مسؤولي وزارة الخارجية أن الولايات المتحدة يجب أن تدعم جهود الفرنسيين لاستعادة سيطرتهم على مستعمرتهم السابقة؛ لأن التقاعس عن ذلك سيهدد الدعم الفرنسي لحلف الناتو (NATO) في أوروبا. وكانت تعتبر أوروبا في ذلك الوقت مسرحًا للمصالح الأميركية يفوق جنوب شرق آسيا أهمية إلى حد كبير.

ولكن جانيس لا ينظر إلى الحرب ضمن هذا السياق الواسع، وإنما يفضل فحص قرار جونسون بدفع القوات البرية إلى الحرب[17]. ويبدو أن ما أثار اهتمام جانيس بوصفهم عالم نفس اجتماعي هو أن جونسون ومستشاريه اتبعوا السلوك الامتثالي/الانسياقي ذاته الذي يظهر لدى الجماعات في الدراسات المخبرية. ولكن مستشاري جونسون كانوا هم الألمع والأفضل، بحسب وصف دايفد هالبرستام (David Halberstam)، إذ كانوا ذوي خبرة، يتمتعون باحترام بالغ، ورثهم جونسون عن سلفه جون كينيدي. ومع ذلك دعمت الغالبية العظمى من أولئك الرجال - بكل جوارحها - تصعيد حرب ثبت في نهاية المطاف أنها كانت كارثة على البلاد.

وكانت الحلقة الرئيسة التي شاركت جونسون في صنع القرارات المتعلقة بفيتنام، وفق ما يرى جانيس، هي جماعة غداء الثلاثاء (Tuesday Lunch Group) وهي جماعة صغيرة غير رسمية، ولكنها شديدة التماسك تتألف من أفراد يثق جونسون بهم أكثر مما يثق بأحد غيرهم، رجال من مثل وزير الخارجية دين راسك، ووزير الدفاع روبرت مكنمارا. وبالنظر إلى هذه الجماعة من الداخل، يلاحظ جانيس وجود دلائل على أعراض تمهِّد لظهور التفكير الجمعي، وتتمثل هذه الدلائل بـ:

---

(17) Janis, *Groupthink: Psychological Studies of Policy Decisions and Fiascoes*, pp. 97-130.

- أنهم جماعة صغيرة من صنّاع القرار ذوي عقليات متشابهة، متماسكون ويقدِّرون وحدة الجماعة.

- وجود إحساس جماعي بالحصانة من الفشل، والتفاؤل المفرط.

- تجانس وجهات النظر داخل «الدائرة الضيقة» من هؤلاء المستشارين.

- وجود ميل إلى تجنب النصيحة الخارجية التي يمكن أن تأتي بفائدة (من أشخاص مثل السيناتور وليام فولبرايت، والسيناتور مايك مانسفيلد).

- ظهور حراس فكر (مثل مستشار الأمن القومي والت روستو (Walt Rostow)، وكبح الشكوك الشخصية لدى أعضاء الجماعة.

- الإقصاء التدريجي للذين هددوا إجماع الجماعة.

- «تدجين» المنشقين أو إقصائهم.

غير أنه كان هناك عدد من المنشقين حتى ضمن الدائرة الضيقة المحيطة بجونسون، ومن أبرز هؤلاء مساعد وزير الخارجية جورج بول (George Ball)؛ فقد ساور جورج بول كثير من الشك في جدوى أمركة الحرب، وعبَّر عن ذلك مرارًا وتكرارًا في الاجتماعات. ولكن جانيس يقول إن الجماعة كانت تعطل وقع انشقاقه بالإشارة إليه كـ «محامي الشيطان». ويعود هذا المصطلح إلى الاعتقاد الكاثوليكي وتقاليد الفاتيكان حين يتجهون إلى تطويب قديس، إذ يشير هذا المصطلح إلى الكاردينال الذي يتم اختياره تقليديًا ليقف ضد تطويب القديس ويأخذ بذلك «جانب الشيطان». ويكون الكرادلة الآخرون على علم أن المحامي لم ينقلب حقيقة إلى ذلك الموقع، ولكن (مثله في ذلك مثل المحامي الذي يجب عليه الدفاع عن مجرم في المحكمة) عليه أن يأخذ هذا الموقف. وبالمثل، رأى العديد ممن ناصروا تصعيد الحرب أن بول (Ball) لم يكن جديًا في انشقاقه، وإنما كان يجادل الأغلبية ليتيقّن بأن النقاش أحاط بمختلف المواقف.

ظل العديد ممن ساهموا في صنع قرارات جونسون في حرب فيتنام طوال حياتهم يؤكدون أن بول لم يكن سوى مدافع عن الشيطان - مثال ذلك مساعد

وزير الخارجية لشؤون شرق آسيا وليام باندي (William Bundy) – ولكن ذلك لم يكن صحيحًا لأن بول كان يعارض الآخرين معارضة حقيقية ومن الأعماق. غير أن صرف النظر عن الانشقاق، أو تدجينه بهذه الطريقة، هو ما يمكن توقعه بالضبط حين يكون التفكير الجمعي آخذًا مفعوله. وبالمثل، كان ليندون جونسون ذاته يُبطل مفعول انتقادات الناطق الصحافي بل مويرز (Bill Moyers) بالتعريف بمقدمه حين يدخل الغرفة بقوله: «ها قد جاء السيد أوقفوا القصف!» فيُبطل بذلك أثر كل ما يمكن أن يقوله مويرز ضد الحرب قبل أن يتفوه بكلمة[18]. وعندما بدأ الشك في حكمة الذهاب إلى الحرب يساور أحد مهندسي الحرب الأصليين – هو روبرت مكنمارا – وراح يفصح عن ذلك خارج الجماعة، أخذ جونسون يقارنه بالابن الذي زلّت لسانه أمام «من كان سيشتري بيت العائلة المعروض للبيع، قائلًا إن هناك تشققات في طبقة التسوية»[19]. كما رُوي عن جونسون أنه قال عن مكنمارا في غيابه وأمام مستشاريه – أي مستشاري جونسون – عام 1967، «إنه على وشك الانهيار» – ليزعزع الثقة بآرائه.

نقد منظور جانيس

واجهت مقاربة التفكير الجمعي انتقادات من زوايا متعددة؛ فقد أسفرت الدراسات التي اختبرت هذا النموذج اختبارًا دقيقًا، يفوق ما اتسمت به دراسات جانيس ذاته من دقة، أسفرت هذه الدراسات عن نتائج مختلطة[20]. وبوجه عام، جرى انتقاد نموذج جانيس لضعف تماسكه النظري، واستطاع بعض النقاد الإفادة من مواد [أرشيفية] كُشف النقاب عنها حديثًا، لدحض الحجج الإمبيريقية [المبنية على الأدلة المادية] التي قدمها جانيس. ووفقًا لملاحظة فيليب تيتلوك (Philip Tetlock) وزملاءه، يواجه الجانب النظري من أعمال جينيس أربعة انتقادات واسعة: أولها، أن جانيس اعتمد منهج دراسة الحالة كيفيًا/ وصفيًا

(18) Janis, *Groupthink: Psychological Studies of Policy Decisions and Fiascoes*, p. 115.

(19) المصدر نفسه، ص 118.

(20) انظر: Philip E. Tetlock [et al.], «Assessing Political Group Dynamics: A Test of the Groupthink Model,» *Journal of Personality and Social Psychology*, vol. 63, no. 3 (1992), pp. 403-425.

(qualitative case studies)، وهو منهج يُغري الباحث بالتركيز على الدليل الذي «يناسب» النظرية وعلى إهمال الدليل الذي لا يناسبها. ثانيًا، هناك «ارتباط تام، مثير للشك» في كتاب جانيس بين ظهور التفكير الجمعي وصناعة القرارات الخاطئة - على الرغم من أنه هو نفسه يعترف أن هذه العملية ليست كل شيء في صناعة القرار، وأن قرارًا ناجحًا قد يخرج من رحم إجراءات مغلوط فيها - بالحظ المجرد. ثالثًا، هناك ما يثير الريبة في التطابق التام الذي يظهر بين الحالات التي يستخدمها جانيس للتدليل على حدوث التفكير الجمعي، من جهة، [حيث نجدها تنطبق عليه انطباقًا تامًا]، والحالات التي يستخدمها للتدليل على صدور قرارات حذرة - إذ نجد تلك الأدلة تنطبق على القرارات الحذرة انطباقًا تامًا - من جهة أخرى [كأن الأحداث فُصِّلت لتتطابق مع النظرية تطابقًا تامًا]. وأخيرًا، هناك مشكلات نظرية متنوعة تعتري النموذج ذاته، وخصوصًا ما يتعلق منه بالتمييز بين أسباب التفكير الجمعي ونتائجه[21]. فعلى سبيل المثال، يتساءل لونجلي وبروت (Longley and Pruitt) في نقدهما الكلاسيكي لنموذج جانيس (بين ما يثيران من تساؤلات) عن مبرر إدخال «الاعتقاد بالصلاح الأخلاقي للجماعة» و«النظرة النمطية للجماعات الخارجية» في قائمة أعراض التفكير الجمعي، من حيث إن هذين العاملين، خلافًا للعوامل الأخرى، لا يتصلان اتصالًا وثيقًا بعملية تكوُّن الإجماع أو بالسعي إلى الاتفاق[22]. وباختصار، لا يحتاج المرء إلى أن يحمل نظرة مبسطة لأعدائه، أو نظرة ممجِّدة للموقف الأخلاقي الخاص بجماعته، ليصنع قرارًا متسرعًا أو سابقًا لأوانه، مستبعدًا فيه وجهات نظر الأقلية [أي إن التفكير الجمعي قد يأخذ مجراه من دون هذين العاملين اللذين يضعهما جانيس ضمن العوامل الممهدة للتفكير الجمعي].

أما في الجانب الإمبيريقي من نموذج جانيس فإن دايفد باريت (David Barrett) [لدى مراجعته للأدلة الموضوعية التي تكشفت لاحقًا] يعارض القول

---

(21) «Assessing Political Group Dynamics: A Test of the Groupthink Model,», p.104.

(22) Jeanne Longley and Dean G, Pruitt, «Groupthink: A Critique of Janis's Theory,» in: Ladd Wheeler, ed., *Review of Personality and Social Psychology* (Beverly Hills, CA: Sage Publications, 1980), p. 91.

إن ليندون جونسون لم يتلق نصائح مضادة لموقفه تجاه فيتنام. صحيح أن معظم مستشاريه دفعوا باتجاه التصعيد، وفقًا لملاحظة باريت، إلا أن أقلية ذات شأن منهم دفعت بالاتجاه المضاد، حيث وقف ستة منهم على وجه الخصوص هذا الموقف المناوئ، وهم: جورج بول، كما سبق أن أشرنا، والسناتور وليام فولبرايت، ونائب الرئيس هيوبرت همفري، والسيناتور مايك مانسفيلد، والسيناتور ريتشارد راسل، والمستشار الرئاسي كلارك كليفورد. وقد عبّر هؤلاء جميعًا أمام جونسون مباشرة عن مشاعر مناوئة للحرب[23]. لذا، فإن الصورة التي رُسمت لجونسون بوصفه رئيسًا يصد النصيحة الخارجية بعناد، ويعتمد حصريًا على مجموعة صغيرة من الأفراد ذوي العقليات المتشابهة، إنما هي صورة لا تتلاءم مع الوقائع التي حدثت فعلًا - من وجهة نظر باريت.

لقد عرفنا منذ زمن أن بول لم يكن الوحيد الذي تحفظ على التصعيد؛ فالعديد من رجال الـ سي آي إي، ووزارتا الدفاع والخارجية ساورتهم كذلك شكوك قوية بشأنه، ولكن معظم هؤلاء كانوا من ذوي المراتب الدنيا في سلّم السلطة. وما قد يفوق هذا كله أهمية، هو الدليل الذي نمتلكه الآن على أن جونسون ذاته كابد عناء قرار التصعيد بشدة. فبعد أن تم رفع الحظر عن التسجيلات الصوتية لاتصالات جونسون الهاتفية في البيت الأبيض في أواخر التسعينيات، تبيّن أن جونسون كان متشائمًا دائمًا بشأن فرص نجاح عملية التصعيد، ولم يكن يُبدي دلائل على وجود «وهم الحصانة من الفشل» لديه، فنحن نعرف الآن أن جونسون وزملاءه كانوا «محاربين مترددين»[24] - بحسب تعبير باريت.

أما بالنسبة إلى حملة خليج الخنازير، فقد صرح روبرت مكنمارا أن

---

(23) David M. Barrett, «The Mythology Surrounding Lyndon Johnson, His Advisers, and the 1965 Decision to Escalate the Vietnam War,» *Political Science Quarterly*, vol. 103, no. 4 (Winter 1988), pp. 637-663.

(24) David M. Barrett, *Uncertain Warriors: Lyndon Johnson and his Vietnam Advisers*, Modern War Studies (Lawrence, KN: University Press of Kansas, 1993).

للاطلاع على مضامين كثير من المكالمات الهاتفية ذات الصلة، انظر: Michael R. Beschloss: *Taking Charge: The Johnson White House Tapes, 1963-1964* (New York: Simon and Schuster, 1997), and *Reaching For Glory: Lyndon Johnson's Secret White House Tapes, 1964-1965* (New York: Simon and Schuster, 2001).

الشعور الغالب لدى مستشاري كينيدي عند توليهم مهامهم الرسمية لم يكن الشعور بالقوة الكاملة أو بامتلاك «اللمسة السحرية»، كما يوحي وصف جانيس، وإنما غالبهم شعور «دفاعي» قوي [أو خشية الفشل]. فعلى الصعيد الداخلي، فاز جون كينيدي بالرئاسة عام 1960 بأصغر فارق انتخابي في تاريخ الولايات المتحدة، والأهم في ذلك هو أن الشعور الغالب إزاء السياسة الخارجية كان التأهب لمواجهة خطر التمدد الشيوعي المتواصل في ذلك الحين[25]. ويؤكد رودريك كريمر (Roderick Kramer) أن ما نعرفه الآن عن حرب فيتنام، وحملة خليج الخنازير، يُضعف تفسيرات جانيس لهاتين الحالتين فيقول:

> لم يكن جانيس مطلعًا على السجلات السرية لاجتماعات كبار مسؤولي الـ سي آي إي ومذكراتهم الرسمية، بطبيعة الحال، عندما قدم حجته على أن كينيدي ومستشاريه أظهروا أعراض الثقة المفرطة و«وهم الحصانة» عندما قرروا السير في تنفيذ عملية الـ سي آي إي، حيث تشير هذه الأدلة التي أصبحت متاحة للباحثين الآن إلى أن تقويم كينيدي للخطة لم يكن متأثرًا بتقويمات الـ سي آي إي الاستخبارية المضلّلة عن عمد فحسب، وإنما كانت، إضافة إلى ذلك، متأثرة بملاحظات ماكرة، ذات دوافع سياسية أفاد بها الرئيس السابق أيزنهاور لكينيدي في اجتماعات سرية جدًا عُقدت بينهما[26].

ومن هنا يري كريمر أن كينيدي لم يكن واقعًا تحت تأثير عمليات جماعية [معطِّلة، تنبثق من النقاشات الجماعية]، ولكنه لم يكن ليصدِّق أن دوايت أيزنهاور، «المنظِّم العبقري لأعظم وأنجح عملية غزو برمائي عسكرية في تاريخ الولايات المتحدة وأكثرها تعقيدًا»، قد يدعم عملية غزو برمائي أصغر جدًا، وأقل طموحًا بأشواط، ما لم يكن لها فرصة قوية للنجاح[27]. إضافة إلى ذلك،

---

(25) McNamara, Blight and Brigham, *Argument without End: In Search of Answers to the Vietnam Tragedy*, pp. 25-31.

(26) Roderick M. Kramer, «Revisiting the Bay of Pigs and Vietnam Decisions 25 Years Later: How Well has the Groupthink Hypothesis Stood the Test of Time?,» *Organizational Behavior and Human Decision Processes*, vol.73, nos. 2-3 (1998), p. 245.

(27) المصدر نفسه.

وفي حالة حرب فيتنام، وحملة خليج الخنازير، ربما كان القرار الذي وصل إليه كل من الرئيسين قائمًا على عمليات قياس تمثيل (analogical reasoning) تجري على مستوى الفرد (انظر الفصل التاسع من هذا الكتاب) أكثر مما هو قائم على عمليات جماعية. مثال ذلك، أن الثقة التي كان كينيدي ومستشاروه يولونها لمنظمة الـ سي آي إي قد تكون نابعة من نجاحها في عملية مشابهة، هي عملية خلع جياكومو آربنز (Giacomo Arbenz) في غواتيمالا عام 1954. إذ يبدو أن جون كينيدي ومستشاريه توقعوا هروب كاسترو من البلاد عندما يُواجَه بخطة أعدتها الولايات المتحدة لخلعه، تمامًا كما فعل آربنز قبل سبع سنوات.

متلازمة الجماعة الجديدة

لاحظ عدد من الباحثين حديثًا أن ظاهرة التفكير الجمعي لاقت قدرًا مبالغًا فيه من الاهتمام في البحوث والكتب الدراسية - وهذا الاعتراض قد يكون له ما يبرره. فلا يعد أي فصل من كتاب يبحث في صناعة القرار مكتملًا ما لم يُكرّس فيه حيِّز واسع لتناول التفكير الجمعي، كما هو حال الكتاب الحالي؛ فنظرية جانيس تقف كالفيل في الغرفة، يصعب غض النظر عنها عند البحث في الجماعات السياسية. وقد دعت الانتقادات للجانبين، الإمبيريقي والنظري، من نموذج جانيس العديد من المحللين لصناعة القرار في السياسة الخارجية للنظر إلى ما هو أبعد من التفكير الجمعي، فأعادوا النظر في الأدب المتعلق بسلوك الجماعات في ميدان علم النفس الاجتماعي بحثًا عن دلائل تساعد على بناء أطر نظرية أخرى[28]. ومن هذه المقاربات النظرية ما يُعرف الآن بمتلازمة الجماعة الجديدة[29]. وقد اقترح إريك ستيرن وبنغت سنديليوس (Eric Stern and Bengt Sundelius) هذه المقاربة «للإمساك بدينامية الامتثال المَرَضية المفترضة،

---

(28) Paul't Hart, Eric K. Stern and Bengt Sundelius, eds., *Beyond Groupthink: Political Group Dynamics and Foreign Policy-Making* (Ann Arbor, MI: University of Michigan Press, 1997).

(29) Eric Stern and Bengt Sundelius, «'The Essence of Groupthink': Groupthink in Government: A Study of Small Groups and Policy Failure by Paul't Hart,» *Mershon International Studies Review*, vol. 38, no. 1 (April 1994), pp. 101-108, and Eric Stern, «Probing the Plausibility of New Group Syndrome: Kennedy and the Bay of Pigs,» in: Hart, Stern and Sundelius, eds., *Beyond Groupthink: Political Group Dynamics and Foreign Policy-Making*.

المرشحة للظهور لدى الجماعات السياسية الحديثة التكوّن [...] أو في الجماعات الخاصة التي أُعطيت موقعًا حديثًا في التنظيم، والتي تمر في مرحلة التكوّن»[30]. ويفسران ذلك على النحو الآتي:

> تفتقر الجماعات المتكوّن حديثًا إلى ثقافة جماعية خاصة بها، كما تفتقر إلى معايير إجرائية [لتسيير شؤونها]، فيُحدث هذا الفراغ حالة من عدم اليقين بين الأعضاء. ويميل الأعضاء في هذه المرحلة إلى القلق، والتردد، والاعتمادية، وينزعون بوجه خاص إلى الأخذ بتوجيهات القائد أو الأعضاء الأقوياء في الجماعة. هذه الشروط تخلق حوافز لدى الأعضاء للإذعان والتذويت (Internalization) [أي الأخذ بثقافة الجماعة، في هذه الحالة، وتبنيها ذاتيًا]، ما يؤدي إلى ميل إلى الامتثال أو الانسياق لدى الجماعة ككل[31].

ويفترض ستيرن وسنديليوس، اعتمادًا على بحوث بروس تكمان (Bruce Tuckman)، أن الجماعات تمر بعدد من المراحل النمائية في خلال فترة وجودها، بدءًا من مرحلة التكوّن إلى النقطة التي تنفضّ بها رسميًا، ويفترضان أن نوعًا مختلفًا من الديناميات يعمل في كل مرحلة. ويُعنى ستيرن وسنديليوس بوجه خاص بالمرحلة الأولى من حياة الجماعة، عندما تتولى إدارة جديدة شؤون الجماعة، أو عندما يحدث تبدل مهم في العضوية (من خلال الاستقالة أو التعيين أو الفصل) ما يُحدث دينامية جديدة داخل الجماعة. وفي هذه المرحلة المبكرة قد تتخذ الجماعة قرارات غير فعالة أو مضطربة، إلا أن ذلك كله يعتمد على نوع المعايير التي يشجعها القائد في البداية. ويؤكد سنديليوس أن الجماعة تظل في هذه المرحلة تنزع إلى الحذر وإلى الانسياق (ما يعوق التفكير الناقد والمنفتح).

ويُطبّق ستيرن هذه المقاربة على حالة خليج الخنازير، وسيكون من المفيد أن نقارن مقاربة ستيرن هذه بمقاربة جانيس ونحن نعرض هذا التطبيق. ويزعم ستيرن، على غرار جانيس، أن الامتثال كان يمثّل مشكلة خاصة في صناعة القرار لدى جماعة كينيدي، ويرد ذلك إلى حقيقة أن كينيدي كان يدير العمل

---

(30) مقتبس من: Stern, «Probing the Plausibility of New Group Syndrome: Kennedy and the Bay of Pigs,», p. 165.

(31) المصدر نفسه.

بطريقة خاصة وغير رسمية، بعد أن أزال البنى المختصة بصناعة القرار في إدارة أيزنهاور، وأزاح جهاز السياسة الخارجية الذي ينظر إليه العديد من الباحثين الآن بتقدير كبير[32]. وقد كان اللاعبون الكبار في إدارة كينيدي لا يعرفون بعضهم بعضًا، ويحاولون تلمس طريقهم في مجال العمل. إضافة إلى ذلك، لم يكن لدى الرئيس ذاته خبرة إدارية أو تنفيذية ذات شأن، فكان عضوًا في الكونغرس وثم أصبح سيناتورًا. ويلخص ستيرن ملاحظاته [للظروف التي أحاطت بقرار حملة خليج الخنازير] بالقول: «نظرًا إلى نمط الإدارة المتساهلة نسبيًا التي كان كينيدي يتبناها، فإنه لم يحاول أن يوجه مرؤوسيه بشكل مقصود، وأن يوضح لهم ثقافة صنع القرار الجماعي، ليبدّد عدم اليقين [نظرًا إلى حداثة الجماعة] ويعزز التفاعل الناقد بينهم (...) ويظهر أنه كان غير واع بأثر شخصيته وقوة مكتبه في زملائه. وبالمثل، توحي الأدلة أنه لم يكن واعيًا بالمعايير الجماعية المنبثقة داخل الجماعة، والتي تتطلب الإذعان للرئيس ولذوي الخبرة (وعززها سلوكه الشخصي عن غير قصد)»[33].

الفرد في إطار الجماعة

إن تطبيق المنظور الموقفي على مستوى الجماعة [لا على مستوى الفرد، فحسب] يوحي بأن الجماعات تصبح أكثر من مجرد مجموع أفرادها؛ فحين يؤلّف صانعو السياسات جماعة، قد يصبح الكيان الناتج «مهيمنًا» على أعضائه، ويأخذ دورة حياة خاصة به. ويرى ستيرن أن كينيدي لم يُقدِّر هذا الإمكان في البداية على ما يبدو؛ «فقد أولى الموهبة جل اعتباره، معتقدًا أن في ذلك مفتاح النجاح السياسي (...) بعبارة أخرى، اعتقد كينيدي أنه يكفي أن نجمع عددًا من الأفراد الموهوبين، ونضعهم في غرفة، وننتظر الحصول على نتائج باهرة»[34]. ويمثل هذا المنظور من وجهة نظرنا نوعًا من النزوعية الضيقة؛ حيث إن كينيدي

(32) على سبيل المثال، انظر: John P. Burke and Fred I. Greenstein, *How Presidents Test Reality: Decisions on Vietnam, 1954 and 1965* (New York: Russell Sage Foundation, 1989).

(33) Stern, «Probing the Plausibility of New Group Syndrome: Kennedy and the Bay of Pigs,» p. 182.

(34) المصدر نفسه، ص 177.

أغفل في البداية الديناميات التي تأخذ مجراها عندما نجلب الأفراد ليعملوا معًا، وكما سبق أن أشرنا فإن جانيس - صاحب الاتجاه الموقفي - يؤكد أن هذه الديناميات لا تتمخض عن آثار إيجابية دائمًا (كما رأينا في حالتيْ خليج الخنازير، وحرب فيتنام). غير أن أزمة الصواريخ الكوبية التي وقعت في تشرين الأول/ أكتوبر من عام 1962 جعلت كينيدي يدرك الآثار التي قد تتركها معايير الجماعة، وغيرها من العوامل الاجتماعية، في صناعة القرار، فاتخذ خطوات عدة ليضمن أن حضوره (على سبيل المثال) لا يتحتّم القرارات التي يتم الوصول إليها. ولحسن الحظ، كان كينيدي على ما يبدو سريع التعلم.

خاتمة

رأينا كيف أن حجج الموقفيين تأخذ أشكالًا عديدة، غير أن المقاربات الرئيسية التي ناقشناها والمتمثلة بنظرية سكنر السلوكية، ونموذج ملغرام في الطاعة، ونظرية «الصندوق الرديء» لزمباردو، ومقاربة جانيس في التفكير الجمعي، تتفق جميعًا على أن نزعاتنا لا تحدد سلوكنا بقدر ما يحدده الموقف الذي نجد أنفسنا فيه. ولكن هناك، كما ألمحنا مرارًا في نقدنا للمقاربات الموقفية المتنوعة، وجهة نظرة أخرى منافسة في أسس السلوك السياسي؛ هي وجهة النظر النزوعية. والمقاربات النزوعية تتصدى بقوة للفكرة القائلة إن المخلوقات البشرية تتصرف عامة على نحو متشابه حين توضع في الموقف المعين ذاته؛ وكما رأينا في الفصل الأول، يعتقد النزوعيون بوجود تباين هائل لدى البشر في الاعتقادات، والاتجاهات، والأطر الذهنية، وما إلى ذلك، ويوردون أمثلة تُبرز الاختلافات في السلوك السياسي التي تنتج من هذه الفروق. وستكون مهمتنا الآتية مناقشة المنظورات المتنوعة التي تأخذ هذه المقاربة النزوعية، وسنبدأ مهمتنا هذه في الفصل الآتي بفحص المقاربة الأقدم في علم النفس السياسي، وهي السيرة النفسية. وكما سنرى، فإن هذا الكيان البحثي يفترض في طبيعته الأساس أن العوامل الخاصة بالأفراد لها دور مهم في تكوين سلوكهم.

الباب الثاني

الفرد

7
السيرة النفسية

أحدث كتاب الدكتور جستن فرانك (Justin Frank) عاصفة لدى صدوره عام 2004، والمعنون بوش على الأريكة: سبر عقل الرئيس *:Bush on the Couch*) *Inside the Mind of the President*) [ويلخص رحلته داخل عقل الرئيس قائلًا]:

> لو أن أحد مرضاي كان يقول شيئًا ويفعل شيئًا آخر، لرغبت أن أعرف السبب. ولو وجدت أنه كثيرًا ما يستخدم كلمات تخفي حقيقة معناها، وتصنّع شخصية تخفي حقيقة أفعالها، لانتابني كثير من القلق. ولو عبر عن وجهة نظر متزمتة إزاء العالم تميز بين الصواب والخطأ، والخير والشر، والحلفاء والأعداء تمييزًا مفرطًا في التبسيط لساورني الشك في قدرته على فهم الواقع. ولو أن أفعاله كشفت لا مبالاة منكرة - وحتى سادية - إزاء معاناة البشر وغلّفها بادعاءات كاذبة بالتعاطف لساورني القلق بشأن أمن الناس الذين له مساس بحياتهم. لقد راقبت برعب متزايد على مدى السنوات الثلاث الماضية التناقض والإنكار لدى شخص من هذا النوع. ولكنه ليس أحد مرضاي، إنه رئيسنا[1].

يُقيم فرانك تحليله لشخصية جورج بوش بناء على نظريات التحليل النفسي المتشددة لميلاني كلاين (Melanie Klein)، ويزعم أن تكوّن شخصية بوش في الطفولة المبكرة يمثل المفتاح الرئيس لفهم سلوكه. ويعتقد فرانك أن نمو

(1) Justin Frank, *Bush on the Couch: Inside the Mind of the President* (New York: Harper-Collins, 2004), p. xi.

جورج بوش المبكر تأثر بالمعاملة التي تلقاها من والديه؛ إذ كان جورج بوش الأب غائبًا عن الأسرة في كثير من الأحيان يقضي معظم وقته في واشنطن، أما باربرا بوش فكانت أمًا متسلطة وتفتقر إلى الدفء العاطفي.

وكردة فعل لهذه التنشئة، تطور لدى بوش منظور مانوي (Manichaean) يرى العالم إما أبيض وإما أسود [والمانوية عقيدة تُنسب إلى ماني الفارسِي (216-276م) الذي دعا إلى الإيمان بأن الحياة قوامها صراع بين النور والظلام]. كما تنامت لديه أوهام العظمة والقوة الفائقة. ويؤكد فرانك أن سلوك بوش بوصفه رئيسًا يعكس «دافع طفل معاق انفعاليًا، لم يلق الرعاية الكافية». ويأخذ تاريخ بوش بوصفه مُدمن كحول، وامتناعه عن العثور على علاج من بين خيارات العلاج المتميزة التي كانت متاحه له مثل [مؤسسة] «الكحوليون المجهولون» - يأخذ فرانك ذلك دليلًا على أن لدى بوش «أعراضًا مرَضيّة متعددة وشديدة لم تخضع للعلاج». ويؤكد فرانك أن عزل بوش من منصبه كان «العلاج» الوحيد لصالحه وصالح البلاد.

والحقيقة أن أطروحة فرانك هذه تمثل واحدة من أحدث الإضافات لتراثٍ لعلّه الأقدم في حقل علم النفس السياسي يصطلح على تسميته «السيرة النفسية» (psychobiography) أو «التاريخ النفسي» (psychohistory). وتفترض هذه المقاربة أن الأفراد يؤدون دورًا مهمًا [في عالم السياسة] من حيث إن خصائصهم النفسية تؤثر في أحداث العالم الواقعية ومخرجاتها (وهو ما يُصطلح على تسميته أحيانًا بنموذج «البطل في التاريخ»). وتشترك السير النفسية جميعها في هذه الرؤية، كما تشترك في أنها تستند، بشكل صريح أو ضمني، إلى نظرية نفسية ما، تستخلص في ضوئها معنى لتاريخ حياة الشخص موضوع السيرة وخياراته.

ومما تجدر الإشارة إليه أن هذه المقاربات لا تتمتع في الوقت الحاضر بالشيوع الذي كان لها في الماضي، في أي حال، ولعل ذلك يعكس تراجع المقاربات التحليلية النفسية بشكل عام. ونجد كثيرًا من النقاد يُسقطون هذا الطرح من اعتبارهم ويرونه «ثرثرة نفسية» أو تحليلًا غير علمي يجري في برج عاجي. غير أن هناك أطباء نفسيين وعلماء نفس - وليس علماء سياسة - ما

زالوا يعملون في إطار هذا التراث، ويؤكدون أن مثل هذه المقاربة أساسية لفهم لسلوك الراشدين، بما في ذلك سلوك كبار السياسيين. أما السؤال عن قيمة هذه الأعمال في نهاية الأمر، فإن هذا الفصل لن يقدم إجابة بصدده، فهذا أمر متروك للقارئ. ومهما كانت مزايا السيرة النفسية وعيوبها، فإنها تظل جديرة بالاعتبار، في أقل تقدير، إن لم تكن مثيرة لكثيرٍ من الاهتمام.

الدور التأسيسي لسيغموند فرويد

تأثر كثير من كتاب السير النفسية في الماضي والحاضر بنظرية التحليل النفسي وطروحات مبتكرها سيغموند فرويد. وقد كان لاعتقاد فرويد أن أحداث الطفولة تترك أثرًا قويًا في النمو اللاحق أهمية خاصة في هذا النوع من الدراسات. ولا بد أن القارئ يذكر من مناقشتنا السابقة أن فرويد يعتقد أن البشر مسيّرون بدافعين اثنين فحسب، وهما: العدوان والجنس (واللذان يعملان وفق «مبدأ اللذة»). ورأى فرويد أن الشخصية تتألف من ثلاثة مكونات: الهو (the id) والأنا (the ego) والأنا الأعلى (the super ego). وكان لافتراض فرويد أن خبرات الطفوله تترك أثرًا مهمًا في سلوكنا في الرشد، ولا يتقلّص مع الزمن، كان لهذا الافتراض أثرًا خاصًا في كتابة السِيَر النفسية. وإضافة إلى تأكيد فرويد أهمية الخبرات الطفولية المبكرة، أكّد أهمية العمليات اللاشعورية في توجيه السلوك. ويتضمن اللاشعور وفق ما يرى فرويد، رغبات لاشعورية، «غير مقبولة» اجتماعيًا. ويشير باتلر ومكمانس (Butler and McManus)، إلى أن هذه العمليات:

> يمكن استنتاجها من الأحلام، وزلات اللسان، والسلوكيات المميزة للشخص [...] ويُفترض أن تكون الصراعات اللاشعورية على وجه الخصوص [التي تكتنف هذه العمليات] السبب الرئيس وراء التوتر النفسي. ويستطيع المحلل النفسي أن يساعد في شفائها بمعاونة الفرد على التعبير عنها، وباستخدام النظريات السيكودينامية، المبنية على نظرية فرويد، لتفسير سلوك المريض[2].

---

(2) Gillian Butler and Freda McManus, *Psychology: A Very Short Introduction* (New York: Oxford University Press, 1998), p. 5.

ويعتقد فرويد، على سبيل المثال، أن الأحلام تُعبر عن رغباتنا وأسرارنا، وأن المحلل النفسي الماهر يستطيع فك رموزها والكشف عن صراعات لا شعورية كامنة لدينا. أما الصراعات اللاشعورية هذه فقد تنشأ بين جوانب الشخصية المختلفة، ويؤدي نشوءها إلى إحداث حالة من القلق لدى الأنا. وحين يصعب على الأنا التعامل مع هذا القلق تلجأ إلى مكنزمات دفاع لاشعورية متنوعة مثل الكبت (repression)، والتبرير (rationalization)، والإنكار (denial)، والإبدال/ الإحلال (displacement)، والإسقاط (projection) لمعالجة الصراع والقلق المصاحب له.

ويتضمن الإرث الفرويدي مزيجًا مركبًا من الأفكار الأصيلة[3] أبرزها فكرة اللاشعور. ويزعم عالم النفس درو ويستن (Drew Westen) أنه، «لم يكن أحد يُدرك قبل فرويد أن عقلنا الواعي لا يمثّل سوى قمة جبل الجليد الذهني لدينا». ويشير ويستن إلى أن هذا المفهوم ينطوي على افتراض أننا قد نتصرف بدوافع وأسباب لا تكون معروفة حتى بالنسبة إلينا أنفسنا. ويأخذ علماء النفس اليوم بفكرة اللاشعور كفكرة مسلَّم بها، كذلك فإنهم يسلّمون بفكرة أن النمو في الطفولة قد يترك أثرًا أساسيًا في سلوك الراشد (وكان ذلك افتراضًا راديكاليًا في زمن فرويد). ويضيف ويستن، إن فرويد كان مصيبًا أيضًا بشأن (ميكانزم أو آلية) الإنكار، حيث يؤكد، «إن البحوث تُظهر بوضوح تام أننا ننظر إلى الجهة الأخرى لئلا نرى ما يضايقنا «[أي إننا نتعامى عن الحقيقة حتى نظل جاهلين بها، على مستوى الوعي]. وقد أصبحت بعض أفكار فرويد مقبولة وشائعة على نطاق واسع حتى أنها ما عادت مرتبطة به في الأذهان»[4]. إلا أن اختزال فرويد لدوافعنا في دافعيْ الجنس والعدوان فحسب، يمثل رؤية مبسطة جدًا للطبيعة الإنسانية في نظر كثيرين في الوقت الحاضر. هذا، وكثيرًا ما لاقت مناهجه في البحث اعتراضات شديدة لأنها اعتُبرت مناهج غير علمية.

وقد كتب فرويد ذاته عدة سِيَر نفسية، لعل أشهرها دراسته عن ليوناردو دافنشي التي بُنيت أساسًا على حلم رواه الفنان وعلى رسومه التشريحية المفصلة

---

(3) Marilyn Elias, «Freud: So Wrong and Yet So Right,» *USA Today*, 4/5/2006.

(4) انظر: درو ويستن، مقتبس من: المصدر نفسه.

لمن رسم من الرجال، استخلص فرويد أن دافنشي كان مثليّ الجنس[5]. ومن الأعمال ذات الصلة الأوثق بالسياسة التي يُفترض أن يكون فرويد قد قام بها، مشاركته في تأليف السيرة النفسية لودرو ولسون (مع وليام بوليت (William Bullitt) التي كُتبت في الثلاثينيات من القرن الماضي، في ما يبدو، ولكنها نُشرت عام 1967[6]. غير أن تأثير فرويد في علم النفس السياسي كان غير مباشر، ويظل استصفاء التطبيقات والمنطويات السياسية الكبرى لإسهام فرويد في هذا المجال متروكًا لغيره ممن تأثروا بالإرث الذي خلّفه.

الدور التأسيسي لهارولد لاسويل

نشر هارولد لاسويل (Harold Lasswell) كتابه الرائد المرض النفسي والسياسة (*Psychopathology and Politics*) في الثلاثينيات[7]. وكان لاسويل متأثرًا تأثرًا بالغًا بتشارلز ميريام الذي أوحى له استكشاف العلاقة بين علم النفس والسياسة. وقد قام لاسويل بما هو غير مألوف لعالِم سياسة؛ حيث انكب على دراسة النظريات النفسية المعروفة في تلك الأيام دراسة ذاتية. ولأن علم النفس في ذلك الوقت كان مثقلًا بتأثير التحليل النفسي الفرويدي، كان من الطبيعي أن تحمل أعمال لاسويل بصمة تلك النظرية. وبغرض التبسيط، يمكن القول إن الفكرة المحورية في طرح لاسويل هي أن «الشخصية السياسية» تنتج من إحلال (displacement) المشكلات الشخصية على الحياة العامة. فالشخص الذي يُحرَم الحب في البيت قد يبحث في ما بعد عن حب الشعب الأميركي، على سبيل المثال. ويستحضر هذا الطرح موضوع آليات الدفاع أو التعويض الفرويدية بقوة، وخصوصًا مكنزم الإحلال (displacement). كذلك رأى لاسويل

---

(5) Sigmund Freud, *Leonardo da Vinci: A Memory of His Childhood* (London: Routledge, 1999).
ظهر هذا الكتاب أول مرّة عام 1910.

(6) Sigmund Freud and William Bullitt, *Thomas Woodrow Wilson, Twenty - Eighth President of the United States: A Psychological Study* (Boston, MA: Houghton Mifflin, 1967).
شكّك إريك إريكسون، أحد الأتباع البارزين لمدرسة التحليل النفسي، بأصالة هذا الكتاب كما شكّك غيره.

(7) Harold Lasswell, *Psychopathology and Politics* (Chicago, IL: University of Chicago Press, 1930).

أن الطموح السياسي، والسعي إلى القوة، يعملان كتعويض للتغلب على التقدير المتداني للذات. وقد أوضح لاسويل ذاته أن حجته الأساس هي أن «الحركات السياسية تكتسب حيويتها من إحلال العاطفة الخاصة على الموضوعات العامة»[8]. كذلك رأى لاسويل، بوصفه فرويديًا، أن الجنس والعدوان هما الدافعان المسيطران لدى البشر، وسلّم أيضًا بتمييز فرويد المتعلق بالهو، والأنا، والأنا الأعلى [كجوانب رئيسة للشخصية]. ويؤدي كبت الدوافع اللاشعورية على وجه الخصوص، دورًا رئيسًا في أعمال لاسويل. وكان لكتابه المرض النفسي والسياسة، ثم كتاب القوة والشخصية، اللذين تابع فيهما فكرته بأن السياسيين كثيرًا ما يُحلّون حاجاتهم الخاصة، مثل حاجتهم لتقدير الذات، على الحياة العامة، كان لهذين الكتابين أثر بالغ في جيل كامل من الباحثين الشباب، وأقاما رابطة فكرية هامة بين فرويد وأعلام من مثل ألكسندر جورج (Alexander George)، وهو من سنناقش أعماله في ما يلي[9].

طفولة ودرو ولسون المضطربة

يعتبر كتاب ودرو ولسون والكولونيل هاوس (*Woodrow Wilson and Colonel House*) لمؤلفيْه ألكسندر وجولييت جورج (Alexander and Juliette George) واحدًا من أشهر النموذجان في باب السِيَر النفسية وأكثرها خضوعًا للنقاش. وكتلاميذ للاسويل، حملت نظرياتهما عن ودرو ولسون بصمة قوية لمعلمها السابق وأفكاره[10]. وقد انطلق المؤلفان جورج وجورج، على غرار لاسويل، من نقطة أن القوة السياسية التي يحققها السياسي موضوع البحث، تمثل تعويضًا عن التقدير المتداني للذات في شكله المزمن. وكما فعل لاسويل من قبلهما، اعتمد المؤلفان في تحليلهما فكرة وجود دوافع لاشعورية قابعة وراء السطح، وأوليا النمو في مرحلة الطفولة الأهمية التي يوليها التحليل النفسي لهذه المرحلة.

(8) *Psychopathology and Politics*, p. 183.

(9) Harold Lasswell, *Power and Personality* (New York: W. W. Norton, 1948).

(10) Alexander George and Juliette George, *Woodrow Wilson and Colonel House: A Personality Study* (New York: Dover Publications, 1964).

ظهر هذا الكتاب أوّل مرّة عام 1956.

وكانت الفكرة المركزية في كتاب ودرو ولسون وكولونيل هاوس هي أن ولسون أضمر غضبًا لاشعوريًا شديدًا تجاه والده على ما تلقاه من معاملة خلال سنوات طفولته. حيث كان الدكتور جوزيف ولسون، القسيس البروتستانتي، صارمًا لا يلين، ويقال إنه دفع ابنه ودرو للإنجاز بقسوة (وكان ودرو يعاني صعوبات تعلمية في طفولته المبكرة)، ولكنه نادرًا ما كان يكافئ ابنه على إنجازاته بعطف وحنان. ويدّعي المؤلفان أن الأب لم يكن قطّ راضيًا عن أداء ابنه، وأنه عامله بلا مبالاة وبرود. وكثيرًا ما كان يثير غيظه تاركًا إياه يعاني الإحساس بالنقص والغباوة، والقبح، وعدم الجدوى، وبأنه غير جدير بالحب»[11]. وكان ودرو ولسون «غير راضٍ عن نفسه على الدوام»، ويعتقد المؤلفان أنه سعى طيلة حياته ليحقق إنجازات مهمة للتعويض عن هذه المشاعر السلبية[12].

ويلاحظ المؤلفان أن قلة المرونة كانت واحدة من أبرز صفات ولسون الشخصية، وافترضا أن هذه الصفة تعود أيضًا إلى نشأته في الطفولة، حيث إن إغاظة والده المستمرة له أفقدته الشعور بالأمن، وجعلته متصلبًا في حياته اللاحقة وغير مستعد للوصول إلى تسويات. كما افترضا أن نشأته الطفولية هذه دفعته نحو سلسلة طويلة من النزاعات مع «شخصيات أبوية» [أو في منزلة الأب] مثل دين وست في جامعة برنستون، والسيناتور هنري كابوت لودج لاحقًا. والمثير للسخرية أن ولسون كان على وعي تام بأهمية التفاوض وعقد الصفقات في النظام السياسي الأميركي، غير أن رفضه التسوية بشأن اتفاقية عصبة الأمم أدت إلى سقوطه في النهاية. فقد كانت الاتفاقية أساسًا من بنات أفكاره، ولكن جورج وجورج يعتقدان أن مجلس الشيوخ الأميركي كان سيوافق على مقترحها لو أن ولسون كان مستعدًا للوصول إلى تسوية بشأنه. فكانت خاصية التصلب بالرأي هذه، من وجهة نظر المؤلفيْن، هي التي قادت إلى رفض الاتفاقية بالتأكيد، إضافة إلى السياسات الكارثية التي صنعها ولسون بنفسه، والتي تنبع من هذه النزعة إلى التصلب ذاتها.

---

(11) *Woodrow Wilson and Colonel House: A Personality Study*, p. 8.

(12) المصدر نفسه، ص 3.

غير أن جورج وجورج في كتابهما الأصلي عرضا أفكارهما بلغة غير قاطعة؛ فكثيرًا ما استخدما كلمات من مثل «ربما» و«يستطيع المرئ أن يُخمِّن»، ولم يعطيا آراءً قاطعًا عن شخصيته. وقد يكون أحد مراجعي الكتاب (أو أحد المؤلفين أو كلاهما) أصر على ذلك، ليكون القارئ على بيّنة من أن الحجج المطروحة مبنية على افتراضات غير قابلة للاختبار. وينكر المؤلفان أيضًا أنهما يحاولان تفسير سلوك ولسون بناء على شخصيته فحسب[13]. ومن حيث إننا لا نعرف ما هو موجود في لا شعورنا - وإلا فإن تعبير «لاشعور» يكون لا معنى له - فإنه من المستحيل تقريبًا اختبار طروحات مؤلفيْ الكتاب [عن أثر طفولة ولسون في شخصيته]. ولعله من المثير للدهشة أن نجد أنه بالرغم من الموقع المحوري الذي تحتله طفولة ولسون في تحليلهما، فإن المؤلفين لم يكرّسا لهذا الموضوع سوى بضع صفحات من الكتاب.

وقد تكرس معظم الكتاب لإظهار مدى عناد ولسون وقلة مرونته (أي لإظهار أن الأنماط السلوكية ذاتها تكررت طوال حياته). ولكن هذا لا يعني بالضرورة أن تلك الأنماط تعود إلى التفسيرات السيكولوجية التي قُدِّمت في الكتاب، ويجد المرء نفسه، بعد قراءة تحليل المؤلفين لحياة ولسون، أنه إما أن يثق بهذه التفسيرات، أو أن يبحث لنفسه عن تفسيرات أخرى. ولقد أخذ إدوين فاينشتاين (Edwin Weinstein) وزملاءه بالخيار الثاني، ورأوا أن جذور التصلب لدى ولسون فيزيولوجية وليست سيكولوجية[14]. فمن المعروف في الدوائر الطبية، أن الجلطات (Strokes) قد تؤدي إلى تقلب في المزاج والسلوك، ونحن نعرف أن ولسون تعرّض لسلسلة من الجلطات، كان أشدها تلك التي أصابته في تشرين الأول/ أكتوبر عام 1919. وربما يحظى هذا التفسير بقبول أوسع الآن مما يحظاه تفسير جورج وجورج - وكدليل

---

(13) *Woodrow Wilson and Colonel House: A Personality Study*, p. xxii.

(14) انظر: Edwin A. Weinstein, James W. Anderson and Arther S. Link, «Woodrow Wilson's Political Personality: A Reappraisal,» *Political Science Quarterly*, Vol. 93, no. 4 (Winter 1978-1979), PP. 585-598, and Juliette L. George an Alexander L. George, «Wood row Wilson and Colonel House: A Reply to Weinsten, Anderson, and link,» *Political Sscience Quartely*, Vol. 96, no. 4 (Winter 1981-1982), PP. 641-665.

على ذلك، عرضت شبكة PBS الأميركية فيلمًا لسيرة حياة ودرو ولسون لم يتم التطرق فيه إلى أطروحة جورج وجورج من قريب أو من بعيد[15]. ولكن هذا الفيلم أثار في حينه نقاشًا حادًا بين فاينشتاين وأندرسون ولينك من جهة، وجورج وجورج من جهة أخرى، ومع أن هذا الاختلاف يظل باعثًا على الاهتمام فإنه يُبيّن صعوبة وقوف التفسيرات القائمة على التحليل النفسي أمام التفسيرات الأخرى الممكنة.

شخصية ليندون جونسون المعقّدة

يمثّل ليندون جونسون حالة قائدٍ ذي شخصيةٍ معقدة، ويكشف التصدي لدراسة هذه الحالة الصعوبات التي تنشأ عند التعامل مع قائد تحمل شخصيته وجوهًا عديدة متضاربة على هذا النحو. فقد وُصف جونسون بأنه نشيط، ولكن ذو تفكير سلبي، نرجسي، وارتيابي [مفرط الشكوك]، يتناوب عليه الهوس والاكتئاب، وبأنه ضحية لتنشئة أمّ قاسية. وقد جاء أول التحليلات النفسية لشخصية جونسون، وأفضلها، على يد مؤرخة الرئاسة، وصديقة جونسون المقرّبة، دوريس كيرنز غودوين. واستخدمت غودوين في كتابها **ليندون جونسون والحلم الأميركي**[16] (*Lyndon Johnson and the American Dream*) - مقاربة التحليل النفسي لتحليل شخصية جونسون، وقد نُشر الكتاب أول ما نُشر عام 1976 بعد ثلاث سنوات فقط من وفاة جونسون. وتفصح غودوين في هذا الكتاب عن اعتقادها بأن تنشئة جونسون المبكرة - وعلاقته بوالدته بوجه خاص - صبغت تفاعلاته المستقبلية مع موظفيه، وغيرهم في عالم السياسة. وكانت والدة جونسون امرأة تتسم بالذكاء والطموح، ولكن زواجها بسام جونسون (والد ليندون) سلَبَها مهنة واعدة كانت تتوق إلى العمل بها. وكان سام رجلًا جلفًا بكل المقاييس، وكثيرًا ما شرب حتى الثمالة، فاتخذت الوالدة

---

(15) PBS American Experience, «Woodrow Wilson Website,» <http://www.pbs.org/wgbh/amex/wilson/>.

(16) Doris Kearns Goodwin, *Lyndon Johnson and the American Dream* (New York: Harper and Row, 1976).

من ابنها بديلًا لتحقق من خلاله طموحاتها، وفق ما رأت غودوين. وكانت تلجأ إلى حرمان ليندون محبتها حينما يُخفق في تحقيق توقعاتها العالية بشأنه، وهو ما انعكس على تعامل ليندون اللاحق مع موظفيه وأصدقائه.

كتبت رينيه ماريا رلكه (Rainer Maria Rilke) حول ذلك قائلة:

«كثيرًا ما يرقص الأطفال على إيقاع الحياة التي لم يعشها والداهم [...] وصورة ربيكا بينس جونسون (Rebekah Baines Johnson) التي تظهر من خلال هذه القصص هي صورة امرأة غير سعيدة على الإطلاق، انقطعت عن كل الأشياء التي أسعدتها في حياتها ذات مرة، وانعزلت في كوخ على جدول شحيح مع رجل اعتبرته سوقيًا فظًا. وظهرت من خلال هذه القصص امرأة مُحبَطة تحمل كثيرًا من الطموحات المخنوقة، وتحاول من خلال ابنها البكر إيجاد بديل لوالد ميت، وزواج غير سعيد، ومهنة لم تحقق النجاح. ويبدو أنها كانت ترزح تحت تأثير وسواس قهري يدفعها إلى أن تحقق من خلال ابنها المخططات والمشاريع التي لم تستطع أن تحققها لنفسها. وسيحقق الابن في ما بعد الأحلام المتمناة التي لم تستطع هي أن تحققها، وسيصبح شخصية ذات شأن لم تستطع هي أن تكونها»[17].

ويستذكر جونسون:

اكتشفت والدتي سريعًا أن والدي لم يكن الرجل المناسب لتناقش وإياه أمور الحياة الكبيرة. فكانت ترى حياة زوجها سوقية وجاهلة، إذ اقتصرت رؤيته للمتعة على السهر حتى منتصف الليل مع الأصدقاء، وشرب البيرة، ورواية القصص، ولعب الدومينو. شعرت بأنها وحيدة تمامًا، وكانت السنة الأولى من زواجها أسوأ سنوات حياتها. ثم جئت أنا، وفجأة أصبح كل شيء على ما يرام ثانية، فأنا أستطيع أن أقوم بكل ما لم تستطع هي القيام به[18].

رعت ربيكا «الأنا» المضخمة لدى ابنها ليندون؛ وبكلماته هو: «جعلتني أشعر بأنني كبير ومهم، واعتقدت أنني أستطيع أن أقوم بأي شيء في العالم».

(17) *Lyndon Johnson and the American Dream*, pp. 22-24.

(18) المصدر نفسه، ص 22.

ولكن حبها وعطفها كانا مدًا وجزرًا، وكثيرًا ما كانا يُسحبان عندما يأتي جونسون الصغير إلى البيت حاملًا من المدرسة كشف علامات سيء.

وتؤكد غودوين أنه:

«عندما كان ليندون يُخفق في تحقيق رغباتها، لم يكن يتعرض للانتقاد فحسب وإنما كان يُسحب العطف عنه تمامًا. ويروي جونسون في هذا الصدد أنه: «عندما أقلعتُ عن تلك الدروس ظلت أيامًا تجول في المنزل تتظاهر كأني ميت. ولكي تجعل الأمر أكثر سوءًا، كنتُ ألاحظ أنها تصبح أكثر دفئًا ورقةً مع والدي وأخواتي».

وتكررت هذه التجربة مرة أخرى في ما بعد عندما رفض جونسون الالتحاق بالجامعة فأهملته ربيكا لعدة أسابيع، رافضة التحدث أو حتى النظر إليه[19].

وتلاحظ غودوين تماثلًا واضحًا بين طريقة والدة جونسون في إغداق الحب على ابنها ومنعه بالتناوب، والطريقة التي عامل بها جونسون موظفيه «وجميع علاقاته مع الكبار تقريبًا» في ما بعد. فكان باستطاعته إغداق العاطفة والعطاء على أصدقائه، وزملائه، ومرؤوسيه، ولكن العاطفة والعطاء كان سريعًا ما يتحول إلى غضب وعدائية حين كانوا يخفقون في الوصول إلى مستوى المعايير التي يضعها لهم. وتضيف غودوين:

كان جونسون يتطلب قدرًا كبيرًا من الشكر والولاء، على نحو يجعل خيبة الأمل واقعة لا محالة. وعندما كانت تحل خيبة الأمل، كان جونسون يميل إلى سحب عاطفته واهتمامه، ويتحول إثر ذلك إلى حالة «الجمود الجونسوني»، فيؤذي الآخرين بالطريقة ذاتها التي آذته بها أمه قبل سنوات مضت.

وينظر روبرت داليك (Robert Dallek)، وهو مؤرخ رئاسي بارز آخر، إلى جونسون كمثال دراسي مناسب لحالة بارانويا سياسية. ومع أننا لا نستطيع اعتبار داليك كاتب سيرة نفسية في أي حال، فإنه لا بد من الإشارة إلى أنه زعم في كتابه المارد المتصدع (*Flawed Giant*) أن جونسون «كان يقترب من حالة

---

(19) *Lyndon Johnson and the American Dream*, p. 25.

جنون العظمة (البارانويا) المَرَضية إلى حد مفزع»[20]، ويعلق داليك على هذا الجانب قائلًا:

> كان يؤرق جونسون اعتقاد غير عقلاني بأن خصومه المحلَيين يضمرون نيّة لتدمير المؤسسات الوطنية. ويثير جنون العظمة لدى جونسون تساؤلات عن أحكامه، وقدرته على صنع قرارات عقلانية تتعلق بالحياة والموت. إنني لا أثير هذه القضية عَرَضًا، إنها قضية صعبة إلى حد مخيف، لم تتصدّ لها البلاد بجدية قط[21].

ويؤكد داليك وجهة نظر بل مويرز (Bill Moyers) التي نسبها إليه ريتشارد غودوين سابقًا، بأن جونسون عانى نوبات بارانويا شديدة، ويقتبس من مويرز أن السيدة بيرد جونسون كانت قلقة بشأن حالة البارانويا لدى زوجها أكثر من أي شخص آخر[22]. كذلك فإن داليك يقدم دليلًا على أن وزير الخارجية دين راسك كان قلقًا بهذا الشأن. فقد كان جونسون، على غرار خلفه نيكسون، يرى مؤامرات آتية من كل اتجاه، من اليمين ومن اليسار. ولكن اعتقادات جونسون بشأن أعدائه لم تكن مبنية على أساس، على الرغم من ثقته بها، ولم تكن سوى «هراء مخبول» على حد وصف داليك[23].

وكان ريتشارد غودوين كاتب خطابات جونسون السابق وزوج دوريس كيرنز غودوين أشد المناصرين للرأي القائل إن جونسون عانى البارانويا، وقد خلقت مذكراته ذكريات أميركا (*Remembering America*) عاصفة عندما صدرت عام 1988 لأول مرة، ويعود ذلك في الجزء الأكبر منه إلى وصفه السلوك الغريب الذي كان يعتري جونسون بشكل متزايد في الوقت الذي اتُّخذت فيه القرارات الحاسمة بشأن فيتنام[24]. ويستذكر غودوين:

---

(20) Robert Dallek, *Flawed Giant: Lyndon Johnson and his Times, 1961-1973* (New York: Oxford University Press, 1998), p. x.

(21) المصدر نفسه، ص 627.

(22) المصدر نفسه، ص 283.

(23) المصدر نفسه، ص 627.

(24) Richard N. Goodwin, *Remembering America: A Voice from the Sixties* (New York: Perennial Books, 1989).

في خلال عام 1965، وخصوصًا في الفترة التي أحاطت بقرار منتصف الصيف الحاسم الذي حوّل فيتنام إلى حرب أميركية، أصبحتُ أكثر اقتناعًا بأن الأطوار الغريبة التي اعترت الرئيس على الدوام قد أخذت قفزة هائلة نحو اللامعقول. لم تظهر هذه الحالة في بحث كل المواضيع، وليس طول الوقت بالتأكيد [...] غير أنه ما من شك لديَّ في أن جو البيت الأبيض والقرارات التي اتخذت حتى 1965 (وهي الفترة الوحيدة التي لاحظتها شخصيًا) تأثّرا بنوبات الاضطراب التي انتابت عقل جونسون وروحه[25].

ويخلص غودوين، بناءً على ملاحظته المباشرة لجونسون لعدة سنوات، إلى أن ليندون جونسون، «مر بنوبات خاصة، أعتقد أنها نوبات بارانويا، وأن هذه الملاحظة يُشاركني فيها آخرون كانوا على اتصال وثيق، ومتكرر، بالرئيس»[26]. وفي عام 1965 شرع كل من غودوين ووزير الإعلام بل مويرز، كل على حدة ومن دون علم أحدهما بالآخر - في استشارة أطباء نفسيين وقراءة كتب دراسية في علم النفس في محاولة لفهم التدهور العقلي الذي لاحظاه على الرئيس.

كيف لنا أن نفهم شخصًا معقدًا نفسيًا مثل جونسون؟ فإضافةً إلى الدلائل التي تأتينا من طفولته ومن شخصية «جايكل وهايد» [المزدوجة] التي عاشها، وإضافة إلى أمارات البارانويا القوية، هناك دليل على شيء من النرجسية لديه. ففي زيارة للفاتيكان عام 1966، قدم جونسون نفسه للبابا تقديمه الشهير قائلًا إن كل شخص في عائلته يدعى «ليندون ب. جونسون»، وكأنه يولي نفسه اعتبارًا تاريخيًا [في ذلك المكان] يسعى من ورائه إلى الخلود. كما أنه جرى تشخيصه عن بُعد من جهة الدكتور جابلو هيرشمان (Jablow Hershman) على أنه يعاني حالة هَوَس واكتئاب (Manic-depressive)، وإن ظل هذا التشخيص موضع جدل[27]. ويحذر فرانك في كتابه من أن التعقيد الكامن في الشخصية الإنسانية يحول دون فهمنا لها إلا في حدود ضيقة؛ فحتى الأشخاص الذين يوحون بأنه

---

(25) *Remembering America: A Voice from the Sixties*, p. 393.

(26) المصدر نفسه، ص 394.

(27) D. Jablow Hershman, *Power Beyond Reason: The Mental Collapse of Lyndon Johnson*, Preface by Gerald Tolchin (Fort Lee, NJ: Barricade Books, 2002).

من السهل فهمهم، من مثل جورج دبليو بوش، قد يكونون في الحقيقة نتاجًا لخبرات سيكولوجية ليس بمقدورنا فهمها إلا في أضيق الحدود.

السيرة النفسية المقارنة

يمثّل كتاب جيمس دايفد باربر (James David Barber) المعنون الشخصية الرئاسية[28] (*The Presidential Character*). العمل الأبرز في مجال السيرة النفسية بوجه عام، والسيرة النفسية المقارنة بوجه خاص، ولا يعتبر تناول هذا الموضوع تامًا ما لم يتطرق إليه. ويؤكد بول كوويرت (Paul Kowert)، على سبيل المثال، أن الأعمال التي تتناول سيرًا نفسية مفردة تتسم بالخصوصية، وتركز على منظومة فريدة من المتغيرات، ولا توفر تاليًا أساسًا كافيًا للمقارنة»[29]. وقد كان كتاب باربر واحدًا من أوائل الكتب التي تناولت تحليل الرؤساء الأميركيين بطريقة مقارنة، وأول من وضع إطارًا صالحًا للمقارنة يمكن تطبيقه على جميع الرؤساء، مهما كانت خلفياتهم، أو اعتقاداتهم، أو أسلوب عملهم. وكان مهتمًا فوق كل شيء بتفسير نجاح بعض الرؤساء وفشل بعضهم الآخر، كما أنه كان مهتمًا بالتنبؤ بمن يُحتمل أن ينجح أو يفشل قبل أن تظهر النتيجة على أرض الواقع. والحقيقة أننا نستطيع معرفة ذلك الهدف بالنظر إلى العنوان الفرعي للكتاب، وهو: التنبؤ بالأداء في البيت الأبيض (*Predicting Performance in the White House*). ما الذي فعله باربر لتحقيق ذلك الهدف؟ انطلق باربر لأداء مهمته من افتراض أن النجاح أو الفشل يعود أساسًا إلى نوع شخصية الرئيس. ويمضي في متابعة هذه الفكرة فيشير إلى بُعدين أساسيين في الشخصية يساعدان الرئيس على القيام بهذه المهمة، وهما: بُعد النشاط – اللانشاط (active-passive dimension) وبُعد الإيجابية – السلبية (positive-negative dimension).

ويشير بُعد النشاط إلى مقدار الطاقة التي يصرفها الرئيس في عمله.

(28) James David Barber, *The Presidential Character: Predicting Performance in the White House*, 3rd ed. (Englewood Cliffs, NJ: Prentice Hall, 1992).

(29) Paul Kowert, «Where Does the Buck Stop?: Assessing the Impact of Presidential Personality,» *Political Psychology*, vol. 17, no. 3 (September 1996), pp. 421-452.

فالرؤساء الناشطين يتحركون ويحَرّكون، إذا رغبوا؛ هم أفراد مشحونون بالدافعية، ويمتلكون قدرًا وافرًا من الطاقة، وينغمسون في العمل بحماس. وعلى العكس من ذلك نجد الرؤساء غير الناشطين أقل اهتمامًا بالتفاصيل إلى حد كبير، لا يعملون بجد بالقدر نفسه، ويفضلون إدارة الأمور بشكل متوازن وليس بإثارة الصراعات أو تحدي الوضع الراهن. أما بُعد الإيجابية مقابل السلبية [في الاتجاه نحو العمل الرئاسي] فيشير إلى مقدار الرضا الذي يستشعره الرئيس في أدائه لعمله (أي مدى اقتناعه، بكلمات أخرى) واستعداده لممارسة السلطة. وعلى الرغم من أن جميع الرؤساء يبدأون عملهم وهم راغبون في أداء مهمة الرئاسة، فإن بعضهم يجد أنه لا يستمتع بالعمل في الحقيقة بعد أن يصل إلى المركز. فمن الواضح أن مسؤوليات المنصب - وما يتحمله شاغله من ضغوط وأعباء - مسؤوليات هائلة قد تجعل الشخص يستاء من كونه رئيسًا. ويعتقد باربر أن بعض الأشخاص يكونون سلبيين [لا يرغبون في تولي السلطة]، بمعنى بأنهم يشعرون أنهم ملزمون بالواجبات والمسؤوليات للإمساك بالسلطة، مع أنهم في حقيقة الأمر يكرهون ممارستها أو لا يحبون المتطلبات التي تأتي معها. أما بعض الرؤساء الآخرين فيحملون اتجاهات إيجابية نحو العمل الرئاسي، بمعنى أنهم يستمتعون بتولي المنصب إلى حد كبير، ويشعرون بالرضا عن العمل فيه إلى حد كبير كذلك.

ويقول باربر إن أفضل ما يمكن أن يكون عليه الرئيس هو أن يكون نشيطًا - إيجابيًا. فالناشطون - الإيجابيون أفراد متوازنون، قانعون بالحياة، يحترمون أنفسهم، منفتحون على الأفكار الجديدة، ومستعدون للتعلم من الخبرة. هؤلاء هم أناس أصحاء، يتمتعون بالطاقة، يعتقدون أنهم قادرون أن يعملوا ما يريدون، ويؤدّون أداءً جيدًا في المكتب الرئاسي، في الغالب. ويقع ضمن هذه الفئة من الرؤساء: روزفلت، ترومان، كينيدي، فورد، كارتر، جورج بوش (الأب)، وكلينتون. فقد استطاع ترومان، على سبيل المثال، إعادة صياغة السياسة الخارجية الأميركية بكاملها: أقام الناتو (NATO)، ووضع خطة مارشال، وتدخل في كوريا، والأهم في ذلك كله هو أن أميركا تبنت في عهده سياسة الاحتواء؛ وهي السياسة التي بقيت المفتاح الأهم للسياسة الخارجية الأميركية حتى

متنصف عهد بوش. ويعتقد باربر أن إحساس ترومان بمقدرته كشخص، وتمتعه بالطاقة، والقدرة على الحسم هو ما يقف وراء كل تلك الإنجازات. ويأتي جيمي كارتر كمثال آخر؛ فعلى الرغم من أن إنجازاته تقل كثيرًا عن إنجازات ترومان فإنه كان منغمسًا انغماسًا شديدًا في عملية الحكم، واستمتع بكونه رئيسًا أكثر من أي شيء آخر في حياته. والحقيقة أن أداءه العام منذ أن ترك المنصب، يدل على أن منصب الرئاسة أسره، حتى إنه لا يزال يتصرف وكأنه الرئيس الحالي!

أما أسوأ ما يمكن أن يكون عليه الرئيس فهو أن يكون ناشطًا – ذا اتجاه سلبي (active-negative) – وفق ما يرى باربر. فهؤلاء الرؤساء يكونون خطرين لأنهم يمتلكون نزعة إلى الوسواس التسلطي (compulsiveness) والعدوان، ويميلون إلى العناد وعدم المرونة إلى حد يجلب الكارثة عليهم وعلى البلاد. وكثيرًا ما ينسحبون بعيدًا عن المعارضة، ويتقوقعون حول أنفسهم. ويزعم باربر أن ريتشارد نيكسون وليندون جونسون هما من هذا النوع من الرؤساء – أي ناشطون – سلبيون – حيث تمسك كل منهما بوجهةٍ خاصة في تسيير الأمور قادته إلى التهلكة (جونسون في فيتنام، ونيكسون في ووترغيت). فقد قرر جونسون توسعة الحرب في فيتنام بغزو كمبوديا عام 1970، ووقع في فخ التمسك بخط سياسي ثبت فشله. وعلى غرار جونسون، كان نيكسون مرتابًا يرى المؤامرات تحيط به من كل جانب، وأنهى كل منهما فترته الرئاسية في عزلة تامة.

أما الحالة الأقل سوءًا، وإن ظلت بعيدة من حالة النشاط – الإيجابية، فهي حالة اللانشاط – التوجه الإيجابي (passive-positive) وحالة اللانشاط – التوجه السلبي (passive-negative). حيث يزعم باربر أن الرؤساء غير الناشطين – الإيجابيين يسعون إلى محبة الآخرين وتعاطفهم من طريق الملاطفة والتعاون بدلًا من التصادم. فهم متفائلون، لطفاء، متجاوبون؛ وعلى الرغم من أنهم يستمتعون بالعمل الرئاسي فإنهم لا يسعون إلى إنجاز الكثير ولا يشعرون بأنه مطلوب منهم الكثير. ويعطي باربر رونالد ريغان كمثال وحيد على هذه الحالة بين الرؤساء الحديثين. ويعتقد أن ريغان يمثل هذه الحالة لأنه كان شخصًا

مقبولًا وجذابًا، ولكنه لم يحب القيام بعمل شاق. وكثيرًا ما كان يصوغ ما يرغب في عمله صياغة عامة، ويترك الأمر لمستشاريه ليقرروا كيفية تنفيذ تلك المبادئ، ووضعها حيز التنفيذ. بعبارة أخرى، كان ريغان مديرًا ذا توجه عام (macro-manager) أما جيمي كارتر فكان يمثل المدير الجزئي (micro-manager) الذي انغمس في التفاصيل اليومية لعملية صنع السياسة.

وأما الحالة الأخيرة فهي حالة اللانشاط - التوجه السلبي؛ والأفراد الذين يمثلون هذه الحالة يفضلون أي شيء على أن يكونوا رؤساء، إلا أنهم يمتلكون إحساسًا بالواجب يدفعهم إلى هذا العمل. وهذا النوع من القادة لا يحقق كثيرًا من الرضا بالعمل الرئاسي، ولا يبذل كثيرًا من الجهد لتحقيق إنجازات كبيرة. ويعتقد باربر أن دوايت أيزنهاور يقع ضمن هذه الفئة من الرؤساء. حيث إن أيزنهاور لم يسعَ لإحداث تغيير دراماتيكي أثناء فترة رئاسته، وبدى أنه زاول عمله بنفور بالغ. ويُذكر أنه جرى إلحاقه بالترشُّح عن الحزب الجمهوري عام 1952 من دون أن تكون لدية رغبة قوية في ذلك. ويقول باربر إن أيزنهاور، «لم يشعر بواجبٍ لانقاذ العالم أو لأن يصبح بطلًا، وإنما أراد أن يسهم [في الخدمة العامة] بأقصى ما لديه من مقدرة».

وعندما نضع البعدين [اللذين أشرنا إليهما] معًا: النشاط في مقابل اللانشاط، والإيجابية في مقابل السلبية، فإننا نخرج بجدول كالجدول الوارد أدناه (انظر الجدول (7-1)).

ولقد أثارت نظرية باربر كثيرًا من الجدل لدى علماء السياسة منذ نشرها عام 1972، وأصبح كتابه عنها موضوعًا للاقتباس والمناقشة على نطاق واسع في علم السياسة الأميركي. وتذكرنا هذه النظرية في أسوأ الأحوال بأن الأداء الرئاسي هو نتيجة لخليط معقد من العوامل، ولا تحدده عوامل الشخصية فحسب. وهي في أحسن الأحوال تقدم ما تدعي أنها تقدمه (ربما)، أي بمخطط يساعدنا على التنبؤ بالنجاح والفشل في المنصب الرئاسي. غير أن النقاد، في الآونة الأخيرة، ألقوا الضوء على عدد من المشكلات في نظرية باربر هذه،

ما قاد إلى تداني شعبيتها. وهناك ثلاثة انتقادات لإطار باربر النظري تجدر ملاحظتها هنا، وهي:

1- إن نظرية باربر تبالغ في تبسيط العالم بطريقة قد تكون مضللة في نهاية الأمر. إذ يمكننا القول جدلًا إننا نستطيع تصنيف الشخصيات الرئاسية في عشرات - إن لم يكن في مئات - من الأصناف [فما مبرر الاقتصار على هذا التصنيف؟]، كما أن وضع مثل هذا الإطار المبسط قد يؤدي إلى التقليل من شأن الفروق بين الرؤساء الذين يبدون متشابهين في ظاهر الأمر في حين أنهم مختلفون في العديد من الجوانب. واستخدام مثل هذا التصنيف [الجامع المبسط] لا يتيح لباربر أن يحقق الهدف الذي عمل من أجله، وهو التمييز بين الشخصيات التي تنجح في العمل الرئاسي وتلك التي تبوء بالفشل. هل يقع ترومان وكارتر ضمن الفئة ذاتها؟ وهل يقع روزفلت وجيرالد فورد ضمن القائمة ذاتها كذلك؟

2- يصعب وضع رؤساء معينين في صنف معين، فهناك دائمًا مجال للاختلاف في ما إذا كان رئيس ما نشيطًا أم غير نشيط، وما إذا كان إيجابيًا أم سلبيًا إزاء تولي العمل الرئاسي. وإذا نظرنا إلى ليندون جونسون مثلًا، نجد أنه تم تصنيفه ضمن فئة نشيط - ذي توجه سلبي، أي إنه بذل جهدًا شاقًا في العمل ولكنه لم يجنِ كثيرًا من الرضا. غير أن جونسون ظهر في بداية رئاسته مستمتعًا بكونه رئيسًا في الحقيقة، إلا أنه حين واجه معارضة أميركا لحرب فيتنام بدأ يكره عمله. ومع ذلك، كان من الصعب عليه أن يفعل في نهاية الأمر ما فعله - أي أن يترك الرئاسة قبل الأوان ويقرر عدم الترشح لفترة رئاسية ثانية. خذ بل كلينتون كمثال آخر: هل استمتع بل كلينتون حقيقة بكونه رئيسًا؟ هناك دليل يوحي بأنه استمتع بعمله فعلًا، وبالمقابل، يروي بوب وودوارد (Bob Woodward) في كتابه الأجندة قصصًا عدة تكشف أن كلينتون كان محبَطًا في عمله، وأنه كان يثور على الدوام في نوبات غضب عندما لا تسير الأمور وفقًا لما يريد. وبعبارة أخرى، فإن تقويم الأشخاص على هذه الأبعاد يستدعي قدرًا من التخمين، ويستدعي - كما يقول بعضهم - قراءة العقول؛ فأمثلة من هذا النوع قد تدعو ناقدًا إلى القول إن الإطار النظري الذي يقدمه باربر غير موضوعي وغير علمي.

الجدول (7-1)

تصنيف باربر للرؤساء المعاصرين

	إيجابي التوجه (positive)	سلبي التوجه (negative)
نشيط (active)	روزفلت هاري ترومان جون كينيدي جيرالد فورد جورج بوش (الأب) بل كلنتون جيمي كارتر	ودرو ولسون هربرت هوفر ليندون جونسون ريتشارد نيكسون
غير نشيط (passive)	وليام تافت وورن هاردنغ رونالد ريغان جورج دبليو بوش	كالفنغ كوليدج

المصدر: James David Barber, *The Presidential Character: Predicting Performance in the White House*, 3rd ed. (Englewood Cliffs, NJ: Prentice Hall, 1992).

3- وربما يكون أكثر الانتقادات لنظرية باربر أهمية هو أن الأداء الرئاسي يتكوّن بفعل الأحداث والظروف أكثر مما يتكوّن نتيجةً لنوع الشخصية أو الطباع (وهذا يمثل النقد «الموقفي» الذي أصبح مألوفًا لنا الآن). إضافة إلى أن الظروف المحيطة، وعلى رأسها الظرف الاقتصادي، كثيرًا ما تحدد نجاح الرئيس أو فشله، بغض النظر عمّن تَصادف أن يحتل المنصب. فقد كان جيرالد فورد وجيمي كارتر غير محظوظين، لأن كلًّا منهما اعتلى المنصب في وقت عانى فيه الاقتصاد العالمي ركودًا، في حين جاء رونالد ريغان بعد عام 1982 حين أخذ الاقتصاد العالمي في الانتعاش. ويبدو أحيانًا أن «نجاح» الرئاسة يأتي بمجرد الحظ، أو قلّته؛ فقد تولى روزفلت المنصب في وقت تحمّل فيه جمهوريو هربرت هوفر وزر «الركود الكبير» واستطاع بسط النفوذ الرئاسي في أعقاب الحرب العالمية الثانية.

وتزداد قوة المنصب الرئاسي، وفرص الوصول إلى العظمة، أكثر ما تزداد

في أوقات الأزمات الحادة. ومن هنا، يمكن اعتبار روزفلت محظوظًا بأن واجه اثنتين من هذه الأزمات أثناء فترة رئاسته: الركود الكبير، والحرب العالمية الثانية. وبالمقابل، كان ليندون جونسون غير محظوظ حين تولى الرئاسة في وقت اقتضى اتخاذ القرارات الصعبة المتعلقة بفيتنام. إذ راوغ كل من أيزنهاور وكينيدي في السنوات السابقة، ولم يحسما مسألة إرسال قوات أميركية لحماية فيتنام الجنوبية من جارتها الشمالية الشيوعية. وبحلول عام 1965، أي بعد عام ونصف من تولي جونسون منصب الرئاسة، لم يكن بوسعه تأجيل ذلك القرار وقتًا أطول. فقرر جونسون تكثيف الوجود الأميركي في الحرب، وقد يقول قائل إن أي رئيس كان سيتخذ مثل هذا القرار لو أنه واجه الظروف الموضوعية ذاتها. وحقيقة الأمر أن فيتنام الجنوبية كانت ستنهار من دون مساعدة أميركية مكثفة، وكان جونسون غير محظوظ أن يكون الشخص الذي اضطر إلى أخذ ذلك القرار الصعب، وهو القرار الذي أدى إلى تدمير رئاسته في نهاية المطاف كما نعرف.

هل السِيَر النفسية في تراجع؟

لا بد من الاعتراف بأن بعض السير الذاتية التي ظهرت في السنوات الأخيرة لا ترقى في مستواها من حيث الأسلوب والجودة إلى تحليل جورج وجورج للرئيس نيلسون، أو تحليل بيتي غلاد للرئيس كارتر، على سبيل المثال. هذا، وهناك ميل إلى تسييس التحليل الخاص ببعض القادة، كما في حالة كتاب بوش على الأريكة الذي تحوم حوله الشكوك حتى من اليسار [المعارض لبوش]. وسنختم هذا الفصل بالإشارة إلى كتاب يحلل بل كليتنون نفسيًا، وإن كان معظم علماء النفس السياسي لم يأخذوه على محمل الجد عندما نُشر في التسعينيات. ونأمل أن يكون النظر في هذا التحليل مفيدًا في الكشف عن بعض الأخطاء التي وقع فيها أدب السِيَر النفسية بوجه عام.

أما بل كلينتون فقد كانت أواسط التسعينيات فترة مخاض سياسي عسير له؛ إذ حاصرته اتهامات بالكذب في العديد من العلاقات خارج الزواج، وإشاعات عن تجاوزات مالية في قضية وايت ووتر، فأضحت رئاسته كأنها

تسير على حبال مشدودة قبل عودته إلى الظهور على المسرح السياسي في انتخابات 1996. وقد تابع عالم النفس الإكلينيكي بول فك (Paul Fick) عن بُعد الصعوبات السياسية التي واجهها بل كلينتون، ووضع تحليله في كتاب عام 1995، قبل عشر سنوات من نشر فرانك لكتابه عن بوش، ولكن بأسلوب مشابه لأسلوب فرانك إلى حد صارخ. وكما كان الحال مع فرانك، لم يحدث أن قام فك بفحص كلينتون شخصيًا، ولكنه لاحظ تماثلًا هائلًا بين سلوك الرئيس واضطراب في الشخصية اعتاد معالجته في عيادته الخاصة. حيث رأى فك أن سلوك كلينتون يعكس خصائص الأفراد الذين يتربون لدى والد (أو أكثر) من مدمني الكحول، فيقول:

«لدينا رئيس يصنع الفوضى لنفسه [.....] ويحيا على ما صنعه. قام بتشويه الحقيقة علانية، وأنكر أنه شوّه الحقيقة، وادعى الأمانة المطلقة في كل الأوقات [..] لقد ذهب سلوكه أبعد من المناورات السياسية المألوفة، هذا السلوك يمثل جوهر شخصيته. لقد صُعقت حين أدركت أنه بدل أن يصبح الرئيس القادم للولايات المتحدة، فإن وليام جفرسون كلينتون لا يعدو أن يكون سوى واحدٍ من مئات من أبناء الكحوليين الذين عالجتهم في المستشفى أو في عيادتي الخاصة»[30].

ويُشخِّص فك عن بُعد الأعراض المتلازمة (syndrome) المسمّاة «الأبناء الراشدون للكحوليين» (adult children of alcoholics) أي أولئك الذين تربوا في عائلات كحولية، فيقول إنهم يكذبون كثيرًا، مترددون في اتخاذ القرارات، ينزعون إلى التدمير الذاتي (self-distruction) في الرشد، على نحو يُذكِّر بسلوك بل كلينتون إلى حد صارخ قبل الرئاسة، وبعدها. لقد كان أبوه بالتبني، روجر كلينتون، كحوليًا، ويمارس العنف ضد والدة بل أحيانًا. واستجابة لذلك الوضع تولى، رئيس المستقبل، دور البطل - كما يجري في العادة لدى أبناء الكحوليين الذين عالجهم فك، إذ ينهض الطفل ويؤدي دور الأب أو الأم (اعتمادًا على أي منهما يكون الغائب أو غير الموثوق به). ولكن هذا الدور يُلحق بالبطل أضرارًا

(30) Paul M. Fick, *The Dysfunctional President: Inside the Mind of Bill Clinton* (New York: Birch Lane Press, 1995), pp.11-12.

نفسية بالغة؛ حيث يظل يحمل في داخله كثيرًا من الاستياء. إضافة إلى ذلك، فإن أبناء الكحوليين يعيدون خلق عالم الفوضى الذي نشأوا فيه، وربما أنهم يعيشون عليه.

مشكلات مقاربة السير النفسية بوجه عام

تواجه أعمال السير الذاتية من هذا القبيل العديد من الاعتراضات، ربما بعضها خطر لك وأنت تقرأ هذا الفصل. وتتعلق إحدى هذه المشكلات بما يسميه العلماء الاجتماعيون مشكلة الدحض (Falsificationism). ولعل أشهر فلاسفة العلم الذين ناقشوا هذا الموضوع هو الراحل كارل بوبر (Karl Popper). فقد شن بوبر هجومًا على النظريات التي «لا تُدحض» في كتابه **فقر التأريخية** (*The Poverty of Historicism*) وفي غيرها من الأعمال. وحجته في ذلك أن النظرية التي لا تُدحض هي نظرية غامضة وعامة في طبيعتها، وقد تتفق مع أي نتيجة يمكن أن تخطر في الذهن على الإطلاق. وكثيرًا ما يقال إن «النظرية التي تفسر كل شيء، لا تفسر شيئًا». وقد يجد بعض الطلبة هذا الأمر محيّرًا، فالنظرية التي تستطيع تفسير أي نتيجة هي نظرية جيدة ولا ريب. غير أن ذلك لا يكون صحيحًا في كثير من الأحيان لسوء الحظ. خذ المثال الذي نتحدث عنه هنا، وهو الفرويدية؛ إذ يعتقد بوبر أن المشكلة الرئيسة في نظريات فرويد هي أنه اعتبرها صحيحة بغض النظر عن أي دليل جاء به حولها. وبالمثل، فإن أحد الاعتراضات التي تُوجّه للعملين المتعلقين بكلينتون وبوش هو أن مؤلفيْه، بدوَا مصممَيْن على إثبات صحة نظرياتهما فيهما حتى إن أي دليل إمبيريقي [مادي] يصادفانه يمكن أن يطوّعاه لإثباتها. فعندما كذب كلينتون اعتُبر ذلك دليلًا رئيسًا على صحة نظرية فك، أما عندما بدا صادقًا، فإنه «كان يُخفي الحقيقة عن نفسه». وبالمثل عُزيَت نزعة بوش للكذب إلى تنشئته، ولكن، ألا يكذب جميع السياسيين إلى حد ما؟

ثانيًا، هناك مشكلة التحيز لإثبات صحة المعتقد (confirmation bias). فكما أن الأفراد يرون في المرشح المحتمل ما يريدون أن يروه فيه، ويُسقطون من حسابهم نقاط الضعف (أو القوة) لديه، كذلك فإن الباحث في دراسته لحالة

قائد معين يميل إلى استبعاد الدليل الذي لا يتناسب مع النظرية التي يقترحها، وإلى الاحتفاظ بالدليل الذي يدعمها. وبعبارة أخرى، هناك رغبة على الدوام في جعل الدليل يناسب النظرية، أكثر مما هناك رغبة في ترك الدليل يمد النظرية بالدعم (أو يدحضها) من دون تطويع. ولا تقتصر هذه المشكلة في أي حال على السير النفسية - كما أن مشكلة الدحض لا تخصها وحدها كذلك - إلا أنها مشكلة ذات صلة بهذا الموضوع ولا بد أن تؤخذ بالاعتبار.

ثالثًا، هناك مشكلة الإتاحة (The problem of access)؛ إذ إن المؤهلين منا لوضع الرئيس «على الأريكة» قليلون، وما من رئيس يقبل أن يخضع للعلاج لدى عالم نفسي سياسي سواء كان مؤهلًا أم غير ذلك. والقادة الذين لا يتمتعون بصحة عقلية تامة لا يعترفون على الأرجح بهذه النقيصة، ولا يسمح المرشحون للمناصب العامة في معظم دول العالم مناقشة مشكلاتهم النفسية علانية، ويعتبرونها منطقة محرّمة. لقد اضطر توماس إيغلتون إلى الانسحاب من الترشح بوصفه نائبًا للمرشح الرئاسي عن الحزب الديمقراطي، جورج مكغوفيرن عام 1972 عندما عرف الناس أنه راجع طبيبًا نفسيًا في الماضي، وتلقى علاجًا بالصدمات الكهربائية. وعندما لا يتاح لنا إمكان الوصول إلى الشخص مباشرة، نضطر إلى فحص الرؤساء، وغيرهم من القادة، عن بُعد، وهي الوسيلة التي لجأ إليها جميع المؤلفين الذين ناقشنا كتبهم في هذا الفصل، ربما باستثناء دوريس كيرنز غودوين، نظرًا إلى ما أُتيح لها من مجال استثنائي للوصول إلى ليندون جونسون بعد أن غادر المنصب. ولكن هناك مشكلات واضحة في هذه الحالة أيضًا؛ فالدليل الذي نمتلكه عمّا دار في ذهن الرئيس من أفكار في وقت معين في الماضي، لا بد أن يكون متحيزًا، وقد يكون غير موثوق به، أو حتى غير موجود أصلًا. وربما لا يستطيع أحد أن يرى «ما بداخل رأس» شخص آخر على الإطلاق. وحتى عند الإفراج عن الوثائق السرية، فإننا ربما لا نستطيع الكشف عن حقيقة ما فكر فيه الرئيس في حينه.

وأخيرًا هناك مشكلة الاختزالية[31] (reductionism)، [أي حصر تفسير الظاهرة

---

(31) James William Anderson, «The Methodology of Psychological Biography,» *Journal of Interdisciplinary History*, no. 11 (Winter 1981), pp. 455-475.

بعوامل محدودة]، فقد تم في الفصل الأول من هذا الكتاب إلقاء الضوء على مدى تأثر سلوك الفرد بالموقف الذي يواجهه (أي إن سلوكه يتحدد بالعالم الخارجي أكثر مما يتحدد بالعالم الداخلي). إلا أن معظم السير النفسية هي في الأساس نزوعية؛ أي إنها تتبنى وجهة النظر القائلة إن قيمنا واعتقاداتنا تحدد سلوكنا، أو إن جانبًا مما يدور في عقولنا يوجه ذلك السلوك. ولكن هل نستطيع حصر تفسيرنا للسلوك بمتغيرات نفسية بحتة؟ أليس للسياق الذي يعمل فيه القائد أهمية بقدر ما لخصائصه الشخصية من أهمية؟ وكما سبق أن رأينا، فإن هذا الاعتبار يمثّل المشكلة الرئيسية في مقاربة كتلك التي اتخذها جيمس دايفد باربر في كتابه الشخصية الرئاسية - حيث اعتبر المتغيرات الشخصية هي المحددات الرئيسية للسلوك - والمقصود هنا سلوك الرئيس. ومع أن التفسيرات البسيطة تعطينا طريقة مريحة نفسيًا لفهم العالم من حولنا، إلا أن النظرية الكامنة وراءها قد تكون مغالية في البساطة. وربما يمثل هذا الأمر مشكلة خاصة بجميع الأعمال التي ناقشناها هنا مما يركز على أهمية مرحلة الطفولة في تفسير السلوك اللاحق؛ فهناك بحوث تؤكد أن أحداث الطفولة لا تُسهم في تكوين السلوك اللاحق بوجه عام، بالقدر الذي نظن، حيث تزعم سالي باتل (Sally Patel)، مثلًا، أن «الحرمان المبكر يزيد احتمال تطور الطفل إلى راشد مضطرب، ولكنه لا يَحتم ذلك في أي حال». ويجد المتخصصون في العلوم الاجتماعية أنه حتى المعاملة السيئة الحادة لا تؤثر في نمو الطفل على نحو منتظم أو قابل للتنبؤ بالقدر الذي نظن[32].

خاتمة

على الرغم من كل هذه النقائص - التي تتفاوت في أهميتها - يظل لهذا الحقل من الكتابة جاذبية خاصة على المستوى الذهني. ويُبدي وليام أندرسون (William Anderson) ملاحظة في هذا الشأن يقول فيها:

> «حتى أولئك الموغلون في نقد السِيَر النفسية يعترفون أن تطبيق علم النفس على السير الشخصية ممكن. ومن حيث إن الدراسات السيرية الشاملة لا

(32) Sally Patel, «The Perils of Putting National Leaders on the Couch,» *New York Times*, 29/6/2004.

بد أن تتضمن تحليلًا لشخصية صاحب السيرة، يكون من المنطقي إجراء مثل هذا التحليل بشكل ممنهج، وعلى أسس نفسية رصينة»[33].

ولعل الجواب يكمن (كما يوحي هذا الاقتباس) في تطوير وسائل دقيقة ومتفق عليها لتحليل الأطر الذهنية لقادة معينين، أو أنه يكمن في وضع التحيز لمدرسة التحليل النفسي جانبًا - وهو التحيز الذي طغى على هذا الفرع من علم النفس السياسي. ولعلنا بحاجة إلى بذل المزيد من الجهد للاستغناء عن الجوانب المثيرة للجدل في هذه الأعمال (من مثل فك وفرانك اللذان يمثلان الأطراف المتضادة من الطيف السياسي، ويشتركان في أن كلّا منهما ينفر من الشخص موضوع دراسته إلى حد كبير، وأن لديه هدفًا سياسيًا خاصًا في الكتابة عنه). غير أنه قد يكون من المستحيل تفسير أفعال القادة من دون شيء من التحليل لخصائصهم النفسية، وهذا يعني أن مقاربة السيرة النفسية أو التاريخ النفسي ستبقى معنا بكل تأكيد. وربما يسأل القارئ ما إذا كان هناك طرائق بديلة لدراسة شخصيات القادة، والجواب عن ذلك هو أن بعض علماء النفس السياسي يحاولون ذلك فعلًا، والفصل القادم يتناول ما يجري من محاولات لدراسة دور الشخصية في السياسة بطرائق أكثر تَنظيمًا.

---

(33) Anderson, Ibid., pp. 455-460.

8
الشخصية والاعتقادات

تحليل الشخصية

إن افتقار السيرة النفسية إلى الموضوعية قد يدعو المرء إلى رفضها بوصفها مقاربة لدراسة الشخصية، إلا أننا لا نستطيع تنحية موضوع الشخصية جانبًا، عند هذا الحد لأن هناك ولا ريب طرائق أخرى لمقاربته. ومن حيث إن الشخصية لا تمثل العامل الحاسم في كل الظروف، كما هو واضح، فإن علماء نفس السياسة المهتمين حاليًا بالعوامل الشخصية حذرون في ما يطرحونه من وجهات نظر بهذا الشأن. ويضع فريد غرينشتاين (Fred Greenstein)، أحد أبرز المناصرين للمقاربات الشخصية في دراسة السياسة، أساسًا لتقويم دور القائد بوصفه شخصًا في تكوين السلوك السياسي - أي ما إذا كان للنزعات أهمية في تشكيل السلوك. فيميز غرينشتاين بين ما يدعوه ضرورة الفاعل (actor dispensability) وضرورة الفعل[1] (action dispensability). ولعل هذا التمييز يقدم لنا طريقة مناسبة لفهم القوى التي تؤلف التاريخ والسياسة.

افرض أن فاعلًا/ شخصًا - دعنا نقول إنه جورج دبليو بوش في هذا المثال - اتخذ قرارًا؛ ولنفرض أن القرار استهدف غزو العراق. لكي يكون لهذا القرار

(1) Fred Greenstein, «The Impact of Personality on Politics: An Attempt to Clear Away the Underbrush,» *American Political Science Review*, vol. 61, no. 3 (September 1967), pp. 629-641.

أهمية تاريخية، يجب أن يكون الفاعل (بوش هنا) لا يمكن الاستغناء عنه [لكي يتم اتخاذ القرار]؛ وهذا يمثل طريقة أخرى للقول إنه لو لم يكن بوش رئيسًا - لو كان آل غور مثلًا أو جون كيري في البيت الأبيض - لما تم اتخاذ قرار غزو العراق (أما لو تم اتخاذ القرار سواء كان بوش هو الرئيس أم لا، فإن الفاعل يكون في حكم المستغنى عنه). غير أن هناك اختبارًا آخر لا بد من اجتيازه ليكون للفرد تأثير ملموس في التاريخ؛ فالقرار يجب أن يكون مهمًا بحد ذاته. وهذا ما يدعوه غرينشتاين مدى ضرورة الحدث (action dispensability)، إمكان الاستغناء عن الحدث. فإذا كان الفعل (غزو العراق) غير ذي أثر في مجرى التاريخ، فإن الفعل يكون غير ضروري/ مستغنى عنه. على أن معظم الناس سيتوصلون/ في هذه الحالة إلى استنتاج معاكس: فغزو العراق ترك أثرًا هائلًا في عدد من الأصعدة، تشمل الأوضاع المعيشية للعراقيين، والسياسية المحلية في الولايات المتحدة، والاستقرار في منطقة الشرق الأوسط، والعلاقات الأميركية الأوروبية، وغير ذلك. فإذا اجتاز القائد كلا الاختبارين - ضرورة الفاعل وضرورة الفعل - يكون له أو لها أثر ملموس في الأحداث.

ربما تكون السيرة النفسية لا تحظى بالشعبية التي تمتعت بها سابقًا، إلا أن دراسة الشخصية في إطار علم النفس السياسي تبقى مجالًا حيويًا. وقد تطرقنا في الفصل السابق إلى قضية الإتاحة (أو إمكان الوصول إلى القائد)؛ حيث يصعب وضع القادة الحاليين أو السابقين «على الأريكة». غير أن دايفد ونتر (David Winter) يؤكد أننا نستطيع قياس الصفات الشخصية للقادة «عن بُعد» وبوسيلة موضوعية وثابتة (يمكن الاعتماد عليها)[2]. وذلك بتحليل مضمون خطابات الرئيس مثلًا، أو بالطلب إلى خبراء يعرفونه (أو ممن كتبوا عنه) الاستجابة لاستبيانات شخصية كأنهم الشخص موضوع الاهتمام. فقد استخدم بول كوويرت (Paul Kowert)، على سبيل المثال، تكنيك (Q-sort) للوصول إلى تقدير

---

(2) David Winter, «Things I've Learned about Personality from Studying Political Leaders at a Distance,» *Journal of Personality*, vol. 73, no. 3 (June 2005), pp. 557-584, and Mark Schafer, «Issues in Assessing Psychological Characteristics at a Distance,» *Political Psychology*, vol. 21, no. 3 (September 2000), pp. 511-527.

عام للسمات الشخصية لعدد من الرؤساء الأميركيين[3]. وشملت قائمة الخبراء الذين استعان بهم لهذه المهمة أولئك الذين عرفوا الرؤساء شخصيًا، وأولئك الذين كتبوا عنهم من منظورات تاريخية، أو علمية - اجتماعية، أو صحافية[4]. ويتميز هذا التكنيك بأنه يتيح الحصول على معلومات مُجْمَع عليها، أو الحصول على لوحات شخصية للرؤساء يرسمها أشخاص عديدون، بدل الاعتماد على سيرة نفسية تقوم على تفسيرات مؤلف واحد.

وهناك إجراء آخر لقياس شخصية الرئيس يتمثل في تحليل مضمون أحاديثه العامة - ما يتفوه به مباشرة أمام الجمهور - وتحليل خطاباته، ثم تقدير ما يمتلكه من خصائص شخصية بناء على ذلك - كتقدير الأسلوب المعرفي (cognitive style) الخاص به. وفي النطاق المعرفي، يبحث بعض علماء النفس السياسي في ما يسمونه «التركيب التكاملي» (integrative complexity) للأفكار والمعلومات، على سبيل المثال[5] ويوضح سودفيلد وتيتلوك (Suedfeld and Tetlock) ما يعنيه هذا المصطلح في الاقتباس التالي (والذي يميّز أساسًا بين أسلوبين معرفيين في صنع القرار: أسلوب مبسّط، وآخر مركّب).

> تتميز القرارات الممثّلة للجانب البسيط من هذا البُعد بأنها تتمحور حول النقاط البارزة فحسب في القضية المرجعية موضوع القرار؛ وتنحصر رؤيتها في جانب واحد من جوانب القضية أو المشكلة؛ بأنها تهمل الفروق أو نقاط التشابه الخفية في وجهات النظر الأخرى؛ ويُنظر فيها إلى المشاركين

---

(3) Paul Kowert, «Where Does the Buck Stop?: Assessing the Impact of Presidential Personality,» *Political Psychology*, vol. 17, no. 3 (September 1996), pp. 421-452.

(4) سُمِّيَ «مقياس كيو» لفرز السِّمَات بهذه التسمية لأنه يتطّلب من الخبراء، أو «الحكام» كما يدعوهم كوويرت (Kowert)، فرز بطاقات من مجموعة من البطاقات التي يحمل كل منها سمة شخصية [كُتبت عليه]، وانتقاء البطاقات التي تصف شخصية القائد موضوع البحث أفضل وصف من بين هذه السمات. انظر: المصدر نفسه، ص 424-427.

(5) Peter Suedfeld and Philip Tetlock, «Integrative Complexity of Communications in International Crises,» *Journal of Conflict Resolution*, vol. 21, no.1 (March 1977), pp. 169-184.

إن أعمال سودفيلد في هذا الموضوع منذ الستينيات غزيرة للغاية، وللتعرف إلى تطبيقاته الحديثة لهذا المفهوم، انظر على سبيل المثال: Peter Suedfeld, «President Clinton's Policy Dilemmas: A Cognitive Analysis,» *Political Psychology*, vol. 15, no. 2 (1994), pp. 337-349.

الآخرين، وإلى الأبدال السلوكية الجاري العمل بها أو التي يمكن السير فيها على أنها إما حسنة وإما سيئة؛ وتتميز بالسعي إلى حلول سريعة ونهائية لإزالة الغموض وعدم اليقين إلى أقصى حد ممكن. أما القرارات التي تمثل الجانب المعقد من هذا البعد فتتميز بمعالجة مرنة ومنفتحة للمعلومات؛ والنظر إلى الأبعاد المختلفة [لأجزائها المختلفة]؛ والبحث المتواصل عن الجديد، وعن المزيد من المعلومات؛ والقدرة على تناول وجهات نظر متعددة في آن واحد، وربطها على نحو متكامل، وثم الاستجابة لها بمرونة[6].

ولدى مقارنة جون كينيدي بجورج دبليو بوش، على سبيل المثال، وجد دايفد ونتر، أن كينيدي، «حقق درجة أعلى من جورج بوش في التركيب التكاملي، وأن تعبيره اللفظي كان متماسكًا، وموشحًا بالسخرية والفطنة. أما لغة بوش، بالمقارنة، فكانت تفتقر إلى البراعة، وتمتلئ بالمواعظ التقليدية المنمقة»[7].

ويستخدم دايفد ونتر تحليل المضمون في معظم أعماله لتقدير «دوافع» القادة السياسيين، مع التركيز بشكل خاص على منظومة من الأبعاد الشخصية وهي: مقدار السعي إلى القوة، وإقامة الصلات مع الآخرين، ومحاولة إنجاز أشياء عظيمة، والسعي إلى التحكم في مجريات الأحداث.

ويجد ونتر وستيوارت (Winter and Stewart)، على سبيل المثال، أن الحاجة إلى القوة (need for power) والحاجة إلى الانتماء (need for affiliation) (أو إقامة الصلات مع الناس) تمثّل دوافع مهمة لدى الرؤساء الأميركيين بوجه خاص[8]. ووفقًا لما يرى ونتر، فإن الشخصية شيء مركب، لا تشمل الدوافع فحسب

(6) المصدر نفسه، ص 172. جرى ربط «التعقيد المعرفي» كذلك بالمماثلات التاريخية التي يستخدمها القادة. انظر: Stephen Dyson and Thomas Preston, «Individual Characteristics of Political Leaders and the Use of Analogy in Foreign Policy Decision Making,» *Political Psychology*, vol. 27, no. 2 (April 2006), pp. 265-288.

(7) Winter, «Things I've Learned about Personality from Studying Political Leaders at a Distance,» p. 570.

(8) David Winter and Abigail Stewart, «Content Analysis as a Method of Studying Political Leaders,» in: Margaret Hermann, ed., *A Psychological Examination of Political Leaders* (New York: Free Press, 1977).

(مقدار سعي القائد إلى القوة مثلًا)، ولكنها تشمل سمات شخصية أيضًا (مدى انطوائية أو انبساطية القائد، مثلًا). وفي حين أن السمات ثابتة نسبيًا، فإن الدوافع قد تتغير مع الزمن، ما يُسبغ على قياس الشخصية مزيدًا من التعقيد. كما يضيف ونتر في تعريفه للشخصية عناصر لا تُدرج تقليديًا تحت هذا التعريف، حيث تشمل الشخصية في تعريفه الأفكار أو الاعتقادات (cognitions or beliefs) (كرأي القائد بموضوع الإجهاض، على سبيل المثال)، إضافة إلى «السياق الاجتماعي أو السياسي» الذي يعمل فيه القائد (أي «الموقف» المحيط بالقائد، وفق مصطلحاتنا).

وإلى جانب ونتر، تعتبر مارغريت هيرمان (Margaret Hermann) أكثر مَن عمل مِن الباحثين لدفع موضوع الشخصية إلى الواجهة في علم النفس السياسي. وعلى الرغم من أن لديها العديد من الدراسات مما يمكن أن نتناوله هنا، فإننا سنقتصر على مناقشة واحدة من أكثر دراساتها شهرة، ألا وهي الدراسة التي أجرتها عام 1980 على خمسة وأربعين قائدًا سياسيًا[9]. فقد لاحظت هيرمان، بناء على البحوث السابقة في هذا المجال، أن «القادة الأشداء (Aggressive Leaders) يمتلكون حاجة شديدة إلى القوة، وقدرة ضعيفة على التعامل مع المفاهيم المركبة، وأنهم يشكّون في الآخرين، ومتعصبون قوميًا، ويعتقدون في الغالب أن لديهم قدرًا من السيطرة على مجريات الأحداث المتصلة بهم». وبالمقابل، يشير هذا البحث إلى أن «القادة الاسترضائيين (conciliatory leaders) يمتلكون حاجة عالية إلى الانتماء، وقدرة عالية على التعامل مع المفاهيم المركبة، يثقون بالآخرين، غير متعصبين قوميًا، ولا يعتقدون في الغالب أنهم يمتلكون قدرًا كبيرًا من السيطرة على مجريات الأمور المتصلة بهم»[10]. وقد بنت هيرمان على هذه البحوث في ما بعد ما سمته «تحليل سمات القيادة» (Leadership trait analysis)، حيث نظرت إلى الشخصية كتجمع لسبع سمات أساسية، هي: الاعتقاد بامتلاك القدرة على التحكم في مجريات الأحداث، القدرة على التعامل مع المفاهيم

(9) Margaret Hermann, «Explaining Foreign Policy Behavior Using the Personal Characteristics of Political Leaders,» *International Studies Quarterly*, vol. 24, no. 1 (March 1980), pp. 7-46.

(10) المصدر نفسه، ص 8.

المركبة، الحاجة إلى القوة، الشك في الآخرين، التحيز للجماعة الخاصة، الثقة بالنفس، والتركيز على العمل. وقد استخدم أصحاب هذه المقاربة منهج تحليل المضمون عن بُعد (at a distance content analysis) لخطابات القادة السياسيين، على غرار المنهج الذي اعتمده دايفد ونتر[11].

كما قام ستيفن دايسون (Stephen Dyson) أخيرًا بتطبيق هذه المقاربة على شخصية طوني بلير، رئيس الوزراء البريطاني السابق[12]، واستقصى الدور الذي أدته شخصية بلير في توجيه القرارات البريطانية المتعلقة بالحرب على العراق، وذلك بناء على تحليل استجابات طوني بلير للاستجوابات البرلمانية بهذا الشأن. ولدى تطبيق دايسون الإطار الذي وضعته هيرمان، استنتج أن طوني بلير «لديه اعتقاد قوي بقدرته على التحكم في الحوداث، ودرجة متدانية من القدرة على التعامل مع التعقيد في المفاهيم (conceptual complexity)، وحاجة شديدة إلى القوة». ويؤكد دايسون أنه:

> بالنظر إلى القرارات التي اتُّخذت بشأن العراق، فإن الأدلة تدعم التقديرات المتعلقة بسلوك بلير وتفضيلاته الشخصية. فقد ظهر أن لدى بلير توجهًا سياسيًا ناشطًا/ فعالًا، واعتقادًا بالقدرة على السيطرة على مجريات الأحداث، وأسلوبًا ثنائي الاتجاه [يعرض وجهتي النظر المتعارضتين] في معالجة المعلومات، وتأطيرها [وضعها في إطار يناسب وجهة نظره] (framing)، وميل إلى صنع السياسات وفق عمليات محددة بدقة[13].

وقد وجدت مارغريت هيرمان وتوماس بريستون (Margaret Herman and Thomas Preston) لدى مراجعتهما لأدب الموضوع، أن هناك خمسة عوامل كوّنت دراسة أسلوب القيادة، وهي: «الانغماس في عملية صنع السياسات، الاستعداد لتحمل الصراع، دافعية الرئيس أو السبب الذي دفعه إلى القيادة،

---

(11) Margaret Hermann, «Assessing Leadership Style: Trait Analysis,» in: Jerrold Post, ed., *The Psychological Assessment of Political Leaders* (Ann Arbor, MI: University of Michigan Press, 2003).

(12) Stephen Dyson, «Personality and Foreign Policy: Tony Blair's Iraq Decisions,» *Foreign Policy Analysis*, vol. 2, no. 3 (2006), pp. 289-306.

(13) المصدر نفسه، ص 303.

الاستراتيجية المفضلة لديه لإدارة المعلومات، والاستراتيجيات المفضلة لحل الصراع»[14]. ثم قاموا بربط هذه العوامل بنوع النظام الاستشاري المفضل لرؤساء أميركيين مختلفين. وعمل بريستون لاحقًا على وضع هذه الأفكار في إطار أكثر اتساعًا لتصنيف أسلوب القيادة بناء على بُعدين: الحاجة إلى القوة، والانغماس في عملية صنع السياسات من جهة، والقدرة على التعامل مع التعقيد في المفاهيم أو الحساسية للسياق (أو الموقف المحيط)، من جهة أخرى. وبالنظر إلى البعد الأول، على سبيل المثال، نجد أن بعض القادة يمتلكون حاجة عالية إلى التحكم، ودرجة عالية من الاهتمام والخبرة في عملية صنع السياسات، على حد سواء. ويصطلح بريستون على تسمية هؤلاء بـ «الموجِّهين» (Directors). أما بعضهم الآخر فحاجتهم إلى التحكم ضعيفة، ودرجة اهتمامهم متدانية، ويسمى هؤلاء بـ «المفوَّضين» (delegators). كما أنه من الممكن جمع درجة عالية من القوة، مع قليل من الاهتمام، ويسمى بريستون هؤلاء بـ «الحكام» (magistrates)، أو حاجة منخفضة إلى القوة واهتمام عالٍ، ويسمي هؤلاء بـ «الإداريين»[15] (administrators).

ويصنف بريستون الرؤساء كذلك بناء على بُعدين؛ مستوى التعقيد المعرفي (cognitive complexity)، (كخاصية شخصية ثابتة نسبيًا) من جهة، والاهتمام بالسياسة الخارجية من جهة أخرى. ويقسم القادة هنا إلى «الملّاحين» (Navigators)، و«المراقبين» (Observers)، و«الحراس» (Sentinels)، و«المنشقين/ الخوارج» (Mavericks). «والملاحون» على سبيل المثال، لديهم درجة عالية من الاهتمام بالسياسة الخارجية مع حاجة عالية للمعلومات ودرجة عالية من التعقيد المعرفي. أما الحراس فلديهم درجة عالية من الاهتمام وحاجة منخفضة للمعلومات ودرجة منخفضة من التعقيد، وما إلى ذلك. ومن ثم، فإن وضع

---

(14) Margaret G. Hermann and Thomas Preston, «Presidents, Advisers, and Foreign Policy: The Effect of Leadership Style on Executive Arrangements,» *Political Psychology*, vol. 15, no. 1 (March 1994), p. 81.

(15) Thomas Preston, *The President and His Inner Circle: Leadership Style and the Advisory Process in Foreign Affairs*, Power, Conflct, and Democracy (New York: Columbia University Press, 2001), pp. 16-17.

هذين التصنيفين معًا يتيح لنا وضع الرؤساء (أو أي نوع من القادة) ضمن مخطط رئيس (Master Scheme) أكثر غنىً وتفصيلًا وموثوقية من ذلك الذي اقترحه جيمس دايفد باربر، مثلًا. وبناء على هذا التصنيف، يصنف بريستون بل كلينتون، على سبيل المثال، كـ «مفوَّض – مراقِب» (delegator-observer)؛ بعبارة أخرى هو مفوَّض وفقًا للبعد الأول – بمعنى أنه اعتمد على المرؤوسين والخبراء إلى حد كبير – وبأنه مراقب وفقًا للبعد الثاني (فمع أن تعقيده المعرفي كان عاليًا، فإن اهتمامه بالسياسة الخارجية كان محدودًا). وبالمقابل، فإن جورج بوش يمكن أن يصنف على أنه «مفوِّض – منشق» (delegator-maverick) فهو يشابه كلينتون في موقعه على البعد الأول، إلا أن حاجته إلى المعلومات، وتعقيده المعرفي كانا منخفضين[16].

تحليل نظم الاعتقاد

يواجه بعض الطلبة مبدئيًا صعوبة في تصور الفرق بين الشخصية (personality) والاعتقادات (beliefs) على المستوى النظري. ويتناول بعض الباحثين الاعتقادات في حقيقة الأمر كمظهر من مظاهر الشخصية (ولعل ونتر أبرز مثال على ذلك). غير أننا في هذا الفصل سنعمد إلى تناولهما كل على حدة بغرض الإيضاح. ولعل واحدة من أفضل الطرائق للتمييز بين الشخصية والاعتقادات على أوضح صورة تكون بالمقارنة بين اثنين من الأفراد يحملان نظم اعتقاد متشابهة، ولكنهما يختلفان في الشخصية، أو أثنين متشابهين في السمات الشخصية، ولكنهما مختلفان في الاعتقادات. وكمثال على الصنف الأول دعنا نأخذ غوردون براون وطوني بلير رئيسا وزراء بريطانيا السابقان.

لقد كان كلاهما عضوًا قياديًا في ما أصبح يُعرف بحركة «العمال الجدد» ضمن حزب العمال البريطاني. فبعد أن مُني الحزب بخسائر متلاحقة في الانتخابات البريطانية، أصبح «العمال الجدد» يشعرون بأن عليهم التحرك

---

(16) *The President and His Inner Circle: Leadership Style and the Advisory Process in Foreign Affairs*, pp. 22-23.

نحو الوسط أو حتى نحو اليمين إزاء العديد من القضايا السياسية. وكان كل من براون وبلير من المعتدلين سياسيًا داخل الحزب، ومن المنادين بتبني هذه الاستراتيجية بقوة. وأصبح طوني بلير زعيمًا لحزب العمال عام 1994، واستمر بسياسة الاتجاه نحو الوسط التي بدأها زعيم الحزب السابق له، وفي عام 1997 حقق حزب العمال الفوز في الانتخابات العامة بعد ثمانية عشر عامًا من الوقوف في المعارضة. وفاز «العمال الجدد» بجولتين انتخابيتين، بزعامة طوني بلير، حتى تنحيه عام 2007، وتبوّء براون زعامة حزب العمال ورئاسة الوزارة البريطانية معًا.

ولعل ما يثير الاهتمام في هذا المثال، بوجه خاص، هو أن براون وبلير كانا متشابهين إلى حد كبير في نظام الاعتقاد الأيديولوجي، إلا أنه ظهر لكل منهما شخصية مختلفة عن شخصية الآخر اختلافًا صارخًا. ومع أننا لا نمتلك في الوقت الذي نعد فيه هذا الكتاب مقارنة منظمة بين شخصية براون، وشخصية بوش على أبعاد مختلفة، إلا أن هناك إجماعًا على بعض الفروق بينهما. فبينما كان بلير منفتحًا اجتماعيًا وسياسيًا على غرار صديقه بل كلينتون، بدا براون أكثر هدوءًا وتحفظًا. وفي حين ظهر براون بصورة الحذِر، كان بلير أكثر ميلًا إلى المخاطرة السياسية، وأوضح مثال على ذلك ذهابه ضد حزبه، وضد غالبية كبيرة من الرأي العام البريطاني، لدعم قرار جورج بوش غزو العراق. وبينما بدت علاقة بلير ببوش علاقة شخصية طيبة، كان براون واضحًا منذ البداية في أنه لا يرغب في مثل هذه العلاقة مع الرئيس الأميركي.

إن الغموض وعدم الدقة اللذين يكتنفان مفهوم الشخصية - والصعوبات التي تواجهنا في تتبع العمليات التي تؤدي بصفات شخصية معينة إلى إنتاج قرارات معينة - قاد إلى شيء من عدم الرضا عن هذا المفهوم. وقد أسفر ذلك عن تحول عدد متزايد من علماء النفس السياسي من دراسة العوامل الشخصية إلى النظر في اعتقادات الناس، أو أفكارهم، لما يبدو لها من علاقة مباشرة بقرارات القائد. وعلى الرغم من أننا رأينا في الباب الخاص بالموقفية من هذا الكتاب أن هناك استثناءات رئيسية في ذلك، يبدو واضحًا أن سلوكنا في العديد من المواقف يكوّن وفقًا لاعتقاداتنا. ويكون هذا هو واقع الحال، بوجه خاص،

عندما يعمل قائد محلي ذو شعبية واسعة، في ظروف لا تنطوي على كثير من القيود الموقفية.

ويبدو كذلك أن مفهوم نسق الاعتقاد (belief system) مفهوم سيكولوجي بسيط، ويسهل التعامل معه؛ لأنه مصطلح شائع الاستعمال في اللغة (الإنجليزية) المتداولة. وتعتبر الاعتقادات واحدة من أكثر الأبنية الذهنية (mental constructs) التي نستخدمها أساسية ومركزية، ومع ذلك ليس هناك اتفاق كبير على ماهيتها، أو كيف يمكن أن نعرِّفها، أو كيف يجب أن نقيسها. ويفضل بعض المحللين تسميات بديلة أخرى، مثل الاتجاهات (attitudes)، أو الآراء أو الأيديولوجيات. غير أننا سنعتمد هنا التعريف الذي استخدمه ياكوف فيرتزبيرغر (Yaacov Vertzberger) في كتابه **العالم في أذهانهم** (*The World in Their Minds*). ووفقًا لفيرتزبيرغر، فإن منظومة اعتقادات الفرد تمثل جميع الفرضيات، والنظريات التي يكون الفرد مقتنعًا بصدقها في لحظة معينة[17]. كما أننا نستطيع أن نميز بين الاعتقادات المعيارية (normative beliefs) (الاعتقاد حول ما يجب أن يكون) والاعتقادات القائمة (positive beliefs) (اعتقادات حول ما هو كائن)؛ وبين الاعتقادات المركزية والاعتقادات الهامشية (central and peripheral beliefs) (الاعتقادات الراسخة والاعتقادات الأقل مركزية)؛ وبين الاعتقادات المنفتحة والاعتقادات المنغلقة (Open and Closed Beliefs) (نظم الاعتقاد القابلة أو غير القابلة للتغيير). ونستطيع أن نميز كذلك، كما سنناقش بعد قليل، بين ما يسميه ألكسندر جورج (Alexander George) الاعتقادات الفلسفية والاعتقادات الذرائعية (philosophical and Instrumental beliefs).

وتعمل الاعتقادات في ميدان السياسة، كما في غيرها من ميادين الحياة، على تحديد ماهية ما نرى؛ فهي تساعدنا في تعريف طبيعة الموقف الذي نواجهه (أي إنها تساعدنا على التشخيص (diagnosis)، وتحديد نوع البَدُلاء أو الحلول التي نجدها مناسبة، أي الاستشراف، (Prognosis). ويمكن اعتبار الاعتقادات،

---

(17) Yaacov Y. I. Vertzberger, *The World In Their Minds: Information Processing, Cognition and Perception in Foreign Policy Decisionmaking* (Stanford, CA: Stanford University Press, 1990), p. 114.

من منظور علم النفس المعرفي، نوعًا من الطرائق الذهنية المختصرة (mental short cut)؛ يطورها الفرد ليُسبغ من خلالها معنى على العالم المحيط. كما تعمل الاعتقادات على فرز الإشارات والمعلومات التي يمكن أن تربكنا حين تجتاح حواسنا دون ذلك. وسنتناول في ما تبقى من هذا الفصل اثنتين من المحاولات الكلاسيكية التي درست دور الاعتقادات في العلاقات الدولية دراسة رصينة، وهما: دراسة أول هولستي (Ole Holsti) حول نظم الاعتقاد والصور القومية، المنشورة عام 1962، ومقاربة عقيدة صانع القرار (operational code) التي ارتبطت بألكسندر جورج، ستيفن والكر، مارك شيفر، سكوت كريشلو وستيفن دايسون، وغيرهم (Alexander George, Stephen Walker, Mark Schafer, Scott Crichlow, Stephen Dyson, and Others).

أول هولستي: نظم الاعتقاد، والصور القومية

يمثل تحليل أول هولستي لاعتقادات جون فوستر دالاس (وزير الخارجية الأميركي الأسبق) واحدًا من أولى الدراسات في نظم الاعتقاد الخاصة بصنّاع قرارات السياسة الخارجية وأكثرها شهرة[18]. وقد كان دالاس وزيرًا للخارجية في عهد الرئيس أيزنهاور معظم فترة الخمسينيات، واشتهر في تبنيه مقاربة متشددة، لا هوادة فيها، تجاه الاتحاد السوفياتي. وكان كثيرًا ما يركز على مظاهر الشمولية والإلحاد في الشيوعية، وكثيرًا ما يصفها بأنها من دون إله (Godless). ووفقًا لوجهة نظر هولستي، كان نسق الاعتقاد الخاص بدالاس ثابتًا أو مغلقًا، بمعنى أن اعتقاداته كانت متشددة، وعصية على التغيير. قام هولستي بتحليل خطابات دالاس المتعلقة بالاتحاد السوفياتي في خلال الخمسينيات، ووجد أن نسق اعتقاد دالاس المغلق أثّر تأثيرًا شديدًا في إدراكه لنيات السوفيات. فعندما أظهر السوفيات إبان الحرب الباردة، دليلًا على رغبتهم في تحسين العلاقات، فسّر دالاس ذلك إشارةً إلى الضعف، لا إلى ميلٍ صادق نحو السلم.

---

(18) تمّ نشر هذه المقالة بداية في مجلة حل النزاعات عام 1962، وأعاد أول هولستي طباعتها عام 1969. انظر: «The Belief System and National Images: A Case Study,» in: James Rosenau, ed., *International Poltics and Foreign Policy: a Reader in Resarch and Theory*, 2nd ed. (New York: Free Press, 1969).

وبناء على تحليل هولستي نستطيع اعتبار دالاس مثالًا لما يدعوه «نموذج الظن السيىء المتأصل» (The inherent bad faith model). وكمثال آخر على سوء الظن، عندما قرر السوفيات تخفيض قواتهم بتعداد 1،2 مليون رجل، رأى دالاس في ذلك إشارة إلى تراجع قوتهم، لا إلى رغبة حقيقية في التغيير. وتستند هذه المقاربة إلى نظرية الاتساق المعرفي (Cognitive Consistency Theory)، على رغم من أن هولستي لم يذكر ذلك صراحة. حيث تفترض هذه النظرية - التي تسمى أحيانًا نظرية التنافر المعرفي (Theory of Cognitive Dissonance) - أننا عندما نتلقى معلومات تتعارض مع واحد من اعتقاداتنا، فإن ذلك يعرّضنا لحالة من الضيق النفسي، وأن هذه الحالة تستثير لدينا دافعًا لاستعادة الانسجام أو الاتساق بين اعتقادنا السابق وما علمنا لاحقًا. ويعني هذا في حالة دالاس أنه سيعمل على استبعاد الدليل على رغبة السوفيات في التسوية أو الحلول الوسط من خلال تبرير هذا الدليل على نحو يتناسب مع اعتقاده المبدأي. فالاعتقاد بأن الشيوعيين لا يُؤمَن جانبهم، أصبح يثير مشكلة لدالاس، عندما تلقى إشارات إلى «حسن نية» لديهم. ولكي يستعيد وزير الخارجية التوازن كان عليه التأكيد أن أي تبدّل في موقف السوفيات يدل على تأكّل نظامهم من الداخل.

غير أن تحليل هولستي هذا يواجه عددًا من المشكلات؛ واحدة منها منهجية. فعندما وضع هولستي تحليله كان دالاس قد توفي، ولم يُتح له بذلك وسيلة اتصال مباشر بوزير الخارجية، وربما ما كان سيُسمح له بمقابلته حتى لو حاول ذلك. ومن هنا اضطر هولستي إلى تحليل خطابات وزير الخارجية لقياس مضامين اعتقاداته. فهل تمثّل هذه الخطابات مقياسًا جيدًا لاعتقادات القائد الحقيقية؟ نحن نعلم أن بعض الخطابات يستهدف أصلًا إرسال إشارات معينة إلى الخصم، بينما تستهدف إشارات أخرى الجمهورَ المحلي من حيث الأساس. على سبيل المثال، هدد فلاديمير بوتين (Vladimir Putin) في خطاب له عام 2007 بتوجيه صواريخ نووية نحو أوروبا الغربية لو أن الولايات المتحدة مضت في خططها بشأن الدفاع الصاروخي القومي. فهل كان ذلك تهديدًا حقيقيًا نابعًا من إحساس واقعي بعدم الأمن؟ أم كان مجرد قعقعة سيوف استهدفت

إرضاء جمهور محلي لا زال يرى روسيا قوة كبرى تستوجب الاحترام؟ أما الاعتراض الآخر على تحليل هولستي فهو اعتراض نظري في معظمه؛ فهل الاعتقادات هي التي تكوّن السلوك من حيث الأساس، أم العكس هو الصحيح؟ يعتقد داريل بيم (Daryl Bem) واضع نظرية إدراك الذات (Self-Perception Theory)، أننا نتصرف أحيانًا من دون أن نعرف السبب وراء ما نفعل، حين لا يكون لدينا اعتقادات محددة إزاء ما نفعل. وعندما يحدث ذلك، فإننا كثيرًا ما نبني اعتقادات بعد قيامنا بالفعل لكي نبرر ما فعلنا. وإذا كان بيم على صواب، فإن الاعتقادات ربما لا تكوّن سلوكنا بالقدر الذي نظنه.

والواقع أن الاعتراضين، الأول والثاني، لا يفسران حالة دالاس بالذات؛ فهناك اتفاق واسع على أن خطابات دالاس الحادة تعكس وجهات نظره الحقيقية، وهو تاليًا لم يُطوِّر هذه الاعتقادات بعد الوقائع بكل تأكيد (كما تتوقع نظرية إدراك الذات). والأهم في هذا وذاك هو أن هناك اعتراضات إمبيريقية تواجه تحليل هولستي في الوقت الحاضر. ففي وقت وضع فيه هولستي تحليله، كان هناك افتراض شائع أن دوايت أيزنهاور رئيسًا «لا يفعل شيئًا» يُمضي معظم وقته في حقل الغولف، وأنه فوَّض شؤون السياسة الداخلية إلى كبير موظفي البيت الأبيض شيرمان آدمز (Sherman Adams)، وشؤون السياسة الخارجية إلى دالاس. غير أن المراجعة البحثية دحضت حاليًا تلك الصورة غير المشرقة لرئاسة أيزنهاور. والفضل في ذلك يعود إلى كتاب فريد غرينشتاين الرائد «رئاسة الأيدي الخفية» (The Hidden-Hand Presidency)؛ فنحن نعرف الآن، على سبيل المثال، أن أيزنهاور وليس دالاس هو المهندس الحقيقي للسياسات الخارجية للإدارة الأميركية. ويزعم غرينشتاين، بناء على أدلة مقنِعة، أن أيزنهاور تعمد الظهور وكأنه لا يقوم بدور سياسي، لأنه رغب في المحافظة على شعبيته التي انبثقت من الجانب الرمزي من الرئاسة، إذ كان أيزنهاور يعرف أن شعبيته الواسعة أتت من مكانته كرمز أبوي، وكان يعرف أنه إذا ما تلوّثت يداه بالجانب السياسي من الرئاسة فإن ذلك سيقود إلى تأكّل شعبيته لا محالة، فتعمد الظهور بمظهر الرئيس غير المنغمس في صنع السياسة، تاركًا دالاس وآدمز يتحملان وزر القرارات

التي لا تحظى بالشعبية، وكان يقوم بتسيير شؤون الرئسة بهدوء من وراء الستار، مستخدمًا بذلك ما يسميه غرينشتاين تكنيكات «الأيدي الخفية»[19].

وعلى أي حال، فإن هناك تناظرًا بين تحليل هولستي لعلاقة دالز بالاتحاد السوفياتي وما ورد من ملاحظاتٍ على علاقة جورج بوش الأب بالاتحاد السوفياتي في الفترة التي شارفت فيها الحرب الباردة على الانتهاء. أما رونالد ريغان، فقد أقام علاقة شخصية دافئة بمخائيل غورباتشوف، مخالفًا بذلك كل التوقعات، حين كانت الحرب الباردة تضع أوزارها. لكن كثيرًا من أعضاء إدارة بوش اللاحقة كانوا يشكّون في نيات السوفيات، وظلوا متمسكين بنموذج «النوايا السيئة المتأصلة» على غرار ما فعل دالاس، وكان ديك شيني يشك في نيات غورباتشوف بوجه خاص، كما كان الرئيس بوش ذاته.

تحليل عقيدة صانع القرار

تعتبر المقاربة المسماة «تحليل عقيدة صانع القرار» من المقاربات البارزة التي استخدمها علم النفس السياسي لدراسة الاعتقادات السياسية[20]. وقد وضع ناثان ليتس (Nathan Leites) أسس هذه المقاربة في أوائل الخمسينيات حين استقصى الاعتقادات السياسية للينين، وتروتسكي، وستالين. وأعاد ألكسندر جورج صياغة أفكار ليتس عن الاعتقادات السياسية، ووضَعها في صنفين رئيسيين: الاعتقادات الفلسفية والاعتقادات الأدواتية (instrumental beliefs). ويؤكد جورج أن عقيدة القائد تمثل «منظومة من الاعتقادات العامة في قضايا تاريخية أساسية من حيث إن هذه المسائل تنعكس بدورها على ميدان الفعل»[21].

---

(19) Fred I. Greenstein, *The Hidden-Hand Presidency: Eisenhower as Leader* (New York: Basic Books, 1982).

(20) للاطلاع على كتاب ممتاز حول هذا الموضوع يعرض أعمال الباحثين الذين يستخدمون هذا التكنيك، انظر: Mark Schafer and Stephen G. Walker, eds., *Beliefs and Leadership in World Politics: Methods and Applications of Operational Code Analysis* (New York: Palgrave Mcmillan, 2006).

(21) Alexander L. George, «The «Operational Code»: A Neglected Approach to the Study of Political Leaders and Decision Making,» *International Studies Quarterly*, vol. 13, no. 2 (1969), pp. 191. =

1- الاعتقادات الفلسفية

- ما الطبيعة الأساس للحياة السياسية؟ هل العالم السياسي في أساسه قائم على الانسجام أم على الصراع؟

- ما الفرص المتاحة لتحقيق القيم والطموحات السياسية على أرض الواقع؟ هل يستطيع المرء أن يكون متفائلًا، أم يجب عليه التشاؤم في هذا الشأن؟

- هل يمكن التنبؤ بالمستقبل السياسي؟

- ما مقدار التحكم أو السيطرة الممكنة للفرد على التطورات التاريخية؟ ما دور الفرد في تأليف التاريخ وتوجيهه في الاتجاه المرغوب فيه؟

- ما دور «الصدفة» في الشؤون الإنسانية؟

2- الاعتقادات الأدواتية

- ما أفضل الطرائق لوضع أهداف لفعل سياسي ما؟

- كيف يمكن متابعة الأهداف بأقصى درجة من الفعالية؟

- كيف يمكن حساب مخاطر الفعل السياسي، والتحكم في هذه المخاطر، وتقبلها؟

- ما أفضل توقيت للقيام بالفعل الذي يضمن دفع مصالح الفرد إلى الأمام؟

- ما فوائد الوسائل المختلفة المتاحة، وما دور كل منها في دفع مصالح الفرد إلى الأمام؟

وتتصل المجموعة الأولى من الاعتقادات بالفلسفة العامة للفرد حول طبيعة الحياة السياسية، بينما تتصل المجموعة الثانية بمسائل «عملية» كاختيار الطريقة المناسبة لتحقيق الأهداف السياسية. وبنظرة موجزة إلى هذه الأسئلة نلاحظ أن الاعتقادات الفلسفية للقائد تحيي أفكار المفكرين السياسيين

= على سبيل المثال، انظر أيضًا: Alexander George, «The Causal Nexus between Cognitive Beliefs and Decision Making Behavior: The «Operational Code» Belief System,» in: Lawrence Falkowski, ed., *Psychological Models in International Politics*, Westview Special Studies in International Relations (Boulder, CO: Westview Press, 1979).

الكلاسيكيين من أمثال توماس هوبز وجون لوك. وقد كانت نظرة هوبز إلى الطبيعة البشرية نظرة متشائمة إلى حد استثنائي، بينما كان لوك أكثر تفاؤلًا. وفي حين رأى لوك العالم مكانًا ينعم بالانسجام، خرج هوبز برأيه الشهير القائل، لو أن الإنسان انعتق من القيود التي تفرضها عليه الدولة لحفظ النظام، لكانت الحياة «منعزلة، فقيرة، مقزِّزة، بهيمية، وقصيرة». ومقابل هذه الأسئلة الأساسية عن «طبيعة عالم السياسة»، هناك أسئلة تتعلق بـ «كيف يمكننا تحقيق أهدافنا»، وهي الأسئلة التي تتصل باعتقاداتنا الذرائعية.

يرى سكوت كريشلو (Scott Crichlow) أن هذه المقاربة هي في الأساس مقاربة نزوعية من حيث إنها تركز على الفروق في ردود فعل القادة نحو البيئة السياسية الواحدة. فإذا كان الموقف هو كل شيء (أي هو الذي يحدد السلوك)، فإننا لا نكون مضطرين إلى إزعاج أنفسنا بدراسة اعتقادات القائد، لأن هذه الاعتقادات لا تضيف كثيرًا إلى تفسير السلوك السياسي (فهي مجرد ظاهرة مصاحبة/ ثانوية (epiphenomenal)، باستخدام التعبير العلمي الاجتماعي). ولكن كريشلو يشير إلى أن «تحليل عقيدة صانع القرار يعطينا وسيلة لفحص نزعات القائد الأساسية نحو الفعل السياسي»، ومن ثم، فهم مصادر الاختلاف في سلوك القادة عندما يواجهون مواقف متشابهة[22]. ويؤكد جورج أن الموقف أو البيئة قد «تغل يد القائد» أحيانًا، إلا أن الاعتقادات الأساسية، بوجه عام، هي التي تكوّن السلوك في العديد من الأحوال[23].

دعنا نأخذ ليندون جونسون وكيف تعامل مع قضية فيتنام كمثال على بعض الاعتقادات الفلسفية والذرائعية. فإذا تناولنا عددًا من الأسئلة الواردة أعلاه يمكننا أن نقول بثقة:

---

(22) Scott Crichlow, «Idealism or Pragmatism?: An Operational Code Analysis of Yitzhak Rabin and Shimon Peres,» *Political Psychology*, vol. 19, no. 4 (December 1998), p. 684.

(23) George,«The Causal Nexus Between Cognitive Beliefs and Decision Making Behamior,» p.104.

حول هذا الموضوع، انظر أيضًا: Stephen G. Walker, «The Evolution of Operational Code Analysis,» *Political Psychology*, vol. 11, no. 2 (June 1990), pp. 408-409.

- إن جونسون لم يمتلك كثيرًا من الخبرة، لذا فإنه اعتمد على اعتقادات بسيطة، وإن كانت أساسية، في تعامله مع قضية فيتنام.

- إن جونسون رأى الطبيعة الأساس للحياة السياسية كحلبة صراع؛ فهي حرب بين الخير والشر (كما رآها هوبز).

- إن جونسون اعتقد بقدرته على التحكم في ما كان يجري في فيتنام من أحداث.

- إنه اتخذ «طريقًا وسطًا» على الصعيدين، المحلي والدولي، كافيًا لتهدئة الصقور في الداخل ولكن ليس بالقدر الذي يدفع الصين إلى التدخل في الحرب.

- إن استراتيجيته في استخدام القصف التدريجي للقنابل أتاحت له ضبط المخاطر (والتحكم فيها إلى حد ما).

- إنه اعتقد، من الناحية الذرائعية، بإمكان التفاوض، المدعوم بالتهديد (ومع أن هذا التكنيك خدمه في مواجهة مجلس الشيوخ الأميركي، إلا أنه، لسوء الحظ، لم يكن ليعطي ثمارًا مع خصمه الشيوعي هو شي منه)[24].

وبعد أن أرسى ألكسندر جورج القواعد الأساسية لتحليل عقيدة صانع القرار لم يقم هو ذاته بكثير من التحليل، ولكنه ترك لأتباعه تطبيق النظرية إمبيريقيًا. وقد كان أوفر هؤلاء إنتاجًا هو ستيفن والكر (Stephen Walker)، إذ يفوق ما أجراه والكر من هذه التحليلات في خلال عمله الأكاديمي ما أجراه غيره من الباحثين إلى حد كبير. ولعل أكثر مقالاته شهرة تلك التي أجرى فيها تحليلًا لعقيدة هنري كيسينجر، مستشار الأمن القومي، ووزير الخارجية الأميركي الأسبق. ولدى فحص والكر لأعمال كيسينجر بوصفه عالم سياسة، قبل أن ينضم إلى إدارة نيكسون عام 1969، بيّن والكر أن هناك ارتباطًا وثيقًا بين كتابات كيسينجر بوصفه أكاديميًا وممارساته العملية، ما عدا قضية واحدة ذات أهمية

---

(24) Vertzberger, *The World In Their Minds: Information Processing, Cognition and Perception in Foreign Policy Decisionmaking*, pp.114-115, and Stephen G. Walker and Mark Schafer, «The Political Universe of Lyndon B. Johnson and His Advisors: Diagnostic and Strategic Propensities in their Operational Codes,» *Political Psychology*, vol. 21, no. 3 (September 2000), pp. 529-543.

(وهي صناعة السياسات المتعلقة بفيتنام بين 1969 و1973). ويستنتج والكر:

> لقد هيمن كيسينجر على مجريات السياسة الأميركية الخارجية التي أنهت تورط الولايات المتحدة في حرب فيتنام على الرغم من ضرورات السياسات البيروقراطية ودبلوماسية التحالف، وعلى الرغم من تدخل الرئيس نيكسون شخصيًا في الأوقات الحرجة. وتصرف كيسينجر وفق المبادئ الذرائعية لعقيدته السياسية[25].

ومنذ عام 1970 جرى نشر عدد هائل من تحليلات العقائد السياسية للقادة، وتبنى الجيل الجديد من الباحثين تكنيكات حسابية دقيقة طُوّرت لتقدير الإجابات المحتملة لفرد ما عن الأسئلة التي يطرحها مقياس العقيدة السياسية للقائد. إضافة إلى ذلك، أخذت البحوث الحديثة هذا التحليل في اتجاهات جديدة، مثيرة للاهتمام. فاستخدم سكوت كريشلو هذه المقاربة، على سبيل المثال، لدراسة التغير في اعتقادات القادة عبر الزمن[26]. وقد أظهر تحليله للعقيدة السياسية لإسحق رابين وشمعون بيريز كيف أن الاعتقادات الفلسفية لكلا القائدين أصبحت أقل صراعية في الفترة الواقعة بين السبعينيات والتسعينيات، إذ كان الرجلان يحملان وجهات نظر متشابهة حول البيئة السياسية المحيطة بهما في السبعينيات، وقد تغيرت وجهات النظر هذه في الاتجاه ذاته مع مرور الوقت. فوجد كريشلو:

> أن كلا الرجلين شخّص عالمه السياسي في التسعينيات على نحو مختلف عما كان عليه في السبعينيات. ففي العقد المبكر من هذه الفترة رأى كل منهما البيئة السياسية من حوله بيئة صراع لا تتيح لهما فرصة كبيرة لتحقيق أهدافهما السياسية الأساسية. أما في فترة التسعينيات، فبدا لهما عالم السياسة عالمًا يصعب التنبؤ به، تتعادل فيه قوى التعاون وقوى الصراع على كفتي ميزان[27].

---

(25) Stephen G. Walker, «The Interface between Beliefs and Behavior: Henry Kissinger's Operational Code and the Vietnam War,» *Journal of Conflict Resolution*, vol. 21, no. 1 (March 1977), p. 147.

(26) Crichlow, «Idealism or Pragmatism?: An Operational Code Analysis of Yitzhak Rabin and Shimon Peres».

(27) المصدر نفسه، ص 695.

ومن ناحية أخرى، أظهر التحليل أن رابين كان في كلتا الفترتين «ينزع بوضوح إلى مسار تعاوني»[28]. هذا، ويضيف كريشلو إلى مفهوم جورج الأصلي، بشأن العقيدة السياسية، تصنيفًا للعقائد النمطية يراوح بين صنف المثاليين المغالين إلى البراغماتيين إلى الواقعيين، مع عدد من الأصناف في ما بينها[29].

وقد حلل مارك شيفر وستيفن والكر العقيدة السياسية لطوني بلير وبل كلينتون في دراسة مقارنة للتحقق مما إذا كانت الاعتقادات بشأن السلام الديمقراطي - الأطروحة الشهيرة القائلة إن الديمقراطيات لا تتحارب فيما بينها، ولكنها تكون على استعداد لمحاربة غير الديمقراطيات - تختلف بين القادة السياسيين للدول الديمقراطية. وتُطرح هذه النظرية في الغالب على مستوى ثقافي بحت، وتقترح أن جميع السياسيين داخل الديمقراطية يذوتون (أو يتبنون) مفهوم السلام الديمقراطي، ولذا فإننا يمكن أن نتوقع فروقًا ضئيلة بين الأفراد داخل الدولة الديمقراطية، إذا كانت ثمة فروق في ما بينهم[30]. ولكن هل هذا هو واقع الحال؟ لقد وجد شيفر ووالكر أن هناك فروقًا في بعض الحالات. فعلى سبيل المثال، اكتشف هذان الباحثان أنه بالرغم من أن بل كلينتون وطوني بلير يحملان وجهات نظر إيجابية جدًا إزاء الديمقراطية، وسلبية إزاء اللاديمقراطية، فإنهما يتباينان في اعتقاداتهما بشأن إمكان التحكم باللاديمقراطيات؛ حيث دلّت درجة كلينتون في هذا الشأن على تقديرٍ عالٍ لإمكان التحكم، بينما لم تدل الدرجة المناظرة لبلير على تقدير عالٍ لهذا الإمكان[31]. وعلى الجانب الذرائعي من العقيدة السياسية، ظهر أن تكتيك كلينتون إزاء اللاديمقراطيات أكثر تعاونية من بلير. أما بلير فظهر أنه يحمل اعتقادًا أقوى من كلينتون بقدرته على التحكم في الأحداث التاريخية، وأما

(28) «Idealism or Pragmatism?: An Operational Code Analysis of Yitzhak Rabin and Shimon Peres», p. 698.

(29) المصدر نفسه، ص 701.

(30) Mark Schafer and Stephen Walker, «Democratic Leaders and the Democratic Peace: The Operational Codes of Tony Blair and Bill Clinton,» *International Studies Quarterly*, vol. 50, no. 3 (September 2006), pp. 561-583.

(31) المصدر نفسه، ص 573.

في التعامل مع الأنظمة غير الديمقراطية؛ فقد وجد شيفر ووالكر، «أن بلير أقل تعاونية من كلينتون، من الناحيتين الاستراتيجية والتكتكية، وأنه أكثر ميلًا للجوء إلى التهديد في هذا المجال»[32].

كذلك فقد استخدم ستيفن دايسون (Stephen Dyson) هذه المقاربة استخدامًا مفيدًا كوسيلة تنبؤية[33]. ويؤكد دايسون أن تحليل العقيدة السياسية يفيد بوجه خاص في فهم اللاعبين الجدد، ممن لا نعرف عنهم إلا القليل، كما في حالة «مدير تنفيذي» أو أي شخصية تظهر حديثًا في دائرة الضوء، من دون - أن يكون لها سجل معروف في صناعة القرار، أو الأداء في الميدان العام - وهو ما يمثّل الأساس للصورة العامة للفرد في الغالب»[34]. ويوضح دايسون إمكان استخدام هذا التحليل وسيلة تنبؤية في تحليله للرئيس السوفياتي فلاديمير بوتين، فيقول:

> يوحي تحليل عقيدة بوتين السياسية أنه، كالحرباء، يقلّد بيئته، وعلينا ألا نتوقع منه الالتزام بالمعايير حين لا يلتزم بها من يتعامل معهم، كما علينا ألا نتوقع منه التمسك بالقواعد مع من ينحرف عن هذه القواعد. (...) وبوجه عام، يمكن لصانع السياسة الثقة بأن المبادرات المُحكمة ستأخذ لديه نصيبها من الرعاية، وأن بوتين لا يتخذ في الغالب خطوات متسرعة، أو مندفعة، أو عاطفية (...) غير أن صانع السياسة عليه أن يحذر ميل بوتين إلى مبادلة الحسنى بالحسنى والسيئة بمثلها، وأن يحذر أي انقطاع في أواصر التعاون مع بوتين، لأن نتائجه ستكون مُرّة وتستمر طويلًا[35].

وعلى الرغم من أن علماء السياسة لا يتقنون التنبؤ بالقدر الذي يأملون، فإن ملاحظات دايسون - التي نُشرت في الأصل عام 2001 - تعكس شيئًا من

---

(32) *International Studies Quarterly*, vol. 50, no. 3 (September 2006), p. 575.

(33) Stephen Dyson, «Drawing Policy Implications from the «Operational Code» of a «New» Political Actor: Russian President Vladimir Putin,» *Policy Sciences*, vol. 34, nos. 3-4 (December 2001), pp. 329-346.

(34) المصدر نفسه، ص 329.

(35) المصدر نفسه، ص 344.

نفاد البصيرة في ضوء التدهور في العلاقات الأميركية الروسية المرتبط بقضايا الدفاع الصاروخي، وتوسع حلف الناتو، على سبيل المثال.

لكن واحدة من نقاط الضعف في مقاربة العقيدة السياسية، هي أنها تعتمد في كثير من الأحيان على الخطابات، وغيرها من الرسائل العامة التي تصدر عن القائد. ومع أنه جرى اعتماد المذكرات، وغيرها من المصادر لتقصي العقيدة السياسية (كما في الدراسة المتعلقة بكيسينجر والمشار إليها سابقًا)، إلا أن هناك بعض المشكلات التي تواجه الباحث عند الاعتماد على الأحاديث الشفوية كمصدر للبيانات، من حيث إنها لا تعكس اعتقادات مُرسلها، وإنما قد تكون موضوعة لجمهور محلي أو دولي، أو كليهما، كما سبق أن أشرنا. ففي عام 2007 مثلًا ألقى الرئيس الإيراني أحمدي نجاد سلسلة من الخطب النارية، بما فيها خطاب هدّد فيه إسرائيل بشكل مباشر. فهل كانت هذه الخطابات موجّهة إلى الولايات المتحدة، أم هي خرجت للاستهلاك الغربي، أم استهدفت كسب الدعم المحلي في ضوء التراجع الذي أصاب شعبيته في الداخل الإيراني؟ إضافة إلى أن الخطابات لا تُكتب بأقلام القادة في غالب الأحيان. على أننا يجب أن ننوّه، وكما يشير كريشلو، إلى أن الخطاب وعلى الرغم من أنه قد يكون مفصّلًا لجمهور أو لآخر، فإنه نادرًا ما يختلف اختلافًا بيّنًا عن اقتناعات القائد السياسية في الحقيقة، وبالقدر ذاته، فإن كاتب الخطاب نادرًا ما يضع مادة تتناقض واعتقادات القائد[36]. كما أن مخاطر الخطابات المعدّة مسبقًا قد تتقلص عند الاعتماد على ملاحظات القائد التي تِرد خارج نطاق الإعداد. فقد اكتشف مارك شيفر وسكوت كريشلو، على سبيل المثال، فرقًا كبيرًا بين مضامين ملاحظات كلينتون المعدّة مسبقًا وملاحظاته غير المعدّة، وأشار إلى أن الثانية منهما تمثّل أساسًا أمتن لتحليل عقيدته السياسية[37].

---

(36) Crichlow, «Idealism or Pragmatism?: An Operational Code Analysis of Yitzhak Rabin and Shimon Peres,» pp. 689-690.

(37) Mark Shafer and Scott Critchlow, «Bill Clinton's Operational Code: Assessing Source Material Bias,» *Political Psychology*, vol. 21, no. 3 (September 2000), pp. 559-571.

هناك نقطة ضعف أخرى تكتنف تحليل العقيدة السياسية نجمت عن نشوءه قبل ما يُعرف بـ «الثورة المعرفية» في علم النفس - وهو موضوع سنناقشه في الفصل القادم - وعليه فإن هذا التكنيك قام على نظريات فقدت شعبيتها إلى حد ما (من مثل نظرية الاتساق المعرفي)[38]. ومن هنا، فإن تحليل عقيدة لا يُعرّفنا كثيرًا بالمصادر المعرفية للاعتقادات، على سبيل المثال. ومرة أخرى، نعاود القول إن هذه ربما لا تكون نقيصة جوهرية في هذا المنحنى من حيث إن الباحثين الحاليين فيه، ممن تدربوا في خلال ظهور النظريات المعرفية والوجدانية في علم النفس السياسي، أو بعدها، يعملون الآن على دمج الجسم النظري القديم لهذا المنحنى بالتطورات الأكثر حداثة في هذا المجال. ويرى والكر، مثلًا، أن تحليل العقيدة الحديث يدمج في أثنائه استبصارات مستوحاة من النظريات المعرفية والوجدانية الحديثة[39]. ويصدق ذلك أيضًا على أعمال شيفر، وكريشلو، ودايسون التي سبقت الإشارة إليها. ولأننا لم نعطِ القارئ فكرة عما نعنيه بـ «النظريات المعرفية والوجدانية»، فإننا سنتولى هذه المهمة في الفصل الآتي.

---

(38) Walker, «The Evolution of Operational Code Analysis,» p. 412.

(39) المصدر نفسه، ص 416.

9

المعرفة

إن ما يدعونا إلى وضع الشخصية والنظريات [المتصلة بها] المؤسسة على الاعتقادات تحت المظلة النزوعية لا المظلة الموقفية لا بد أن يكون واضحًا للقارئ الآن. فإذا كان الأفراد جميعًا يتصرفون بالطريقة ذاتها عندما يوضعون في موقف معين، لن يكون هناك داعٍ لدراسة خلفياتهم الذهنية. وإذا كان الموقفيون على صواب، فإننا لن نجني كثيرًا بالنظر «داخل العقول». فالموقفيون يرون أننا نستطيع الحصول على كل المعلومات اللازمة عن سلوك الناس بمعرفة طبيعية الموقف الذي يواجههم، لا بالبحث عن نزعاتهم. غير أن النزوعيين يفترضون أن الأفراد يتباينون في استجاباتهم للمواقف، ويحاولون تاليًا البحث عن العوامل التي تؤدي إلى هذه التباينات. علاوة على ذلك، ومنذ الثمانينيات، سعى علماء نفس السياسة العاملين في حقول البحث المختلفة - كصنع القرار في السياسة الخارجية، والسلوك الانتخابي - إلى تفسير الفروق الفردية هذه بالنظر إلى الأبنية المعرفية (cognitive structures) القائمة داخل العقول.

شهد علم النفس في خلال السبعينيات ما يسمى بـ «الثورة المعرفية» (cognitive revolution)، وطغت دراسة هذا الموضوع على ميدان علم النفس منذ ذلك الحين (ويشير مصطلح cognition في اللغة الإنكليزية إلى عمليات التفكير، أو المعرفة (knowledge)، والمشتقة من المصطلح اللاتيني cognoscere، أي «يعرف»). ويتصدى الدارسون في هذا المجال إلى الإجابة عن أسئلة من مثل: كيف نصنع القرارات؟ كيف نحل المشكلات؟ ما العمليات العقلية التي

تكوّن تفكيرنا؟ كيف نقوم بمعالجة المعلومات؟ كيف نكتسب المعرفة؟ كيف نصل إلى هذه المعرفة عند الطلب؟ ما العوامل التي تحدد إدراكنا للعالم؟ كيف نتعلم؟ وتقتضي دراسة هذه القضايا تحليل العمليات المعرفية، وتقدير الطرائق التي يعمل بها العقل الإنساني حق قدرها. وبينما احتفظ علم النفس بفكرة فرويد القائلة إن العديد من عملياتنا العقلية عمليات لا شعورية - سنرى لاحقًا في هذا الفصل أننا كثيرًا ما نستخدم «طرائق مختصرة» في التفكير من دون أن نعرف حقيقة ما نستخدم - إلا أن علم النفس المعرفي الراهن يبتعد كثيرًا عن أفكار التحليل النفسي التي بدأ بها. ومن حيث إن علم النفس السياسي يستعير بكثرة من ميدانه الأم، أصبح أنصاره مشغولين بالمعرفة السياسية، أي بكيف نفكر ونفسر سياسيًا[1].

إن العديد من افتراضات نموذج الإنسان النفساني (homo psychologicus)، الذي جئنا على وصفه في الفصل الثاني، مشتقة من علم النفس المعرفي بشكل مباشر، ومن الحقل الأوسع الذي أصبح يُعرف بعلم المعرفة (cognitive science). وهذا الحقل وإن كان يغطي الموضوعات ذاتها التي يغطيها علم النفس المعرفي، إلا أنه أكثر اتساعًا من حيث إنه لا يبني على أساس من علم النفس وحده، وإنما يأخذ أيضًا من اللغويات، وعلم الحاسوب، وعلم الأعصاب، والفلسفة، وميادين أخرى، ويعرّف دايفد غرين وزملاءه علم المعرفة على أنه:

> الدراسة العلمية البينية (interdisciplinary) للعقل(...) تسعى إلى فهم العمليات العقلية كعمليات قائمة على تمثيلات [ذهنية للعالم] (representations). ويُنظر إلى عمل العقل، ثمّ إلى أساس الفعل الذكي في العالم، على أنه عمل حسابي أو عمليات معلوماتيه[2].

والعقل الإنساني أداة مذهلة، لم يتمكن الذكاء الاصطناعي (artificial

---

(1) الكتابان اللذان أدخلا هذا التعبير الجديد إلى علم النفس السياسي خلال الثمانينيات هما: Susan T. Fiske and Shelley E. Taylor, *Social Cognition* (Reading, MA: Addison-Wesley, 1984), and Richard R. Lau and David O. Sears, *Political Cognition* (Hillsdale, NJ: Lawrence Erlbaum, 1986).

(2) David W. Green [et al.], *Cognitive Science: An Introduction* (Cambridge, MA: Basil Blackwell, 1996), p. 5.

intelligence) في ما يبتكره من برامج، مجرد الاقتراب مما يغطيه العقل الإنساني من مهمات. وكما يشير ستيفن بنكر (Steven Pinker)، فإن الحواسيب والروبوتات تفتقر إلى الحدس أو البديهة (common sense) في حين أن العقل الإنساني قادر على اكتساب هذه الملكة بيسر وسهولة، ومن الصعب، إن لم يكن من المستحيل، برمجة «عقل» الحاسوب على هذه الخاصية[3].

ومع أن الحواسيب تستطيع القيام ببعض المهام أفضل مما نستطيع بكثير، فقدرتها على خزن البيانات واسترجاعها، على سبيل المثال، تفوق قدراتنا إلى حد مذهل، غير أن المثال التالي يبيّن (بشكل غير مباشر) ألمعية العقل الإنساني مقارنةً بالحاسوب. والمثال يشير إلى تجربة في التفكير لجون سيرل (John Searl) تم إجراءها في ما يُعرف بـ «الغرفة الصينية»، وهي تمثّل تحديًا للفكرة القائلة إن الحاسوب قادر على التفكير كالبشر[4]. ويرمي سيرل إلى تفنيد وجهة النظر التي يقدمها مناصرو الذكاء الاصطناعي المتشددن الذين يعتقدون أن الحواسيب قادرة على الوصول إلى فهم حقيقي، أو على تطوير ما نسميه الوعي (consciousness)، وقد اكتسبت هذه الفكرة شيوعًا من خلال أفلام سينمائية مثل «السفر في الفضاء» (2001: A Space Odyssey) و«بذرة الشيطان» (Demon Seed).

ويدعونا سيرل إلى تخيل حاسوب يبدو كأنه قادر على فهم اللغة الصينية، ثم يأتي شخص ناطق بالصينية ويقوم بإدخال سؤال إلى الحاسوب، ويجيب الحاسوب إجابة صحيحة باللغة الصينية. وتكون الإجابة المقدّمة على درجة من المتانة تجعل الشخص الناطق بالصينية يعتقد أنه يتحدث إلى شخص من أبناء لغته. ويطلب سيرل إلينا أن نتخيل أننا نقف داخل الحاسوب أو «الغرفة

---

(3) مثال الضيوف مأخوذ من: Steven Pinker, *How the Mind Works* (New York: W. W. Norton, 1997), p. 13.

ولكنه مأخوذ في الأصل عن عالِم الكمبيوتر تيري وينوغراد (Terry Winograd).

(4) John R. Searle, «Minds, Brains and Programs,» *Behavioral and Brain Sciences*, vol. 3, no. 3 (September 1980), pp. 417-457.

أثارت حجّة سيرل عاصفة من الجدل في علم المعرفة والذكاء الاصطناعي، والذي لا يزال جاريًا حتى الآن، حتى أنه استُعير في الروايات. على سبيل المثال، انظر: David Lodge's, *Thinks...* (New York: Viking Press, 2001).

الصينية» لنؤدي المهمة التي يؤديها الحاسوب (إنني لا أستطيع التفوه بكلمة واحدة من اللغة الصينية، وربما لا يستطيع معظمكم ذلك، أما إذا كنت تستطيع، تخيّل أن الحاسوب يتحدث لغة أخرى لا تعرفها أنت - لتنفيذ تعلميات التمرين المطلوب). وعندما تقف داخل الحاسوب وتبدأ بتلقي الأسئلة باللغة الصينية يكون عليك العودة إلى كتاب قاعدي يرشدك إلى سلسلة الحروف الصينية التي تؤلف الإجابة عن السؤال المطروح. وبذلك تقوم بإنتاج السلسلة المعينة من الحروف من دون تفكير. فلا يكون لديك أي فكرة عما تعنيه تلك السلسلة التي استخدمتها في الإجابة، تمامًا كما أن الحاسوب لا يحمل أي فكرة عما تعنيه الحروف من الإنكليزية (أو غيرها) المدخلة فيه. ولكن الشخص الصيني الواقف خارج الحاسوب يظل على ظنه بأن الحاسوب يفهم الصينية، وأنه يُحاوره عن فهم، كأي كائن بشري. والفكرة الأبعد التي يشير إليها سيرل هي أن الحواسيب لا تستجيب إلا وفق القواعد والتراكيب التي تمت برمجتها عليها، ولكنها ليست قادرة عيلى الفهم الخالص. ومهما بلغت محاولاتنا تقليد السلوك البشري في أشكال صناعية من القوة والإقناع، فإن الحواسيب أو الروبوتات لن تقدر أبدًا على القيام بما يقوم به الدماغ البشري.

ومن حيث إن الدماغ البشري غاية في التعقيد - ولأن دراستنا له لا تزال في مهدها - فإننا نجد، والحال هذه، كثيرًا من الفروق في الطرائق التي ينتهجها علماء المعرفة لمقاربة الأسئلة المتعلقة بمعالجة المعلومات، والتي جرى طرحها في مستهل هذا الفصل. على أننا سنسلط الضوء، فيما يلي، على اثنتين من النظريات لما كان لهما من تأثير خاص في علم نفس السياسة في السنين الأخيرة وهما: نظرية العزو (attribution theory) (التي تنظر إلى الفرد كـ «عالم بالفطرة») ونظرية السكيما (schema theory) (التي تدور حول نزعتنا إلى «البخل المعرفي»)، وذلك بعد أن نمهد لهذه الموضوعات بمناقشة نظرية الاتساق المعرفي (cognitive consistency theory). وسنختتم هذا الفصل بتناول موضوع لصيق هو التفكير من طريق المماثلة أو قياس التمثيل [وفق الترجمة التقليدية] (analogical reasoning). وسيتضح لنا أن مواضع العزو، والسكيمات، والنصوص أو السيناريوهات (scripts) والمماثلة/ قياس التمثيل، موضوعات

مترابطة في ما بينها على نحو يجعل النظريات القائمة وراءها نظريات متكاملة أكثر مما هي متنافسة.

نظرية الاتساق المعرفي

لقد فقدت النظرية السلوكية - أو صيغتها التي نوقشت في الفصل الثالث - معظم مؤيديها داخل التيار الرئيس في علم النفس في الوقت الراهن. ويعود ذلك في الجزء الأكبر منه إلى نظرتها الآلية للسلوك الإنساني. ولكن هذا التحول في الاهتمام بعيدًا من السلوكية حدث نتيجة لتحول نحو الاهتمام بعمل العقل أو بالمعرفة، ونحو الاهتمام بعمل الدماغ - الذي أعاد تأكيد نفسه في الفترة ذاتها. أمّا نظرية الاتساق المعرفي فقد اكتسبت شهرتها في الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي. ويتمثل المنطلق الأساس لهذه النظرية في افتراضها أن الناس عندما يسلكون طرائق تتعارض مع ما يحملونه من اعتقادات تنتابهم حالة من الضيق، إذا هم أدركوا التعارض القائم بين سلوكهم واعتقاداتهم. والافتراض الضمني هنا هو أن البشر لا يرغبون في السلوك بطرائق تخالف اعتقاداتهم، ولا يرغبون في وجود تضارب بين مايحملونه من اعتقادات، ويتجنبون المعلومات، أو المواقف التي تسبب ظهور هذه التناقضات في العلن. ويسمي ليون فستنغر (Leon Festinger) حالة التعارض هذه بـ التنافر المعرفي[5] (cognitive dissonance). وكان فرتز هايدر (Fritz Heider) قد سبق ليون فستنغر في وضع نظرية مماثلة هي نظرية التوازن المعرفي[6] (cognitive balance theory). وكمثال من مجال السياسة على التنافر المعرفي يمكننا النظر الى الحالة التي يختلف فيها أعضاء الحزب المعين مع حزبهم إزاء قضايا رئيسية كالحقوق المدنية أو الإجهاض، أو الحالة التي يعارضون فيها ترشيح حزبهم لشخص ما لمنصب الرئيس أو منصب نائب

(5) Leon Festinger, *Theory of Cognitive Dissonance* (Stanford, CA: Stanford University Press, 1957).

(6) Fritz Heider: «Attitudes and Cognitive Organization,» *Journal of Psychology*, vol. 21 (1946), pp. 107-122, and *The Psychology of Interpersonal Relations* (New York: Wiley Press, 1958).

الرئيس. حيث تفترض النظرية أن أعضاء الحزب يواجهون حالة من التنافر في مثل هذه المواقف، الأمر الذي يستثير لديهم دافعًا لإعادة الأمور إلى التوازن (وهو مايدعوه فستنغر بـ التناغم (consonance)). وتتم استعادة التوازن باللجوء الى تبرير الموضوع المختلف عليه، أو التقليل من أهمية موضوع مرشح الحزب المختلف عليه، كالقول مثلًا إن «ديك شيني لن يصبح الرئيس على أي حال» أو القول إن «قانون الحقوق المدنية لن يغير شيئًا». وربما يقلل أعضاء الحزب من التنافر بإضافة اعتقاد جديد يتصل بالموضوع المختلف عليه [يستعيدوا من خلاله التوازن]. وأخيرًا، يستطيع المرء تغيير ولائه الحزبي ويجعل انتخابه متسقًا مع ولائه – على الرغم من أن نظريات السلوك الانتخابي توحي بأن ذلك أمر غير محتمل مع شديدي الولاء لأحزابهم. ولكن، ما الذي جعل نظرية الاتساق المعرفي تفقد جاذبيتها؟ ترد سوزان فسك وشيلي تايلر ذلك إلى أسباب عدة حيث تقولان:

> ما عادت نظريات الاتساق المعرفي تهيمن على الميدان كما كانت لأنها تكاثرت إلى حد جعل من المتعذر التمييز بينها، لسوء الحظ. علاوة على ذلك، كان من الصعب التنبؤ بالحيثيات التي تجعل الفرد يرى عدم اتساقية في موقف ما ويقدِّر مداها، والتنبؤ بالطريق الذي سيسلكه لتسوية ما هو غير متسق. وأخيرًا، يبدو أن الناس قادرون على تحمل قدر لا بأس به من عدم الاتساقية، لذا فإن افتراض وجود دافع لتجنبها يصبح موضع شك، كمبدأ عام[7].

ولقد وضعت مقاربة الاتساق المعرفي الأفكارَ في خدمة العمليات الدافعية؛ فالناس لا يغيرون اعتقاداتهم وسلوكياتهم إلا عندما يُدفعون إلى ذلك بتأثير حالات انفعالية قوية ذات طبيعة سلبية. وكما أشرنا قبل قليل، فإن أنصار هذه المقاربة يعترفون أنه من الصعب التنبؤ مسبقًا بالطريق الذي سيسلكه الفرد لتقليل التنافر، على الرغم من أن كثيرين في عالم السياسة، على ما يبدو، يحتملون عدم اتساقية في الاتجاهات إلى حد كبير. فعند اتخاذ قرار انتخابي،

(7) Fiske and Taylor, *Social Cognition*, p. 10.

على سبيل المثال، يؤكد أنصار نموذج التماهي الحزبي (Party identification model) التماهي أو التوحد مع الحزب، وهو ما سيجري تناوله في الفصل الثاني عشر - حيث يُنظر إلى الانتخاب وفق هذا النموذج على أنه عملية آلية، أو ارتكاسية تقريبًا، بدافع من الولاء الطويل الأمد للحزب، وليس بناء على اعتبارات خاصة بالقضايا أو بالمرشحين)، يؤكد أنصار هذا النموذج أن معظم الناخبين يهملون الفروق القائمة بين مواقفهم الخاصة ومواقف الحزب إزاء مختلف القضايا أو يقللون من اعتبارهم لها. ففي عام 2008، على سبيل المثال، عارض الناخبون من المحافظين الجدد، وأعضاء اليمين المسيحي، المواقف السابقة لمرشح حزبهم، جون مكين، حين وصف بعض أعضاء تلك الحركة على أنهم «وسطاء عدم التسامح». وعلى الرغم من ذلك، تنبأ أتباع مقاربة التماهي الحزبي أن معظم الجمهوريين المحافظين سيصوتون لمكين في كل الأحوال متجاهلين التنافر المعرفي المتوقع في ظل هذا الموقف. ولكن إذا كان التنافر قوة مؤثرة إلى هذا الحد، لمَ يندر أن نشهد تغييرًا في اعتقادات الناس أو في سلوكهم الانتخابي؟ [الرد الممكن على هذا السؤال المهم هو أن عمليات تجسير التعارض أو تقليل التنافر تتكفل بتسوية الأمر، على ما يبدو، ولا يعود هناك حاجة إلى التغيير. ولعل السؤال المهم هنا هو، لمَ تقاوم الاتجاهات التغيير كل هذه المقاومة؟].

ونتيجة للاستياء المتنامي إزاء نموذج التناسق المعرفي في السبعينيات، أخذ علماء النفس المعرفي والاجتماعي يتجهون بشكل متزايد نحو منحيين جديدين كانا آخذين في التطور حينئذٍ هما على وجه الخصوص: نظرية العزو (attribution theory) ونظرية السكيما (schema theory).

نظرية العزو

ترى نظرية العزو أن البشر ليسوا «باحثين عن الاتساقية» بالدرجة الأولى وإنما هم علماء بالفطرة (naive scientists)، أو يسعون لحل المشكلات. هم ليسوا مدفوعين لاستعادة التوازن على الدوام في ما بين اعتقاداتهم، أو ما بين اعتقاداتهم وسلوكهم، وإنما هم مهتمون أساسًا بالكشف عن أسباب سلوكهم

وسلوك الآخرين. والبشر في حالة بحث مستمر عن الأسباب والنتائج [أو الآثار (effects) بحسب مصطلحات النظرية] – حيث يسأل الناس أول ما يسألون: «لمَ وقع الحدث المعين؟» – ولكن بحثهم عن الأسباب أقل دقة وتقدمًا من بحث عالِم يعمل في مختبره، بطبيعة الحال. هم يسعون باستمرار لفهم العالم المحيط بهم، وينطلقون في ذلك من افتراضات حول أنفسهم وحول الآخرين. ويُعتبر هارولد كيلي (Harold Kelley)، وريتشارد نيسبت (Richard Nisbett)، ولي روس (Lee Ross) من أبرز المساهمين في تطور هذا الاتجاه المعرفي[8].

وتأخذ نظرية العزو أهمية خاصة عند النظر إلى التمييز الذي أرسينا دعائمه في هذا الكتاب بين الموقفية والنزوعية، ويعود ذلك في جزء منه إلى أن دعاة هذه النظرية هم الذين روّجوا هذا التمييز بداية [التمييز بين العوامل المتعلقة بالفرد والعوامل المتعلقة بالموقف]. وترى هذه المقاربة أننا نعزو سلوك الفرد أحيانًا إلى الموقف [الذي أحاط بذلك الفرد]، بينما نعزوه في أحيان أخرى إلى نزعات داخلية لدى الفرد. وكثيرًا ما نرتكب أخطاء جسيمة ونحن نقوم بذلك. وكما يقول كل من فسك وتايلر، فإن الناس لا يراعون الحذر في ما يقومون به من عزو، «فعلى صعيد الحياة اليومية، يعزو الناس [الأحداث والأفعال] من دون تفكير نسبيًا. ولأن النسق المعرفي محدود السعة، لذا فإن الناس يأخذون فيه طرقًا مختصرة»[9].

ويبدو أن واحدًا من أبرز الأخطاء التي يرتكبها البشر في عملية العزو، هو ما يُعرف بالخطأ الأساس في العزو (the fundamental attribution error) الذي يترتب عليه نتائج سياسية مهمة. فعندما نفسر ما نقوم به نحن من سلوك، كثيرًا ما نرد ما فعلناه إلى أسباب موقفية، وكثيرًا ما نبالغ في ذلك الاعتبار. وبالمقابل، عندما نفسر سلوك شخص آخر ونسأل لمَ فعل ذلك الشخص ما فعل؟، كثيرًا ما نرتكب الخطأ المعاكس فنقلل من أهمية الموقف في توجيه

---

(8) على سبيل المثال، انظر: David E. Jones [et al.], eds., *Attribution: Perceiving the Causes of Behavior* (Morristown, NJ: General Learning Press, 1972), and Richard Nisbett and Lee Ross, *Human Inference: Strategies and Shortcomings of Social Judgment* (Englewood Cliffs, NJ: Prentice-Hall, 1980).

(9) Fiske and Taylor, Ibid., p. 11.

سلوكه (وبذلك فإننا نبالغ في تقديرنا لدور نزعات الشخص الداخلية [أو خصائصه الشخصية] في تحديد ما فعل). والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: ما أهمية هذا الموضوع لطلبة السياسة؟ تعطي ديبورا ويلش لارسون (Deborah Welch Larson) في دراستها الكلاسيكية عن الحرب الباردة واحتوائها، مثالًا موضحًا، حين تقول:

> إن صانعي السياسة يميلون إلى الاستنتاج أن أفعال دولتهم تكون مقيّدة بظروفها، حتى عندما يعزون سلوك الدول الأخرى إلى «خصائص» أساسية لدى الأمم أو قادتها. وعند تطبيق هذه المقاربة لتفسير التغير الذي حدث في صناعة السياسة الخارجية الأميركية إزاء الاتحاد السوفياتي، فإن نظرية العزو ترى أن المسؤولين في واشنطن كانوا على أتم الاستعداد لاختلاق دوافع أيديولوجية، توسعية لما يفعله السوفيات قد لا تعكس في الواقع سوى حسابات أمنية مماثلة للحسابات التي دفعت إلى سياسات مناظرة اتبعتها الولايات المتحدة»[10].

ووقوع بعض السياسيين في شرك العزو الخاطئ لا يعني أننا محكومون جميعًا بالوقوع في هذا الشرك. وبالرجوع إلى أزمة الصواريخ الكوبية، على سبيل المثال، نستطيع القول إن أحكام العزو كانت تمثل قضية حياة أو موت. حيث سأل أعضاء اللجنة المختصة أنفسهم على الفور في الاجتماعات المتوترة الأولى لبحث هذه القضية، «لماذا أقام السوفيات الصواريخ في كوبا؟»، «ما هي مقاصدهم؟» وقد بدا أن قائد القوات الجوية كيرتس ليميه (Curtis LeMay) عزا ذلك إلى دوافع شريرة لدى القيادة السوفياتية، في حين أن آخرين، أمثال روبرت مكنمارا (Robert McNamara)، والسفير تومي طومبسون (Tommy Thompson)، والرئيس كينيدي (Kennedy) كانوا أكثر ميلًا إلى افتراض أن أفعال كروتشيف (Khrushchev) ربما كانت مدفوعة بقوى موقفية ضاغطة أو مشجعة لذلك الفعل. وعلاوة على ذلك، كان الطرفان الأميركي والسوفياتي مدركين أن ثمة قوى موقفية قد تمسك بزمام الأمور وتسبب نشوب حرب غير

---

(10) Deborah Welch Larson, *Origins of Containment: A Psychological Explanation* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1985), p. 38.

مقصودة. ويمثل التدرّب على التعاطف - أي وضع أنفسنا في موضع الخصم - طريقة مفيدة للحد من هذا النوع من أخطاء العزو، والتي يرتكبها «علماء بالفطرة» في كثير من الأحيان في مجال العلاقات الدولية - على الرغم من أن هناك مخاطر وتحيزات ترتبط بهذه الممارسة أيضًا. فعندما نحمل اتجاهات سلبية شديدة نحو بعض الناس نميل بوجه خاص، وفق ما يرى ياكوف فيرتزبيرغر (Yaacov Vertzberger)، إلى عزو ما يفعلون إلى نزعات سلبية لديهم، ويفيد فيرتزبيرغر بهذا الصدد أن «النفور يولد تفسيرات نزوعية للأفعال غير المستحبة التي تصدر عن الآخرين، بينما يقود التعاطف إلى تفسير هذه الأفعال ذاتها بعزوها إلى عوامل موقفية»[11].

ويؤكد أنصار نظرية العزو أن اثنين من الطرق المعرفية المختصرة (cognitive shortcuts) أو الموجهات الذهنية [التي قد تتمثل في قواعد عملية مبنية على الخبرة] (heuristics) يحتلان أهمية خاصة في صنع القرارات والتفكير لدى البشر وهما: مُوجِّه التمثيلية (representativeness heuristic) [تقدير ذاتي لمدى تمثيل شخص لفئة معينة] ومُوجِّه الحضورية [سهولة الاستحضار إلى الذهن] (availability heuristic). ويعرِّف صموئيل بوبكن (Samuel Popkin) التمثيلية بأنها «حساب تقريبي لاحتمال كون شخص ينتمي إلى نوع معين [من الأشخاص] بناء على مدى التشابه بينه وبين الصورة النمطية التي نحملها في أذهاننا عن ذلك النوع من الأشخاص»[12]. ويؤكد بوبكن أننا نعتمد هذا الطريق عندما نقوِّم المرشحين للرئاسة في الانتخابات الأولية، على سبيل المثال، حيث لا يكون لدينا معرفة كافية بهم. كما أن هذه القواعد تُستخدم لتقدير احتمال وقوع حدث ما بناء على تقديرنا لمدى التشابه بين ذلك الحدث وصنف معين من الأحداث، [من حيث المقدمات أو الظروف المحيطة]. والتشابه المقصود هنا هو التشابه المدرك (perceived similarity) [وليس التشابه الموضوعي]، غير أن المشكلة

---

(11) Yaacov Y. I. Vertzberger, *The World In Their Minds: Information Processing, Cognition and Perception in Foreign Policy Decisionmaking* (Stanford, CA: Stanford University Press, 1990), pp. 162-163.

(12) Samuel Popkin, «Decision Making in Presidential Primaries,» in: Shanto Iyengar and William J. McGuire, eds., *Explorations in Political Psychology*, Duke Studies in Policical Psychology (Durham, NC: Duke University Press, 1993), p. 363.

الرئيسية - التي تجعلنا علماء سذّج (naive scientist) - هي أننا عند تقدير تلك الاحتمالات نهمل المعلومات الأساسية (القاعدية) أو الاحتمالات الإحصائية (statistical probabilities) عادة، [أي المعلومات المتعلقة بتكرار الحدث ضمن فترة زمنية معينة وتقدير الاحتمالات بناء على ذلك]. فعندما يُطلب إلينا تقدير احتمال أن يكون صدام حسين «هتلر آخر»، على سبيل المثال، يُحاول معظمنا المناظرة بين الاثنين بناء على التشابه الظاهر بينهما (فكل منهما توسعي، متسلط محليًا، وما إلى ذلك). على أن ما يغفله معظم الناس هو النظر في الاحتمالات الإحصائية ليكون «صدام حسين هتلر آخر» (كما يُفترض أن يفعل العالِم)، إذ لم يشهد التاريخ الحديث قادة من نوع هتلر إلا نادرًا، لكن معظم الناس لا يبنون تقديراتهم للاحتمالات على أساس موضوعي.

أما موجِّه الحضورية (availability heuristic) فتُستخدم عند تقدير احتمال وقوع شيء بناء على مدى حضور ذلك الشيء في الذهن. ويكون الشيء حاضرًا في ذاكرتنا أحيانًا لمجرد وقوعه حديثًا أو لأنه كوّن خبرة حية يُستبعد نسيانها. فالحرب العالمية الثانية وحرب فيتنام أحداث حيّة في أذهان صنَّاع السياسة الخارجية الأميركية، تجري مقارنة المواقف الجديدة بهما بصورة مبالغ فيها. ومن الواضح أن الأحكام التي تتأثر بالحضورية لا تكون «علمية» لأنها تُهمل الاحتمال الاحصائي. فالنظر إلى شيء على أنه محتمل الوقوع لمجرد أن شيئًا مشابهًا حدث في عهد قريب، أو لأنك متأثر بذكرى حدث حي في ذهنك، يمثّل أساسًا ضعيفًا لتقدير الاحتمالات.

نظرية السكيما

يشير جون سوليفان (John Sullivan) وزملاءه إلى أن مصطلح سكيما (Schema) قد خرج تقريبًا من نطاق التداول في علم النفس السياسي منذ التسعينيات، ومن مجال دراسة سلوك الجمهور بوجه خاص. ويعود ذلك جزئيًا إلى إفادات علماء النفس السياسي أنها - أي السكيما - لم تضف الكثير من الوضوح إلى ما هو قائم من مفاهيم سياسية[13]. وفي حقيقة الأمر ربما يكون

(13) على سبيل المثال، انظر: James H. Kuklinski, Robert C. Luskin and John Bolland, «Where's the Schema?: Going Beyond the «S» Word in Political Psychology,» *American Political Science Review*, vol. 85, no. 4 (1991), pp. 1341-156.

ذلك ناتجًا من أن معظم الباحثين قبلوا الفكرة السياسية بأننا نمتلك بنى معرفية في عقولنا وغدوا أكثر اهتمامًا بكيفية تأثير هذه البنى في السلوك السياسي. ويُفيد ران، وسوليفان، ورودولف (Rahn, Sullivan, and Rudolph) أن «نظرية السكيما ربما ما عادت تتمتع برواج، لكن الأفكار التي ارتبطت بها تحت هذه التسمية لا زالت حية، ولم يجر سوى إعادة تكوينها تحت مسميات جديدة مثل التمثيلات المعرفية (cognitive representations) أو الصور النمطية[14] (stereotypes). كما قلَّ استخدام علماء النفس المعرفي لمصطلح «سكيما» وأخذوا يشيرون الآن إلى الشبكات الرابطة (associationist networks)، أو النظرية الحسابية للعقل (the computational theory of the mind). ولكن ذلك كله أمر يتعلق بالتسمية في الواقع أكثر مما يتعلق بالمضمون. ومصطلح «السكيما» مألوف لدى قطاع عريض من علماء نفس السياسة، وسنستعمل هذه التسمية هنا لأنها تؤلف بين عدد كبير من البحوث التي أجريت في مجال سلوك النخبة ومجال سلوك الجمهور. وربما تكون هذه النظرية في الحقيقة (أو لعلها مجموعة من النظريات) هي التي جلبت دارسي العلاقات الدولية، من منظور معرفي، إلى خيمة واحدة مع دارسي سلوك الجمهور - من مثل سلوك الانتخاب[15].

وتشترك نظرية السكيما مع نظرية العزو بافتراض أن الإمكانات المعرفية للبشر محدودة، كما تتفق معها في العديد من الوجوه. ومن حيث إننا نواجَه كل يوم بوابل كثيف من المعلومات، فإن نظرية السكيما ترى أن النشاط المعرفي الرئيس للبشر هو التصنيف (categorization) والوسم (Labelling) (أو التسمية) وليس البحث عن أنماط الأسباب والنتائج أو العمل كعلماء بالفطرة. وللتعامل مع الأحمال الزائدة من المعلومات، نمارس الاقتصاد العقلي (mental economics)، فنحن بخلاء معرفيًا (cognitive misers). وبدل التعامل مع كل معلومة جديدة بحسب صفاتها الخاصة، فإننا نتمثل هذه المعرفة داخل التصنيفات المقامة مسبقًا

---

(14) Wendy M. Rahn, John L. Sullivan and Thomas Rudolph, «Political Psychology and Political Science,» in: James Kuklinski, ed., *Thinking About Political Psychology*, Cambridge Studies in Political Psychology and Public Opinion (New York: Cambridge University Press, 2002), p. 171.

(15) Deborah Welch Larson, «The Role of Belief Systems and Schemas in Foreign Policy Decision-Making,» *Political Psychology*, vol. 15, no. 1 (March 1994), pp. 17-33.

(والتي تعرف عادة بالسكيمات أو النصوص/السيناريوهات (scripts)). ويعمل هذا النشاط المعرفي بفعالية، وبسهولة نسبيًا[16].

ويُستعمل مصطلح السكيما بصورة فضفاضة في كثير من الأحيان، كما يُعرّف تعريفات متنوعة. ولكننا نعرفها هنا بأنها نوع من الصور النمطية، من حيث الأساس، مخزنة في الذاكرة، وتزودنا معلومات عن الملامح النمطية أو النموذجية (typical features) لموضوع، أو حدث، أو شخص. والسكيمات تمثل تجمعات عامة لمعارف: مفاهيم عامة، قواعد، دروس، وصور نمطية مخزونة في الذاكرة. والسكيمات تذهب أبعد من أي مثال عليها، وتُقدم لنا معلومات عن الحالة المعتادة [للموضوع أو الحدث أو الشخص]، ونحن نستعمل مثل هذه السكيمات لتصنيف المعلومات التي نتلقاها، ولإجراء استنتاجات بشأنها تتجاوز المعلومات المعطاة. كما يمكننا تصور السكيما كصندوق معرفي يحتوي المعلومات النمطية [أو الأساسية المتكررة] المرتبطة بشيء مألوف لنا. افرض أنني أعطيتك الأحجية البسيطة التالية والتي تقول: إنني أفكر في «شيء»، له فراء، وله ذنب، وله مخالب، وتأخذه في نزهة.

عندما نتلقى المعلومة الأخيرة يصبح الشيء الذي أسال عنه واضحًا. ولكن لماذا أصبح واضحًا؟ فأنا لم أقل لك بعد ما هو ذلك الشيء، ولكننا نعلم جميعًا أنني أتحدث عن كلب. وعندما يدور تفكيرك حوله، فإن ذلك يستدعي عملًا مذهلًا تتضافر فيه أنشطة معرفية متعددة، وهذا هو تفسير نظرية السكيما لما يحدث. فأنت تبدأ قبل أي شيء بإدخال كل معلومة تصلك (أن ذلك الشيء «له فراء»، وهكذا). ثم تقارن تلك الخصائص بالعناصر الأساسية لسكيمات مختلفة مخزونة في ذاكرتك، ثم تقارن تلك الخصائص بخصائص الفئة العامة المسماة «كلبًا» وتخرج باستنتاج لما أفكر فيه. وبعبارة أخرى، أنت استعملت المعلومات لتقوم بالتصنيف، ولتذهب إلى ما وراء المعلومات المعطاة. ولكن يجدر بك أن تلاحظ أن استعمال السكيما محفوف بخطر الوقوع في الخطأ، ذلك لأنه

---

(16) Susan T. Fiske and Philip W. Linville, «What Does the Schema Concept Buy Us?,» *Personality and Social Psychology Bulletin*, vol. 6, no. 4 (December 1980), pp. 543-557.

يتضمن إجراء استنتاجات تتجاوز البيانات المعطاة. فربما كنتُ أشير في المثال السابق إلى قطة، وما كان لك أن تستنتج أنني قصدت كلبًا في الأحجية من دون المعلومة الأخيرة المتعلقة بالنزهة، فما من عاقل يمكن أن يأخذ قطة في نزهة. ولولا تلك المعلومة الأخيرة لكان من الممكن أن نخطئ، لا باستدعاء سكيما القطة فحسب، بل باستدعاء العديد من السكيمات الأخرى الخاصة بأصدقائنا ذوي الفراء.

وكما هو الحال في أخطاء العزو، هذا لا يعني أننا نقع في شرك السكيمات بالضرورة، أو أننا محكومون بالوقوع في الخطأ عند استعمالها، غير أن هذا القصور يكمن في كل الطرائق المعرفية المختصرة التي نسلكها. كما أننا لسنا محكومين بإهمال الفرق بين المثال أو النموذج الافتراضي [أو السكيما الموجودة في الذهن] والشيء الواقعي، حيث يرى جوليان هوتشبرغ، مثلًا، أنه «يجري تمييز الشيء بداية بتعيين السكيما التي ينتسب إليها، ثم بملاحظة عدد من الملامح التي تميز ذلك الشيء عن غيره من النموذجات المستغرَقة في السكيما التي ينتمي إليها»[17]. لكن السكيمات يمكن أن تضللنا أحيانًا من حيث إنها تُوظف بوصفها أدوات للاقتصاد العقلي، وقد تُفضي في عالم السياسة إلى نتائج خطيرة.

وما صلة هذا كله بالسياسة؟ لعل الصلة الوثيقة لهذا الموضوع بالسياسة تأتي من أن النخبة التي تصنع القرارات (والناخبين كذلك) يضطرون إلى اتخاذ القرارات بناء على معلومات غير تامة بشأن الموقف موضوع البحث؛ إذ إن صنّاع السياسة قد يقومون باستنتاجات خاطئة (وهم يفعلون ذلك من دون شك) حين يضعون الأفراد أو الأحداث ضمن فئات ذهنية، أو سكيمات غير صحيحة، ويعتمدون في ذلك على تشابه سطحي جدًا [بين الفرد والفئة التي نسبوه إليها، مثلًا]. وتُعطي ديبورا ويلش لارسون مثالًا كلاسيكيًا مناسبًا عن هاري ترومان (Harry Truman) ورئيسه القديم في الحزب توماس بندرغاست (Thomas Pendergast) في ولاية ميسوري، حيث كان زعماء الأحزاب المحليون

---

(17) Julian E. Hochberg, *Perception*, 2nd ed. (Englewood Cliffs, NJ: Prentice Hall, 1978), p. 190.

في تلك الأيام يسيّرون شؤون السياسة، على المستوى المحلي بوجه خاص. وليتسنى لعضو الحزب البروز على المستوى الوطني، كان لا بد له من شيء من الدعم في المراحل المبكرة. وقد حفظ ترومان ما تلقاه من دعم من بندرغاست، ولم ينس فضله عليه فيما حققه في مهنته السياسية، وكان بندرغاست النموذج المحتذى للرئيس القادم. وأخذ عنه ترومان ضرورة حفظ الرجل لكلمته، وهو ما دعاه ترومان «دستور السياسي»، إذ يقول: لا تثق ثانيةً على الإطلاق بمن لم يحفظ كلمته[18].

وحين التقى ترومان الزعيم السوفياتي جوزيف ستالين وجد ترومان شبهًا بين ستالين ومرشده السابق في الحزب بندرغاست. ونتيجة لهذا التشابه السطحي تعامل ترومان مع الزعيم السوفياتي بكثير من الدفء. وفي عام 1946 التقى الرجلان لأول مرة وتأثر ترومان بستالين إلى حد كبير:

> تعزز لدى ترومان في لقائه ستالين اعتقاده بأن الدكتاتور السوفياتي يشبه رئيسه بندرغاست. وأفصح ترومان بإعجاب لأحد المساعدين «إن ستالين أقرب إلى بندرغاست من أي رجل أعرفه». وذهب ترومان أبعد من التشابه السطحي بين ستالين وبندرغاست، واستنتج أن الروسي يشترك بخصائص شخصية عديدة مع رئيسه في ميسوري. وأخبر ترومان طاقم موظفيه «إن ستالين إذا قال كلمة ذات مرة فإنه يقول الشيء ذاته المرة الأخرى [...] إنه يمكن الاعتماد عليه». استنتج ترومان أن ستالين، كبندرغاست، أهل للثقة ويحفظ كلمته. ويذكر ترومان بأنه تكوّن لديه انطباع «...أن ستالين يدافع عن اتفاقياته، وأن لديه مكتبًا سياسيًا كفؤًا تحت تصرفه (كالكونغرس الثمانين)»[19].

وعلى الرغم من أن هذا الخطأ المعرفي لم يؤثر في الأحداث على المدى الطويل، بعد أن ثبت أن ستالين لا يفي بوعوده وبأنه غير جدير بالثقة. أما على المدى القصير فقد أدى ذلك الخطأ إلى تضليل ترومان لأنه أدى إلى ثقته بالقائد

(18) Larson, *Origins of Containment: A Psychological Explanation*, p. 132.

(19) المصدر نفسه، ص 197.

السوفياتي أكثر مما يجب، وظل ترومان ينظر إلى ستالين نظرة إيجابية حتى بعد أن أدرك أن ستالين خانه[20].

وهناك أمثلة أكثر شعبية يمكن أخذها من مجال السلوك الانتخابي، وهو مجال سيتم تناوله بتفصيل أكثر في الفصل الثاني عشر، غير أننا لا بد أن نشير هنا إلى أن وجهة نظر ويندي ران (Wendy Rahn) القائلة إن الناس يعتمدون على الأحزاب أو على الولاءات الأيديولوجية كنوع من الطرائق المعرفية المختصرة، وجهة نظر مقبولة لدى الباحثين في مجال الاختيار التصويتي. فقد وجدت ران أنه عندما يتلقى الناس معلومات محددة عن أحد المرشحين في الانتخابات، فإنهم يأخذون تلك المعلومات باعتبارهم ويعطونها وزنًا في تحديد صوتهم. أما عندما يتوافر للناخبين معلومات خاصة عن المرشح إضافة إلى الصورة النمطية للحزب الذي ينتمي إليه، فإنهم:

يفضلون المعالجة المعرفية القائمة على القواعد العملية (heuristic-based processing)؛ فيهملون المعلومات المتعلقة بالممارسات السياسية في تقويمهم [للساسة]؛ ويعتمدون على التسميات مثل [محافظ، ليبرالي] في استنتاجاتهم [إزاء الأشخاص] لا على خصائص السياسات؛ ويكونون أقل حساسية للمعلومات غير المتسقة [مع الأفكار المسبقة] فتظل معالجتهم للمعلومات تعتمد على النظرية التي يحملونها عن الحزب حتى عندما تأتيهم معلومات لا تتسق مع تلك النظرية إلى حد بعيد[21].

دعنا ننظر قليلًا إلى كيفية صنع القرارات حول مرشحين لوظيفة عليا لا نعرف عنهم كثيرًا. وكما رأينا في ما سبق، كثيرًا ما نأخذ الانتماء الحزبي للأشخاص كطريق معرفي مختصر نبني عليه قراراتنا، وخصوصًا عندما لا نعرف الشيء الكثير عن المرشح عدا انتمائه الحزبي. غير أن هذه ليست الوسيلة الاقتصادية العقلية الوحيدة التي يوظفها الناخبون. فكيف يتخذ الناخبون قراراتهم

(20) *Origins of Containment: A Psychological Explanation*, p. 197.

(21) Wendy M. Rahn, «The Role of Partisan Stereotypes in Information Processing about Political Candidates,» *American Journal of Political Science*, vol. 37, no. 2 (2003), p. 492.

من خلال فترة الانتخابات الرئاسية التمهيدية عندما يأتي المرشحون جميعًا من الحزب الواحد؟ ولقد طور صموئيل بوبكن في هذا الإطار نظرية حول جاذبية المرشح في الانتخابات التمهيدية تقوم على أفكار ذات طبيعة سكيماتية [نسبة إلى السكيما][22]. فالناس لا يعرفون كثيرًا في الغالب عمّن يدخلون إلى سباق الرئاسة للظفر بترشيح الحزب لهم للمنصب الرئاسي، حيث يكون معظمهم حكام ولايات لا يعرف الناس عنهم كثيرًا، أو أعضاء مجلس شيوخ لم يسمع بهم أحد. فمن كان يعرف شيئًا عن سجل أوباما في مجلس الشيوخ، أو ما هي مقترحاته السياسية على وجه التحديد قبل الانتخابات التمهيدية عام 2008؟ من كان يعرف سام براونبك أو بل ريتشاردسون؟ في ما عدا المرشحين الكبار، أمثال جون مكين وهيلاري كلينتون، لم يكن أي من المرشحين شخصية عامة معروفة على مستوى الأمة.

كيف نختار إذًا بين عدد من المغمورين؟ يعتقد بوبكن أننا نبني قراراتنا على أساس من بيانات قليلة، واضحة للعيان. نستخدم هذه البيانات لملئ المعلومات أو المعطيات الأساسية عن المرشح (default values) ونستنتج، بناءً على ذلك، مدى تمثيل المرشح لصورة نمطية ما (مثالية أو غير مثالية). وبعبارة أخرى نبحث للمرشح عن سكيما مناسبة نحشره فيها مهما كانت تفتقر إلى الدقة من بين السكيمات المخزونة في أذهاننا. وعلى غرار سكيما الكلب، المشار إليه سابقًا، نستخدم القليل المعلوم لملئ غير المعلوم، حتى نصل إلى استنتاج أو تقويم عام للشخص. وبحسب تعبير بوبكن، فإن:

> الناخبين يقررون نوع الحاكم الذي كان عليه جيمي كارتر [أي كحاكم ولاية]، وما نوع الرئيس الذي سيكونه، ليس بناء على ما يُعرف عن أدائه كحاكم لجورجيا، وإنما بناء على تقويمهم لجيمي كارتر كشخص، واحتمال أن يكون بهذه الصفات حاكمًا جيدًا[23].

ولا يستعير بوبكن من نظرية السكيما فحسب، وإنما يستعير أيضًا من نظرية العزو، حيث إنه يرى أن وضع المرشحين في صورة نمطية أو أخرى

(22) Popkin, «Decision Making in Presidential Primaries».

(23) المصدر نفسه، ص 365.

يتضمن حكمًا حول التمثيلية (representativeness) [أي مدى تمثيله للفئة موضوع الصورة النمطية]. [وكما نحمل صورًا أو سكيمات عن الناس نحمل صورًا أو سكيمات عن الأحداث وتسلسلها، وهي سيناريوهات أو نصوص (scripts)]. ويمكن النظر إلى السيناريوهات كسكيمات أحداث (event schemas)، وهو نوع خاص من السكيما يتضمن التسلسل الافتراضي لنوع معين من الأحداث، مثل صعود درج السلّم، الذهاب إلى السينما أو إلى مطعم. كيف يصعد الإنسان سلّمًا لم يره من قبل، حتى تلك الصيغة اللولبية الفريدة منه؟ قد يبدو هذا السؤال سخيفًا، لكن السبب الذي يجعله سخيفًا هو أننا نحمل في رؤوسنا جميعًا سيناريو أو سكيما تتعلق بكيفية صعود الدرج أو السلّم تدلنا كيف نقترب من بيت الدرج، وكيف نبدأ بوضع رجل واحدة على الدرجة الأولى، ونتبع ذلك بوضع الرجل الأخرى على الدرجة الأعلى، وهكذا. وبالمثل، فإننا لا نواجه أي مشكلة في مشاهدة فيلم في السينما لم يسبق أن دخلناها؛ إذ إننا نستخدم المعطيات/ المعلومات الأساسية (default values) المخزونة لدينا في توجيه سلوكنا. وإذا ما أخبرتك أنني ذهبت بالأمس لمشاهدة فيلم، تستطيع الرجوع بسهولة إلى تلك المعلومات الأولية المحفوظة في عقلك، والمتصلة بمثل هذه الزيارات لتقدِّر كيف أمضيت مسائي على الأرجح. فلا بد أنني اشتريت تذكرة أولًا، ثم أعطيت تذكرتي للموظف المسؤول عن تنظيم الجلوس، وكمعظم الناس، ربما اشتريت الكولا والبوشار، وجلست في السينما، وشاهدت الفيلم حتى النهاية. وعندما انتهى الفيلم، غادرت السينما وفعلت شيئًا آخر.

غير أن السيناريوهات قد تضللنا أيضًا كسابقاتها. افرض مثلًا أنني ذهبت إلى السينما بالأمس، وقررت أن أدخل إلى السينما من دون تذكرة، لأن الجامعة التي أدرِّس بها في فلوريدا بخيلة في ما تدفعه من مرتَّبات، فغافلت الموظفة ودخلت. ولأني أتبع حمية لإنقاص الوزن، قاومت محاولتهم بيعي الكولا والبوشار. ثم وجدت الفيلم مملًا فاستغرقت في النوم، وأيقظتني السيدة التي تجلس خلفي بغضب لشدة ما أزعجها شخيري، فخرجت متعثرًا إلى ضوء النهار في الخارج، نادمًا على ما أضعت من وقت في مشاهدة ذلك الفيلم (على

الرغم من أنني لم أكلّف نفسي عناء دفع ثمن التذكرة). ففي هذه الحالة تؤدي «المعلومات الأولية» [أو السيناريو النمطي للحدث] إلى تضليلك، والسبب يعود مرة أخرى إلى البخل المعرفي. إذ إننا نقيم افتراضاتنا على أساس من السلوك النمطي المعتاد والذي قد يكون مضللًا تمامًا أو غير صحيح.

وتُستخدم السيناريوهات التاريخية على نطاق واسع في مجال السياسة الدولية. ويروي لنا سيناريو «ميونيخ»، على سبيل المثال، ما يحدث عندما يجري استرضاء طاغية ذي نزعة توسعية، ما يوحي أنك إذا لم تواجه الخطر مبكرًا، فإنك ستضطر إلى مواجهته لاحقًا لا محالة. فلقد تركت الحرب العالمية الأولى آثارًا مدمرة في أوروبا، ورغب رئيس الوزراء البريطاني نيفيل شمبرلين (Neville Chamberlain) (وغيره من القادة الأوروبيين) تجنب حرب جديدة أو ربما دمارًا أكبر، وهذا أمر مفهوم. وفي عام 1938جرى عقد مؤتمر سلام في ميونيخ، قبِل فيه هتلر كظم طموحه العدواني مقابل جزء من تشيكوسلوفاكيا في ذلك الوقت. واشتهر عن شمبرلين خروجه من المؤتمر ملوّحًا بالوثيقة التي تم الاتفاق عليها واعدًا: «سيحل السلام في زماننا». وقد ثبت أن تلك السياسة فشلت فشلًا ذريعًا، وأصبحت كلمة «استرضاء» كلمة قذرة في مجال العلاقات الدولية، وهدمت المهنة السياسية لمؤيديها (مثل السفير جوزيف كينيدي (Joseph Kennedy) في الولايات المتحدة). فقد خرج هتلر عن نصوص اتفاقية ميونيخ في السنة التالية، وغزا بلدًا أوروبيًا إثر الآخر، وقاد الولايات المتحدة في نهاية المطاف للتدخل نيابة عن حلفائها المحاصرين، المنهارين ماليًا. وقد جرى استدعاء هذا السيناريو والإشارة إليه في كثير من المناسبات أثناء الحرب الباردة، وبعد احتلال صدام حسين للكويت عام 1990؛ حيث كان جورج بوش الأب يؤكد أن عدم التصدي لصدام حسين مبكرًا - أي إذا جرى استرضائه - فإن الشرق الأوسط برمته سيكون عرضة لأطماعه التوسعية.

قياس التمثيل/ المُماثَلة

وهو طريقة أخرى من الطرائق التي يسلكها العقل عند التفكير في التاريخ والسيناريوهات. فعندما نستخدم القياس، نقارن موقفًا جديدًا بشيء مشابه

واجهناه في الماضي (والأصح أن نقول، يبدو مشابهًا). وكثيرًا ما نستخدم التشبيهات التاريخية عندما نناقش الشؤون الدولية والسياسة الخارجية؛ وبحسب تعبير ألكسندر هييغ (Alexander Haig) وزير الخارجية الأميركي الأسبق، «السياسة الخارجية تجتذب التشبيهات كما يجتذب العسل النحل»[24]. ولقد بدا الجدل الذي دار حول السياسة الخارجية الأميركية منذ السبعينيات كأنه حرب بين تشبيهين تاريخيين: ميونيخ/الحرب العالمية الثانية، وفيتنام. الأول قائم على الرفض العام لسياسة استرضاء أدولف هتلر التي انتهت بالفشل - ما يؤكد الحاجة إلى مواجهة العدو مبكرًا وبأقصى قوة عسكرية متاحة؛ أما الثاني - فقائم على تجربة أميركا في فيتنام وعجزها عن هزيمة فيتنام الشمالية الشيوعية على الرغم من التفوق العسكري الصارخ للولايات المتحدة، والذي يذكّر بمخاطر اللجوء إلى الخيار الأول. ولا تزال بعض التعبيرات القادمة من تلك الحقبة في السياسة الخارجية الأميركية قيد الاستخدام من قبيل السقوط في المستنقعات (bogged down) وأكياس الجثث (body bags) واستراتيجية الخروج (exit-strategy)، والتي توحي بالمخاطر الشديدة للجوء إلى القوة العسكرية، من دون تخطيط دقيق لأهداف استخدام القوة، ومعرفة طبيعة العدو الذي نواجهه.

ويتوافر في مجاليْ علم النفس المعرفي وعلم النفس الاجتماعي الآن قاعدة من البحوث في موضوع التفكير في استخدام القياس تتضمن عددًا من الاكتشافات الهامة عن القدرة على حل المشكلات تجدر الإشارة إليها. ومن أبرز هذه الاكتشافات أن القياس مكنزم معرفي يُستخدم في شروط تتسم بعدم اليقين أو الغموض، كأن يواجه الفرد ظروفًا جديدة أو غير مألوفة، أو يواجه موقفًا ضاغطًا شديدًا. ويلاحظ إيزنك وكين (Eysenck and Keane) أن البحوث النفسية الراهنة في حل المشكلات تبحث في كيفية تعامل الناس مع المواقف المألوفة، الروتينية والمتكررة، «لكن البشر يستطيعون حل المشكلات الجديدة

(24) على وجه الخصوص، انظر: Ernest R. May, *Lessons of the Past* (New York: Oxford University Press, 1973); Robert Jervis, *Perception and Misperception in International Politics* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1976), pp. 217-287, and Richard E. Neustadt and Ernest May, *Thinking in Time: The Uses of History for Decision Makers* (New York: Freedom Press, 1986).

وغير المألوفة ويستطيعون أحيانًا الخروج بحلول خلاقة عندما لا تتوافر لهم معرفة قابلة للتطبيق المباشر على الموقف المشكل»[25]. ويتسنى لنا ذلك - أي الخروج بحلول خلاقة - من طريق البحث في خبراتنا السابقة عما يشبه، أو يبدو لنا شبيهًا بالمهمة التي بين أيدينا.

والاكتشاف المهم الثاني - الذي يتصل أساسًا بالعملية التي يأخذ قياس التمثيل مجراه من خلالها - هو أن القياس يتضمن ما يشير إليه العديد من الباحثين بعملية ترسيم (mapping). ويفيد إيزنك وكين أن «العديد من المنظرين ينظرون إلى قياس التمثيل على أنه نتاج لعمليات رسم للبنية المفهومية لمنظومة من الأفكار (تدعى الحقل القاعدي (base domain) على منظومة أخرى من الأفكار (تدعى الحقل المستهدف (target domain)»[26]. ولقد كان مبتكرو نظرية الترسيم هذه هم ديدري غنتنر (Dedre Gentner)، وبول ثغارد (Paul Thagard)، وماري جيك (Mary Gick)، وكيث هوليوك (Keith Holyoak). وترى جيك وهوليوك أن قياس التمثيل، «يقوم على نقل المعرفة من موقف إلى موقف آخر من خلال عملية ترسيم تستهدف التناظر (الذي يكون غير تام في كثير من الأحيان) بين عناصر جسم من المعلومات وعناصر جسم آخر»[27]. وفي عملية المماثلة هذه يتم اكتشاف «التماثل» بين حدث أو موقف أو موضوع وبين حدث أو موقف أو موضوع آخر».

أما النقطة الثالثة ذات الصلة التي تجدر ملاحظتها فهي أن قياس التمثيل عملية بنيوية (a structural process) فقد وجد ديدري غنتنر (Dedre Gentner) أن المماثلة (an analogy) ليست مجرد تعبير عن أن شيئًا يشبه شيئًا آخر؛ وإنما هي مقارنة يفترض فيها المرء أن التشابهات المدركة «بنيوية» (أو ذات أهمية سببية) وليست «سطحية»[28] وفي التطبيق العملي، طبعًا، كثيرًا ما يُجري الأفراد

(25) Michael W. Eysenck and Mark Keane, *Cognitive Psychology: A Student's Handbook* (Hove-London: Lawrence Erlbaum, 1990), p. 399.

(26) المصدر نفسه، ص 401.

(27) Mary L. Gick and Keith. J. Holyoak, «Schema Induction and Analogical Transfer,» *Cognitive Psychology*, vol. 15, no. 1 (January 1983), p. 2.

(28) Dedre Gentner, «Structure Mapping: A Theoretical Framework for Analogy,» *Cognitive Science*, vol. 7, no. 2 (April 1983), pp. 155-170.

قياسًا بين أشياء أو أحداث يظهر بينها تشابه سطحي فحسب. ويستطيع علماء النفس في العادة تصميم تجارب يسهل فيها إيجاد الفروق، لكن ذلك نادرًا ما يتحقق في عالم السياسة الخارجية، وصناعة قراراتها. وقد تعود رؤية ليندون جونسون ودين راسك وجود تماثل بين فيتنام وكوريا، أثناء جدال عام 1965 في مسألة التصعيد في فيتنام، ربما تعود إلى أن البلدين يقع في آسيا[29]. ففي مجال صنع السياسات يسهل الخلط عادة بين التشابهات السطحية والتشابهات البنيوية. ويجب وضع خرائط للعلاقات السببية أو العلاقات ذات المستوى الأرفع بين القاعدة (أي الموقف الماضي الذي تشير إليه المماثلة) والموقف المستهدف (أي الموقف الجديد الذي يُواجَه في الحاضر) لكي تكون المماثلة نافعةً لأغراض التنبؤ، وهو أمر يسير في صناعة القرار السياسي. غير أن الاعتماد على التشابه السطحي يقود إلى أخطاء وتحيزات بطبيعة الحال، ليس أقلها أن قياس التمثيل يتضمن في العادة الوصول إلى استنتاجات من حالة مفردة - وهي ممارسة معرضة للخطأ - كما يعلم أي طالب جيد في مناهج البحث.

وقد كان روبرت جيرفيز أول عالم نفس سياسي يمعن النظر في فوائد المماثلة، حيث كرّس فصلًا من كتابه **العلاقات الدولية بين الإدراك وسوء الإدراك** (*Perception and Misperception in International Politics*) للنظر في كيفية استخدام صنّاع القرارات للتاريخ، وقامت جميع البحوث الحديثة في مجال قياس التمثيل تقريبًا بوحي منه[30]. ويؤكد تحليل جيرفيز جذور قياس التمثيل في الخبرات الماضية لصناع القرارات، مبينًا كيف أن هذا القياس قد يقود إلى تحريف في إدراك صانع القرار لخصائص المواقف التي يواجهها، أو يقود إلى خيارات سياسية لا تتناسب وطبيعة المهمة التي يتعامل معها، أو كلا الأمرين. وحاول

---

(29) Yuen Foong Khong, *Analogies At War: Korea, Munich, Dien Bien Phu and the Vietnam Decisions of 1965* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1992).

(30) المصدر نفسه؛ Alex Hybel, *How Leaders Reason: US. Intervention in the Caribbean Basin and Latin America* (Cambridge, MA: Basil Blackwell, 1990); David Patrick Houghton: «The Role of Analogical Reasoning in Novel Foreign-Policy Situations,» *British Journal of Political Science*, vol. 26, no. 4 (1996), pp. 523-552; *US. Foreign Policy and the Iran Hostage Crisis* (New York: Cambridge University Press, 2001), and Christopher Hemmer, *Which Lessons Matter?: American Foreign Policy Decision Making in the Middle East, 1979-1987* (Albany, NY: State University of New York Press, 2000).

أنصار المقاربة المعرفية في صنع القرارات في بحوثهم اللاحقة تطبيق ملاحظات جيرفيز على حالات متنوعة، مأخوذة من الولايات المتحدة جميعها تقريبًا.

ولا شك في أن كتاب يون فونغ كونغ (Yuen Foong Khong) **حرب المماثلات** (*Analogies at War*) يفوق جميع ما ظهر من كتب في هذا المجال في قوة تحليله لدور المماثلة في السياسة الخارجية. وقد فحص كونغ في كتابه قرارات إدارة جونسون لتصعيد التدخل الأميركي في حرب فيتنام عام 1965، ووجد أن المماثلة أدت دورًا بارزًا في عمليات تفكير أولئك المعارضين للتصعيد والداعمين له على حد سواء. وعلى سبيل المثال، أكد نائب وزير الخارجية جورج بول أن زيادة التدخل الأميركي هناك قد تقود قريبًا إلى «ديان بيان فو جديدة» (Dien Bien Phu)، تتكرر فيها التجربة الفرنسية الكارثية في الهند الصينية حيث فشل الفرنسيون في هزيمة المتمردين الشيوعيين، والقوميين في حرب عصابات، واضطروا إلى التخلي عن مستعمرتهم السابقة. أما الرئيس جونسون، إلى جانب العديد من مستشاريه، مثل دين راسك، فقد كان القياس على كوريا هو خيارهم.

ويؤكد كونغ أن جونسون «استقى العديد من الدروس بكل تأكيد من عدد من الحقب الماضية»، ويضيف كونغ:

> «ولكن كوريا سيطرت على تفكيره [...] ومهما يكن السبب وراء انجذاب جونسون إلى السابقة الكورية، فإن الدرس الذي استخلصه منها هو أن الولايات المتحدة أخطأت بانسحابها من كوريا عام 1949؛ إذ إن الانسحاب قوّى شكيمة الشيوعيين، ما اضطر الولايات المتحدة إلى العودة إلى كوريا بعد سنة لإنقاذ الجنوب. ولم يكن جونسون مستعدًا لتكرار الخطأ ذاته في فيتنام»[31].

بينما استخلص آخرون، مثل مكجورج بندي (MCGeorge Bundy) وهنري كابوت لودج (Henry Cabot Lodge) دروسًا من تجربة ميونيخ؛ الحرب العالمية الثانية في التنبؤ بالسيناريوهات الممكنة إذا لم تتدخل الولايات المتحدة[32].

---

(31) Khong, Ibid., pp. 110-111.

(32) المصدر نفسه، ص 134.

ويؤكد كونغ أننا نستطيع النظر إلى المماثلات كوسائل تشخيص تساعد صنّاع السياسة في أدائهم ست وظائف: وهي: «(1) مساعدة صانع السياسة في تحديد طبيعة الموقف الذي يواجهه، (2) مساعدته على تقدير المخاطر، (3) تزويد صانع السياسة وصفات علاجية. كما أن المماثلات تعين في تقويم البُدَلاء الأخر من خلال، (4) التنبؤ بفرص النجاح، (5) تقويم الصلاحية الأخلاقية للبُدَلاء، و(6) التحذير بشأن المخاطر المرتبطة بتلك البُدَلاء»[33]. وقد طور كونغ ما يدعوه إطار تفسير المماثلة (Analogical Explanation Framework)، وهو تعبير مختزل للاعتقاد بأن المماثلات وسائل معرفية أصيلة تؤدي المهمات المبينة أعلاه. والغرض الرئيسي لكتاب كونغ هو الوقوف ضد وجهة النظر القائلة إن المماثلات تستخدم «لدعم تعصبات الشخص» أو لتبرير قرارات تم اتخاذها بناء على أساس منطقي آخر، ووجد كونغ أن جماعة جونسون اعتمدت مماثلات تقوم على أحداث قريبة من مثل أزمة الصواريخ، أزمة برلين، كوريا، بيرل هاربر، وميونيخ. كما بيّن كونغ، بيانًا مقنعًا، أن مستشاري جونسون في انتقائهم للمشابه التاريخي الذي يفسر ما يجري في فيتنام [في حينه] انتقوا مثالًا تاريخيًا بناء على تشابهات سطحية مع الحالة موضوع الاهتمام[34].

وفي المجال ذاته، يرى بعضهم أن كثيرًا من وجوه أزمة الرهائن الإيرانية عام 1979-1981 - وخصوصًا تلك القرارات التي اتخذها الراديكاليون الإيرانيون والمسؤولون في إدارة كارتر - يمكن تفسيرها اعتمادًا على قياس التمثيل[35]. ففي تشرين الثاني/نوفمبر من عام 1979 تسلق طلبة إيرانيون راديكاليون جدران السفارة الأميركية في طهران وأخذوا مبدئيًا ستة وستين أميركيًا أسرى. وعندما رفض الرئيس الإيراني في ذلك الوقت، آية الله الخميني، إعادة الرهائن إلى أميركا، أدى ذلك إلى إشعال أزمة امتدت على مدى 444 يومًا، وساهمت في تقويض رئاسة كارتر. وكانت الاستخبارات الأميركية والبريطانية قد عملت في الخمسينيات على إسقاط الزعيم الإيراني

---

(33) Khong, Ibid., p. 10.

(34) المصدر نفسه، ص 217-218.

(35) Houghton, *US. Foreign Policy and the Iran Hostage Crisis.*

المنتخب، محمد مصدق، ويبدو أن محتجزي الرهائن ظنوا أن الـ سي آي إي كانت على وشك إطاحة آية الله بطريقة مماثلة. حاول كارتر في البداية إطلاق الرهائن بوسائل دبلوماسية، وأيده في ذلك سايروس فانس (Cyrus Vance)، وزير الخارجية، بناءً على خبرته في أزمة رهائن بويبلو (Pueblo) عام 1968 - والتي فجر فيها الكوريون الشماليون أزمة مماثلة وجرى فيها التوصل إلى حل من طريق المفاوضات - واعتقد فانس أن استراتيجية من هذا النوع قد تنجح إذا تحلّى كارتر بدرجة كافية من الصبر. وأما الآخرون، ومن أبرزهم مستشار الأمن القومي زبيغنيو بريجنسكي (Zbigniew Brzezinski)، فكانوا غير مستعدين للانتظار. وبنى بريجنسكي موقفه هذا، بوجه خاص، على نموذج حملة عنتيبي التي شنتها قوة عسكرية إسرائيلية عام 1976 لغرض مماثل ونجحت فيها نجاحًا كبيرًا[36]. وفي مطلع عام 1980 أمر الرئيس بالشروع في عملية لإنقاذ الرهائن في طهران، وباءت العملية بفشل ذريع. غير أن الصورة الذهنية لـ «عنتيبي أخرى» تفك أسر الرهائن بنجاح هي التي دفعت إلى هذه الحملة، ولم يستطع كارتر وزملاءه مقاومتها. كانت هناك فروق عديدة بين الموقفين، ما جعل عملية طهران أصعب بكثير من ناحية عسكرية، لكن المماثلة يمكن أن تُغري وتُضلل صنّاع القرارات لإهمال مثل تلك الفروق، أو الاستخفاف بها.

غير أنه يجدر بنا أن نكرر، أن صنّاع القرار لا يعتمدون على قياس التمثيل كشكل وحيد من أشكال التفكير في السياسة الخارجية، وإنما هم يعتمدون التفكير القائم على القواعد العامة أو المجردة كذلك (أي التفكير القائم على السكيما). وعلى الرغم من شيوع قياس التمثيل في صنع قرارات السياسة الخارجية، إلا أنه قد لا يكون شائعًا كعمليات معرفية أخرى. وينوّه ماريجك برونغ (Marijke Breuning)، على سبيل المثال، إلى ضرورة الانتباه إلى مثل هذه العمليات، أي إلى أشكال أخرى من التفكير غير قياس التمثيل، فيقول:

---

(36) ذاعت شهرة هجوم عنتيبي في السبعينيات، وجرى تصويرها في أفلام سينيمائية مرات عدّة، آخرها فيلم «آخر ملوك اسكتلاندا».

يقتضي التفكير المجرد تطبيق قواعد عامة أو مبادئ. فعوضًا عن الاقتصار على مقارنة حالتين أو أكثر، فإن حل المشكلة يتطلب فحصها لتحديد ما إذا كان لها خصائص بنيوية معينة، تجعلها تنتمي إلى صنف معين من المشكلات. وعليه، فإن هذا التفكير يكون له نكهة استدلالية أكثر مما هو قياس تمثيل (أو تفكير قائم على حالة واحدة). إن أحد أشكال التفكير المجرد هو التفكير المبني على التفسير، وبيان الأسباب بعبارات شرطية من مثل «إذا... فإنه...»[37].

ولدى فحص مناقشات مجلس الشيوخ حول المساعدات الخارجية عام 1950، وجد بروننغ أن التفكير المجرد كان أكثر شيوعًا بين الشيوخ من قياس التمثيل. وهذا يتوافق مع استنتاج دونالد سيلفان (Donald Sylvan) وزملاءه أن «التفكير في مجال السياسة الخارجية يتجه إلى الاعتماد على التفسير، إلى حد ما»[38].

خاتمة: مفاهيم متكاملة

كيف ترتبط مفاهيم العزو، والسكيمات، والنصوص/ السيناريوهات وقياس التمثيل ببعضها؟ يعتمد الجواب عن هذا السؤال على الشخص المجيب. وإذا كنا ننتظر إجابة من علم المعرفة فهذا العلم لا يزال في مرحلة المهد، وليس هناك إجماع حتى الآن على المفاهيم والتسميات الواجب اعتمادها فيه. وقد طغى اهتمام بعض علماء المعرفة بقياس التمثيل على اهتمامهم بأي تنظيمات ذهنية أخرى. غير أن معظم علماء نفس السياسة - بمن فيهم مؤلف هذا الكتاب - ميالون إلى الانتقائية في هذا الموضوع، ويرون أن هذه المفاهيم مترابطة إلى حد كبير - وربما أنها تشير إلى العمليات المعرفية ذاتها. فربما لا يكون هناك فرق كبير في أن تصف العملية الذهنية التي وصل الرئيس إلى قرار بناء عليها،

---

(37) Marijke Breuning, «The Role of Analogies and Abstract Reasoning in Decision-Making,» *International Studies Quarterly*, vol. 47, no. 2 (June 2003), pp. 229-245.

(38) Donald A. Sylvan, Thomas M. Ostrom and Katherine Gannon, «Case-Based, Model-Based, and Explanation-Based Styles of Reasoning in Foreign Policy,» *International Studies Quarterly*, vol. 38, nos. 61-90 (1994), p. 88.

فتقول: «بنى الرئيس قراره على سيناريو تاريخي» أو «بنى الرئيس قراره على سكيما حدث»، أو «بنى الرئيس قراره على قياس تمثيل»، لأن ما يهمنا في الواقع هو العملية المعرفية التي تم الوصول إلى القرار بناء عليها، وقد تشير جميع التسميات التي أطلقناها إلى الشيء ذاته.

وقد يكون قياس التمثيل مرتبط ارتباطًا وثيقًا بالسكيمات بطريقتين في الأقل: **أولًا**، وقبل كل شيء، يتضمن استخدام السكيما مكنزمات «المناظرة أو المماثلة» (matching) ذاتها التي تدخل في قياس التمثيل؛ فعندما تستدعي سكيما الكلب مثلًا، فإنك تقوم بمناظرة (الأوصاف) المعطاة حول الفراء، والذيل، والنزهات، وما إلى ذلك، مع الصنف العام للكلبيات (وهذا يتضمن استخدام قاعدة التمثيلية (representativeness heuristic) لأن المثال طلب منك تقويم مدى تمثيل «الشيء» غير المسمى لأصناف أو مفاهيم مختلفة). ثانيًا، يبدو أن قياس التمثيل يؤدي دورًا رئيسًا في تكوّن السكيما، إذ إنه قد يساعد على إنشاء القواعد العامة لحل صنف خاص من المشكلات. ويرى العديد من علماء النفس، وعلماء المعرفة أن قياس التمثيل يرتبط بالمعالجة السكيماتية بهذا المعنى. ويفترض جيك وهوليوك، على سبيل المثال، أنه عندما يحل فرد مشكلة بنجاح وبالطريقة ذاتها مرة أو مرتين أو في مناسبات متعددة، فإنه سيُنشيء في النهاية «سكيما مشكلة»، أي منظومة من المبادئ المجردة للتعامل مع هذا النوع من المشكلات التي يتم اشتقاقها من حالات متماثلة معينة، ولكنها تكتسب في ما بعد هوية مستقلة خاصة بها[39]. وبهذه الطريقة قد تتكوّن قواعد عامة يتم اشتقاقها من أي حالة بعينها - وإن كانت تتجاوزها في الوقت ذاته - وتتكوّن بناءً عليها اعتقادات مجردة تمدها التشابهات بالأمثلة، وتوفر لها الدعم الملموس. فعبارة «العدوان يجب أن يُلجم مبكرًا» تمثل قاعدة سكيماتية منفصلة عن أي حالة بعينها، ولكن عبارة «صدام حسين هتلر آخر» هي مماثلة أو مقارنة بين حالتين محددتين. وعلى الرغم من ذلك، فإن هاتين الحالتين مرتبطتان بوضوح. والسكيما العامة

(39) Gick and Holyoak, «Schema Induction and Analogical Transfer,» p. 32.

الخاصة بالعدوان قد تتألف من حالات فردية متنوعة أو مماثلات تتضمن هتلر، وموسوليني، وصدام حسين، وغيرهم.

ولا يتعامل معظم علماء النفس السياسي مع نظرية العزو وقياس التمثيل كنظريتين متعارضتين. كما أن العديد من الباحثين في ميدان تحليل السياسة الخارجية، على سبيل المثال، يمزجون ويناظرون بين مفاهيم يستخرجونها من نظرية العزو، ونظرية السكيما، وقياس التمثيل، كما يفعل الباحثون في مجال الاختيار الانتخابي. ويعتقد كونغ، على سبيل المثال، أن قاعدة الحضورية (أو سهولة استحضار الشيء إلى الذهن) (availability heuristic) تفسر استخدام جورج بول (George Ball) نموذج ديان بيان فو كقياس؛ حيث إنه كان قد عمل محاميًا لدى الفرنسيين في خلال السنوات العشر الأخيرة من الحكم الكولنيالي الفرنسي للهند الصينية، فكانت تجربة ديان بيان فو تجربة شخصية بالنسبة إليه، بطريقة ما، خلافًا لمعظم مستشاري الرئيس جونسون الآخرين. ويعتقد كونغ أن قاعدة التمثيلية أثرت في تفكير ليندون جونسون في هذا الشأن نظرًا لتأثره بالتشابه السطحي بين كوريا وفيتنام. وبالمثل، بدت أحداث 1979 لمعظم الإيرانيين ممثلة لما جرى عام 1953، وكان مثال بويبلو حاضرًا في ذهن سايروس فانس لأنه عمل وسيطًا أثناء الأزمة. وكانت عنتيبي حاضرة في ذهن بريجنسكي بشكل خاص، لأنه صادف أن كان في إسرائيل عندما جرى التخطيط للعملية، وناقش مع المسؤولين الإسرائيليين فكرة القيام بعملية إنقاذ [لتحرير رهائن إسرائيليين في غينيا] في ذلك الوقت. وباختصار، يمكننا القول إن نظرية العزو، ونظرية السكيما، وقياس التمثيل مناحٍ أقرب إلى التكامل مما هي إلى التنافس.

إلا أن هناك فرقًا هامًا بين العزو ونظرية السكيما تجدر الإشارة إليه، وفي إطار هذا الكتاب بوجه خاص. فنظرية السكيما أساسًا نظرية نزوعية (dispositionist)، من حيث إن الأفراد المختلفين يحملون في عقولهم «أحمالًا ذهنية» متباينة. وهم يستخدمون تشبيهات مختلفة استجابة للموقف الموضوعي الواحد بناء على التجارب الخاصة التي سبق أن تعرضوا لها. ولذلك فإن الأفراد

يحملون اتجاهات متباينة. وبالمثل، وكما سنرى عندما نتناول تفسير نظرية السكيما لاستخدامنا للصور النمطية العنصرية، فإن الأفراد يتباينون في مقدار ما يطوّرون من تصنيفات ذهنية ومدى ما يوظفون تلك التصنيفات. أما نظرية العزو فهي، بالمقابل، موقفية في طبيعتها، جزئيًا في الأقل، بمعنى أنها تتيح مجالًا للموقفية والنزوعية معًا [في تفسير السلوك]، على الرغم من أنني وضعت نظرية العزو ضمن الباب الخاص بالنزوعية في هذا الكتاب بهدف تيسير عملية التحليل. فإذا ما نظرنا إلى الخطأ الأساسي في عملية العزو نجد أنه يفسح في المجال لإبراز حقيقة أن سلوك الآخرين قد يكون محددًا بعوامل موقفية، وأن سلوكنا [بوصفنا فاعلين] قد يكون أحيانًا عائدًا إلى نزعاتنا إلى حد كبير. ولمّا كنا سنعود إلى تناول هذه النقطة في الفصل الأخير من الكتاب، فإننا سنؤجل المزيد من المناقشة حتى ذلك الحين.

10

العاطفة والانفعال

إن أي استعراض لميدان علم نفس السياسة لا يكون كاملًا في أي حال إذا لم يتناول الدور الذي يؤديه الانفعال - أو العاطفة - في هذا المجال. فكثير من ظواهر عالم السياسة يكتنفها الانفعال والمشاعر وليس مجرد المعالجة «الباردة» للمعلومات مما بحثناه في الفصل السابق. وحقيقة الأمر أن جميع المفاهيم السياسية مشحونة بشيء من الانفعال، إما الإيجابي منه أو السلبي، وهو ما يشير إليه العديد من علماء النفس بـ «الأفكار الساخنة»[1] (hot cognitions). فالمثيرات (أو الموضوعات) السياسية كثيرًا ما تستدعي انفعالات قوية، ومشاعر، مثل الإعجاب، النفور، السعادة، الحزن، الغضب، الشعور بالذنب، والشكر، والتقزّز، الانتقام، الفرح، عدم الأمان، الخوف، القلق، وغيرها.

ونحن لا ننظر إلى السياسة بحيادية، على غرار كمبيوتر فائق التطور ومجهز بالذكاء الصنّاعي؛ فلا شك في أن قلة من الناس فقط هم من يستطيعون النظر إلى صورة لجورج دبليو بوش أو هيلاري كلينتون، على سبيل المثال، أو النظر إلى صورة الطائرة وهي تصدم مركز التجارة العالمي في الحادي عشر من

(1) أدخل روبرت أيلسون (Robert Abelson) هذا التعبير إلى أدب علم نفس العاطفة في أوائل الستينيات وأصبح مألوفًا في هذا المجال. انظر: Robert Abelson, «Computer Simulation of 'Hot Cognitions,» in: Silvian Tomkins and Samuel Messick, eds., *Computer Simulation of Personality: Frontier of Psychological Theory* (New York: Wiley Press, 1963).

أيلول/سبتمبر عام 2001، من دون أن يشعروا بشيء ما. وقلة من الأميركيين من يستطيعون النظر إلى صورة لأسامة بن لادن من دون أن يشعروا بالغضب، أو النفور، أو أي انفعال سلبي آخر. وبالمثل، فإن كثيرًا من الإسلاميين المتطرفين في الشرق الأوسط ينظرون إلى الصورة ذاتها وهم يشعرون بالفخر، والإعجاب، وغير ذلك من المشاعر الإيجابية. ولا تقتصر هذه الظاهرة على السياسة، طبعًا؛ إذ يُبدي عالم النفس روبرت زيونك (Robert Zajonc) ملاحظة على دور الانفعال في لقاءاتنا الأولى بالآخرين يقول فيها:

> لا يمكن لأحد منا أن يُقدَّم لشخص للمرة الأولى من دون أن ينتابه شعور مباشر إما بالإعجاب أو النفور ومن دون أن يُقدِّر هو ذاته ما انتاب الشخص الآخر من هذه المشاعر. فنحن يُقَوِّم بعضنا سلوك بعض على الدوام؛ يُقَوِّم سلوك بعضنا بعضًا، كما نقوِّم دوافع السلوك وتبعاته.

علاوة على ذلك، وبغض النظر عن المواقف الاجتماعية، «ربما أن القليل جدًا من المفاهيم والأفكار المتصلة بالحياة اليومية لا ينطوي على جانب عاطفي مهم يتسم بالحرارة أو الفتور في أقل تقدير»[2].

ويميل معظم المنتمين إلى المقاربات المعرفية للنظر إلى عمليات معالجة المعلومات كعمليات عقلية خالصة. إلا أن هذا لا ينطبق على نظرية التناسق المعرفي التي وضعها ليون فستنغر (Leon Festinger)، [والتي يبرز فيها دور الانفعال وإن كان ضمنيًا]، حيث يرى فيها أن الضيق النفسي الذي يشعر به الفرد (والناجم عن التنافر) يدفع الناس إلى تعديل اتجاهاتهم، وهو ما يصدق أيضًا على معظم تطبيقات نظرية السكيما. ويزعم كونغ (Khong) أن «نظريات معالجة المعلومات التي ظهرت في السبعينيات والثمانينيات - بما فيها نظرية السكيما - نأت بنفسها، عن وعي، بعيدًا من الأفكار «الحارة»، ويعود ذلك جزئيًا إلى أن «رؤية علم النفس المعرفي للعقل بُنيت على غرار الكمبيوتر»»[3]. وظل موضوع الانفعالات مهملًا في

(2) Robert Zajone, «Feeling and Thinking: Preferences Need No Inferences,» *American Psychologist*, vol. 35, no. 2 (February 1980), pp. 153.

(3) المصدر نفسه، ص 225.

مجال السياسة لسنوات عدة بعد أن اكتسبت مفاهيم معرفية، مثل السكيما، رواجًا في هذا المجال. كذلك فإن ردلوسك (Redlawsk)، يشير إلى أن نظريات القرار العقلاني - المتصلة بمقاربة «الإنسان الاقتصادي» - أحلّت الانفعال حيزًا ضيقًا على الدوام، فضلًا عن أن مناصري النظريات المعرفية التي جرى بحثها في الفصل التاسع قللوا هم أيضًا من قدر هذه القوة تقليديًا، ويفسر ردلوسك ذلك بقوله:

> لأن قياس الاستجابة الانفعالية للمثيرات السياسية بدقة أمر صعب جدًا، اتجه علماء نفس السياسة الذين لا ينتمون بالضرورة إلى اتجاه القرار العقلاني، إلى علم النفس المعرفي لفهم الطرائق التي تتم بها معالجة المعلومات السياسية. وقد قادت الثورة المعرفية التي ظهرت في العقود القليلة الماضية، إلى التركيز على الأسس المعرفية للسلوك السياسي. إلا أن قافلة طويلة من البحوث السيكولوجية (...) تثبت أن العقل ليس خلوًا من التحيز؛ وأن الناس يمتلكون دوافع ذهنية، وانفعالية متنوعة تدفعهم إلى رؤية العالم بطرائقهم الخاصة. غير أن إدراك أهمية الانفعالات لم يأخذ طريقه بعيدًا في علم النفس السياسي. وبدلًا من ذلك أخذ المقاربة المعرفية الخاصة بمعالجة المعلومات بالتطور [في علم النفس السياسي] ويقود إلى التعامل مع مصطلحات من مثل «السكيما»، والقواعد العملية الموجهة لعمل العقل (heuristics)، وصنع القرار «العقلاني»، ولكنه لم يتطرق إلى الدوافع والانفعالات[4].

وظل هذا هو واقع الحال حتى عهد قريب، إلا أنه ما عاد كذلك لحسن الحظ، وخصوصًا في مجال السلوك السياسي للجماهير. وظهر فيض من الكتب عن الانفعال والسلوك الانتخابي في الآونة الأخيرة، على سبيل المثال، وكانت أعمال جورج ماركوس (George Marcus) وزملاؤه ذات أهمية خاصة في هذا الصدد[5].

---

(4) David P. Redlawsk, «Feeling Politics: New Research into Emotion and Politics,» in: David Redlawsk, ed., *Feeling Politics: Emotion in Political Information Processing* (New York: Palgrave Macmillian, 2006), p. 2.

(5) عدا المجلد الذي حرّره ردلوسك، انظر مثلًا: Russell Neuman [et al.], eds., *The Affect Effect: Dynamics of Emotion in Political Thinking and Behavior* (Chicago, IL: University of Chicago Press, =

إن السياسة شأن يتعلق بـ «المشاعر» كما هي شأن يتعلق بـ «التفكير»[(6)]. وليتسنَ لنا فهم الانفعالات السياسية فهمًا أفضل، يكون من المفيد أن نصف الأنواع المختلفة الممكنة للمشاعر السياسية، كما لا بد لنا من تمييز المعاني المختلفة لما نطلق عليه بالعامية مصطلح «انفعال»[(7)]. فهناك اختلاف بين المشاعر المحددة بموضوع ما (object-specific) (بعبارة أخرى، المشاعر الناجمة عن ردة فعل نحو شيء أو شخص معين) والمشاعر العائمة (أي تلك التي لا ترتبط بشيء أو شخص بعينه). ونستطيع أن نسمي هذا الشعور بـ «المزاج». فعلى سبيل المثال، عانى رئيس الوزراء البريطاني السابق ونستون تشرشل الاكتئاب طوال حياته، وكان يشير إلى حالته هذه بـ «الكلب الأسود». ومن الملامح المميزة لمثل هذا المزاج هو أن حامله لا يستطيع في الغالب عزو الشعور القاتم الذي ينتاب الشخص معه إلى أي موضوع أو سبب محدد.[(8)] وبالمقابل، شهد كل منا على الأرجح حالة الاستيقاظ بمزاج «مشرق»، وهذا المزاج بطبيعته أيضًا ربما لا يكون محددًا بشيء معين. ومن ناحية أخرى، فإن «الاستجابات الانفعالية»، قد تكون عابرة وعائمة مثل هذا النوع من المزاج اللطيف، ولكنها قد تكون ردود فعل استثارها شخص أو حدث معين، ونستطيع بذلك عزوها إلى سبب ما. وعلى سبيل المثال، أطلق رونالد ريغان فكاهة إبان فترة الحرب الباردة - لم تكن مناسبة على ما يبدو - عن عزم الولايات المتحدة قصف الاتحاد السوفياتي بالقنابل، فتباينت ردود الفعل لهذه النكتة من الغضب والانزعاج، إلى الضحك.

2007); Drew Westen, *The Political Brain: The Role of Emotion in Deciding the Fate of the Nation* = (New York: Public Affairs, 2007); Ted Brader, *Campaigning for Hearts and Minds: How Emotional Appeals in Political Ads Work* (Chicago, IL: University of Chicago Press, 2006); George Marcus, *The Sentimental Citizen: Emotion in Democratic Politics* (University Park, PA: The Pennsylvania State University Press, 2002), and George Marcus, Russell Neuman and Michael MacKuen, *Affective Intelligence and Political Judgment* (Chicago, IL: University of Chicago Press, 2000).

(6) Redlawsk, ed., *Feeling Politics: Emotion in Political Information Processing*, p. 2.

(7) Victor Ottati and Robert Wyer, «Affect and Political Judgment,» in: Shanto Iyengar and William McGuire, eds., *Explorations in Political Psychology* (Durham, NC: Duke University Press, 1993).

(8) أصبح واضحًا، مع التقدّم في علم الأعصاب، أن الاكتئاب ينتج في الغالب عن نقص في مادة السيروتينين الكيميائية في الدماغ، وهو ما يُعالج غالبًا بواسطة «مانع إعادة امتصاص السيروتينين» مثل البروزاك والعديد من مشابهاته الصيدلانية. وهذه الأدوية لم تكن متوافرة أيام تشرشل.

وتختلف بعض الانفعالات عن كل من الأمزجة، والاستجابات الانفعالية، من حيث إنها أطول عمرًا. ومن هذه الانفعالات ما يتمثل في اتجاهات طويلة الأمد نحملها إزاء زعيم سياسي ما أو حزب معين، اتجاهات يندر أن تتبدّل بين ليلة وضحاها. هذه الاتجاهات تنطوي على «تقويمات» (evaluations) لموضوعاتها [تتباين أساسًا من حيث الإيجابية أو السلبية]؛ إذ نلاحظ مثلًا أن جورج دبليو بوش وهيلاري كلينتون يستثيران تقويمات عاطفية قوية لدى الناخبين الأميركيين [الذي يعكس وجود اتجاهات قوية نحوهما]، تمامًا كما يفعل جون هوارد في أستراليا وطوني بلير في بريطانيا. وبطبيعة الحال، يمكننا تقويم القادة السياسيين من خلال عمليات معرفية «باردة» بالكامل كالسكيمات، أو بناء على مدى التوافق بين قيم السياسي المعين وقيمنا الخاصة. إلا أن هذا أمر بعيد الاحتمال لأن السياسيين يستثيرون على ما يبدو ردود فعل انفعالية لدى الناس (مثل «الإعجاب» الشديد أو «النفور» الشديد، أو مجرد الحيادية).

هل الانفعالات «غير عقلانية»؟

يجري النظر إلى الانفعالات منذ أمد طويل على أنها شيء باطني، شيء يأتي من الأحشاء وليس من العقل. ففي الفكر السياسي القائم على التراث الغربي لا تزال مقابلة «العقل» بـ «الانفعال» شائعة؛ حيث يقف التفكير المنطقي المنظم إلى جانب (وهو شيء مثير للإعجاب ويجب الطموح إليه) ويقف الاندفاع اللاعقلاني، الانفعالي إلى الجانب الآخر (وهو ما يجب تجنبه). كما نجد أن هذا المبدأ ذاته متضمَّن في تمييز فرويد بين الهو، والأنا، والأنا الأعلى، مثلًا. ونحن في العادة ننظر إلى الانفعال كشيء معيق لصناعة القرار ذلك لأن هذه العملية يجب أن تقوم على المعلومات والحقائق.

وهذه النظرة إلى عمليات العقل البشري ماثلة بوضوح في الثقافة الشعبية، وتعود إلى مئات، إن لم يكن آلاف السنين، وصولًا إلى قدماء اليونان. ومن رأى حلقة من مسلسل «حرب النجوم» أو أي من الأفلام التي تدور حوله، على سبيل المثال، يلاحظ أن العلاقة بين الكابتن جيمس كيرك ومساعده السيد سبوك (Spock) تعكس الفروق في طريقة التعامل مع العوالم المحيطة بهما.

فبينما نجد كيرك عاطفيًا وحنونًا من حيث إنه إنسان، نجد سبوك يوبخه بالقدر ذاته على مجانبته المنطق المجرد. وعندما تصدر عن كيرك استجابة انفعالية ما، كثيرًا ما يوبخه سبوك ببرود قائلًا، «هذا ليس منطقيًا يا كابتن»، ويتعرض سبوك نفسه باستمرار لحالة من الصراع النفسي بين نصفه الفضائي المفكر والمنطقي، ونصفه الانفعالي البشري.

على أن هذه المقاربة قد تكون مضللة إلى حد كبير في نظرتها إلى العقل والعاطفة، وهناك في علم النفس السياسي الآن وجهة نظر مختلفة (تزداد شعبية مع الوقت) تتعارض مع تلك القائلة بأن العمليات الانفعالية لا عقلانية في طبيعتها أو غير معرفية[9]. ولكن ما يبدو مؤكدًا هو أن الإدراكات الساخنة (hot cognitions) كثيرًا ما تتنافس مع الإدراكات الباردة. وكل من حاول التخلص من زيادة الوزن يعرف أن اتباع الحمية ينطوي على حرب مستمرة مع النفس، فالمنطق يحثنا على تجنب شراء الشوكولاته والبوظة من جانب، بينما تملي علينا الشهية (أو ربما الشره) عكس ذلك. وكما يشير ستيفن بنكر (Steven Pinker)، فإن «الحياة العقلية تبدو كبرلمان داخل الشخص؛ تتنافس فيه الأفكار والمشاعر في السيطرة كأنما كل منهما طرف لديه استراتيجيات للهيمنة على الشخص بأكمله، أي السيطرة عليك»[10]. ونحن نعرف جميعًا مقدار الضرر الذي قد يحدثه إطلاق العنان للانفعال – وخصوصًا الانفعال السلبي الشديد، كالغضب.

غير أن بنكر يؤكد أن الانفعال ليس أمرًا ضارًا بالضرورة، ويجمع بين مقاربة معرفية حديثة ومقاربة داروين التطوري (evolutionary)، ليؤكد أننا نمتلك انفعالات لأن الانفعالات أثبتت فائدتها لبقاء النوع. نشعر بالحب والترابط مع أولئك القريبين منا، على سبيل المثال، لأننا نرغب في المحافظة على بقاء جيناتنا. ويعترف بنكر أن وجهة النظر هذه غير رومانسية، ولكن قليلين منا يعتبرون مثل هذا الحب «لا عقلاني». هذا، وتُعتبر بعض الثقافات أكثر انفعالية من غيرها؛ خذ على سبيل المثال الصورة النمطية الشائعة عن «اللاتيني ذي الدم

(9) للمزيد، انظر: Marcus, *The Sentimental Citizen: Emotion in Democratic Politics.*

(10) Steven Pinker, *How The Mind Works* (New York: W. W. Norton, 1997), p. 419.

الحار» أو «الألماني الخالي من العاطفة». لكن بنكر يؤكد أن أبناء الثقافات المختلفة لا يختلفون إلا في طريقة تعبيرهم عن انفعالاتهم، وليس في مدى ما يشعرون بها. فقد تمت برمجتنا من خلال عملية التطور لنشعر بالانفعالات ذاتها من حيث الأساس، لكن الاختلاف يكمن في ما يستثيرها - إذ نتوقع ردود فعل مختلفة عبر العالم لرؤية صورة لابن لادن - إلا أننا جميعًا نملك القابلية لنشعر بالانفعالات المختلفة ذاتها.

وتعمل الاستجابات الانفعالية كذلك على الأرجح كقوى دافعة محرّكة؛ فعندما يسعى أحدنا سعيًا حثيثًا لبلوغ هدف ما، ويشعر بمتعة بالغة عند تحقيقه، نقول إن لدى هذا الشخص «شغفًا» به وهو وصف ملائم في الواقع. وبالرجوع إلى مثال السيد سبوك، يشير بنكر إلى أن الساعد الأيمن لكيرك يفترض أن يكون رجلًا خاليًا من العاطفة، إلا أنه:

> لا بد أن يكون لديه دوافع وأهداف، شيء ما منعه من قضاء أيامه في حساب باي (Pi، نسبة محيط الدائرة غلى قطرها) إلى الكوادريليون (الرقم واحد وأمامه (15) صفرًا) أو محاولة حفظ دليل هاتف مانهاتن. لا بد أن شيئًا ما دفعه لاكتشاف عوالم جديدة غريبة، والبحث عن حضارات جديدة، واقتحام أمكنة لم يصلها أحد من قبل. ويفترض أن يعود ذلك إلى الفضول المعرفي، وإلى دافع للتصدي للمشكلات وإيجاد الحلول لها، والترابط مع الحلفاء ومساندتهم، وهذه جميعًا انفعالات. والانفعالات، هي المكنزمات (الآليات) التي تحدد الأهداف العليا للدماغ، وحين تُستثار في اللحظة المواتية، يُطلق الانفعال سلسلة من الأهداف الفرعية المتلاحقة تمثل ما ندعوه التفكير والفعل. ولأن الأهداف والوسائل تتشابك معًا في بناء متعدد الطبقات من الأهداف الفرعية المنبثقة من أهداف فرعية، والمنبثقة بدورها من أهداف فرعية سابقة، ليس هناك حد فاصل بين التفكير والشعور، وليس شرطًا أن يكون التفكير سابقًا للشعور بالضرورة، أو العكس (...)[11].

---

(11) المصدر نفسه، ص 373. لكن شخصية سبوك ليست متناقضة بالضرورة، حيث إننا نعرف أن أحد والديه كان آدميًا. وقد أدهشني العثور على كتاب في مكتبة جامعتي، خلال وضعي هذا الكتاب، مكرّس كليًا لعلم نفس «حرب النجوم». انظر: Robert Sekuler and Randolph Blake, *Star Trek on the Brain: Alien Minds, Human Minds* (New York: W. W. Freeman, 1998).

ويستخدم المؤلفون هذا الكتاب أمثلة لتدريس علم الأعصاب.

ويأخذ ستيفن بنكر الخوف كمثال على ذلك، فيقول: «إن الخوف يُستثار من خلال إشارة إلى وجود خطر داهم، كمواجهة معتدٍ، أو الوصول إلى حافة منحدر خطر، أو تهديد كلامي. فيتكوّن لدينا هدف قصير المدى للهرب، أو الاستسلام، أو الابتعاد عن الخطر، ويعطي الخوف هذا الهدف أولوية نستشعره كأمر مُلحّ»[12]. ويشير بنكر إلى أن خبراء الذكاء الاصطناعي يعترفون بأن صناعة روبوت فعال تتطلب برمجة شيء شبيه بالانفعالات داخلة وذلك: «ليعرف الروبوت في كل لحظة ما عليه أن يفعله في خطوة تالية»[13].

وسبب آخر لعدم التعامل مع الانفعالات كشيء ضار بعمليات التفكير الباردة، هو أنها تساعد في تكوين الصناعة «الجيدة» للقرار، حتى أنها قد تكون أساسية في هذا المضمار. ولكي نصنع قرارات حصيفة، مدروسة علينا قبل كل شيء أن نهتم بتلك القرارات. ويلقى هذا الاستنتاج دعمًا قويًا من أعمال عالم الأعصاب أنطونيو داماسيو (Antonio Damasio) وزملائه. فقد اكتشف داماسيو أن المرضى الذين تضرر لديهم الجزء الجبهي من القشرة الدماغية - المنطقة الدماغية التي تسيطر على الاستجابات الانفعالية - كثيرًا مايتخذون قرارات متهورة، على الرغم من أنهم قد يمتلكون قدرات عقلية عالية[14]. ويؤكد داماسيو أن هذا يعود إلى غياب الانفعالات (كالخوف) الذي قد يمنع الأفراد العاديين من القيام بأفعال قد تكون ضارة بحياتهم الاجتماعية والمهنية. وبعبارة بسيطة، هم يتخذون قرارات سيئة لأنهم أصبحوا لامبالين - بطريقة أو أخرى. ويقول عالم السياسة جوناثان ميرسر (Johnathan Mercer) في هذا الصدد:

> إن الناس من دون انفعالات قد يكونون على وعي بأن عليهم واجبات أخلاقية وأن عليهم أن يراعوا المعايير، وألا يتخذوا قرارات مالية كارثية، ولكن هذه المعرفة مجردة، وقاصرة، لا تترك أثرًا في قراراتهم [ومن دون

(12) Pinker, Ibid., p. 374.

(13) المصدر نفسه، ص 374.

(14) انظر: Antonio R. Damasio, *Descartes' Error: Emotion, Reason and the Human Brain* (New York: Putnam Books, 1994).

الانفعالات] يهتمون بأنفسهم ولا يهتمون بالآخرين، ولا يحاولون تجنب الوقوع في الخطأ، ولا هم قادرون أن يتعلموا من أخطائهم [15].

ويرى ميرسر الانفعال، مثلما يراه بنكر وداماسيو، شيئًا أساسيًا للعقلانية، لا منافسًا لها[16]. أما من حيث الأسبقية، وما إذا كانت الانفعالات «تأتي أولًا» أم الأفكار الباردة، وما إذا كان على النظرية الجيدة في الفكر السياسي أن تبدأ، تاليًا، بالمادة المقدّمة في هذا الفصل أم بمادة الفصل السابق - فهذا جدل قديم قدم علم النفس ذاته. ويأخذ ياكوف فيرتزبيرغر (Yaacov Vertzberger) اتجاهًا انتقائيًا في هذه القضية، معللًا ذلك بأن الانفعالات قد تسبب الأفكار، أو العكس، إذ قد تكون الأفكار هي التي تسبب الانفعالات. وتسبب الانفعالات الأفكار عندما تعمل خبرة سابقة على استثارة ردة فعل انفعالية مباشرة قبل أن تأخذ العمليات الباردة مجراها[17]. ومن ناحية أخرى، كان روبرت زيونك أول من رأى أن الانفعال قد يسبق الفكر البارد، ويتفق العديد من علماء النفس السياسي الآن مع هذا الرأي. فكّر مثلًا في ما يحدث إذا ما رأيت أحدًا يقف أمامك، أو ينظر إليك من شباك قريب فجأة ومن دون سابق إنذار. فإذا لم تكن على وعي بوجود ذلك الشخص هناك على الإطلاق، فإنك ستشعر فجأة، بالدهشة أو الذعر، إلى حد قد يقود بعضنا إلى البكاء أو الصراخ. وفي هذه الحالة نشعر بالخوف أو الدهشة فورًا تقريبًا، قبل أن يقوم العقل الواعي بمعالجة المعلومات المتصلة بما يحدث. لكن ما يحدث لاحقًا، هو أننا إذا ما رأينا صديقًا أو شخصًا نعرفه خلف ذلك الشباك، فإن عقلنا سيعالج (أو يتمثل) هذه المعلومة، وقد نشعر بالحرج إزاء ردة الفعل التي صدرت عنا. وهذا مثال بسيط لحالة وقوع الانفعال قبل الإدراك الواعي، أو قبل معالجة المعلومات.

مرة أخرى، نعاود السؤال ذاته، ما صلة هذا كله بدراسة السياسة. ونستطيع

---

(15) Johnathan Mercer, «Rationality and Psychology in *International Politics,*» *International Organization*, vol. 59, no. 1 (Winter 2005), p. 93.

(16) المصدر نفسه، ص 94.

(17) Yaacov Vertzberger, *The World In Their Minds: Information Processing, Cognition and Perception in Foreign Policy Decisionmaking* (Stanford, CA: Stanford University Press, 1990), p. 176.

الإجابة عن هذا السؤال على أفضل وجه من خلال مناقشة مختصرة لاثنتين من المقاربات الشائعة التي تؤكد أسبقية العاطفة؛ فكلتاهما تتبنى الموقف القائل إننا لا نستطيع التفكير من دون أن نشعر، وأن المشاعر كثيرًا ما تكون هي الأسبق.

نظرية الذكاء العاطفي

يرفض جورج ماركوس وزملاؤه صراحة وجهة النظر الشائعة والقائلة إننا يجب أن «نفكر» قبل أن «نتمكن من الشعور»[18]. ويميزون بين نظامين ذهنيين يصطلحون على تسميتهما: نظام التصريف (disposition) ونظام المراقبة (surveillance)؛ يتعامل الأول منهما مع المعلومات الروتينية، حيث يُقوّم هذه المعلومات بناء على الانفعالات التي يستثيرها مثير ما: وبوجه خاص المثير الذي يبعث على الحماس أو النفور. وبينما يسيّر هذا المكنزم طرائق التفكير الاعتيادية العامة، يتعامل النظام أو الآلية الثانية مع المثيرات الجديدة وغير المتوقعة. والانفعال الغالب الذي يتعامل معه النظام الثاني هو القلق (anxiety)، ويوضح ردلوسك (Redlawsk) عمل هذا النظام على النحو التالي:

> عندما يُستثار نظام المراقبة بمثير غير متوقع (يُدرَك على أنه «خطر») يعمل هذا النظام على رفع مستوى «القلق» لدينا، فيؤدي هذا الانفعال بدوره إلى زيادة الوعي (بالموقف المحيط)، ويُجهّزنا للاستجابة. هذه العملية لا تحركها معالجة معرفية للمحيط، وإنما استجابة انفعالية لمثير غير متوقع. ومن ثم، فإن حالة الاستثارة هذه تؤدي، في النتيجة، إلى تنشيط عملية التعلم؛ لأن الفرد يكون بحاجة إلى فهم طبيعة التهديد الذي يواجهه، ما يدفعه إلى معرفة المزيد عن ذلك المثير[19].

وحيث إن مواجهة هذا النوع من المثيرات تستدعي مزيدًا من اليقظة والانتباه، فإننا لا نستطيع الاعتماد معها على طرائق التفكير المعتادة فحسب. وبذلك، فإن نظام المراقبة يعزز التفكير التعليلي/ التفسيري (reasoned thought) لدينا.

---

(18) Marcus, Neuman and MacKuen, *Affective Intelligence and Political Judgment* , p. 9.

(19) Redlawsk, ed., *Feeling Politics: Emotion in Political Information Processing*, p. 4.

نظرية التفسير المتحيز

قام ملتون لودج وتشارلز تابر بتطوير مقاربة مختلفة قليلًا عن المقاربة السابقة لفهم تأثيرات الانفعال في السياسة[20]. وعلى الرغم من أنهما يتفقان في عملهما الرائد هذا مع ماركوس وزملائه على اعتبار العاطفة سابقة للفكر البارد، فإنهما يقاربان الموضوع على نحو مختلف من حيث إنهما يعتبران:

(1) جميع المثيرات السياسية مشحونة عاطفيًا (وفق فرضية «الأفكار الساخنة»؛ (2) يحفظ الناس في أذهانهم سجلًا حيًا، مستمرًا، ومتجددًا يتضمن مشاعرهم إزاء هذه المثيرات؛ (3) إن مشاعر الشخص الراهنة تؤثر في استقباله للمثيرات كذلك. ويقول لودج وتابر بناء على هذه المعطيات: «إن ما يمكن توقعه بكل وضوح هو أن معظم المواطنين، إن لم نقل جميعهم، سيكونون مفكرين متحيزين وسيكون من الصعب، إن لم يكن من المستحيل عليهم تقويم أي معلومات جديدة بطريقة محايدة»[21].

يرى ردلوسك أن هذين المنظورين غير متكاملين تمام التكامل، فهما يختلفان بوجه خاص في ما إذا كانت مواجهة موقف جديد، أو غير متوقع، قد تؤدي إلى «تحسين» عملية صنع القرار. فبناء على نموذج ماركوس، قادت مكنزمات تطورية إلى تمكيننا من الاستجابة الفورية للمواقف قبل أن تأخذ عمليات التفكير البارد مجراها. ويتوقع أن تؤدي هذه الإمكانية إلى تحسين عملية صنع القرار، وليس الانتقاص منها. أما نموذج لودج وتابر، فإنه يرى، بالمقابل، أن العاطفة تؤدي إلى تحيز في تفسير المعلومات الجديدة. ويشير ردلوسك إلى أن لودج وزملاءه، «يجدون أن الناس ميالون إلى الإمساك ببندقياهم، ودعم اعتقاداتهم السابقة، لذا

---

(20) Milton Lodge and Charles Taber, «Three Steps Toward a Theory of Motivated Political Reasoning,» in: Arthur Lupia, Matthew McCubbins and Samuel Popkin, eds., *Elements of Reason* (New York: Cambridge University Press, 2000); Milton Lodge and Charles Taber: «The Automaticity of Affect for Political Leaders: Groups, and Issues: An Experimental Test of the Hot Cognition Hypothesis,» *Political Psychology*, vol. 26, no. 3 (2005), pp. 455-482, and «Motivated Skepticism in the Evaluation of Political Beliefs,» *American Journal of Political Science*, vol. 50, no. 3 (June 2006), pp. 755-769.

(21) Lodge and Taber, «Three Steps Toward a Theory of Motivated Political Reasoning,» p. 184.

فإنهم يسمحون للعاطفة بالتدخل في متابعة (المعلومات المستقاة حديثًا)»[22].
وعليه، فإن المقاربة الأولى يؤكد دور الانفعالات في مساعدتنا على التعلم، بينما يؤكد الثاني دور الانفعالات في تحيز وتشويه تلك العملية.

كيف ترتبط المعرفة الساخنة بالمعرفة الباردة؟

تمتاز الانفعالات بخاصية دفع ذاتية (أوتوماتيكية)، قد تعكس أحيانًا عمليات لا شعورية. ويُفيد جورج ماركوس في هذا المضمار: «القول إن العمليات الانفعالية تحدث خارج نطاق الوعي، وهي فكرة أحيطت بالشك مبدئيًا، ما عادت محل جدل في الوقت الحاضر»[23]. غير أننا لا نزال بحاجة إلى كثير من البحث عن كيفية تفاعل عمليات معرفية محددة مع الانفعال في مجال السياسة. وعلى الرغم من أن الأفكار الساخنة ليست الموضوع المحوري في كتاب كونغ (Khong) القياس (التاريخي) في الحرب (*Analogies at war*)، فإن كونغ يزعم أن قياس التمثيل/ المُماثَلة ينطوي على جانب عاطفي إضافة إلى الجانب المعرفي الخالص، إذ يقول[24]:

> عندما قرر دين راسك (وزير الخارجية) أن الخطر في فيتنام مماثل للخطر في كوريا، فإن التشبيه لم يستحضر صور الجحافل الصينية تعبر نهر يالو فحسب، ولكنه بعث أيضًا مشاعر سلبية إزاء الحشود الصينية المبهمة.

ويشير كونغ إلى أن دين راسك، «شعر بالندم لفشله في التنبؤ بالتدخل الصيني في الحرب الكورية»[25]. فنحن لا نقوم بمجرد المقابلة بين خصائص موقف وخصائص موقف سابق بحيادية تامة؛ إذ إننا كثيرًا ما نختار التشابه الذي ينطوي على أهمية عاطفية خاصة لدينا، كما كانت كوريا بالنسبة إلى الرئيس

---

(22) Redlawsk, ed., *Feeling Politics: Emotion in Political Information Processing*, p. 4.

(23) George Marcus, «Emotions in Politics,» in: *Annual Review of Political Science*, vol. 3 (2000), pp. 231.

(24) Yuen Foong Khong, *Analogies at War: Korea, Munich, Dien Bien Phu and the Vietnam Decisions of 1965* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1992), pp. 225-26.

(25) المصدر نفسه، ص 224.

جونسون ووزير خارجيته. لذا فإن سهولة الاستحضار المعرفي (cognitive availability) قد تكون ناتجة من عمليات ساخنة وعمليات باردة، غير أن هذا الموضوع، موضوع مهمل في علم النفس السياسي حتى الآن.

فضلًا عن أن الانفعالات - والخوف بشكل خاص - أدت دورًا قويًا في صنع قرارات جونسون بشأن فيتنام، وكان واحدًا من المخاوف التي ألمح إليها أمام موظفيه، هو خوفه من إشعال حرب عالمية ثالثة من دون قصد، نتيجة لدخول الصين إلى الحرب. حيث روى جونسون لدوريس كيرنز غودوين: «كنت أتمدد في فراشي في ظلمة الليل مستيقظًا، أتصور أولادي وهم يطيرون فوق فيتنام الشمالية، وأطرح على نفسي سلسلة لا نهائية من الأسئلة ماذا لو أن واحدًا ضمن الأهداف التي اخترتها اليوم استفزّ روسيا أو الصين؟ ما الذي سيترتب على ذلك»؟[26] ويبدو واضحًا أن حالة جونسون المشار إليها هنا، كانت قائمة في جانب منها على التشابه مع كوريا، ولكن المقارنة استثارت انفعالات قوية لدى جونسون أثّرت لا محالة في صنع سياسته. كذلك فإن تحليل بليما شتاينبرغ (Blema Steinberg) لصناعة القرارات الأميركية بشأن فيتنام يوحي بأن انفعالات الخجل والإهانة كانت تقف وراء قرارات جونسون وخَلَفه نيكسون، حيث تفيد شتاينبرغ أنه:

> كان ليندون جونسون وريتشارد نيكسون كلاهما نرجسيًا (Narcissistic) إلى حد كبير، عانى كل منهما الشعور بالخجل والمذلة. وقد لعبت هذه المشاعر، في إطار البنية النرجسية لشخصيتهما، دورًا مهمًا في تكوين قراراتهما الرئاسية بشأن فيتنام[27].

ربما لا يتفق الجميع على التحليل النفسي الذي تورده شتاينبرغ بشأن الرجلين، إلا أنه ما من شك في أن هذه الانفعالات (وغيرها) كانت ذات أثر في الأحداث السياسية. ومن المخاوف الموثقة التي عاناها جونسون، خوفه من أن

---

(26) Doris Kearns Goodwin, *Lyndon Johnson and the American Dream* (New York: St. Martin's Press, 1976), p. 270.

(27) Blema S. Steinberg, *Shame and Humiliation: Presidential Decision Making on Vietnam* (Pittsburgh, PA: University of Pittsburgh Press, 1996), p. 7.

يكون «أول رئيس أميركي يخسر حربًا». ولربط البحوث في الانفعال بالمقاربات «الباردة» كنظرية السكيما ربما يكون من المفيد النظر إلى الانفعال كنوع من «الطرائق المعرفية المختصرة»، كما تقترح فسك وزميلها بافلشاك[28]. إذ يعتقد هذان الباحثان أننا حين ننظر إلى شخص ما كعضو نمطي من صنف أو جماعة معينة - فيبدو لنا، على سبيل المثال، كـ «ديمقراطي نمطي» أو «جمهوري نمطي»، فإننا نستجيب عاطفيًا لا لخصائص ذلك الشخص، وإنما لخصائص الجماعة التي ينتمي إليها عوضًا من ذلك. وما لم يكن الشخص غير نمطي (أو مختلفًا عن النمطي) بشكل واضح، فإننا ببساطة نُصنّف ذلك الشخص ضمن الصنف العام أو الفئة التي نرى أنه ينتمي إليها، ونهمل خصائصه الخاصة. ويبدو هذا معقولًا من الناحية المعرفية، من حيث إنه كطريق مختصر يخفف الضغط على إمكاناتنا المحدودة لمعالجة المعلومات. ويُتوقع أيضًا أن عواطف بعينها (كالسعادة، والحزن، والغضب، وغيرها) تُطلق أساليبَ معينة لمعالجة المعلومات.

ويبدو أن هذه المقاربة تفترض أن العاطفة ثانوية، وليست أولية، وهي المقاربة التي هيمنت في الواقع على دراسة صنع قرارات النخبة (بما فيها صنع قرارات السياسة الخارجية). إلا أنه ما من سبب يحول دون تطبيق النموذج الذي خرج من معسكر ماركوس، والنموذج الذي خرج من معسكر لودج - تابر على العلاقات الدولية، لما لهما من تأثير في دراسة سلوك الجمهور. ويلاحظ ردلوسك في هذا المضمار أن:

«السلوك السياسي» يركز في العادة على سلوك الجمهور - في إطار الانتخاب في كثير من الحالات - أما علم النفس السياسي المتعلق بالانفعالات فقد استند في تطوره في الغالب إلى تحليل سلوك الفرد. ومن هنا، فإنه يُطبّق على المواقف التي تقتضي معالجة المعلومات عن ظروف

(28) Susan Fiske and Mark Pavelchak, «Category-Based vs. Piecemeal-Based Affective Responses: Developments in Schema-Triggered Affect,» in: Richard Sorrentino and E. Tory Higgins, eds., *Handbook of Motivation and Cognition,* Foundations of Social Behavior, 3 Vols. (New York: Guildford Press, 1986).

سياسية معينة، سواء تحدثنا عن مواطنين يقوّمون مرشحين، أو تحدثنا عن النخبة وهي تتناول الأفكار المتعلقة بالحرب والسلام[29].

المظاهر السلبية للانفعال

إذا اتفقنا على اعتبار الشعور جزءًا مكملًا للعمليات المعرفية الإنسانية، فيجب ألا يخفى علينا حقيقة أن الانفعالات السلبية قد يكون لها أثر ضار في السياسة يقود إلى مخرجات غير عقلانية مطلقًا. وسنرى كثيرًا من هذه الآثار عندما ننظر إلى الجوانب السلبية للقومية والصراع العرقي، على سبيل المثال، حيث تمثّل الانفعالات الإنسانية الشديدة وقود هذه الظواهر. وبالمثل، فإن بعض أشكال المزاج قد تضر بنوعية القرارات التي يتم اتخاذها. إذ يشير فيرتزبيرغر إلى أن «الأكتئاب يؤدي إلى معالجة متصلبة للمعلومات تتسم بضيق الأفق»، وهو يؤدي بشكل خاص إلى تقويمات للموقف (الراهن) ذات طبيعة متطرفة، ومغالية في التعميم[30]. وقد كان ليندون جونسون مكتئبًا بشدة في خلال الأيام الأخيرة له في المكتب الرئاسي، وربما تكون هذه الحالة قد أسهمت في سياسته المغلقة في فيتنام، وعدم استعداده للإصغاء إلى النصائح المناهضة لسياسته تلك. ويبدو أن ريتشارد نيكسون قد مر بحالة مماثلة في خلال فضيحة ووترغيت[31].

ويظهر الميل في دراسة العلاقات الدولية، والسياسة الخارجية، إلى التعامل مع الانفعال بوصفه قوة سلبية أكثر مما يظهر في دراسة سلوك الجمهور كالتصويت الانتخابي والرأي العام، وهناك مبررات لهذه النزعة: إذ إنه من الصعب النظر إلى الانفعالات التي تشعل الكراهية العنصرية، والقتل الجماعي، والتفرقة العنصرية، والإرهاب، والحرب بين الدول، بوصفها قوى إيجابية في العالم. إلا أن الدور الإيجابي للانفعال في صنع القرار بدأ يحظى بالاهتمام داخل فرع العلاقات الدولية من علم النفس السياسي. وتمثل بحوث جوناثان

---

(29) Redlawsk, ed., *Feeling Politics: Emotion in Political Information Processing*, pp. 5-6.

(30) Vertzberger, *The World In Their Minds: Information Processing, Cognition and Perception in Foreign Policy Decisionmaking*, p. 177.

(31) المصدر نفسه، ص 177.

ميرسر حول الثقة ورالف وايت (Ralf White) حول التعاطف، مثالًا بارزًا على هذه المقاربة. وستتم في الفصل السادس عشر مناقشة أعمال هذين الباحثين، التي تتسق أيضًا مع الفرضية القائلة إن الانفعالات يمكن أن تترك أثرًا «جيدًا» في الأساس على صناعة القرار.

هل يمكن قياس الانفعالات؟

كثيرًا ما تعرّض موضوع الانفعال للإهمال، كما سبق أن أشرنا، من أصحاب مقاربة الإنسان الاقتصادي، ومقاربة الإنسان النفساني، ومنظري الخيار العقلاني، ودعاة تطبيق علم النفس المعرفي على حد سواء. غير أن الميل إلى تنحية موضوع العاطفة جانبًا يعود في جانب منه إلى صعوبة قياس الاستجابات الانفعالية ذاتها. فإذا أهديت شخصًا مقربًا، على سبيل المثال، قطعة ملابس في مناسبة ما، فأخذها الشخص بيديه وقال، معبرًا عن سروره بالمفاجأة: «هذا بالضبط ما كنت أريده دائمًا»!؟ كيف لك أن تعرف ما إذا كان هذا الشخص قد أحب القطعة حقيقة أم لا؟ ربما يكون أحبها فعلًا، وربما يكون قد خاب رجاءه، وقال لنفسه «هذا ليس ذوقي في الحقيقة» أو «كنت أريد سيارة جديدة». ربما يكون الشخص قد كره القطعة، ولكنه ادعى أنه أحبها لأننا عندما نحب أحدًا، نحاول وسعنا ألا نجرح مشاعره مهما كان الثمن.

وعلى الرغم من بساطة هذا المثال، فإن هناك عددًا من المشاعر التي قد تطفو على السطح في مثل هذه الحالة: الحب المتبادل، النفور من قطعة الملابس أو الإعجاب بها، عدم تقبل ذوق الشخص الآخر في الملابس، الرغبة في عدم جرح مشاعر الشخص، الطمع، خيبة الأمل، التعاطف، وما إلى ذلك. وبالرغم من حقيقة أن الشخصين اللذين يتواصلان انفعاليًا صديقان حميمان معتادان قراءة الاستجابات الانفعالية لبعضهما بعضًا، إلا أنه لا يمكن لأي منهما أن يكون متيقّنًا تمامًا بالانفعال الذي انتاب الشخص الآخر على وجه التحديد. فإذا كانت قراءة الانفعالات في الحالات الفردية على هذا القدر من الصعوبة، فكيف يتسنى لعلماء النفس قياس انفعالات الناس بصورة دقيقة؟

خاتمة

تتمثل الطريقة الشائعة في قياس الاستجابة الانفعالية في الطلب إلى الناس وصف مشاعرهم. وقد استخدم محللو سلوك الجماهير هذه الطريقة منذ زمن طويل لاستطلاع مشاعر الأفراد إزاء مثيرات سياسية أو غيرها. كذلك فقد امتلكنا منذ أمد طويل طرائق أكثر علمية لقياس الاستجابة الانفعالية، مثل قياس معدل ضربات القلب، ومستوى التعرق مستخدمين تكنولوجيا مشابهة تمامًا لتلك المستخدمة في قياس كشف الكذب (على الرغم من أن هذه التكنيكات ليست مستخدمة في علم النفس السياسي على نطاق واسع على الإطلاق). ويواجِه هذان النوعان من طرائق القياس بعض المشكلات ولا شك؛ فالناس ربما لا يكونون مستعدين أو قادرين على وصف انفعالاتهم بدقة، كما أن استخدام التكنولوجيا القديمة لقياس الاستجابات الانفعالية ينطوي على قضايا أخلاقية من جهة، ومالية من جهة أخرى، إضافة إلى أن هذه التكنيكات ربما لا تكون دقيقة أو مناسبة لبعض الأغراض. غير أننا ستتطرق في الفصل القادم إلى بعض التطورات في تكنولوجيا علم الأعصاب - أبرزها تكنيكات تصوير الدماغ مثل الإف إم آر آي والإم آر آي (fMRI and MRI) - التي يسّرت قياس الانفعالات التي يخبرها الأفراد بشكل مباشر. علاوة على ذلك، بدأ علماء نفس السياسة بالعمل مع علماء الأعصاب لإستخدام مثل هذه التكنيكات في بحوثهم المشتركة. ومع أن البحوث في هذا المجال لا تزال في مهدها، ومع أن نتائج البحوثِ القليلة فيه لا زالت أولية جدًا، غير أننا سنتناول بعضًا من أحدث البحوث التي أُجريت في هذا المجال ونقوّم نتائجها في الفصل الآتي.

11
علم الأعصاب

تخيّل مشهدًا من المستقبل: ترى قاعة ملأى بالمشاهدين ينظرون إلى سلسلة من الصور على شاشة عملاقة، غير أن ما يجري عرضه ليس فيلمًا عاديًا يتناول معه المشاهدون الكولا والبوشار وتُعرض فيه دعايات للعروض السينمائية القادمة، وإنما يجلس كل مشاهد وهو يضع على عينية نظارات حماية (goggles) غريبة الشكل، موثقة إلى جهاز مثبت في المقعد المجاور. كما أن ما يشاهدونه ليس مألوفًا كذلك، فهو شيء لا يمارسه إلا المولعون بالسياسة في أوقات فراغهم؛ حيث يجري عرض بعض الصور لسياسيين معروفين، أو غير معروفين، يظهرون فيها مبتسمين، يرتدون بدلات رسمية. ثم تتحول الصور الثابتة تلك - التي عُرضت بحجم ضخم ملأ الشاشة العملاقة - إلى مقاطع صوتية من خطابات سياسية تتضمن دعايات لمرشحين مختلفين يظهرون واحدًا تلو الآخر.

ويجري ذلك في الوقت الذي يجلس فيه فريق من علماء الأعصاب، وعلماء المعرفة في غرفة البث يشاهدون صورًا مختلفة تمامًا. حيث تعرض سلسلة من الشاشات [الصغيرة] الموجودة أمامهم صورًا ملونة تُظهر كل منها النشاط العصبي في الدماغ لواحد من المشاهدين. فحين يظهر على الشاشة العملاقة أحد الديمقراطيين البارزين ويبدأ بالكلام تضيء أجزاء مختلفة من أدمغة المشاهدين التي تظهر عبر الشاشات. [ومن حيث إنه يكون قد سبق التعرف إلى الاتجاه السياسي لكل من المشاهدين من خلال استبيان يجري

تطبيقه قبل العرض، يكون الباحثون على دراية بالاتجاه السياسي لكل مشاهد]. فحين يظهر المرشح الديمقراطي البارز، نلاحظ أن منطقة الجزيرة (insula) تضيء بقوة على الشاشة التي تعرض صورة دماغ مشاهد صرح على الاستبيان ذلك اليوم بأنه جمهوري. وهذا يشير بوضوح إلى أن المشاهد المعين هذا لا يحب ذلك المرشح الديمقراطي، حيث إن منطقة الجزيرة في الدماغ ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالمشاعر السلبية كالشعور بالتقزّز. وحين ينتقل الفيلم إلى عرض صور سياسي جمهوري معروف، يتبدل نمط الإضاءة الذي يظهر على الشاشات. وبالنظر إلى الشاشة الخاصة بالناخب الجمهوري نلاحظ أن المنطقة الجبهية السفلى من القشرة الدماغية (inferior frontal cortex) هي التي تضيء بقوة في هذه الحالة، ما يشير إلى أن هذا الشخص يشعر بالتعاطف أو التماهي (identification) مع ذلك السياسي. غير أن نمطًا معاكسًا للنمط الذي لاحظناه هنا يظهر على الشاشة المجاورة التي تُظهر صورة دماغ شخص صرّح بأنه ديمقراطي.

وعلى الرغم من أن هذا السيناريو قد يبدو خيالًا علميًا أو شيئًا بعيد المنال، فإن علماء الأعصاب بدأوا فعليًا بإجراء تجارب من هذا القبيل. ومع أني بالغت في وصف حجم التجربة هنا وطورت التكنولوجيا المستخدمة فيها لإحداث تأثير دراماتيكي، إلا أن علماء الأعصاب جوناس كابلان (Jonas Kaplan) وجوشوا فريدمان (Joshua Freedman) وماركو لاكوبوني (Marco Lacoboni) من جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس (UCLA) قاموا بمثل هذه التجارب قبيل الانتخابات الرئاسية للولايات المتحدة عام 2004 و2008. وفي الوقت ذاته - أي قبل انتخابات 2004 - كان درو ويستن (Drew Westen) وزملاءه من جامعة إيموري (Emory) يُجرون مثل هذه التجارب بشكل مستقل عن زملائهم في جامعة كاليفورنيا[1]. واستخدم الباحثون في كلتا التجربتين تكنيكات التصوير الوظيفي

---

(1) انظر: Jonas Kaplan, Joshua Freedman and Marco Lacoboni, «Us Versus them: Political Attitudes and Party Affiliation Influence Neural Response to Faces of Presidential Candidates,» *Neuropsychologica*, vol. 45, no. 1 (2007), pp. 55-64, and Drew Westen [et al.], «The Neural Basis of Motivated Reasoning: An FMRI Study of Emotional Constraints on Political Judgment During the US Presidential Election of 2004,» *Journal of Cognitive Neuroscience*, vol. 18, no. 11 (2006), pp. 1947-1958.

الثاني منهما ملخص أيضًا في: Drew Westen, *The Political Brain: The Role of Emotion in Deciding the Fate of the Nation* (New York: Public Affairs, 2007), especially x-xv.

بالرنين المغناطيسي (functional magnetic resonance imaging (fMRI) لاكتشاف الجوانب العصبية من استجابات الناخبين للصور السياسية.

وقد قام كابلان وفريدمان ولاكوبوني (Kaplan, Freedman and Lacoboni) في إحدى تجاربهم بربط ناخب ديمقراطي يدعى جون غراهام إلى جهاز إم آر آي (MRI) وعرضوا عليه صورًا صُمِّمت لاستثارة استجابات انفعالية، من مثل دعاية انتخابية لبوش تضمنت صورًا من أحداث الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر ودعاية (daisy chain) السيئة الصيت من حملة ليندون جونسون للانتخابات الرئاسية عام 1964. وأتبعوا ذلك دراسة تتضمن تصويراً لناخبين ديمقراطيين وجمهوريين وهم ينظرون إلى صور لجورج دبليو بوش وجون كيري[2]. وفي دراسة أحدث، قام لاكوبوني وزملاءه عام 2007 (حين كانت الحملة الانتخابية لعام 2008 في أوجها) باختبار عشرين شخصًا - عشرة رجال وعشر نساء - ممن صرحوا بأنهم مترددون بشأن التصويت للديمقراطيين أو للجمهوريين، وعرضو عليهم وهم يضعون نظارات خاصة صورًا ثابتة وصورًا متحركة لمرشحين مختلفين وفق الترتيب السابق[3]. كما قام المجربون بالطلب إلى الأشخاص المشاركين في التجربة تقويم مشاعرهم نحو المرشحين على «مقياس للمشاعر» مدرج من «مفضّل إلى حد كبير» إلى «غير مفضل إلى حد كبير».

---

(2) انظر: Jonas Kaplan, Joshua Freedman and Marco Lacoboni, «Us Versus them: Political Attitudes and Party Affiliation Influence Neural Response to Faces of Presidential Candidates,» *Neuropsychologica*, vol. 45, no. 1 (2007), and John Tierney, «The 2004 Campaign: Using MRIs to See Politics on the Brain,» *New York Times*, 20/4/2004.

يدين المؤلف بالشكر للدكتور ماركو لاكوبوني (Marco Lacoboni)، مدير مختبر «الإثارة المغناطيسية عبر الجمجمة» (Transcranial Magnetic Stimulation) في مركز أمانسون لوفليس للتخطيط الدماغي في جامعة كاليفورنيا لوس أنجلوس (UCLA) (Ahmanson Lovelace Brain mapping Centre)، والدكتور جفري بدويل (Jeffrey Bedwell) من المختبر العصبي المعرفي الكلينيكي (Clinical Cognitive Neuroscience Laboratory)، في جامعة وسط فلوريدا (University of Central Florida) على مساعدتهما في الإجابة عن أسئلة المؤلف حول استخدامات تكنيكات المسح ودورها في قياس الانفعالات. والشكر موصول لدايفد بيرل (David Pearl) من جامعة واشنطن على إثارة اهتمامي في موضوع علم الأعصاب بوجه عام والإي إي جي (EEG) بوجه خاص.

(3) Marco Lacoboni, Joshua Freedman and Jonas Kaplan, «This is Your Brain on Politics,» *New York Times*, 11/11/2007.

كانت النتائج التي وصل إليها علماء الأعصاب مثيرة للاهتمام. ففي دراسة عام 2007 على سبيل المثال، لوحظ أن منطقة «اللوزة» (amygdala) ومنطقة «الجزيرة» أضاءتا بشكل ملحوظ عندما عُرض على الرجال والنساء كلمة «جمهوري» - وهاتان المنطقتان مرتبطتان بالقلق والتقزّز، في حين أنهما أضاءتا بدرجة أقل عندما شاهد الرجال والنساء كلمة «ديمقراطي». هذا وأثبتت التجربة أن المشاعر منقسمة تجاه السيدة هيلاري كلينتون، بحسب ما كان متوقعًا، لكن ما لم يكن متوقعًا هو أنهم وجدوا أن هذا الانقسام قائم داخل كل من الحزبين بالقدر الذي هو قائم بينهما. ويصف لاكوبوني وزملاءه ما ظهر على هذا المستوى العصبي بقولهم:

> «إن الناخبين الذين قوّموا السيدة كلينتون تقويمًا سلبيًا على الاستبيان لم يكونوا مرتاحين تمامًا لتقويمهم. حيث ظهر لدى هؤلاء الناخبين نشاطًا ملحوظًا في القشرة الطوقية الأمامية (anterior cingulate cortex)، وهي مركز انفعالي في الدماغ يُستثار عندما يشعر الشخص أنه مضطر إلى السلوك بطريقتين مختلفتين ولكن عليه أن يختار واحدة منهما. فبدا أن الناخبين كانوا يصارعون دوافعَ غير معترف بها لقبول السيدة كلينتون».

كذلك وجد لاكوبوني وزملاءه أن جون إدواردز (John Edwards) استثار ردود فعل قوية. «عندما نظر المشاركون في التجربة إلى صور السيد إدواردز ظهر لدى من قوّموه تقويمًا متدانيًا نشاطًا في منطقة «الجزيرة»، وهي منطقة مرتبطة بالشعور بالتقزّز وغيره من المشاعر السلبية، أما الناخبون المتأرجحون الذين لم يقوموه تقويمًا متدانيًا، فإنهم عندما نظروا إلى صوره الثابتة، أظهروا نشاطًا ملحوظًا في المناطق الدماغية التي تحتوي خلايا عصبية مرآتية (mirror neurons؛ وهي من الخلايا التي تنشط عندما يشعر الفرد بالتعاطف مع شخص آخر، ما يوحي أن هؤلاء الناخبين يشعرون بشيء من الارتباط معه»[4].

وفي ذات الوقت - أي قبل الانتخابات الرئاسية لعام 2004 مباشرة - كان درو ويستن وزملاءه في جامعة إيموري يعملون على مشروع مشابه

(4) «This is Your Brain on Politics,».

تقريبًا[5]. وفي حين أن كابلان وزملاءه درسوا ردود فعل أشخاص منتمين حزبياً لصور مرشح حزبهم ومرشح الحزب المعارض، درس ويستن وزملاءه ما يحدث داخل أدمغة المنتمين حزبيًا عندما يتلقون معلومات تزعزع الثقة بمرشح حزبهم من جهة، ومرشح الحزب المعارض، من جهة أخرى. فقد قام ويستن وزملاءه بداية بجلب خمسة عشر فردًا من الديمقراطيين المتشددين وخمسة عشر من الجمهوريين المتشددين. وعندما كان المشاركون في التجربة يوثقون إلى جهاز «إف إم آر آي» (fMRI)، كانوا يتلقون معلومات متناقضة بشكل سافر تُنسب إلى المرشح غير المفضل، وعلى نحو يكون الاقتباس الأول الذي يُنسب إلى المرشح يتناقض بوضوح مع الاقتباس الثاني الذي يُنسب إلى المرشح ذاته.

وقد افترض الباحثون أن هذا الوضع سيؤدي إلى استثارة أجزاء الدماغ التي تتعامل مع التناقض والعواطف السلبية على نحوٍ يؤدي إلى إزالة التعارض (أو عدم الاتساق في حالة المرشح المفضل)، وكانَ هذا ما جرى التوصل إليه في هذه التجربة فعلًا. ويقدم هذا البحث للمرة الأولى دليلًا عصبيًا مستقلًا يدعم النموذج النظري الخاص بالهوية الحزبية - وهو دليل بارز ومثير للاهتمام. ويجدر أن نذكر أن هذه الهوية هي في الأساس رابطة عاطفية أو انفعالية بحزب سياسي معين، وقد كان مؤسسو هذه النظرية متأثرين بنظرية الاتساق المعرفي إلى حد كبير - كما هو واضح. كذلك فإن دراسة ويستن وزملاءه توحي بأن الموالين لأحزابهم بقوة يحذفون (أو يتغاضون عن) المعلومات غير المرغوب فيها المتعلقة بمرشحهم، كما تكشف هذه الدراسة للمرة الأولى أن عملية من هذا النوع تظهر في صور المسح الدماغي على نحو ما.

بيّن الفصل السابق أن الطرائق الواعدة لقياس الانفعالات إنما تأتي من علم الأعصاب. وسنرى في هذا الفصل كيف أن التقدم في فهمنا لعمل الدماغ الإنساني يخلق فرصة لزيادة فهمنا لعمليات الإدراك والتفكير، وللطرائق التي تؤثر

---

(5) انظر: Westen [et al.], «The Neural Basis of Motivated Reasoning: An FMRI Study of Emotional Constraints on Political Judgment During the US Presidential Election of 2004,» and Westen, *The Political Brain: The Role of Emotion in Deciding the Fate of the Nation.*

بها الانفعالات في هذه العمليات بشكل خاص، غير أن دراسة ما يمكن أن نسميه علم الأعصاب السياسي (political neuroscience) لا تزال في مهدها في الوقت الذي نضع فيه هذا الكتاب، حيث لا نجد سوى النزر اليسير من المقدمات - مما قد يصل إلى حجم كتاب - وُضعت لعلماء السياسة، إلى جانب عدد محدود من المقالات العلمية حول صلة علم الأعصاب بالسياسة[6]. وهناك الكثير من الكتب الدراسية طبعًا التي تستهدف علماء الأعصاب وطلبتهم، ولكننا كطلبة سياسة نواجه مشكلة داهمة تتمثل في عدم أُلفتنا بما يزخر به الميدان من مصطلحات. ويعلّق جون راتي (John Ratey) على ذلك قائلًا:

> إن اللغة المستعملة في وصف الدماغ لغة مبهمة إلى حد يفوق ما كانت عليه مصطلحات التحليل النفسي القديمة من إبهام. فقد كانت تلك المصطلحات من الصعوبة والغموض ما جعل الخوض في أدب ذلك الموضوع ومتابعته متعذرًا إلا على المتخصصين المدربين في مجال التحليل النفسي؛ فلم يكترث معظم الناس بالإلمام بها معتبرين أن التعامل

---

(6) انظر الاستثناء على ذلك في: Westen, Ibid., and George Marcus, *The Sentimental Citizen: Emotion in Democratic Politics* (University Park, PA: The Pennsylvania State University Press, 2002).

كذلك فإن بحوث دارن شرايبر في الاتصال السياسي مهمة أيضًا. انظر على وجه الخصوص بحوثه التالية: Darren Schreiber: «Political Cognition as Social Cognition: Are we all Political Sophistiates?,» in: Ann Crigler [et al.], eds., *The Affect Effect: Dynamics of Emotion in Political Thinking and Behavior* (Chicago, IL: University of Chicago Press, 2007); «The Evolution of the Political Brain: An Agent-Based Model,» paper presented at: The Annual Meeting of the American Political Science Association, Philadelphia, 2006, and «Monkey See, Monkey Do: Mirror Neurons, Functional Brain Imaging, and Looking at Political Faces,» paper presented at: The Annual Meeting of the American Political Science Association, Washington, DC, 2005.

ومن البحوث مهمة أيضًا، انظر بحوث جويل واينبيرغر (Joel Weinberger) ودرو ويستن (Drew Westen) في «الإعلان السياسي دون مستوى الوعي» (Subliminal Political Advertising) في: Joel Weinberger and Drew Westen, «RATS, We Should Have Used Clinton: Subliminal Priming in Political Campaigns,» paper presented at: The International Society of Political Psychology Conference, Portland, OR, 2007.

وللاستزادة في استخدامات علم الأعصاب في السياسة والمناقشات الدائرة حولها، انظر: Rose McDermott, «The Feeling of Rationality: The Meaning of Neuroscientific Advances for Political Science,» *Perspectives on Politics*, vol. 2, no. 4 (2004), pp. 691-706; *Political Psychology*, vol. 24. no. 4 (2003); George Marcus, «The Psychology of Emotion and Politics,» in: David Sears, Leonie Huddy and Robert Jervis, eds., *Oxford Handbook of Political Psychology* (New York: Oxford University Press, 2003), and Dustin Tingley, «Neurological Imaging as Evidence in Political Science: A Review, Critique, and Guiding Assessment,» *Social Science Information*, vol. 45, no. 1 (2006), pp. 5-33.

معها يجب أن يترك للمتبحرين في ذلك المجال على غرار ما كانت تُعتبر لغة علماء الكمبيوتر في بداية السبعينيات. وإذا شك أحد في ذلك، عليه أن يلقي نظرة سريعة إلى كتاب في فيزيولوجيا الأعصاب، لأن ذلك هو كل ما يحتاج إليه ليشعر برغبة في الهرب والاختباء[7].

وعلى الرغم من ذلك، فإن إدراك الإمكانات الكامنة في علم الأعصاب يقتضي الإحاطة ببعض مصطلحات الدماغ، من حيث إن هذه المصطلحات كما رأينا، أساسية لفهمنا لهذا الفرع المتطور من فروع علم المعرفة الذي قد يساعد على إلقاء الضوء على نطاق واسع من أشكال السلوك السياسي.

أُسس الدماغ البشري

لقد تطور الدماغ البشري عبر ملايين السنين. ويشير ويستن في هذا المضمار إلى أن «خلق الدماغ كان عملًا رائعًا، تركبت فيه الدوائر العصبية واحدة فوق الأخرى، وأخذ الصرح العتيد يزداد كبرًا وتعقيدًا»[8]. وإذا ما انتقلنا من الطبقات الخارجية للدماغ إلى الحبل الشوكي (spinal cord)، نجد الدماغ البشري نوعًا من السجل «الأثري» الحي لتاريخه الخاص. فقد تطور جذع الدماغ (brain stem) بداية – وهو صيغة بدائية جدًا للأدمغة التي نمتلكها اليوم تتيح لنا الشعور والتفكير، وتنظيم دوافعنا الأساسية كالجوع. وبعد ذلك تطور المخ (cerebrum). ويشير ويستن إلى أن «التطور اللاحق أدى إلى نشوء تركيبات عليا شديدة الأهمية تتصل بخبرتنا الانفعالية». ومن أبرز هذه التركيبات اللوزة (amygdala)، «التي تدخل في كثير من العمليات الانفعالية، من التعرف إلى التعبيرات الانفعالية لدى الآخرين والاستجابة لهم، إلى إلصاق دلالة انفعالية بالأحداث، إلى تحديد شدة الخبرة الانفعالية، إلى توليد مشاعر الخوف وربطها بالخبرات المختلفة التي يمر بها الإنسان»[9].

---

(7) John Ratey, *A User's Guide To the Brain: Perception, Attention and the Four Theaters of the Brain* (New York: Vintage Books, 2001).

(8) انظر: Westen, *The Political Brain: The Role of Emotion in Deciding the Fate of the Nation*, p. 50.

(9) المصدر نفسه، ص 57.

ويعمل الدماغ البشري في وضعه الحالي عمل سكين سويسري (a Swiss army knife) (أداة متعددة الأجزاء) بحيث يقوم كل مكوِّن من مكونات هذه الأداة بتأدية وظيفة محدّدة؛ وفي جانب آخر نجد مكونات مختلفة تشترك في أداء وظائف مختلفة ولا تعمل هذه المكونات بصورة منفصلة عن بعضها بعضًا. ويقارن ويستن الدماغ بـ «النظام الفيديرالي»[10]، إذ تعمل بعض المناطق فيه، وخصوصًا تلك التي تطورت أولًا عندما كان الدماغ في حالته البدائية، تعمل كمراكز متخصصة في وظائف معينة. «فاللوزة» ترتبط بالخوف والغضب بوجه خاص، في حين أن «الجزيرة» (insula) ترتبط بالتقزّز. غير أن مناطق أخرى من الدماغ تؤدي دورًا في عمليات متنوعة، ما يجعل من الصعب إطلاق حكم عام بشأن ما تقوم به من وظائف. وكما يشير ويستن:

> لا يقوم أي مكوّن من مكونات الدماغ بوظيفة واحدة فحسب، وكلما أفاض علماء الأعصاب في دراسة الدماغ أيقنوا أن أي نشاط عقلي ذي شأن إنما يأخذ مجراه من خلال استثارة دوائر من مختلف أجزاء الدماغ والتنسيق بين هذه الدوائر، بدءًا بالدوائر البدائية في جذع الدماغ إلى الدوائر الحديثة التطور الواقعة في الفلوق الجبهية[11] (frontal lobes).

ويُحيط بالمخ القشرة الدماغية، ويعرف الجزء الممتد منها من وراء العيون إلى قمة الرأس بالقشرة ما قبل الجبهية (prefrontal cortex) وهي ذات أهمية خصوصًا في عمليات التفكير. وتُعرف المنطقة الممتدة من قمة الرأس إلى الجانبين من القشرة الدماغية بالقشرة الجانبية ما قبل الجبهية – (dorsolateral prefrontal cortex)، وهي منطقة «تنشط لدى الناس دائمًا عندما يقومون بإجراء الخيارات، «كما يشير ويستن[12]. وتعمل بوصفها «دوائر تفكير» (reasoning circuits)، ويكون لها دور عند الموازنة بين المكاسب التي تتحقق من أفعال معينة والخسائر التي تترتب على تلك الأفعال، وباستخدام اللغة التي اعتمدناها في هذا الكتاب، فإن هذه المنطقة من القشرة الدماغية تتضمن أساسًا عمليات تفكير «باردة». ثم نجد المنطقة الوسطى

---

(10) Westen, The Political Brain, P. 53.

(11) المصدر نفسه، ص 60.

(12) المصدر نفسه، ص 60-61.

البطنية ما قبل الجبهية من القشرة الدماغية (ventromedial prefrontal cortex)، وهي منطقة ترتبط بالانفعالات والتفكير الانفعالي (emotional reasoning) (والذي سميناه الفكر «الحار» («hot» cognition)). كما يبدو أن هذه المنطقة تعمل حلقة وصل بين العمليات الحارة والعمليات الباردة.

وعندما بدأ الأطباء الأوائل بفتح الجمجمة البشرية والنظر إلى الكتلة الرمادية داخلها كانت معرفتهم بالدور الذي يؤديه كل جزء من أجزاء تلك الكتلة في التفكير محدودة. وبدأنا نتعرف إلى وظائف الدماغ البشري بالتدريج وذلك من خلال ملاحظة النتائج التي تظهر على سلوك الفرد إثر تعرضه لتلف عصبي من نوعٍ ما[13]. وقد عرضنا في الفصل السابق وصفًا مختصرًا لأعمال أنطونيو دماسيو (Antonio Damasio)، وهو عالم أعصاب كان لبحوثه أثر في شروع علماء نفس السياسة في الالتفات إلى الانفعالات. وقد كانت واحدة من أكثر القضايا التي أثارها دماسيو اجتذابًا للانتباه قضية التأثير المتبادل بين التفكير والانفعال. وكانت حجته في وجهة النظر هذه تقوم، في الجانب الأكبر منها، على ملاحظة ما يحدث لدى الأفراد الذين يتعرضون لتلف في القشرة الوسطى البطنية ما قبل الجبهية أو حولها وهي المنطقة التي تعمل على التكامل والتناسق بين التفكير والانفعالات. ويبدأ دماسيو كتابه المعنون **خطأ ديكارت** (*Descartes' Error*)، على سبيل المثال، برواية قصة فينيس غيج (Phineas Gage) الشهيرة[14]. فقد كان غيج ناظر بناء سكك حديد، تعرّض عام 1848، لحادث خطير عندما أدى انفجار هائل في موقع عمله إلى نفاذ شظية حديد إلى مقدمة رأسه وخروجها من الجزء العلوي من الرأس. لكن غيج لم ينج من الحادث فحسب، وإنما بدا سليمًا من أي خلل في وظائفه العقلية - حتى إنه كان قادراً على الجلوس ورواية ما حدث بهدوء وتعقل بعد وقوع الحادث مباشرة - مثيرًا بذلك دهشة طبيبه وزملائه في العمل.

وبدا فينس غيج كأنه قد تعافى تمامًا مما أصابه، على الصعيد الجسمي في

---

(13) للمزيد، انظر: Oliver Sacks, *The Man who Mistook his Wife for a Hat and Other Clinical Tales* (New York: Touchstone, 1998).

(14) Antonio Damasio, *Descartes' Error: Emotion, Reason and the Human Brain* (New York: Putnam Books, 1994).

الأقل. غير أن الذين يعرفونه لاحظوا تغيرًا واضحًا في شخصيته. ويقول دماسيو في وصفه للتغيرات التي طرأت عليه: إن «غيج ما عاد غيج»، حيث إن غيج «الجديد» فقدَ وقاره، وأصبح نزقًا، عديم الصبر في تعامله مع الآخرين، يُجادل بعناد مدافعًا عن أفكار سريعًا ما يتخلى عنها. وما عاد قادرًا على الاستقرار في عمل ثابت، كما أنه ما عاد يهتم بالتقاليد الاجتماعية، والقوانين الأخلاقية على الإطلاق وصار يأخذ قرارات سيئة في حياته، خلافًا لما كان عليه في السابق. فما الذي حدث؟ يؤكد دماسيو أن غيج تعرّض نتيجة للحادث إلى تلف في القشرة الوسطى البطنية ما قبل الجبهية، وهي منطقة «شديدة الأهمية لصنع القرارات السوية»[15]. وقد وصل دماسيو إلى هذا التشخيص بناء على صورة لدماغ غيج استخرجها معتمدًا على جمجمته وعلى أحدث تكنيكات التصوير الدماغي المعروفة. وبناء على حالات عديدة مماثلة، يقدم دماسيو أدلة مقنعة على أن الأجزاء «الانفعالية» من الدماغ تقوم بدور أساس في صنع القرارات السليمة، العاقلة. وبذلك، فإن دماسيو يقلب الفرضيات القديمة قدم الزمن رأسًا على عقب - تلك الفرضيات التي تقول إن الانفعال [أو العاطفة]، والعقل، خاصيتان، أو طريقان، منفصلان يمكن النظر إليهما بمعزل عن بعضهما بعضًا.

الإمكانات الواعدة للتصوير الوظيفي بالرنين المغناطيسي (fMRI)

سيكون جميلًا لو استطعنا أن نميز بدقة بين الانفعالات الإيجابية المختلفة (كالحب والتعاطف والفخر) والانفعالات السلبية المختلفة (كالتقزّز، والكراهية، والخوف) باستخدام التصوير، وإن كنا نستطيع ذلك الآن، إلى حد ما، إذا أخذنا بعين الاعتبار أن مثل هذه التكنيكات تستخدم بشيء من الحذر في الوقت الراهن، والدراسة التي أجراها كابلان (Kaplan) وزملاءه على انتخابات عام 2004 تشهد بذلك. ويُبيّن ماركو لاكوبوني (Marco Lacoboni) أن:

> هناك دليلًا لافتًا على وجود علاقات بين مناطق دماغية معينة وانفعالات معينة (منها العلاقة بين منطقة اللوزة والخوف، ومنطقة الجزيرة insula والتقزّز)، لكن ليس هناك خريطة محددة للموقع المعين والانفعال المعين.

(15) *Emotion, Reason and the Human Brain*, p. 32.

ويجب أن تفسّر كل استثارة في ضوء الشروط التجريبية التي تُلاحظ الاستثارة المعينة [للمنطقة الدماغية] ضمنها[16].

ويعود ذلك مرة أخرى إلى أن الدماغ البشري يشبه السكين السويسري (الأداة المتعددة المكونات) على نحو ما، إلا أن وظائفه موزعة على مناطق متعددة. وبالنظر إلى اللوزة، على سبيل المثال، يرى رالف أدولفز (Ralph Adolfs) أن:

التركيب المعين من تراكيب الدماغ قد يشترك في عدد من العمليات، وفقًا للوقت الذي يجري فيه رصد نشاط ذلك التركيب، ووفقًا لتفاصيل العمل المطلوب وسياقه. فمن الممكن أن تشترك اللوزة في التقويم المبدئي، السريع لأهمية المثيرات [التي يتعرض لها المجرب عليه]، كما تشترك في الوقت ذاته في التقويم اللاحق لتلك المثيرات ضمن سياق وهدف محددَيْن[17].

وعلى الرغم من أن الخبراء قد يختلفون في تفسير نتائج التصوير الدماغي، فإن من الواضح أن هذا التكنيك يتفوق على الاستبيانات من نواحٍ عدة. وهناك سببان رئيسيان وراء ذلك. أولهما يتمثل في أننا لا نستطيع الثقة دائمًا بِما يقوله لنا المجيبون على الاستبيانات بشأن الانفعالات التي تنتابهم (أو ما يقولونه بشأن اعتقاداتهم السياسية). ووفقًا لعالم النفس السياسي شانتو آينغار (Shanto Iyengar) فإن:

تسعين في المائة من نتائج البحث الأكاديمي في العلوم السياسية حول آثار الإعلانات التي تبث في الحملات الانتخابية، نتائج زائفة، من حيث إنها تقوم على التقارير الذاتية (self-reports) للأفراد حول الرسائل والصور الكثيرة والمتباينة التي يتعرضون لها في تلك الحملات. ومن هنا، فإن أي جهد يوجه نحو رصد الاستجابات الحقيقية للأفراد إزاء الإعلانات - سواء كانت استجابات عصبية أم لفظية أم سلوكية - يمثل خطوة في الاتجاه الصحيح[18].

---

(16) اتصال بين المؤلف والدكتور ماركو لاكوبوني في 7 كانون الأول/ ديسمبر 2007.

(17) Ralph Adolphs, «Cognitive Neuroscience of Human Social Behavior,» *Nature Reviews: Neuroscience*, vol. 4, no. 3 (March 2003), pp. 165-178, and Tingley, «Neurological Imaging as Evidence in Political Science: A Review, Critique, and Guiding Assessment,» p. 19.

(18) مذكور في: Tierney, «The 2004 Campaign: Using MRIs to See Politics on the Brain».

ثانيًا، ربما لا يكون المجيبون عن الاستبيانات واعين تمامًا بالانفعالات التي تنتابهم في حقيقة الأمر، أو ربما لا يكونون قادرين على التعبير عنها بطريقة واضحة. ويؤكد لاكوبوني أن «الشيء الجميل في التصوير هو أنه يزودنا معلومات لا نستطيع الحصول عليها من التقارير اللفظية»، ليس أقلها أن «هناك أدلة وافرة على أن التمثيل الماورائي/ الفوقي (metarepresentation) للحالات المعرفية يعمل منفصلاً عن الحالات المعرفية [الجارية في الواقع] ذاتها»[19].

ولعل واحدًا من أهم المحددات المعروفة لاستخدام المتخصصين للتصوير الدماغي في العلوم الاجتماعية هو كلفتها المادية. حيث يفيد لاكوبوني أن، «كلفة الجهاز في مركزنا تصل إلى 600 دولار في الساعة، وهذا هو المعدل السائد». فكل من أجرى صورة MRI في الولايات المتحدة ونظر إلى الحصة التي غطاها التأمين الطبي - أو اضطر، لا قدّر الله، إلى دفعها بنفسه بالكامل - سيشهد بكلفتها الباهظة. وهذا يعني أن استخدام التصوير الدماغي في علم النفس السياسي يعتمد، لا محالة، على قدرة الباحث على الحصول على منح بحثية ضخمة. فالسيناريو الذي بدأنا به هذا الفصل ممكن تكنولوجيًا، لكن أكبر معيق لإجرائه هو كلفته. ومن ناحية أخرى، سيتساءل العديد من علماء الأعصاب عما إذا كان من الضروري أخذ جمهور السينما كاملًا كمجرب عليهم للحصول على البيانات التي تهم المتخصصين في العلوم الاجتماعية الذين يفضلون عينات كبيرة من المبحوثين لأسباب إحصائية، لكن المتخصصين بالتصوير الدماغي يميلون، كما يشير لاكوبوني، إلى النظر إلى هذه القضية بطريقة مختلفة، إذ يفيد أنه:

> حتى لو أن الباحث امتلك مصادر مالية غير محدودة، فإنه من الصعب (وربما ليس من المفيد) إجراء بحوث على مئات من المبحوثين. لأن التصوير الوظيفي بالرنين المغناطيسي، أولًا وقبل كل شيء، يولّد أطنانًا من البيانات حتى لو تم أخذ مبحوث واحد في جلسة واحدة. وثانيًا، لأنه ليس من المؤكد ما إذا كان أخذ عدد أكبر من المبحوثين سيوفر معلومات

(19) انظر مثلًا بحوث جوناثان سكولر (Jonathan Schooler).

أفضل. والحجم الغالب للعينة هذه الأيام في دراسات التصوير يراوح بين 15 و25 مبحوثًا (وكان أقل من ذلك في ما سبق).

وقد خرج لاكوبوني من دراساته الخاصة في هذا المجال بانطباع مفاده «أن الباحث لا يجني كثيرًا من مجرد إشراك أعداد كبيرة من المبحوثين»[20]. غير أن الكثيرين لا يوافقون على أن الأعداد الصغيرة من المبحوثين ستكون كافية لتناول موضوعات كموضوع السلوك الانتخابي. ويشير الدكتور جفري بدويل (Jeffrey Bedwell) – وهو عالم نفس إكلينيكي (Clinical Psychologist) من جامعة سنترال فلوريدا ذو خبرة في التصوير الدماغي – إلى أن دراسات التصوير الدماغي لم تهتم تقليديًا بالمقارنات الاقتصادية الاجتماعية، على سبيل المثال. غير أن علماء نفس السياسة يعرفون أن أخذ عينات ممثلة لمجتمعها تمثيلًا جيدًا أمر أساسي للوصول إلى استنتاجات شاملة لذلك المجتمع. ويرى بدويل أن دماغ فرد لا يكون مطابقًا لدماغ فرد آخر بالضرورة، فالنمو الخاص بالدماغ يمكن أن يختلف باختلاف الجندر، والوضع الاقتصادي الاجتماعي، والعمر، على سبيل المثال. ويؤكد أن المقارنات المستهدفة في دراسات السلوك الانتخابي التقليدية لا بد أن تراعي ذلك عندما يقع الاختيار على التصوير الدماغي كوسيلة لدراسة هذا السلوك[21].

الإمكانات الواعدة للرسم الكهربائي لموجات الدماغ

يُستخدم الرسم الكهربائي لموجات الدماغ EEG تقليديًا لتقصي المستويات العامة لنشاط الدماغ لأغراض طبية. حيث يُستخدم هذا التكنيك، على سبيل المثال، لتقصي الانقطاعات في النشاط الدماغي لدى المرضى الذين يعانون نوبات مرضية. ويمكن استخدام هذا النوع من الوسائل لتقصي مكنزمات الانتباه (ما إذا كان الناس منتبهين للدعايات الانتخابية وغيرها من المثيرات السمعية أو البصرية، على سبيل المثال). وخلافًا للتصوير الدماغي (fMRI)،

---

(20) اتصال بين المؤلف وماركو لاكوبوني.

(21) اتصال بين المؤلف وجفري بدويل (Jeffrey Bedwell) في 13 كانون الأول/ ديسمبر 2007.

لايوفر الرسم الكهربائي لموجات الدماغ الكثير من التفاصيل للأجزاء المحددة من الدماغ التي تجري استثارتها، وبذلك فإنه لا يُبلغنا سوى القليل عن المشاعر المحددة التي يخبرها الناس. وفي حين أنه يمكن أن يكشف لنا أن المرشح المعين يستثير استجابات انفعالية من نوع ما، إلا أنه لا يستطيع تحديد نوع تلك الاستجابة. غير أن المشكلة التي تواجهنا في استخدام الـ «إي إي جي» (EEG) كما يصفها لاكوبوني، هي أنه لايعطينا معلومات مكانية كافية لنعرف بالضبط من أين تأتي الإشارة [التي يرصدها الجهاز]، وخصوصًا عندما تتعلق تلك الإشارة بالانفعالات والمكافأة [أي الاستجابة الدماغية عند تلقي مكافأة]، والتي كثيرًا ما تتصل بالتركيبات الدماغية ما تحت القشرة الدماغية»[22]. ومن جهة أخرى، إذا احتجنا إلى توقيت العمليات بأجزاء من الثانية، فإن الـ إي إي جي (EEG) يكون أفضل من الـ إف إم آر آي (fMRI) (لأن الأخير أبطأ في سجله الزمني ويتعامل بالثواني لا بأجزائها)[23]. كما أن الإي إي جي (EEG) أقل سعرًا، وهذا يمثّل ميزة رئيسة فيه. وبالقدر الذي نحتمل فيه محدوديات هذه الوسيلة، فإنه يمكن استخدامها للقيام بأعمال بحثية مثيرة للاهتمام، والأجيال المستقبلية من علماء نفس السياسة سيتعهدون ذلك ولا ريب.

المحددات وإمكانات إساءة الاستخدام

ينظر معظم علماء الأعصاب - بما فيهم لاكوبوني - بحذر إلى ما يمكن أن يضيفه التصوير الدماغي إلى معرفتنا في السياسة. ويفيد جوناثان كوهن (Johnathan Cohen) مدير «مركز دراسة الدماغ والعقل والسلوك» في جامعة برنستون أن:

> التصوير الدماغي يعطي فرصة هائلة لدراسة استجابات الناس للمعلومات السياسية؛ لكن نتائج مثل هذه الدراسات كثيرًا ما تكون معقدّة، ويجدر أن نقاوم إغراء أن نقرأ فيها ما نرغب في أن نقرأه، قبل أن نفحص استنتاجاتنا بدقة كافية[24].

---

(22) اتصال بين المؤلف وماركو لاكوبوني.

(23) محادثة بين المؤلف وجفري بدويل.

(24) مقتبس من: Tierney, «The 2004 Campaign: Using MRIs to See Politics on the Brain».

لكن كثيرًا من الباحثين لا يشعرون بالحرج من طرح أفكار جريئة لبحوث جديدة. فقد خرج أحد المعلقين باقتراح، مثير للجدل، طالب فيه بإجراء مسح دماغي للمرشحين الرئاسيين قبل النزول إلى الانتخابات. ويؤكد دانيال آيمن (Daniel Amen) أن «ثلاثة من الرؤساء الأربعة الأواخر في الولايات المتحدة كان لديهم أمراض دماغية واضحة المعالم؛

> فقد كان مرض الألزهايمر واضحًا لدى ريغان في خلال فترة رئاسته الثانية، وقام أناس غير منتخبين بتغطية نسيانه وتسيير شؤون البلاد. كنا نواجه أزمة وطنية، لم يعلم بها إلا القليلون. ولقد بيّنت دراسات الدماغ أننا نستطيع التنبؤ بالألزهايمر قبل خمس إلى تسع سنوات من ظهور أعراضه الأولى لدى الناس[25].

ويبدو هذا الرأي سليمًا لأنه يتفق مع السجل التاريخي لريغان على نحو ما. وإضافة إلى ذلك، يعزو آيمن «سوء الأحكام، والسعي إلى الإثارة» لدى بل كلينتون إلى «مشكلات في القشرة ما قبل الجبهية»، وهذه قفزة منطقية مشكوك في صحتها، من حيث إن آيمن لم يجرِ أي نوع من التصوير الدماغي لكليتون يدعم خروجه بأي ادعاء من هذا القبيل. فما الذي يفسّر سلوك كليتون الشديد الحذر عامة فيما يتعلق بأجندته السياسية المحلية، إذا كانت المشكلة عصبية في واقع الأمر؟ ويذهب آيمن بعيدًا، دونما دليل، مضيفًا، «إن الصعوبات التي يكابدها الرئيس الحالي (أي جورج دبليو بوش [في حينه]) مع اللغة، وتصلبه العاطفي، هي أعراض لحالة مرضية تتصل بالفلق الصدغي (temporal lobe)» وتذكرنا هذه الادعاءات بطبيعة الحال، بادعاءات كُتّاب السِيَر النفسية حين يعزون أنماط سلوك بالغة التعقيد، إلى أسباب بالغة التبسيط، وغير موثوق بها. كما أن هناك خطر إساءة استخدام البحوث العلمية الموثوق بها، أو تحريفها، والخروج منها بادعاءات حول ما يمكن وما لا يمكن لعلم الأعصاب الكشف عنه.

---

(25) Daniel Amen, «Getting Inside their Heads... Really Inside,» *Los Angeles Times*, 5/12/2007.
إلّا أن التطوّر في تصوير الدماغ لم يصل بعد إلى مستوى يسمح بتنبؤات موثوقة حول الألزهايمر لاحقًا، على أي حال. والإشارة هذه مبنيّة على محادثة بين المؤلف وجفري بدويل.

كذلك، فإن واحدًا من المحددات الكامنة في الدراسات الراهنة حول صنع القرارات السياسية باستخدام التصوير الدماغي بتمثّل في أننا لا نزال غير قادرين على تحديد ما يجري بالضبط داخل أدمغة الذين يشاهدون الصور السياسية. صحيح أن لدينا قدر من معرفة الأدوار التي تقوم بها أجزاء مختلفة من الدماغ في استجاباتنا للمثيرات، إلا أن هذه المعرفة ما زالت محدودة. وفي حين أن علماء الأعصاب يستطيعون ملاحظة أجزاء الدماغ المرتبطة بالعمليات الانفعالية «حين تضيء» هذه الأجزاء [عند حدوث الانفعال]، غير أنه يكون من الصعب في بعض الحالات معرفة سبب حدوث ذلك بالضبط. ففي الدراسة التي قام بها كابلان وزملاءه، والتي ناقشناها في ما سبق، يعترف الباحثون أن بعض نتائجهم كانت متسقة مع فرضيات مختلفة. حيث وجدوا دليلًا، على سبيل المثال، على ظهور نشاط في القشرة الجانبية ما قبل الجبهية (dorsolateral prefrontal cortex) والقشرة الطوقية الأمامية (the anterior cingulate cortex) عندما كان الناخبون ينظرون إلى صور المرشح المنافس لمرشح حزبهم. على أنه ليس من الواضح ما إذا كان هذا يحدث لأن أنصار الحزب المعين يكبتون الانفعالات السلبية عمومًا لأنها انفعالات غير سارة، أم لأنهم يكبتون انفعالات إيجابية قد يضمرونها نحو المرشح المنافس، أم لأنهم يحاولون تضخيم مشاعرهم السلبية نحو ذلك المرشح[26].

كما أن علماء السياسة يجب أن يقاوموا إغراء استخدام التصوير الدماغي أو الرسم الكهربائي للدماغ كهدف بحد ذاته[27]. فهي كغيرها من وسائل البحث واحدة من العديد من الوسائل الممكنة. فقد يكون استخدام الـ إف إم آر آي (fMRI) ملائمًا في بعض الحالات - حين يكون لدينا ما يبرر الاعتقاد بأن تكنيكات التقرير الذاتي غير ملائمة للدراسة قيد البحث - غير أن هناك حالات أخرى تتاح لنا فيها وسائل أفضل - وإن كانت أقل بريقًا. كما أن هناك وسائل

(26) Kaplan, Freedman and Lacoboni, «Us Versus them: Political Attitudes and Party Affiliation Influence Neural Response to Faces of Presidential Candidates,» pp. 60-61.

(27) حول هذه النقطة، يمكن الرجوع إلى: Darren Schreiber, «Race and Social Norms: An FLVIRI Study,» paper presented at: The International Society of Political Psychology Conference, Portland, OR, 2007.

سلوكية تُغنينا عن التقارير الذاتية، كقياس زمن الرجع (reaction time) لمثيرات مقنّعة [ذات دلالة سياسية مثلا]. والتصوير الدماغي، وإن كان يزودنا صورًا متحركة للدماغ، فإنه ربما لا يخدم أغراضًا بحثية أخرى كتوضيح الصلة بين الفكر والسلوك - وهو غالبًا ما يكون عليه الحال في علم النفس السياسي. وبالنظر إلى الكلفة العالية لتكنيكات التصوير الدماغي على وجه الخصوص، علينا أن نسأل أنفسنا على الدوام ما إذا كان التصوير الدماغي سيوصلنا إلى معلومات بالغة القيمة لا يمكننا الوصول إليها بأي وسيلة أخرى.

الموقفية مقابل النزوعية، مرة أخرى

على الرغم من أن تطبيق علم الأعصاب على السلوك السياسي لا يزال في مراحله المبكرة، فإنه يمثّل منهجًا بالقدر الذي يكوّن فيه كيانًا نظريًا متكاملًا، وهو يمثل بوضوح مقاربة نزوعية، من حيث إنه يركز على النظر في الخصائص الفردية. وهو بذلك ينضاف إلى المنظورات التي تفترض أن خصائص الأفراد - المتمثلة في هذه الحالة بكيمائيات الدماغ - هي التي تكوّن سلوكهم. ولن يكون في علم الأعصاب ما يعني علماء السياسة في شيء ما لم يكن لنشاط الدماغ دور في تكوين السلوك السياسي. لكن علم الأعصاب في وضعه الراهن لا يحسم هذا الجدل بطريقة أو بأخرى. ولو نظرنا ثانيةً في بحوث ستانلي ملغرام (Stanley Milgram) الرائدة في مجال الطاعة، على سبيل المثال، والتي تناولناها في الفصل الرابع من هذا الكتاب، وافترضنا أن تكنيكات الـ إف إم آر آي (fMRI) كانت متاحة في حينه، وأنه اختبر مبحوثيه وهو يلاحظ التغيرات في أنماط نشاطهم الدماغي في الوقت ذاته، لتوقعنا تزايدًا في نشاط أجزاء الدماغ المتعلقة بالصراعات الداخلية (مثل القشرة الطوقية الأمامية (anterior cingulate cortex) ومناطق أخرى تصاحب الانفعالات التي تستثيرها الطاعة أو عدم الطاعة. ولو كان ملغرام قد أدخل هذا التكنيك فهل يتبيّن لنا ما إذا كان النشاط العقلي هو الذي «يسبب» الطاعة أو عدم الطاعة؟ أم هو يُبيّن ما يحدث لكيمياء الدماغ ونحن نستجيب لموقف خارجي «يُفرض» علينا فيه أن نتصرف على نحوٍ مخالفٍ لاعتقاداتنا؟

هذا سؤال مثير، لسنا طبعًا في موقع يسمح لنا بإجابته في الوقت الراهن. فالجواب لن يكون قاطعًا، وإنما سيكون بصيغة احتمال نقول فيه «ربما، لكن

ليس بالضرورة». وفي هذه الحالة، سيُظهر لنا التصوير التغيرات التي تجري في الدماغ عندما يشعر المريء بأنه مضطر إلى أن يسلك بطريقة تتناقض مع أحكامه أو قيمه: وهو كشف ممتع بحد ذاته، لكنه لا يضيف كثيرًا إلى فهمنا للسلوك. وكما يشير داستن تنغلي (Dustin Tingley)، «إذا لاحظنا النمط «س» في نشاط الدماغ جنبًا إلى جنب مع السلوك «ص» فإن ذلك لا يقدم بالضرورة تفسيرًا لسبب حدوث «ص»، في إطار القضايا السياسية التي تهمنا»[28]. وهذه هي النقطة الأساس في الإجابة عن سؤال «ما أهمية علم الأعصاب لنا كطلبة سياسة؟» وبالنظر إلى تجارب ملغرام، مرة أخرى على سبيل المثال، إذا كان الموقف الذي أحاط به مبحوثيه هو العامل المسبب لسلوكهم، فإن أخذ صور للنشاط الدماغي للمبحوثين لن يضيف كثيرًا إلى فهمنا لسلوكهم، غير أن هذه الصور، من ناحية أخرى، قد تعزز تكهنات ملغرام بأننا جميعًا نمتلك نزعة إلى الطاعة بُنيت فينا في خلال تطورنا كنوع.

وعلى الرغم من هذا وذاك، يُجمع معظم الباحثين على التفاؤل بأن التقدم في علم الأعصاب سيفيد علم السياسة - ذات يوم في الأقل - ويقود إلى تقدم في فهمنا للسلوك السياسي. فالتصوير الدماغي يزخر بإمكانات تتيح لنا «رؤية» التفكير السياسي للعامة، وتكنيكات كالرسم الكهربائي للدماغ (وإن كانت محدودة الإمكانات) تكون ملائمة عندما نكون مهتمين بما إذا كان لرسالة سياسية ما صدى لدى الناخب. وقد اقتصر توظيف التطورات في علم الأعصاب حتى الآن على سلوك الانتخاب، والثقافة السياسية/ الاطلاع السياسي (sophistication)، والتسامح، واستُخدمت بوجه خاص في دراسة استجابة الدماغ للأفراد من العنصر المغاير [لعنصر الفرد]، وهو ما سنتناوله في الفصل الرابع عشر من هذا الكتاب. وعلى أية حال، فإن هذه التكنيكات قد تُحدث تطورًا ثوريًا في نظرة علماء السياسة إلى جميع العمليات المعرفية [بما فيها المتعلقة بالانفعالات]، وليست تلك التي اعتبرت تقليديًا خاضعة لسيطرة العمليات المعرفية الحارة فحسب.

---

(28) Tingley, «Neurological Imaging as Evidence in Political Science: A Review, Critique, and Guiding Assessment,» p. 6.

خاتمة

يتضح لنا الآن جليًا أن هناك أشكالًا مختلفة من الموقفية والنزوعية على حد سواء. وسنحاول في الباب الأخير من هذا الكتاب التصدي لمهمة صعبة، يجب أن نعترف، لم يسبق أن تم تناولها على هذا النحو من قبل: وهي مهمة تناول عدد من المجالات الإمبيريقية التي أخضعها علماء نفس السياسة للدراسة - وذلك ضمن الإطار العام الذي اعتمدناه في هذا الكتاب - وعلماء نفس السياسة الذين درسوا هذه المجالات المتنوعة هم أيضًا جماعة متنوعة إلى حد كبير تعمل من منطلقات نظرية متعددة وتعكس اهتمامات مختلفة.

غير أنه ما من إطارٍ نظري يتصف بالكمال، كما اعترفنا في بداية هذا الكتاب، وقد يصادف القارئ، في ما سنتناوله من مجالات بحث [في الفصول الخمسة القادمة]، مناطق مبهمة؛ فربما نجد نظريةً ما لا تتلاءم مع مقاربة أو أخرى من هاتين المقاربتين، أو أنها تتلاءم مع كلتيهما، وهو الحال الأكثر شيوعًا، وهذا أمر متوقع، حيث إن قلّة من النظريات تؤكد أهمية اعتقادات الأفراد وشخصياتهم وتستبعد أثر السياقات، والبيئات، والمواقف التي تواجههم. وبالمثل فإن النظريات التي تأخذ اتجاهًا موقفيًا خالصًا ولا تتطرق على الإطلاق إلى التركيبة النفسية للأفراد نظريات قليلة. وكما سنرى لاحقًا، فإن معظم مجالات علم النفس السياسي تأخذ بأحد هذين الاتجاهين أو الآخر، مع تغير في ما يسود من اهتمامات مع الوقت.

الباب الثالث

ربط الاثنين معًا

12
علم نفس سلوك الانتخاب

أسهمت فروع عدة من علم النفس - أبرزها الفرعان الاجتماعي والمعرفي - إسهامات رئيسية في تطوير دراسة سلوك الانتخاب (أو التصويت، كما يشار إليه أيضًا). والبحوث المبكرة في هذا المجال (التي تأثرت بعلم النفس الاجتماعي إلى حد كبير) كانت ذات طابع موقفي بشكل واضح كما سنرى بعد قليل، بينما كانت البحوث اللاحقة (التي انبثقت من علم الاقتصاد، وعلم النفس المعرفي، والبحوث في العاطفة والانفعال) نزوعية في اتجاهها. والواقع، إن تطبيق السكيمات وغيرها من البنى المعرفية على السياسة يجري أكثر ما يجري في نطاق سلوك الانتخاب. وتظهر الفروق بين افتراضات النموذجات النظرية لسلوك الانتخاب القائمة على علم الاقتصاد وتلك القائمة على علم النفس واضحة بشكل خاص هنا. ويجدر أن نلاحظ منذ البداية أن دراسة الخيارات الانتخابية في الوقت الحاضر تتأثر بمنظوريْ «الإنسان الاقتصادي» (Homo economicus) و«الإنسان النفساني»[1] (Homo psycholgicus).

من الموقفية إلى النزوعية

كانت النموذجات الأولى التي ظهرت في مجال سلوك الانتخاب، من مثل دليل النزعة السياسية (index of political predisposition) (IPP) الذي وضعه بول

---

(1) أصبح أدب هذا الموضوع غاية في الاتساع ممّا يجعل التعريف به كلّه أمرًا مستحيلًا، ولكننا سنركز على بعض خطوطه الرئيسية.

لازرفيلد (Paul Lazarsfeld) وبرنارد بيرلسون (Bernard Berelson)، موقفية بالكامل في طبيعتها[2]. فقد رأت هذه المقاربة أن التنبؤ الدقيق بسلوك الانتخاب يمكن أن يُبنى على معرفتنا المستوى الاقتصادي الاجتماعي للناخب، ودينه، ومكان سكنه وغير ذلك من خصائصه الاجتماعية. فكانت تنظر إلى الانتخاب على أنه دالة البيئة الاجتماعية التي يعيش فيها الناخب، كما تنظر إلى الناخبين على أنهم يتقبلون الأوضاع الاجتماعية التي يجدون أنفسهم فيها بسلبية.

ولم يكن في هذا المنظور المبكر لسلوك الانتخاب كثير من علم النفس، غير أن الستينيات شهدت تحولًا أساسيًا نحو النزوعية عندما أضافت مقاربة التماهي الحزبي (party identification approach) – وهو إحدى الصيغ النزوعية التي أُخضعت لكثير من المراجعة – متغيرًا سيكولوجيًا صريحًا إلى ميدان البحث في سلوك الانتخاب. وتقول هذه النظرية بكل وضوح إن الموقف ليس كل شيء، وإن الاختيار الانتخابي لا يتحدد بالوضع الاجتماعي أو الاقتصادي فحسب. ويؤكد آنغوس كامبل (Angus Campbell) وزملاءه من جامعة ميشيغن في كتابهم الكلاسيكي الناخب الأميركي (*The American Voter*) أن معظم الناخبين يطورون مع الوقت رابطة عاطفية طويلة الأمد، أو نزعة، نحو حزب سياسي معين في خلال فترة تكوّنهم الحزبي أو فترة مراهقتهم[3]. وهذا يعني أننا نطور انتماء إلى واحد من الأحزاب إبان فترة نمونا السياسي – نتيجة لما نسمعه من الوالدين والجيران حول السياسة، أو ما يصلنا من خلال البيئة الاجتماعية التي نعيش فيها – وأن الرابطة التي تنشأ بيننا وبين حزب معين تحدد الجهة التي سنصوت لها بقية حياتنا (ما لم يقع شيء دراماتيكي جدًا يجعلنا نغير أفكارنا كما تتنبأ نظرية التناسق المعرفي). وبذلك تتكوّن النزعات الفردية نحو السياسة – والتي تتأثر بالتكوين الخاص لنظام الحزب (كأن يكون محافظًا «أو ليبراليًا»). ونتيجة لذلك تنقسم الكتلة التصويتية الأميركية إلى معسكرين ضخمين، أحدهما يتألف من المتماهين مع الحزب الجمهوري (Republican Party identifiers) ويتألف

---

(2) على سبيل المثال، انظر: Paul Lazarsfeld, Bernard Berelson and Hazel Gaudet, *The People's Choice* (New York: Columbia University Press, 1948).

(3) Angus Campbell [et al.], *The American Voter* (New York: Wiley Press, 1960).

يُعرف هذا المنحى أحيانًا كمدرسة ميشيغن (Michigan School).

الآخر من المتماهين مع الحزب الديمقراطي (Democratic Party identifiers). وقد استورد دايفد باتلر (David Butler) وزملاءه هذا النموذج إلى بريطانيا ورأوا أن الكتلة التصويتية البريطانية تمثل معسكرين ضخمين يضمان المتماهين مع حزبيْ المحافظين والعمال[4].

ومن الجدير بالملاحظة أن التماهي الحزبي يميل إلى الثبات عبر الزمن ويقاوم التغيير. فقد يخسر الحزب بعض الانتخابات، وقد يؤدي أداءً سيئًا عند وصوله إلى الحكم، وقد يتبنى سياسات في بعض القضايا لا تتفق مع ما تراه أنت، ولكنك تظل تدعم الحزب، لأنه حزبك. ويترتب على ذلك أن كثيرًا من الناس لا يأبهون للقضايا التي تُناقش في الانتخابات بقدر ما يأبهون للحزب ذاته. فالعضو المتماهي مع الحزب بقوة، على سبيل المثال، سيميل إلى «حذف» أو إهمال المعلومات غير المرغوب فيها المتعلقة بالحزب، حتى عندما لا يكون متفقًا مع مرشح الحزب في قضايا سياسية شديدة الأهمية. مثال ذلك أن كثيرًا من الجمهوريين كانوا يرغبون في إسقاط دان كويل (Dan Quayle) بوصفه نائب رئيس في انتخابات عام 1992. وكان بعض المتنفذين في الحزب يسعون وراء الكواليس لاستبداله بشخص يتمتع بقدر أكبر من الشعبية، مثل كولن باول (Colin Powell). ومع ذلك كان احتمال تصويت المتماهين مع الحزب الجمهوري بقوة ضد حزبهم عام 1992 بسبب كويل، احتمالًا ضعيفًا ذلك لأن المتماهين بقوة مع الحزب يحذفون المعلومات التي لا تعجبهم ويمارسون «إدراكًا انتقائيًا» [ينتقون من خلاله ما يعجبهم]، فهم بعبارة أخرى، يرون ما يريدون رؤيته.

ومن حيث إن فيليب كونفرس (Philip Converse) أحد مؤلفي كتاب الناخب الأميركي كان متخصصًا في علم النفس الاجتماعي، فإن تأثير هذا الميدان – في الوضع الذي كان عليه في الخمسينيات والستينيات – يبدو واضحًا في النموذج النظري الذي يعرضه الكتاب. فقد ركز النموذج بادئ ذي بدء، على التماهي مع الجماعات المرجعية (reference groups)، وأكّد أهمية الدافع للمحافظة على

(4) David Butler and Donald Stokes, *Political Change in Britain: Forces Shaping Electoral Choice* (New York: St. Martin's Press, 1969).

الاتساق المعرفي[5]. ولا بد أن القارئ يرى تأثير نظرية الاتساق المعرفي بوضوح بعد ما عرفناه عنها في الفصل التاسع. وكما رأينا في ذلك الفصل، تفترض النظرية أن الناس لا يحبون التصرف بشكل يتناقض مع اعتقاداتهم، أو أن يكون لديهم اعتقادات لا تنسجم في ما بينها، أو أن يواجَهوا بمعلومات تتعارض مع تلك الاعتقادات. وترى النظرية أن جميع هذه الشروط تخلق حالة من الضيق النفسي، وهذا ما يدعوه ليون فستنغر (Leon Festinger) بالتنافر المعرفي[6] (cognitive dissonance). ومن الحالات التي يعبر فيها التنافر المعرفي هذا عن نفسه، الحالة التي يجد فيها الشخص المتماهي بقوة مع حزبه أنه على خلاف مع الحزب إزاء قضية ذات أهمية خاصة، كالحقوق المدنية أو الإجهاض، أو حين يجد أنه لا يحب الشخص الذي رشحه الحزب للمنصب الرئاسي أو لمنصب نائب الرئيس. وتفترض النظرية أن حدوث مثل هذا التنافر يولد لدى الناخب دافعًا لإعادة الأمور إلى ما كانت عليه من توازن (وهو ما يدعوه فستنغر بالاتساق (consistency). ويمكن استعادة ذلك الاتساق، من وجهة نظر فستنغر، بتبرير عدم الاتفاق الذي نشأ بين الناخب والحزب، أو تبرير عدم قبول الناخب لمرشح الحزب، وذلك بالتقليل من أهمية الأمر المختلف عليه (كالقول إن قانون الحقوق المدنية لن يغير كثيرًا)، أو القول إن «المحكمة العليا هي التي ستتخذ القرار المتعلق بالإجهاض على أي حال»، وهكذا....) أو ربما يضيف الشخص اعتقادًا جديدًا يقلل التنافر. وأخيرًا، يستطيع الناخب تغيير انتمائه الحزبي برمته ليستعيد توازنه ويلغي التعارض بين سلوكه الانتخابي وترشيح الحزب بالكامل، غير أن نموذج التماهي الحزبي يؤكد أن هذا الاحتمال الأخير احتمال ضعيف جدًا لأن تغيير الانتماء الحزبي للناخب يحتاج إلى حدث جلل كالحرب أو الانهيار الاقتصادي ليحدث في الواقع.

وقد اكتسب فيليب كونفرس شهرته بوجه خاص لطرحه وجهة النظر القائلة

(5) انظر موقع مؤتمر جامعة ديوك (Duke University) حول علم نفس الانتخاب، <http://www.ssri.duke.edu/anes/voting.html>.

(6) Leon Festinger, *Theory of Cognitive Dissonance* (Stanford, CA: Stanford University Press, 1957).

إن الناخبين يفتقدون ما يصطلح عادة على تسميته بضوابط الاتجاه[7] (attitude constraint). حيث أظهرت المسوحات العامة التي أجريت منذ الأربعينيات أن الناخبين العاديين من الأميركيين ليسوا على درجة رفيعة من الاطلاع على شؤون السياسة، ولا يولون ما يجري في عالم السياسة الكثير من الانتباه. ولاحظ كونفرس أن قلة منهم تمتلك «أيديولوجية» واعية، بالقدر الذي نتوقع من شخص مطلع سياسيًا. فمعظمهم، كما يؤكد كونفرس، يحمل اتجاهات «من كل مكان»، بحسب وصف أحد معلميه، فهم يأخذون موقفًا ليبراليًا من بعض القضايا ومحافظًا من قضايا أخرى، وهم لا يفهمون تمامًا ما تعنيه مصطلحات «ليبرالي» أو «محافظ» في كثير من الأحيان.

وبناء على هذا النموذج، فإن غالبية الناس لا يعنيهم المرشحون أو مواقفهم إزاء قضايا الساعة، فالمنتمون إلى الحزب الديمقراطي سيصوتون على الدوام لمرشح الحزب الديمقراطي، والمنتمون إلى الحزب الجمهوري سيصوتون على الدوام لمرشح الحزب الجمهوري. فرغم تعدد مرشحي الحزب الديمقراطي للمنصب الرئاسي عام 2008، ومنهم باراك أوباما، وهيلاري كلينتون، وجون إدواردز، فإن منظري التماهي الحزبي يؤكدون أن المتماهين مع الحزب الديمقراطي كانوا سيصوتون لمرشح حزبهم أيًا كان من يحظى بترشيح الحزب. وبالمثل، سواء اختار الحزب الجمهوري للمنصب الرئاسي عام 2008، مت رومني (Mitt Romney)، أو رودي جولياني (Rudy Guiliani)، أو فريد طومبسون، أو مايك هاكابي (Mike Huckabee)، أو جون مكين (John McCain) أو غيرهم، فإن المتماهين مع الحزب الجمهوري كانوا سيصوتون لمرشح حزبهم. وعليه، يكون فعل الانتخاب بالنسبة إلى معظم المواطنين منبثقًا من «عادة» أو «غريزة» [بشكل ما] والمواطن العادي ليس مطلعًا في أمور السياسة اطلاعًا وافيًا، ولا يصرف كثيرًا من وقته في فحص البرامج الانتخابية للأحزاب الرئيسية وتمحيصها ليقرر من ينتخب، وإنما يأخذ «طريقًا مختصرة» يقطع من خلالها عملية القرار المعقدة بالتصويت للحزب الذي طور نحوه ولاءً طويل الأمد منذ الشباب المبكر.

---

(7) Philip Converse, «The Nature of Belief Systems in Mass Publics,» in: David Apter, ed., *Ideology and Discontent* (New York: Free Press, 1964).

هذا وتتضمن نظرية التماهي الحزبي عنصرًا نزوعيًا آخر؛ فمن حيث إن الحزب الديمقراطي يضم معظم المتماهين حزبيًا من الناخبين الأميركيين، فإنه يُنتظر أن يكونوا قد حققوا الفوز في الانتخابات الرئاسية جميعها منذ الثلاثينيات، إذا كان الانتماء الحزبي هو أهم ما في الأمر. غير أن المناصرين لهذه المقاربة يقولون إن ثلثيْ الكتلة الانتخابية الأميركية تحمل ولاءً حزبيًا ثابتًا، ويصوتون لحزبهم على الدوام، إلا أن الثلث المتبقي يشمل أناسًا غير وثيقي الصلة بالأحزاب، أو مستقلين، هذا الثلث يضم المتقلبين (switchers) أو المتأرجحين (Swing Voters). وهؤلاء هم أفراد لا يحملون ولاء حزبيًا مستقرًا، ويحتمل أن يبدلوا مواقفهم من انتخابات إلى أخرى. وتكون لنزعات هذه الفئة أهمية تناظر أهمية نزعات المتماهين حزبيًا، وإن كانت نزعات هذه الفئة أقل استقرارًا وأكثر تبدلًا. ويتكون هذا الثلث من أولئك الذين يقررون أصواتهم بناء على القضايا الراهنة، وهذا القطاع من المجتمع الانتخابي هو الذي يقرر نتيجة الانتخابات. وعليه، فإن نموذج التماهي الحزبي، يرى أن السلوك الانتخابي يكون نتيجة لتفاعل قوى نزوعية طويلة المدى (أبرزها الولاء الحزبي) وقوى نزوعية أخرى قصيرة المدى (تتمثل في ردود فعل الناخب للقضايا الراهنة). إضافة إلى «تقويم المرشح لهذه القضايا، كما يُصوّر للناخبين، والقوى الحزبية التي تحكم مواقف الحزب من مختلف القضايا»، وفق ما يشير إليه ميلر، وواتنبيرغ، ومالانشك[8] (Miller, Wattenberg, and Malanchuk).

بروز الانتخاب بناء على القضايا الراهنة ومقاربة الإنسان الاقتصادي

خرج نموذج التماهي الحزبي من نطاق الموضة الشائعة في السنوات الأخيرة إلى حد ما، ويعود ذلك جزئيًا إلى أنه أصبح من الواضح مع مرور الوقت ومنذ أن وضع كامبل وزملاؤه كتابهم الناخب الأميركي أن المتمين انتماء حزبيًا قويًا يتناقصون بين الناخبين هذه الأيام. وعلى سبيل المثال، كان 29 في المئة من الناخبين عام 1992 ينتمون انتماء وثيقًا إلى أحد الحزبين الجمهوري أو

(8) Arthur H. Miller, Martin Wattenberg and Oksana Malanchuk, «Schematic Assessments of Presidential Candidates,» *American Political Science Review*, vol. 80, no. 2 (June 1986), pp. 521-240.

الديمقراطي، بينما كانت نسبتهم عام 1964، 38 في المئة، أي بتناقص مقداره 9 في المئة. ويبدو أن الناخبين أصبحوا أكثر اطلاعًا أيديولوجيًا وسياسيًا منذ الستينيات. وقد أدت هذه التحولات إلى بروز مقاربة جديدة لتفسير الاختيار التصويتي يمثّل تحديًا لمقاربة التماهي الحزبي التقليدي؛ وذلك هو نموذج الانتخاب بناء على القضايا [ذات الشأن في الحاضر] (the issue voting model). إضافة إلى ذلك، فإنهذا الاتجاه قد ظهر لا بوحي من افتراضات مقاربة الإنسان النفساني، وإنما بوحي من مقاربة الإنسان الاقتصادي.

يذهب ناي، وفيربا، وبتروشك في كتابهم الناخب الأميركي المتغير (*The Changing American Voter*) إلى أن الناخبين الأميركيين الآن أكثر اطلاعًا مما حسبهم نموذج التماهي الحزبي[9]. ويتفق مؤلفو هذا الكتاب مع كامبل وزملائه في توجههم الضمني، أو نقطة انطلاقهم بأن نموذج التماهي الحزبي يصف سلوك الناخبين الأميركيين وصفًا صحيحًا حتى أواخر الستينيات. ولكنهم يؤكدون أن ما تكشفه بيانات الانتخابات الأميركية من اتجاهات يقتضي إعادة تقويم إمكانات الناخب الأميركي العادي، وسلوكه. حيث يؤكدون أن البيئة السياسية المحيطة بالناخب الأميركي تغيرت تغيرًا دراماتيكيًا في خلال الستينيات. فقد أدى الاتجاه الأيديولوجي المتشدد للمرشح الجمهوري السابق باري غولدووتر (Barry Goldwater)، وبروز «القضايا الجديدة» كالحقوق المدنية، وفيتنام ووترغيت، وتطور وسائل الإعلام الجماهيرية، والتغير في طبيعة الكتلة الانتخابية ذاتها، أدى ذلك كله إلى تغيير جوهري في البيئة السياسية. فأخذ ناخبون جدد يدخلون إلى الكتلة التصويتية ممن ينأون بأنفسهم عن الارتباط الملتزم بحزب سياسي بعينه.

ويزعم منظرو الانتخاب المبني على القضايا (issue voting) أن الولاءات الحزبية تتراجع بشكل ملحوظ كمحدد من محددات الانتخاب. ويؤكدون أن السنوات الأخيرة شهدت عملية فك ارتباط (dealignment) أخذ فيها الناخبون

---

(9) Norman H. Nie, Sidney Verba and John R. Petrocik, *The Changing American Voter* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1976), and Morris P. Fiorina, *Retrospective Voting in American National Elections* (London: Yale University Press, 1981).

يبتعدون تدريجيًا عن ارتباطهم بالأحزاب بوجه عام، ويصبحون مستقلين بدلًا من ذلك. فقد ارتفع عدد الناخبين الذين يدعون أنفسهم مستقلين من 23 في المئة إلى 33 في المئة، وإلى 40 في المئة وفق بعض المقاييس. وبتراجع تأثير الحزب، ازدادت أهمية القضايا , وأهمية خصائص المرشحين، وفق ما يقوله أنصار التصويت المبني على القضايا. وفي حين كان معظم الناس يصوتون لمرشح حزبهم لأنه «حزبهم»، نجدهم هذه الأيام أكثر انتقائية وأكثر اطلاعًا. ويرى أنصار التصويت للقضايا إضافة إلى ذلك، أن نسبة الناخبين الذين يفعلون ذلك هي أكثر بكثير من الثلث الذي أشار إليه كامبل وزملاءه، وربما تصل إلى 50 في المئة أو أكثر.

وهناك طريقان من حيث الأساس للتصويت بناء على القضايا: استباقي (prospective) واسترجاعي (retrospective). والتصويت الاستباقي يتطلب قدرًا أكبر من المعرفة والمعلومات مقارنة بالتصويت الاسترجاعي، حيث يتطلب التصويت الأول من الناخب: (1) أن يطلع على سياسات الحزبين، وعلى المواقف التي يأخذانها من قضايا الساعة، (2) مقارنة هاتين المنظومتين من السياسات، و(3) اختيار الحزب الذي يأخذ المواقف المشابهة لمواقفه الخاصة. مثال ذلك، إذا كنتُ محافظًا في القضايا الاجتماعية، وليبراليًا في القضايا الاقتصادية، ومحافظًا في السياسة الخارجية، فإنني أرغب في اختيار الحزب الذي يأخذ المواقف المشابهة لمواقفي في هذه القضايا. وعلى الأرجح لن يكون هناك حزب يتطابق تمامًا مع تفضيلاتي الخاصة، لكن التصويت الاستباقي يقتضي ببساطة أن أختار الحزب الأقرب إلى مواقفي في القضايا محور الاهتمام.

أما التصويت الاسترجاعي فلا يتطلب الكثير من الناخب العادي، إذ يرى في أو كاي (V. O. Key) في كتابه **الكتلة الانتخابية المسؤولة** (*The Responsible Electorate*) أن الناخبين ليسوا حمقى؛ وإنما هم أناس عقلانيون يكافئون المرشحين على إنجازاتهم الملموسة ويعاقبونهم على فشلهم[10]. وهم يستطيعون النظر إلى

---

(10) Valdimer Orlando Key, *The Responsible Electorate*, Rationality in Presidential voting, 1936-1960, with the Assistance of Milton C. Cummings; Foreword by Arthur Mass (Cambridge, MA: The Belknap Press, 1966).

الماضي القريب وتقويم مدى النجاح الذي حققته الإدارة القائمة في الحكم. ويأخذ الأداء الاقتصادي مكانًا بارزًا لدى الناخبين؛ وبوجه عام، إذا كانت الأمور الاقتصادية على ما يرام سيُعاد انتخاب الحكومة، أما إذا لم تكن على ما يرام فإنه سيُطاح بها. وهذا النوع من الانتخاب المبني على القضية بسيط نسبيًا وواضح الاتجاه، ولا يتطلب من الناخب أن يكون مطلعًا على شؤون السياسة ووضع السياسات، أو حتى أن يعرف على وجه التحديد شأنًا سياسيًا واحدًا لأي من الحزبين. وكل ما هو مطلوب من الناخب هو أن يعرف مستوى أداء الحزب الذي ينتمي إليه الرئيس (مثلًا). ويكون بذلك الانتخاب المبني على القضايا ذات الطابع الاسترجاعي أكثر حكمة من نظيره الاستباقي، من حيث إن كلفتة المعلوماتية أقل جدًا. كما أنه لا يكون من الحكمة تقويم مواقف الأحزاب من القضايا المختلفة مسبقًا لأننا نعرف أن السياسيين يُخلُّون بوعودهم. وبأخذ هذه الحقيقة بعين الاعتبار لا يكون الانتباه لما يقوله القادة في خلال حملاتهم الانتخابية مجديًا؛ لأن النظر في ما فعلوه حقيقة في الماضي القريب يكون أجدى بكثير.

ولكن، كيف يتأتى لكلتا المدرستين [مدرسة التماهي الحزبي، ومدرسة التصويت بناء على القضايا] الادعاء بأن نموذجها الخاص يفسر الواقع الإمبيريقي/ الموضوعي أفضل تفسير؟ ألا يمكن لبيانات الانتخابات الرئاسية الحديثة تقديم الإجابة الصحيحة بطريقة أو بأخرى؟ لكن هذا ليس واقع الحال لسوء الحظ، لأن البيانات الإحصائية لا تتحدث عن نفسها؛ فهذان المنحيان المتنافسان يفسران البيانات بطريقتين مختلفتين، والسبب في ذلك يعود إلى أن كلًا منهما يدافع عن نموذجه الخاص بادعائه أنه هو القادر على تفسير السلوك الانتخابي لذوي التماهي الحزبي الضعيف. حيث تؤكد مدرسة التماهي الحزبي أن ذوي التماهي الضعيف يظلون موالين لأحزابهم، ويجب بذلك أن يُصنفوا على أنهم متماهون مع أحزابهم؛ أما المناصرون لمدرسة الانتخاب المبني على القضايا، بالمقابل، فيتعاملون مع هذه الفئة على أنهم مستقلون، ومهيأون للانتخاب بناء على القضايا، ومواقف المرشحين منها. وتؤكد مدرسة التماهي الحزبي أن ما يوصف بتراجع التماهي الحزبي أمر مبالغ فيه؛ إذ إن التراجع في نسبة الناخبين المنتمين إلى أحزاب في ما بين عامي 1960

و1988 تَمثّل في انخفاض من 75 في المئة إلى 63 في المئة، وهذا لا يمثّل تراجعًا حادًا بحد ذاته. ومما تجدر الإشارة إليه أن بعض البحوث الحديثة في سلوك الانتخاب أعادت الاعتبار إلى موقف مدرسة التماهي الحزبي وحاولت دحض حجج ناي، وفيربا، وبتروشك[11].

تأثير الأفكار الحارة والباردة

أستند الباحثون في مجال الخيار الانتخابي حديثًا إلى افتراضات علم النفس المعرفي لإنشاء مناخ نزوعية لا تقوم على افتراضات ذات طبيعة اقتصادية، أو افتراضات الخيار العَقلاني، وإنما تنظر إلى التماهي الحزبي نظرة معرفية أونظرة تقوم على أسس معرفية صرفة. فقد افترضت مقاربة التماهي الحزبي على الدوام أن الحملات الانتخابية، والرسائل التي تخرج من المرشحين أنفسهم لا تنطوي على كثير من الأهمية[12]. ويؤكد أنصار هذه المقاربة أن الناخبين يزيحون كل «الضجيج» الذي ينتج من الحملات الانتخابية، ويسمع الواحد منهم «ما يريد أن يسمعه ويهمل الباقي»، كما قال سيمون وغارفنكل (Simon and Garfunkel) في أغنيتهما «ذي بوكسر». ويتفق هذا القول مع تنبؤات علماء نفس من أمثال فستنغر، كما سبق وأشرنا. على أن البحوث الحديثة المستوحاة من نظريات المعرفة، والعاطفة، ألقت بظلال الشك على وجهة النظر هذه[13].

لقد رأينا في الفصل التاسع أحد التطبيقات الخاصة بالمقاربة المعرفي على دراسة اختيار الناخبين للمرشحين في الانتخابات الأولية والمتمثل بنظرية صموئيل بوبكن (Samuel Popkin) حول جاذبية المرشح. وتستند هذه المقاربة إلى نظرية السكيما ونظرية العزو لتفسير القرار التصويتي في الانتخابات الأولية،

---

(11) على سبيل المثال انظر: Eric R. A. N. Smith, *The Unchanging American Voter* (Berkeley, CA: University of California Press, 1989), and Warren Miller and Merrill Shanks, *The New American Voter* (London: Harvard University Press, 1996).

(12) Milton Lodge, Patrick Stroh and John Wahlke, «Black Box Models of Candidate Evaluation,» *Political Behavior*, vol. 12, no. 1 (March 1990), pp. 5-18.

(13) انظر: James N. Druckman and Joanne M. Miller, «The Political Psychology of Electoral Campaigns,» *Political Psychology*, vol. 25, no. 4 (2004), pp. 501-506, and the accompanying *Symposium* in that issue.

وغيرها من الانتخابات حين لا نعرف إلا القليل نسبيًا عن المرشحين. إذ يعتقد بوبكن أننا نبني قراراتنا، في هذه الحالة، على قدر قليل من «المعروف» [عن المرشح] ونستخدم هذا «المعروف» لملء المعلومات الناقصة عن المرشح [والمتعلقة بالمعلومات الأولية الخاصة به]. وبهذه الطريقة نستطيع أن نقدّر مدى تمثيل المرشح لصورة نمطية معينة - مثالية أو غير مثالية(14).

ويحاول السياسيون على الدوام بعث سكيمات إيجابية في عقول الناخبين، وإن كانوا يفعلون ذلك بناءً على الحدس، أو على أساس من علم النفس الشعبي. ولعل ما يمكن أن نسميه «سكيما كينيدي» يعطي مثالًا مناسبًا لما نشير إليه هنا. فالمرشح المثالي في نظر كثير من الناخبين هو شخص صغير السن نسبيًا، معتدل سياسيًا، شديد الذكاء، موهوب خطابيًا، وجذاب الشكل، وجميع هذه الخصائص ترتبط لدينا اليوم بجون ف. كينيدي. إضافة إلى أن سيناتور مساشوستس السابق [أي كينيدي] كان بطل حرب، وهذه طبعًا سمة أخرى تحظى بإعجاب الناخبين. ونتيجة لذلك، يحاول الكثير من المرشحين للمقعد الرئاسي أحيانًا تقديم أنفسهم بصورة قريبة من كينيدي، وقد يعقدون مقارنة بينهم وبينه صراحة. وظهر أشهر مثال على ذلك في الحوار الذي أُجريَ بين المرشحين لمنصب نائب الرئيس عام 1988، عندما قال دان كويل (Dan Quayle) المرشح الجمهوري، إنه يمتلك من الخبرة السياسية ما امتلكه جون كينيدي عندما ترشح للرئاسة، فقاد هذا الادعاء إلى واحدة من أشهر المواجهات في تاريخ حلقات الحوار، إذ رد السيناتور ليود بنتسن (Liyod Bentsen) على ذلك الادعاء قائلًا: «أيها السيناتور، لقد عملتُ مع كينيدي، وأنا أعرف تمامًا من هو جاك (جون) كينيدي، فقد كان صديقًا لي. أيها السيناتور أنت لست بجاك كينيدي».

غير أن المرشحين للمنصب الرئاسي يسعون غالبًا للظهور بشخصية «كينيدية» على نحو أقل صراحة. فعندما ترشح بل كلينتون للرئاسة عام 1992، على سبيل المثال، استخدم فريق حملته الانتخابية صورًا فوتوغرافية لكلينتون (كصبي كشافة في أوائل الستينيات) وهو يسلم على جون كينيدي. وجاء

---

(14) Samuel Popkin, «Decision Making in Presidential Primaries,» in: Shanto Iyengar and William McGuire, eds., *Explorations in Political Psychology*, Duke Studies in Political Psychology (Durham, NC: Duke University Press, 1993).

اكتشاف هذه الصورة كهبة من السماء لحملة كلينتون الانتخابية من حيث إنها أوحت للناخبين أنه «مقدّر» لكلينتون أن يصل إلى المركز الذي وصل إليه كينيدي. ومن اللافت أيضًا أن حملة بوش الانتخابية عام 2004 نجحت في إضاعة الفرصة على جون فوربس كيري (John Forbes Kerry) – وهو المرشح الشبيه بكينيدي ظاهريًا في عدد من الوجوه، حتى على صعيد الأحرف الأولى من اسمه – وذلك بإبراز الاختلاف بين كيري وكينيدي من ناحيتين في الأقل؛ إذ نجح الجمهوريون في تصوير كيري على أنه أكثر ليبرالية مما كان عليه كينيدي، ونجحوا في إلقاء ظلال الشك على سجله الحربي بطرائق مختلفة بدت معها حملة كيري غير قادرة على الدفاع عنه.

ولم يكن بوبكن الباحث الوحيد الذي اتجه إلى علم النفس المعرفي للبحث عن دلائل عن كيفية معالجة الناس العاديين للمعلومات السياسية؛ فقد قامت كاثلين مكغرو (Kathleen McGraw) بتلخيص البحوث في هذا المجال على أساس من التمييز بين [صنفين منها]: (أ) البحوث التي درست كيفية «تنظيم» المعلومات السياسية في الأذهان وخزنها، و(ب) البحوث التي درست «العمليات» المعرفية التي تؤدي إلى حكم، أو قرار، أو استجابة سياسية ما[15]. وهاتان القضيتان مرتبطتان ارتباطًا وثيقًا، بطبيعة الحال؛ إذ إننا حين نفهم كيفية خزن المعلومات السياسية في الأذهان، فإننا سنسعى لا محالة إلى فهم الطرائق التي نصل بها إلى تلك المعلومات [أو كيف نستعيدها]، وإلى فهم العملية التي تؤثر بها هذه المعلومات في مُخرج سياسي (political outcome) من نوعٍ ما، كقرار من ننتخب.

وقد قام كندر (Kinder) وزملاءه بواحدة من أُوليات الدراسات التي أُجريت في المضمار الأول [أي مجال تنظيم المعلومات وخزنها]، تعود لعام 1980، اختبروا فيها كيفية تقويم الناس للمرشحين الرئاسيين من خلال فحص «بروتوتايب الرئيس» [الذي يحملونه في أذهانهم]. والبروتوتايب هو صورة نمطية من نوع السكيما يتضمن الخصائص المرغوب في توافرها لدى

(15) Kathleen McGraw, «Contributions of the Cognitive Approach to Political Psychology,» *Political Psychology*, vol. 21, no. 4 (December 2000), pp. 805-827.

المرشح الرئاسي. حيث يُفيد كندر وزملاءه أن «بروتوتايب الرئيس النموذجي [...] يحتوي السمات التي يعتقد المواطنون أنها تمثّل الرئيس الذي يجب أن يكون»، ويضيف كندر وزملاءه أن بروتوتايبات الأفراد تختلف باختلاف قيمهم، وما يمثّل أهمية بالنسبة إليهم[16]. فالرئيس النموذجي في نظر الأميركيين على وجه الخصوص يتحلى بالأمانة، وسعة الاطلاع، والذهن المتفتح، والشجاعة، والذكاء، والإلهام - وهي الصفات التي يشار إليها أكثر ما يُشار في أدب الموضوع. كما يضيف كندر وزملاءه أن «بعض معايير تقويم المرشحين الرئاسيين قد تكون معتمدة على نطاق واسع، ولكن البعض الآخر منها قد يكون مرتبطًا بصفات مميزة وبارزة لدى مرشحين بعينهم»[17]. وربما يلجأ الناخبون إلى المعايير الخاصة هذه عندما يجدون أن البروتوتايب النموذجي لا يكوّن أساسًا قويًا لدعم مرشح معين، إلا في الحالة التي يكون الشخص قد وصل فعلًا إلى المنصب الرئاسي، أو ربما لأن الناخبين لا يعتمدون على بروتوتايب واحد في تقويم جميع المرشحين، على ما يبدو.

غير أن التوقيت الذي جرت فيه دراسة عام 1980 السابقة، والتي جُمعت فيها البيانات إبان الحملة الرئاسية الجارية حينئذٍ، قاد آرثر ميلر (Arthur Miller) وزملاءه إلى الخروج باستنتاجات مغايرة. إذ أكّد ميلر وزملاءه أن «بروتوتايب الرئيس، أو سكيما الرئيس، كما سنصطلح تسميته، لا بد أن يستثار في خلال الحملة الانتخابية عندما يتلقى الناس المثيرات المناسبة التي تستثير تلك الصور الذهنية المسبقة»[18]. فالناخبون يستخدمون «معايير عريضة قليلة العدد، ولا يستخدمون معلومات محددة» للحكم على المرشحين [خلافًا لما رآه كندر وزملاءه] - وهم يتجاوزون المعلومات المعطاة، كما جاء في الفصل التاسع - وكلما كان الناخب أكثر اطلاعًا في شؤون السياسة، كانت

(16) Donald Kinder [et al.], «Presidential Prototypes,» *Political Behavior*, vol. 2, no. 4 (1980), pp. 316.

(17) المصدر نفسه، ص 333.

(18) Miller, Wattenberg and Malanchuk, «Schematic Assessments of Presidential Candidates,» pp. 523-324.

سكيماته أكثر «غنى»، ما يتيح له الوصول إلى قدر أكبر من الاستنتاجات [بشأن المرشح] مقارنة بالناخب الأقل اطلاعًا[19]. وعلاوة على ذلك، يؤكد ميلر وزملاءه أن الناخبين يحملون سكيمات ثابتة بشأن ما يجب أن يكون عليه الرئيس، ويحكمون على المرشحين المتقدمين للمنصب بناء على مدى مطابقتهم لعناصر تلك السكيمات»[20]. وربما تتفاوت أهمية الصفات المتضمنة في سكيما الرئيس من انتخابات إلى أخرى، فيختلف «المرشح النموذجي» باختلاف الزمن. مثال ذلك، كان الأميركيون، في غمرة اضطرابات عام 1968، يتطلعون إلى رئيس يحقق النظام والاستقرار، مثل ريتشارد نيكسون؛ وفي عام 1976، عقب فيتنام، كان المرشح المثالي هو من لا تطاول استقامته أي شكوك، مثل جيمي كارتر، وفي عام 1980، عندما بدت الولايات المتحدة في حالة تراجع اقتصادي وسياسي حادين، كانت البلاد تتطلع إلى مرشح يستعيد «القوة الأميركية» مثل رونالد ريغان.

كيف نقرر من ننتخب؟

هناك قدر وافر من البحوث حول الجانب الآخر من هذا الموضوع، والمتعلق بالعمليات التي يتم من خلالها استخدام البني المعرفية [المنشأة في الذهن، كالسكيمات] لتقويم المرشحين. فكِّر لوهلة في نظريات سلوك الانتخاب التي عرضناها في هذا الفصل، وهي؛ «دليل النزعة السياسية»، ونظرية «التماهي الحزبي»، ونظرية «الانتخاب المبني على القضايا». إذ لا تتطرق أي منها إلى كيف نقرر من ننتخب؛ فكل منها تضع قائمة بالعوامل التي «تفسر» الاقتراع وتدعي شيئًا من القدرة على التنبؤ بالخيار الانتخابي، ولكن أيًا منها لا تتطرق كثيرًا (إذا كانت تتطرق على الإطلاق) إلى العمليات المعرفية التي تأخذ مجراها لدينا في خلال الحملة الانتخابية، أو عندما نقرر من ننتخب داخل حجرة التصويت ذاتها. وقد يُغرينا رد غياب هذه التفاصيل إلى تأثير [المدرسة] السلوكية – التي ترفض أي فحص «استبطاني»

(19) «Schematic Assessments of Presidential Candidates,» p. 524.

(20) المصدر نفسه، ص 535.

(introspective) لما يدور في الأذهان، كما سبق أن أشرنا في الفصل الثالث - لكن نظرية الاتساق المعرفي كانت قد حلّت محل سلوكية سكنر في الوقت الذي تطور فيه نموذج التماهي الحزبي، على سبيل المثال. غير أن المقاربات التي تم عرضها في هذا الفصل تتعامل مع عمليات اتخاذ القرار التي تجري لدى الناخب كصندوق أسود[21] [على غرار السلوكية].

وقد طوّر الباحثون في السلوك الانتخابي نظريتين رئيسيّتين تعالجان عملية تقويم الناخبين للمرشحين، يصطلح على تسميتهما بالمنظور القائم على التقويم المتواصل (online perspective) والمنظور القائم على الذاكرة (memory-based perspective). ويمكن توضيح منظور التقويم المتواصل على أفضل وجه بالنظر، على سبيل المثال، إلى فيلم شاهدتَه منذ فترة وجيزة (قبل شهر أو شهرين مثلًا) وحدث أن استمتعت به كثيرًا ورأيت أنه واحد من أفضل الأفلام التي شاهدتها العام الماضي، قد لا تستطيع استدعاء كثير من المشاهد التي أحببتها الآن، ولكنك تعرف أن الفيلم أعجبك، وإذا سُئلت عن سبب إعجابك بالفيلم فإنك قد تتمكن من إيراد بعض التفاصيل. وبالمقابل، ربما تكون قد شاهدت فيلمًا أعجبك في البداية، ولكنك تركته عند منتصفه، ولم تعد لمشاهدته قط. على غرار ما حدث معي لدى مشاهدتي فيلم «الاسترجاع الكامل» (Total Recall)، فقد وجدت في ذلك الفيلم متعة فلسفية في البداية - من حيث إنه يتطرق بصورة غير مباشرة إلى الإدراك، والذاكرة، والطبيعة الذاتية لما نراه واقعًا - لكنه ما إن شارف المنتصف حتى تَدانى ليصبح مجرد فيلم مغامرات، وما عدت أجده ممتعًا[22]. وأنا اليوم لا أستطيع استرجاع تفاصيل الفيلم «كاملة» بكل تأكيد إذ إنني قد أستطيع تذكر نتف مما أعجبني أو مما لم يعجبني، أما أكثر ما يعلق بذهني الآن فهو تقويمي «العام» للفيلم.

---

(21) Lodge, Stroh and Wahlke, «Black Box Models of Candidate Evaluation».

(22) يقوم الجزء الأول من هذا الفيلم على قصة قصيرة لكاتب الخيال العلمي العظيم الراحل فيليب ك. دك (Philip K. Dick)، بعنوان «نستطيع تذكره كله بالجملة من أجلك» (We Can Remember it for you Wholesale).

إن العملية التي أخذت مجراها في تقويمي للفيلم هي ذات العملية التي تأخذ مجراها في تقويمنا للمرشحين، وفق ما ترى نظرية التقويم المتواصل[23]. فبناء على هذه النظرية نحن نضع سجلًا جاريًا (running tally) أو حكمًا جاريًا (judgment tally) نسجل فيه انطباعاتنا المتتالية نحو مرشح معين، تمامًا كما نسجل تقويماتنا المتتالية لفيلم معين ونحن نشاهده، إذ إننا نُعدِّل السجل المتعلق بذلك المرشح باستمرار مع ورود أي معلومة جديدة، ولكننا كثيرًا ما ننسى المعلومات المحددة التي أسهمت في الوصول إلى ذلك الانطباع، وربما لا نستطيع تذكر ما أثار إعجابنا أو استياءنا من مرشح ما عندما نُسأل عنه لاحقًا في استطلاع للرأي. ووفق ما يرى دروكمان وميلر، فإن هذا النموذج:

يختلف اختلافًا كبيرًا عما سبقه [من رؤى نظرية] في تأكيده أن الناخبين ربما يكون لديهم أسباب واضحة للأصوات التي أدلوا بها، وربما يكونون قد تأثروا تأثرًا حقيقيًا بالحملة الانتخابية، ولكنهم ربما لا يستطيعون إيراد الأسباب التي دعتهم إلى التصويت على النحو الذي صوتوا به، أو تذكر أي معلومة تتعلق بالحملة الانتخابية. ويعود السبب في ذلك إلى أن الناخبين يحفظون سجلًا جاريًا للمرشحين؛ وعندما يتلقون معلومات جديدة، يحدّثون تقويماتهم للمرشحين، ولكنهم كثيرًا ما ينسون بعد ذلك المعلومات المحددة [التي أدّت إلى تحديث تقويمهم] لأنهم ما عادوا بحاجة إلى تلك المعلومات. لذا، فإن الناخبين يستطيعون استرجاع التقويم العام (الذي يعكس تأثير الحملة)، وليس المعلومات التي بنوا التقويم على أساسها[24].

ويتسق هذا المنظور إلى حد كبير مع مقاربة «الإنسان النفساني»، من حيث إنه يعتبر الناس بخلاء معرفيًا يستعيدون تقويماتهم من الذاكرة فحسب ولكنهم يهملون جزئيات المعلومات التي استخدموها لبناء تلك التقويمات. كذلك فإن

---

(23) Milton Lodge, Kathleen McGraw and Patrick Stroh, «An Impression-Driven Model of Candidate Evaluation,» *American Political Science Review*, vol. 83, no.2 (June 1989), pp. 399-419; Reid Hastie and Bernadette Park, «The Relationship between Memory and Judgment Depends on Whether the Task is Memory-Based or On-Line,» *Psychological Review*, vol. 93, no. 3 (July 1986), pp. 258-268, and Howard Lavine, «On-Line Versus Memory-Based Process Models of Political Evaluation,» in: Kristen Monroe, ed., *Political Psychology* (Mahwah, NJ: Lawrence Erlbaum, 2002).

(24) Druckman and Miller, «The Political Psychology of Electoral Campaigns,» p. 502.

المنظور المنافس لمقاربة التقويم المتواصل هذه، والمعروف بمنظور التقويم المبني على الذاكرة (memory-based perspective) يرى الشيء ذاته[25].

إلا أن هذا المنظور الأخير يختلف اختلافًا كبيرًا مع الفكرة القائلة إن المعلومات التي تأتي مع الحملة الانتخابية يجري إهمالها في غمرة الاشتغال بالتقويم المتواصل. إذ ترى مقاربة البناء على الذاكرة أننا عندما نتلقى معلومات سياسية ما، نقوم بخزنها في الذاكرة الطويلة المدى (long-term memory)، بحسب درجة بروزها [أو استثارتها للانتباه]، وفي حدود ما نستطيع خزنه في أذهاننا. ووفق تعبير مكغرو (McGraw)؛

> عندما يكون هناك حاجة إلى إصدار حكم، يقوم الفرد بالبحث في ذاكرته الطويلة المدى عن معلومات ثم يدمج المعلومات التي أمكنه استعادتها ليحسب (to compute) الحكم. وفي النهاية، يكون الرأي انعكاسًا للمعلومات التي أمكن استعادتها من الذاكرة[26].

ويوم تجرى الانتخابات، نقوم ببساطة بدمج المعلومات التي نستطيع استعادتها ونؤلف في ما بينها للوصول إلى حكم مجمل.

ولتوضيح الفرق بين هذين المنحيين، سننظر لبرهة في تقويمات الناس لباراك أوباما عندما ترشح للرئاسة عام 2008. فبناء على مقاربة التقويم المتواصل، يحفظ الناخبون في أذهانهم سجلًا لأداء أوباما في خلال الحملة الانتخابية، كلوحة نقاط ذهنية [على غرار اللوحة التي تسجل عليها النقاط في المباريات الرياضية]، ويقومون بتحديثها باستمرار بناء على ما يأتيهم من معلومات، إضافة إلى معلومات سابقة استخدموها لبناء تقويماتهم له في خلال السنة أو السنتين السابقتين. وعلى سبيل المثال، قد يُعدّل الناخب تقويمه الإيجابي لباراك أوباما - الذي رأى أوباما فيه مرشحًا ديناميكيًا، كارزماتيًا، في

(25) على سبيل المثال، انظر: Stanley Feldman, «Answering Survey Questions: The Measurement and Meaning of Public Opinion,» in: Milton Lodge and Kathleen M. McGraw, *Political Judgment: Structure and Process* (Ann Arbor, MI: University of Michigan Press, 1995), and John R. Zaller, *The Nature and Origins of Mass Opinion* (New York: Cambridge University Press, 1992).

(26) McGraw, «Contributions of the Cognitive Approach to Political Psychology,» p. 813.

ضوء معلومات سلبية، كالادعاء الذي ظهر إبان حملة أوباما الانتخابية الذي يقول إن المرشد الأول له «لم يكن أميركيًا». ولكن الناخب ربما لا يتذكر هذه المعلومة يوم الانتخابات، على الرغم من أنها تكون قد أثرت في نقاط أوباما لديه، أو ربما تكون معلومة إيجابية ما قد حلّت في السجل محل المعلومة السلبية وحدّثت التقويم المتكوّن في ذهن الناخب. وبالمقابل، فإن تقويم أوباما عام 2008، وفق نموذج التقويم المبني على الذاكرة، يكون أكثر بساطة ووضوحًا؛ إذ إن الناخب سيعمل على «جمع» المعلومات الإيجابية والسلبية التي استقاها عن المرشح ليصل إلى تقويم له. ومرة أخرى، لا بد أن نشير إلى أن كلا المنحيين معرفي في طبيعته، من حيث إنهما ينطلقان من افتراض أن هناك حدودًا لكمية المعلومات التي يستطيع الناخبون خزنها في أذهانهم.

خاتمة: مستقبل البحث في الانتخاب

خلُص مؤتمر نظمته دراسات الانتخاب الوطنية الأميركية (American National Election Studies)، عُقد في جامعة ديوك (Duke University) في تشرين الأول/أكتوبر من عام 2006، حول موضوع الانتخاب، إلى أن أفضل تصور لسلوك الانتخاب ربما يكون باعتباره نتاج لتفاعل عوامل خارجية (موقفية) وعوامل داخلية (نزوعية)[27]. أما البحوث الحديثة في هذا الموضوع فتسلط الضوء على القوى المعرفية والعاطفية التي تعمل في أذهان الناس، وأما البحوث المستقبلية فربما يكون من واجبها أن تتناول هذه القوى جنبًا إلى جنب مع القوى الموقفية [التي تحيط بالانتخابات] من مثل التحولات في الاقتصاد الوطني والدولي، والحروب الرئيسية التي تنشب، والضغوط الاجتماعية التي تُمارس في محيط الناخب، والأحداث التي تقع في الحملة الانتخابية ذاتها والتي قد تغير في إدراكاتنا [أو تقويماتنا] للمرشحين.

(27) انظر: Duke Website, <http://www.ssri.duke.edu/anes/index.html>.

13

علم نفس القومية، والصراع الإثني، والإبادة الجماعية

أدى انفجار النزعة القومية والصراعات الإثنية التي نشهدها منذ أوائل التسعينيات، إلى تجدد الاهتمام بهذه المواضيع كمواضيع للدراسة الأكاديمية، ويتوافر الآن عدد من الدراسات التي عالجت الأبعاد النفسية لهذه المواضيع علاجًا مطوّلًا (مما قد يصل إلى حجم كتاب)[1]. والقومية والصراع الإثني ليست ظواهر جديدة، بطبيعة الحال، حيث إن فكرة القومية فكرة قديمة تعود إلى الثورة الفرنسية عام 1789 في الأقل، وقد كتب والكر كونور (Walker Connor) عام 1966 عن توترات قومية وإثنية ظاهرة في حينه وفي أماكن متعددة ومتباعدة تتراوح بين كندا، وغويانا، والهند، والسودان، ويوغسلافيا، وقبرص، ورواندا، والمملكة المتحدة، والعراق[2]. ونستطيع القول إن حدة الحرب الباردة أخفت حدة تلك القضايا؛ فكان يُنظر إلى الصراعات القومية والإثنية غالبًا من خلال الصراع بين الشيوعية والرأسمالية، ولعل حرب فيتنام تعطي المثال الأبرز على هذه النقطة.

---

(1) كان كتاب ليونارد دوب من أوائل الكتب في هذا الموضوع، انظر: Leonard W. Dobb, *Patriotism and Nationalism: Their Psychological Foundations* (New Haven, CT and London: Yale University Press, 1964).

وقد استند فيه إلى لغة «المثير - الاستجابة» الخاصة بالمدرسة السلوكية، وانظر أيضًا: Dusan Kecmanovic, *The Mass Psychology of Ethnonationalism* (New York and London: Plenum Press, 1996), and Joshua Searle-White, *The Psychology of Nationalism* (New York and Basingstoke: Palgrave, 2002).

(2) انظر: Walker Connor, *Ethnonationalism: The Quest for Understanding* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1994), p. 4.

وعلى الرغم من سيادة فكرة الدولة القومية (nation state)، فإن معظم الدول الراهنة لا تضم جماعة قومية أو عرقية واحدة فقط، وفي كثير من الحالات لا يكون هناك تطابق مناطقي (أو جغرافي) بين «القوميات» و«الدول» أو الحكومات التي تحكم الأمم. فالمملكة المتحدة، على سبيل المثال، دولة متعددة القوميات، تشمل إنكلترا، واسكتلاندا، وإيرلاندا الشمالية. والعراق، كما يعرف أي قارئ للعناوين الرئيسة في صحف اليوم، يضم أكرادًا، وسنة، وشيعة، وإن من يتماهون مع الكردية ينتشرون في شمال العراق، وبعض أجزاء من تركيا. ولأن الدول لا تطابق الأمم دائمًا فإن ذلك يفسح في المجال لظهور حركات انفصالية أو وحدوية، تسعى لتوحيد الأمة في دولة، ورقعة جغرافية.

وقد شهدت السنوات الأخيرة صراعات إثنية دامية في بلدان كيوغسلافيا، ورواندا، والسودان، وهي ثلاثة من الأماكن التي أشار إليها كونور (Connor) في أواسط الستينيات كمناطق توتر ساخنة. أما ما حدث في رواندا فقد بدأ بسيطرة متطرفي الهوتو (Hutu) على الحكومة في أبريل/ نيسان من عام 1994 بعد أن تعرض الرئيس الرواندي هابياريمانا (Habyarimana) للقتل. وعلى مدى مئة يوم، جرى ذبح 8000 رواندي كل يوم، وهذا يمثل أسرع معدل للقتل الجماعي في القرن العشرين؛ وقد وصل عدد القتلى إلى 800000 شخص - أي حوالى 10 في المئة من السكان. وكان تسعون في المئة من الضحايا من التوتسي - رجالًا، ونساءً، وأطفالًا. وفي نهاية عام 2008 أخذ سيناريو مماثل مجراه في منطقة دارفور في السودان على يد الجنجاويد. والجنجاويد ميليشيا مسلحة من العرب المتطرفين ارتكبت مذابح جماعية في دارفور، وقتلت حتى الآن ما لا يقل عن 100000 من جماعات سودانية غير عربية. وقد تحالف الجنجاويد مع الحكومة، وذهبت محاولات قوات التحالف الأفريقي لحفظ السلام هباءً.

ويظل تعريف القومية والإثنية، كغيرها من المفاهيم في العلوم الاجتماعية موضع جدل؛ ومع ذلك؛ فإنه يسهل الوصول إلى تعريفات متفق عليها لهذه المفاهيم مقارنة بمفاهيم أخرى كالإرهاب (terrorism). وربما يغرينا [ونحن نسعى إلى تعريف القومية] اللجوء إلى تعريف على غرار تعريف بوتر ستيوارت (Potter

(Stewart للإباحية والذي يقول فيه «أعرفها عندما أراها». ولكننا كمتخصصين في العلوم الاجتماعية، نحتاج إلى تعريف محدد، قابل للتوظيف للشيء الذي نحاول أن نفهمه. والتعريف الذي يقدمه جوشوا سيرل - وايت (Joshua Searle-White) تعريف مفيد بوجه خاص من حيث إنه يُبرز العامل النفسي في القومية، أو ينظر إلى القومية كشيء يوجد في أذهاننا من حيث الأساس؛ إذ يرى أن القومية،

> في أوسع تعريف ممكن لها [...] هي إحساس بالإنتماء أو التماهي مع جماعة من الناس تشترك في التاريخ، واللغة، والمنطقة الجغرافية، والثقافة، أو تشترك في تشكيلة من هذه العناصر. وربما تدفع القومية إلى تحرك لإنشاء دولة مستقلة لجماعة قومية، وقد لا تدفع إلى ذلك، ولأن عالم اليوم يعطي جل اعتباره لحق الشعوب في تقرير مصيرها، فإن الدولة القومية (الدولة المستقلة التي تقطنها جماعة قومية واحدة من حيث الأساس)، تمثّل هدفًا لكثير من الحركات القومية[3].

وقد أبرز سير إرنست باركر (Sir Ernest Barker) هذه النقطة بوضوح بالغ، إذ قال:

> إن وعي الأمم بذواتها هو نتاج للقرن التاسع عشر. ولهذا الأمر أهمية قصوى؛ ذلك لأن الأمم كانت موجودة على الدوام، وكانت موجودة لقرون خلت في الواقع. لكن الأمور المهمة في الحياة الإنسانية ليست تلك الموجودة وحسب، إن ما يهم في الحقيقة، وفي نهاية الأمر هو الشيء الذي يتحول إلى فكرة، وثم إلى عاطفة إلى أن يصبح قضية وباعثًا على الفعل. وفي عالم الفعل يكون للأفكار فعل الكهرباء؛ ويجب أن تكون الأمة فكرة إلى جانب كونها حقيقة قبل أن تصبح قوة محركة[4].

ويركّز معظم الدراسات اليوم على الأساس الاجتماعي الذي تقوم عليه القومية[5]. وإذا سلّمنا بأن القومية أساسًا هي شيء نفسي - كما هو حال

---

(3) Searle-White, Ibid., p. 3.

(4) مقتبس من: Connor, Ibid., p. 4.

(5) Anthony D. Smith, ed., *Theories of Nationalism*, 2nd ed. (New York: Holmes and Meier, 1983).

التماهي الحزبي (party identification) في الديمقراطيات الغربية - فما النظريات التي يمكن أن تفسر التماسك الاجتماعي الذي يربط الأمم من الداخل ويخلق الحس القومي لديها؟ وما الذي يمكن لعلم النفس السياسي أن يقوله عن أسباب الصراع بين القوى الإثنية [الذي قد ينشأ داخل المجتمعات]؟ إن ما أشرنا إليه في الفصول السابقة من نموذجات نظرية يقدم إجابات - جزئية - عن بعض هذه الأسئلة، لعل أبرزها ما يتعلق بالشخصية التسلطية، وما يتعلق ببحوث ملغرام. وسنبدأ بإلقاء نظرة على خمسة مقاربات نظرية جرى استخدامها في السنوات الأخيرة لتفسير القومية، وهي: نظرية الصراع الواقعي بين الجماعات (realistic group conflict theory)؛ ونظرية الهوية الاجتماعية (social identity theory)؛ ونظرية السيطرة الاجتماعية (social Dominance theory)؛ والمنظور السيكوديناميي [أو المنظور التحليلي الدينامي النفسي] (the psychodynamic perspective)؛ والمقاربة البيوسياسية[6] (biopolitical approach). والمنظوران الأولان موقفيان بشكل لا لبس فيه، في حين أن المقاربات الثلاث الأخيرة نزوعية في طبيعتها من حيث الأساس، علاوة على ذلك، وكما سنرى في الفصل القادم، يمكن الاستناد إلى هذه المنظورات لتفسير أشكال أخرى من الهوية، والصراع بين الجماعات.

خمس مناحي لتفسير القومية

نظرية الصراع الواقعي بين الجماعات

ترى هذه النظرية أن الصراع ينشأ حين يكون هناك سبب واقعي، «عقلاني» لدى جماعة ما للتنافس مع جماعة أخرى أو محاربتها. وتُعنى النظرية في هذا السياق بالتمييز الذي يجري بين ما يسميه علماء النفس الاجتماعي بالجماعات الداخلية (ingroups) والجماعات الخارجية (outgroups) - أو التفكير بطريقة «نحن» و«هم». وقد قام مظفر شريف (Muzafer Sherif)، عالم النفس الاجتماعي، في أوائل الخمسينيات بتجربة ميدانية مثيرة للاهتمام في روبرز كيف (Robbers'

(6) انظر: James Sidanius, «The Psychology of Group Conflict and the Dynamics of Oppression: A Social Dominance Perspective,» in: Shanto Iyengar and William McGuire, eds., *Explorations in Political Psychology* (Durham, NC: Duke University Press, 1993).

Cave) بولاية أوكلاهوما الأميركية. حيث أخذ اثنين وعشرين صبيًا إلى مخيم صيفي - لم يكونوا على معرفة ببعضهم بعضًا من قبل - ولدى وصولهم إلى المخيم قام بتوزيعهم عشوائيًا إلى جماعتين. ثم جرى فصل الجماعتين إحداهما عن الأخري لمدة أسبوع، حيث أقامت كل جماعة في كبائن بعيدة نسبيًا من كبائن الجماعة الأخرى - وذلك للحد من فرص التفاعل الاجتماعي بينهما - فما انقضت تلك الفترة إلا كانت كل جماعة قد اختارت لنفسها قائدها الخاص، وطوّرت هوية، وثقافة خاصة بها. وقام شريف بعد ذلك بوضع الجماعتين في مواجهة إحداهما في مواجهة الأخرى في سلسلة من الألعاب التنافسية. وسريعًا ما تولد عداء بينهما، حتى أصبح معه من المتعذر إجراء ألعاب غير تنافسية بين الجماعتين من دون أن تتبادلا الإهانة أو أن ينشب عراك بينهما.

ولا بد أن يلحظ القارئ مدى اتفاق هذه النتائج مع المعطى الأساس للمقاربة الموقفية. وكان شريف قد طبّق الإجراء الذي طبّقه زمباردو ليتحقق أن الصبية المجرب عليهم كانوا أفرادًا أسوياء، متكيفين، لا يعانون أي اضطرابات نفسية، فقام بتوزيعهم عشوائيًا إلى جماعتين، ليتصدى مسبقًا للحجة التي قد تثار ويُردُّ فيها السلوك التنافسي للأولاد إلى نزعات في شخصياتهم. وعلى الرغم من حقيقة أن توزيع الصبية إلى جماعتين لم يتم بناء على أسس إثنية أو غير ذلك من الروابط، فإن مجرد تصنيفهم عشوائيًا في جماعتين منفصلتين كان كافيًا ليخلق العداء بينهما عندما وضعتا إحداهما في مواجهة الأخرى. علاوة على ذلك، فإن النتائج التي وصل إليها شريف يجب ألّا تكون مستغربة لدى كل من لعب كرة قدم، أو بيسبول، أو كرة قدم أميركية، أو أي لعبة تتنافس فيها فرق رياضية على مستوى منظم، أو لدى أي شخص شاهد ألعابًا من هذا القبيل. فربما تتولد الكراهية بين فريقين - من مثل بتسبرغ ستيلرز (Pittsburgh Steelers) وبالتيمور رافنز (Baltimore Ravens)، أو مانشستر يونايتد (Manchester United) وأرسينال (Arsenal) - على الرغم من حقيقة أنه لم يتم تقسيمهم على أساس عرقي، أو طبقي، أو ديني، أو أي أساسٍ كان[7].

(7) الاستثناء (النادر في الوقت الحاضر) لهذا في فرق كرة القدم البريطانية فرق تشكّلت تاريخيًا على أساس ديني كما في حالة فريقي رينجرز (Rangers FC) وسيلتك (Celtic FC)، وهما من مدينة غلاسغو في اسكتلاندا. حيث يمثل الأول منهما البروتستانت، ويمثل الثاني الكاثوليك، مع أن قوى =

وبطبيعة الحال، نستطيع صرف النظر عن هذه الملاحظات [كدليل على أثر الموقف] واعتبارها دليلًا مؤشرًا على وجود نزعة إنسانية أساسية للتنافس، أو «غريزة تنافس»، ونستطيع اعتبار هذا النقد في حقيقة الأمر نقدًا مبررًا. غير أن مثل هذه الصراعات قد تظهر في ظروف معينة، ولا تظهر في غيرها، ما يلقي بظلال الشك على اعتبار التنافسية نوعًا من الصفات الموروثة. علاوة على ذلك، فإن هذه النظرية قد تمكننا من تفسير الصراع الطويل بين الفلسطينيين والإسرائيليين، مثلًا، من حيث إنهما يتنافسان على منطقة بعينها، يعتبر كل منهما أن له الحق فيها. وعلى الرغم من ذلك، ماذا لو استطعنا أن نبيّن أن العداء، والتعصب، (prejudice)، والتمييز (discrimination) قد ينشأ بين الجماعات حتى في غياب أي نوع من التنافس بينها؟ ماذا لو استطعنا أن نبيّن أن هذا النوع من العداء قد ينشأ حتى عندما لا يكون هناك أي تواصل أو تفاعل على الإطلاق بين تلك الجماعات؟ هذا هو على وجه التحديد ما وجده أنصار النظرية الثانية التي سنتناولها في ما يلي.

نظرية الهوية الاجتماعية

تأخذ هذه النظرية منحى موقفية إضافة إلى سابقتها، ولعلها أضحت الطريق الأكثر شيوعًا لفهم سيكولوجية القومية، فهي تنطوي على استبصارات خاصة في العوامل الاجتماعية والسياسية التي تؤدي إلى تماسك الأمم، وفي العمليات التي تدفع الجماعات إلى الصراع في الوقت ذاته[8].

وتدور هذه النظرية، كسابقتها، حول التمييز بين الجماعات الداخلية

= الانتماء الديني ضعُفت كثيرًا عما كانت عليه. كذلك كانت مدينة ليفربول في إنكلترا مقسّمة على أساس ديني بين فريق ليفربول (Liverpool FC)، وفريق إيفرتون (Everton FC)، على الرغم من أن هذا ليس واقع الحال في الوقت الحاضر. ويجب ملاحظة أنه حتى السنوات العشر الأخيرة، لم تكن فرق كرة القدم البريطانية مختلطة عنصريًا كما هي عليه الآن. غير أن هذه الفرق أصبحت «معولمة» إلى حدّ أن كل فرق (الدرجة الأولى، في الأقل) مختلطة عنصريًا وإثنيًا إلى حدٍّ كبير، ويتضمّن كل منها عددًا كبيرًا من اللاعبين غير البريطانيين.

(8) انظر الملخص الممتاز لهذا الموضوع في كتاب جيمس والر الذي أُخِذَت عنه بتصرف، في: James Waller, *Becoming Evil: How Ordinary People Commit Genocide and Mass Killing* (New York: Oxford University Press, 2002), pp. 238-244, from which I have drawn freely here.

والجماعات الخارجية [ونتائجه]. فقد تجاوز عالم النفس الاجتماعي البريطاني، هنري تاجفل (Henry Tajfel) وزملاءه مقاربة شريف حين وجد - خلافًا لتوقعاته المبدئية - أن العداء نحو الجماعات الخارجية ومحاباة الجماعة الخاصة بالفرد يمكن أن يحدث في غياب أي تفاعل بين الجماعتين المعنيتين، وفي غياب أي فروق «معقولة» أو «عقلانية» بينهما. وبكلمات أخرى، تؤكد نظرية الهوية الاجتماعية أن الصراع يمكن أن يحدث حتى حين لا يكون لدى الجماعة الداخلية «أي شيء» يمكن أن تجنيه من التنافس مع الجماعة الخارجية[9].

وقد قام تاجفل، على غرار ما قام به شريف من قبله، بأخذ مبحوثين غرباء تمامًا عن بعضهم، وعينهم عشوائيًا كذلك في جماعات - لأسباب مماثلة [لأسباب شريف]. وقد قسّم تاجفل المبحوثين في تجاربه إلى جماعات بناء على أسباب غير ذات معنى من الناحية النظرية، كأن قسّمهم بناء على تفضيلاتهم الموسيقية. ويقول والر (Waller) بهذا الصدد:

> كان يُطلب إلى المشاركين [أو المبحوثين] في السلسلة الأكثر شهرة من دراسات تاجفل أن يعطوا آراءهم حول لوحات تجريدية لفنانين لم يسبق أن سمعوا بهم، وكان يتم تعيينهم عشوائيًا بعد ذلك لجماعة تفضل أسلوب بول كلي (Paul Klee style) أو أسلوب ويسلي كاندنسكي[10] (Wassily Kandinsky style).

وبعد توزيع المبحوثين بناء على هذه التصنيفات الاعتباطية إلى جماعتين، لم يكن يتاح لهما اتصال إحداهما بالأخرى قط. غير أن ما أثار دهشة تاجفل أن أعضاء كل من الجماعتين ظلوا يُظهرون محاباة شديدة لجماعتهم الداخلية، وقدرًا مماثلًا من العداء للجماعة الخارجية. وقد استُخدم هذا النموذج [البحثي]

(9) انظر: Henri Tajfel and John Turner, «The Social Identity Theory of Intergroup Behavior,» in: John T. Jost and Jim Sidanius, eds., *Political Psychology: Key Readings* (New York: Psychology Press, 2004); and S. Worchel and L.W. Austin, eds., *Psychology of Intergroup Relations* (Chicago, IL: Nelson-Hall, 1986); Henri Tajfel: «Experiments in Intergroup Discrimination,» *Scientific American*, no. 223 (1970), pp. 96-102; *Human Groups and Social Categories* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1981), and *Social Identity and Intergroup Relations* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1982).

(10) Waller, *Becoming Evil: How Ordinary People Commit Genocide and Mass Killing*, p. 241.

المعروف باسم نموذج الحد الأدنى من التعارف بين الجماعات (The minimal group paradigm) كإجراء مبدئي تمهيدًا للتجريب اللاحق، ولم يكن تاجفل يتوقع ظهور تأثير لإجرائه هذا مشابهًا لتأثير روبرز كيف (Robbers' Cave) الذي ظهر في تجربة شريف. لكن تاجفل وزميله جون تيرنر (John Turner) وجدا أن «ذلك التصنيف السطحي، الذي جاء لاحقًا [وليس سابقًا للقاء الأفراد بعضهم بعضًا] قاد إلى محاباة الجماعة الداخلية، وإلى التحيز ضد الجماعة الخارجية». فعندما طُلب إلى المشاركين توزيع الموارد المالية بين الجماعتين، على سبيل المثال، فضّل أعضاء الجماعة الداخلية عقاب الجماعة الخارجية على أخذ المزيد لأنفسهم، بحيث أن الأعضاء «أعطوا قدرًا أقل من المال للجماعة الخارجية، حتى عندما كان إعطاء تلك الجماعة أكثر لا يؤثر في ما تناله الجماعة الداخلية»[11].

وفي حين نظر تاجفل إلى نموذجه في البداية كنموذج معرفي، شعر بأنه لا بد أن يكون هناك دوافع أخرى وراء تماهي (identification) الفرد الشديد مع جماعته الداخلية [أو الخاصة]. وقد عثر تاجفل على هذا العامل الدافعي في فكرة تقدير الذات (self-esteem). فالتماهي مع الجماعة - وخصوصًا عندما تتمتع تلك الجماعة بمكانة عالية، أو عندما تعتقد الجماعة أنها تتمتع بهذه الميزة - يعطي العضو فيها الفرصة ليعزز تقديره لذاته. وهذه هي الحاجة الأساس التي رأى تاجفل أنها تدفعنا إلى محاباة أعضاء جماعتنا وإلى التقليل من قدر الجماعة الأخرى، أو التحيز ضدها.

ويستند جوشوا سيرل - وايت (Joshua Searle-White) إلى هذه النظرية في تحليل مثير للاهتمام لظاهرة القومية من زاوية نفسية اجتماعية[12]. ومن حيث أن سيرل - وايت يعمل على تدريس مساقات علم نفس القومية فإنه عمل على تطبيق نموذج الحد الأدنى من التعارف بين الجماعات ليُبين لطلبته بطريقة تقوم على الخبرة المباشرة، كيف يمكن إنشاء هويات متصارعة بناء على قدر محدود من التفاعل [فكان يقسّم طلبته في مجموعات عشوائية ويلصق بها تسميات عديمة المعنى ليتيح لهم فرصة اختبار الاثار النفسية الاجتماعية المترتبة على

(11) Tajfel and Turner, «The Social Identity Theory of Intergroup Behavior,» p. 282.

(12) Searle-White, *The Psychology of Nationalism.*

ذلك]. وإضافة إلى ذلك، يُقر سيرل - وايت أن الأفراد قد يمتلكون عددًا من الهويات، وأن هذه الهويات المتعددة قد تخدم أغراضًا مختلفة، ويؤكد أن الهويات القومية بدورها تخدم أغراضًا متعددة ذات فائدة خاصة في العصر الحديث. ويعتمد سيرل - وايت التفسير الدافعي الذي تقدمه نظرية الهوية الاجتماعية فيقول إن شعور الفرد بأنه ينتمي إلى أمة متفوقة يخدم حاجة إنسانية أساس لديه لتقدير الذات. ويضيف سيرل - وايت إلى ذلك عددًا من النقاط الخاصة به لتفسير التماهي القومي، تتضمن القول إن اعتقادنا بأن «قضيتنا قضية عادلة»، على سبيل المثال، يُشبع حاجة إنسان أساسية أخرى لدينا جميعًا. وعندما يُصاحب ذلك إحساس بأن الجماعة ضحية (لعدو ما) فإن ذلك يعزز شعورنا بأننا على صواب، ويعطينا المبرر للعقاب أو الانتقام. وأخيرًا، يعتقد سيرل - وايت أن الهوية القومية تساعدنا على إيجاد معنى لحياتنا[13].

على أن تفسير نظرية الهوية الاجتماعية للقومية يتعرض للنقد نظرًا إلى مغالاته في التبسيط، كما أن بعضًا يسلط الضوء على المشكلات التي تواجهها هذه النظرية في تفسيرها للظواهر السياسية بشكل عام. ويؤكد ألان فاينلسون (Alan Finlayson)، مثلًا، أن الجماعات القومية تختلف اختلافًا نوعيًا عن الجماعات التي توضع تحت الملاحظة في المختبر أو حتى الملاحظة في المواقف الطبيعية، ليس أقلها أن التصنيف على أساس القومية يستثير عواطف عميقة جدًا يصعب أن يستثيرها أي تصنيف اجتماعي آخر: ويصر فاينلسون على ذلك قائلًا:

> نحن لا نستطيع نقل نتائج الدراسات النفسية الاجتماعية للجماعات إلى دراسة الأمم (...) فالأمم ليست مجرد جماعة يتماهى معها الناس، إنها نوع خاص من القوى السياسية الجماهيرية الحديثة والمرتبطة أساسًا بالشكل الحديث للدولة[14].

---

(13) *The Psychology of Nationalism*, pp. 87-100.

(14) Alan Finlayson, «Psychology, Psychoanalysis and Theories of Nationalism,» *Nations and Nationalism*, vol. 4, no. 2 (April 1998), pp. 145-162.

إن النقد المتعلّق بتفرّد الأمة [كجماعة واختلافها عن الجماعات التجريبية] يمكن أن يوجه إلى نظرية الصراع الواقعي ونظرية السيطرة الاجتماعية.

أما ليوني هادي (Leonie Huddy)، فإنها تتجاوز حجة تميّز الولاء القومي عن الولاءات الأخرى التي يقول بها فاينلسون، وتُسلّط الضوء على مشكلات أخرى (أكثر عمومية) تعترض نظرية الهوية الاجتماعية عند تطبيقها على السياسة. ويتصل كثير من هذه المشكلات بحقيقة أن هذه النظرية موقفية أساسًا، وهي بذلك قد تقلل من دور البشر في صنع الهويات، وقدرتهم على تغييرها تاليًا (فهي تقول، بعبارة أخرى، إن النزوعية مهمة هنا أيضًا).

وتلفت هادي (Huddy) النظر إلى ملاحظة هامة وهي أن الجماعات لا تتصارع مع بعضها بعضًا في كل الحالات – وهذه ملاحظة تعجز نظرية عامة كنظرية تاجفل عن تفسيرها في الواقع. كما تشير هادي إلى مشكلة أخرى في نظرية الهوية الاجتماعية تتمثل في «أن الأفراد يختلفون في درجة تماهيهم مع الجماعة»[15]. فضلًا عن ذلك، لا بد من الإشارة إلى أن الهويات كانت تتسم بالثبات في ما مضى – حيث يولد الشخص على دين معين أو في طبقة اقتصادية معينة «وانتهى الأمر» – أما اليوم فإن الهويات أصبحت مجال اختيار؛ إذ يستطيع الفرد أن يغير قوميته مثلًا، والكثيرون يفعلون ذلك فعلًا، ويستطيع الفرد حتى أن يغيّر جنسه، وهو ما كان مستحيلًا قبل عقود قليلة. وتؤكد هادي «أنه لا بد لنا والحال هذه أن نتبيّن كيف تتحول هوية ضعيفة، أو حتى غير موجودة، إلى شيء قادر على بعث الكراهية الإثنية». وتستدرك فتقول: «لكنه يصعب فهم هذه العملية إذا كان كل ما نختبره هو تلك الهويات الواهية التي تنشأ ضمن موقف الحد الأدنى من التعارف بين الجماعات، في المختبر، أو الهويات المتشددة التي تقف وراء الصراعات الإثنية أو القومية»[16]. وإضافة إلى التعلق بالجماعة ودوره في الصراع بين الجماعات، كما سنلاحظ لاحقًا، هناك عمليات نفسية متنوعة يتعين النظر فيها لأهميتها البالغة في تكوّن الكراهية الإثنية – مثل «تجريد الآخر من إنسانيته» (dehumanization) – لكن نظرية الهوية الاجتماعية لم تلتفت إلى تلك العمليات. إضافة إلى ذلك، هناك دليل على أن

---

(15) Leonie Huddy, «From Social to Political Identity: A Critical Examination of Social Identity Theory,» *Political Psychology*, vol. 22, no. 1 (March 2001), pp. 127-156.

(16) المصدر نفسه، ص 137.

الفروق الشخصية بين الأفراد قد تؤثر في درجة تبنيهم هوية الجماعة (وفي درجة تبنيهم الهوية القومية تاليًا).

نظرية السيطرة الاجتماعية

تأخذ نظرية السيطرة الاجتماعية على عاتقها، هي الأخرى تحليل القومية، إضافة إلى تحليل أشكال أخرى من الصراع بين الجماعات، وترتبط هذه النظرية بوجه خاص باسم جيم سيدانيوس (Jim Sidanius) وزملاءه[17]. وتعكس هذه النظرية تأثرًا عميقًا بعلم النفس التطوري (Evolutionary Psychology) حيث يؤكد سيدانيوس أن هذه المقاربة، إذا شئنا وصفها بأبسط عبارة ممكنة «ترى المجتمع كيانًا اضطهاديًا بطبيعته، وترى أن اضطهاد الجماعة للفرد يمثل الوضع الطبيعي/ العادي (the «normal condition») في العلاقات بين البشر»[18].

ويقول سيدانيوس:

> إن معظم أشكال الاضطهاد، بما فيها العنصرية (racism)، والتمركز الإثني (ethnocentricism) (بما فيه اضطهاد الأقليات الدينية)، والجنسوية (Sexism)، والتعصب القومي (nationalism)، والطبقية (classism)، إضافة إلى العديد من الاتجاهات الاجتماعية، والدوافع الإنسانية، والمؤسسات الاجتماعية - تنشأ جميعها للحفاظ على تماسك هذا البناء التراتبي القائم على أساس جماعي[19].

ويرى أنصار هذه النظرية أن جميع المجتمعات الإنسانية قائمة على أساس

---

(17) للمزيد، انظر: James Sidanius and Felicia Pratto, «The Inevitability of Oppression and the Dynamics of Social Dominance,» in: Paul Sniderman and Philip Tetlock, eds., *Prejudice and Politics in American Society* (Stanford, CA: Stanford University Press, 1991); James Sidanius, «The Psychology of Group Conflict and the Dynamics of Oppression: A Social Dominance Perspective,» Duke University Press (1993), and James Sidanius [et al.], «Social Dominance Theory: Its Agenda and Method,» *Political Psychology*, vol. 25, no. 6 (December 2004), pp. 845-880.

(18) Sidanius, «The Psychology of Group Conflict and the Dynamics of Oppression: A Social Dominance Perspective,» p. 217.

(19) المصدر نفسه، ص 214.

تراتبي (hierarchial) إلى حد ما، يكون فيها جماعة مسيطرة واحدة في الأقل، وجماعة خاضعة أو تابعة. ووفق تعبير مونرو، وهانكن، وفان فشتن (Monroe, Hankin, and Van Vechten) «يكوّن التوجه نحو السيطرة الاجتماعية (social dominance orientation) رغبة أساس لدى الأفراد في رؤية الجماعة التي ينتمون إليها بصورة إيجابية، وعلى أنها تحتل مكانة أرفع مقارنة بالجماعات الأخرى ذات الصلة»[20]. ويعمل التوجه نحو السيطرة الاجتماعية بوصفه أيديولوجية تسبغ شرعية على عدم المساواة، والاضطهاد، والتمييز الذي يجري داخل النظم التراتيبية جميعها. وعلى غرار ملغرام، يرى سيدانيوس أن هذه التراتبية تنبثق طبيعيًا لأن مثل هذه المجتمعات امتلكت ميزة تطورية جعلتها تنافس المجتمعات التي لم تكن منظمة على هذا النحو، وهو كملغرام يركز على الجانب المظلم من هذه «الحقيقة» التطورية، ويمثل التمييز داخل هذه الأنظمة، حتى في أشكاله الخفية، حقيقة من حقائق الحياة اليومية. وخلافًا لنظرية الهوية الاجتماعية، ترى نظرية السيطرة الاجتماعية أن الجماعات الأدنى مكانة تحابي أو تنزل عند رغبات الجماعات الأعلى مكانة (وليس جماعتها) في كثير من الحالات (ويُعطي سيدانيوس محاباة السود للبيض والإذعان لرغباتهم، في خلال فترة التمييز العنصري في الولايات المتحدة، كأوضح مثال على ذلك في العصور الحديثة)[21]. كذلك فإن الجماعات الأدنى مكانة ربما لا تحقق الإنجاز الذي تستطيعه بسبب ما يحيط بهم من توقعات اجتماعية متدانية، وهو ما يمثل شكلًا من أشكال الإعاقة الذاتية[22] (self-handicapping).

وعلى الرغم من أن هذه النظرية تُقدر أهمية القوى الموقفية والقوى الفردية على حد سواء، كثيرًا ما يُنظر إليها كنظرية نزوعية أكثر مما ينبغي. ويُفيد سيدانيوس وزملاءه أن النموذجات النظرية الأخرى كنظرية الهوية الاجتماعية تعجز عن تفسير الفروق الفردية في التعصب والتمييز ضد «الآخر» لدى الذين

(20) Kristen Monroe, James Hankin and Renee Van Vechten, «The Psychological Foundations of Identity Politics,» *Annual Review of Political Science*, vol. 3 (2000), p. 431.

(21) Sidanius, Ibid., p. 202.

(22) المصدر نفسه، ص 204.

تجمعهم بـ «الآخر» الروابط ذاتها[23]. كذلك فإن سيدانيوس كثيرًا ما يشير إلى مفهوم «التوجه نحو السيطرة الاجتماعية» كمفهوم مركزي في نظريته؛ وهذا التوجه يشير إلى مدى الرغبة لدى الأفراد في السيطرة على الآخرين - مع أنه يُبين أن التوجه نحو السيطرة يمكن أن يختلف باختلاف الجنس على سبيل المثال، حيث يُظهر الذكور ميلًا أشد للسيطرة من الإناث[24]، غير أن النظرية تهتم بالتنافسية لدى الجماعات وليس الأفراد (وما يعتقدونه أو ما لا يعتقدونه). ويؤكد سيدانيوس وزملاءه أن السياق الاجتماعي، والتنشئة الاجتماعية، والأدوار الاجتماعية تؤدي دورًا رئيسًا في نظريتهم - وهي جميعًا عوامل تأخذنا نحو الاتجاه الموقفي ما أن نتخطى الجذور التطورية لهذا المنظور [القائمة على نظرية التطور].

غير أن نظرية السيطرة الاجتماعية في وضعها الحالي قد تكون غامضة ومُحرجة، وتبدو أحيانًا كأنها تُزاوج بين عوامل نزوعية وعوامل موقفية غير متلائمة، ما يجعل من الصعب دحضها. وعلى الرغم من ذلك، فإن النتائج التي تشير إلى أن «محاباة» الجماعة الخارجية ليست ممكنة فحسب، بل كثيرًا ما تحدث داخل التراتيب الاجتماعية، هي دليل مهم مخالف لنظرية الهوية الاجتماعية، على سبيل المثال. كما أن ميل البشر عبر الثقافات المختلفة إلى تنظيم أنفسهم في بنى تراتيبية، حقيقة يصعب إنكارها.

المقاربة السيكودينامية

تتسم هذه المقاربة التي جاء بها صديقنا القديم فرويد في نظرية التحليل النفسي، بطابع نزوعي واضح في تفسيره [للصراعات] القومية، وهو يحجم (كما في دراسته للإرهاب) عن الذهاب بعيدًا في علم النفس السياسي. فعلى صعيد العلاقات بين الجماعات، تحدث فرويد عن «نرجسية الفروق الطفيفة» (the narcissism of minor differences)؛ ويشير بذلك إلى ميل البشر إلى الصراع ليس مع الذين يسكنون قريبًا منهم فحسب ولكن مع الذين يشبهونهم إلى حد

(23) Sidanius [et al.], «Social Dominance Theory: Its Agenda and Method,» p. 846.

(24) Sidanius, Ibid., p. 210.

كبير أيضا[25]. وإذا ما نظرنا إلى الصراع بين البروتستانت والكاثوليك في إيرلندا الشمالية ربما نجد لهذه الفكرة وقعًا خاصًا من حيث أن الصراع الذي ينشب بينهم يمثل نموذجًا واضحًا لهذه الحالة؛ فهم جيران متشابهون من نواحٍ مختلفة، وكثيرًا ما يصعب على العالم الخارجي التمييز بينهم. أما الفكرة الأخرى ذات الصلة التي قال بها فرويد فهي أن العدوان دافع إنساني فطري، غير أن المجتمع يُنشئنا على كبته.

وفي ما عدا هذه الإشارات، لم يكن لدى فرويد كثير ليقوله بشأن علم نفس القومية، وكما هو الحال في غيره من المجالات تُرك الأمر لأتباعه ليبنوا على أفكاره. ولعل أبرز الذين طوّروا هذه الأفكار لتتلاءم مع موضوع القومية والصراع الإثني، هو فاميك فولكان (Vamik Volkan) وزملاءه. يبدأ فولكان في كتابه **الحاجة إلى الأعداء والحلفاء** (The Need To Have Enemies and Allies) بفكرة فرويد الكلاسيكية حول «الفصل» (splitting)؛ والتي تقول إننا نميل في مرحلة النمو المبكر من حياتنا إلى أن نفصل العالم إلى ما هو «حسن»، وما هو «سيىء»، ثم نقوم بإسقاط الجوانب التي لا نحبها في أنفسنا، أو ما نجده غير مقبول فينا، على الآخرين. لذا، فإننا عندما نسخط على أعدائنا فإننا لا نسخط عليهم فقط، وإنما على ما لا نحبه في أنفسنا؛ ونحن بذلك نُسقط الجوانب غير المرغوبة في أنفسنا على العالم الخارجي. ومن هنا، فإن الأعداء يخدمون غرضًا مهمًا وإن كان غرضًا لا شعوريًا. فالغضب والنقمة اللذان نشعر بهما نحو الآخرين يُخلصاننا من الغضب والنقمة التي نشعر بها تجاه أنفسنا[26].

قد يكون فولكان محقًا في أن هناك شيئًا لا نكون واعين به، يأخذ مجراه فعلًا على مستوى اللاشعور في الصراعات الدولية جميعها. ومن ناحية أخرى،

(25) Sigmund Freud, *Civilization and Its Discontents* (New York: W. W. Norton, 1961), p. 61.

(26) Vamik Volkan: *The Need to Have Enemies and Allies: From Clinical Practice to International Relationships* (Northvale, NJ: J. Aronson, 1988); *Bloodlines: From Ethnic Pride To Ethnic Terrorism* (New York: Farrar, Strauss and Giroux, 1997), and Finlayson, «Psychology, Psychoanalysis and Theories of Nationalism».

نجد أنه من الصعب للغاية تأكيد الحجج المتعلقة باللاشعور رفضًا أو قبولًا. وفي الوقت الذي لا يزال فيه علم الأعصاب يجمع أدلة متواترة على أن اللاشعور موجود فعلًا، إلا أننا لا نزال غير قادرين على اختبار نظريات معقدة من هذا القبيل [على أساس عصبي] (فنحن نستطيع - أن نميز في ما إذا كان الفرد يشعر بالتقزّز، من خلال تكنيكات إف إم آر آي (fMRI)، ولكننا لا نستطيع أن نميز في ما إذا كان ذلك الشعور هو تقزّزًا من الذات (أو من شيء آخر، على سبيل المثال)). علاوة على ذلك، وكما يفيد سيرل - وايت، فإن «القفز» في التحليل من المستوى الفردي إلى المستوى الجماعي ينطوي على مشكلات. لأن الجماعات، كما رأينا حتى الآن، تحمل دينامياتها الخاصة، وهي ليست مجرد تجمع أفراد[27]. والواقع أن دوسان كشمانوفيش (Dusan Kecmanovic) - وهو مؤلف كتاب في هذا الموضوع - يذهب بعيدًا فينفي أن يكون هناك نظرية نفسية في القومية، ويعود السبب في ذلك جزئيًا، إلى أن المقاربة السيكولوجية، من وجهة نظره، ليست الطريقة الأفضل لتفسير الحدث الاجتماعي[28]. وقد يكون هذا دفعًا مبالغًا فيه للقضية، غير أن هناك مشكلات معروفة تعترض الانتقال من الملاحظات المبنية على الممارسات الإكلينيكية إلى الاستنتاجات المتعلقة بالسلوك الاجتماعي. وتصبح النظريات النفسية الاجتماعية أكثر فائدة في هذه الحالة، من حيث إنها تُصَمّم لتفسير سلوكيات مجمّعة من عينة من الأفراد [في مواقف اجتماعية وليس لأفراد في مواقف إكلينيكية؛ ففي الحالة الأولى يكون الاهتمام منصبًا على التحقق من معرفة كيف يسلك الأفراد في الغالب في موقف معين، بينما يكون الاهتمام منصبًا في الحالة الثانية على فهم حالة فرد معين وعلاجها].

المقاربة السياسية البيولوجية

يتمثّل واحد من التفسيرات البيولوجية الرائجة للقومية والصراع الإثني - وجميع أنواع الصراع في الواقع - في الفكرة البسيطة القائلة إن عملية الاختيار الطبيعي قد وضعت في البشر غريزة عدوان فطرية[29]. وهذه فكرة معقولة،

(27) Searle-White, *The Psychology of Nationalism*, p. 41.

(28) Dusan Kecmanovic, «Review of Joshua Searle-White: The Psychology of Nationalism,» *Nations and Nationalism*, vol. 9, no. 3 (2003), pp. 459-461.

(29) للمزيد، انظر: Konrad Lorenz, *On Aggression* (New York: Harcourt Brace, 1966).

ذلك لأن البشر قبل أن يتمكنوا من الحصول على حاجياتهم من محالّ السوبر ماركت، كانوا يضطرون إلى القتل لتوفير القوت. ولكن، حتى لو كانت هذه المقولة صحيحة، فإن غالبية البشر ليسوا عدوانيين طوال الوقت، الأمر الذي يثير السؤال عن ماهية الظروف التي تستدعي تلك الغريزة. ويحاول بعض الباحثين التوسع في البحث في هذا النطاق ويطرحون مقاربة بيولوجية في مجال السياسة، وهو منظور دارويني يرى أن عملية التطور جعلتنا نفكر ونتصرف بطرائق محددة يمكن التنبؤ بها، في نطاق معين على الأقل. والحقيقة أن هذه النظرة الموحدة لنظرية التطور خادعة؛ ففي حين أن علماء نفس التطور، والإثنولوجيين [الذين يدرسون سلوك الحيوانات في بيئاتها الطبيعية]، والبيولوجيين قد يشاطرون الرأي القائل إن عمليات التطور هيّأتنا جينيًا بطريقة ما - ويرفضون بذات القدر فكرة سكنر بأننا نولد صفحات بيضاء - غير أنهم يختلفون في القضية الرئيسة المتعلقة بماهية تلك التهيئة الجينية وما تتضمنه من خصائص.

فلو قارنا، مثلًا، بين كتاب ريتشارد دوكنز (Richard Dawkins) **الجين الأناني** (*The Selfish Gene*)، وهو من الكتب الأكثر مبيعًا، وكتاب ماري كلارك (Mary Clark) **البحث في الطبيعة الإنسانية** (*In Search of Human Nature*)، نجد أن دوكنز يرى عالمًا تطوّر فيه لدى البشر القدرة على السلوك بما يخدم مصلحتهم الذاتية، إذ يرى،

> أن الخاصية الغالبة المتوقعة في الجين الناجح، هي الأنانية المطلقة. وهذه الأنانية الجينية تؤدي عادة إلى أنانية في السلوك الفردي (...) غير أن هناك ظروفًا خاصة يمكن فيها للجين تحقيق أهدافه الأنانية على أفضل وجه بتبني شكل محدود من الإيثار على المستوى الفردي لدى الحيوانات. وكلمتا «خاصة» و«محدود» هامتان في هذه الجملة الأخيرة؛ ذلك لأنه وعلى الرغم من أمنياتنا بألّا يكون هذا هو واقع الحال، فإن الحب الشامل والاهتمام بالصالح العام للنوع [الإنساني] هي ببساطة مفاهيم ليست ذات قيمة بالمعنى التطوري[30].

---

(30) Richard Dawkins, *The Selfish Gene*, 30th anniversary edition (New York: Oxford University Press, 2006), p. 2.

لكن كلارك ترى أن نظرية «جينات الأنانية» التي يقول بها دوكنز لا تعطي مجالًا للحب، والتعاطف، والفضيلة. لأن كل هذه الأمور مرفوضة تطوريًا، وليست فعالة؛ من حيث إنها تقلل صلاحية الفرد للبقاء [بحسب ما يرى دوكنز][31]. غير أنه من الصعب حقيقة تفسير الأفعال الإيثارية العديدة التي نلاحظها في عالم الواقع - أفعال الذين يجازفون بسلامتهم لإنقاذ الآخرين - من أمثال راؤول والنبيرغ (Raoul Wallenberg) وبير آنجر (Per Anger) -، إذا كان هذا هو حال «تمديداتنا» الجينية. وتتصدى كلارك لوجهة النظر هذه قائلة، «لا يمكنني أن أرى كيف تسنى لنا أن نتطور على الإطلاق لو أننا بُنينا على هذه الشاكلة». وتضيف، «لا يمكنني أن أرى في الحقيقة كيف تسنى لأي من الثدييات الاجتماعية - بما فيها الحيوانات الرئيسة الأخرى، والدلافين، والفيلة - أن تظهر إلى حيز الوجود لو كانت قوانين الانتقاء الطبيعي المطبقة على السلوك هي تلك القوانين»[32]. وتؤكد كلارك أن وجهة النظر هذه لا تعجز عن تفسير سلوك الإيثار والتعاطف في الحياة الاجتماعية فحسب، وإنما تعجز أيضًا عن تفسير حقيقة امتلاكنا مشاعر الحب والحزن، وسعينا إلى الالتئام معًا في جماعات على الإطلاق. وبدلًا من أن تكون «جينات الأنانية» هي التي كوّنتنا، نحن في الواقع معدّون جينيًا، أو نمتلك البنية الأساس، لمد يد المساعدة لغيرنا من البشر. ولكي يتسنى للنوع التوالد والاستمرار، فانه لن يحقق الهدف المرجو إلا إذا كان مُعدًّا لمساعدة بعضه بعضًا.

أما ج. فيليب رشتون (J. Philippe Rushton)، فإنه يؤكد، بالمقابل، أننا نستطيع تفسير إيثارنا لجماعتنا الإثنية وعدائنا لسواهم، على حد سواء، باستخدام نظرية التشابه الجيني (genetic similarity theory)، والقائلة إننا نميل إلى تفضيل أولئك المشابهين لنا جينيًا[33]. ويرى أن هذا النوع المحدود من الايثار تكوّن لأغراض تطورية، من حيث أنه يعمل على تكرار جيناتنا الخاصة ونقلها إلى الأجيال

(31) Mary Clark, *In Search of Human Nature* (New York: Routledge, 2002), p. 55.

(32) المصدر نفسه.

(33) J. Philippe Ruston, «Ethnic Nationalism, Evolutionary Psychology and Genetic Similarity Theory,» *Nations and Nationalism*, vol. 11, no. 4 (2005), pp. 489-507.

اللاحقة. فنحن نميل إلى الزواج بمن يشبهوننا إثنيًا، على سبيل المثال، وبمن يقاربوننا عمريًا، وتعليميًا، وبالذين يشبهوننا في الاتجاهات، وحتى بمن يشبهوننا في الشخصية[34]. ومع أن تحليلات من هذا النوع تعتبر تحليلات اختزالية (reductionist) [بمعنى أنها ترد ظواهر معقدة إلى عوامل محدودة]، إلا أن رشتون ينكر استخدامه تحليلًا جينيًا صرفًا للسياسة، ويبدو أنه ينظر إلى الاتجاهات السياسية كتبرير لاشعوري لمصالح جينية [كمناصرة جماعتنا الخاصة بهدف المحافظة على بقاء جيناتها]. وهو افتراض يترك كثيرًا من الأمور المعلقة[35]. وكما أن هذا النوع من التحليل لا يحدد المكنزمات التي يجري من خلالها ترجمة الدوافع الجينية إلى فعل سياسي، إضافة إلى أنه يواجه صعوبة في تفسير العداء نحو الذين لا يشاطروننا البناء الجيني ذاته. ولكن رشتون بعد أن يطرح مقولته بأن «القومية الإثنية، والخوف من الأجانب، والقتل الجماعي قد تمثل الجانب المظلم من الإيثار»، لا يعلّل لماذا تقود الجينات إلى العداء للجماعة الخارجية أو يعلّل عمق تلك المشاعر[36].

غير أن عزو القومية إلى عمليات تطورية يواجه مشكلة أكثر أساسية من حيث إنه لا يوضح ما تم تمديده فينا جينيًا على وجه التحديد، ومن حيث صعوبة فصل العوامل الوراثية أو البيولوجية عن السلوكات الاجتماعية المتعلمة [أو فصل ما هو وراثي عمّا هو متعلم]؛ وحتى لو استطعنا تحديد طبيعة التمديدات الجينية لدينا، فإننا سنواجه مشكلة في تبيان الطريقة التي تتفاعل فيها هذه العوامل التطورية مع القوى الاجتماعية والسياسية (لأن البيولوجي وحده لا يفسر كل شيء، بالتأكيد). والمشكلة الحقيقية التي تواجه أي نظرية ترد الصراع القومي الحاد إلى شيء فطري، هي أنها لا تفسر ميلنا إلى مساعدة بعضنا بعضًا، كما توحي بحوث كلارك، على الرغم من أن هناك ضغوطًا اجتماعية [موقفية] عديدة تحد من هذا الميل، كما سبق أن رأينا. وبعبارة أخرى، ربما تكون مصادر الصراع قابعة في مكان ما غير بيولوجية الإنسان، وهذه المشكلة لا تواجه النظريات البيوسياسية وغيرها من

(34) «Ethnic Nationalism, Evolutionary Psychology and Genetic Similarity Theory,» p. 495.

(35) المصدر نفسه، ص 501.

(36) المصدر نفسه، ص 503.

النظريات التي ترى أن التعصب والتمييز أمور «ملازمة» للطبيعة البشرية فحسب، ولكنها تواجه مناحي أخرى كنظرية السيطرة الاجتماعية التي تفترض أن مجرد وجود التراتيبية (الاجتماعية) كافٍ لإنتاج الاضطهاد والاستغلال.

علم نفس الإبادة الجماعية

ترى كرستن مونرو (Kristen Monroe) وزملاءها أن نظرية الهوية الاجتماعية تدعو إلى كثيرًا من القلق، ذلك لأنها «توحي أن الإبادة الجماعية والعنصرية ربما لا تكون في الحقيقة سوى امتداد متطرف للسلوك الجماعي العادي، والتماهي الطبيعي مع الجماعة»[37]. والنظريات الموقفية العامة كنظرية الهوية الاجتماعية، لا تستطيع على أي حال، إيضاح الأسباب التي تأخذ معها الهويات الإثنية أحيانًا شكل سلوكات متطرفة، حيث يقول جيمس والر:

> إن التصنيف الاجتماعي، وما له من دور في التفكير بطريقة «نحن» و«هم»، لا يؤدي إلى كراهيتنا لكل الجماعات الخارجية. كما أن الاستبعاد الاجتماعي، فضلًا عن المجازر والإبادة الجماعية، ليست نتائج حتمية لهذا التصنيف. إلا أن التصنيف الاجتماعي يذكرنا، أننا حين نتماهى مع جماعة، نميل إلى تضخيم الفروق بيننا وبين الآخرين، وإلى تضخيم العداء للجماعات الأخرى في كثير من الأحيان، ونميل بالمقابل إلى تعزيز التعاون داخل جماعتنا وتعزيز فعاليتها[38].

إن ما يُفضي إليه هذا كله هو أننا لا نستطيع تفسير القومية والصراع الإثني تفسيرًا تامًا استنادًا إلى النظريات التي ترى أن مجرد الأخذ بمنظور «نحن» و«هم» كافٍ لفهم تلك الظواهر. وإذا كان الأخذ بهذا المنظور يمثل شرطًا ضروريًا لنشوء الصراع، فإنه لا يكون شرطًا كافيًا في كثير من الأحيان. ومن الواضح أننا نحتاج في تحليل القومية والصراع الإثني إلى فهم التفاعل بين مكنزمات «نحن مقابل هم» الموقفية [في الأساس] والعوامل النزوعية

(37) Monroe, Hankin and Van Vechten, «The Psychological Foundations of Identity Politics,» p. 436.

(38) Waller, *Becoming Evil: How Ordinary People Commit Genocide and Mass Killing*, p. 243.

كالشخصية والاعتقادات - ذلك التفاعل الذي يؤدي إلى سلوكات متطرفة - ولا يتصدى لهذه المهمة حاليًا إلا قدر ضئيل من البحوث.

كذلك، فإن الطبيعة «المفاجئة» لكثير من أحداث الإبادة الجماعية يُظهر ضعفًا آخر في النظريات التي تناولناها في هذا الفصل. وتعطي الأحداث التي وقعت في يوغسلافيا في بداية التسعينيات مثالًا مناسبًا على ما نرمي إليه. فقد عاش الصرب، والبوسنيون، والكروات كجماعات إثنية جنبًا إلى جنب في انسجام على ما يبدو لسنين عديدة - ولكنهم لم يدخلوا في حرب ضد بعضهم بعضًا فجأة فحسب، بل وأخذوا يدمرون بعضهم بعضًا على نطاق واسع. وبعد أن أصبحت تعابير «صربي» و«بوسني» تعابير قديمة ليس لها من صلة (بالواقع الحديث) إلا في معرض اختبار في تاريخ الحرب العالمية الأولى، فإن الإبادة الجماعية في يوغسلافيا كانت صدمة مذهلة للعالم الغربي. كذلك فإن أحداث رواندا عام 1994 أخذت الكثيرين على حين غرة - على الرغم من أن القتل الجماعي كان يحدث هناك بشكل متقطع، وإن كان ممنهجًا، سنين عدة. ولأن النظريات التي تناولناها في هذا الفصل لا تُعنى بالتغيير - حيث إن جميع هذه النظريات تتسم بالجمود إلى حد ما - فإنها من هنا لا تقدم سوى تفسيرات جزئية لأحداث الإبادة الفجائية.

فما هي الإبادة الجماعية على وجه التحديد؟ وفقًا لما تفيده مونرو، فإن «الإبادة الجماعية تشير إلى التدمير المقصود والممنهج للبشر، ليس بسبب أفعال فردية أو ذنوب ارتكبوها، وإنما بسبب انتمائهم إلى جماعة قومية، أو إثنية، أو عرقية، أو دينية»[39]. لقد اطّلعنا في هذا الكتاب حتى الآن على تفسيرات متنوعة للهولوكوست النازي، ولكن كيف لنا أن نفسر الإبادة الجماعية - أشد أشكال الصراع الإثني فتكًا - بوجه عام؟ وبحسب ما تفيد مونرو، مرة أخرى.

> هناك تفسيران كثيرًا ما يقدمان لهذه الظاهرة؛ الأول منهما يتعلق بالفوارق بين الجماعات في الظروف السياسية - الاقتصادية، ورغبة الجماعة

(39) Kristen Monroe, «Review Essay: The Psychology of Genocide,» *Ethics and International Affairs*, vol. 9, no. 1 (March 1995), pp. 216.

المسيطرة، من ثمّ، في استخدام قوتها لتحقيق ظروف معيشية أفضل، أو الحصول قدر أكبر من الأراضي، والثروة المادية التي تمتلكها أقلية إثنية.

ويتصل هذا التفسير بمقاربة الإنسان الاقتصادي على نحو ما أو بنظرية الصراع الواقعي بين الجماعات - وتعتقد مونرو أنه يمثل «ومضة من العقلانية» - وهو من هنا يبدو تفسيرًا معقولًا خلافًا للتفسير الآخر، حيث تقول «وفي مقابل هذا التفسير العقلاني، يذهب التفسير الثاني إلى رد الإبادة الجماعية إلى الأحقاد القديمة العالقة في الكيان السياسي، أحقاد لم تجلِها المفاوضات السياسية المعتادة نظرًا إلى تأصلها وجموحها». وتعتقد مونرو أن كلا التفسيرين قاصر، لسوء الحظ، لأننا يمكن أن نجد التنافس للحصول على الموارد المحدودة كما يمكن أن نجد الأحقاد القديمة في كثير من الأماكن، غير أننا لا نرى الأحداث تتفاقم بالضرورة لتصل حد الإبادة الجماعية[40].

وتقترح مونرو تفسيرًا آخر للإبادة الجماعية متعدد الطبقات والمستويات ويتمتع بقدر أكبر من الدقة، حيث تؤكد فيه ضرورة وجود عوامل عدة لوقوع الإبادة الجماعية - كثير من هذه العوامل موقفي في طابعه، إضافة إلى عوامل أكثر نزوعية. وترى مونرو أنه أولًا وقبل كل شيء لا بد أن يكون هناك تقسيمات إثنية واضحة، أو مجتمعًا «تعدديًا» - وتعتبر هذا العامل شرطًا ميسرًا أو ضروريًا، ولكنه ليس شرطًا كافيًا طبعًا. ويأتي على المستوى الثاني بعد ذلك عوامل موقفية تقبع فوق هذه التقسيمات (من قبيل ضائقة اقتصادية، أو عدم استقرار سياسي، أو حرب أو ثورة). ومن ثمّ، تعمل هذه الظروف على تقسيم المجتمع ضد نفسه، فينقسم بشكل مؤقت، أو دائم، إلى عناصر متصارعة وفقًا للخطوط الإثنية القائمة داخله. وتمثل هذه الخطوة خطوة مهمة في عملية الإبادة ولكنها لا تقود بالضرورة إلى ذبح أعضاء جماعة على يد جماعة أخرى. وفي المستوى الثالث تأتي التصورات الذهنية المتبادلة، إذ لا بد للجماعات المختلفة أن تأخذ في النظر إلى جيرانهم على أنهم «الآخرون». ولا بد من النظر إليهم «نظرة نمطية»، كما لا بد من التعامل معهم بوصفهم

---

(40) «Review Essay: The Psychology of Genocide,» pp. 215-216.

«كبش فداء» لتحميلهم اللوم على ما تواجهه «الضحية» من ظروف صعبة. علاوة على ذلك، فإن كبش الفداء لا بد أن يُجرد من إنسانيته لاحقًا على نحو يجعل الجماعة المسيطرة تشعر بأنها مُحقّة أخلاقيًا في ارتكاب الفظائع المخيفة ضد الجماعة الأدنى منزلة.

ولعل المتطلب المسبق أو المستوى الأول من العوامل الذي تقترحه مونرو يبدو واضحًا بدرجة كافية الآن؛ ذلك لأن الإبادة الجماعية لا تحدث داخل مجتمعات مختلطة أصلًا لا تكون الخطوط الإثنية بارزة فيها لتستخدم بوصفها خطوط تصنيف، على الرغم من أن الإبادة الجماعية قد تقع بين مجتمعات من هذا القبيل (وليس داخلها). علاوة على ذلك، تلاحظ مونرو أن «اللامساواة المزمنة في المشاركة السياسية والفروق الاقتصادية والاجتماعية المرتبطة بها تفسح في الطريق لحدوث الإبادة وخصوصًا عندما يكون هناك تاريخ طويل للصراع بين الجماعات»[41].

أما المستوى الثاني من العوامل، وفق ما تفيد مونرو، فيتمثل في ظهور أوضاع اقتصادية وسياسية تزعزع الاستقرار «وتهدد النظام الاجتماعي»[42]. وتقدم سوزان وودوارد (Susan Woodward) تفسيرًا ممتازًا لانهيار يوغسلافيا في كتابها مأساة البلقان تركز فيه على النوع الثاني من العوامل المفسّرة هذه[43]. فقد اعتُبرت يوغسلافيا حتى عهد قريب، قد يصل إلى أواخر السبعينيات بشيرًا لاقتصاد المستقبل، إذ رأى العديد من الاقتصاديين الليبراليين أن نظامها الاقتصادي يمثّل زواجًا مثاليًا بين النظام الاشتراكي ونظام السوق[44]. كما أنها تجاوزت محنة موت «رجلها القوي» المارشال تيتو (Tito)، الذي يعتبره العديد من المراقبين اللاعب الرئيس في التطور السياسي والاقتصادي ليوغسلافيا كدولة. ولكن أوصال يوغسلافيا تقطعت سريعًا بعد الحرب الباردة، وعادت

---

(41) «Review Essay: The Psychology of Genocide,» p. 218.

(42) المصدر نفسه، ص 218.

(43) Susan Woodward, *Balkan Tragedy: Chaos and Dissolution after the Cold War* (Washington DC: Brookings Institution, 1995).

(44) للمزيد، انظر: Charles Lindblom, *Politics and Markets: The World's Political Economic Systems* (New York: Basic Books, 1977).

إلى «الأجزاء» القديمة التي تألفت منها (وكان قد ألّفها الحلفاء المنتصرون بعد الحرب العالمية الأولى، كما كان الحال مع العراق). كيف لنا أن نفسر هذا الحدث المفاجئ؟

لقد لجأ العديد من المراقبين الدوليين سريعًا إلى حجة «الأحقاد القديمة». فقال رئيس الوزراء البريطاني جون ميجر (John Major) لمجلس العموم إن الإبادة وقعت نتيجة:

> سقوط الاتحاد السوفياتي وسقوط الانضباط الذي فرضه على الأحقاد التاريخية في يوغسلافيا القديمة، وما أن اختفى ذلك النظام حتى عادت الأحقاد القديمة إلى الظهور وبدأنا نرى نتائجها عندما وقع القتال.

غير أن هذا التحليل بالغ في درجة التحكم التي كان السوفيات يمارسونها على يوغسلافيا وهي لم تكن دولة حليفة لهم، وأهمل حقيقة أن الصرب، والكروات، والبوسنيين، وغيرهم تعايشوا في انسجام معقول داخل حيِّز قومي مشترك لسنين عديدة، كما أن هذا التحليل قلل من حقيقة أن الدولة ثبتت بعد فقدان الشخص الذي كان ممسكًا بمكوناتها الإثنية المتنوعة بالقوة[45]. لكن سوزان وودوارد (Susan Woodward) أعرضت عن مثل هذه الآراء الشائعة في حينه، وقدمت تفسيرًا اقتصاديًا جليًا لما حدث رأت فيه أن الضائقة الاقتصادية – التي نجمت عن تفكيك الترتيبات الاقتصادية القائمة والدخول سريعًا في المياه الباردة لنظام السوق العالمي، وهو ما سمته وودوارد «برنامج علاج بالصدمة للتطوير الاقتصادي» – خلقت) توترات أدت إلى تمزق الدولة الحديثة نسبيًا عند الأطراف[46]. وبالمثل، أدى نقص الأراضي في رواندا، والناجم جزئيًا عن تدفق التوتسي إليها، إلى عدم استقرار اقتصادي، أرسى القاعدة أو مهَّد للرعب الذي جاء لاحقًا[47].

---

(45) يجب ملاحظة أن والكر كونور أشار إلى يوغسلافيا كمنطقة توتر إثني منذ منتصف الستينيات (انظر بداية هذا الفصل).

(46) Woodward, *Balkan Tragedy: Chaos and Dissolution after the Cold War*, p. 1.

(47) Philip Gourevitch, *We Wish to Inform You that Tomorrow we Will Be Killed with Our Families: Stories from Rwanda* (New York: Picador, 1998), p. 73.

هذه الشروط الموقفية العامة طبعًا - وإن كانت تمثل قوى حاسمة وملازمة لحالات الإبادة إلا أنها ليست كافية لحدوثها. لقد كان بإمكان يوغسلافيا أن تنفصل إلى أجزاءها المتنوعة بسلام - كما حدث في تشيكوسلوفاكيا السابقة، أو ربما كان بوسعها أن تلجأ إلى حرب دون أن تسمح بوقوع الإبادة الواسعة التي وقعت. ومن هنا، فإن منطق الأمور يقضي بأن تكون هناك خطوة، أو سلسلة من الخطوات قبل وقوع الإبادة؛ وتندرج هذه الخطوات ضمن المستوى الثالث أو المستوى النفسي، وعند ذلك تصبح استبصارات علم النفس ذات فائدة عظيمة، حيث يصبح للتصورات والنزعات الثقافية والفردية دور حاسم في حدوث الإبادة الجماعية.

وبحسب ما ترى مونرو، تكون الخطوة الأولى ضمن المستوى السيكولوجي هذا متمثلة بظهور نوع من الأيديولوجية التي تعمل على إسباغ الشرعية وتبرير الذبح الذي سيقع. وكثيرًا ما يأخذ هذا التبرير شكلًا «علميًا» مريبًا. وتقول مونرو إن «المثير للسخرية هو أن الاعتقاد بالحتمية البيولوجية يتم توظيفه لتبرير الإبادة الجماعية [والتطهير العرقي] وتصويرها على أنها حرب مقدسة لتحرير الجسم السياسي من الأنسجة المريضة». لذا، تصبح الإبادة الجماعية إجراءً علميًا واقيًا من العدوى التي يأتي بها وسطاء «التلوث العنصري» الذين يُنظر إليهم بوصفهم فطريات وبكتيريا مسببة للمرض والتدهور والموت لدى الشعوب المضيفة[48]. وينجم عن تلك الأيديولوجية الراديكالية اتجاه لشيطنة (demonization) جماعة الأقلية، ورؤيتهم كخطر، وشعور بالتفوق العنصري أو الديني عليهم[49].

---

(48) *We Wish to Inform You that Tomorrow we Will Be Killed with Our Families*, p. 220. and Richard Lerner, *Final Solutions: Biology, Prejudice, and Genocide* (University Park, PA: Pennsylvania State Press, 1992).

يُفصّل ريتشارد ليرنر في كتابه هذا كيف استخدمت الحجج البيولوجية لتبرير الهولوكوست. وليس مستغربًا خروج هذه الحجج عن التداول الشائع لسنوات عدة بعد الحرب العالمية الثانية من حيث إنها تذكر بالتصورات النازية.

(49) ويماثل ذلك وصف التوتسي بـ «الصراصير»، بكل ما يحمله هذا الوصف من معان سلبية مهينة لإنسانيتهم.

أما الخطوة التالية فتتمثل في نقلة في إدراكنا (أو رؤيتنا) لأنفسنا مقارنة بالآخرين. وهناك دليل أخذته مونرو عن كتاب كريستوفر براوننغ (Christopher Browning) حول النازي باتاليون 101 (*Nazi Battalion 101*) يوحي أن البروتوكول الاجتماعي والرغبة في عدم «إراقة ماء الوجه» أمام الزملاء تصبح أكثر أهمية من حياة «الآخر» في ظل هذه الظروف [فنجاريهم في ما يعملون][50]. وقد نرى أنه «ليس لدينا الخيار» إلا أن نفعل ما نفعله. أما التغير السيكولوجي الثالث فهو أننا قد ننظر إلى أنفسنا كأننا نتصرف بوحي من عاطفة مقلوبة (twisted compassion)؛ فنرى أنفسنا مخلوقات أخلاقية (تتصرف بوازع من ضمير) تسعى لتخليص «الآخر» من بؤسه، فقد رأى بعض أعضاء البتاليون (101) أن قتل الأطفال عمل أخلاقي، من حيث إن تعرض والديهم للإعدام سيجعل حياتهم لا تُحتمل في كل الحالات. وأخيرًا، ولعلها النقلة الرئيسية التي تسبق كل ما عداها، فتتمثل بحدوث الابتعاد (نفسيًا) عن الضحية وتجريده من إنسانيته (distancing and dehumanization). أما الابتعاد فلا يشير بالضرورة إلى المسافة الفيزيقية التي ألقت آيخمان بعيدًا عن أولئك الذين كان يُساهم في قتلهم - ولكنه يشير إلى المسافة النفسية والانفعالية التي يخلقها المعتدون بينهم وبين ضحاياهم الذين يُحمّلوا لاحقًا اللوم على ما حاق بهم من مصير[51].

خاتمة

بالعودة إلى موضوع علم الأعصاب الذي سبقت مناقشته، هناك ما يشير إلى حدوث تغيرات في الدماغ الإنساني عندما يقوم الجيران بقتل جيران عرفوهم لسنين عديدة - وهو ما يحدث في حالات الإبادة في كثير من الأحيان[52]. ففي ما يتعلق بالقتل في ساحة الحرب، يفيد ديف غروسمان (Dave Grossman) أنه:

---

(50) Christopher Browning, *Ordinary Men: Reserve Police Battalion 101 and the Final Solution in Poland* (New York: Harper Collins, 1992).

(51) Monroe, «Review Essay: The Psychology of Genocide,» p. 236.

(52) انظر: Waller, *Becoming Evil: How Ordinary People Commit Genocide and Mass Killing,* p. 244.

> عندما يخاف الإنسان، يتوقف الدماغ الأمامي (forebrain) لديه عن التفكير (وهو الذي يمثل العقل لدى البشر) ويبدأ بالتفكير من خلال الدماغ الأوسط (midbrain) (أي من خلال الجزء من الدماغ الذي لا يتميز أساسًا لدى الإنسان عما هو عليه لدى الحيوان)[53].

والحقيقة أن الانفعال النفسي الذي يخبره الإنسان السوي عندما يُقدِم على قتل فرد من أبناء نوعه ليس الخوف، وإنما الشعور برادع يردعه عن الإقدام على ذلك الفعل. وسيكون من الأهمية بمكان، بحسب ما يرى غروسمان، معرفة ما إذا كان شيء من هذا القبيل يجري لدى الذين يرتكبون أفعال الإبادة. ولعله من المعقول افتراض أن الأجزاء الأكثر بدائية من الدماغ تُستثار عندما ينخرط الأفراد في سلوكيات إبادة، ولكن لسوء الحظ، لا يتوافر لدينا الآن كثيرًا من البحوث حول هذه القضية.

وبعيدًا عن النقاط التي تثيرها مونرو، وكما ذكرنا في الفصل الرابع، علينا أن نتذكر أن الإنسان يحمل نزعة إلى الطاعة - وعلى الرغم من أنه لا يكون هناك سلطة مهيمنة تقف فوق رؤوسنا على الدوام لنتحقق من أننا نذعن - فإن هذه النزعة تمثل عاملًا قويًا يُسهم في حدوث الإبادة؛ ذلك لأن الإبادة الجماعية تتطلب عددًا كبيرًا من الناس ليقوموا بالقتل وعددًا كبيرًا من الضحايا [لينطبق عليها وصف إبادة]، ومن هنا، فإن الإبادة لا تكون ممكنة لو لم يكن هناك ميل أساس لدى الإنسان إلى طاعة السلطة. وما هو مثير للاهتمام، فضلًا عن ذلك، أن ملغرام استطاع استثارة درجة عالية من الطاعة لدى مبحوثيه حتى دون تجريد «الضحية» من إنسانيته [وهو أحد الشروط النفسية التي اقترحتها مونرو لحدوث الإبادة]؛ ويلفت والر (Waller) النظر إلى حقيقة أن الممثل اللطيف [الذي قام بدور التلميذ في تجربة ملغرام] والذي ادّعى أنه يتلقى الصدمات الكهربائية - عومل من المبحوثين باحترام بوصفه شخصًا (لا ضحية)، الأمر الذي يدعونا إلى الاعتقاد بأن الطاعة في مواقف السياسة الواقعية ربما تكون أعلى مما

---

(53) Dave Grossman, *On Killing: The Psychological Cost of Learning to Kill in War and Society* (Boston, MA: Little and Brown, 1995).

نتصور [بمعنى أن تنفيذ الأوامر التي تقضي بإيذاء الآخر لا تتطلب بالضرورة تجريده من إنسانيته لكي ننفذ الأوامر التي تقضي بإيذائه][54].

وتبرز طبيعة السلطة بحد ذاتها كقضية مساوية في الأهمية في هذا السياق؛ إذ يجب علينا أن نضيف إلى وجهة نظر مونرو التي يمكن اعتبارها شاملة من دون هذه الثغرة، إمكانات التأثير والتغيير التي يمتلكها القادة، وغيرهم من الوسطاء، كمتغيرات حاسمة في حدوث الإبادة. وفي حين أن أدولف هتلر (Adolf Hitler) وسلوبودان ميلوسوفيتش (Slobodan Milosevic) برّرا المذابح التي ارتُكبت تحت إمرتهما في ظروف اجتماعية وسياسية خارجة عن نطاق تحكمهما، فإن كليهما أدى دورًا حاسمًا في «تشكيل» مجرى الأحداث في أوروبا في خلال اثنتين من الإبادات الجماعية. وعلى الرغم من أن هتلر لم يواجه العدالة نظير ما فعل، فإن ميلوسوفيتش خضع للمحاكمة، ولم يشكك عالِم اجتماعي واحد في مسؤوليته، جزئيًا في الأقل، عن الإبادة الجماعية التي حدثت في يوغسلافيا. وبالمثل، أدى قادة الهوتو في رواندا أدوارًا متكاملة في خلق الممارسات التمييزية ضد التوتسي على مستويات مختلفة، وفي منطقة دارفور في السودان قام قادة البلاد بتشجيع الإبادة الجماعية. وفوق نزعة القيادة إلى الشر، ونزعة كثير من الناس للانقياد إلى ما يُطلب منهم فعله (كما ظهر في تجربة زمباردو)، وإلى فعل أشياء يعرفون في قرارة أنفسهم، أو يشكون، أنها خطأ (كما وجد جانيس (Janis) وآش (Asch))، لا يعود وقوع جرائم الإبادة الجماعية مستغربًا - فعندما تضاف هذه العوامل النزوعية - والمتمثلة هنا بالميل إلى الخضوع للأوامر، والميل إلى الإنسياق للآخرين - إلى عوامل موقفية عامة كالضائقة الاقتصادية، والتفكير من منطلق «نحن» و«هم»، وتجريد الآخر من إنسانيته، وشيطنته، وزراعة العقائد الأيديولوجية، والقوة الهائلة للقواعد الاجتماعية، إضافة إلى غير ذلك من العوامل، نجد الإبادة الجماعية أمرًا شائعًا، وملمحًا متكررًا من ملامح تاريخ البشر.

---

(54) Waller, Ibid., p. 249.

14
علم نفس العنصرية وعدم التسامح السياسي

يرى فيديريكو ولاكس (Federico and Luks) أن «العنصر (race) لازال يؤدي دورًا مهمًا، ليس في تحديد ما يصل إليه الأفراد في حياتهم فحسب، وإنما في اتجاهاتهم الاجتماعية والسياسية أيضًا»[1]. وهذا القول يصدق على الولايات المتحدة، كما يصدق على أوروبا ومعظم بلدان العالم الأخرى. وليس مستغربًا والحال هذه أن علماء نفس السياسة كانوا ولا زالوا مهتمين بجذور التعصب العنصري. فما الذي يجعل أفرادًا عاديين، عقلانيين، وأصحاء نفسيًا يتحيّزون - ظاهريًا أو باطنيًا - ضد شخص معين أو جماعة بكاملها، ليس لأي سبب سوى أن ذلك الشخص أو تلك الجماعة صدف أن لون جلده/ أو جلدها، يختلف عن لون جلده؟ ويمثّل هذا التحيز في الحقيقة واحدًا من أكبر الألغاز التي يواجهها علم النفس الاجتماعي والسياسي - وربما العلوم الاجتماعية قاطبة، ومن هنا نجد الكثير من هؤلاء العلماء يتصدى لدراسة أسباب انتشار هذه الظاهرة.

ووفقًا لسوزان فسك (Susan Fiske) فإن القدر الأكبر من البحوث التي أُجريت حول العنصرية (racism) والتعصب (prejudice) والتمييز (discrimination) خرج من الولايات المتحدة. وتفسر فسك ذلك بقولها، «إن قرونًا من الهجرات

---

(1) Christopher Federico and Samantha Luks, «The Political Psychology of Race,» *Political Psychology*, vol. 26, no. 5 (October 2005), pp. 661-666.

الشديدة التنوع التي دخلت في أمة واحدة، دفعت القضايا الإثنية إلى السطح في الولايات المتحدة أسرع من أي مكان آخر». ولكنها تُؤكد أن كثيرًا من النظريات التي استُخدمت لتفسير العنصرية تنطبق على التعصب في السياسة الأوروبية بالقدر الذي تنطبق فيه على التعصب في السياسة الأميركية[2]. والحقيقة أن معظم النظريات التي ستتناولها في هذا الفصل يمكن تطبيقها على أي منطقة من العالم حيثما يكون هناك فروق عنصرية وإثنية بارزة داخل الدولة الواحدة.

والنظريات النفسية التي تصدت لتفسير العنصرية ونشوء التوترات العنصرية عديدة ومتنوعة إلى حد يبعث على الدوار في الحقيقة، ولا يسعنا إعطاءها جميعًا حقها من البحث على قدم المساواة هنا، ولكننا نستطيع الإشارة إلى الخطوط العامة للواحدة منها بالتأكيد. ومن حيث إننا ناقشنا بعض هذه النظريات في الفصول السابقة، فإننا سنتناولها هنا تناولًا سريعًا (ونوضح بطبيعة الحال كيف يمكننا تطبيقها على الاتجاهات العنصرية مقارنة باتجاهات أخرى). ولأن الصراع بين الجماعات يأخذ أشكالًا متعددة [بما فيها الصراعات العنصرية]، فإن النظريات التي تناولناها في الفصل السابق يمكن أن تستخدم أيضًا لتفسير التمييز العنصري، إضافة إلى نظريات أخرى أكثر تحديدًا تم تطويرها لتفسير العنصرية والتعصب ضمن السياق الأميركي حصريًا. وتفيد فسك أننا نستطيع تصنيف جميع هذه النظريات في صنفين: نظريات تفسّر ظاهرة التعصب على مستوى فردي (individual-level theories) ونظريات تفسرها على مستوى السياق [أو الإطار المحيط] (contextual-level theories) وبوجه عام، يمكننا النظر إلى هاتين التسميتين كمصطلحين بديلين للمقاربة الموقفية والمقاربة النزوعية اللتين نقول بهما[3]. والعنصرية، كغيرها من الظواهر السياسية التي ناقشناها، قد تكون نتاجًا لاعتقادات يحملها أفراد معينون أو نتاجًا للشخصيات الخاصة بهؤلاء الأفراد، أو قد تكون نتاجًا لعوامل موقفية تُشجّع أو تسمح بممارسة سلوك عنصري.

(2) Susan Fiske, «Stereotyping, Prejudice, and Discrimination at the Seam between the Centuries: Evolution, Culture, Mind, and the Brain,» *European Journal of Social Psychology*, vol. 30, no. 3 (May-June 2000), p. 302.

(3) المصدر نفسه.

ما الذي يُفسّر العنصرية؟

نظرية الشخصية التسلطية

ربما تكون قد خرجتَ من مناقشتنا في الفصل الرابع بانطباع مفاده أن نظرية الشخصية التسلطية (authoritarian personality) قد قضت في الستينات، وسقطت كشجرة ضخمة بقوة فأس الموقفية الذي رفعه عليها ملغرام وآخرون. لكن هذه النظرية عادت إلى حيز الوجود في السنوات الأخيرة، من خلال بحوث بوب ألتيماير (Bob Altemeyer) على وجه الخصوص[4]. وقد احتفظ ألتيماير أساسًا بنظرية الشخصية التسلطية «القديمة» التي ارتبطت بتيودور أدورنو (Theodore Adorno) وزملائه، ولكنه حاول أن يزيل شيئًا من الغموض الذي اعترى تلك النظرية. فقد حددت نظرية أدورنو في الأصل تسع سمات شخصية يُفترض أن تميز الجناح اليميني التسلطي من الناس، لكن ألتيماير تخلص من بعض هذه السمات واختصرها في ثلاثة «عناقيد/ تجمعات من الاتجاهات» (attitudinal clusters)، وهي: الخضوع للسلطة (authoritarian submission) (ويعني ذلك ميلًا شديدًا لدى الفرد إلى الخضوع للسلطة)، والعدوان التسلطي (authoritarian aggression) (العدائية تجاه الجماعات الخارجية)، والتقليدية (conventionalism) (وتشير إلى الامتثال للمعايير الاجتماعية وعدم الاستعداد للتصدي للواقع القائم). وأطلق ألتيماير على الصيغة المنقحة من النظرية تسمية «تسلطية الجناح اليميني» (right-wing authoritarianism) وطوّر مقياسًا لقياس درجة اتسام الأفراد بهذه الصفات.

ويمكن النظر إلى العنصرية ببساطة، من وجهة نظر ألتيماير، كواحدة من خصائص هذا الصنف من الشخصية - التي تتسم بالتعصب الشديد إزاء

---

(4) Bob Altemeyer: *Right - Wing Authoritarianism* (Winnipeg: University of Manitoba Press, 1981); *Enemies of Freedom: Understanding Right - Wing Authoritarianism* (San Francisco, CA: Jossey-Bass, 1988), and *The Authoritarian Specter* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1996).

للحصول على ملخّص النهج «القديم»، انظر: Roger Brown, «The Authoritarian Personality and the Organization of Attitudes,» in: Roger Brown, ed., *Social Psychologie* (New York: Free Press, 1965).

لرؤية حديثة، انظر: Bob Altemeyer, «The Other 'Authoritarian Personality',» in: John Jost and Jim Sidanius, eds., *Political Psychology: Key Readings* (New York: Psychology Press, 2004).

الجماعات الخارجية من أي نوع، بما في ذلك الأميركيين من أصول أفريقية، والمثليين. ويقول ألتيماير بهذا الصدد:

> يحمل أصحاب هذه الشخصية الكثير من التعصبات؛ فهم معادون لكثير من الأقليات، ويُظهرون تعصبًا على الجميع على قدم المساواة. ولكنهم لا يدركون في العادة أنهم متمركزون حول ذواتهم، ولا يرغبون في اكتشاف ذلك [...] وهم على استعداد دائمًا لمساعدة الحكومة في اضطهاد أي جماعة تخطر ببالك، بما في ذلك هم أنفسهم[5]!

ويتفق هذا الوصف مع وصف فرانك دو جورجيو (Frank De Georgio) لهاري كالاهان (Harry Callahan) الشرطي الخيالي في فيلم «هاري القذر» (Dirty Harry)، إذ يصفه لزميله الجديد قائلًا، «هناك شيء خاص لدى هاري، أنه غير مستعد لمحاباة أحد، فهو يكره الجميع». ويوصف هاري بعد ذلك في الفيلم بسلسلة من النعوت التعصبية. ويبدو أن «هاري القذر» ليس إلا «العنصري - كاره الجميع على قدم المساواة» (equal opportunity racist) الذي يشير إليه ألتيماير - على الرغم من أن الفيلم اللاحق بعنوان «ماغنوم فورس» (Magnum Force) أظهر بوضوح أنه لم يكن متعصبًا بذلك القدر (فقد تبين أن له صديقة آسيوية، وشريك عمل أسود. ولعل هذا التحول في سيناريو الفيلم استهدف تخفيف النغمة العنصرية التي طغت على الفيلم الأصلي، وتجنب ما قد تجلبه تلك النغمة من نقد).

وتثير نظرية «التسلطية اليمينية» التي يطرحها ألتيماير إشكالية أخرى تتعلق بالتمييز الذي أشرنا إليه في الفصل الأول بين الموقفية والنزوعية. فمن الناحية الأولى، ليس هناك من شك في أن الأفراد يصبحون متعصبين نتيجة للبيئات أو الظروف التي يجدون أنفسهم فيها، وليس لأنهم ولدوا على هذه الشاكلة. وبهذا المعنى تكون معظم النظريات «موقفية» في جذورها، لأن الناس لا بد أن يحصلوا على نزعاتهم من مكان ما (والاستثناء على ذلك هو النظريات البيولوجية التي تؤكد أننا نولد بشيء من النزعات الموروثة في الأقل ولا نولد

---

(5) Altemeyer, «The Other 'Authoritarian Personality',» p. 87.

«صفحات بيضاء»). ويعتقد ألتيماير أن اليمينيين التسلطيين يتعلمون اعتقاداتهم التسلطية في الطفولة - كما يفعل ذلك غير التسلطيين - لكن الفروق تكمن في أن غير التسلطيين يكونون أكثر وعيًا بأنفسهم، ويعملون على تعديل اعتقاداتهم المبكرة بالخبرة، في حين أن التسلطيين يحافظون على تلك الاعتقادات[6]. ومن ناحية ثانية يمكن اعتبار هذه النظرية نظرية نزوعية من حيث إن الاتجاهات التسلطية، وإن كانت متعلمة، إلا أنها تمثّل نزعات تستعصي على التغيير لاحقًا، وتستمر مدى الحياة. ومع أن السبب البعيد لهذه النزعات قد يتصل بعوامل موقفية، إلا أن السبب المباشر، أو القريب، يكون سببًا نزوعيًا.

ومع أن نظرية ألتيماير أصبحت معروفة على نطاق واسع الآن واكتسبت بعض المناصرين، إلا أنها لا تتمتع بالقبول الذي تتمتع به نظريات أخرى في هذا المجال. وبعيدًا من الانتقادات الأساسية التي أثرناها حول هذه النظريات المبسطة في الشخصية، فإن نظرية الشخصية التسلطية تدعو إلى التساؤل عن السبب الذي يجعل مناطق بكاملها تعبر عن عواطف عنصرية شديدة إزاء جماعة أو جماعات معينة أو تمارس التمييز ضدهم، أو تفعل الأمرين معًا. وقد يكون نظام جيم كرو (Jim Crow) الذي قام على الفصل العنصري في الولايات المتحدة الجنوبية قديمًا هو المثال الكلاسيكي لهذه الحالة [والإشارة هنا إلى تعصب جماعة بكاملها وليس إلى تعصب أفراد].

نظرية السيطرة الاجتماعية

رأينا في الفصل السابق أن جيم سيدانيوس (Jim Sidanius) هو المدافع البارز عن نظرية السيطرة الاجتماعية في العلاقات بين الجماعات[7]. وهذه النظرية، خلافًا لسابقتها، نظرية عامة في العلاقات بين الجماعات، ويمكن الاستناد إليها لفهم أنواع مختلفة من الصراعات غير الصراعات القومية. وتركز هذه النظرية

---

(6) Bob Altemeyer, «Reducing Prejudice in Right-Wing Authoritarians,» in: Mark Zanna and James Olson, eds., *The Psychology of Prejudice*, Ontario Symposium, vol. 7, (Hillsdale, NJ: Lawrence Erlbaum, 1994).

(7) Jim Sidanius and Felicia Pratto, *Social Dominance: An Intergroup Theory of Social Hierarchy and Oppression* (New York: Cambridge University Press, 1999).

على الدافع إلى السيطرة الاجتماعية [والمقصود هنا سيطرة الجماعة التي ينتمي إليها الفرد]، وتميز بين الأفراد من حيث توجهاتهم نحو هذا النوع من السيطرة؛ فالأفراد الذين يُظهرون توجهًا قويًا نحو السيطرة الاجتماعية يرون جماعتهم على أنها جماعة «مختلفة» - تتميز عن الآخرين - ويرغبون في أن تحتل مركز السيطرة في المجتمع. هذه النظرية وإن كانت أكثر تعقيدًا من سابقتها، إلا أنها تشترك معها في جذورها النظرية. وكما سبق أن أشرنا، فإن هذه النظرية تزعم أن الأفراد ذوي المكانة المتدانية يمكن أن يأخذوا بالأساطير التي تسبغ شرعية على التراتيبية القائمة في المجتمع إلى حد يجعلهم يحابون الجماعة الخارجية ذات المنزلة العالية[8]. ويَعتبر سيدانيوس تفضيل السود لِـ «العم توم» [الأبيض] أثناء حقبة الفصل العنصري في الولايات المتحدة، أوضح مثال على هذه الظاهرة في العصر الحديث، والتي نجمت عن خضوع السود للبيض تاريخيًا[9].

ولقد كرّس أنصار هذه المقاربة الكثير من الجهد لدراسة العنصرية على وجه الخصوص. ووفقًا لما ترى فيليشيا براتو (Felicia Pratto) وزملاؤها، فإن التوجه للسيطرة الاجتماعية يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالعنصرية المناوئة للسود؛ والتعصب على مجموعات الأقليات بشكل عام[10]. وتؤكد فيليشيا براتو وزملاؤها أن «أيديولوجية العنصرية المناوئة للسود لم تتمثل في أفعال شخصية تمييزية فحسب، بل شملت تمييزًا مُؤسّسيًا ضد الأميركيين الأفارقة في المجالات المختلفة، مثل البنوك، وهيئات النقل العام، والمدارس، والكنائس، وقوانين الزواج، ونظام العقوبات»[11]. ولا تأتي النظرية بالكثير عن المصدر الذي خرجت منه «الأساطير

---

(8) Felicia Pratto [et al.], «Social Dominance Orientation: A Personality Variable Predicting Social and Political Attitudes,» *Journal of Personality and Social Psychology*, vol. 67, no. 4 (1994), pp. 741.

(9) James Sidanius, «The Psychology of Group Conflict and the Dynamics of Oppression: A Social Dominance Perspective,» in: Shanto Iyengar and William McGuire, eds., *Explorations in Political Psychology* (Durham, NC: Duke University Press, 1993), p. 202.

(10) Pratto [et al.], Ibid., and Jim Sidanius, Erik Devereaux and Felicia Pratto, «A Comparison of Symbolic Racism Theory and Social Dominance Theory as Explanations for Racial Policy Attitudes,» *Journal of Social Psychology*, vol. 132, no. 3 (1992), pp. 377-395.

(11) Pratto [et al.], Ibid., p. 741.

المشرّعة» للعنصرية أو طبيعة هذه الأساطير أكثر من القول إنه يجري تناقلها من خلال االجماعات المسيطرة، غير أن أنصار هذه النظرية يرون أن المصدر الذي تنبثق منه الأيديولوجية العنصرية، والأشكال التي تأخذها ليست ذات أهمية[12]. ومن هنا فإن هذه النظرية لا تمتلك الكثير لتقوله عن المكنزمات النفسية التي تعزز التفكير العنصري، على الرغم من أن طبيعتها غير المحددة تسمح بتطبيقها على نطاق واسع من مواقف الصراع بين الجماعات.

نظرية السكيما/ التنميط

وهي واحدة من النظريات الواقعة ضمن المعسكر النزوعي التي حظيت باهتمام واسع في السنوات الأخيرة. وكواحدة من نظريات العنصرية، ترد نظرية السكيما هذه الظاهرة إلى الطريقة التي يصنف بها العقل البشري المعلومات. وكثيرًا ما يواجهني الطلبة الذين أدرسهم بسؤال عما إذا كانت هذه النظرية تنطبق أيضًا على الصور النمطية العنصرية (racial stereotypes)، وتكون إجابتي على الدوام: «نعم يمكننا ذلك، وقد جرى تطبيقها فعلًا في هذا النطاق». وينبثق التنميط العنصري (racial stereotyping) جزئيًا، وفق هذا المنظور، من حاجة الإنسان الأساسية إلى تبسيط الواقع، ووضع الناس والأشياء في أصناف. وتفيد فسك وتايلر (Fiske and Taylor) في كتابهما الكلاسيكي **المعرفة الاجتماعية** (*Social Cognition*)، الصادر عام 1984 أن النظرة إلى الصور النمطية كجانب اعتيادي من جوانب العملية المعرفية، حين تُطبّق على الناس، أصبحت مقبولة على نطاق واسع، وهي تختلف اختلافًا بيّنًا عن النظرة التقليدية إلى الصور النمطية كظاهرة غير عقلانية معزولة [عن غيرها من العمليات المعرفية][13]. ويبدو أن الصور النمطية السلبية تتكوّن، في جانب منها، نتيجة لنزعتنا إلى إقامة «ارتباطات وهمية» (illusory correlations) بين الأفراد والجماعة التي ينتمون إليها في نظرنا، وتفيد فسك وتايلر، في هذا الصدد:

---

(12) Pratto [et al.], Ibid., p. 742.

(13) Susan T. Fiske and Shelley E. Taylor, *Social Cognition* (Reading, MA: Addison-Wesley, 1984), p. 166.

قليلًا ما يتصل أعضاء جماعة الأكثرية بأعضاء من جماعة الأقلية [هذا من جهة، ومن جهة أخرى] قليلًا ما يصدر عن الناس سلوك سلبي [لأن السلوك الإيجابي أو المحايد هو الغالب]؛ وربما تُقيم جماعة الأكثرية ارتباطًا وهميًا بين مثل هذين الحدثين النادرين [أي عندما يصدر سلوك سلبي عن فرد من جماعة أقلية]، وتستنتج أن أعضاء جماعة الأقلية أكثر ميلًا إلى القيام بالسلوك السلبي [من جماعة الأكثرية][14].

ولعل المثال التالي يوضح مفهوم الارتباط الوهمي هذا. تخيّل، مثلًا، أنك طالب جامعي أبيض من منطقة ريفية تستأجر شقة من مالك باكستاني في مدينة ليدز بإنكلترا. والباكستانيون يشكّلون أقلية كبيرة في المملكة المتحدة، ولكنهم يفضلون الإقامة في المدن الكبرى في الشمال والوسط، مثل بيرمنغهام، ومانشستر، وليدز. ودعنا نتخيل أن الماء أخذ يتسرب من سقف شقتك، لكن المالك، لشدة استغرابك، لم يرد على مكالماتك ورسائلك المتكررة طالبًا إليه إجراء الاصلاح اللازم، ونتيجة لذلك نشأ لديك نفور شديد منه، وقررت الانتقال من الشقة بأسرع ما يمكن. ففي مثل هذا الموقف، وخصوصًا إذا لم يكن لديك أصدقاء باكستانيون، ولم يكن لديك كثير من العلاقات مع باكستانيين آخرين، إذا كان لديك أي علاقة بأحدهم على الإطلاق، فإنك ستميل على الأرجح إلى استنتاج وجود صلة (أو ارتباط وهمي) بين سلوك هذا الشخص والباكستانيين كجماعة. وقد تجد نفسك تنعت الباكستانيين جميعًا بنعوت عنصرية، على الرغم من أنك لم تعتبر نفسك يومًا شخصًا متعصبًا. ومن حيث إن هذه المقاربة المعرفية التي نحن بصددها تفترض كذلك أننا «علماء بالفطرة»، فقد يجد الواحد منا نفسه منقادًا إلى بناء استنتاج غير سليم على أساس من حالة منفردة واحدة.

وليس مستبعدًا أن تتطور لدينا مشاعر عنصرية إزاء الباكستانيين في المثال السابق. أما إذا كان لدينا معرفة بعدد كبير من المالكين وكان لدينا خبرة مماثلة مع معظمهم، فإننا قد نُلحِق هذا الفرد بـ «سكيما المالكين» بدلًا من «سكيما

---

(14) *Social Cognition* (Reading, MA: Addison-Wesley, 1984), p. 265. and David L. Hamilton and Robert K. Gifford, «Illusory Correlation in Interpersonal Perception: A Cognitive Basis of Stereotypic Judgments,» *Journal of Experimental Social Psychology*, vol. 12, no. 4 (1976), pp. 392-407.

الباكستانيين»[15]. وستؤدي تلك الحالة إلى مشاعر تعصبية على جميع المالكين بدلًا من الباكستانيين، وعليه، فإن نظرية السكيما ترى أن العنصرية ليست أمرًا حتميًا؛ فهي تعتمد على السكيما المستثارة، وعلى مخزون السكيمات الذي يمتلكه الفرد ومضامينها. وهذا هو العنصر الذي يجعل مقاربة السكيمات مقاربة نزوعية من حيث الأساس.

وقد جرت دراسة التنميط ودوره في التعصب منذ بداية الثلاثينيات في الأقل[16]، وكانت معظم البحوث فيه تنطلق من منطلق فرويدي كلاسيكي، أو تحليلي نفسي، وتنظر إلى العنصرية كشكل من الإسقاط يقوم فيه أفراد مضطربون نفسيًا بإسقاط مشاعر النقص التي يحملونها على الآخرين. ولكن الرائد الحقيقي لدراسة هذه الظاهرة كان عالم النفس الاجتماعي الشهير غوردون ألبورت (Gordon Allport) الذي ظل كتابه طبيعة التعصب (*The Nature of Prejudice*) (الذي صدرت طبعته الأولى عام 1954) مؤثرًا في هذا المجال لفترة طويلة بعد وفاته[17]. وقد نظر ألبورت إلى التعصب على أنه «كراهية مبنية على تعميم خاطىء ومتصلب، قد يظل شعورًا أو يجري التعبير عنه، وقد يتجه نحو جماعة أو نحو فرد من تلك الجماعة»[18]. وعندما وضع ألبورت كتابه، كان يُنظر إلى التنميط العنصري كخلل في الشخصية، ولكنه كان أول من تطرق إلى الفكرة المقلقة بأن العنصرية قد تنجم عن عمليات طبيعية لا تعدو أن تكون جزءًا من العمل «المعتاد» للذهن الإنساني. وأصرّ ألبورت على أن «العقل الإنساني لا بد أن يستند إلى التصنيفات ليفكر» ويضيف «ما أن تتكوّن التصنيفات حتى تصبح الأساس المعتاد للأحكام المسبقة»[19]. ويشير دوفيديو (Dovidio) وزملاؤه إلى أن ألبورت مهّد لتطوير المقاربة المعرفية في التعصب،

---

(15) Fiske and Taylor, Ibid., p. 166.

(16) انظر: Daniel Katz and Kenneth Braly, «Racial Stereotypes of 100 College Students,» *Journal of Abnormal and Social Psychology*, vol. 28 (1933), pp. 280-290.

(17) Gordon W. Allport, *The Nature of Prejudice* (Reading, MA: Addison Wesley, 1954).

(18) المصدر نفسه، ص 9.

(19) المصدر نفسه، ص 20.

ولكنه تبنى وجهة النظر القديمة، واعتبر التعصب «كراهية غير عقلانية متجذّرة تنجم عن الجهل وتعكس مناورات دفاع نفسية يتوسلها ذوو البناء الشخصي الضعيف من الناس»[20]. كما أكد ألبورت دور العوامل الانفعالية والدافعية في التعصب، الأمر الذي مهّد لأجيال من الباحثين أخذ أفكاره والانطلاق بناء عليها في اتجاهات مختلفة.

وبنى الباحثون لاحقًا على أساس من هذا البعد المعرفي في تحليل ألبورت بوجه خاص، على الرغم من أنهم خالفوا حججه أحيانًا، كما يمكن أن نتوقع[21]. وقد افترض ألبورت، كما غيره من الباحثين، أن وجود الصور النمطية يقود إلى اتجاهات تعصبية لا محالة[22]. والمثال الذي أعطيناه أعلاه المتعلق بالمالكين الباكستانيين في بريطانيا، على سبيل المثال، يوحي بأن مجرد وجود صورة نمطية في أذهاننا - سواء كانت تتعلق الباكستانيين أم المالكين، أم كليهما - يقود إلى التعصب حتمًا. لكن بحوث باتريسيا ديفاين (Patricia Devine) تشير إلى أن هذا ليس واقع الحال، وأن التنميط لا يقود بالضرورة إلى التعصب أو التمييز. واللافت أن باتريسيا ديفاين وجدت أن المتعصبين وغير المتعصبين يحملون صورًا نمطية عنصرية، ولكن غير المتعصبين يكبتون هذه الصور ذهنيًا، في حين أن المتعصبين لا يكبتونها[23]؛ ما قد يفسر أو يلقي شيئًا من الضوء على الأفكار المتناقضة التي يحملها الكثير من الناس إزاء التعصب.

ومع الاعتراف بأن المثال التالي لا يعدو أن يكون تطبيقًا قصصيًا لبحوث ديفاين، دعنا ننظر قليلًا في آراء ليندون جونسون الرجل الذي فاق الجميع في الحكومة الأميركية في سعيه لإنهاء التمييز تجاه الأميركيين الأفارقة، فعلى الرغم من أنه كان يرى ضرورة الأخذ بقانون الحقوق المدنية لعام 1964 كقضية

---

(20) John F. Dovidio, Peter Glick and Laurie Rudman, eds., *On the Nature of Prejudice: Fifty Years after Allport* (Malden, MA: Blackwell, 2005), pp. 1-2.

(21) للحصول على ملخص جيّد انظر: Susan Fiske, «Social Cognition and the Normality of Prejudgment,» in: Dovidio, Glick and Rudman, eds., Ibid.

(22) Allport, *The Nature of Prejudice.*

(23) Patricia Devine, «Stereotypes and Prejudice: Their Automatic and Controlled Components,» *Journal of Personality and Social Psychology*, vol. 56, no. 1 (1989), pp. 5-18.

أخلاقية، كثيرًا ما كان يشير إلى السود في جلساته الخاصة بوصفهم «الزنوج» (niggers) (وكانت واحدة من هذه الجلسات بحضور روجر ولكنز (Roger Wilkins) المؤرخ الأسود الذي عمل صحافيًا لاحقًا ومساعدًا للنائب العام). وهذا يوحي أن جونسون - القادم من «الجنوب القديم»، حيث كان التمييز العنصري أسلوب حياة - ربما كان يكبت الصور النمطية العنصرية في ذهنه معظم الوقت، ولكن تلك الأفكار كانت متمكنة منه بالسليقة إلى حد جعلها «تنطلق من عقالها» في حديثه الخاص. ومن جهة أخرى، يرى راسل فيزيو (Russell Fazio) وزملاؤه أن نموذج ديفاين لا ينطبق إلا على بعض الأفراد[24]. وقد أشارت بحوثهم إلى أن هناك من يحمل صورًا نمطية سلبية ولكنهم يكبتونها فعلًا، كما أن هناك من لا يخزه ضميره لوجود مشاعر سلبيه لديه نحو السود، ولكن هناك أيضًا من لا يحملون، على ما يبدو، أي صور نمطية سلبية إزاء الأميركيين الأفارقة على الإطلاق، وقد سمّى فيزيو وزملاؤه هذه الجماعة بغير المتعصبين حقًا[25] (truly nonprejudiced).

ويُفيد جون هورويتز ومارك بيفلي (Jonn Hurwitz and mark Peffley) أن للصور النمطية العنصرية تداعيات مهمة، من حيث إنها تؤثر في الاتجاهات العامة نحو الجريمة والطبيعة العقابية لكثير من السياسات المضادة للجريمة[26]. ولكنهم لاحظوا، بالقدر ذاته، أن الناس لا يعتمدون على الصور النمطية دائمًا، واستندوا إلى الأدب [البحثي] المعرفي ليختبروا الظروف التي تحدد الأثر النسبي للصور النمطية - فمتى تؤثر صور البيض النمطية للأميركيين الأفارقة في مدركات البيض وسياساتهم بهذا الشأن. ويستدعي فيزيو وزملاؤه من علم النفس المعرفي مفهوم أسلوب المعالجة لإجراء التمييز المطلوب. فقد يتبع الناس في تحليلهم للمعلومات الواردة عن الآخرين أسلوب المعالجة النازل (من الأعلى إلى الأسفل) (top-down processing)، أو أسلوب المعالجة الصاعد

---

(24) Russell H. Fazio [et al.], «Variability in Automatic Activation as an Unobtrusive Measure of Racial Attitudes: A Bona Fide Pipeline?,» *Journal of Personality and Social Psychology*, vol. 69, no. 6 (December 1995), pp. 1013-1027.

(25) المصدر نفسه، ص 1025.

(26) John Hurwitz and Mark Peffley, «Public Perceptions of Race and Crime: The Role of Racial Stereotypes,» *American Journal of Political Science*, vol. 41, no. 2 (April 1997), pp. 375-401.

(من الأسفل إلى الأعلى) (bottom-up processing). وعندما يعتمدون الأسلوب الأول يتخذون الصور النمطية والسكيمات قاعدة لهم في تحليل المعلومات الواردة عن الآخرين [أي يعتمدون أسلوب المعالجة النازل من الأعلى إلى الأسفل؛ ويصدرون تاليًا أحكامًا نمطية على الآخرين]. وهذا أسلوب سهل في التعامل مع المعلومات لأنه لا يتطلب كثيرًا من الجهد المعرفي. أما عندما يعتمدون أسلوب المعالجة الصاعد من الأسفل إلى الأعلى فإنهم يعالجون المعلومات بناء على دلائلها الخاصة [المتعلقة بالفرد وسلوكه] وليس بناء على أحكام مسبقة[27].

ويعتمد الناس على الصور النمطية العنصرية عندما يرون أنها «مناسبة» للموقف، وخصوصًا عندما لا يكون هناك معلومات متعارضة [أو ملتبسة] يمكن أن تؤدي إلى معالجة الحالة بأسلوب المعالجة «الصاعد»، أو بناء على القيمة الخاصة لتلك المعلومات. ويعبّر هورويتز وبيفلي عن ذلك بقولهما:

> عندما تبدو خصائص الفرد الملاحَظ متطابقة مع الصورة العامة لصنف من الناس، تعمل الصور النمطية بوصفها موجِّهات ذهنية قوية، ومريحة. أما في الحالة التي تتناقض فيها المعلومات المتعلقة بالفرد المعين مع الصور النمطية [المحمولة عن الجماعة التي ينتمي إليها] (كما في الحالة التي يوصف فيها مجرم أسود على أنه يبذل جهدًا جادًا لإصلاح نفسه) فإن الصور النمطية للجماعة تصبح أقل أهمية[28] [حيث يُنظر إليه كفرد، ويتبع الناس معه في هذه الحالة أسلوب المعالجة الصاعد لا على أنه عضو في جماعة وحسب].

فقد وجد هورويتز وبيفلي، على سبيل المثال، أنه عندما يُطلب إلى أفراد من البيض تقدير احتمال أن يكون رجل أسود قد ارتكب جريمة، فإنهم يميلون

(27) انظر: Susan Fiske and Steven Neuberg, «A Continuum of Impression Formation, from Category-Based to Individuating Processes: Influences of Information and Motivation on Attention and Interpretation,» in: Mark Zanna, ed., *Advances in Experimental Social Psychology* (New York: Academic Press, 1990), vol. 23.

(28) Hurwitz and Peffley, Ibid., p. 381.

إلى اعتباره «مذنبًا» عندما لا يزودون معلومات إضافية عنه [وبذلك يقوم معظم الناس معرفيًا بالزجّ به داخل الصور النمطية الأوسع]، أكثر مما لو قيل لهم إن الرجل الأسود عضو نموذجي في المجتمع؛ إذ إن الناس في هذه الحالة يتعاملون مع المعلومات المتعلقة به كفرد بدلًا من التعامل مع الصور النمطية). ويأتي دعم غير مباشر لهذه الحجة، كما سنرى في ما بعد، من بعض البحوث التي تستخدم تكنيكات الإف إم آر آي (fMRI) لقياس الاتجاهات والاستجابات العنصرية.

المقاربات العاطفية

قد يبدو تناول التعصب في التراث المعرفي غريبًا بعض الشيء - إذ ينظر إليه كمظهر «عادي» من مظاهر التفكير الإنساني - ولمّا كانت المقاربة المعرفية تعتبر الناس «علماء بالفطرة» فإن فطرة الأفراد المتعصبين تبدو ساذجة جدًا. والمشكلة الهامة التي تواجه المقاربة المعرفية التقليدية هي أنها لا يعطي تفسيرًا وافيًا لهذه الظاهرة. لأن العنصرية تنطوي على ما هو أكثر من فكرة التصنيف «الباردة» (وهذا نقد شائع للعديد من المقاربات المعرفية الأولى التي ناقشناها في الفصل التاسع)؛ فالتعصب العنصري يتضمن عمليات انفعالية شديدة، وواضحة جدًا، إضافة إلى عملية التصنيف[29].

ويشهد علم النفس الاجتماعي حديثًا بحثًا وافرًا في الأسس الانفعالية للتنميط (stereotyping) وفي التفاعل الممكن بين العوامل الانفعالية هذه والأفكار الباردة[30]. وبالنظر إلى بحوث عالمة النفس الاجتماعي والسياسي سوزان فسك، على سبيل المثال، نجد أنها أخذت في التركيز حديثًا على دراسة الجانب «الساخن» أو الانفعالي من هذا الموضوع، على الرغم من أن بحوثها السابقة كانت تنصبّ على المظاهر المعرفية الباردة للسلوك الاجتماعي. فقد

(29) Molly Tapias [et al.], «Emotion and Prejudice: Specific Emotions Towards Outgroups,» *Group Processes and Intergroup Relations*, vol. 10, no. 1 (January 2007), pp. 27-39.

(30) انظر مثلًا: Diane Mackie and David Hamilton, eds., *Affect, Cognition and Stereotyping: Interactive Processes in Group Perception* (San Diego, CA: Academic Press, 1993), and D. M. Mackie and Eliot Smith, eds., *From Prejudice to Intergroup Emotions: Di erentiated Reactions To Social Groups* (Philadelphia, PA: Psychology Press, 2002).

وجدت فسك في تحليل ما ورائي (meta-analysis) لبحوث خمسين عامًا في التعصب العنصري والتحيز، بالتعاون مع زميلتيها كارا تالاسكا وشيلي شايكن (Cara Talaska and Shelly Chaiken)، وجدت فسك أن الانفعالات تتنبأ بالسلوك أفضل من الصور النمطية وغيرها من الاعتقادات؛ إذ إن التعصبات الانفعالية تتنبأ بالسلوك التمييزي بقدر أكبر من الدقة في الواقع من العوامل المعرفية [المتمثلة هنا بالصور النمطية والاعتقادات] حيث اكتشفت هي وزميلتاها أن[31]:

> الدور المركزي الذي ظهر للانفعالات مقارنة بصغر دور الاعتقادات [في البحوث المراجَعة] يوحي بأن الناس يجنِّدون الاعتقادات كتبريرات لاحقة لسلوكهم المدفوع انفعاليًا [في حقيقة الأمر]. فالشخص الذي يحمل بغضًا لجماعة من عنصر ما، يتجنب الجلوس إلى جانب عضو من تلك الجماعة في مترو الأنفاق، وبعد أن يلحظ سلوكه هذا، يقوم بتبريره. وفي موقف أكثر أهمية [كموقف انتقاء موظف للعمل] ينتاب صاحب العمل شعور بالزهو عند مقابلته مرشحًا للعمل من جماعته، بينما تنتابه مشاعر متناقضة إزاء مرشح من جماعة خارجية (كالشفقة أو الامتعاض) أو حتى الازدراء، وتكون نتيجة الانتقاء للوظيفة واضحة تاليًا[32].

ومع أن فسك تعترف أنه من الصعب قياس الانفعالات قياسًا علميًا، إلا أننا نتوقع أن تجلب مناهج علم الأعصاب نفعًا خاصًا لدراسة العنصرية، كواحد من مجالات علم النفس السياسي، للأسباب التالية في أقل تقدير: (أ) تزايد النظر إلى العنصرية كاستجابة انفعالية في أساسها، (ب) ملاءمة تكنيكات الـ إف إم آر آي (fMRI) لقياس الانفعالات بوجه خاص، (ج) تأكيد بعض المقاربات - كمقاربة العنصرية الرمزية (symbolic racism) الذي سنتناوله لاحقًا في هذا الفصل - على أن العنصرية قد نزلت «تحت الأرض» منذ الستينيات. وإذا كنا لا نتوقع من الناس التصريح بأمانة عن أفكارهم حول القضايا العنصرية وجهًا

(31) Tara Talaska, Susan T. Fiske and Shelly Chaiken, «Legitimating Racial Discrimination: A Meta-Analysis of the Racial Attitude-Behavior Literature Shows that Emotions, Not Beliefs, Best Predict Discrimination,» *Social Justice Research: Social Power in Action*, vol. 21 (2008).

يتوجه المؤلف بالشكر لسوزان فسك على تزويده بنسخة من هذه المقالة.

(32) المصدر نفسه.

لوجه من خلال الاستبيانات، أو عبر الهاتف، فلعلنا نستطيع استخدام التصوير العصبي للكشف عن الانفعالات الشعورية واللاشعورية إزاء هذا الموضوع. وهناك شك في أن المقاربات التقليدية لدراسة العنصرية تتعامل مع دواخل البشر كـ «صندوق أسود» [غير قابل للدراسة]، وتركز على الاتجاهات الظاهرة كما تقاس في الدراسات المسحية، عوضًا من فحص العمليات العقلية التي يتم من خلالها اتخاذ القرارات المتعلقة بالعنصر.

ولقد أسفر التصوير العصبي في الحقيقة عن نتائج أولية شديدة الأهمية في ما يتعلق بالطريقة التي ننظر بها إلى الجماعات الخارجية. حيث رصدت لازانا هاريس وسوزان فسك استجابات تنم عن التقزّز لدى الناس عند مشاهدة صور لجماعات من هذا القبيل، على سبيل المثال، وتكتسب هذه الأعمال البحثية أهمية خاصة لأنها تؤكد أن بوسعنا «رؤية» عمليات [نفسية] كعملية انتقاص إنسانية الآخر وهي تأخذ مجراها في الدماغ البشري[33]. وقد تم في هذه الدراسة [التي نشير إليها هنا] عرض عدد كبير من الصور الفوتوغرافية لجماعات مختلفة (شملت رياضيين أولمبيين، ومدمني مخدرات) وصور لأشياء (شملت مكوك فضاء، ومرحاضًا فائضًا)، إذ جرى تصميم هذه الصور لاستثارة انفعالات الزهو/ أو الفخر، أو الحسد، أو الشفقة، أو التقزّز.

وقد تم اختبار مسبق لهذه الصور لتحديد [أو تسمية] الانفعال الذي «تستثيره» كل صورة بناء على تقديرات طلبة جامعيين عملوا كمبحوثين في هذه الدراسة. ثم قامت الباحثتان بمقارنة تقديرات المفحوصين للانفعالات التي استثارتها هذه الصور بصور دماغية تكشف النشاط الدماغي لديهم في منطقة القشرة الوسطى ما قبل الجبهية (medial prefrontal cortex (mPFC)) للتحقق من مدى دقة الطلبة في تحديد الانفعال الذي استثارته كل صورة لديهم فعلًا. وهذه المنطقة من الدماغ لا تنشط إلا عندما نفكر في الناس أو في أنفسنا [بهدف

(33) Lasana Harris and Susan Fiske: «Dehumanizing the Lowest of the Low: Neuro Imaging Responses to Extreme Outgroups,» *Psychological Science*, vol. 17, no. 10 (October 2006), pp. 847-853, and Lasana Harris and Susan Fiske, «Social Groups that Elicit Disgust are Differentially Processed in MPFC,» *Social Cognitive and Affective Neuroscience*, vol. 2, no. 1 (March 2001), pp. 45-51.

المعرفة - والمعرفة الاجتماعية على وجه التحديد (social cognition)]. لكن الصور الدماغية لم تُبيِّن نشاطًا ذا دلالة في هذه المنطقة عند مشاهدة الطلبة صورًا لجماعات اجتماعية خارجة عن المألوف، والتي يفترض أن ترتبط بمشاعر التقزّز - كصور مدمني المخدرات، أو المشردين، فظهر أن المنطقة الوحيدة التي نشطت في هذه الحالة كانت منطقة اللوزة (amygdala) - وهي واحدة من أكثر مناطق الدماغ بدائية والتي يرتبط النشاط فيها غالبًا بالشعور بالخوف أو التقزّز. وهذا يوحي أن الأفراد قد يميزون على المستوى الشعوري أنهم ينظرون إلى صور بشر [مدمني المخدرات، أو المشردين]، غير أن أدمغتهم، على المستوى اللاشعوري، تعاملت مع صور الجماعات غير المقبولة اجتماعيًا هذه كأنها ترى صور أشياء منفرة كمرحاض فائض. ودعت هذه النتائج الباحثتين هاريس وفسك إلى الاستنتاج أن غياب نشاط المنطقة الوسطى ما قبل الجبهية من القشرة الدماغية عند النظر إلى صور جماعات خارجية غير مقبولة اجتماعيًا، يوحي «أن الناس ينتقصون إنسانية هذه الجماعات، ولا يرون أنهم بشر بالقدر الذي يرون فيه جماعاتهم أو الجماعات الخارجية المعتدلة»[34].

وتتسق نتائج هذا البحث مع نتائج بحوث علمية عصبية أُجريت حول التعصب الانفعالي والعنصرية على وجه التحديد، حيث وصلت الدراسة التي قام بها ألان هارت (Allen Hart) وزملاؤه في هذا المجال إلى نتائج «تتسق مع الفكرة القائلة إن اللوزة قد تكون حساسة للصور النمطية المتعلّمة أو إنها تساهم في تطور هذه الصور»[35]. ومن الدراسات الأخرى في هذا المجال دراسة مقارنة، مثيرة للاهتمام بوجه خاص، أجرتها إليزابث فيلبس (Elizabeth Phelps) وزملاؤها. حيث عرض الباحثون على مبحوثين من الطلبة البيض صورَ وجوه لأشخاص سود مألوفين، ويحظون بالتقدير بشكل عام، كمارتن لوثر كينغ، ومحمد علي، ودينزل واشنطن. كما عرضوا عليهم صورًا لأشخاص سود غير

(34) Harris and Fiske, «Dehumanizing the Lowest of the Low: Neuro Imaging Responses to Extreme Outgroups,» p. 849.

(35) Allen Hart [et al.], «Differential Response in the Human Amygdala to Racial Outgroup vs Ingroup Face Stimuli,» *Neuroreport*, vol. 11, no. 11 (August 2000), p. 2354.

معروفين. فظهر نشاط ملحوظ في منطقة اللوزة لدى المبحوثين عندما شاهدوا صور السود غير المعروفين ما يوحى بوجود «اتجاه سلبي لا شعوري نحو الوجوه السوداء أو اتجاه إيجابي نحو البيض»[36]. أما عندما شاهد المبحوثون صور الأشخاص السود المألوفين والذين يحظون بالتقدير لم يظهر لديهم نشاط ملحوظ في منطقة اللوزة. وتعطي هذه النتائج دعمًا لاستنتاج هورويتز وبيفلي القائل إن الناس يستخدمون المعلومات الخاصة بالفرد (individuated information) عندما يتعاملون مع أشخاص يناقضون الصورة الاجتماعية الشائعة عن الجماعة التي ينتمون إليها [كالسود الذين يحظون بالتقدير]، ولكنهم يلجأون إلى الصورة النمطية عندما لا يتوافر لهم معلومات خاصة بالفرد المعين من تلك الجماعة [كالأشخاص السود غير المعروفين].

وعلاوة على ذلك، وجد ماثيو ليبرمان (Matthew Lieberman) وزملاؤه أن الأميركيين الأفارقة أنفسهم يحملون الصور النمطية السلبية ذاتها التي يحملها الأميركيون البيض إزاءهم. إذ لاحظ ليبرمان وزملاؤه نشاطًا عصبيًا في منطقة اللوزة لدى مبحوثين من البيض والسود، عند مشاهدتهم صور أشخاص سود (غير معروفين)[37]. ولأن اللوزة تنشط لدى رؤيتنا وجوهًا جديدة، فهناك احتمال أن تعود النتائج الملاحظة في هذه الدراسة إلى جدة الوجوه لا إلى العنصر الذي تنتمي إليه، إلا أن ليبرمان وزملاءه يؤكدون أن النشاط الملاحظ في اللوزة ناتج، على الأرجح، من الصور النمطية المتعلمة. ويقولون إنه «على الرغم من أن دراسة واحدة لا تستطيع بت هذه القضية بشكل قطعي، إلا أن الدراسة الحالية توحي أن نشاط اللوزة الذي يرتبط عادة بمعالجة المعلومات المتعلقة بالعنصر قد يكون انعكاسًا للارتباطات الثقافية السلبية المتعلمة والمتعلقة بالأميركيين الأفارقة»[38]. ويلقى هذا الاستنتاج دعمًا مستقلًا من دراسة مسحية لسنيدرمان

---

(36) Elizabeth Phelps [et al.], «Performance on Indirect Measures of Race Evaluation Predicts Amygdala Activation,» *Journal of Cognitive Neuroscience*, vol. 12, no. 5 (September 2000), p. 731.

(37) Matthew Lieberman [et al.], «An FMRI Investigation of Race-Related Amygdala Activity in African-American and Caucasian American Individuals,» *Nature: Neuroscience*, vol. 8, no. 6 (June 2005), pp. 720-722.

(38) المصدر نفسه، ص 722.

وبيازّا (Sniderman and Piazza) وجدت أن الكثير من السود يشاركون البيض في النظرة السلبية إلى السود ذاتها[39].

غير أن رالف أدولفز (Ralph Adolphs) يُفيد أن، «دور اللوزة في معالجة المعلومات المتعلقة بالعنصر مازال غير واضح» وما زال المجال بحاجة إلى كثير من البحث[40]. فإلى جانب اللوزة، تنشط مناطق أخرى في الدماغ عندما نصدر أحكامًا تتعلق بالعنصر، كما تشير البحوث التي أجريت في هذا المجال حتى الآن، وإضافة إلى ذلك، علينا أن نتذكر هنا كل المحاذير المتعلقة باستخدام تكنيكات الـ إف إم آر آي (fMRI) كمقياس لظواهر سياسية، مما جئنا على مناقشته في ما سبق. كذلك، فإن البحوث الجارية التي يقوم بها عالم النفس السياسي دارين شرايبر (Darren Schreiber)، تكشف مدى التعقيد الذي ينطوي عليه هذا المجال من مجالات البحث[41]. وعلى الرغم من ذلك، فإن البحث في هذا المجال لا زال يفتح طرقًا جديدة واعدة [لدراسة المظهر العصبي للعنصرية] في الوقت الذي ندفع فيه هذا الكتاب إلى النشر.

النظريات الموقفية

لا تُبلي النظريات النزوعية - ونظريات الشخصية منها بوجه خاص - بلاء حسنًا في توضيح الأسباب التي تدفع جماعات كاملة، أو مناطق برمتها، إلى إظهار عواطف عنصرية أو قيام هذه الجماعات بممارسات تمييزية أو كليهما. لذا، فإن النظريات الموقفية تلقى قبولًا مناظرًا، إن لم يزد، كأطر مفسِّرة للتعصبات العنصرية. وتأخذ نظريتان من النظريات التي نوقشت في ما تقدم، أهمية خاصة في هذا السياق، علمًا بأن أدب الموضوع يسلط الضوء على مشكلات بارزة تعترض سبيل كل منهما.

(39) Paul M. Sniderman and Thomas Piazza, *The Scar of Race* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1993).

(40) Ralph Adolphs, «Cognitive Neuroscience of Human Social Behavior,» *Nature Reviews: Neuroscience*, vol. 4, no. 3 (March 2003), pp. 169.

(41) Darren Schreiber, «Race and Social Norms: An FMRI Study,» paper presented at: The International Society of Political Psychology Conference, Portland, OR, 2007.

أولى هاتين النظريتين هي نظرية الصراع الواقعي (realistic conflict theory)، التي جرى توظيفها، كما رأينا في الفصل السابق، لتفسير الصراع الإثني، ولتفسير العنصرية داخل المجتمع الواحد. وكما رأينا في الفصل السابق في مناقشتنا لتجربة «روبرز كيف»، تنظر هذه المقاربة إلى الصراع بين الجماعات (سواء كان عنصريًا أم غيره) على أنه يتمحور حول التنافس على موارد محدودة. وتتعامل هذه المقاربة مع السياسة كلعبة حاصلها «إما الربح كله وإما عدمه» (zero-sum game): أي إنها تمثل موقفًا ما يتحقق فيه لأحد الطرفين من ربح يُحدث خسارة للطرف الآخر بالضرورة. فكما هو حال الأطفال وهم يتأرجحون على لوح «السي سو» لا بد أن يؤدي ارتفاع الواحد منهم إلى الأعلى إلى نزول الآخر في الاتجاه المعاكس. وهذه نظرية موقفية من حيث إنها تفترض أن موقع الفرد في البنية المجتمعية يحدد تطلعاته. وبناء على بحوث هربرت بلامر (Herbert Blumer) المبكرة حول أهمية موقع الجماعة في المجتمع، عمل لورنس بوبو (Lawrence Bobo) على تطبيق هذا التحليل على العنصرية. ويركز بوبو في أكثر مقالاته شهرة ضمن هذا المنظور على موقف [الأميركيين] البيض من «النقل بالباصات» (busing) الذي طُبق في الولايات المتحدة [في الستينيات بهدف الدمج العنصري في المدارس][42]. حيث يؤكد بوبو أن نجاح نظرية الصراع الواقعي كإطار مفسّر للصراع العنصري لا يعتمد على رؤية البيض للنقل بالباصات، وغيره من الإجراءات الداعمة للدمج العنصري، على أنها تمثّل تهديدًا مباشرًا «أو موضوعيًا» لمصالحهم؛ وإنما يعتمد على مدى إدراك البيض والسود كليهما أن مصالح الطرف الواحد منهم تتعارض مع مصالح الطرف الآخر. ويؤكد بوبو أن «الاتجاهات العنصرية تعكس العلاقات الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية القائمة بين السود والبيض الأميركيين، أو بعبارة أخرى، تعكس الملامح "الواقعية" للعلاقات الجماعية والصراع في داخلها»[43].

---

(42) Lawrence D. Bobo, «Whites' Opposition to Busing: Symbolic Racism or Realistic Group Conflict?,» *Journal of Personality and Social Psychology*, vol. 45, no. 6 (December 1983), pp. 1196-1210, and Lawrence D. Bobo and Mia Tuan, *Prejudice in Politics: Group Position, Public Opinion, and the Wisconsin Treaty Rights Dispute* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2006).

(43) Bobo, Ibid., p. 1198.

غير أن تطبيق هذه المقاربة على العنصرية يُواجه عددًا من المشكلات؛ أولها أن العلاقات العنصرية في العديد من الدول لا تمثل لعبة «الربح كله أو عدمه» بشكل واضح - بمعنى أن تكون ناشئة من تنافس حقيقي على موارد محدودة. ففي دولة طافحة بالموارد الاقتصادية كالولايات المتحدة، مثلًا، يبدو الصراع رمزيًا أكثر مما هو واقعي، وهو أحد الانتقادات التي قادت إلى إقامة مدرسة العنصرية الرمزية (symbolic racism) في الولايات المتحدة (والتي سنناقشها لاحقًا). إضافة إلى ذلك، فإن إعادة الصياغة المفهومية لمصطلح «المصالح» والنظر إليه كشيء ذاتي - كما فعل بوبو - قد يمزق قلب نظرية الصراع الواقعي، من حيث إن الصراعات العنصرية ربما تكون «غير واقعية» على الإطلاق [لأن الموارد في هذه الحالة وافرة وليست نادرة]. أما المشكلة الثانية التي تواجهها هذه النظرية فتكمن في ما بيّنه هنري تاجفل وزملاؤه من أن التنافس على الموارد لا يمثّل شرطًا ضروريًا لظهور التحيز أو المحاباة للجماعة الداخلية.

أما النظرية الثانية التي يمكن تطبيقها على دراسة العنصرية، فهي نظرية الهوية الاجتماعية (social identity theory) علمًا بأن هناك مناحي مختلفة ضمن هذه النظرية. ويذكر القارىء أن هنري تاجفل [أحد المنظرين الرئيسيين لهذا الاتجاه] يرى أن الأفراد يملكون دافعًا قويًا للتماهي مع الجماعة الداخلية لأن ذلك يقوي من تقديرهم لذواتهم. ولهذا السبب، نسعى إلى التماهي مع جماعات ذات مكانة عالية، كما يرى تاجفل أن هذه الحاجة الدافعة هي التي تقودنا إلى محاباة أعضاء جماعتنا الداخلية والتحيز ضد أعضاء الجماعة الخارجية. وتتم ممارسة هذه المحاباة في ظل غياب كامل لأي مبرر «عقلاني» يجعلها مفهومة للآخرين، لأن مجرد التصنيف بحد ذاته، حتى ما يُبنى منه بناء على أسس مصنوعة أو عديمة المعنى، يمكن أن يؤدي إلى محاباة الجماعة الداخلية والتحيز ضد الجماعات الخارجية. وقد تبدو هذه النظرية صالحة ظاهريًا لتفسير العداء العنصري بقدر معقول، من حيث إن الفروق العنصرية - على الرغم من سطحيتها - تبدو مفهومة لأعضاء المجتمع الذي توجد فيه ويمكن تمييزها على الفور. وعلاوة على ذلك، ومن حيث إن الأفراد حتى في الدولة المتعددة عنصريًا ربما لا يتواصلون مع الجماعات الخارجية إلا في

الحدود الدنيا، فإن هذا الوضع يحقق شروط «نموذج الحد الأدنى من الاتصال بين الجماعات» [الذي تعتمده نظرية الهوية الاجتماعية لإثبات فرضياتها][44].

إلا أن جيمس غيبسون (James Gibson) يثير تساؤلات حادة عن إمكان تطبيق هذه النظرية لتفسير الصراع العنصري وعدم التسامح[45]. ويختار جنوب أفريقيا في عهد التفرقة العنصرية «كأبسط حالة لمواجهة إدعاءات تاجفل وتيرنر (Tajfel and Turner) النظرية. ويفيد غيبسون، بقدر من المنطقية، أنه لكي يكون لنظرية الهوية الاجتماعية أية فائدة لفهم العلاقات بين الجماعات، عليها أن تفسر الوضع القائم في جنوب أفريقيا، حيث تظهر الهويات والفروق الاجتماعية واضحة للعيان. وهذه الهويات والفروق لم تنشأ اجتماعيًا وجرى استغلالها عبر فترة طويلة من الزمن فحسب، ولكنها دخلت ضمن القوانين المتشددة لدولة التمييز العنصري[46].

لكن ما وجده غيبسون في دراسته كان مثيرًا للدهشة، حيث بيّنت نتائج تلك الدراسة، أن معظم مظاهر الارتباط بالهوية [من المظاهر التي تم قياسها] لا ترتبط بالتسامح العنصري. مثال ذلك، أن السود والبيض المرتبطين بجماعاتهم ارتباطًا شديدًا ليسوا أقل تسامحًا مع الآخرين من العنصر المقابل. فمعرفة الجماعة التي ينتمي إليها الفرد لا تتنبأ بمدى التسامح العنصري لديه [أو بمدى عدم التسامح].

وبتعبير أكثر بساطة، فإن تفضيل الفرد لجماعته العنصرية - السود أو البيض في هذه الحالة - لا يعني أنه يتحيز ضد الجماعة الأخرى بالضرورة [خلافًا لما تتنبأ به نظرية الهوية الاجتماعية]. ويؤكد غيبسون أنه يصعب بناء على ما وصل إليه من بيانات استنتاج أن نظرية الهوية الاجتماعية تفسر المستويات المختلفة

---

(44) Henri Y. Tajfel: *Human Groups and Social Categories* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1981), and *Social Identity and Intergroup Relations* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1982).

(45) James Gibson, «Do Strong Group Identities Fuel Intolerance?: Evidence from the South African Case,» *Political Psychology*, vol. 27, no. 5 (October 2006), pp. 665-705.

(46) المصدر نفسه، ص 667.

من التسامح بين السود والبيض[47]. وفي حين أن غيبسون يعترف أن نتائجه قد تكون متأثرة بالفترة الزمنية التي أُجريت فيها الدراسة [وهي الفترة التي أعقبت سقوط نظام الفصل العنصري]، فجنوب أفريقيا تعيش حالة من السيولة في الوقت الراهن - ويحتمل أن يكون الاختراق الطبقي المتاح (كصعود السود إلى الطبقة الوسطى، على سبيل المثال) قد عمل على إضعاف تأثير الهويات العنصرية. وبتعبير مختلف، ليس قرب الناس من جماعتهم الداخلية هو الذي يحدد مستوى التسامح لديهم مع العناصر الأخرى، ولكن ازدياد التنوع داخل المجتمع هو الذي يعمل على تشجيع التسامح.

أما زال الأميركيون عنصريين؟

تنطوي النظريات التي تناولناها حتى الآن على إمكانات تطبيقية واسعة، من حيث إن معظمها نظريات في الصراع بين الجماعات (وليست نظريات في أسباب نشوء العنصرية بحد ذاتها) ومن الناحية الجغرافية تصلح هذه النظريات للتطبيق في بلدان غير الولايات المتحدة. غير أن هناك نظريات «أميركية» بوجه خاص، من حيث إنها تركز على تفسير العنصرية ضمن السياق الأميركي ولا تحاول تفسير وجود العنصرية من حيث الأساس. وهناك نظريتان من هذا القبيل هما نظرية العنصرية الرمزية (symbolic racism)، ونظرية المحافظة الملتزمة (principled conservatism).

العنصرية الرمزية أو العنصرية الجديدة

ترتبط هذه المقاربة بدايفد سيرز (David Sears) وزملائه، وتركز بوجه خاص على العاطفة السلبية التي يحملها البيض نحو السود. ويؤكد سيرز، وغيره من الباحثين، أن العنصرية كمنظومة من الاعتقادات ما عادت تظهر على السطح وإنما نزلت «تحت الأرض»، على نحو ما، في الولايات المتحدة. ولأن التعبير عن وجهات نظر عنصرية علانية ما عاد مقبولاً اجتماعيًا، أخذت العنصرية تعبّر

(47) «Do Strong Group Identities Fuel Intolerance?: Evidence from the South African Case,» p. 684.

عن نفسها بطرائق خفية تصعب ملاحظتها. ويلخص سنيدرمان (Sniderman) وزملاؤه وجهة النظر هذه بالقول:

> يعتبر التعصب العنصري الآن أمرًا غير مرغوب فيه، لذا فإن الناس يفضلون التعبير عنه بطرائق خفية، غير مباشرة. فهم لن يقولوا إنهم يعارضون حصول السود على مساعدة الحكومة لمجرد أنهم سود، وإنما سيقولون إنهم يعارضون تلك المساعدة لأن السود لا يبذلون جهدًا كافيًا لحل مشاكلهم بأنفسهم، وهو ما يجب على كل فرد أن يفعله[48].

العنصرية الباقية ليست عنصرية الجنوب الأميركي القديم، والفصل العنصري، وجيم كرو، ومحافظ ألاباما السابق جورج والاس (George Wallace)، وإنما هي عنصرية من النوع المضمر بشكل ما. وتدمج العنصرية الرمزية الجديدة العاطفة المناوئة للسود مع القيم الأميركية التقليدية، والقيم الفردية منها بوجه خاص[49] التي تطالب السود مثلًا بالاعتماد على أنفسهم وليس الاتكال على الدولة.

المحافظة الملتزمة

إذا كان سيرز (Sears) هو حامل لواء مقاربة العنصرية الرمزية، فإن بول سنيدرمان وزميله دونالد كندر هما المناصران الرائدان للمقاربة المنافسة التي يصطلح على تسميتها أحيانًا المعارضة المبدئية (principled objection) أو نموذج السياسة المعتادة (politics-as-usual). ويؤكد سنيدرمان وزملاؤه أن معارضة سياسات تحقيق المساواة، كالنقل بالباصات، لا تدل بحد ذاتها على «العنصرية»[50]. وفي حين أنهم لا يخالفون فكرة أن العنصرية لا تزال سائدة،

(48) Paul Sniderman [et al.], «The New Racism,» *American Journal of Political Science*, vol. 35, no. 2 (May 1991), p. 424.

(49) Donald Kinder and David Sears, «Prejudice and Politics: Symbolic Racism Versus Racial Threats to the Good Life,» *Journal of Personality and Social Psychology*, vol. 40, no. 3 (March 1981), pp. 414-431; David Sears and P. J. Henry, «Over Thirty Years Later: A Contemporary Look at Symbolic Racism and its Critics,» *Advances in Experimental Social Psychology*, vol. 37 (2005), pp. 95-150, and David Sears [et al.], «Is it Really Racism?: The Origins of White Americans' Opposition to Race Targeted Policies,» *Public Opinion Quarterly*, vol. 61, no. 1 (Spring 1997), pp. 16-53.

(50) Sniderman [et al.], «The New Racism».

فإن معارضة تحقيق المساواة من خلال التمييز الإيجابي (affirmative action) تمثل على الأرجح معارضة للسياسات الليبرالية التي تم اتباعها منذ أيام ليندون جونسون. ويُفيد جيرمي وود أن إثبات المقولة الأساسية في مقاربة العنصرية الرمزية يتطلب من كندر وسيرز تقديم الدليل على أن «العاطفة السلبية إزاء السود هي التي تقف وراء معارضة كثير من البيض للسياسات العنصرية الليبرالية. ويعتقد مناصرو العنصرية الرمزية أن هذا هو واقع الحال؛ أما معارضوها فيرون أن هذا ليس صحيحًا؛ ومن هنا فإن الجدل برمته إنما يدور حول مسألة الدافعية [وفي ما إذا كان الموقف انفعاليًا في الأساس أم لا]»[51] وما يُزعج مناصري هذه المقاربة هو أن مقاربة العنصرية الرمزية في طبيعتها غير قابلة للدحض - ظاهريًا. فإذا كان الناس يُحجمون عن التعبير عن وجهات نظرهم العنصرية علانية، فكيف لنا أن نعرف أنهم في أعماقهم عنصريون أم لا؟

التسامح وعدم التسامح

لا شك في أن النظر في مستويات التسامح السياسي العام الغالبة في المجتمع يُمثل إشارة مهمة إلى كيفية تعامل الناس مع الجماعات الخارجية في ذلك المجتمع. وقد تطورت دراسة هذا المجال من العلوم السياسية تطورًا واضحًا في الولايات المتحدة - على الرغم من ازدياد الدراسات عبر الثقافية (cross-cultural studies) فيه كذلك. أما النمط الأساس الذي اكتشفه الباحثون مرارًا لدى الأميركيين، وعبر الزمن، فهو أنهم يعبرون عن دعمهم للتسامح السياسي، نظريًا، إلا أنهم عندما يُواجهون حالات فردية يُعتقد أنها مخالفة للمعايير التقليدية، نجد كثيرًا من الأميركيين أقل تسامحًا[52]. ولكي نقيس التسامح، يبدو واضحًا أننا لا نكون بحاجة إلى قياس اتجاهاتنا نحو جماعات نحبها؛ لأن جوهر التسامح يكمن في الاستعداد للعيش جنبًا إلى جنب مع أفراد

(51) Jeremy Wood, «Is 'Symbolic Racism' Racism?: A Review Informed by Intergroup Behavior,» *Political Psychology*, vol. 15, no. 4 (1994), p. 677.

(52) George Marcus [et al.], *With Malice Toward Some: How People Make Civil Liberties Judgments*, Cambridge Studies in Political Psychology and Public Opinion (New York: Cambridge University Press, 1995), p. 8.

نعارضهم، وأفكار لا نتفق معها. ويقوم هذا التعريف على مقولة فولتير الشهيرة، «أنا أمقت وجهات نظرك، ولكنني على استعداد لأن أموت دفاعًا عن حقك في التعبير عنها». والواقع أن الفرد المتسامح ليس مضطرًا إلى الذهاب بعيدًا إلى هذا الحد - لأن ذلك قد يمثل شكلًا متطرفًا من التسامح - إلا أنه يجب أن يكون قادرًا على تحمّل الأفكار والممارسات السياسية التي تختلف اختلافًا حادًا عن أفكاره وممارساته.

وقد أجرى عالم الاجتماع صموئيل ستوفر (Samuel Stouffer) دراسة كلاسيكية في هذا الموضوع عام 1954، ضمّن نتائجها في كتابه الترابط المجتمعي، والامتثال، والحريات المدنية[53] (*Communism, Conformity and Civil Libirties*). ففي صيف 1954 قام ستوفر ومساعدوه بانتقاء عينه ممثلة من المجتمع الأميركي ليتحقق من مدى تسامح المواطن الأميركي العادي، وليتحقق بوجه خاص من رأي المواطن الأميركي العادي في السلوك غير الممتثل للمعايير (واتجاهه نحو الشيوعية). وقد جلبت النتائج التي توصل إليها ستوفر له الشهرة، لأن تلك النتائج كانت «مقلقة» لكثيرين، وفق ما يرى جون سوليفان، وجيمس بيرسون وجورج ماركوس (John Sullivan, James Piereson and George Marcus) حيث أشارت تلك النتائج إلى أن:

> أغلبية كبيرة [من الأميركيين] قالت إن من يعلن انتماءه إلى الشيوعية يجب ألا يسمح له بمخاطبة جمهور، أو يسمح له أن يدرس في المدارس الثانوية أو الجامعات، أو حتى العمل ككاتب في متجر. ووافقت الأغلبية كذلك على سحب الجنسية من الشيوعيين، وسحب الكتب التي ألفها شيوعيون من المَكتبات العامة، ووافقت الأغلبية على أن يُسمح للسلطات بالتنصت على المكالمات الهاتفية الشخصية للحصول على أدلة ضد الشيوعيين، وعلى أن يُلقى بمن يعترف أنه شيوعي في السجن[54].

(53) Samuel Stouffer, *Communism, Conformity and Civil Liberties: A Cross Section of the Nation Speaks its Mind* (New York: Doubleday, 1955).

(54) John Sullivan, James Piereson and George Marcus, *Political Tolerance and American Democracy* (Chicago, IL: University of Chicago Press, 1982), p. 28.

وأشارت نتائج دراسة ستوفر إلى أن معظم المستجيبين كانوا غير متسامحين إزاء الاشتراكيين والملحدين كذلك، وإن كان عدم تسامحهم مع هؤلاء ليس بدرجة عدم تسامحهم مع الشيوعيين. وقد تم إجراء دراسة ستوفر هذه في الفترة المكارثية، والتي يُفترض أن المواطن الأميركي العادي كان أقل تسامحًا فيها مما هو عليه قبلها أو بعدها. وقد يقودنا هذا إلى التصور أن الناس في الولايات المتحدة هم أكثر تسامحًا الآن. ولكن، ما مدى صحة هذا تصور في حقيقة الأمر؟

إن الإجابة عن هذا السؤال ليست قاطعة بالقدر المتوقع، من حيث إنها تعتمد إلى حد كبير، على كيفية قياس التسامح. ففي دراسة لسوليفان، وبيرسون، وماركوس (Sullivan, Piereson, and Marcus) أُجريت في بداية الثمانينات واكتسبت شهرة بقدر ما اكتسبته دراسة ستوفر الأصلية تقريبًا - رغب الباحثون في التحقق مما إذا كان قد حصل شيء من التغيير لدى الأميركيين خلال تلك الفترة [أي منذ الخمسينيات حين أجرى ستوفر دراسته]، وانتهوا إلى استنتاج أن التغيير «لم يكن كبيرًا»[55]. إذ يؤكد هؤلاء الباحثون أنه على الرغم من أن الناس في الثمانينيات لا يشعرون بالتهديد الشيوعي بالقدر الذي كانوا عليه في الخمسينيات - إذ أصبحوا أكثر استعدادًا لمنح الشيوعيين حرياتهم المدنية الأساس - فإن معظم الأميركيين ليسوا أكثر تسامحًا، بوجه عام، لأن عدم التسامح اتجه نحو جماعات أخرى. وبعبارة أخرى، ما تغير هو السياق والأهداف الرئيسة لعدم التسامح، ولكن ليس مقدار عدم التسامح بحد ذاته. ويؤكد سوليفان وزملاؤه أننا لكي نقيس عدم التسامح علينا أن نركز منطقيًا على دراسة أولئك الذين يقولون إنهم لا يحبون جماعة معينة، ولكي لا نوجّه أحكام الأفراد نحو جماعة معينة، علينا أن نتيح لهم انتقاء الجماعة التي «لا يفضلونها»، وقياس اتجاهاتهم نحوها، وليس التركيز على الشيوعية، مثلًا. وعندما اتبع سوليفان وزملاءه هذا الإجراء في دراستهم وجدوا أن مستوى عدم التسامح [نحو الجماعات غير المفضلة] لم يتعدّل كثيرًا منذ دراسة ستوفر.

ولكن بول سنيدرمان (Paul Sniderman) وزملاءه وصلوا إلى نتائج

---

(55) *Political Tolerance and American Democracy.*

مغايرة[56]. فهم يعتبرون دراسة سوليفان وزملائه «مبتكرة، ولكنها قد تكون مضلّلة»[57]. والسبب الرئيس الذي جعلهم يرون ذلك هو أن دراسة تسامح الأفراد [كما فعل سوليفان وزملاؤه] إزاء الجماعات غير المفضلة [مفهوم] وسببه واضح؛ فمن السهل «التسامح» مع الجماعات التي نحبها ونتماهى معها؛ ولكن قياس التسامح واللاتسامح بهذه الطريقة [مقتصرين على الجماعات غير المفضلة] سيقلل من تقديرنا لمدى التسامح الذي أصبح عليه غالبية الأميركيين. فعلى سبيل المثال، لا يجوز اعتبار «تسامح» من يقولون إنهم لا يحبون الأميركيين الأفارقة كافيًا [كإشارة إلى مدى تسامح الأميركيين مع السود في الوقت الحاضر]. فلا بد أن نقيس، إضافة إلى ذلك، تسامح من يقولون إنهم غير مبالين بشأن السود، وحتى من يقولون إنهم يحبون السود[58]. مرة أخرى، لا بد من التأكيد أن تحديد درجة التسامح الموجود في مجتمع ما يعتمد على الطريقة التي نقيس بها التسامح، رغم أن النموذج الذي اقترحه سوليفان وزملاؤه يبقى المرجع التقليدي في دراسة هذا الموضوع.

هل نملك الدليل على أن المسلمين أصبحوا «الشيوعيين الجدد» عقب هجمات 11/ 9؟ فمع أننا قد نجد دليلًا على وجود قدر من عدم التسامح تجاه المسلمين منذ 11/ 9 (وقبل ذلك، في الحقيقة)، إلا أنه لا يقارن بمقدار العدائية تجاه الشيوعيين التي وجدها ستوفر في الخمسينيات. وبينما لا نستطيع مقارنة البيانات التي جُمعت في الفترتين [الخمسينيات والحاضر] من حيث إن صياغة الأسئلة يختلف اختلافًا كبيرًا، إلا أننا لا نرى عدائية كاسحة تجاه المسلمين بالمستوى الذي رصده ستوفر تجاه الشيوعيين. فالبيانات العلمية تشير إلى أن النظرة السلبية إلى المسلمين تباينت كثيرًا عبر استطلاعات الرأي المختلفة منذ 11/ 9، الأمر الذي يشير إلى عدم ثبات الآراء في هذا الموضوع، على ما يبدو. فضلًا عن ذلك، أشار استطلاع للرأي أجراه مركز بيو للبحوث (Pew Research

---

(56) Paul Sniderman, Richard Brody and Philip Tetlock, *Reasoning and Choice: Explorations in Political Psychology* (New York: Cambridge University Press, 1991).

(57) المصدر نفسه، ص 220.

(58) المصدر نفسه، ص 134-136.

(Center)، إلى أن العديد من المسلمين الأميركيين صرحوا بأنهم يلقون دعمًا إيجابيًا من غير المسلمين، من حيث إن غير المسلمين يرون أن المسلمين غدوا «ضحايا» للتمييز أو عدم التسامح بسبب معتقدهم: إذ صرح 33 في المئة بأنهم يعاملون بريبة، أو يقذفون بنعوت مهينة، أو يُستقصدون من الشرطة أو يعتدى عليهم جسديًا أو يتعرضون للتهديد. ولكن 32 في المئة منهم صرحوا بأنهم تلقوا دعمًا من أحد من الناس. وفوق ذلك، أشارت الدراسة ذاتها إلى أن نسبة الأميركيين الأفارقة الذين صرحوا بأنهم تعرضوا لواحد من أشكال المعاملة غير المتسامحة تلك كانت أعلى من النسبة المناظرة لدى المسلمين (حيث أشار 46 في المئة من الأميركيين الأفارقة إلى أنهم تعرضوا لواحد من أشكال المعاملة غير المتسامحة في الأقل)[59].

ويمكن رد هذا الفرق في مستوى التسامح لدى الأميركيين، جزئيًا في الأقل، إلى الفرق في سلوك النخبة بين الخمسينيات وبداية الألفية الثالثة. ويعتقد جيمس غيبسون أن معظم اللاتسامح الذي ظهر في الفترة المكارثية كان نابعًا من النخب لا من الأميركيين العاديين[60]. حيث كانت نخبة السياسة الخارجية الأميركية في الخمسينيات تُمعن في تصوير الشيوعية كشر مستطير - وكان «الشيوعي شيوعيًا وحسب» - لكن إدارة بوش عمدت منذ الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر إلى التمييز بين المسلمين المعتدلين والمسلمين المتطرفين، أو أولئك الذين يوسمون على نحو مضلل بـ «الأصوليين»[61]. وإذا كانت مقولة «في أو كاي (V. O. Key)» إن عامة الشعب ما هم إلا «صدى للحاكم» مقولة صحيحة، فإن شدة اللاتسامح الذي شهدته الولايات المتحدة في الخمسينيات تجاه الشيوعيين، والمستوى الأكثر اعتدالًا، نسبيًا، الذي شهدته تجاه المسلمين بعد الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر إنما يعكسان نوعية الرسائل التي بثتها النُخب في الحالتين.

---

(59) انظر: *Muslim Americans: Middle Class and Mostly Mainstream* (New York: Pew Research Center, 2007), p. 38, <http://www.pewresearch.org/files/old-assets/pdf/muslim-americans.pdf>.

(60) James Gibson, «Political Intolerance and Political Repression during the McCarthy Red Scare,» *American Political Science Review*, vol. 82, no. 2 (June 1988), pp. 511-529.

(61) Bernard Lewis, *The Crisis of Islam: Holy War and Unholy Terror* (New York: Random House, 2003), p. xv.

وربما تُبين ردود أفعال الأميركيين العاديين بعد الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر صعوبة الأخذ بالتوجه الموقفي الصرف من قضية التسامح. فما يغذي اللاتسامح تجاه الجماعات الخارجية ليس مجرد وجود تهديد موضوعي»، وإنما إدراكنا لطبيعة ذلك التهديد. وبالعودة إلى المماثلة (analogy) التي استخدمناها في الفصل الأول، بشأن اختلاف تقديرات الأفراد لخطر «الحريق في البناية»، فإن اختلاف هذه التقديرات سيؤدي إلى اختلاف في مدى تأييد المواطنين العاديين للحد من الحريات المدنية للمسلمين الأميركيين وغيرهم من الجماعات. ومع ذلك، لا نستطيع إنكار أن هناك دليلا على وجود قدر من اللاتسامح تجاه المسلمين في الولايات المتحدة، أو ما يشار إليه أحيانًا بـ «الخوف من الإسلام» (Islamophobia). فقد بيّن استطلاع للرأي أُجري في جامعة كورنيل عام 2004، أن 27 في المئة من المستجيبين الأميركيين يعتقدون أن على المسلمين إبلاغ الحكومة الفدرالية أماكن وجودهم، وقال 26 في المئة منهم بضرورة وضع المساجد تحت المراقبة الحثيثة، ورأى 22 في المئة أن على السلطات الفدرالية مراقبة الأفراد ذوي الخلفيات الإسلامية أو الشرق الأوسطية، ووافق 29 في المئة على ضرورة اختراق الروابط الإسلامية المدنية بواسطة عملاء فدراليين لمراقبة نشاطاتها. وإضافة إلى ذلك، رأى 44 في المئة من المستجيبين أنه يجب فرض واحدة من القيود، السابقة الذكر، في الأقل على الحريات المدنية للمسلمين الأميركيين[62]. وفي حين أن هذه الأرقام لا تقترب من حجم الأكثرية التي طالبت بمنع الشيوعيين من التعبير الحر في دراسة ستوفر في الخمسينيات[63]، إلا أن ظهورها بهذا الحجم يظل مثيرًا للقلق في دولة ديمقراطية متطورة. وقد وجد إريك نيسبت وزملاؤه أن أكثر الجماعات استعدادًا لفرض القيود على الحريات المدنية للمسلمين هم السياسيون المحافظون والداعمون الأشداء للقيم الدينية المسيحية - مقارنة بغيرهم من الجماعات[64].

---

(62) انظر: Erik Nisbet and James Shanahan, «MSRG Special Report: Restrictions on Civil Liberties, Views of Islam, and Muslim Americans,» (December 2004), <http://www.eriknisbet.com/pdfs/reportla>.

(63) رأى 27 في المئة فقط من المستجيبين أن الشيوعيين يجب أن يعطوا الحرية لفعل ذلك.

(64) Erik Nisbet, Ronald Ostman and James Shanahan, «Shaping the Islamic Threat: The =

خاتمة

تتبنى غالبية البحوث في التسامح السياسي، ومنذ دراسة ستوفر، منحى نزوعية. وقد وجدت الدراسات المبكرة منها أن التسامح يرتبط بنزعات شخصية معينة تتسم بالثبات [نسبيًا] - منها التصلب بالرأي، والتسلطية، والتفاؤل - التي ظهرت في دراسة ستوفر وزملائه؛ ومنها عدم الأمن النفسي (psychological insecurity) والدوغمائية (dogmatism) أو التصلب بالرأي أيضًا، وعدم الثقة بالآخرين - التي ظهرت في دراسة سوليفان وزملائه. وقد تابع جورج ماركوس، وجون سوليفان، وزملاؤهما هذا الإرث البحثي بتحليل العوامل التي تؤثر في صنع القرارات المتعلقة بالتسامح، وذلك في كتابهم الحقد على البعض[65] (*With Malice Toward Some*). ويركز المنظور الذي تبنوه في هذا الكتاب على دور الانفعال في صنع القرارات، وهو منظور نزوعي أيضًا من حيث إنه يركز على الفروق بين الأفراد في الاستجابة للبيئة المعلوماتية المحيطة بهم ذاتها. ويشير ماركوس وزملاؤه إلى أنهم يستخدمون مصطلح فروق فردية (individual differences) للإشارة إلى اختلاف الناس في الطريقة التي يصنعون بها الأحكام المتعلقة بالتسامح، وفي الطريقة التي يتعاملون بها مع المعلومات الراهنة. ويفيد ماركوس وزملاؤه، «أن الناس يختلفون في ما يحملونه من نزعات وفيما يصلون إليه من قرارات، وقراراتهم القائمة تلك تؤثر في مدى تسامحهم أو عدم تسامحهم»[66]. فقد يختلف الناس، مثلًا، في مستوى معرفتهم السياسية وخبرتهم، وطريقة معالجتهم للمعلومات الجديدة [وهو ما تناوله في الفصل التاسع]، ومدى ما يعالجونه من تلك المعلومات، وما إلى ذلك. ويؤكد ماركوس وزملاؤه أن القرارات المتعلقة بالتسامح هي في نهاية المطاف نتيجة لمزيج من العوامل، تتضمن: النزعات القائمة لدى الأفراد والمتعلّمة مبكرًا في الحياة، والاعتقادات المتصلة بالقيم الديمقراطية، والمعلومات المحددة المتعلقة بالحالة قيد البحث.

Influence of Ideology, Religiosity, and Media Use on Public Opinion Toward Islam and Muslim = Americans,» in: Abdulkader Sinno, ed., *Muslims in Western Politics* (Bloomington, IN: University of Indiana Press, 2008).

(65) Marcus [et al.], *With Malice Toward Some: How People Make Civil Liberties Judgments.*

(66) المصدر نفسه، ص 23.

15

علم نفس الإرهاب

لعلنا لا نتجاوز الحقيقة حين نقول إن الدراسة النفسية للإرهاب لا تزال في مهدها. ويفيد ركس هدسون (Rex Hudson) بهذا الخصوص [مقارنًا المقاربة النفسية في دراسة الإرهاب بمقاربة علم السياسة، وعلم الاجتماع]:

> إن علماء السياسة وعلماء الاجتماع يُعنوْن بدراسة السياقات السياسية والاجتماعية المحيطة بالجماعات الإرهابية، أما علماء النفس (القليلون، نسبيًا) الذين يدرسون الإرهاب فيتناولون الفرد الإرهابي أو الجماعة الإرهابية على مستوى جزئي (at a micro-level) من الدراسة. ذلك لأن المقاربة النفسية تركز على دراسة الإرهابيين بحد ذاتهم؛ كيف يتم تجنيدهم، وكيف يتم دمجهم في الجماعات الإرهابية، إضافة إلى أنه يبحث في نوعية شخصياتهم، واعتقاداتهم، واتجاهاتهم، ودوافعهم، ومهنتهم كإرهابيين[1].

وكما سنرى في هذا الفصل، فإن موضوع الإرهاب يُجسد التمايز بين النظريات النزوعية والنظريات الموقفية بشكل جلي. فقد سعى الباحثون عبثًا لسنين عديدة للكشف عما يصطلح جون هورغان (John Horgan) على تسميته

(1) Rex Hudson, «The Sociology and Psychology of Terrorism: Who Becomes a Terrorist and Why?,» Report Prepared under an Interagency Agreement by the Federal Research Division, Library of Congress (Washington, D.C.) (September 1999), p. 17, <http://www.loc.gov/rr/frd/pdf-files/Soc_Psych_of_Terrorism.pdf>.

بـ «الشخصية الإرهابية»[2]. وعلى الرغم من اعتماد الباحثين في ذلك على النظريات التي تؤكد «الغرابة» أو «الشذوذ النفسي» في الشخصية الإرهابية، فإن وجهة النظر الشائعة الآن ترى الإرهاب بالطريقة التي يرى فيها ستانلي ملغرام القتل الجماعي؛ أي كنتاج للظروف البيئية المحيطة بالفرد من حيث الأساس، وليس كنتاج للخصائص الشخصية للإرهابي، آخذًا بذلك وجهة نظر موقفية صرفة.

وبالمثل، يعتقد معظم المحلّلين اليوم أن ليس هناك شخصية إرهابية ذات طابع واحد، فضلًا عن أن هناك قبول متزايد للرأي القائل إن المتطرفين سياسيًا «أسوياء» بشكل عام في العديد من الوجوه (أي إنهم ليسوا مجانين)، على الرغم من أنهم يظلون، من دون شك، موجَّهين بأيديولوجية «تبرّر» أفعالهم. وبعد أن نقوم بمراجعة الأدب النزوعي القديم في هذا الموضوع، ومراجعة نظريات من مثل نظرية الإحباط - العدوان (frustration-aggression theory) ونظرية النرجسية - العدوان (narcissism-aggression theory)، سنقوم بتناول المقاربات البارزة في دراسة الإرهاب الآن من مثل «نموذج العملية» (process model) لجون هورغان الذي يأخذ اتجاهًا أكثر موقفية ولكنه يُدخل نزعات الفرد إلى التحليل إضافة إلى العوامل الموقفية. وبعد تعزيز هذا الإتجاه بما نعرفه عن الإرهاب الانتحاري (suicide terrorism)، سنخلص إلى أن الإرهاب ظاهرة معقدة لا يتسنى لنا ردّها حصريًا إلى عوامل نزوعية أو عوامل موقفية، وأن تفسيرًا مقبولًا لهذه الظاهرة يجب أن يدمج كلا النوعين من العوامل.

ما هو الإرهاب

يحمل مفهوم الإرهاب الكثير من الأحكام القيمية السيئة والشائعة على نطاق واسع - حتى أن تعبير «الإرهابي في نظرك، قد يكون المدافع عن الحرية في نظر شخص آخر» أصبح تعبيرًا شائعًا. وسنأخذ تعريف بريان جنكنز (Brian Jenkins)، الخبير الشهير بموضوع الإرهاب، كنقطة بداية مفيدة في تناولنا لهذا الموضوع، حيث يقول جنكنز:

---

(2) John Horgan, «The Search for the Terrorist Personality,» in: Andrew Silke, ed., *Terrorists, Victims and Society: Psychological Perspectives on Terrorism and its Consequences* (Chichester, UK: Jon Wiley Press, 2003).

إن ما يميز الإرهاب عن غيره من أشكال العنف هو أن الإرهاب يتضمن أفعالًا تُرتكب بطريقة دراماتيكية لجذب الانتباه العام، وخلق مناخ من الرعب يتجاوز الضحايا الذين تعرضوا له. والحقيقة أن هوية الضحايا تكون ثانوية أو غير مهمة للإرهابيين لأن عنفهم يتجه إلى الناس الذين يشاهدون ذلك العنف. والتفريق بين الضحايا الواقعيين والجمهور المستهدف هو المَعلم الرئيس للإرهاب الذي يميزه عن الأشكال الأخرى من النزاع المسلح؛ فالإرهاب مسرح[3].

ويختلف الإرهاب عن القتل الجماعي أو الإبادة الجماعية من حيث إن الأخير منهما يرمي إلى قتل جماعة بالكامل، بينما يرمي الإرهاب إلى قتل عدد محدود من الناس للتأثير على جمهور أوسع. فقد استهدف هتلر والنازيون إبادة اليهود، تمامًا كما استهدف الهوتو قتل التوتسي في رواندا. وبالمثل، فإن الضحية المستقصدة في معظم المذابح هي الضحية ذاتها، أما في حالة الإرهاب، فإن الهدف الحقيقي هو الجمهور المشاهد للضحية، فالإرهابيون يحاولون إيصال رسالة إلى قطاع واسع من الأفراد، وبهذا المعنى تكون ضحاياهم شيئًا عارضًا في خدمة قضاياهم.

وقد استند الباحثون الذين حاولوا فهم الأفعال الإرهابية من منظور نفسي إلى نظريات قائمة على التحليل النفسي، تقليديًا. وكثيرًا ما وظفت نظريتا الإحباط - العدوان، والغضب النرجسي (narcissistic rage) وغيرها من النظريات ذات الجذور التحليلية النفسية، لفهم الأسباب التي تؤدي بالناس إلى الإرهاب[4]. وتعتبر بحوث الخبير بشؤون الإرهاب، جيرولد بوست (Jerrold Post)، على سبيل المثال، مساهمات مهمة في هذا المجال[5]. وتتسم هذه

---

(3) انظر: The Christian Science Monitor Website, <http://www.csmonitor.com/specials/terrorism/lite/expert.html>.

(4) لنظرة عامة إلى هذه المناحي، انظر: Andrew Silke, «Cheshire-Cat Logic: The Recurring Theme of Terrorist Abnormality in Psychological Research,» *Psychology, Crime and Law*, vol. 4, no. 1 (1998), pp. 51-69, and Hudson, «The Sociology and Psychology of Terrorism: Who Becomes a Terrorist And Why?».

(5) للمزيد، انظر: Jerrold Post, «Terrorist Psycho-Logic: Terrorist Behavior as a Product of Psychological Forces,» in: Walter Reich, ed., *Origins of Terrorism: Psychologies, Ideologies, Theologies,* =

المقاربات التحليلية جميعها، كما سنرى في هذا الفصل، بطبيعة نزوعية إلى حد كبير.

نظرية الإحباط - العدوان

وهي واحدة من النظريات النزوعية التي اكتسبت شعبية واسعة في مجال تفسير الإرهاب، والعنف السياسي بوجه عام، وقد جرى تطويرها بداية على يد جون دولارد (John Dollard) وزملائه في كتابهم **الإحباط والعدوان** في أواخر الثلاثينيات[6]. ونظرية الإحباط - العدوان نظرية بسيطة ومباشرة، تذهب إلى القول إن العدوان يحدث عندما تتعرض أهداف الفرد إلى الإحباط أو الإعاقة. ويؤكد دولارد، علاوة على ذلك، أن الإحباط يؤدي إلى العدوان دائمًا، وأن العدوان هو نتيجة للإحباط دائمًا كذلك. وعند تطبيق هذه النظرية على الإرهاب، يكون الفعل الإرهابي شكلًا من أشكال الإبدال (Displacement) (أو الإحلال) وهي فكرة تحمل جذورًا فرويدية أو تحليلية واضحة. تخيّل أنك فقدت وظيفتك توًّا، وانتابك شعور حانق، ثم عدت إلى البيت، ورفست كلب العائلة. لا شك في أن عدوانك في هذه الحالة تم إحلاله على ذلك الحيوان العاثر على الرغم من أنه لم يفعل شيئًا يستحق تلك المعاملة الجائرة. وبالمثل، ترى هذه النظرية أن الإرهاب عدوان يتم إحلاله على موضوع آخر (غير موضوعه الأصلي)؛ فالشخصيات المضطربة للإرهابيين، النابعة من الإحباطات الشخصية في حياتهم الخاصة، تقودهم إلى القيام بأفعال عنف متطرفة ضد الآخرين.

ويبدو أن الإحباط يؤدي دورًا مهمًا في النشاط الإرهابي، وخاصة عندما

States of Mind (New York: Cambridge University Press, 1990), and Jerrold Post, *Leaders and Their Followers in a Dangerous World: The Psychology of Political Behavior*, Psychoanalysis and Social Theory (New York: Cornell University Press, 2004). =

يعتقد بوست (Post) الآن أن الإرهابيين «أسوياء» ولكنه يصرّ على أن معظمهم يحملون خصائص نرجسية.

(6) John Dollard [et al.], *Frustration and Aggression* (New Haven, CT: Institute of Human Relations, 1939).

كثيرًا ما تُنسب هذه النظرية أيضًا إلى ليونارد بيركوويتز. انظر: Leonard Berkowitz, «Some Aspects of Observed Aggression,» *Journal of Personality and Social Psychology*, vol. 2, no. 3 (September 1965), pp. 359-369, and Ted Robert Gurr, *Why Men Rebel* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1970).

لا يتيح النظام السياسي للدولة مخرجًا «سويًا» آخر للنشاط السياسي. إضافة إلى ذلك، يلقى هذا المنحى شيئًا من الدعم في أدبيات هذا الموضوع؛ فعلى سبيل المثال، وجدت دراسة شهيرة، أجريت على إرهابيين في ما كان يدعى ألمانيا الغربية عام 1981، أن كثيرين منهم عانوا مصاعب شخصية في حياتهم المبكرة. حيث كشفت الدراسة أن حوالى ربع أولئك الإرهابيين فقدوا أحد الوالدين في طفولتهم. ويفترض أن فقدان أحد الوالدين يسبّب استياء أو شعورًا بالنقص يستدعي الحاجة إلى منفذ ما (لتصريفه) - من حيث إن معظم الأطفال يعيشون مع والديهم، فإن العيش مع واحد منهما فقط قد يُطوّر شعورًا بالإحباط تجاه العالم الخارجي لدى الفرد. غير أن نقل هذا التفسير من المستوى الفردي، الذي تعمل نظرية الإحباط - العدوان بناء عليه، إلى مستوى المجتمع أو مستوى جماعة واحدة، يُواجه النظرية بعدد من الصعوبات. والسبب في ذلك يعود - كما رأينا في الفصل السادس - إلى أن الجماعات ليست مجرد تجمع أفراد، ففي كثير من الأحيان، تعمل ديناميات الجماعة على التأثير في سلوك الفرد وتوجيه قراراته على نحو يجعلها مغايرة لما يمكن أن يتخذه منها على انفراد. وهذه المشكلة تواجه المنحيين الآخرين اللذين سنتناولهما في ما يلي.

نظرية النرجسية - العدوان

يأتي مصطلح «النرجسية» من أسطورة نارسيسوس اليونانية، الشاب الوسيم الذي وقع في حب صورته، كما تقول الرواية. ولعل هناك شيء من النرجسية - أو الغرور في الأقل - لدى كل منا، لأن ذلك يؤدي دورًا في المحافظة على تقدير الذات. ويرى بعض الباحثين - أبرزهم ريتشارد بيرلشتاين (Richard Pearlstein) في كتابه **عقل الإرهابي السياسي** (*The Mind of The Political Terrorist*)، كذلك جون كريتون (John Crayton) وجيرولد بوست (Jerrold Post) يرون أن النرجسية في حالتها المتطرفة يمكن أن تعطي تفسيرًا للنشاط الإرهابي[7]. فالشخص الإرهابي، وفقًا لهذه النظرية يكون على اقتناع تام بأهميته في هذا العالم؛ لكن العالم - لسوء الحظ - لا يشاطره هذا الاقتناع،

---

(7) Richard Pearlstein, *The Mind of the Political Terrorist* (Wilmington, DE: SR Books, 1991).

الأمر الذي يؤدي به إلى الغضب النرجسي ومن ثم إلى العدوان. ويُعبّر هدسون (Hudson) عن وجهة النظر هذه بقوله:

> إذا لم يتم تحييد الذات المعظمة (grandiose-self) كشكل أولي للنرجسية، في ضوء الاختبار الواقعي (والتعامل مع إمكاناتها الواقعية)، فإن الذات المعظمة تُنتج أفرادًا معادين للمجتمع، متغطرسين، ولا يكنون احترامًا للآخرين. وبالمثل، إذا لم يتم تحييد الأنا الوالدية المثالية (the idealized parental ego)، كحالة نفسية، في ضوء الاختبار الواقعي، فإنها قد تؤدي إلى إحساس بالهزيمة البائسة، وهذه الهزيمة النرجسية قد تؤدي إلى ردات فعل غاضبة، ورغبة في تدمير مصدر الجرح النرجسي [أي العالم الخارجي أو جزء منه، بطبيعة الحال][8].

ومرة أخرى، هناك بعض الأدلة الداعمة لهذه الدعوة؛ فقد شحذت الدراسة الألمانية الغربية (المشار إليها أعلاه) التي أجريت عام 1981 الاهتمام بهذه النظرية. فإضافة إلى النتائج التي أشرنا إليها، وجد مناصرو نظرية الغضب النرجسي دليلًا على أن العديد من الإرهابيين (الذين أُخضعوا للدراسة) واجهوا عقبات شديدة في حياتهم الخاصة (كالفشل الدراسي، مثلًا) ويستنتج المحللون من أمثال بوست (Post) بناء على ذلك، أن الإرهاب ينتج من الضرر الذي يحيق بتقدير الذات، والإحساس بالغضب الذي ينجم عن مثل هذا الفشل.

تفسيرات التحليل النفسي/ الفرويدية

بينما تنبثق النظريتان السابقتان من جذور تحليلية نفسية، هناك أشكال أخرى (أكثر «نقاء») لهذه المقاربة تتجلى في أدب الموضوع كتفسيرات للإرهاب. فقد زعم فرويد، كما رأينا في الفصول السابقة، أن البشر كثيرًا ما يُضمرون دوافع لا يكونون واعين بها أنفسهم (فهي دوافع «لا شعورية») وهذه الدوافع كثيرًا ما تنطوي على رغبات مكبوتة لأن تلك الرغبات تكون غير مقبولة اجتماعيًا. وتتمثل واحدة من هذه الرغبات بالعقده الأوديبية (Oedipal Complex) التي تظهر

---

(8) Hudson, «The Sociology and Psychology of Terrorism: Who Becomes a Terrorist and Why?,» p. 17.

في مرحلة من مراحل النمو النفسي - الجنسي (psychosexual development) التي يمر بها الفرد في الطفولة، كما يرى فرويد، حيث يأخذ الطفل في النظر إلى الأب كخصم ومنافس له على حب الأم. وعندما لا يتم حل هذا الصراع بنجاح، فإنه قد يؤدي إلى مشكلات مختلفة في حياة الفرد لاحقًا.

ويؤكد كونراد كيلين (Konrad Kellen) في تحليله للإرهابييْن هانز - جواشيم كلاين، وكارلوس المأجور (Hans-Joachim Klein and Carlos the Jackal) أن الكراهية الشعورية أو اللاشعورية للأب قادتهما إلى التمرد على السلطة، أو على «الرموز الأبوية»، إلى أن وصل بهما الأمر إلى العنف في نهاية المطاف. وتحولهما إلى الإرهاب ثم كان إخراج الصراع الشخصي (من الداخل) - بطريقة لا شعورية - وتحويله إلى الحياة العامة (وهذه الحجة تستدعي إلى الذهن تصوير لاسويل (Lasswell) الشهير لـ «الشخصية السياسية» بوجه عام)[9]. وبناء على هذه الخلفية النظرية أيضًا، طوّر إريك إريكسون (Eric Erikson) أحد أتباع فرويد نظرية الهوية السلبية (negative identity theory) رأى فيها أن الصراعات الشخصية التي لم تُحل، والفشل في تكامل الشخصية [بين الهو، والأنا، والأنا الأعلى] يقود إلى صعوبات عميقة في الحياة لاحقًا. وتُطبّق جين ناتسون (Jeanne Knutson) هذه المقاربة في تحليلها لإرهابي كرواتي، وصفه هدسون أحد أنصار نظرية النرجسية - العدوان بأنه؛

> خاب أمله نتيجة لفشله في تحقيق طموحاته بالحصول على شهادة جامعية، فتبنى هوية سلبية وتحول إلى الإرهاب. وتنطوي الهوية السلبية على رفض انتقامي للدور الذي تعتبرُه عائلة الفرد ومجتمعه دورًا مقبولًا ومناسبًا[10].

ويبدو هذه المقاربة مشابهة لنظرية الإحباط - العدوان، والواقع أن هناك نقطة تلتقي عندها هذه النظريات المتعددة (والمتشابهة جدًا) وتمتزج بعضها ببعض.

---

(9) Konrad Kellen, *On Terrorists and Terrorism* (Santa Monica, CA: Rand Corporation, 1982).

(10) Hudson, Ibid., p. 17.

مشكلات تواجهها هذه النظريات

على الرغم مما تبدو عليه هذه النظريات من جاذبية للوهلة الأولى، فإن هناك مشكلات تواجهها جميعًا كتفسيرات للنشاط الإرهابي، كما أن النظريات التحليلية وغيرها من المقاربات المرتكزة إلى الشخصية في تفسيرها لسيكولوجية الإرهاب أصبحت موضع تساؤل بشكل متزايد[11]. وتتصل إحدى التساؤلات بـ «القفزة» التي لا بد من القيام بها عند الانتقال من تحليل سلوك أفراد معينين إلى تحليل سلوك جماعة [كمنظمة إرهابية]، كما سبق أن أشرنا. أما القضية الأخرى فتتصل بحقيقة أن جميع النظريات التي تطرقنا إليها في أعلاه خرجت من دائرة قبول علم النفس في نطاقه الواسع. وإذا ما عادت هذه النظريات تتمتع بالصدقية في نظر العديد من علماء النفس، فلماذا يستمر تداولها في دراسة الإرهاب والعلوم الاجتماعية عمومًا؟ وفي حين أننا يجب ألّا نشك في قيمتها أوتوماتيكيًا بناء على هذا الأساس فحسب - ذلك لأن النظريات الأكاديمية قد تبرز وتتراجع مع الوقت - إلا أن هناك أسبابًا عملية أخرى جعلت كثيرين ممن يدرسون الإرهاب غير راضين عن هذه المقاربات.

أما المشكلة الأولى فتتعلق بالإتجاه السيكولوجي الاختزالي في علم النفس الذي واجهناه سابقًا في أعمال باحثين من أمثال جيمس دايفد باربر (James David Barber). وتتمثل هذه المشكلة بالميل إلى رد الظواهر الاجتماعية والسياسية المعقدة إلى معادلات سيكولوجية غاية في التبسيط. وقد يكون دعاة هذه النظريات جميعهم ضحايا لما يصطلح مناصرو نظرية العزو على تسميته بِـ «الخطأ الأساس في العزو» (fundamental attribution error) (كما رأينا في الفصل التاسع). ويذكر القارئ أن هذا الخطأ يشير إلى الميل إلى المبالغة في تقدير دور العوامل (الشخصية) النزوعية في توجيه سلوك «الآخر» - وهو الإرهابي في هذه الحالة - مقارنة بدور الظروف المحيطة التي يعيشها.

---

(11) للاطلاع على البحوث الحديثة المهمة في هذا المجال، انظر: Silke, ed., *Terrorists, Victims and Society: Psychological Perspectives on Terrorism and its Consequences*; Fathali Moghaddam and Anthony Marsella, eds., *Understanding Terrorism: Psychosocial Roots, Consequences, and Interventions* (Washington D.C.: American Psychological Association, 2004), and John Horgan, *The Psychology of Terrorism* (London: Taylor and Francis, 2005).

وأما المشكلة الثانية المشتركة بين هذه النظريات جميعها فهي أنها تنطوي على إيحاء شديد بأن الإرهابيين «مضطربين» عقليًا بوجه عام، إذ تفترض أن «الأفعال الشاذة» لا يرتكبها إلا من هو «شاذ». لكن هورغان، الخبير بموضوع الإرهاب، وغيره من الخبراء، يرفضون مقاربة الاضطراب العقلي. وعلى الرغم من أنه لا يتاح لنا المجال لدراسة إرهابيين واقعيين لنصل إلى تشخيص موثوق به بشأنهم، فإن ما يتوافر لنا من أدلة يوحي أن معظم الإرهابيين أصحاء نفسيًا، وأنهم ليسوا مجانين بالتأكيد. ويشير هورغان إلى أن المقاربات النفسية جميعها تشدد على دور السيكوباثية (psychopathy) [أي العدائية والعنف بدم بارد] في تكوّين شخصية الإرهابيين، «إلا أن الدليل على أن السيكوباثية عنصر من العناصر السيكولوجية للمنظمات الإرهابية، دليل ضعيف»[12]. وبالمثل، يؤكد أندرو سيلك (Andrew Silke) أن الكُتّاب الذين يدّعون أن الإرهابيين «مضطربون» نفسيًا، على نحو ما، هم من لم يتسن لهم الاتصال بالإرهابيين إلا لمامًا، في حين أن من يدّعون العكس، هم الذين أجروا الكثير من الاتصال بهم[13]. وإذا أمعنا النظر في الأمر، نجد إن هذا الاستنتاج ينطوي على شيء من المنطقية، حيث إن المنظمات الإرهابية تقوم على درجة عالية من التنظيم، والسرية، والانضباطية، ويبدو أنها تستبعد من صفوفها الأفراد المضطربين الذين قد يُعرِّضوا متطلباتها التنظيمية هذه للخطر.

ثالثًا، وفي إطار متصل بالمشكلة الثانية، لا بد من أخذ الدليل على وجود «شخصية إرهابية» واحدة، على أنه دليل ضعيف إلى حد بعيد. ويعتبر هورغان المناهج التي اتبعها من يدعون اكتشاف نمط واحد من الشخصية الإرهابية مناهج «مثيرة للشفقة»[14] وما وصلت إليه بعض الدراسات التي أُجريت بهذا الشأن خرج باستنتاجات مغايرة (مثال ذلك الدراسة الألمانية الغربية)، حيث وجدت معظم هذه الدراسات أن شخصيات الإرهابيين لا تحمل سمات خاصة

(12) Horgan, «The Search for the Terrorist Personality,» p. 7.

(13) Andrew Silke, «Becoming a Terrorist,» in: Silke, ed., *Terrorists, Victims and Society: Psychological Perspectives on Terrorism and its Consequences*, p. 32.

(14) المصدر نفسه، ص 10.

بها تميزها على الدوام عن أفراد المجتمع «العاديين». والواقع أن التشخيصات، والنتائج المتضاربة التي انبثقت من تلك الدراسات تُضعف الادعاءات التي تأتي بها النظريات المختلفة في هذا الموضوع. ومن ناحية أخرى، فإننا نملك أدلة قوية على أن العديد من الإرهابيين يجدون صعوبة في القتل، وأن ضحاياهم يقعون عرضًا في طريق تحقيقهم لأهدافهم.

وأما المشكلة الرابعة - التي تظهر أكثر وضوحًا في نظرية النرجسية - العدوان - فهي أن الإرهابيين يمثّلون ضحايا لما يسميه المتخصصون في العلوم الاجتماعية بمغالطة التركيب (fallacy of composition)، والتي تشير هنا إلى العجز عن دراسة المجتمع السكاني المحيط بالجماعة موضوع الاهتمام، والميل إلى التركيز الوسواسي على خصائص الجماعة بحد ذاتها. فالنرجسية، مثلًا، حالة شائعة، على الأرجح، في المجتمع السكاني عمومًا، ولا يتبنى النرجسيون جميعًا، في أي حال، أسلوب حياة الإرهابي. ويفيد ركس هدسون (Rex Hudson)، على سبيل المثال، أن العديد من الصفات التي تُعزى إلى الإرهابيين كدوافع لنشاطاتهم توجد أيضًا لدى المجتمع السكاني العام[15]. ويُرجح هدسون أن النرجسيين، بوجه خاص، لا يتحولون إلى إرهابيين انتحاريين. كما أنه يتساءل عما إذا كان الإرهاب ينتج في الواقع من غضب نابع من الفشل الشخصي، ويفيد قائلًا: «إن ظهور عدد متزايد من الإرهابيين المهنيين ذوي التحصيل العلمي العالي، كالكيميائيين، والمهندسين، والفيزيائيين ينقض النظرية»[16]. وتبرز هذه المشكلة كمشكلة رئيسة لنظريات أخرى كنظرية الإحباط - العدوان التي تزعم أن الإرهاب يمثل تفريغًا للإحباط الشخصي على العالم المحيط. ولعله من الواضح والحال هذه، أن هناك شيء ما يأخذ مجراه في عملية التحول إلى الإرهاب، يتعدى أي سمة شخصية.

وأخيرًا، فإن التركيز الوسواسي على الشخصية يقلل من أهمية الدافع الأكثر

---

(15) Hudson, «The Sociology and Psychology of Terrorism: Who Becomes a Terrorist and Why?,» p. 27.

(16) المصدر نفسه.

قوة في تحريك الإرهابي، ألا وهو الأيديولوجية. فالإرهابيون جميعًا يشتركون في التزام أهداف سياسية، قد تكون دينية، أو قومية، أو اقتصادية في طبيعتها. وقد يكون البحث في الاعتقادات الفردية للإرهابيين أكثر أهمية من البحث غير المثمر عن شخصية إرهابية خاصة. فضلًا عن ذلك، لا بد من أن نلفت النظر إلى أن الاعتقادات، نزوعية في طبيعتها - ويأتي هذا النقد من المعسكر النزوعي، لا من خارجه - ومن هنا فإن الخطأ في أدب الموضوع الحالي لا يكمن في تركيزه على الفرد بحد ذاته، بل في تركيزه على الخصائص الخطأ لدى ذلك الفرد (وهو ما ستتوسع في تناوله بعد قليل).

العوامل الموقفية

ثمة ميل طبيعي لدى الإنسان إلى الاعتقاد بأن من يرتكبون عملًا كارثيًا كتدمير مركز التجارة العالمي في مدينة نيويورك في الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر عام 2001، أو تفجير قطار مدريد في الحادي عشر من آذار/ مارس2004، أو مترو أنفاق لندن في السابع من تموز/ يوليو 2005 - هناك ميل إلى الاعتقاد بأن مرتكبي هذه الأفعال لا بد من أن يكونوا مجانين أو «مشوشين» على نحو ما، وبأنهم ليسوا أسوياء نفسيًا كبقية الناس بكل تأكيد، ولا يمكن لطبيب نفسي أن يشخّصهم كـ «عقلاء»، ليقحموا أنفسهم في مثل هذه الأعمال ويتحملوا مسؤوليتها. وتتعزز وجهة النظر هذه في الإرهاب بالصور التلفزيونية التي تُظهرهم وهم يلوحون بأصابعهم بعلامات النصر بعد ارتكاب الأعمال الإرهابية - كما ظهر أسامة بن لادن الذي بدت قضيته غير مفهومة للغربيين - وبصور تلفزيونية لأشخاص مثل تيودور كازينسكي (Theodore Kaczynski) - الذي أوحى منظره الأشعث، وأسلوب حياته، وأفعاله - أنه كان يعاني اضطرابًا عقليًا. وبالمقابل كثيرًا ما نَعجب لصور إرهابيين يظهرون كأناس عاديين، وأسوياء تمامًا كغيرهم من أفراد المجتمع؛ فقد ظهر تيموثي مكفيه (Timothy McVeigh) الذي أدى دورًا رئيسًا في تفجيرات مدينة أوكلاهوما عام 1995 - ونُفّذ حكم الإعدام فيه بسببها - ظهر شخصًا حسن المظهر، مبتسمًا (كأحد أبناء الجيران الطيبين)، على عكس ما ظهر عليه كازينسكي. ومهما يكن من أمر، فإننا

نعتقد أن مرتكبي الأفعال الشاذة لا بد من أن يكونوا مضطربين إلى حد كبير. غير أن هناك أسبابًا عديدة تُلقي بظلال الشك على هذا الاستنتاج عدا الأسباب التي ناقشناها حتى الآن.

ويتمثل أحد هذه الأسباب في أن البحوث المتعلقة بصنوف أخرى من التطرف السياسي مما ناقشناه في الفصول السابقة - والمتعلقة منها بسيكولوجية الإبادة بوجه خاص - تشير إلى أن ثمة قوى محيطية قد ترغمنا على السلوك بما يتعارض مع ما نحمله من قيم؛ فقد رأينا أشخاصًا «عاديين» كأدولف آيخمان تحملوا مسؤولية أعمال شنيعة ومروعة. وإذا كان بإمكان أشخاص أسوياء ارتباك مثل هذه الأفعال، يجب ألّا نستغرب تاليًا، أن يقوم أشخاص أسوياء بالقدر ذاته بارتكاب فظائع مشابهة باسم قضية أيديولوجية في ظل الإغراءات الاجتماعية المناسبة. كما أن الذين قاموا بالأفعال المشينة في أبو غريب كانوا، بالمثل، أسوياء بالمعنى السيكولوجي، مثلهم مثل المبحوثين في تجربة ستانفورد. ويوحي تحليل فيليب زمباردو (Philip Zimbardo) لسيكولوجية الشر في كتابه **تأثير الشيطان**، على الرغم من أنه ليس تحليلًا للإرهاب بحد ذاته، أن هناك خطًا رفيعًا بين الصواب والخطأ، خطًا يمكن أن يكون استعدادنا لقطعه أقوى بكثير مما نعتقد.

والسبب الثاني الذي يجعلنا ننحو إلى الموقفية في تفسير الإرهاب يعود إلى أن هناك دليلًا على أن معظم الإرهابيين يشعرون بأنهم ليس لديهم خيارًا آخر غير أن يقوموا بالأعمال الإرهابية. وربما يشعرون أنهم في شرك (أو أن الأبواب قد سدت في وجوههم)، ولا يستطيعون إلا اللجوء إلى العنف السياسي للوصول إلى أهدافهم. وقد وجد تايلر وكويل (Taylor and Quayle) في مقابلاتهم لإرهابيين، أن القاسم المشترك بينهم هو الاعتقاد بأنهم في حالة دفاع عن النفس ضد عدو[17]، وبأنهم يشعرون بأن العنف ما هو إلا «الاستجابة الحتمية» لذلك التهديد الخارجي[18]. وربما يكون هؤلاء الأفراد قد وقعوا

---

(17) Maxwell Taylor and Ethel Quayle, *Terrorist Lives* (London and Washington DC: Brass Eys, 1994).

(18) المصدر نفسه، ص 90.

ضحايا للشق المعاكس من الخطأ الأساس في العزو؛ أي أنهم يبالغون في تقدير دور الظروف الخارجية في توجيه سلوكهم. ولعله من المعقول أن نفترض أن بعض الظروف لا تتيح لنا كثيرًا من الخيارات؛ ففي الأنظمة السياسية القامعة، بوجه خاص، قد يكون الإرهاب حقيقة هو المسار الوحيد المتاح لأولئك الذين يسعون إلى التغيير. فالمجتمعات القمعية تفتقر إلى الأبطال الرمزيين، ويبرز واحد كأسامة بن لادن ليكون نموذجًا أكثر جاذبية من أي شيء حوله، وتبدو طرائقه أكثر جاذبية من أي شيء متاح[19]. ويقدم بيورغو (Bjorgo) قائمة طويلة بالعوامل الموقفية التي تمثّل «الأسباب العميقة» للإرهاب، وتشمل[20]:

- الافتقار إلى الديمقراطية، والحريات المدنية وسيادة القانون
- فشل الدولة أو ضعفها
- تحديث البلاد بوتيرة سريعة
- ظهور أيديولوجيات متطرفة ذات طبيعة علمانية أو دينية
- سوابق تاريخية من العنف السياسي، أو الحروب الأهلية، أو الثورات، أو الدكتاتوريات، أو الفساد
- الهيمنة وعدم المساواة في القوة
- الحكومات الفاسدة أو غير الشرعية
- وجود قوى خارجية متنفذة داعمة للحكومات غير الشرعية
- التعرض لقمع الاحتلال الأجنبي أو القوى الكولونيالية
- التعرض للتمييز على أساس إثني أو ديني
- عدم استعداد الدولة لدمج الجماعات المتحدرة من أصول مختلفة أو دمج الطبقات الاجتماعية المنبثقة حديثًا
- التعرض للغبن الاجتماعي (أو عدم العدالة)

---

(19) Fareed Zakaria, *The Future of Freedom: Illiberal Democracy at Home and Abroad* (New York: W. W. Norton, 1993).

(20) Tore Bjorgo, ed., *Root Causes of Terrorism* (Oslo: Norwegian Institute of International Affairs, 2003), Quoted in: Horgan, *The Psychology of Terrorism*, p. 83.

- ظهور قادة كاريزماتيين مؤدلجين
- وقوع أحداث مثيرة تهيّىء للتطرف.

وبطبيعة الحال، لا بد من أن يكون لبعض هذه العوامل تأثير أكثر من غيرها. وكما أن النزعات لا تحكي قصة النشاط الإرهابي وحدها، كذلك فإن لأثر العوامل الموقفية حدودًا أيضًا. وإذا ما أخذنا العوامل الاقتصادية كمثال، يظهر جليًا أن هذه العوامل وحدها لا تقدم تفسيرًا كافيًا لأسباب لجوء بعض الناس إلى النشاط الإرهابي. فعلى سبيل المثال، تنتشر الوهابية الراديكالية؛ وهي طريقة متشددة من الطرق الإسلامية، والتي ينتمي إليها أسامة بن لادن في العربية السعودية الغنية بالنفط. وإذا كان الفقر هو السبب الرئيس وراء الإرهاب، فلمَ لم تُهاجَم الولايات المتحدة وغيرها من الدول الغربية من أفراد معوزين من جنوب الصحراء الأفريقية؟ ويقول فريد زكريا (Fareed Zakaria) بهذا الخصوص،

> إن الأرضية المولّدة للإرهاب هي التي شهدت أغزر تدفق للثروة عبر الثلاثين سنة الماضية. لقد كان خمسة عشر من خاطفي الطائرات الأربع في الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر والبالغ عددهم تسعة عشر، كانوا من العربية السعودية، أكبر الدول المصدرة للنفط في العالم، ويُستبعد، والحال هذه، أن يكون الفقر هو القابع في قلب غضبهم[21].

وفي حين أن بعض الجماعات الإرهابية تعاني ضائقات اقتصادية في طبيعتها، فإن هذا بالتأكيد ليس حال القاعدة، لأن اهتمامات قادتها اهتمامات دينية وسياسية بكل وضوح، لا اقتصادية. علاوة على ذلك، ما الذي يجعل أفرادًا بعينهم ممن يعانون ظروفًا اقتصادية صعبة يستجيبون لهذه الظروف بشكل عنيف، بينما يبدو آخرون متقبلين لها كجانب محتوم من جوانب مصيرهم؟

وبينما تعاني المنظمات الإرهابية جميعها قدرًا من المصاعب تستخدمها لتبرير عنفها السياسي وإسباغ الشرعية عليه، إلا أن بعض هذه الجماعات تتمكن من التغلب على معاناتها مع الوقت. ويفيد هورغان بهذا الشأن:

---

(21) Zakaria, Ibid., p. 137.

نحن نعرف أن الإرهاب كثيرًا ما يقوم على أساس من «مظالم حقيقية» أو متخيلة، وبغض النظر عما إذا كانت تلك المظالم قد وقعت في وقت أو آخر، فإن المنظمات الإرهابية تستطيع تغيير هوية هذه المظالم وطبيعتها بمهارة بالغة (لتجعلها تتناسب مع عهودها المعلنة)[22].

وتمثل قائمة المظالم (والمبررات تاليًا) التي ساقها أسامة بن لادن مثالًا جيدًا على هذه الحالة؛ فبينما أدعى في كلمته الأصلية والفورية على الفيديو أن وجود القوات الأميركة على أرض العربية السعودية يمثّل إهانة للإسلام، لم يؤدِّ انسحاب تلك القوات إلى تغيير ملحوظ في مواقف القاعدة المعلنة، أو في استراتيجياتها، وإنما قاد ذلك ببساطة إلى تركيز المنظمة على شكاوي أخرى ضد الولايات المتحدة. والنقطة الأوسع هنا هي أن الجماعات الإرهابية ليست كيانات سلبية تنبثق استجابة لعامل موقفي معين في المحيط؛ ولكنها كثيرًا ما تتغير وتتكيف حتى بعد زوال المظلمة، أو الشكوى الأصلية التي استخدمتها لتبرير وجودها.

نموذج «العملية» لهورغان

أخذ هورغان بتطوير نموذجه النظري لتفسير ظاهرة الإرهاب في ضوء نقاط الضعف التي تكتنف النظريات النزوعية، والمشكلات التي تُواجه الحجج الموقفية المبسطة [في سعيها لتفسير هذه الظاهرة]. ويعترف نموذج هورغان بإسهامات كلا المعسكرين، ويدعى إطاره النظري هذا بـ «نموذج العملية» (Process Model). ويؤكد هورغان أنه لا بد لنا من فهم المواقف التي تجعل أفرادًا معينين عرضة للاستجابة لها بالانضمام إلى جماعات إرهابية.

ويرى هورغان أن القوى الموقفية المتضمّنة في القائمة السابقة ما هي إلّا شروط مسبقة لظهور النشاط الإرهابي؛ وبعبارة أخرى، هي شروط ضرورية وإن لم تكن كافية لوقوع الإرهاب. ولكي يحدث الإرهاب لا بد لهذه العوامل الموقفية من أن تتفاعل مع نزعات معينة موجودة لدى الفرد. ويفيد هورغان

(22) Horgan, Ibid., p. 84.

أن «السعي لتحديد الأحداث الحافزة التي تعمل كعوامل «دفع» واضحة [تدفع نحو الإرهاب]، قد يكون سعيًا مضللًا... فقد يكون من الأجدى البحث عن الأسباب التي تجعل أفرادًا بعينهم يتأثرون بهذه الأحداث وتجعل خبرتهم فيها عاملًا حافزًا يزيد من انغماسهم في تلك الأحداث»[23].

ويعترف هورغان أن مهمة إيجاد تلك العوامل الفاعلة على المستوى الفردي مهمة صعبة، ويعترف أيضًا أننا نفتقر إلى بحوث تتعلق بكيفية تجنيد الإرهابيين، للوصول إلى إجابات قاطعة في هذه المسألة. وعلى الرغم من ذلك، يرى هورغان أن عملية التحول إلى الإرهاب عملية متدرجة في العادة، تتضمن سلسلة من الخطوات الصغيرة، وأن هناك عددًا من العوامل التي قد تكون حاسمة، على الأرجح، في هذه العملية. وتشمل هذه العوامل: حساسية الفرد للمكافآت الإيجابية التي يأتي بها انضمامه إلى جماعة إرهابية (فقد تحظى هذه العضوية بمكانة اجتماعية متميزة، والانتحاريون قد يحققون مكانة عظيمة بعد موتهم)؛ وقد تجلب مثل هذه العضوية رضًا مجتمعيًا وترابطًا أيديولوجيًا مع أفراد من عقلية مماثلة؛ وقد يدفع الاحترام لرموز الحركة إلى الانخراط في نشاط إرهابي؛ وقد تؤدي الضغوط المجتمعية، وحتى التجنيد الإلزامي، دورًا كذلك في دفع الفرد إلى الانضمام إلى الجماعة إرهابية؛ وقد يكون هناك تأثير لتشجيع الأشخاص المهمين في حياة الفرد، كالزوج أو الزوجة بوجه خاص، على الانضمام إلى مثل هذه الجماعات. وعلى الرغم من صعوبة تحديد ما يجعل أفرادًا بعينهم أكثر قابلية من غيرهم للانضمام إلى جماعة إرهابية، فإن هورغان يرى أن الاعتقادات التي يحملها الفرد، وتنشئته الاجتماعية، وخبراته الحياتية، وإحساسه بعدم الرضا عن الحياة، وقدرته على تخيل أبدال أخرى لحياته، تؤدي جميعها دور في ذلك. وعلى أي حال، يبدو واضحًا أن علينا، من وجهة نظر هورغان، إعطاء ديناميات الجماعة، والضغوط الاجتماعية التي تقود أفرادًا بعينهم إلى الانضمام إلى منظمة إرهابية، حق قدرها، ويرى أننا بحاجة إلى فهم ما يجعل بعض الأفراد يأخذون هذا الطريق دون غيرهم فهمًا أفضل، لأن قدرتنا على الإجابة عن هذه الأسئلة ما زالت، مع الأسف، بدائية إلى حد ما.

---

(23) Horgan, Ibid., p. 88.

«سر» الإرهابي الانتحاري

ربما نستطيع تعريف الإرهاب الانتحاري من دون عناء، نسبيًا، على الرغم من اختلاف التعريفات الواردة في أدب الموضوع من حيث الاتساع. ومن التعريفات الواسعة للإرهاب الانتحاري، تعريف أمي بيدازر (Ami Pedahzur) الذي تذهب فيه إلى أن «الإرهاب الانتحاري يشمل أشكالًا متنوعة من الأفعال العنيفة يرتكبها أشخاص يعرفون حق المعرفة أن احتمال عودتهم بعد القيام بها قريب من الصفر»[24]. أما أسّاف مغادام (Assaf Moghadam) فيُعرّف الإرهاب الانتحاري تعريفًا إجرائيًا أكثر تحديدًا فيقول «إن نجاح الهجوم (في هذا النوع من الإرهاب) يعتمد على موت المهاجم»، ويلفت مغادام النظر إلى أن «مثل هذا التعريف يستبعد من النقاش الحالي كل هجوم يتوقع فيه المهاجم التعرض للموت أثناء الهجوم، من دون أن يكون موقِنًا ذلك»[25]. ومن حيث إن المعنى (أو التعريف) الثاني هو التعريف المتعارف عليه، فإنه سيكون التعريف الذي نتبناه هنا، على الرغم من أن القضايا الرئيسة [المتعلقة بالموضوع] تبقى هي ذاتها على أي حال.

وعلى الرغم من وجود هذا التكتيك منذ أجل طويل في الواقع، فإن ممارسة التفجير الانتحاري تعدّ حديثة، وهناك اتفاق بوجه عام على أنه بدأ في أوائل الثمانينيات، وخصوصًا بعد تفجير السفارة الأميركية وثُكَن مشاة البحرية الأميركية في بيروت عام 1983. والدراسة الممنهجة لهذا الموضوع، كما هو حال دراسة الموضوع العام للإرهاب، تسير خطواتها الأولى في الحقيقة، ولدينا عددٌ من الكتب ظهرت في السنوات الأخيرة، والتي تتناول هذا الموضوع من زاوية نفسية، جزئيًا في الأقل[26]. كما ظهر عدد وافر من الأفلام الوثائقية عن هذا الموضوع،

---

(24) Ami Pedahzur, *Suicide Terrorism* (Malden, MA: Polity Press, 2005), p. 8.

(25) Assaf Moghadam, «The Roots of Suicide Terrorism: A Multi-Causal Approach,» in: Ami Pedahzur, ed., *Root Causes of Suicide Terrorism: The Globalization of Martyrdom* (New York: Routledge, 2006), p.82.

(26) للمزيد، انظر: Pedahzur, *Suicide Terrorism*; Robert Pape, *Dying To Win: The Strategic Logic of Suicide Terrorism* (New York: Random House, 2005); Mia Bloom, *Dying to Kill: The Allure of Suicide Terror* (New York: Columbia University Press, 2005); Diego Gambetta, ed., *Making Sense of Suicide Missions* (New York: Oxford University Press, 2005), and Pedahzur, ed., *Root Causes of Suicide Terrorism: The Globalization of Martyrdom.*

تحمل عناوين من مثل: «زمرة التفجير الانتحاري» و«داخل عقل المفجر الانتحاري»، و«القتلة الانتحاريون»، تحاول جميعها سبر الأسباب المركزية لهذه الظاهرة (وإن كانت تحقق في مهمتها هذه درجات متفاوتة من النجاح).

يُفنّد روبرت بيب (Robert Pape) القول بوجود علاقة وثيقة بين الإرهاب الانتحاري والإسلامية المتطرفة، وهي الفكرة التي خرجت تلقائيًا بعد 11/ 9. وعلى الرغم من أن القاعدة هي واحدة من الجماعات التي مارست، ولا تزال تمارس وسائل الرعب الانتحاري، فإن بيب - الذي قام بإنشاء قاعدة بيانات للهجمات الانتحارية التي وقعت من 1980 إلى 2003، وبلغ عددها 315 - يفيد أن معظم هذه الهجمات (تاريخيًا في الأقل) كانت مستوحاة علمانيًا وليس دينيًا. إذ يقول بيب بهذا الشأن:

> تشير البيانات إلى أن العلاقة بين الإرهاب الانتحاري والأصولية الإسلامية، أو أي مذهب ديني من العالم علاقة محدودة. والحقيقة أن قادة الهجمات الانتحارية هم نمور التاميل في سريلانكا، وهم جماعة ماركسية ينتمي أعضاءها إلى عائلات هندوسية، ولكنهم معادون للدين بشدة (...) غير أن ما تشترك فيه الهجمات الانتحارية جميعها هو هدف علماني، استراتيجي محدد، كدفع الدول الديمقراطية المتطورة إلى سحب قواتها العسكرية من مناطق يعتبرها الإرهابيون وطنهم. ونادرًا ما يكون الدين أصل القضية، على الرغم من أنه كثيرًا ما يُستخدم من جهة المنظمات الإرهابية كأداة لتجنيد الأعضاء، وغير ذلك من الجهود التي تبذلها المنظمات في خدمة أهدافها الاستراتيجية الأوسع[27].

كيف لنا والحال هذه أن نفسر شيوع هذه الممارسة؟ إن ظاهرة الإرهاب الانتحاري تُحْدث مشكلة للمنظورات النفسية التي أتينا على مناقشتها في هذا الكتاب جميعها. فقتل النفس من أجل قضية يبدو خارج حدود المعقول، ولكن هذه الظاهرة تُحْدث مشكلة بنوع خاص لاثنين من المنظورات النفسية - البيوسياسية على وجه الخصوص. أولًا، تواجه المنظورات البيوسياسية التي تركز على ما يشير إليه ريتشارد دوكنز بـ «الجين الأناني» مشكلات خاصة في تفسير

---

(27) Pape, Ibid., p. 4.

الإرهاب الانتحاري - وسنتناول هذه النظريات بقدر أكبر من التفصيل في الفصل القادم. أما رشتون (Rushton) الذي يأخذ بنظرية التشابه الجيني (Genetic Similarity Theory) والقائلة بأن إيثار الأفراد لذوي البناء الجيني المشابه لبنائهم إنما تطور للمحافظة على المخزون الجيني الخاص بهم، ويرى رشتون أنه قد تطور لدى البشر «وحدة معرفية/ إدراكية» للتضحية الإيثارية بالنفس التي تخدم مخزونهم الجيني. ويمكن النظر إلى التفجير الانتحاري كاستراتيجية لتعزيز الصلاحية الشاملة للبقاء [للمشابهين لهم جينيًا] على المدى الطويل وليس القصير»[28]. ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هو لمَ يقود الدافع التطوري لاستمرار الذرية إلى قرار تدمير البناء الجيني الخاص بالفرد (المنتحر) نفسه؟ ومن حيث إن الغرض الأساس لهذه الممارسة هو إرسال رسالة سياسية للخصم، فكيف يساعد قتل الآخرين على نقل المخزون الجيني الخاص بالفرد إلى الأجيال القادمة؟

وأما مارثا كرنشو (Martha Crenshaw)، الخبيرة المعروفة بقضايا الإرهاب، (والتي تتبنى منظور الإنسان الاقتصادي لتفسير الإرهاب)، فتشير إلى أن معظم السلوك الإرهابي يمكن تفسيره كأستجابة عقلية، ذرائعية للموقف الذي يواجهه الفرد، تقوم على تحليل للأرباح والتكاليف[29]. ولكن الإرهاب الانتحاري يمثل تحديًا قويًا لمنظور الإنسان الاقتصادي أو الخيار العقلاني هذا، فما الذي يجعل الفرد العقلاني الذي يسعى لتعظيم أرباحه [من وجهة نظرهم] يختار تدمير حياته بنفسه؟ ويتصدى محمد حافظ (Mohammed Hafez) لهذا المنظور، على سبيل المثال، فيبيّن محدودية التفسيرات العقلانية لهذه الظاهرة[30]. فمن الناحية الأولى يستطيع المرء، كما يفيد محمد حافظ، أن يجد أسبابًا معقولة تمامًا لاستخدام القاعدة، ونمور التاميل، لهذه الوسائل فالهجمات الانتحارية تمثّل «قنابل ذكية» غير مكلفة نسبيًا، ولكن هذه التفسيرات تصلح لتفسير «القرار العقلاني» للمنظمة الإرهابية لا لتفسير قرار الفرد [الذي يقوم بالعمل الإرهابي].

---

(28) J. Philippe Ruston, «Ethnic Nationalism, Evolutionary Psychology and Genetic Similarity Theory,» *Nations and Nationalism*, vol. 11, no. 4 (October 2005), p. 501.

(29) Martha Crenshaw, «The Logic of Terrorism: Terrorist Behavior as a Product of Strategic Choice,» in: Reich, ed., *Origins of Terrorism: Psychologies, Ideologies, Theologies, States of Mind.*

(30) Mohammed Hafez, «Dying To Be Martyrs: The Symbolic Dimension of Suicide Terrorism,» in: Pedahzur, ed., *Root Causes of Suicide Terrorism: The Globalization of Martyrdom*, pp. 56-60.

ومن ناحية أخرى، فإن هذا المنظور لا يبيّن سبب قبول أفراد معينين القيام بهذه الأعمال. والواقع أن نموذجات الإنسان العقلاني الكلاسيكية تفترض أن الأفراد سيختارون «السير في ركاب الجماعة إذا كانوا سيجنون الأرباح ذاتها سواء قاموا هم شخصيًا بالعمل أو لم يقوموا به (فإذا حققت الجماعة ربحًا بالعمل الإرهابي فإنه سيصل إلى الفرد شيء من هذا الربح، فلماذا يكون هو من يقوم بالإرهاب الانتحاري؟) وتؤكد مقاربة الإنسان الاقتصادي أن الأفراد سيختارون البديل الذي يحقق القدر الأكبر من الفائدة لهم نسبة إلى التكاليف، ولكن أرباح المنظمة لن تكون كافية للفرد، إذ لا بد من أن تفوق الأرباح الشخصية للعملية الانتحارية تكاليف «الشهادة» في نظر الفرد.

ولعل واحدًا من سبُل الخروج من هذه الأحجية يكون بافتراض أن حياة الفرد لن تنتهي بموته في حقيقة الأمر، وأن هناك أرباحًا سماوية تفوق التكاليف (الدنيوية) في نهاية المطاف. وهذا يصدق طبعًا، على من يحملون هذه الاعتقادات، ولكننا نعرف اليوم أن معظم الإرهابيين الانتحاريين لا يحملونها. ومن ناحية أخرى، يبدو أن هذا ينطبق على المتدينين الراديكاليين، الأمر الذي يضع مبدأ العقلانية برمته موضع تساؤل [وهو المنطلق الأساس لمنظور الإنسان الاقتصادي هذا]. وإذا كنا نستطيع الاحتفاظ بالجانب الذرائعي من العقلانية، فإن ذلك سيشمل، على نحو ما، أي شيء عقلاني يعتقده الفرد. وعليه فإن ذبح هتلر لليهود يمكن اعتباره عملًا «عقلانيًا» بالمعنى الذرائعي، لأنه يخدم نظام اعتقادات هتلر؛ فبناءً على طريقته في التفكير، فإن أرباح ذلك العمل [أي ذبح اليهود] تفوق خسائره إلى حد كبير. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو، كيف يمكن لمخلوق، يُفترض أنه عاقل، أن يقوم الأرباح والخسائر بهذه الطريقة العجيبة (؟!) سؤال قد يكون المنظور الوحيد القادر على إعطاء إجابة ما بشأنه هو منظور الإنسان النفساني.

وسبيل آخر للخروج من المشكلة، من وجهة نظر محمد حافظ، يكون في تحويل الفوائد التي تُجنى لأفراد العائلة: إذ إن عائلة المنتحر قد تنال فوائد مالية ومكانة اجتماعية، إضافة إلى مكانة الفرد الخاصة كشهيد بعد موته؛ هذه الفوائد في مجملها تفوق التكاليف، بناء على [الحسابات القائمة على هذا البديل]. ولكن هذا البديل [وحساباته] يهمل التكاليف البالغة التي قد تُفرض على عائلة

الشهيد بعد الهجوم الانتحاري. ويستدرك حافظ عند هذه النقطة ويقول، لكن دافع الشهادة للانتحاريين الإسلاميين، على سبيل المثال، يجب أن يكون نقيًا، من أي اعتبارات مادية أو اعتبارات الشهرة بعد الموت، وإلا فإنه يكون ببساطة مجرد انتحار، يُعاقَب فاعله باللعنة الأبدية.

ويظل هناك نقد أبلغ لهذا المنظور، يعكس وجهة النظر التي تبنيناها على الدوام في هذا الكتاب، والذي يتمثل في أن الدليل على أن الناس يجرون حسابات تفصيلية للأرباح والخسائر في أي مجال من مجالات السلوك السياسي دليل غير قاطع. ويبدو أن الاحتمال الأقوى، كما يفيد حافظ، هو أن التفسيرات الثقافية، والرمزية، والدينية أكثر جدوى لفهم هذا الشكل من السلوك، والاحتمال الآخر هو أن الرغبة في إزالة القوى العسكرية الأجنبية (التي يشدد عليها بيب)، بحد ذاتها، هي الدافع الحاسم. وإذا سلّمنا جدلًا بأن الناس يقومون فعلًا بحساب الأرباح والخسائر، فإن هذا الافتراض يثير قضية أخرى مهمة تتعلق بكيفية وصول الأفراد إلى الاعتقادات [أو القواعد] التي يبنون عليها حساباتهم. وإضافة إلى ذلك، فإن النظريات المعرفية، والنظريات العاطفية، المبنية على المعرفة بطرائق تفكير البشر [من حيث إنها تعتمد على الدراسة العلمية لهذه الطرائق] يمكن أن تطرح تفسيرات أكثر فائدة، على الأرجح.

وإذا قصرت هاتان المقاربتان عن تفسير الإرهاب الانتحاري، فما الذي يفسر هذه الظاهرة؟ علينا هنا أن نتجنب، كما هو الحال في موضوع الإرهاب عامة، التفسيرات النزوعية المبسطة التي تعزو سلوك الإرهاب الانتحاري إلى السيكوباثية أو غير ذلك من السمات الشخصية. ولعل الإطار الذي طوره أسّاف مغادام يمثل أفضل المنظورات وأكثرها شمولًا، لفهم الإرهاب حتى هذا التاريخ[31]. ويؤكد مغادام أن تفسير الإرهاب الانتحاري تفسيرًا وافيًا، يتطلب المقاربة سببية متعددة المستويات (a multi-causal approach)، من حيث إن أي هجوم انتحاري يكون نتيجة لثلاث مستويات من المتغيرات: المستوى الفردي، ومستوى المنظمة، ومستوى البيئة[32].

---

(31) Moghadam, «The Roots of Suicide Terrorism: A Multi-Causal Approach».

(32) المصدر نفسه، ص 83.

أما المستوى **الأول** فيمثل العوامل النزوعية، وأما المستوى الثاني فيمثل العوامل الموقفية، وأما المستوى الثالث فيمثل القوى الموقفية الأبعد: الاجتماعية - الثقافية، والاقتصادية، والسياسية. وبدءًا بالمستوى الفردي، يرى مغادام أن معظم المفجرين الانتحاريين يحملون عددًا من الدوافع لسلوكهم الإرهابي، على الأرجح. وبينما شدد بعض المعلقين على سيكوباثية المفجرين الانتحاريين - في مقاربة مشابهة لتلك التي بدأنا بها هذا الفصل، حيث يرى فاميك فولكان، على سبيل المثال، أن التعرض للإهانة في الحياة المبكرة يؤدي إلى نشوء شخصيات مضطربة[33]. ويقف مغادام إلى جانب الإجماع الأكثر قبولاً في أدب الموضوع ويقول إن المفجرين الانتحاريين يكونون مدفوعين بانفعال الانتقام (بعد فقدان أحباء لهم أو بدافع النقمة على الظلم الاجتماعي) وهو ما ينطبق على المفجّرين الانتحاريين من الشيشان والفلسطينيين، بوجه خاص. أما في الحالات الدينية، فيكون الدافع إلى نيل الثواب في الحياة الآخرة أمرًا مهمًا، لكن ليس في الحالات العلمانية والتي بيّن بيب أنها الأكثر شيوعًا. وفي كثير من الأحيان، يكون الإحساس بالواجب عاملًا محركًا؛ حيث يفيد حافظ أن التفجير الانتحاري قد ينجم عن «إحساس بالواجب تجاه القيم الخاصة للفرد، أو تجاه العائلة، أو الأصدقاء، أو المجتمع، أو الدين، وقد يُنظر إلى التقاعس عن الفعل كخيانة للمثل العليا، أو الأحبة، أو البلاد، أو خيانة لله، أو لقيمة الرجولة»[34].

ومثل هذه الدوافع والإدراكات من لا بد أن تأتي من مكان ما، ويبدو واضحًا أنها في حالة التفجير الانتحاري تأتي من الظروف الموقفية الأوسع. ووفقًا لمغادام، «نادرًا ما يقوم فرد بعمل إرهابي على عاتقه، وإنما يتم القيام بالعمل الإرهابي من أفراد ينتمون إلى منظمات، أو جماعات، أو خلايا تابعة لشبكة أوسع»[35]. فالمفجر الانتحاري يحتاج إلى خبرة تقنية، ومساعدة مالية، ودعم اجتماعي، ومساعدة في التخطيط، وما إلى ذلك. ويحتل المستوى التنظيمي المباشر أهمية كذلك، لأن دوافع المنظمة ودوافع الفرد قد تختلف،

(33) Vamik D. Volkan, «September 11 and Societal Aggression,» *Group Analysis*, vol. 35 (2002), pp. 456-483.

(34) Mohammed H. Hafez, *Manufacturing Human Bombs: The Making of Palestinian Suicide Bombers* (Washington DC: United States Institute of Peace, 2005).

(35) Moghadam, «The Roots of Suicide Terrorism: A Multi-Causal Approach,» p. 93.

كما رأينا حتى الآن، وهي تختلف فعلًا. فقد تشعر المنظمات، وقادتها بأن الوسائل الانتحارية غير مكلفة، أو أنهم قد يتبنونها لأن غيرها قد فشل، أو لأنها تعزز قوة المنظمة وتزيد حضورها، أو لأن الهجمات الانتحارية تلقى اهتمامًا إعلاميًا على مستوى وسائل الإعلام العالمية مثل الـ سي إن إن (CNN)، فتجتذب قضية الجماعة اهتمام العالم، ولعل هذا هو السبب الأهم[36].

وأخيرًا، يأتي المستوى البيئي الذي يُهيِّىء الشروط المولدة للإرهاب، بما في ذلك النوع الانتحاري منه (انظر القائمة التي وضعها تور بيورغو والواردة في أعلاه للتعرف إلى مدى تنوع هذه العوامل). ويفيد مغادام أن تأثير القوى التاريخية، والاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية المحيطة يتباين بتباين الموقف، ولكن هناك ميل إلى المبالغة في تأثير العوامل الاقتصادية، كما أشرنا. كذلك فإن تأثير الإطار السياسي قد يختلف من حالة إلى أخرى؛ فلم تُخرج الدول الفقيرة جميعها فيالق من الإرهابيين، و«ليس كل المجتمعات التي خضعت للاحتلال أنتجت مفجرين انتحاريين، وإلا فإن علينا أن نضيف التيبيتيين، والكوزوفيين، والكمبوديين وغيرها من الجماعات المحتلّة أو التي احتلت حديثًا إلى قائمة المفجرين الانتحاريين»[37]. وبالمقابل، هناك عوامل ثقافية ودينية قد تمنع التفجير الانتحاري، الأمر الذي لم يلقَ الاهتمام الكافي من معظم المعلقين. فالرهبان البوذيين في جنوب فيتنام أشتهروا بالاحتجاج على حكم نو دنه ديام القمعي بحرق أنفسهم حتى الموت، وهو احتجاج رمزي يتجنب فاعله - عن قصد - تعريض الآخرين للموت. ومع ذلك، فإنه من الواضح في كثير من الحالات أن الإطار الديني والسياسي يؤدي بشكل مباشر إلى ظهور الصراع الاجتماعي، والذي يؤدي بدوره إلى الإرهاب الانتحاري، كما هو الحال في الضفة الغربية والشيشان. ويفيد مغادام، أن العامل المشترك بين جميع المناطق والأمم التي يُمارس فيها التفجير الانتحاري يتمثل في وجود «ثقافة الشهادة»، والتي تشير إلى «منظومة من الأعراف الاجتماعية تسمح أو تشجع قتل الإنسان لنفسه كعمل نبيل، أو شجاع، أو بطولي على نحو ما». غير أن

---

(36) «The Roots of Suicide Terrorism: A Multi-Causal Approach,» pp. 93-96.

(37) المصدر نفسه، ص 97.

القوى الموقفية، كما هو حال القوى النزوعية، لا تستطيع تفسير الإرهاب الانتحاري وحدها، وتتمثل مساهمة مغادام العظيمة هذه في تأكيده أن الإرهاب الانتحاري ينتج من تفاعل هذين النوعين من القوى.

خاتمة

هناك إجماع عام الآن على أن الإرهابيين - حتى أولئك الذين يقتلون أنفسهم من أجل قضيتهم - هم أفراد أسوياء وليسوا نفسيًا سيكوباثيين[38]. إضافة إلى ذلك، أدت سيطرة المقاربات التابعة للتحليل النفسي على دراسة الإرهاب إلى ظهور دراسات كأنها تنتمي إلى عصر آخر من عصور العلوم الاجتماعية، لأنها تركز على «شذوذ» الإرهابي، من جهة، ولأنها تعاني قصورًا على الصعيدين المنهجي، والنظري من جهة أخرى[39]. وكما يفيد سيلك (Silke) «كل ما يستطيع علماء النفس قوله بثقة بعد ثلاثين سنة من البحث في الإرهاب هو أن أبرز خصائص الإرهابيين أنهم أسوياء»[40]. ولكن الخطوة المنطقية اللاحقة، تتمثل في تطبيق النموذجات المستخدمة سابقًا لفهم سلوك الأفراد الأسوياء على السلوك الإرهابي لكي يتسنى لنا فهم هذا السلوك فهمًا أفضل، وهو ما لم يجر الأخذ به حتى الآن في أدب الموضوع. وكما تفيد مارثا كرنشو (Martha Crenshaw)، «إن استخدام علم النفس المعرفي والأطر النظرية المفسّرة لمعالجة المعلومات يمكن أن تزودنا استبصارات غنية في السلوك السياسي، بما في ذلك سلوك الإرهاب»[41]. وبعبارة أخرى، لا يزال المجال واسعًا أمامنا لتطبيق استبصارات مقاربة الإنسان النفساني في دراسة سيكولوجية الإرهاب.

---

(38) Martha Crenshaw, «The Causes of Terrorism,» *Comparative Politics*, vol. 13, no. 4 (July 1981), pp. 379-399, and Silke, «Becoming a Terrorist».

(39) حول هذه النقطة، انظر: Maxwell Taylor, *The Terrorist* (New York: Brasseys, 1988), p. 140.

(40) Andrew Silke, «An Introduction to Terrorism Research,» in: Andrew Silke, ed., *Research on Terrorism: Trends, Achievements and Failures* (London: Frank Cass, 2004), p. 1.

(41) Martha Crenshaw, «Questions to be Answered, Research to be Done, Knowledge to be Applied,» in: Reich, ed., *Origins of Terrorism: Psychologies, Ideologies, Theologies, States of Mind*, p. 259.

لمحاولة القيام بذلك في حالة احتجاز الرهائن، انظر: David Patrick Houghton, «Explaining the Origins of the Iran Hostage Crisis: A Cognitive Perspective,» *Terrorism and Political Violence*, vol. 18, no. 2 (2006), pp. 259-279.

16

علم نفس العلاقات الدولية

لعلنا لا نجانب الحقيقة إذا قلنا إن إهمال العوامل السيكولوجية في دراسة العلاقات الدولية قد أعاق هذه الدراسة. ووفقًا لجيمس غولدغييه (James Goldgeier):

> إن واحدًا من المعيقات الرئيسية التي تعيق ميدان العلاقات الدولية والسياسة الخارجية من تطوير التفسيرات والتنبؤات، يتمثل في تقاعس كثير من الأكاديميين في هذا الميدان عن النظر بجدية إلى الدور الذي تلعبه العوامل النفسية في صنع القرارات الفردية، وفي العلاقات بين الدول. ويُعطي البحث في هذين المجالين الدليل على وجود تحيزات ممنهجة، وشائعة تعود إلى محددات معرفية وحاجات انفعالية لدى متخذي القرارات. وستظل الألغاز الكبرى من دون حل إذا لم نقم بدمج الاستبصارات النفسية في الأطر التحليلية التي نستخدمها لحل هذه الألغاز[1].

وتمثّل دراسة الجوانب النفسية للعلاقات الدولية جزءًا مكملًا لدراسة هذا الموضوع لأسباب عدة ليس أقلها أن التفسيرات الموقفية للعلاقات الدولية تظل محدودة[2]. وليس صحيحًا، في الوقت ذاته، أن حقل العلاقات الدولية قد

(1) James Goldgeier, «Psychology and Security,» *Security Studies*, vol. 6, no. 4 (1997), pp. 137-166.

(2) Ole R. Holsti, «The Political Psychology of International Politics: More than A Luxury,» = *Political Psychology*, vol. 10, no. 3 (September 1989), pp. 495-500.

أهمل علم النفس إهمالًا تامًا. فقد رأينا حتى الآن (تحت عناوين مختلفة، وفي فصول مختلفة) بعض البحوث التي أجريت عن سيكولوجية صنع القرارات في السياسة الخارجية، بما فيها البحوث المتعلقة بنظم الاعتقاد، وقياس التمثيل/ المماثلة (Analogical Reasoning) [لدى صنّاع القرار في السياسة الخارجية]. وسنتناول في هذا الفصل بشيء من التفصيل، بعض الأعمال الكلاسيكية التي أُجريت في حقل العلاقات الدولية من زاوية سيكولوجية، بما في ذلك أعمال روبرت جيرفيز (Robert Jervis) وريتشارد ند ليبو (Richard Ned Lebow). كما سننظر في مجموعة ممثلة لأكثر البحوث ابتكارية في مجال علم نفس العلاقات الدولية، قام بها ثلاثة من الباحثين الشباب، ممن يحظون بتقدير متزايد في هذا المجال، هم: جاك هايمانز (Jacques Hymans) وروز مكديرموت (Rose McDermott) وجوناثان ميرسر (Johnathan Mercer)، ثم نختتم هذا الفصل بإلقاء نظرة إلى بحوث رالف وايت (Ralf White) في التعاطف (Empathy) التي تنطوي على تصحيح فقير لما وصفناه في الفصل التاسع على أنه الخطأ الأساس في العزو (the fundamental attribution error).

وتقوم إسهامات ميرسر ومكديرموت، بوجه خاص، على نظرية العزو (Attribution Theory) التي ستزودنا كذلك سندًا مفيدًا لهذا الفصل لأسباب عدة - ليس أقلها أنها تركز على العوامل الموقفية والعوامل النزوعية على حد سواء - وسيتبين لنا أن الدارسين للعلاقات الدولية من الأكاديميين قد بالغوا في الاعتماد على الموقفية في تفسير السلوك، في حين أن العاملين في السياسة، أو صنّاع القرار، بالغوا في التقليل من شأنها. وبعبارة أخرى، بينما اتجه معظم منظرو العلاقات الدولية إلى إهمال النزعات النفسية للاعبين السياسيين - لأنهم عدّوا مثل هذه التفسيرات في العادة [أي التفسيرات التي تدور حول النزعات النفسية] تفسيرات مشوشة، أو لأنها قد تسلب نموذجهم النظرية قيمتها التنبؤية - أو لهذين السببين معًا، وبالمقابل اتجه معظم صنّاع السياسات، إلى التقليل من أهمية

= المصطلح الأكثر شيوعًا في مجال العلاقات الدولية هو «البنيوي» وليس «الموقفي»، ولكنهما يشيران إلى الظاهرة ذاتها، على الرغم من أن الموقفية تشمل أكثر من البنية الخاصة بالنظام الدولي.

المواقف على سلوك الخصم، وكيف أنها قد ترغمه على القيام بأفعال أو التعبير عن آراء، لا تعكس حقيقة نزعاته، أو قِيَمِه، أو تفضيلاته.

الموقفية ونظرية العلاقات الدولية

يعتمد العديد من النظريات القائمة في مجال العلاقات الدولية [منهج] التحليل على مستوى النظام (the systemic level of analysis). وفي حين أن المجال لا يتسع هنا لتقديم عرضٍ شامل لتلك النظريات - من حيث إن ذلك العرض قد يأخذ، وهو قد أخذ فعلًا، مساحة كتاب قائم بذاته[3] - إلا أننا نستطيع القول بكل تأكيد أن نظريات الواقعية الحديثة، (neorealism)، والليبرالية الحديثة (neoliberalism)، والنظم العالمية (world systems)، والاعتمادية (dependency theory)، وصيغة ألكسندر وندت (Alexander Wendt) من البنائية (constructivism)، تعمل جميعها على مستوى النظام هذا. وتمثل نظريات العلاقات الدولية هذه جميعها صيغًا متشددة من صيغ المقاربة الموقفية - وينطبق هذا بوجه خاص على الواقعية الحديثة التي أنشأها كينيث والتز (Kenneth Waltz). وسنستخدم الواقعية الحديثة هنا كمثال، لأنها تمثل ما يمكن تسميته الموقفية المفرطة (hyper-situationism)، في العديد من النواحي، على الرغم من أن كثيرًا من النقاط التي سترد بشأنها تنطبق كذلك على النظريات الأخرى المذكورة في أعلاه. كما أن وصف ما تتضمنه الواقعية الحديثة سيجعل ما نعنيه بمقاربة مستوى النظام (systemic level) في السياسة الدولية أكثر وضوحًا.

ويؤكد الواقعيون المحدثون أن الخصائص الخاصة للدولة - بما في ذلك خصائص قادتها، ووضعها السياسي الداخلي - وما إذا كانت ديمقراطية أو دكتاتورية - ليس لها أثر يذكر في تحديد ما يجري على صعيد سياستها الدولية، لأن «الموقف يحدد كل شيء»، أي وضعها الدولي[4]. والمحدّد الرئيس لسلوك

---

(3) للمزيد، انظر: Scott Burchill [et al.], *Theories of International Relations*, 2nd ed. (New York: Palgrave Macmillan, 2001), and Paul Viotti and Mark Kauppi, *International Relations Theory: Realism, Pluralism, Globahsm, and Beyond*, 3rd ed. (New York: Prentice Hall, 1998).

(4) Kenneth Waltz, *Theory of International Politics* (Reading, MA: Addison Wesley, 1979).
للمقارنة بين منظور الواقعية المحدثة والمنظور السيكولوجي للعلاقات الدولية، انظر: Brian Ripley, «Psychology, Foreign Policy, and International Relations Theory,» *Political Psychology*, vol. 14, no. 3 (September 1993), pp. 403-416.

الدولة في النظام الدولي هو موقعها داخل هذا النظام. وتخلص الواقعية الحديثة، على سبيل المثال، إلى أن جميع القوى العظمى متشابهة، من حيث أنها تميل إلى السلوك بالطريقة ذاتها، كما تفعل الدول المتوسطة القوة والدول ذات القوة الضعيفة (middle-range and weak powers). ومع أن هذا الرأي لا يبدو راديكاليًا إلى حد بعيد، إلا أنه قد يحمل منطويات راديكالية عندما تفكر فيه. فإذا نظرنا إلى الفكرة القائلة بأن «القوى العظمى هي القوى العظمى»، فإن ذلك يعني أن الحرب الباردة كان لا بد من أن تقع حتى لو كانت القوتان العظميان بعد الجرب العالمية الثانية هما الولايات المتحدة وفرنسا، أو الولايات المتحدة وكندا. فبناء على وجهة نظر الواقعيين المحدثين، تكون المنافسة الشديدة بين القوتين العظميين متوقعة حتى لو لم يكن التنافس الأيديولوجي بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي قائمًا، لأن السياسة الدولية لا تتعلق بالأفكار، وإنما هي كفاح من أجل الأمن القومي للدولة قبل كل شيء.

وما يفسر مجريات السياسة الدولية، من وجهة نظر الواقعيين المحدثين، ليس البنية المحلية للدول أو الخصائص النفسية للأفراد الذين يقودونها (لأن «الدولة هي الدولة» كما يرونها، والدول جميعها تحمل أهدافًا متشابهة)، وإنما عدد القوى الكائنة في النظام الدولي. ويميز الواقعيون المحدثون بوجه خاص بين النظم الثنائية القطبية (a bipolar system) والنظم المتعددة القطبية (multipolar system)، أي بين نظم يكون فيها قوتان مسيطرتان ونظم يكون فيها أكثر من قوتين (أو ثلاث أو أربع أو خمس قوى مثلًا) ذات نفوذ. ويرى أنصار هذه النظرية، من مثل جون ميرشايمر (John Mearsheimer)، أن النظام المتعدد القطبية خطير ويُهيِّىء لإنتاج صراع بين الدول، في حين أن النظام الثنائي القطبية أكثر استقرارًا، واحتمال نشوب الحرب في ظله أقل جدًا. ولهذا السبب، تنبأ ميرشايمر (Mearsheimer) في التسعينيات أننا قد «نفتقد الحرب الباردة قريبًا»، حيث رأى أن وجود قوتان عظميان في النظام العالمي في خلال تلك الحقبة قاد إلى استقرار دولي[5].

(5) John J. Mearsheimer, «Back To The Future: Instability in Europe after the Cold War,» *International Security*, vol. 15, no. 1 (Summer 1990), pp. 5-56.

للاطلاع على صيغة أقصر وأكثر مقروئية، انظر: John Mearsheimer, «Why We Will Soon Miss the Cold War,» *Atlantic Monthly*, vol. 266, no. 2 (1990), pp. 35-50.

وقد يجد القارئ أن نظرية والتز هذه [أي الواقعية الحديثة] نظرية مقنعة، وربما لا يجدها كذلك، ولكن النقطة التي نرغب الإلتفات إليها هي أن نظرية والتز - وغيرها من النظريات التي تبحث في السياسة الدولية على هذا المستوى الموقفي الغامض - لا تُبين كيف يتسنى للدول معرفة الأدوار التي يُفترض أن تقوم بها في النظام الدولي. وبالرجوع إلى نظرية ستانلي ملغرام في الطاعة نجد أنها توضح على وجه التحديد لماذا يذعن الناس للضغوط المحيطية، ولكن والتز - وفقًا لما ذهب إليه العديد من نقاد هذه النظرية - لا يقدم توضيحًا مناظرًا للأسباب التي تدعو الدول للإذعان لـ «الإشارات» الصادرة عن النظام الدولي، وبأي وسائل. وتشترك نظريات النظام في السياسة الدولية [نظرية والتز ومثيلاتها] في أنها تستحضر صيغة ما من مقاربة الإنسان الاقتصادي (Homo economicus) - فترى أن الدولة تدرك العالم من حولها إدراكًا عقلانيًا، صحيحًا، وتميز وضعها كدولة متوسطة القوة مثلًا، وأن عليها ألّا تتصرف كقوة عظمى. ولكن والتز ينكر أنه يضع مثل هذه الافتراضات، ويؤكد أن الدول التي لا تميز «دورها المناسب» في الحياة تتراجع أو تموت (وهذه الحجة تجلب الداروينية (Darwinism) وعلم النفس التطوري إلى الذهن، بطبيعة الحال). ويؤكد والتز ضرورة ملاحظة «أن النظرية لا تفترض العقلانية أو ثبات الإرادة لدى مؤدي الأدوار السياسية؛ فهي لا تقول سوى إن بعضهم يبلون بلاء حسنًا، وبعضهم الآخر يقتفون أثرهم أو يسقطون على قارعة الطريق»[6]. أما نظريات «مستوى النظام» الأخرى فإنها أكثر ميلًا إلى الافتراض أن الدولة تعمل كلاعب (سياسي) عقلاني (أما الليبرالية المحدثة التي يتبناها روبرت كيوهاين (Robert Keohane)، على سبيل المثال، فإنها تأخذ بافتراض العقلانية صراحة). غير أن مقاربة الاختيار الحر هذا تقبل فكرة أن الدولة وقادتها يمكن أن يسيئوا إدراك طبيعة الموقف الذي يواجهونه، كما أن والتز في حجته التطورية السابقة الذكر يفترض، ضمنيًا، أن الدول قد تخطئ في إدراك الموقف المحيط بها. ولكننا ما أن نسلّم بهذه النقطة حتى نجد أنفسنا نعود إلى المربع الأول، ذلك لأننا نُترك ونحن نتساءل: ما العوامل النفسية التي تؤدي بالدول وقادتها إلى إساءة إدراك الموقف الذي يُواجهونه؟

(6) Waltz, *Theory of International Politics*, p. 118, and Robert Keohane, ed., *Neorealism and its Critics* (New York: Columbia University Press, 1986).

ويشير مارتن هوليز وستيف سميث (Martin Hollis and Steve Smith) إلى أن الموقفية في العلاقات الدولية تأخذ أشكالًا متنوعة[7]، فكل ما هو فوق مستوى النزعات الفردية يكون موقفيًا. ويمكننا النظر إلى هذه الأنواع المختلفة من الموقفية كشيء مشابه لدمية روسية، يؤدي فتح جزء منها إلى جزء أصغر وهكذا... وبالمثل، عندما نفتح النظام الدولي نجد دولًا، وعندما نفتح الدولة نجد بيروقراطيات، وعندما نفتح البيروقراطيات نجد جماعات، فهذا الخط ينقلنا من مستوى موقفي إلى مستوى موقفي آخر. ولكننا حين نأخذ الجماعات بعين الاعتبار نصل عند ذلك إلى مستوى الأفراد والنزعات. وعندما ننتقل عبر سلّم التحليل من النظام الدولي إلى الأسفل نصل إلى أشكال أقل عمومية من المواقف التي تؤثر في السلوك؛ حيث نجد نظريات موقفية تركز على البيئة الاجتماعية، ونظريات تتعامل بشكل أكثر مباشرة مع المعيقات التنظيمية والبيروقراطية التي تؤثر في السلوك في السياسة الخارجية. وضمن الصنف الأخير من النظريات، كان لأعمال غراهام أليسون (Graham Allison) تأثيرًا مميزًا، وخصوصًا كتابة الكلاسيكي الذي ألّفه مع فيليب زيليكوف بعنوان جوهر القرار[8] (Essence of Decision). وفي معرض الحديث عن المستويات المختلفة للموقفية، لا بد من الاشارة إلى أن ضغوط الجماعة تُمثل مستوى موقفيًا آخر.

وعلى غرار والتز (Waltz)، يفسر أليسون سلوك القادة تفسيرًا موقفيًا متجاوزًا أي اعتبار سيكولوجي، ولكن التشابه بينهما ينتهي عند هذه النقطة. ويعتمد أليسون وزميله زيليكوف (Zelikow) تفسيرًا بيروقراطيًا للسياسة الدولية - يشار إليه غالبًا في أدب الموضوع بنظرية السياسة البيروقراطية (bureaucratic politics theory) - حيث ينظر أليسون وزميله إلى سلوك صنّاع القرار على أنه يتحدد في الغالب (وليس حصريًا) بالمواقع المعينة لهم داخل البيروقراطية. وتُعتبر مقولة «إن موقفك يعتمد على موقعك» - والتي تُنسب إلى رافوس مايلز ودون برايس (Rufus Miles and Don Price) - مقولة معبرة تمامًا عن وجهة النظر هذه. وبناء

---

(7) Martin Hollis and Steve Smith, *Explaining and Understanding International Relations* (New York: Oxford University Press, 1990).

(8) Graham Allison and Philip Zelikow, *Essence of Decision: Explaining the Cuban Missile Crisis*, 2nd ed. (New York: Longman, 1999).

على ذلك، فإن وجهات نظر أولئك الذين يحتلون مواقع بيروقراطية، تصطبغ إلى حد بعيد برؤية الكيانات البيروقراطية التي يعملون فيها ورسالتها. فوزراء الخارجية يدفعون باتجاه المفاوضات والدبلوماسية، مثلًا، لأن هذه هي مهمة وزارة الخارجية؛ أما وزراء الدفاع فيدفعون باتجاه الحلول العسكرية التقليدية، وفي الوقت ذاته يدعو ممثلو الـ سي آي إي (CIA) إلى القيام بعمليات سرية.

غير أن هذا الجانب من نموذج أليسون وزيليكوف لم يحظ بأدلة داعمة في السنوات الأخيرة، لأنه يُهمل قوة الاعتقادات القائمة لدى الأفراد الذين يحتلون المواقع البيروقراطية المختلفة، والشخصيات والقيم الأخرى التي يمتلكونها[9]. فعندما كان كولن باول رئيسًا لهيئة الأركان أثناء حرب الخليج الأولى، كان آخر المتمسكين بالرأي المعارض للتدخل الأميركي، بينما دافع دين راسك بحماس عن تصعيد التدخل الأميركي في فيتنام؛ وفي كلتا الحالتين كان الموقف الفلسفي (المعلن) يتعارض إلى حد كبير مع أدوارهما البيروقراطية (حيث كان كولن باول وزير دفاع، وكان دين راسك وزير خارجية). ويفيد كثير من النقاد أن الموقع البيروقراطي أو «الموقف» أقل دقة، كمتنبئ بالآراء المتصلة بالسياسة الخارجية، من نزعات القادة الشخصية. ولكن تنبؤات هذه المقاربة تصدق أحيانًا - فعلى الرغم من أن كولن باول كان يعارض غزو العراق عام 2003، ويؤكد ضرورة الاستمرار بالنهج الدبلوماسي (إلا أنه بدى داعمًا لقرار الحرب في ما بعد، مما يعطي دليلاً على صدق النظرية) - لكن ما يبدو دعمًا لقدرة النظرية على «تفسير» السلوك قد يأتي من قبيل المصادفة (أو ضغوط الواقع). وما يمكن أن نقوله بشأن كولن باول هو أنه ظل متحفظًا بشدة على قرار الحرب بغض النظر عن الموقع البيروقراطي الذي كان يحتله.

الأخطاء الإدراكية، الحارة والباردة

هناك عدد من الأعمال الكلاسيكية التي تتنافس، في تقدير بريان ربلي (Brian Ripley)، على موقع الريادة في مجال الدراسة النفسية للسياسة الدولية

(9) للمزيد، انظر: David Patrick Houghton, «Essence of Excision: A Critique of the New Version of Essence of Decision,» *Security Studies*, vol. 10, no. 1 (2000), pp. 162-191.

والسياسة الخارجية[10]. ويُعتبر كتاب صناعة القرار في السياسة الخارجية (*Foreign Policy Decision making*) لمؤلفيه سنايدر وبراك وسابن (Snyder, Bruck, and Sapin) المحاولة الأولى لتطبيق استبصارات علم النفس على العلاقات الدولية، وكانوا أول من قال بفكرة أن الأفراد يؤدون دورًا مهمًا في تكوّين القرارات المتعلقة بالسياسة الخارجية[11]. وبعد بضعة سنوات ظهر عمل كلاسيكي آخر لجوزيف دو ريفيرا (Joseph de Rivera) بعنوان الأبعاد السيكولوجية للسياسة الخارجية (*The Psychological Dimensions of Foreign Policy*)، طبق فيه المؤلف بعض استبصارات علم النفس الاجتماعي على تحليل السياسة الخارجية[12]. وعلى الرغم من كل ما تستحقه هذه الجهود المبكرة من اعتبار، فإن الباحث الذي بذل أكبر جهد لإقناع المتخصصين في العلاقات الدولية بأهمية الأخذ باستبصارات علم النفس في بحوثهم كان روبرت جيرفيز.

ففي كتابه الرائد الإدراك وسوء الإدراك في السياسة الدولية (*Perception and Misperception in International Politics*) – الذي نُشر بدايةً في منتصف السبعينيات – دفع روبرت جيرفيز علم النفس إلى موقع الصدارة في مجال العلاقات الدولية. وأستند أساسًا إلى نظرية التناسق المعرفي (cognitive consistence theory) ليسلط الضوء على دور القادة وخصائصهم في هذا المجال. وبدأ بحجة قوية مؤكدًا أن المنطلقات الموقفية لا تكفي لتفسير القرارات التي يصل إليها القادة – ولتفسير مجريات السياسة الدولية تبعًا لذلك – ومحللًا طرائق التفكير التي تؤدي بالقادة إلى سوء تفسير الإشارات التي يتعمّد القادة الآخرون إرسالها، والطرائق التي تعمل بها نزعات القادة على التأثير في عمليات صنع القرار لديهم.

لقد رأينا في ما سبق أن البشر يميلون إلى تفسير الأدلة على نحو ينسجم مع اعتقاداتهم القائمة، وإلى إهمال المعلومات التي لا تنسجم مع تلك الاعتقادات. ويطبق جيرفيز هذه الأفكار في مجال السياسة قائلًا:

---

(10) Ripley, «Psychology, Foreign Policy, and International Relations Theory,» p. 405.

(11) Richard Snyder, H. W. Bruck and Burton Sapin, eds., *Foreign Policy Decision - Making: An Approach to the Study of International Politics* (New York: Free Press, 1962).

(12) Joseph de Rivera, *The Psychological Dimension of Foreign Policy* (Columbus, OH: Charles Merrill, 1968).

هذا لا يعني أن رجل الدولة الذي رسم في ذهنه صورة معينة لدولة أخرى سيحتفظ بنظرته تلك عند مواجهة قدر كبير من المعلومات المخالفة لها، فحسب؛ ولكن ما يحمله في ذهنه من توقعات وقوانين عامة عن الصلات بين أوضاع الدول وخصائصها من جهة، ومقاصد سياستها الخارجية من جهة أخرى، [ستؤثر تلك التوقعات والقوانين العامة] على الصور التي تُرسم لديه عن الدول الأخرى [وعلى تفسيره لسلوك تلك الدول]. لذا، فإن الساسة الغربيين سيسارعون إلى رؤية دولة أخرى على أنها عدوانية إذا آلت مقاليد الحكم فيها إلى دكتاتور مما لو كانت ديمقراطية مستقرة[13].

ويعطي جيرفيز عددًا كبيرًا من الأمثلة على تأثير الاعتقادات المسبقة على إدراكنا للآخرين، وما يقومون به من أفعال. ويفيد أن توقعاتنا المسبقة تؤثر تأثيرًا حاسمًا في ما «نراه». مثال ذلك حادثة قصف البريطانيين لإحدى سفنهم الحربية (السفينة شيفيلد) خطأ في خلال الحرب العالمية الثانية[14]. والسبب في ذلك يعود إلى أنهم كانوا يتوقعون مواجهة السفينة الألمانية «بسمارك»، والتي كانوا في الواقع يبحثون عنها. والمثير للأسى، أن السفينتين لم تكونا متشابهتين، وكان فريق الطيارين على ألفة بالسفينة البريطانية، ولكن التوقع كان من القوة بحيث إنه أدّى إلى خطأ إدراكي كارثي (وتقف هذه الظاهرة السيكولوجية من دون شك وراء العديد من أحداث «النيران الصديقة» التي شهدناها في خلال حرب الخليج الأولى، وفي غزو الولايات المتحدة للعراق). كذلك فإن جيرفيز يسلط الضوء على التفكير المبني على المماثلة/ قياس المماثلة (Analogical Reasoning) وأهميته في استخلاص الدروس من الأحداث السياسية؛ كمؤتمر ميونيخ عام 1938 الذي جرى فيه استرضاء هتلر قبل الحرب العالمية الثانية، ويفيد جيرفيز بهذا الخصوص أن «الشيء الوحيد الذي له من الأهمية لأمة ما بقدر ما لثورتها من أهمية، هو الحرب الكبرى الأخيرة التي شهدتها تلك الأمة» [ذلك لأن تشدد هتلر - وخطأ استرضائه - يُردّ إلى الشروط القاسية التي وضعت على ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى][15].

(13) Robert Jervis, *Perception and Misperception in International Politics* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1976), p. 146.

(14) المصدر نفسه، ص 92.

(15) المصدر نفسه، ص 266.

وهناك دراسة أخرى نُشرت بعد بضع سنوات من كتاب جيرفيز الرائد هذا، قام بها ريتشارد ند ليبو تحت عنوان بين السلام والحرب[16]. ويلفت ليبو النظر في دراسته هذه إلى أن العوامل الدافعية والانفعالية «الحارة» تؤدي دورًا كبيرًا في توليد الأخطاء الإدراكية، وتتمثل هذه العوامل بالتفكير القائم على التمني (wishful thinking)، والشعور بالذنب، والخجل، والقلق. وقام ليبو بفحص ستة وعشرين أزمة، هي مواقف تصاعدت إلى أن وصلت إلى حرب، وحالات بدت فيها الحرب محتملة ولكن تم تداركها، وغطّت الأزمات المدروسة هذه فترة سبعين عامًا. وقد ركز ليبو خصوصًا على أزمة فاشودا (1898) (Fashoda)، وأزمة تموز/يوليو (1914)، وميونيخ (1938)، وكوريا (1950)، والخلاف الصيني - الهندي (1962)، وأزمة الصواريخ الكوبية (1962). ويسلط ليبو الضوء على العوامل المعرفية والدافعية التي تعيق التعلم السياسي - موازنًا بين الدافع النظري الذي يحرك عالِم السياسة، والهاجس إلى معرفة التفاصيل الذي يحرك المؤرخ، ثم يستخدم تلك الدراسات لوضع جدول تصنيفي بالأنماط المختلفة (a typology) للأزمات.

ويتمثل واحد من أنماط الأزمات التي تتطور إلى حرب، على سبيل المثال، في الحالة التي يواجه فيها القائد أزمة داخلية فيقوم بشن حرب [مع طرف خارجي] ليكسب الدعم الداخلي من خلال «تبرير العدوان» ويصف ليبو هذه الحالة (مبيّنًا ملابساتها)؛

> تنفرد أزمات تبرير العدوان في أن القائد الذي يبادر إلى الحرب يتخذ قرار الحرب قبل بدء الأزمة. ولا يكون هدف الأزمة فرض تسوية وإنما إحداث ذريعة للحرب. ويحاول صنّاع هذه الأزمات على الدوام جعل الخصم مسؤولًا عن الحرب. وهم يسعون من خلال ذلك إلى كسب الدعم لأنفسهم في الداخل والخارج وكف الدعم عن خصومهم[17].

---

(16) Richard Ned Lebow, *Between Peace and War: The Nature of International Crisis* (Baltimore, MD: The Johns Hopkins University Press, 1981).

(17) المصدر نفسه، ص 25.

بعض الابتكارات الحديثة

تناولنا في ما سبق بعض الأعمال المبتكرة في الدراسة النفسية لصنع القرارات في السياسة الخارجية التي ظهرت في مجالات المعرفة، والشخصية، وسلوك الجماعة، والقيادة بوجه عام، ويستطيع القارئ الرجوع في ذلك إلى الفصول من 6 إلى 10 بوجه خاص. ولا شك في أن محاولة تلخيص كل ما يمكن أن يندرج تحت هذا العنوان مهمة مستحيلة، غير أنني سأحاول هنا تناول ثلاث ابتكارات حديثة منها تتعلق بسيكولوجية الانتشار النووي (the psychology of nuclear proliferation)، وسيكولوجية المخاطرة (the psychology of risk taking)، وسيكولوجية الردع (the psychology of deterrence) على التوالي - لأنها تحظى، في تقدير المؤلف، بأهمية خاصة، ثم أختتم بتناول بعض الاستبصارات القديمة حول سيكولوجية العلاقات الدولية مما تجدد الاهتمام به حديثًا.

علم نفس الانتشار الذري

تُمثل خشية وصول السلاح النووي إلى الجماعات الإرهابية، وما يسمى بـ «الدول الشريرة»، واحدًا من دواعي القلق الرئيسة لصنّاع السياسة في حقبة ما بعد الحرب الباردة. وتمثل كوريا الشمالية (التي تمتلك الآن أسلحة نووية وفقًا لمعظم التقديرات) وإيران، دولتان باعثتان على القلق بشكل خاص لمعظم الساسة الغربيين، وللولايات المتحدة على وجه الخصوص. لكن الجانب الأكبر من الأدب المتصل بالانتشار الذري ظل معياريًا - فيدعو إلى «وجوب منع دولة معينة من تطوير قدرة نووية» - أو أنه كان تقنيًا في طبيعته. والسؤال الذي يبرز هنا هو: ما الذي يجعل بعض الدول تقرر السير في الطريق النووي في حين يُحجم غيرها عن هذا المسعى؟ ويبدو واضحًا هنا أن الموقفية وحدها لا تستطيع تفسير هذه الأحجية، من حيث إن التكنولوجيا النووية متاحة لدول كثيرة، لكن عددًا محدودًا منها فقط يقرر الوصول إلى هذه التكنولوجيا. والجواب تاليًا لا بد من أن يتعلق بنزعات تلك الدول ونزعات قادتها. وقد طور جاك هايمانز نظرية مثيرة للاهتمام تتصدى لحل هذه الأحجية، مستخدمًا الأدب السيكولوجي المتصل بالعلاقات الدولية، استخدامًا ابتكاريًا متقدمًا[18].

---

(18) Jacques Hymans, *The Psychology of Nuclear Proliferation: Identity, Emotions and Foreign Policy* (New York: Cambridge University Press, 2006).

ولتعليل مسعى بعض الدول لامتلاك القدرة النووية وعزوف بعضهم الآخر عن ذلك، طور هايمانز فكرة تدور حول عامل نزوعي خاص لدى القائد يتمثل في مفهوم الهوية القومية (national identity conception). وقد رأينا كيف استُخدمت نظرية الهوية الاجتماعية لتفسير النزاعات بين الجماعات (والتي يُنظر إلى الهوية الاجتماعية فيها كعامل مشترك بين أعضاء الجماعة)، غير أن مفهوم الهوية القومية هنا يمثّل عاملًا فرديًا يختلف من قائد إلى آخر؛ أي إن القادة المختلفين ضمن الدولة الواحدة قد يختلفون اختلافًا بيّنًا في مفاهيمهم بشأن أمتهم. وبعبارة أكثر تحديدًا، يشير مفهوم الهوية القومية إلى «مفهوم القائد لما تقف أمته من أجله في طبيعتها، وقيمة ما تقف من أجله مقارنة بغيرها من الأمم»[19]. ويحمل هايمانز مفهومه هذا قُدمًا ويميز بين بُعدين فيه: التماسك/ التضامن (solidarity)، والمكانة (status). وإذا ما أخذنا البُعد الأول نجد أن جميع القادة يميلون إلى النظر إلى دولتهم بمنظور «نحن مقابل الآخرين» - إلا أن بعضهم يذهب أكثر من غيره في هذا الاتجاه فيراه بصيغة التضاد أو التعارض (in oppositional terms)، بينما يتبنى آخرون ما يسميه هايمانز الهوية «المتسامية» («transcendent» identity). وهذه طريقة أخرى للقول إن بعض القادة يمتلكون إحساسًا بالإنسانية المشتركة، أو المصير المشترك مع الآخرين، في حين أن قادة آخرين لا يمتلكون هذا الإحساس. وبأخذ البُعد الثاني (المكانة) نجد أن بعض القادة يرون دولتهم أعلى مكانة، أو مساوية في المكانة للدول الأخرى، بينما نجد بعضهم الآخر يرى أن دولتهم «أدنى» مكانة، أو أنها تابعة لدول أخرى[20]. وإذا ما أخذنا هذين البعدين معًا فإننا نخرج بتصنيف رباعي أو جدول يتضمن 2×2 خلية (انظر الجدول (16-1) أدناه)، (والذي يشير إلى أنماط من القيادة الأربعة المشتقة من هذا التصنيف)[21].

ويفترض هايمانز أن الرغبة في تطوير القدرة النووية تظهر حصريًا لدى القادة القوميين التعارضيين (oppositional nationalists) أي أولئك الذين تجتمع

(19) *The Psychology of Nuclear Proliferation: Identity, Emotions and Foreign Policy*, p. 21.

(20) المصدر نفسه، ص 21-25.

(21) المصدر نفسه، ص 25.

لديهم نظرة التضاد المتشددة (إزاء الجماعات أو الدول الأخرى، أو من يحملون منظور «نحن» و«هم» بتشدد) مع نظرة التفوق القومي، أو تفوق الدولة. وقام هايمانز باختبار نظريته من خلال دراسة أربع حالات؛ اثنتان منها (فرنسا والهند) اتخذتا القرار بالسير في الطريق النووي، واثنتان (أستراليا والأرجنتين) قررتا بعد مداولات مطوّلة عدم السير في الطريق النووي. وكانت أستراليا قد بدأت في تطوير برنامج سلاح نووي قبل عام 1972 أثناء وجود جون غورتون (John Gorton) رئيسًا للوزراء، والذي يصفه هايمانز بـ «القومي التعارضي». وعندما تولى غوف وايتلام (Gough Whitlam) عام 1972 عَكَس الاستراتيجية النووية التي تبناها الرئيس السابق - ويرد هايمانز هذا القرار إلى قلة اهتمام وايتلام بالنيات الصينية بوجه عام، ويرده بالتحديد إلى اعتقاداته السيكولوجية كتابع ذي روح رياضية[22] (sportsmanlike subaltern).

الجدول (16-1)
بُعدا التضامن والمكانة

نحن ضدهم	نحن وهم	بُعد التضامن
قومي تعارضي	قومي ذو روح رياضية	بُعد المكانة نحن بطبيعتنا مساوون لهم إن لم نكن متفوقون عليهم
تابع تعارضي	تابع ذو روح رياضية	نحن بطبيعتنا أدنى منهم

المصدر: Jacques Hymand, *The Psychology of Nuclear Proliferation: Identity, Emotions and Foreign Policy* (New York:Cambride University Press, 2006), p. 25.

ليس هناك إطار نظري قادر على تفسير كل شيء، بطبيعة الحال، ولعل هناك حالات لم يفحصها هايمانز، لا تتفق مع حجته. غير أن جيرفيز يؤكد أن، «هذه الحجة تكتسب أهمية خاصة من حيث أنها تبيّن وأنها ليست «فرنسا» [كدولة] التي اختارت الطريق النووي، وأنها ليست «أستراليا» التي اختارت ذلك الطريق، بل إن قادة هذه الدول - الذين وقعوا في مواقع مختلفة من جدوله الرباعي - هم الذين حددوا هذه الخيارات، وإن حقيقة من هو الذي

(22) *The Psychology of Nuclear Proliferation: Identity, Emotions and Foreign Policy*, pp. 62-63.

يحتل موقع السلطة في أوقات حاسمة - وهو أمر يأتي بالصدفة غالبًا - هو الذي يحدد ما ستختاره الدولة. وهذا ليس إنكارًا لأهمية أوضاع الدولة وخصائصها العقلية والثقافية في تكوّين سياستها القومية، وإنما هو تأكيد أن هناك دائمًا مجالًا للاختيار الفردي في هذه السياسة[23].

كانت إدارة بوش في سنواتها الأخيرة قلقة قلقًا شديدًا من إمكان تطوير إيران قوة نووية وكانت هذه القضية واحدة من قضاياها الأكثر إلحاحًا. وكان الرئيس الإيراني أحمدي نجاد قد صرح بهذا الشأن مؤكدًا «إننا لن نتراجع قيد أنملة عن حقوقنا النووية (...) وإيران اليوم بلد نووي، والمعرفة النووية والعلم النووي موجودان الآن في عقول علمائنا»[24]. ولا شك في أن تطبيق نظرية هايمانز على الحالة الإيرانية مثير للاهتمام، وقد أخضعها تيد رينولدز (Ted Reynolds) للاختبار في مقالة مشوّقة[25]. ولكن رينولدز يعترف في مقالته هذه أن نموذج هايمانز يصعب تطبيقه «في الحالات التي يكون قرار الانتشار الذري فيها موزعًا (وليس مرتكزًا إلى شخص واحد)، أو عندما لا يتوافر [للباحث] بيانات عن البروفايل النفسي للقائد [أي توليفة خصائصه النفسية] أو تكون مثل هذه المعلومات محجوبة نتيجة للطبيعة المغلقة لجهاز الدولة». كذلك لفت رينولدز النظر إلى صعوبة تطبيق نظرية هايمانز في الحالات التي يكون فيها قرار الانتشار الذري بيد منظمة وليس دولة، كالقاعدة وغيرها من المنظمات الإرهابية. ويفيد رينولدز أن زعيما كوريا الشمالية كيم إيل سونغ (Kim Il Sung) وكيم يونغ إيل (Kim Young Il) كلاهما يبدو قوميًا تعارضيًا عند التمعّن في خطاباتهما العامة، على غرار أحمدي نجاد، حيث إنهم ينتمون جميعًا للفئة نفسها من القادة، على الرغم من أنه ليس واضحًا ما إذا كانت الخطب العامة التي استند إليها رينولدز في حالة الزعيمين الكوريين مجرد دعاية، وما إذا كان أحمدي نجاد هو القائم فعليًا على السياسة النووية في بلاده. وعلى الرغم من ذلك، فإن نموذج هايمانز

---

(23) Robert Jervis, «Review of the Psychology of Nuclear Proliferation,» *Political Psychology*, vol. 28 (2007), pp. 269-272.

(24) «Iran Says More UN Steps Won't Stop Its Nuclear Work,» Reuters (3 June 2007).

(25) Ted Reynolds, «Understanding Nuclear Weapons Proliferation,» Unpublished Manuscript.

يصنفهم جميعًا كقوميين تعارضيين ولا يصنفهم في أي من الفئات الثلاث الأخرى، ويتنبأ النموذج أن برامجهم الذرية ستنمو وتتسع. وتضيف مقاربة هايمانز شيئًا جديدًا ومهمًا لفهمنا للقومية، يتعلق أساسًا بدور القادة ومفاهيمهم المتعلقة بالهوية القومية، وهو موضوع ناقشناه في الفصل الثالث عشر وتناولناه كمفهوم ينطبق على مستوى الجماعة أو المجتمع لا على مستوى الفرد.

علم نفس المخاطرة

متى يُخاطر القادة في السياسة الدولية؟ وهل المخاطرة أمر يتعلق بالشخصية، وما إذا كان لدى الشخص ميل إلى المقامرة، أم هو أمر يعود أساسًا إلى طبيعة الموقف الذي يواجهه القائد؟ أم هو يتعلق بكيف يُدرك الشخص الموقف الذي يواجهه؟ لقد أخذت روز مكديرموت (Rose McDermott) موقع الريادة في تطبيق نظرية المرتقب (Prospect Theory) – التي طورها دانيال كانمان وعاموس تفيرسكي (Daniel Kahneman and Amos Tversky) في أواخر السبعينيات – والتي تقدم إجابة مثيرة للاهتمام عن هذه الأسئلة. وتفترض هذه النظرية أن الإطار الذهني الذي نُدرك الموقف من خلاله يؤثر إلى حد بعيد على جاذبية البُدَلاء المختلفة التي يأخذها صنّاع القرار في السياسة الخارجية بالاعتبار[26]. وعلى وجه التحديد، ترى النظرية أننا إما أن نرى أنفسنا نعمل في «وضع خاسر» وإما نرى أنفسنا نعمل في «وضع رابح»، وهذا الإدراك للموقف المحيط بنا يحدد درجة استعدادنا للمخاطرة. فإذا رأينا أنفسنا في موقف خاسر نكون على استعداد أكبر للمخاطرة مما نكون لو اعتقدنا أننا في وضع رابح. وتاليًا، سيكون الفرد «متجنبًا للمخاطرة» (Risk Averse) عندما يتعامل مع الربح، ولكنه سيكون متقبلًا للمخاطرة (Risk Acceptant) عندما يتعامل مع الخسارة.

ولإيضاح هذه المعطيات بصورة أخرى، تخيل أنك في كازينو، ولنقل أنه كازينو بالمز (Palms) في لاس فيغاس. ودعنا نتخيل أنك حققت ربحًا في بعض الألعاب وأن جيوبك ملأى بالفيشات (chips) التي تتطلع إلى استبدالها

---

(26) Daniel Kahneman and Amos Tversky, «Prospect Theory: An Analysis of Decision under Risk,» *Econometrica*, vol. 47, no. 2 (March 1979), pp. 263-291.

بالمال. وفي هذه الحالة، تحسبك النظرية في وضع رابح - لأنك تربح بعبارة أخرى - ومن هنا، يُستبعد أن تقوم بمخاطرة متهورة لكل ما لديك من فيشات. فعلى سبيل المثال، يُستبعد أن تضع جميع ما لديك في دورة واحدة على عجلة الروليت وأنت تعرف جيدًا أن فرصتك في مضاعفة ما لديك مرتين أو ثلاث مرات ضئيلة (مع أن الكازينو سيرحب بهذه الخطوة). ووفق مصطلح كانمان وتفيرسكي (Kahenman and Tversky) فإنك ستكون في هذه الحالة «متجنبًا للمخاطرة».

والآن، تخيل السيناريو المقابل؛ عندما تكون قد خسرت كثيرًا على موائد اللعب وليس لديك إلا فيشات معدودة، ولا تشعر بكثير من الاستمتاع، بل تشعر بالندم على دخولك هذا المكان. وستحسبك النظرية في هذه الحالة في وضع خاسر، وأنك ستكون مستعدًا للمجازفة بكل ما لديك في مسعى يعدك بمردود كبير إذا ربحت - على الرغم من أن احتمال الربح ليس عاليًا في الوقت ذاته، فتكون في هذه الحالة «متقبلًا للمخاطرة» وفق مصطلحات نظرية المرتقب، وتكون على استعداد لوضع كل ما لديك على دورة واحدة لعجلة الروليت. ففي النهاية، لديك فرصة لاستعادة قدر لا بأس به مما خسرت. وبعبارة روبرت جيرفيز؛

> إن الناس أكثر ميلًا لتجنب الخسارة من حيث أن الخسارة تلوح بقوة أكبر مما تلوح الأرباح؛ فخسارة عشر دولارات تضايقنا أكثر مما يسعدنا ربح عشر دولارات (...) والخسارة المرتقبة تُنشط الأفراد، وتدفعهم وتشحنهم بالطاقة أكثر مما يفعل الربح المرتقب، الأمر الذي يدفع إلى المزيد من المخاطرة (غير المحسوبة في كثير من الأحيان) والتي كثيرًا ما تؤدي إلى المزيد من الخسائر[27].

وتطبق روز مكديرموت (Rose McDermott) هذه النظرية في كتابها **المخاطرة في السياسة الدولية** (*Risk Taking In International Relations*) على حالات متنوعة من صنع القرار في السياسة الخارجية، كالحملة الكارثية لأنقاذ الرهائن في إيران

---

(27) Robert Jervis, «Political Implications of Loss Aversion,» *Political Psychology*, vol. 13, no. 2 (June 1992), p. 187.

عام 1980، والقرار بالسماح لشاه إيران الدخول إلى الولايات المتحدة، وأزمة (U-2)، وأزمة قناة السويس[28].

وتؤكد مكديرموت أن جيمي كارتر رأى نفسه قُبيل حملة إنقاذ الرهائن، في آذار/مارس من عام 1980 في حالٍ خاسر (ولم يكن إدراكه غير سليم في الحقيقة)، وهذا ما جعله يتقبل المخاطرة أكثر مما لو كان في وضع مغاير. حيث كانت شعبيته في تراجع، وكان قد خسر اثنتين من حملات الانتخابات الأولية أمام السناتور إدوارد كينيدي، وبدت المفاوضات لإخراج الرهائن سلميًا قد أنزفت كل الإمكانات. وتعتقد مكديرموت أن كارتر قبيل الحملة، كان قائدًا مستعدًا للمقامرة لإعادة الأمور إلى نصابها، وإعادة الرهائن إلى الوطن، واسترداد الشرف القومي والكبرياء الدولية، ودفْع حظوظه السياسية عاليًا (...) وباستخدام مصطلحات نظرية المرتقب كان كارتر يواجه وضعًا خاسرًا[29].

وبالمثل، تؤكد باربرا فارنهام (Barbara Farnham) أن نظرية المرتقب تلقي كثيرًا من الضوء على قرارات فرانكلن روزفلت (Franklin Roosevelt) في خلال أزمة ميونيخ في أواخر الثلاثينيات[30].

وكأي نظرية في السلوك السياسي، تنطوي نظرية المرتقب على عدد من المشكلات[31]. فربما تكون المخاطرة أساسًا أمرًا يتعلق بالشخصية لا بإدراك

---

(28) Rose McDermott: *Risk - Taking in International Politics: Prospect Theory in American Foreign Policy* (Ann Arbor, MI: University of Michigan Press, 1998), and «Prospect Theory in Political Science: Gains and Losses from the First Decade,» *Political Psychology*, vol. 25, no. 2 (April 2004), pp. 289-312.

(29) Rose McDermott, «Prospect Theory in International Relations: The Iranian Hostage Rescue Mission,» *Political Psychology*, vol. 13, no. 2 (June 1992), pp. 241-242.

(30) Barbara Farnham, *Roosevelt and the Munich Crisis: A Study of Political Decision-Making* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1997).

(31) لتقويم نقاط القوة والضعف في نظرية المرتقب عامة، انظر: Jervis, «Political Implications of Loss Aversion;» Jack Levy, «Prospect Theory and International Relations: Theoretical Applications and Analytical Problems,» *Political Psychology*, vol. 13, no. 2 (1992), pp. 283-310, and Eldar Shafir, «Prospect Theory and Political Analysis: A Psychological Perspective,» *Political Psychology*, vol. 13, no. 2 (1992), pp. 311-322.

تظهر مقالات مكديرموت، وجيرفيز، وليفي كجزء من العدد الخاص من مجلة علم نفس السياسة (*Political Psychology*) المكرّس لنظرية المرتقب.

الموقف، على سبيل المثال[32]. وربما إدراك الخسارة لا يقود تلقائيًا إلى المخاطرة في اتخاذ القرارات المعقدة في الحياة الواقعية. كذلك قد يصعب اختبارها في بعض الظروف، كما هو حال نظرية هايمانز المتعلقة بالانتشار الذري. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا يتعلق بما إذا كنا نعتبر نظرية المرتقب نظرية نزوعية أم موقفية. فمن حيث إن العنصر المهم في النظرية ليس الصيغة الموضوعية للموقف، وإنما الصيغة التي يدركه فيها صانع القرار - الأمر الذي يجعلها نظرية نزوعية - إذ إننا لا نكون على بيّنة من أمرنا، في بعض الأحيان في الأقل، في ما إذا تم إدراك الموقف كموقف خاسر أم رابح، ونُترك لنستنتج ذلك من المعلومات المتاحة. كذلك فإنه يكون علينا أن نستنتج من المعلومات المتاحة مدى خطورة البُدَلاء المختلفة في نظر صانع القرار - والواقع أن هذه مشكلة تواجه أي نظرية تسعى لفهم الحالات الذهنية لصنّاع القرار وتقدير نزعاتهم الشخصية. غير أن مكديرموت ترى أننا نستطيع تأكيد جميع المعلومات المتعلقة بأزمة الرهائن التي واجهها كارتر في أذار/ مارس 1980، إذ إنه رأى نفسه يعمل في ميدان خاسر، وإنه رأى حملة إنقاذ الرهائن كأكثر الأبدال المتاحة مخاطرة.

علم نفس الردع

رأينا في ما سبق أن المجال الذي تتضارب فيه رؤية الإنسان الاقتصادي برؤية الإنسان النفساني أكثر ما تتضارب، هو مجال سلوك الانتخاب. غير أن هناك مجال يكون فيه التضارب على درجة أكبر من الأهمية، لأنه يتصل بأمور الحياة والموت، ذلكم هو مجال نظرية الردع (deterrence theory). ووفقًا لنِد ليبو وجانيس شتاين (Ned Lebow and Janice Stein)، فإن صيغة الإنسان العاقل (الاقتصادي) لنظرية الردع (التي يقوم عليها معظم التنظير في السياسة الدولية) صيغة خاطئة، لأنها تستند إلى افتراضات يجافيها البشر في الواقع العملي - كما رأينا مرارًا وتكرارًا في هذا الكتاب - لأسباب معرفية وأسباب انفعالية على حد سواء. وقد استوحى اثنان من الأفلام السينمائية: «دكتور سترينجلوف» (Doctor

(32) حول هذه النقطة، انظر: Yaacov Vertzberger, *Risk Taking and Decision Making: Foreign Military Intervention Decisions* (Stanford, CA: Stanford University Press, 1998), p. 30.

(Strangelove و«فيل - سيف» (Fail-Saif)، أزمة الصواريخ الكوبية عام 1962، وصوّرًا وقوع خطأ بشري يقود الولايات المتحدة إلى شن هجوم ذري على الاتحاد السوفياتي، ثم إلى اندلاع حرب شاملة. غير أن ليبو وشتاين ينتقدان الافتراضات الأساسية التي تستند إليها نظرية الردع العقلانية في كتابهما كلنا خسر الحرب الباردة (*We All Lost the Cold War*) التي يُفترض أن تحول دون وقوع حرب تقليدية أو نووية بين القوى العظمى في ضوء المصلحة الذاتية المبنية على التقديرات العقلانية لكل طرف(33).

وتفترض نظرية الردع العقلانية (rational deterrence theory) أساسًا، على النحو الذي يبينه ليبو وشتاين، أن القادة جميعهم «مستعدون للمخاطرة وتعظيم المكاسب» (risk-prone gain maximisers) وبعبارة أخرى، تفرض المصلحة الذاتية العقلانية (أو المبنية على الحسابات العقلانية) على القادة جميعًا السعي لتوسيع مناطق نفوذهم على حساب الآخرين، والإحجام عن ذلك (بالقدر ذاته) عندما تفوق تكاليف ذلك الفعل فوائده. وبعبارة كريستوفر آتشن ودنكان سنايدل (Christopher Achen and Duncan Snidal)؛

> إذا كانت الدولة تعرف أنها قد تتعرض لحرب قاسية طويلة في تلك العملية، فإنها لن تحاول الضغط على الدولة المنافسة بمطالبها. والبراعة تكمن في تقدير احتمال لجوء الدولة المنافسة إلى الحرب - وتقدير احتمال انتصارها في ما لو لجأت إلى الحرب(34).

لذا، فإن قدرة الدولة على إقناع منافسيها بأنها عازمة على الحرب، وبأنها قادرة على هزيمتهم، أمر بالغ الأهمية. ويناصر بعضهم هذا الرأي بشدة إلى حد ينادون معه بالانتشار الذري، ويشجعون دولًا كألمانيا واليابان على امتلاك

---

(33) Richard Ned Lebow and Janice Gross Stein, *We All Lost the Cold War* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1994), and Richard Herrmann, «Image Theory and Strategic Interaction in International Relations,» in: David Sears, Leonie Huddy and Robert Jervis, eds., *Oxford Handbook of Political Psychology* (New York: Oxford University Press, 2003), pp. 300-303.

(34) Christopher Achen and Duncan Snidal, «Rational Deterrence Theory and Comparative Case Studies,» *World Politics*, vol. 41, no. 2 (January 1989), p. 149.

الأسلحة النووية، على سبيل المثال[35]. ويعلل المحللون من أمثال جون ميرشايمر (John Mearscheimer) مناصرة هذا الرأي بأن الردع العقلاني شديد الأثر، وأن له من القوة ما يجعله ضامنًا لقدر أكبر من السلام والاستقرار في العالم.

غير أن هذه النظرية تنطوي على العديد من الأخطاء، أولها، ما يتصل بافتراض أن القادة جميعهم «مستعدون للمخاطرة وتعظيم المكاسب»، حيث يتصدى ليبو وشتاين لهذا الافتراض ويؤكدان أن بعض القادة فحسب هم كذلك - ويعطيان هتلر وستالين كمثالين على ذلك - ولكنهما يعتقدان أن هذا غير مألوف نسبيًا في السياسة الدولية[36]. علاوة على ذلك، رأينا في القسم السابق من هذا الفصل أن النزعة إلى المجازفة تختلف باختلاف إدراك القائد للموقف، ما يثير التساؤل عن مدى العقلانية في صناعة السياسة، فضلًا عن أنهما يُسلّطان الضوء على حالات أظهر القادة فيها الاستعداد للمخاطرة وتعظيم المكاسب، ولكنهم لم يوازنوا التكاليف والفوائد على النحو الذي تفترضه مقاربة الإنسان الاقتصادي. ويفيد ليبو وشتاين أن «التحليل الإمبيريقي للحالات التي لم تلتزم الردع، كشف عن حالات قام فيها القادة بحساباتهم وفقًا لتوقعات نظريات الردع ولكنهم تصرفوا بطرائق معاكسة لتوقعاتهم أنفسهم». ويضيف ليبو وشتاين أن أولئك القادة، «قدّروا أن تكاليف الحرب ستكون باهظة، وأن احتمال النصر ضئيل، وأن احتمال انتقام الخصم مؤكد، ولكن ذلك كله لم يردعهم»[37]. ويشير ليبو وستاتن إلى هجوم اليابان على الولايات المتحدة عام 1941، وهجوم أنور السادات على إسرائيل عام 1973 كأمثلة على ذلك. ومن هنا، فإن المنطوق البارز لمقاربة ليبو وشتاين هو أن نظرية الردع لا تخطىء في تفسير سلوك القادة في العالم الواقعي فحسب، ولكن الاعتماد عليها يمثّل خطرًا محققًا.

ويستند جوناثان ميرسر إلى النظرية النفسية ليقدم واحدًا من الإسهامات

---

(35) Mearsheimer, «Why we Will Soon Miss the Cold War».

(36) Richard Ned Lebow and Janice Gross Stein, «Rational Deterrence Theory: I Think, Therefore I Deter,» *World Politics*, vol. 41, no. 2 (1989), pp. 208-224.

(37) المصدر نفسه، ص 211.

المتميزة والمعارضة تمامًا لنظرية الردع[38]. ويأخذ نظرية العزو التي تناولناها في الفصل التاسع - كمنطلق في نقده هذا، وما يتصل منها بما دعاه عالم النفس الاجتماعي لي روس (Lee Ross) «الخطأ الأساس في العزو» (the fundamental attribution). ويشير هذا الخطأ إلى ميل الفرد إلى عزو أفعال الآخرين إلى نزعات فيهم، وقد تكرر ظهور هذا الميل في عدد كبير من الدراسات النفسية. فحين يرى الناس شخصًا يتصرف بلطف، يفترضون أن الشخص تصرف على ذلك النحو لأنه شخص لطيف، ولكن هذا الاستنتاج يُهمل أثر الموقف على السلوك. فإذا رأينا شخص يتشح بالكآبة في جنازة (حتى لو كان يبكي) فإن مظهره هذا يجب ألّا يدعو إلى افتراض أنه شخص كئيب، لأن الموقف الاجتماعي يقتضي أن نظهر بهذا الشكل (حتى لو كنا لا نأبه للمتوفّى)، فالقواعد الاجتماعية تقضي بأن يكون المظهر المناسب في مثل هذه المواقف هو مظهر الكآبة، حتى لو كنا نفكر في حقيقة الأمر في الطعام والشراب الذي يُقدم لاحقًا في العادة.

ويستخدم ميرسر هذه الاستبصارات ليخرج بمقاربة جديدة تتصل بالسمعة/الصدقية (reputation) مخالفة للمنطق المألوف، ومخالفة لنظرية الردع تمامًا. فقد رأينا في ما سبق أن نظرية الردع العقلانية تؤكد أنه لا بد للدولة الرادعة من أن تُرسل «الإشارات الصحيحة» ليأخذ الردع مفعوله، فإذا شكّت الدولة المنافسة في استعداد الدولة الرادعة الوثيق للحرب فإن الدولة المنافسة قد تُهاجِم. علاوة على ذلك، يخشى بعض القادة على سمعتهم كأصحاب عزيمة (a reputation for resolve) [والتي تعني هنا الاستعداد لتحمل تبعات المواجهة مع الخصم]. فكان ليندون جونسون يخشى إن تراجع عن الحرب في فيتنام وترك جنوب فيتنام يقع بيد هو شي منه والشيوعيين، فإن ذلك سيضر بسمعة الولايات المتحدة وموقفها أمام الأعداء والحلفاء على حد سواء. أما المنطق وراء هذا الاعتبار فهو أن تراجعنا عن قرار الحرب سيعطي الأعداء الجرأة على السير قدمًا، في حين أن الحلفاء (وعلى رأسهم الأوروبيين) سيساورهم الشك في ما إذا كانت التزاماتنا نحوهم تستحق الورق الذي كتبت عليه. فإذا تقاعسنا عن الوقوف في وجه الشيوعيين في

---

(38) Jonathan Mercer, *Reputation and International Politics* (Ithaca, NY: Cornell University Press, 1996).

فيتنام، فإننا لن نتمكن من الحد من انتشار الشيوعية عالميًا، لأن أحدًا لن يأخذنا بجدية بعد الآن، وسينظر إلينا الجميع كـ «نمور من ورق»، ويبدو أن العديد من الرؤساء الأميركيين - من ترومان إلى فورد - شاطروا جونسون هذا الرأي.

ويعتقد جوناثان ميرسر أن مثل هذه الاعتبارات - التي كثيرًا ما تُفضي إلى خسائر فادحة في الأرواح والمال - تكون في غير محلها، ويستند ميرسر في اعتقاده هذا إلى منطق بسيط نسبيًا، يستخدم فيه الاستبصارات المنبثقة من نظرية العزو. حيث يؤكد بداية أنه من المستحيل - أو أنه من الصعب جدًا في الأقل - اكتساب قادة الأعداء سمعة افتقار العزيمة[39] (lacking resolve). لأن الخطأ الأساسي في العزو شائع إلى حد كبير (وهو الخطأ المتمثل في عزو سلوك العدو أو الشخص المنافس إلى أسباب نزوعية)، حتى أن السلوك غير الخبيث وغير العدائي إما أن يُهمل وإما أن يردّ إلى أسباب موقفية خارجية لكي نحافظ على الصورة السلبية التي نحملها عن ذلك الشخص أو الطرف (كما فعل جون فوستر دالاس عندما صرف النظر عن إشارات انبعثت من الجانب السوفياتي تشير إلى رغبتهم في تحسين العلاقات مع الولايات المتحدة). [وتاليًا، فإن اعتبارات المحافظة على الهيبة أو السمعة لا تستحق العناء لأن الخصوم يبنون استنتاجاتهم حول نيات دولة المواجهة في ضوء معطيات الأزمة الراهنة وليس بناء على سلوك الدولة السابق - وفق ما يرى ميرسر]. ومن جهة أخرى، نميل إلى عزو سلوك حلفائنا إلى عوامل موقفية[40]؛ وبناء على هذه النظرية نرى الحلفاء يتصرفون وفق متطلبات الموقف أو ما تقتضيه الضرورة، ولا نعطيهم الفضل بالنظر إليهم كأصحاب عزيمة، بل إننا نعزو سلوكهم إلى الضرورة. فعلى سبيل المثال، عزا كثير من المراقبين في الولايات المتحدة دعم العربية السعودية لبلادهم في حرب الخليج الأولى إلى الموقف الذي كانت تواجهه السعودية في ذلك الوقت (سواء كانوا محقين في ذلك أو غير محقين)؛ فعندما غزا صدام حسين الكويت عام 1990، خَشِيت السعودية (وغيرها من دول الخليج التي دعمت الحرب) أن تصبح هي الضحية التالية.

---

(39) *Reputation and International Politics*, p. 213.

(40) المصدر نفسه، ص 214.

التفهم: مضاد خطأ العزو، وأمور أخرى

تشير بحوث ميرسر إلى أن صنّاع السياسة لا يقدرون في الغالب الدور الذي يؤديه الموقف في تكوّين السلوك حق قدره (ومن المثير للدهشة أن نرى عكس هذه المشكلة لدى منظري العلاقات الدولية) [أي إنهم يبالغون في التركيز على دور الموقف في تكوّين السلوك]. ويتفق هذا الاستنتاج مع ما وصل إليه رالف وايت (Ralf White) في أعماله الكلاسيكية في موضوع التفهم (empathy)، ويوضح وايت بداية الفرق بين التعاطف (sympathy) والتفهم (empathy)، ويرى أن هناك فرقًا كبيرًا بينهما. أما التعاطف فيعني الإحساس بحالة الآخر والشعور معه، وأما التفهم فيتطلب وضع النفس مكان الآخر لفهم دوافعه على نحو أفضل. ويُعرّف وايت التفهم بأنه «فهم واقعي لمشاعر وأفكار الآخرين»، أما التعاطف من وجهة نظره فيُعرّف «وفقًا للاشتقاق اليوناني (للكلمة)، كشعور مع الآخرين؛ حيث نسعد لأنهم سعداء أو نحزن لأنهم حزانى؛ ما يعني في كثير من الأحيان أن يفعل المرء ما يستطيع لمساعدتهم. والتفهم معرفي أساسًا، بلغة علم النفس، أما التعاطف فعاطفي»[41].

ويعتقد وايت أن التفهم غاية في الأهمية، لأنه وفق تعبيره «يمثل المصحح الأعظم لجميع أشكال سوء الإدراك المشجعة على الحرب»[42]. وهو مصحِّح ممكن للخطأ الأساس في العزو، من حيث إنه يُجبر صانع القرار على تقدير الموقف الذي يواجهه الخصم [لا أن يرد سلوكه إلى نزعات شخصية فيه وكفى]. ولقد أخذت أعمال وايت موقع الريادة في تراث غني من الدراسات الجارية حتى اليوم عن العلاقات الدولية وصلتها بالتفهم، والإدراك، وسوء الإدراك[43].

---

(41) Ralph K. White, «Empathizing with the Soviet Government,» in: Ralph White, ed., *Psychology and the Prevention of Nuclear War: A Book of Readings* (New York: New York University Press, 1986), p. 82.

(42) Ralph White, *Fearful Warriors: A Psychological Profile of U.S.-Soviet Relations* (New York: Free Press, 1984), p. 160, and James Blight and Janet Lang, *The Fog of War: Lessons from the Life of Robert S. McNamara* (New York: Rowman and Littlefield, 2005), p. 28.

(43) إضافةً إلى البحوث الموثّقة هنا، انظر على سبيل المثال: Ralph White, *Nobody Wanted War: Misperception in Vietnam and other Wars* (Garden City, NY: Doubleday, 1968); Robert Jervis: =

وعلى الرغم من أهمية هذا المسعى لصنّاع السياسة وجدارته بالثناء، فإنه صعب التحقيق في بعض الظروف. ولا شك في أن فهم الأحداث استرجاعيًا (in retrospect) أسهل من فهمها حال وقوعها، إضافة إلى مشكلة أخرى - صورها إيرول موريس (Errol Morris) في فيلم وثائقي متميز عن حياة روبرت مكنمارا (Robert McNamara) بعنوان «ضباب الحرب» (The Fog of War) تناول التصعيد الأميركي للحرب في فيتنام. وتتمثل هذه المشكلة بالحاجة إلى معرفة الخصم جيدًا حتى يمكنك وضع نفسك مكانه، وباعتراف مكنمارا لم يكن هذا واقع الحال في فيتنام؛ إذ لم يكن لدى ليندون جونسون وأعوانه الرئيسيين من جماعة غداء الثلاثاء (Tuesday Lunch Group) إلا القليل من المعرفة بتاريخ العلاقات الفيتنامية الصينية؛ ولو كان لديهم معرفة كافية بذلك، من وجهة نظر مكنمارا، لما نظروا إلى الفيتناميين الشماليين كمجرد قمر صناعي يدور في فلك الصينيين. وكان يمكن للمعرفة الحقة بالجانب القومي من تفكير «هوشي منه» - مقابل اعتقاداته الشيوعية التي كانت مفهومة تمامًا - أن تحد من الميل إلى رؤية فيتنام الشمالية مجرد دمية بأيدي الاتحاد السوفياتي. وللأسف، كان الذين يمتلكون المقدرة على تفهم هو شي منه يُهمَّشون أو يُعتَبرون «مشاغبين» وفق تعبير جيمس طومسون[44] (James Thomson). وبالمثل، وجدت إدارة كارتر صعوبة في تفهم سلوك الطلبة الذين احتلوا السفارة الأميركية في طهران عام 1979، وهو الحدث الذي قاد إلى أزمة الرهائن في إيران.

«Hypotheses on Misperception,» *World Politics*, vol. 20, no. 3 (October 1968), pp. 454-479; *Perception and Misperception in International Politics*; Jack Levy, «Misperception and the Causes of War: Theoretical Linkages and Analytical Problems,» *World Politics*, vol. 36, no. 1 (October 1983), pp. 76-99; Yaacov Vertzberger, *The World in their Minds: Information Processing, Cognition and Perception in Foreign Policy Decisionmaking* (Stanford, CA: Stanford University Press, 1990), especially Chapter 1; Ralph White and Richard Wagner, «The Earliest Pioneer: Ralph K. White,» *Peace and Conflict*, vol. 10, no. 4 (2004), pp. 313-315; Mike G. Wessells, Micheal D. Roe and Susan McKay, «Pioneers in Peace Psychology: Ralph K. White,» *Peace and Conflict*, vol. 10, no. 4 (2004), pp. 317-334; M. Brewster Smith, «Realistic Empathy: A Key to Sensible International Relations,» *Peace and Conflict*, vol. 10, no. 4 (2004), pp. 335-339; James Blight and Janet Lang, «Lesson Number One: Empathize with your Enemy,» *Peace and Conflict*, vol. 10, no. 4 (2004), pp. 349-468, and Ralph White, «Misperception and War,» Peace and Conflict, vol. 10, no. 4 (December 2004), pp. 399-409.

(44) انظر: Robert S. McNamara and James Blight, *Wilson's Ghost: Reducing the Risk of Conflict, Killing and Catastrophe in the 21 Century* (New York: Public Affairs, 2001), pp. 64-73, and Blight and Lang, *The Fog of War: Lessons from the Life of Robert S. McNamara*, pp. 27-57.

وببسيط العبارة، كانت المشكلة الرئيسة التي واجهها كارتر ومستشاروه عام 1979 - تفوق ما واجهه جونسون وحاشيته عام 1965 - إذ لم يكن أحد منهم يعرف كثيرًا عن آية الله الخميني والحركة التي يمثلها في ذلك الحين. وقد ناضل أعضاء إدارة كارتر، بما في ذلك الاختصاصيون في شؤون الشرق الأوسط لفهم ما كانت تعنيه تصرفات آية الله. وكان الخطر الذي تمثله الراديكالية الإسلاموية (radical Islamism) - والتي أصبحت تعرف بالأصولية الإسلامية (Islamic fundamentalism) - منطقه مجهولة في حينه. ففي غياب أي إطار معرفي لفهم الراديكالي الإيراني، كثيرًا ما كان كارتر يصرف النظر عن أفعال الخميني ويعتبرها غير عقلانية، وحتى مجنونة - وذلك في الأيام الأولى لأزمة الرهائن. كذلك، لم يقدّر صنّاع القرار الأميركيين، أو يفهموا، أهمية التاريخ في الشرق الأوسط، وتأثير ذكرى عام 1953 - حين ساعدت الـ سي آي إي (CIA) على إسقاط محمد مصدق القائد الإيراني الذي جرى انتخابه ديمقراطيًا.

الخاتمة

ومهما يكن من أمر، فإن تفهم صنّاع القرار لخصومهم أمر ممكن حين يبذلون جهدًا واعيًا ومقصودًا لوضع أنفسهم مكان الخصم؛ ولكي يحقق صنّاع القرار التفهم الواقعي لا بد لهم من «المعرفة» الحقة بخصمهم. وقد أدى نجاح كتاب ضباب الحرب إلى تجدد الاهتمام بموضوع التفهم كوسيلة لحل النزاع في مجال العلاقات الدولية والسياسة الخارجية. وتردد صدى هذا الموضوع في كتاب مكنمارا شبح ولسون (*Wilson's Ghost*)، بمشاركة جيمس بلايت (James Blight)، وفي كتاب آخر لجيمس بلايت وجانيت لانغ (Janet Lang)، إضافة إلى فيلم عن هذا الموضوع[45]. ويصور الفيلم حالة تفهم من هذا القبيل، شُهد لها بالنجاح، تلك هي الحالة التي تعامل بها جون كينيدي مع أزمة الصواريخ الكوبية. أما مكنمارا، فيؤكد في كتابه أن ما قادنا قي الأزمة الكوبية بعيدًا من

(45) Blight and Lang, Ibid., and McNamara and Blight, Ibid.

شفير الهاوية، إلى جانب «ضربة الحظ الأحمق» وفق تعبير دين آتشيسون (Dean Acheson) الشهير - هو قدرة جون كينيدي على تفهم موقف كروتشيف. فقد نجح جون كينيدي مستندًا إلى لويلن «تومي» طومبسون (Llewellyn «Tommy» Thomson) في وضع نفسه مكان خصمه، وتجنّب كارثة نووية. إذ أدرك السفير طومبسون أن كروتشيف، بعد بضعة أيام من نشوب الأزمة، أيقن أنه أرتكب خطأ فادحًا في نصب الصواريخ في كوبا، وأنه سيبحث عن حل يحفظ ماء وجهه؛ وبناء على ذلك، يكون الحل الناجح للأزمة حل يتيح لكلا الطرفين الخروج معه وقد حقق نوعًا من «النصر».

17

خاتمة

وجهة نظر شخصية

أشرنا في الفصل الأول إلى أن تقدير الميزة النسبية للمنحيين الموقفي والنزوعي متروك للطلبة أنفسهم. وقد تبنينا هذين المنحيين في هذا الكتاب كـ «منحيين ما ورائيين» (meta-approaches) [في دراستنا لعلم النفس السياسي]. وتاليًا (وكما يشير العنوان الفرعي لهذا الفصل)، فإن كيفية التوفيق بينهما تعتمد على الرأي الشخصي. وبذلك، فإنني أدعو الطلبة والمدرسين الذين يرغبون حقيقة في تقرير الأمر بأنفسهم، بعيدًا كل البعد من وجهة نظري الخاصة، أن يتركوا هذا الفصل جانبًا لكي يصلوا إلى رأي مستقل. ومن حيث إن المشتغلين في هذا الميدان نادرًا ما يصنّفون موضوعات المادة التي ندعوها الآن «علم النفس السياسي» على النحو الذي صنفناه في هذا الكتاب، فإن أمر الوصول إلى استنتاجات بشأن القضية محور البحث يكون متروكًا لنا. غير أنني أستدرك وأقول أن الأمر ليس متروك لنا دونما ظهير، حيث إن علماء السياسة المختلفين، (وخصوصًا أولئك المتأثرين بنظرية العزو وبعلم النفس الاجتماعي عامة) لم يكفوا عن التفكير المتعمق في هذه القضية.

عودة إلى النظر في الموقفية مقابل النزوعية

ربما يكون بعضكم قد وصل إلى اقتناعه الخاص بشأن القضية المحورية التي نُعنى بها وفيما إذا كان المحدّد الأقوى للسلوك الإنساني هو المواقف التي

يُواجهها الأفراد أم النزعات التي يحملونها، ويأمل المؤلف أن تكونوا قد وصلتم إلى إجابة أولية عن هذا السؤال في الأقل، لأن الكتاب برمته صُمّم ليحثكم على التمعن في هذه المسألة. وربما يكون بعضكم قد حسم موقفه وأيّد جانبًا على حساب الجانب الآخر في هذه القضية. ومهما تكن استنتاجاتكم عليكم أن تأخذوا الاعتبارات التالية في الحسبان وأنتم تختتمون دراسة هذا الكتاب.

أولًا، نجد لزامًا علينا أن نقول أن أي من المعسكرين الموقفي أو النزوعي لم يخرج رابحًا من دون منازع في جميع المجالات الإمبيريقية التي تناولناها في الباب الثالث من هذا الكتاب. وربما لاحظ القارىء عدم وجود تحيز دائم لمصلحة النزوعية أو الموقفية في المجالات المختلفة التي تناولناها وهي: الإرهاب، القومية والصراع الإثني، والعنصرية والتسامح، وسلوك الانتخاب، والعلاقات الدولية. هذا، ولم نحاول تقديم ملخص عن لما كتب عن كل منها، ولكننا حاولنا تلخيص التوجهات البحثية الراهنة وتحيزات الباحثين الخاصة بكل موضوع منها.

وما يثير الاهتمام هو أن الباحثين يذهبون في اتجاهات مختلفة اختلافًا أساسيًا في تناولهم لتلك الحالات. ففي الدراسة السيكولوجية للإرهاب، عُني الباحثون بداية بالبحث عن «الشخصية الإرهابية»، ولكنهم تحولوا الآن بعيدًا من ذلك الاتجاه بعد أن اكتشفوا قصوره وأخذوا يفضلون المقاربات التي تؤكد أهمية الموقف. وفي دراسة القومية والصراع، كان لكلا الاتجاهين النظريين هذين حضور قوي، غير أن الإبادة الجماعية، تُفسَّر على أفضل وجه ممكن، على ما يبدو، بمزيج من العوامل النزوعية والموقفية. وحين تناولنا موضوعات العنصرية وعدم التسامح، وسلوك الانتخاب، من ناحية أخرى، رأينا أن تركيز الباحثين أنصب تقليديًا على نزعات الأفراد أكثر مما أنصب على العوامل الموقفية. وبالمقابل، لاحظنا أن المقاربة الموقفية هي المهيمنة على نظرية العلاقات الدولية في تفسيرها لسلوك الدول، وأما النزعات النفسية، فمع أنها دُرِست باستفاضة، إلا أنه لم يجر تناولها كمقاربة شاملة قائمة بذاته في هذا المجال إلا نادرًا. ويبدو أن الباحثين في العلاقات الدولية لم يعرفوا كيف

يتعاملون مع علم النفس، فهو يثير تساولات أساسية عن الكثير من الفرضيات التي تتبناها النموذجات الرائجة في هذا الميدان، و«يعرقل» السعي للوصول إلى نظريات مقتصدة (parsimonious) فيه.

ثانيًا، وضمن النطاق ذاته، تبدو النقطة السابقة كأنها تقول إن الأهمية التي تُسبغ على الموقفية أو النزوعية تختلف باختلاف موضوع الدراسة[1]. ومن ناحية أخرى، يبدو أن هناك ظروفًا يعمل فيها البيئة، أو السياق المحيط بالفرد، في فرض أثره/ أثرها في السلوك بشدة - كما في الظروف المخبرية أو التجريبية في الأقل. ويقع العديد من هذه الحالات ضمن ما يسميه مورتون هانت (Morton Hunt) في كتابه الرائج عن تاريخ علم النفس ضمن باب **المواضيع المغلقة** (وهي موضوعات أو قضايا ما عادت تُدرس، لأن نتائج البحث فيها تكررت كثيرًا ما عاد هناك حاجة للتحقق منها)[2]. فقد بيّنت تجارب ملغرام وزمباردو على وجه الخصوص، أن الضغوط والقيود الاجتماعية، التي تبدو ظاهريًا ليست بذات أثر، تؤدي دورًا أساسيًا في توجيه السلوك. وعلينا في هذا الإطار أن ننظر في أعمال أثنين من علماء النفس الاجتماعي، هما جون دارلي وبيب لاتيني (John Darley and Bibb Latané) اللذان لم نناقش أعمالهما في هذا الكتاب، مع أننا تطرقنا في الفصل الأول إلى حادثة مقتل كيتي جينوفيز وما يُعرف في علم النفس الاجتماعي بـ «أثر عابر السبيل» (bystander effect).

ألهمت هذه الحادثة التي شاهدها أكثر من ثمان وثلاثين شخصًا من نوافذ منازلهم، ولم يتقدم أحد منهم لمساعدة المرأة وهي تتعرض للقتل، هذه الحادثة دارلي ولاتيني للشروع في البحث في هذا الموضوع. وقد أثار سلوك المشاهدين غضبًا عارمًا في حينه، وصدرت دعوات من عامة الناس لإلقاء القبض عليهم جميعًا (كما صدرت دعوات لما هو أسوأ من ذلك). ووفقًا لما تفيده لورين سلاتر (Lauren Slater)، تساءل دارلي ولاتيني «لما لم يقم أحد بمد يد المساعدة؟

---

(1) لا نستطيع كذلك استبعاد احتمال أن يكون التحيّز راجع في بعض الحالات إلى عوامل خاصة بعلم السياسة بحدّ ذاته، بالطبع (أي بما هو شائع بالبحث فيه ومتداول في أوقات معينة، بعبارة أخرى).

(2) Morton Hunt, *The Story of Psychology*, updated and revised edition (New York: Anchor Books, 2007).

هل هي لا مبالاة أم هناك عوامل سيكولوجية أخرى أخذت مجراها؟ ويذكر دارلي أنه عكف لفترة من الزمن يفكر في هذه الحادثة نظرًا لتفردها من جهة، وصلتها بحياتنا الراهنة، من جهة أخرى»[3] فالمنطق العام يقول إن واحدًا على الأقل من بين الثمانية والثلاثين الذين شاهدوا الحادثة كان يتوقع أن يرفع سماعة الهاتف ويطلب رقم (911) [أي يطلب الشرطة]. لكن التناقض المثير للدهشة يكمن في ما وجده دارلي ولاتيني من أن هذا الحجم من المشاهدين هو الذي حال دون قيام أحدهم بمد يد المساعدة لكيتي جينوفيز. فكانت مهمة الاستجابة لمحنتها موزعة على عدد كبير من الناس - وهو ما يدعوه دارلي ولاتيني «توزع المسؤولية» ويبدو أن كلًا من أولئك المشاهدين افترض أن شخصًا ما سيقوم بشيء لمساعدتها[4]. وقد شرع هذان الباحثان في اختبار فرضيتهما هذه تجريبيًا - والتي استوحياها من حفلة استغرقت طوال الليل وكانت حادثة جينوفيز فيها موضوع النقاش - وكغيرها من التجارب في علم النفس الاجتماعي في ذلك الوقت، انطوت تلك التجربة على كثير من الإيهام أو الخداع (deception).

حيث قاد الباحثان الطلبة الذين شاركوا في هذه التجربة إلى الاعتقاد بأنهم يشاركون في نقاش المشكلات الشخصية للطلبة، كصعوبة التكيف مع الحياة الجامعية[5]. ولتبرير وضع المشاركين كل في حجرة منفصلة من حجرات المختبر، قيل لهم إن الحديث في المشكلات الشخصية قد يكون محرجًا، لذلك تم ترتيب جلوسهم على هذا النحو ليتواصلوا من خلال أجهزة اتصال داخل المختبر، وليس وجهًا لوجه. والواقع أن أولئك المبحوثين كانوا ينصتون إلى تسجيلات صوتية لطلبة آخرين يقومون بأدوار مرسومة لهم مسبقًا. فكان الطلبة يوهمون في بعض الحالات بأنهم يتناقشون مع شخص واحد، وفي أحيان أخرى بأنهم يتناقشون مع ثلاث أشخاص، أو أربع أشخاص، وهكذا،

(3) Lauren Slater, *Opening Skinner›s Box: Great Psychological Experiments of the Twentieth Century* (New York: W. W. Norton, 2004), p. 98.

(4) John Darley and Bibb Latane: «Bystander Intervention in Emergencies: Diffusion of Responsibility,» *Journal of Personality and Social Psychology*, vol. 8 (1968), pp. 377-383, and *The Unresponsive Bystander: Why Doesn't He Help*? (Englewood Cliffs, NJ: Prentice-Hall, 1970).

(5) Darley and Latane, «Bystander Intervention in Emergencies: Diffusion of Responsibility».

ولكنهم في الحقيقة كانوا يسمعون أشرطة مسجلة مسبقًا. وكان الشريط الأول على الدوام هو الشريط ذاته، حيث يُسمع فيه صوت طالب يتحدث عن الضغوط التي يواجهها في الجامعة، وحقيقة أنه يعاني نوبات صرع. وكان الطالب في الحقيقة يمثل ذلك الدور (علمًا بأن الطالب الذي أدى ذلك الدور هو ريتشارد نيسبت (Richard Nisbett) الذي كان يتابع دراسته العليا في جامعة كولومبيا في حينه، وهو الآن أحد رواد المقاربة الموقفية ونظرية العزو)[6].

وبعد برهة، كان يبدو الصوت على الشريط فزعًا ومشوشًا، إذ كان نيسبت يؤدي دور من أصابته نوبة صرع بطريقة مقنعة. فأشارت نتائج الدراسة إلى أن 85 في المئة من الطلبة الذين أعتقدوا بأنهم كانوا وحدهم مع الشخص المصاب في ذلك الموقف هبوا فورًا طلبًا للمساعدة. أم الذين اعتقدوا أنهم مع خمسة آخرين، فلم يسع لطلب المساعدة منهم غير 31 في المئة. ومن هنا، فإن حضور الآخرين أحدث عائقًا اجتماعيًا أدى إلى إحجام المبحوثين في الموقف الأخير عن القيام بمساعدة شخص يُفترض أنه يتعرض لضائقة.

وبعد بضع سنوات قام دارلي وباتسون (Darley and Batson) بإجراء تجربة أكثر إثارة للاهتمام، أشركا فيها طلبة من كلية لاهوت لاختبار أثر المشاهد/ أو عابر السبيل اعتمادًا على إجراء إيهام كلاسيكي من إجراءاتهما التجريبية[7]. فأوكلا إلى الطلبة مهمة التحضير لموعظة حول حكاية «السامري الطيب» التي يقوم فيها عابر سبيل بتقديم الطعام واللباس لرجل جريح يجده ملقى في الشارع. ويبدو أن المجربيْن أدخلا عن قصد عنصرًا تهكميًا في الوضع التجريبي، ولكنه في الوقت ذاته يمثّل تحديًا لفرضيتهما، حين استخدما أفرادًا - يُفترض أن يكون لديهم نزعة دينية قوية - كمبحوثين في هذه التجربة. فهل يمكن وضع هؤلاء الأفراد في موقف تجعلهم الضغوط التي يواجهونها فيه «ينسون» تلك القيم؟ ماذا لو طُلب إلى أولئك الطلبة تحضير موعظة حول حكاية السامري الطيب

---

(6) انظر: Hunt, *The Story of Psychology*, pp. 483-484.

(7) John Darley and Daniel Batson, «From Jerusalem to Jericho: A Study of Situational and Dispositional Variables in Helping Behavior,» *Journal of Personality and Social Psychology*, vol. 27, no. 1 (July 1973), pp. 100-108.

وتتهيأ عقولهم تاليًا (لمساعدة المحتاج) ثم يقابلون «رجلًا جريحًا»، على أرض الواقع؟ لقد كان هذا هو بالضبط الموقف الذي صنعه دارلي وباتسون، لكنهما أضافا إليه عامل ضغط آخر هو عامل ضغط الوقت.

ويُعتبر التزام الوقت واحدًا من أبسط القواعد الاجتماعية التي يجب على الأفراد مراعاتها، ولكن معظم الناس يتصورون أن مفعول هذه القاعدة ليس أقوى في حال من مفعول الاعتقادات أو القيم. غير أن هذا التوقع لم يثبت أمام التجربة؛ إذ طلب المجربان إلى بعض الطلبة إنجاز الموعظة في وقت محدد، بينما قيل لبعضهم الآخر إن لديهم الوقت الكافي لإنجاز المهمة. ثم قاما بترتيب جعل المبحوثين جميعًا يمرون (كل على انفراد) بشخص جريح (هو في الواقع ممثل يقوم بالدور). وخلافًا لما يمكن أن يتوقعه معظم الناس، وليس خلافًا لما توقعه المجرِّبان طبعًا، ظهر أن تأثير الضغوط الاجتماعية فاق تأثير النزعات حين كان الطلبة يرزحون تحت ضغط الوقت لإنجاز المهمة المطلوبة، لكن تأثير النزعات كان أقوى لدى الذين أعطوا الوقت الكافي لإنجازها فكان «السامري الطيب» منهم هو من توافر لديه الوقت؛ حيث قام 63 في المئة من هؤلاء بتقديم المساعدة، مقابل 10 في المئة فقط من الفريق الأول[8].

وتكشف لنا مثل هذه التجارب، بوجه خاص، أوضاعًا تطغى فيها ضغوط المواقف الاجتماعية على القيم الأخلاقية، ومن حيث أن المواقف التي نعيشها في حياتنا اليومية نادرًا ما تخلوا من نوع ما من أنواع هذه الضغوط - إلا إذا اخترنا أن نعيش حياة الناسك كما فعل تيد كازينسكي (Ted Kaczynski) - فإننا نتوقع أن يكون للمواقف اليد الطولى في معظم، إن لم يكن في جميع الظروف التي نعيشها. ومن ناحية أخرى، نجد مبالغة شديدة في تقدير «القوة الفاعلة» للمواقف في بعض المجالات. ففي نظرية العلاقات الدولية، وكما رأينا في الفصل السابق، فإنه كثيرًا ما يُنظر إلى القادة على أنهم يستجيبون «عقلانيًا» للإشارات الواضحة التي تأتي من البيئة المعلوماتية، وقد عجز علماء نفس السياسة عن تطوير نظريتهم

---

(8) «From Jerusalem to Jericho: A Study of Situational and Dispositional Variables in Helping Behavior,» p. 105.

الخاصة في العلاقات الدولية (أو في الأقل، نظرية مقبولة من الباحثين الآخرين في هذا المجال، كنظرية في العلاقات الدولية، ترجح كفة المواقف أو النزعات أو تأخذهما معًا). كما رأينا أن نزعات البشر تؤدي في العديد من الحالات دورًا أقوى من دور الموقف الذي يجدون أنفسهم فيه.

ما نوع الظروف التي تجعل لنزعات الأفراد أثرًا أقوى من أثر الموقف في سلوكهم؟ إننا لا نستطيع ببساطة أن نقول «إن ذلك يعتمد»، ونترك الأمر عند هذا الحد، حيث إن القارئ يملك الحق في نوع ما من الإجابة عن ماهية ذلك الشيء الذي يحدد الدور النسبي للنزعات مقابل المواقف.

أولًا وقبل كل شيء، قد يغرينا استنتاج أن الموقفية تُفسر سلوك العامة، وأن النزعات تفسر سلوك النخبة؛ إذ أن الناس العاديين ربما يكونون أكثر عرضة للضغوط الاجتماعية، أما النخب فتتميز بالمعرفة. غير أنني أرى أن هذا استنتاج مغلوطًا فيه ضوء ما استعرضناه في هذا الكتاب. فقد اعتمد الباحثون في الخيار الانتخابي على نظريات نزوعية منذ الستينيات في الأقل، كما فعل العديد من منظري التعصب العنصري والتسامح. وكما رأينا عند تناول التفكير الجمعي، فإن صنّاع القرار - وحتى الأفضل والألمع منهم - ليسوا أقل عرضة لتأثير الضغوط الاجتماعية من عامة الناس. وهناك من دون شك فاصل بين أولئك الذين يدرسون سلوك الجماهير في علم النفس السياسي، والذين يدرسون النخب السياسية، ولكنه ليس فاصلًا واضحًا بين الموقفية والنزوعية (يريحنا من عناء الموازنة بين هاذين المنحيين).

وقد تكون هناك إجابة أخرى مفادها أن الموقفية تفسر السلوك السيىء أو «الشرير»، في حين أن النزوعية تفسر السلوك «الخيِّر» أو المرغوب فيه، كالإيثار. ولكن فيليب زمباردو يؤكد في كتابه **أثر الشيطان** - الذي أصبح الداعي الرئيس لوجهة النظر الموقفية في علم النفس السياسي - أننا نهمل الدرس الذي تنطوي عليه الموقفية إهمالًا خطرًا؛ وهذا الدرس، كما يقول زمباردو،

> كان يجب أن نتعلمه مرارًا وتكرارًا من التحولات التي ظهرت على حراس معسكرات الاعتقال النازية، وأولئك الذين ينضمون إلى طوائف التدين

المدمرة، من أمثال جماعة جيم جونز (Jim Jones)، وجماعة «أوم - شنريكيو» (Aum Shinrikyo) اليابانية الحديثة العهد. كما أن المجازر والإبادات الجماعية التي ارتكبت في البوسنة، وكوسوفو، ورواندا، وبوروندي، وفي منطقة دارفور في السودان أخيرًا، تعطي دليلًا قويًا على استعداد الناس للتنازل عن إنسانيتهم وعاطفتهم كبشر، والإذعان للسلطة الاجتماعية، وأيديولوجيات السيطرة، والحرص على الأمن القومي. إن أي فعل قام به أي إنسان، مهما كانت بشاعته، يمكن لأي واحد منا أن يرتكبه في الظروف الموقفية المناسبة أو غير المناسبة[9].

وقد دخل كتاب زمباردو حول سيكولوجية الشر، والعوامل الموقفية المؤثرة فيه، ضمن الأدب الخاص بموضوع الإرهاب والصراع الإثني، على سبيل المثال. ولكن زمباردو كمعظم علماء النفس الاجتماعي، يقرّون أن القوى الموقفية يمكن أن تكون مسؤولة عن السلوك المرغوب فيه اجتماعيًا إلى جانب مسؤوليتها عن السلوك غير المرغوب فيه؛ ولعل تطبيق النظريات الموقفية على العدوان وغيره من السلوكات الضارة اجتماعيًا، بوجه خاص، يعود إلى اهتمام الباحثين (المبرّر) في تفسير ذلك السلوك (والمساعدة في تجنبه، تاليًا). لكننا نجد من الصعب، بالقدر ذاته، تفسير السلوك القيادي لواحد كأدولف هتلر من دون تحليل نزعاته، لذا فإن الإجابة البسيطة القائلة «إن الموقفية تفسر السلوك المرغوب فيه والنزوعية تفسر السلوك غير المرغوب فيه» ليست شافية في أي حال.

إلى أين تأخذنا هذه المعطيات؟ يأتي واحد من مفاتيح حل هذه الأحجية من بحوث دارلي ولاتيني (Darley and Latané)، مرة أخرى. إذ يبدو أننا حين نتخذ قراراتنا على انفراد، لا وسط جماعة - أي عندما تكون الضغوط الموقفية غائبة إلى حد كبير - تزداد أهمية النزعات؛ تذكّر أن 85 في المئة من المبحوثين الذين كانوا وحدهم استجابوا لاستغاثة ريتشارد نيسبت حين تعرض لـ «نوبة الصرع»، على سبيل المثال. وإلى جانب التجربة المذكورة سابقًا، قام دارلي ولاتيني (Darley and Latané) بتجربة أخرى شهيرة طلبًا فيها إلى المبحوثين

(9) Philip Zimbardo, *The Lucifer Effect: Understanding How Good People Turn Evil* (New York: Random House, 2007), p. 211.

الجلوس في غرفة مخبرية وتعبئة استبيان، ثم جرا تسريب دخان إلى الغرفة من خلال فتحة فيها[10]. وقد أخضع المجربان مبحوثيهم لهذا الوضع إما فرادى وإما في جماعات – حيث يكون الأفراد الآخرين في الوضع الجماعي، معاونين للمجربين يقومون بتمثيل دور المبحوثين، وينفذون تعليمات بأن لا يبدوا حراكًا عند رؤية الدخان. دلت نتائج هذه التجربة على أن جميع المبحوثين تقريبًا هبوا على الفور وأبلغوا المجرب بشأن الدخان المتسرب عندما كانوا على انفراد، غير أن 90 في المئة منهم تجاهلوا الدخان عندما كانوا مع آخرين ولم يحركوا ساكنًا إزاء ما يحدث – حتى عندما ازدادت كثافة الدخان وتعذرت معه الرؤية، وأخذ الأفراد يسعلون بتأثيره. وبالمثل، لوحظت آثار الإنسياق للآخرين بوضوح في تجارب آش التي تطلبت تقدير أطوال خطوط [إما على انفراد أو مع جماعة متحالفة مع المجرب تُجمع على تقديرات خاطئة]. وتتعزز نتائج تجارب دارلي ولاتيني هذه بنتائج الظروف الجماعية التي صنعها ملغرام في تجاربه [وأشارت إلى أن الطاعة تزداد برؤية نموذجات تذعن للأوامر][11].

إن المنطوى العام لهذا كله لا بد من أن يكون واضحًا الآن؛ وهو أن غياب الجماعة أو الضغط الاجتماعي يعزز دور النزعات. وعلى الرغم من أننا جميعًا عرضة لتأثير وسائل الإعلام والمحيط من حولنا، فإن خيارنا الانتخابي (في الديمقراطيات الحقيقية، في الأقل) هو في الأساس خيار فردي، هو أمر خاص بنا نقوم به بسرية في حجرة التصويت. وقرار القائد – وإن كان يعتمد جزئيًا على طريقة تنظيمه لطاقم العمل، ومدى تأثره بآراء الآخرين – هو في النهاية قرار عليه اتخاذه بمفرده. وتعبّر مقولة هاري ترومان عن هذه الحالة بدقة حين قال، «إن من يجلس على القمة يجلس وحيدًا»، ما يعكس حالة الوحدة التي تنتاب صانع القرار وهو يجلس على قمة البنية السياسية.

ومع أن الضغط الاجتماعي يمثّل عاملًا مؤثرًا في صانع القرار السياسي، إلا أنه لا بد من وجود عوامل مؤثرة أخرى، إلى جانب ذلك، بطبيعة الحال. ويُقدم

---

(10) Darley and Latane, *The Unresponsive Bystander: Why Doesn't He Help?*.

(11) للاطلاع على مناقشة لهذا الموضوع، انظر الفصل الرابع من هذا الكتاب.

أول هولستي قائمة شديدة الأهمية بالشروط التي تجعل للقادة كأفراد دورًا مهمًا في صنع قرارات السياسة الخارجية - ولكننا نستطيع تعميم هذه العوامل على مواقف أخرى، كالمواقف المتعلقة بالتصويت، والتسامح، والقرارات التي يتخذها عامة الناس بهذه الشؤون[12]. وفي ما يلي قائمة بالشروط التي تجعل للنزعات أهمية خاصة، من وجهة نظر هولستي:

1- «المواقف غير الروتينية التي تتطلب أكثر من مجرد تطبيق الإجراءات المعمول بها والقواعد المرعية؛ مثال ذلك، قرارات المبادرة بإقامة مشاريع دولية كبيرة أو إنهائها، بما في ذلك قرارات الحرب، والتدخل، والتحالف، وبرامج المساعدة، وما أشبه». والمواقف الجديدة وغير المألوفة التي تختلف في كثير من الوجوه عن المواقف التي واجهناها سابقًا تعزز كذلك دور النزعات والأحكام الشخصية، وذلك بسبب عدم وجود توقعات محددة تُملي الاستجابة المطلوبة - سواء كانت توقعات اجتماعية، أم تنظيمية، أم ما شابه - وتنطوي أزمة الصواريخ الكوبية على مثال ممتاز هنا؛ فعند نشوء تلك الأزمة عام 1962 لم يكن هناك «قواعد» محددة للتعامل مع أزمة نووية يجد فيها كل طرف نفسه ينساق تدريجيًا إلى مواجهة مميته. حيث قام كينيدي في حينه بإنشاء لجنة «إكس كوم» (ExComm) [اللجنة التنفيذية لمجلس الأمن القومي] محطمًا بذلك القوالب البيروقراطية القائمة لصنع القرار، إدراكًا منه أن الروتين البيروقراطي والإجراءات المعمول بها في حينه يمكن أن تجر الولايات المتحدة إلى الحرب[13].

2- «قرارات القادة الذين يجلسون على قمة الهرم الحكومي، المتحررين نسبيًا من القيود التنظيمية، وغيرها من القيود - أو الذين يتعاملون مع أدوارهم بطرق تزيد حرية الخيار لديهم». والنموذج التجريبي المماثل لهذا الوضع هو نموذج دارلي ولاتيني الذي ضم شخصين فقط (المبحوث والضحية التي تحتاج

(12) Ole Holsti, «Cognitive Process Approaches to Decision-Making: Foreign Policy Actors Viewed Psychologically,» *American Behavioral Scientist*, vol. 20, no. 1 (September-October 1976), p. 18.

(13) Graham Allison and Philip Zelikow, *Essence of Decision: Explaining the Cuban Missile Crisis*, 2nd ed. (New York: Longman, 1999).

إلى المساعدة)، ونموذج آش (Asch) في وضع القرار المنفرد الذي يأخذ فيه الفرد قراره بشأن أطوال الخطوط [وهي المهمة التجريبية التي استخدمها آش في تجاربه في الانسياق] من دون الضغط الاجتماعي الذي يأتي من الوجود داخل جماعة. هذه الأوضاع مشابهة لوضع صانع القرار الذي يجلس وحده على القمة. أما على مستوى القرارات التي يأخذها عامة الناس (مقابل النخبة)، فلا نكون فيها بصدد أفراد يقفون على قمة الهرم السياسي، ولكننا نستطيع توسيع نقطة هولستي هذه لتشمل أي موقف يجد المرء نفسه فيه - سواء كان من النخبة أم من عامة الناس - متحررًا من الضغوط الاجتماعية والمحيطية التي يمكن أن تحدد قراراته بطريقة أو بأخرى. وبعبارة أخرى، يكون العامل الفاعل هنا هو الإحساس بالحرية النسبية من القيود (constraints) - بحسب تعبير هولستي.

3- «التخطيط للسياسة الطويلة المدى؛ وتنطوي هذه المهمة بطبيعتها على كثير من عدم اليقين (uncertainty)، وتحتل فيها المفاهيم المتعلقة (بما هو كائن)، و(ما هو مهم)، و(ما هو محتمل)، و(ما هو مرغوب فيه)، و(ماذا يتعلق بماذا)، تحتل هذه المفاهيم قلب العملية السياسية». ومن البداهي أن ينطبق هذا العامل أكثر ما ينطبق على صناعة القرار على مستوى النخبة، ولكن قد يكون هذا العامل ذو صلة أيضًا بصناعة القرار لدى عامة الناس حين يجب على الفرد إجراء تقديرات لما يمكن أن يحدث في المستقبل.

4- «عندما يعترى الموقف ذاته الكثير من الغموض، ويكون بذلك مفتوحًا على العديد من التفسيرات. وقد يعود غموض الموقف إلى ندرة المعلومات؛ أو تداني نوعيتها أو صدقيتها، أو التناقض في ما بينها، أو اتساقها مع تفسيرين مختلفين إلى حد كبير، أو أكثر من تفسيرين، وإذا ما تلازم هذا الوضع مع غياب وسائل موثوق بها للاختيار بين تلك المعلومات». إن حالات الغموض، والتناقض، وعدم اليقين تدفع جميعها إلى الاعتماد على النزعات في عمليات صنع القرار[14]. وبالعودة إلى الفصل الأول و«سيناريو البناية المحترقة» الشهير، تساءلنا عما إذا

(14) انظر: Jacques Hymans, *The Psychology of Nuclear Proliferation: Identity, Emotion and Foreign Policy* (New York: Cambridge University Press, 2006), pp.17-18.

كنا نحتاج إلى دراسة نزعات الأفراد الذين هربوا للبحث عن مخرج عندما شب الحريق في المبنى؛ فهذا الموقف يتسم بدرجة عالية من الوضوح، ولا يتابنا فيه شك في ما يجب علينا فعله للحفاظ على حياتنا. ولكننا لفتنا النظر إلى أن مواقف من هذا النوع قليلة نسبيًا في عالم السياسة، من حيث إن أشخاصًا، يتمتعون بالذكاء والفطنة قد ينظرون إلى ذات الموقف ويخرجون باستنتاجات مختلفة[15]. ومثل هذه المواقف الغامضة تستثير نزعات الأشخاص الذين يواجهوها، ونلاحظ تباينًا عاليًا نسبيًا في الاستجابات الفردية لها. وكما أن قرارات السياسة الخارجية تُتخذ استجابة لمواقف شديدة الغموض، كذلك فإن قرار التصويت وما يسبقه من أحكام معرفية وانفعالية يكون استجابة لمواقف من هذا النوع. فقد رأينا كثيرًا من التباين داخل الحزب الديمقراطي في خلال موسم الانتخابات التمهيدية عام 2008، حول المرشح الأفضل للحزب، ولكننا رأينا قدرًا أكبر من التباين داخل الحزب الجمهوري حول مرشحهم المفضل. ومن هنا، فإن أحكامًا من هذا النوع تتسم بالخصوصية والذاتية وتعتمد على تقديرات الأفراد لاحتمال فوز المرشح (أ) مثلًا من مرشحي حزبهم في الانتخابات الرئاسية المقبلة، مقارنة باحتمال فوز المرشح (ب) من مرشحي الحزب الآخر؛ كما أن أحكامًا من هذا النوع تعتمد على تقديرات الأفراد لمدى تمثيل المرشح المعين لأفكارهم واعتقاداتهم إذا تم انتخابه، وخلاف ذلك من الاعتبارات غير الملموسة.

5- «الظروف التي يتوافر فيها لصنّاع القرار فيض من المعلومات يضطرون معه إلى استخدام استراتيجيات معرفية مختلفة (من مثل التصفيف (queuing)، والتصفية (filtering)، والحذف (omission) واختزال التصنيفات للتعامل مع المشكلة بيسر». وصنّاع القرار (كغيرهم من الناس) يعتمدون طرقًا معرفية مختصرة، كالتنميط (stereotyping)، واستخدام السكيمات (use of schemas)، والقياس بالمماثلة (analogies) والاقتناع بالحد الأدنى [أو المتاح من العلومات] (satisficing). وقد مناقشة العديد من هذه الطرق في الفصل التاسع، إلا أن واحده منها لم نأت على تناولها، وهي ذات أهمية خاصة هنا، تلك هي الطريق المعروفة

(15) Robert Jervis, *Perception and Misperception in International Politics* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1976), pp. 19-20.

ببحث السكير[16] (drunkard's search). وقد بيّن روبرت جيرفيز أن العديد من النظريات التي توحي باتسام صنّاع القرار بالبخل المعرفي يمكن احتوائها ضمن مبدأ بحث السكير الذي نشير إليه هنا. وتتلخص القصة وراء هذا المبدأ بأن سكيرًا أضاع مفاتيح بيته، وراح يبحث عنها تحت ضوء الشارع. ويأتي عابر سبيل ليقدم له المساعدة ويسأله عن المكان الذي أضاع فيه المفاتيح. فيجيب السكير إن المفاتيح سقطت منه في ممر مظلم، فيسأله عابر السبيل متعجبًا، لما لا تبحث في المكان الذي وقعت فيه المفاتيح، فيجيب السكير «الإنارة أفضل هنا». والدرس الذي يمكن استخلاصه من هذه الحكاية هو أن صنّاع القرار قد يبحثون عن الدليل في الأماكن المريحة لهم نفسيًا لا الأماكن الأجدر بالبحث حتى في مواجهة النقاد الذين لا ينفكون يسألون عن حقيقة ما يجري البحث عنه. ويظهر هذا الميل بوضوح أيضًا في ميدان البحث في العلوم الاجتماعية، حيث يتم التركيز على ما هو قابل للقياس والتقدير الكمي، وليس على ما يقع في دائرة الغموض وعدم اليقين[17].

وعلى الرغم من أننا ما زلنا نجهل الكثير عن عملية صنع القرار المتعلقة بغزو الولايات المتحدة للعراق عام 2003، فإن ما تكشّف عنها قد يوضح الظاهرة النفسية التي نحن بصددها بجلاء. حيث أقرّت الـ سي آي إي (CIA) في حينه أن علاقة صدام حسين بأحداث الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر علاقة واهية، إن لم تكن معدومة، وأشارت إلى أن ما حدث له علاقة بأفغانستان، كما يبدو واضحًا الآن، إلا أن وزير الدفاع دونالد رامسفيلد (Donald Rumsfeld)، ونائبه بول ولفويتس (Paul Wolfowits) شعرا بأن العراق يمثّل «هدفًا أفضل» من أفغانستان[18]. واكتشف بوب وودوارد (Bob Woodward) أن ولفويتس كان قلقًا

(16) George Farris, «The Drunkard's Search in Behavioral Science,» *Compensation Benefits Review*, vol. 1, no. 2 (January 1969), pp. 29-33; Robert Jervis, «The Drunkard's Search,» in: Shanto Iyengar and William McGuire, eds., *Explorations in Political Psychology* (Durham, NC: Duke University Press, 1993), and Samuel Popkin, «Decision Making in Presidential Primaries,» in: Iyengar and McGuire, Ibid.

(17) Richard Betts, «Conventional Strategy: New Critics, Old Choices,» *International Security*, vol. 7, no. 4 (Spring 1983), p. 142.

(18) Richard Clarke, *Against All Enemies: Inside America›s War on Terror* (New York: Free Press, 2004), p. 31.

بشأن احتمال حصار (100000) من عداد القوات الأميركية في الجبال الغادرة، السيئة الصيت [في أفغانستان]، بعد ستة أشهر من ذلك الحين. وبالمقابل، كان العراق في قبضة نظام قمعي، هش، يسهل كسره، ولديه معارضة متحمسة لإطاحة صدام»[19]. ويروي ريتشارد كلارك (Richard Clarke) ما جرى في واحد من الاجتماعات الأولى بعد ظهر الثاني عشر من أيلول/ سبتمبر عام 2001:

> كان رامسفيلد يقول إننا بحاجة إلى أن نقصف العراق، وقلنا جميعًا (...) لا، لا، القاعدة في أفغانستان، إننا بحاجة إلى قصف أفغانستان. فقال رامسفيلد: ليس هناك أهدافًا جيدة في أفغانستان، وهناك كثير من الأهداف الجيدة في العراق. فقلت، «حسنًا، هناك كثير من الأهداف الجيدة في كثير من الأماكن، ولكن العراق ليس له صلة بالأمر». لقد ظننت في البداية أنه كان يمزح. ولكنني أعتقد أنهم رغبوا في أن يكون للعراق صلة بالأمر، ولكن الـ سي آي إي (CIA) كانت جالسة هناك، والإف بي آي (FBI) كانت جالسة هناك، وكنت أنا جالس هناك، وقلت إننا بحثنا الأمر لسنوات، بحثنا لسنوات ولم نجد هناك أي صلة [للعراق بأحداث الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر][20].

6- «الأحداث غير المتوقعة التي تُظهر ردود الفعل الأولية إزاءها وجود تصورات مسبقة [تتعلق بصنّاعها]». على سبيل المثال، كانت أزمة الرهائن الإيرانية، غير مسبوقة، في كثير من الوجوه، وغير متوقعة لمعظم أعضاء إدارة كارتر، كما كان حال الثورة الإسلامية التي سبقتها، على ما يبدو. وكان الاستيلاء على السفارة الأميركية، وتورط الدولة المضيفة في ذلك، حدثًا نادرًا من الناحية التاريخية، ولم يكن هناك إجراءات قائمة للتعامل مع مثل هذا الموقف.

7- «الظروف التي يتعرّض فيها كبار المسؤولين إلى ضغوط متنوعة، ما يعيق أو يؤثر تأثيرًا جوهريًا في العمليات الذهنية المعقدة المرتبطة بصناعة القرار». وتشير البحوث حول تأثير الضغوط في صناعة القرار إلى أن القدر القليل من الضغط يحسّن عملية صنع القرار في الحقيقة، في حين أن القدر

---

(19) Bob Woodward, *Plan of Attack* (New York: Simon and Schuster, 2004), p. 26.

(20) انظر: «Clarke's Take on Terror,» CBS News Website (21 March 2004), <http://www.cbsnews.com/stories/2004/03/19/60minutes/main607356.shtml>.

الكبير من الضغط قد يضر بتلك العملية، ولكننا لا نُجانب الصواب إذا افترضنا أن طرائق التفكير المختصرة - المعرفية منها والانفعالية - تؤدي دورًا مهمًا في مثل هذه الظروف.

وبأخذ هذه العوامل مجتمعة بغرض التبسيط، نستطيع القول إن الظروف التي تتسم بالجدّة، والغموض، وعدم اليقين، بوجه عام - والبعيدة نسبيًا من الضغوط الاجتماعية أو الموقفية - كلها ظروف تعزز دور النزعات في صناعة القرار. وأما إذا تساءلنا عما إذا كانت الغلبة للنزعات أم للمواقف، فإن الراغبين في إجابة بسيطة وقاطعة - وينتظرون منا أن نقول: «الموقفية هي التي تفسر السلوك السياسي» أو «النزعات أقوى من المواقف دائما» - سيجدون استنتاجنا غير مُرضٍ أو حتى واهن؛ ولكن المؤلف يرى أنه لا مفر من استنتاج أن لكل منهما دورًا مهمًا؛ وذلك يعود بكل بساطة إلى أن هناك قدرًا كبيرًا من الأدلة (يأتي معظمها من علم النفس الاجتماعي) على أن بعض المواقف تستدعي سلوكات، معيارية، ومحددة، كما أن هناك قدرًا كبيرًا من الأدلة (يأتي معظمها من علم النفس المعرفي) على أن لنزعاتنا أهمية خاصة في ظروف أخرى، هذه الأدلة تحول دون إعطاء إجابة مبسطة عن السؤال الذي بعث الحياة في هذا الكتاب.

الثبت التعريفي

الإبدال (displacement): استبدال موضوع (الشعور أو الانفعال) بموضوع آخر لأن العامة الموجهة للموضوع الأصلي تكون محرّمة أو غير مقبولة اجتماعيًا (كره أحد الوالدين وتوجيه الكره أو التعصب نحو شخص أو جماعة أخرى).

الاتجاه (attitude): نزعة لتقويم موضوع ما والاستجابة له باستمرار (بدرجة من السلبية أو الإيجابية). ويتضمن الاتجاه مكونًا عاطفيًا (مشاعر)، ومكونًا معرفيًا (أفكار ومعلومات)، ومكونًا سلوكيًا (استجابات وأفعال). وتتشكّل لدينا اتجاهات نحو أشخاص، وأفكار (أو أيدولوجيات)، وأشياء وموضوعات مختلفة مما يحيط بنا (وليس كل ما يحيط بنا بطبيعة الحال).

الاستكفاء (Satisficing): وهي في اللغة الإنكليزية كلمة مركبة من كلمتي satisfy بمعنى يُرضي وSuffice بمعنى يكفي أو يفي بالغرض. يُشار إلى أنها من اشتقاق هربرت سيمون (Herbert Simon) في مقالة له عام 1956، واستخدمها لتعني إمكان الاكتفاء أو القناعة بما هو متاح من معلومات للوصول إلى قرار أو حل مشكلة. وذلك لأن البشر يفتقرون إلى الموارد المعرفية اللازمة للوصول إلى القرار الأمثل، فيندر أن نكون على معرفة كافية بكل الاحتمالات الممكنة، والذاكرة الإنسانية وغيرها من العمليات محدودة ومعرضة للخطأ. وينعكس الميل إلى الاستكفاء في صنع القرارات باختيار البديل الأول الذي يحقق الحاجة المطلوبة أو يُرضي مختلف الأطراف، وليس الحل الأمثل. وإن لم تكن هذه الاستراتيجية مناسبة لصنع القرارات في كل الحالات حين يكون البحث عن الحل الأمثل ضرورة حياتية، إلا أن

هناك مواقف يكون فيها الاستكفاء ملائمًا ومقبولًا. ويظهر الاستكفاء أيضًا كسمة شخصية، مما يعني أن الأفراد يتباينون من حيث ميلهم إلى الاستكفاء أو إلى السعي للوصول إلى الحلول المثلى.

الاشتراط (Conditioning): عملية التغيير المنهجي لسلوك الكائن الحي من خلال السيطرة أو التحكم في البيئة المحيطة به.

إشراط (Conditioning): وهي الحالة التي يزداد فيها احتمال تكرار السلوك - المرغوب في العادة - بعد أن يلقى تعزيزًا أو مكافأة. وقد استغرق البحث في الإشراط، والمنظور السلوكي العام الذي يتبناه، الجزء الأكبر من القرن العشرين وشهد تطبيقات واسعة، ولا يزال، في مجالات التربية، والصناعة، ومؤسسات العمل المختلفة، والعلاج النفسي، والصحة. وتطورت حول الإشراط مفاهيم وممارسات تطبيقية كتعديل السلوك، والبرمجة السلوكية، والتحفيز وغيرها.

الامتثال/ الانسياق (conformity): النزعة إلى السير في ركاب الأخرين سلوكًا وفكرًا (وربما شعورًا أيضًا). وينتج الانسياق عن رغبة الفرد في فعل «الصواب» (حيث يكون ما تفعله الجماعة هو معيار الصواب في نظره)، أو ينتج عن رغبته في قبول الآخرين له، أو لكلا الأمرين معًا.

الأنا الأعلى (Super Ego): الضمير في نظرية فرويد، ويمثل الجانب من الشخصية الذي يعكس القيم الاجتماعية والمعايير والأحكام السائدة في مجتمع ما. وهي تبدأ مع التربية الوالدية المبكرة وتعلم الطفل التمييز بين الصواب والخطأ - وفق المعتقدات الدينية والاجتماعية التي تأخذ بها الأسرة. ويتمثل الفرد تلك المعطيات ويسترشد بها على المستويين الشعوري واللاشعوري.

الإنسان الاقتصادي (Homo Economicus): منظور سائد في العديد من النظريات الاقتصادية يقوم على افتراض النفعية في الطبيعة الإنسانية والرغبة في امتلاك الثروة، ويعود هذا المفهوم أساسًا إلى جون ستيوارت مل في أواخر القرن التاسع عشر الذي رأى أن الإنسان مخلوق عقلاني يرغب في تحقيق

المنفعة الذاتية وكسب الثروة وهو قادر على تقويم الوسائل المتاحة واتباع ما يحقق له هذا الهدف بأقل قدر من الجهد. ويشير افتراض العقلانية إلى قدرة الإنسان على إدراك الفرص المتاحة وتقويمها واختيار ما يحقق المنفعة الذاتية بأقل قدر من التكاليف، لا لأن أهدافه عقلانية بالمعنى الاجتماعي أو الأخلاقي أو الإنساني.

الإنسان النفساني (Homo Psychologicus): وهو منظور قائم على علم النفس عمومًا وعلم النفس الاجتماعي والمعرفي خصوصًا. ومقارنة بمنظور الإنسان الاقتصادي، يُنظر إلى العقلانية على أنها محدودة بحدود العقل الإنساني من حيث قدرته على معالجة المعلومات، ووسائله في التعامل مع «الأحمال الزائدة» منها وما تنطوي عليه هذه الوسائل من معيقات ذهنية وانفعالية تحد من العقلانية. ويعطي هذا المنظور اعتبارًا للضغوط الاجتماعية التي يمكن أن تقود الفرد إلى السلوك بطرائق غير عقلانية أو مناقضة لاعتقاداته وقيمه.

تجريد الآخر من إنسانيته (Dehumanization): وتتمثل في النظر إلى الآخر، أو الآخرين على أنهم مجردون من الصفات التي تجعلهم بشرًا، والتعامل معهم في ضوء هذا الإدراك. وتساهم عملية التجريد من الإنسانية في احتمال ممارسة العنف ضد الافراد أو الجماعات موضوع هذه العملية.

تحليل عقيدة صانع القرار (Operational Code Analysis): أرسى ليتس (Leits, 1951-1953) قواعد هذا التحليل في بداية الخمسينيات وطوره ألكسندر جورج (Alexander George) 1969-1979، وهولستي (Holsti, 1977) وولكلر (Walker, 1990). وتعتبر اعتقادات القادة السياسيين موجهات مهمة إن لم تكن مسببات رئيسة، لقراراتهم السياسية. ووفقًا لهذا المفهوم، فإن نظام الاعتقاد له مكونان: الاعتقادات بالفلسفة العامة للفرد حول طبيعة الحياة السياسية)، والاعتقادات الذرائعية (instrumental beliefs) (كيف يمكن لصانع القرار لتحقيق أهدافه). وهاتان المنظومتان من الاعتقادات تفسران نزعات الاختيار لدى صنّاع القرار.

التحليل الماورائي (meta-analysis): تكنيك إحصائي يلخص نتائج الدراسات المتعددة في موضوع ما ويقوِّم اتجاهها العام.

التذويت (Internalization): عملية استدخال المعايير والقيم والموجهات الاجتماعية في الذات لتصبح جزءًا من نسيجها، وتتحول عملية التوجيه بالتالي من الخارج (من وسطاء التنشئة الاجتماعية) إلى الذات فيعمل الفرد باتساق مع متطلبات المحيط الاجتماعي بدوافع ذاتية.

التركيب التكاملي (integrative complexity): ويشير إلى أسلوب اتخاذ القرار من حيث التبسيط (في التعامل مع المعلومات والأفكار) أو التركيب. ويميز سودفيلد وتتلوك بين أسلوبين في صنع القرار: أسلوب مبسّط وآخر مركب. (وتتميز القرارات المبسطة في أنها تتمحور حول النقاط البارزة في القضية، والنظر إلى الأبدال على أنها إما حسنة وإما سيئة، والسعي إلى حلول سريعة. أما القرارات المركبة فتتميز بمعالجة منفتحة ومرنة للمعلومات، والنظر إلى الأبعاد المختلفة للقضية والبحث المتواصل عن الجديد، وتناول وجهات نظر متعددة وربطها على نحو متكامل، والاستجابة بمرونة.

التصنيف (categorization): عملية ذهنية نرى من خلالها الأشخاص أو غيرهم من المثيرات (الموضوعات أو الأشياء) كأعضاء في جماعات لا كأفراد مستقلين بذواتهم (أو وحدات مستقلة بذاتها). وتمثل هذه العملية أساس التصوير النمطي للجماعات المختلفة.

التعزيز (Reinforcement): العملية التي تؤدي بالإنسان أو الحيوان إلى تعلم سلوك ما (فينزع إلى تكرار ذلك السلوك) حين يكافأ على القيام به.

التعصب (Prejudice): تعني كلمة تعصب في اللغة الإنكليزية الحكم المسبق، وتعبر في علم النفس الاجتماعي المظهر أو المكون العاطفي من الاتجاه نحو جماعة ما ويتمثل بمشاعر القبول أو النفور من أعضاء تلك الجماعة. فهو لا يقتصر على كراهية جماعة ما وإن كان يستخدم مصطلح التعصب في إطار المناوَأة والنفور. وقد يتطور التعصب ضد الجماعة المغايرة للفرد في العنصر أو الإثنية أو القومية أو الجنس وغيرها من الفروق بين الجماعات.

ويصاحب التعصب اعتقادات، وصور نمطية، وغير ذلك من الإدراكات غير المبنية على أسس عقلانية تنعكس على الممارسات التي يتلقاها أو يتعرض لها الفرد بناء على انتمائه إلى الجماعة.

التفكير الجمعي (group think): حالة ذهنية تعيق الجماعة عن الوصول إلى قرارات سديدة وأحكام راشدة تكون فيها الجماعة، وفق ما يرى جانيس (Janice) واضع هذا المصطلح، متماسكة تماسكًا شديدًا تصبح معه رغبتها في توحيد الكلمة والوصول إلى إجماع أقوى من حاجتها إلى تقويم البُدَلاء (أو المعلومات) المتاحة تقويمًا واقعيًا - ويتجلى ذلك في إهمال المعلومات المخالفة للرأي المجمع عليه، والوقوف بحزم في وجه الخارجين على الإجماع.

التمييز (Discrimination): ويشير إلى الممارسات الفعلية التي تتبع ضد فئة أو جماعة، ويمثّل تاليًا المكون السلوكي من الاتجاه نحو تلك الجماعة. ويتمثل في حرمان أعضاء الجماعة فرص التعليم أو التوظيف وغير ذلك من أشكال التمييز، ومن أبرز أشكاله التمييز العنصري، والتمييز الجندري/ الجنوسي.

التنافر المعرفي (Cognitive Dissonance): حالة من الضيق يستشعرها الفرد عندما يدرك وجود عدم توافق بين اثنين أو أكثر من الأفكار أو المعتقدات أو القيم لديه. ويعتقد فستنغر، واضع هذا المصطلح، أن الإنسان يمتلك دافعًا يدفعه إلى التخلص من التنافر أو التناقض ويعيد التوازن أو الانسجام بين الأفكار. ويتحقق ذلك بتغيير واحد من الأفكار المتعارضة أو تعديله، أو إضافة أفكار جديدة تسد الفجوة، أو التقليل من أهمية عنصر ما من العناصر الباعثة على التنافر.

التوزيع العشوائي (Random Assignment): توزيع الأفراد على مجموعات التصميم التجريبي، بحيث يكون لكل فرد فرصة مساوية لفرصة أي فرد آخر في الوقوع في أي مجموعة من المجموعات التي يشملها التصميم سواء التجريبية منها أو الضابطة. ويرمي هذا الإجراء إلى تحييد الفروق

الفردية (العقلية أو الشخصية أو الاجتماعية) بين المجموعات قبل البدء بالتجريب.

الثقافة السياسي (Political Sophistication): يشير هذا المصطلح إلى مقدار ما يحمل الفرد من المعرفة المنظمة بالشؤون السياسية. ويُبيّن الباحثون المهتمون بهذا المجال أن للثقافة السياسية آثارًا على جوانب مختلفة من جوانب السلوك السياسي للجماهير سياسيًا وآرائهم السياسية ويشير الباحثون إلى اختلافات بين المثقفين وغير المثقفين في معالجتهم للمعلومات السياسية، وفي سلوكهم وتفضيلاتهم الانتخابية، ومشاركتهم السياسية. ويتضمن أدب الموضوع مقاييس لقياس هذا المتغير، مثال ذلك مقياس روبرت لاسكن وجون بولوك.

الخطأ الأساس في العزو (Fundamental Attribution Error): الميل إلى المبالغة في عزو سلوك الشخص الملاحظ (في موقف ما من مواقف الحياة اليومية) إلى أسباب شخصية، نزوعية لدى ذلك الشخص، والتقليل من أهمية الموقف الذي أحاط به عند القيام بذلك السلوك. ويعتبر هذا الميل مصدرًا من مصادر التوتر والخلاف في العلاقات بين الأشخاص.

سكيما (Schema): السكيمات هي الوحدات الأولية للمعرفة، تنتظم فيها الأفكار والمعلومات المتعلقة بالعالم الخارجي - والمتعلقة بالذات (Self) كذلك. وما أن تتكوّن السكيما حتى تأخذ دورة حياة خاصة فقد تنمو وتتسع وتتفرع أو تظل ضامرة ومحدودة وفقًا للمدخول المعلوماتي الذي يُتاح لها. وهي تنظم المدخول الجديد وتتمثله على نحو يتناسب معها، أو تتعدل وتتواءم مع ذلك المدخول إذا كان مختلفًا مع معطياتها. واستخدام السكيمات يسرع التعامل مع المعلومات الجديدة ويقلل الجهد المطلوب ويساعد على الاستجابة للمواقف في ضوء ذلك. وتتسم السكيمات بمقاومتها للتغيير وتؤثر في مجمل العمليات المعرفية على نحو يجعل معالجة المعلومات تأتي بنتائج متسقة معها، فتُنشيء نوعًا من الثبات في رؤية الإنسان للعالم.

السلوك السياسي (Political Behavior): يشير السلوك السياسي في تعريفه الواسع،

وفق ما يرى مؤلف هذا الكتاب، إلى أي نشاط يرمي إلى تحقيق غاية سياسية. ويشمل بذلك النشاطات التي يمارسها الناس العاديين في المشاركة السياسية - من الانضمام إلى الأحزاب، والتصويت في الانتخابات، إلى الاحتجاج والتظاهر وحتى السلوك المتطرف - كما يشمل سلوك النخبة السياسية من صنّاع القرار في حكومات الدول.

السيرة النفسية (Psychobiography): كتابة للسيرة الحياتية الخاصة لأشخاص ذوي أهمية كالقادة السياسيين أو الفنانين، بالاستناد إلى أحد المنظورات النفسية إلى الشخصية الإنسانية وكيفية تشكيلها. وقد احتلت مدرسة التحليل النفسي موقع الصدارة بوصفه أساسًا لوضع السير النفسية التي ظهرت حتى الآن.

الصورة النمطية (Stereotype): منظومة من الاعتقادات بشأن جماعة ما، وما تمتلكه من خصائص شخصية وأنماط سلوكية (قد تكون إيجابية أو سلبية في طبيعتها)، وتشكل هذه الاعتقادات المكون المعرفي من الاتجاه نحو الجماعة. وتنطوي الصورة النمطية على تضخيم الخصائص المميزة للجماعة في نظرها، وتقليص للفروق بين أعضاء الجماعة موضوع الصورة. وترتبط الصور النمطية بتميزات معرفية (في معالجة المعلومات المتعلقة بها) وبتميزات سلوكية قد تقود الأفراد موضوع الصورة إلى السلوك بالطريقة المتوقعة منهم «نمطيًا»، وهو ما يعرف بـ «النبوءة المحققة لذاتها».

علم النفس الاجتماعي (Social Psychology): الدراسة العلمية لعمليات التأثير الاجتماعي، والمعرفة الاجتماعية والعمليات الذهنية التي تكتنفها، والعلاقات الاجتماعية وتطورها. ويُعنى بوجه خاص بأثر الموقف في السلوك والأفكار والمشاعر.

علم النفس البيولوجي (Biological Psychology): الفرع من علم النفس الذي يبحث في الأسس البيولوجية/العصبية للسلوك والعمليات العقلية، وخصوصًا ما يتعلق منها بالدماغ والجهاز العصبي المركزي.

علم النفس التطوري (Evolutionary Psychology): دراسة للأصول البيولوجية للسلوك الإنساني (بما فيه السلوك الاجتماعي) التي تشكلت من خلال عمليات الانتقاء الطبيعي لما هو صالح للبقاء.

علم النفس السياسي (Political Psychology): ميدان أكاديمي يجمع بين دراسة علم النفس والعلوم السياسية (وميادين أخرى كالاقتصاد، وعلم الاجتماع، والفلسفة والتاريخ والصحافة وغيرها) يدرس السياسيين والممارسات السياسية من منظور نفسي. ويركز فريق من الباحثين فيه في الغالب على دراسة السلوك والقرارات السياسية للنخبة في حين يركز فريق آخر على دراسة السلوك السياسي والمشاركة السياسية للعامة. ويتناول السلوك السياسي كظواهر تتأثر بالأفراد والسياقات التي يتفاعلون معها فتدخل دراسة الشخصية والدوافع والنشاطات الذهنية والاعتقادات كمدخلات أساسية تتفاعل مع قوى المحيط السياسي وطبيعة المهمات التي يجري التصدي لها. وبطبيعة الحال، فإن دراسة هذه المدخلات في ضوء منظور سياسي سيكولوجي يقدم التفسير للسياسات والقرارات.

علم نفس الغشتالت (Gestalt Psychology): من أوائل النظريات المعرفية في علم النفس، تطورت على يد كوهلر (Kohler)، وكوفكا (Koffka)، وليفين (Levin) قبيل الحرب العالمية الثانية. وتعطي هذه النظرية أهمية كبرى لإدراك الإنسان للمحيط ودوره في توجيه السلوك. ومن ثم تركزت بحوث هؤلاء الرواد على دراسة خصائص الإدراك البشري وانعكاسها على المعرفة والسلوك والتعلم. وجاءت تسمية غشتالت (والتي تعني «الكل» بالألمانية) من «الشكل الكلي» التي ينطلق منها الإدراك البشري في رؤيته للعالم بحسب اعتقاد هذه المدرسة، واعتمدت مقولة أرسطو في «أن الكل هو أكبر من مجموع الأجزاء». وأكدت هذه المدرسة الطبيعة المتغيرة لإدراك الإنسان للأشياء وفقًا للسياق الكلي الذي يحتويها. وقد نقل ليفين معطيات هذه النظرية وطبقها على دراسة الإدراك والسلوك الاجتماعيين، وكان رائد المقاربة الموقفية حيث رأى أن السلوك لا يُفهم إلا في ضوء الموقف المحيط.

علم النفس المعرفي (Cognitive Psychology): الدراسة العلمية للعمليات العقلية العليا، يتناول الذاكرة كجهاز لحفظ المعلومات، طبيعته ومكوناته وكيفية عملها، والنسيان والعوامل المؤثرة في الاحتفاظ بالمعلومات أو خسرانها وما قد يعتريها من تغيير أو تحريف، والإعاقات التي قد تتعرض لها الذاكرة وما تكشفه عن أسسها البيولوجية. ويتناول عمليات التفكير من حيث مكوناته من مفاهيم، وأطر معرفية، وصور؛ وعمليات صنع القرارات والاستراتيجيات المتبعة فيها ومصادر الخطأ فيها. ويتناول عمليات حل المشكلات، وعمليات الإبداع والتفكير الابتكاري.

قياس التمثيل/ المماثلة (Analogical Reasoning): وهو عملية معرفية يجري فيها استنتاج شيء عن موضوع لصلاحية الاستنتاج في حالة موضوع آخر [الحكم على الجزئي لثبوت الحكم في جزئي آخر، عن **المعجم الفلسفي** لجميل صليبا، 1971، ص68]. وقياس المماثلة مظهر من مظاهر التفكير الإنساني كما هو الاستقراء والاستنباط يجري استخدامه في العلوم والفلسفة واللغة والعلوم الاجتماعية. وتؤدي المماثلة دورًا هامًا في حل المشكلات وصنع القرارات، وعمليات التعرف والتذكر وغير من العمليات المعرفية.

اللاشعور (Unconscious): ذلك الجزء من العقل الذي يختزن الصراعات والخبرات المؤلمة المكبوتة والتي لا يتم استرجاعها إلا من خلال التحليل النفسي. وقد تتسرب من خلال الأحلام وزلات اللسان وغير ذلك من أشكال التعبير التي لا تخضع للعقل الواعي.

اللوزة (Amygdala): جزء من الجهاز العصبي يتحكم بالانفعالات، والعدوان وتشكّل الذاكرة الانفعالية.

المقاربة السيكوديناميكية (Psychodynamic Approach): منظور من علم النفس يرى بأن الجزء الأعظم من السلوك البشري هو نتاج قوى ودوافع لاشعورية.

المكنزمات/ الآليات الدفاعية (Defense-Mechanisms): استراتيجيات تستخدمها الأنا من وجهة نظر التحليل النفسي للتخفيف من حالة القلق الناجم عن الصراع (بين الأنا والهو) والتي تعمل على تشويه الواقع وخداع الذات.

الموقفية (Situationism): مدخل (أو منظور) لفهم السلوك الإنساني تُعتبر فيه البيئة، أو الموقف المحيط بالفرد، العامل الأكثر أهمية في تشكيل أو توجيه سلوكه.

النزوعية (Dispositionism): مقاربة (أو منظور) يُعتبر فيه الفرد وما يحمله من قيم واعتقادات وخصائص شخصية العامل الأكثر أهمية في توجيه سلوكه.

نظرية الإحباط - العدوان (Frustration-Aggression Theory): نظرية تفسر العدوان برده إلى الإحباط الناجم عن إعاقة الفرد من الوصول إلى هدف.

نظرية التحليل النفسي (Psychoanalytic Theory): هي نظرية فرويد في الشخصية والسلوك الإنسانيين؛ تعطي الأهمية الكبرى للغرائز، والدوافع اللاشعورية، وآليات الدفاع النفسية التي يستخدمها الفرد في مواجهة الدوافع غير العقلانية الكامنة لديه.

نظرية العزو (Attribution theory): تتضمن في الواقع عددًا من النظريات التي تشترك في سعيها لتحديد المبادئ التي تحكم استنتاجاتها للأسباب التي تقف وراء السلوك والآثار المترتبة على العزو السببي/التحليلي (Casual attributions) الذي نصل إليه أو نستنتجه.

نموذج الإشراط الإجرائي (Operant Conditioning Model): نموذج طوره سكنر أحد رواد المدرسة السلوكية، ويرى أن السلوك يزداد قوة بالتعزيز ويضعف بتوقف التعزيز.

الهوية الاجتماعية (Social Identity): جانب من جوانب مفهوم الفرد لذاته ينبثق عن عضويته في جماعة أو جماعات معينة (وفق تصنيف الفرد لنفسه وتصنيف الآخرين له)، وما يصاحب ذلك المفهوم من ارتباطات عاطفية، واعتبارات اجتماعية تتصل بمكانة الجماعة مقارنة بغيرها من الجماعات.

ثبت الأعلام

آش، سولومون (Asch, Solomon) (1996-1907): يعتبر سولومون آش رائدًا من رواد علم النفس الاجتماعي، ساهم مساهمة فاعلة في إرساء قواعد المنهج التجريبي في علم النفس الاجتماعي. اختط طرائق مبتكرة لدراسة الإدراك الاجتماعي، وتكوين الانطباعات مستلهمًا النظرية الغشتالتية (ذات الأصول الألمانية) في علم النفس لاستخلاص المبادئ العامة لهذه العمليات الذهنية - الاجتماعية وآثارها في السلوك والتفاعل الاجتماعيين. لكن بحوثه في مجال التأثير الاجتماعي وفي ظاهرة الامتثال/ الانسياق على وجه التحديد تعد أبرز إنجازاته وأكثرها إبداعًا. فقد استطاع آش من خلال إجراءات تجريبية بسيطة الكشف عن حقائق عميقة تتصل بطبيعة التأثير الاجتماعي ودوره في فهمنا لأحكام البشر على الواقع ورؤيتهم له. واستنادًا إلى خلفيته الغشتالتية أكد أن السلوك الاجتماعي يجب أن يُفهم في ضوء السياق الذي يجري فيه، وأنه يفقد معناه بمعزل عن ذلك السياق.

أولبرت، غوردون (Allport, Gordon) (1967-1897): عالم نفس أميركي، يُعد واحدًا من مؤسسي ميدان علم النفس بوجه عام، وعلم نفس الشخصية بوجه خاص (personality psychology). أخذ اتجاهًا مستقلًا في دراسة الشخصية الإنسانية مغايرًا للمنظورين الفرويدي والسلوكي اللذين كانا مهيمنين في حينه (والمتباعدين نظريًا إلى حد كبير)، ومشددًا على تفرد الشخصية، وأهمية السياق الراهن لفهمها. انصبّ اهتمامه على دراسة السمات الشخصية وقياسها، ومن ثم على دراسة ظواهر اجتماعية كالتعصب. وكان يبحث في مناطق بكر غير مطروقة، وبأدواته الخاصة. ترك أثرًا قويًا في

طلبته في هارفرد، وبرز منهم كثيرين في ما بعد. له مؤلفات في سيكولوجية التعصب، والشخصية، والدين. عمل في جامعة هارفرد من 1930- 1967، ومُنح جائزة الميدالية الذهبية من مؤسسة علم النفس الأميركية عام 1963، وجائزة الإنجاز العلمي المتميز من الرابطة الأميركية لعلم النفس.

بنكر، ستيفن (Pinker Steven) (- 1954): عالم نفس كندي، متخصص في علم المعرفة، واللغة، وأسسها البيولوجية. تتمحور بحوثه حول المعرفة البصرية واكتساب اللغة المبكر مع التركيز على الأبعاد العصبية لهذه العمليات. وقع ضمن قائمة المئة لأكثر العلماء والمفكرين تأثيرًا في العالم عام 2004 وفق مجلة التايم. من أكثر كتبه تداولًا: «غريزة اللغة»، و«كيف يعمل الدماغ»، «الكلمات والقواعد»، «الصفحة البيضاء»، «مادة الفكر»، وهي تدمج علم المعرفة بعلم النفس التطوري والجينات السلوكية.

جانيس، إيرفنغ (Janis, Irving) (1990-1918): حصل على الدكتوراه في علم النفس من جامعة كولومبيا، والتحق عام 1947 بهيئة التدريس في جامعة ييل، حيث عمل ما يقارب أربعين عامًا، ثم عمل كأستاذ شرف في جامعة بيركلي. بحث في موضوع تغيير الاتجاهات ثم أخذ في دراسة ديناميات الجماعة، وصُنع القرارات مما قاده إلى الكشف عما سماه ظاهرة التفكير الجمعي (groupthink)، والتي تشير إلى ميل الجماعات إلى الوصول أحيانًا إلى إجماع بتأثير الضغوط الخفية للجماعة، ولأهداف اجتماعية ليست ذات صلة بمضمون القرار، ما يُعيقها عن معالجة المعلومات المتاحة بطرائق بناءه. ووضع تاجفل ما يزيد عن عشرة كتب في هذا المجال، ونال جائزة الرابطة الأميركية لتقدم العلوم، وجائزة الإسهام العلمي المتميز من الرابطة الأميركية لعلم النفس، وجائزة مماثلة من جمعية علم النفس الاجتماعي التجريبي.

جيرفيز، روبرت (Jervis, Robert) (- 1940): حصل على الدكتوراه في العلوم السياسية من جامعة بيركلي، ويعمل أستاذًا للعلاقات الدولية في جامعة كولومبيا. تتمحور بحوثه حول التحيزات الإدراكية التي تكتنف عملية صنع القرار في العلاقات الدولية، ومن كتبه المعروفة في هذا الإطار **الإدراك وسوء الإدراك في العلاقات الدولية**، و**منطق الصور في العلاقات الدولية**، والنظام

وتعقيدات الحياة السياسية والاجتماعية. وله كتابات ينتقد فيها سياسة بوش نقدًا شديدًا. ساهم في مشاريع بحثية حول الانتشار الذري ووضع كتابًا في هذا الموضوع. وعمل رئيسًا للجمعية الأميركية للعلوم السياسية.

زمباردو، فيليب (Zimbardo, Philip) (- 1933): عالم نفس اجتماعي أميركي، درس علم النفس وعلم الاجتماع والأنثروبولوجي في دراسته الأولى، ثم حصل على الدكتوراه في علم النفس من جامعة ييل. يعمل في جامعة ستانفورد منذ عام 1967. وتمثل التجربة التي أجراها ورد حول حياة السجن أشهر إنجازاته، وقد قدم فيها الدليل على أثر المواقف والأوضاع الاجتماعية على السلوك الإنساني. له بحوث في نظرية «المنظور الزمني» و«المُخيلة البطولية» عن إمكان تعديل السلوك العدواني. وقد أعادت فضيحة سجن أبو غريب في العراق الاهتمام بأعماله ووضع كتابًا حول سيكولوجية التأثير الاجتماعي بعنوان **تأثير الشيطان** (*The Lucifer Effect*). ترأس الجمعية الأميركية لعلم النفس، ونال عددًا من الجوائز القيمة على إسهاماته العلمية في هذا المجال.

زيليكوف، فيليب (Zelikow, Philip) (- 1954): دبلوماسي، ومحام، وأكاديمي أميركي. يعمل استاذًا للتاريخ في جامعة فيرجينيا. وعمل مديرًا تنفيذيًا للجنة الحادي عشر من سبتمبر لدى الحكومة الأميركية ومستشارًا في وزارة الخارجية. التحق بالعمل الحكومي في الشؤون الخارجية، وشؤون الأمن القومي، وتولى مهام رسمية عديدة من خلال مجلس الأمن القومي الأميركي، ووضع مع كونداليزا رايس دراسة حول الوحدة الألمانية. تولى مهمات تتعلق بالحرب على الإرهاب، وكان ناقدًا لممارسات الحكومة الأميركية فيها، ولسياستها في الشرق الأوسط.

سكنر، بوروس فريدريك (Skinner, Burros Fredric) (1990-1904): أحد رواد المدرسة السلوكية وأبرزهم. أسهمت نظريته في وضع أسس علم النفس الحديث، ارتأى فيها أن يُقيم علمًا دقيقًا على غرار المنهج العلمي في العلوم الطبيعية، وركز في دراسته للسلوك تاليًا على المشاهَد القابل للملاحظة والقياس، واعتقد أن البحث في العقل والإرادة الحرة لا يستوفي

شروط المنهج العلمي الصارم. مناقضًا بذلك موقف المدرستين المعرفية والإنسانية في علم النفس. ولكن فحصه الدقيق لآليات الإشراط من خلال «صندوق سكنر» والتحليل التجريبي للسلوك، أغنى المعرفة النفسية، وأسهم في ابتكار تطبيقات جوهرية في مجالات علم النفس التربوي، والتنظيمي، والعلاج النفسي، والكثير غيرها. وهو واحد من أغزر رواد علم النفس انتاجًا، نشر ما يقارب 200 مقالة علمية و20 كتابًا. واعتُبر في استطلاع للرأي بين علماء النفس أُجري عام 2002 أكثر علماء النفس في القرن العشرين تأثيرًا.

فروم، إريك (1900-1979) (Fromm Erich): باحث ألماني يُعدّ من أبرز مؤسسي علم النفس الاجتماعي والسياسي. هاجر إلى الولايات المتحدة من ألمانيا عند ظهور النازية في ثلاثينيات القرن الماضي وعمل أستاذًا في عدد من الجامعات الأميركية وممارسًا للتحليل النفسي. يعتبر من جملة الباحثين الذين ينسبون إلى «مدرسة فرانكفورت» تأثر بمؤلفات ماركس الفلسفية المبكرة والمدرسة النيوفرويدية في التحليل النفسي. شرح نظرياته في العلوم الاجتماعية في مؤلفات وضعها بالألمانية والإنكليزية، من أشهرها الهروب من الحرية (1941) (*Escape from Freedom*). ويرى فروم أن حرية الإرادة عنصر جوهري في الشخصية، فإما أن يعتنقها الشخص فيتمتع بالعافية والاستقرار النفسي، أو يهرب منها فتغدو دليلًا على الاضطراب والصراع الداخلي. وثمة ثلاث آليات للهروب من الحرية هي: الامتثال (conformity) للمعايير التي يفرضها المجتمع، والخضوع للسلطة التسلطية (authoritarianism)، والانجراف مع النزعة التدميرية (destructivism) الرامية إلى القضاء على الآخرين.

فرويد، سيغموند (1865-1939) (Freud, Sigmund): درس الطب في فيينا وقاده تخصصه في علم الأعصاب إلى التعامل مع المرضى النفسيين، فمهّدت خبرته هذه لإنجازاته العلمية المبهرة في علم النفس، وفي مجال الشخصية والعلاج النفسي بوجه خاص. على الرغم من الشكوك والجدل الذي أثارته نظريته في التحليل النفسي، فإن مفاهيمه لا تزال تمثّل جزءًا من أسس علم

النفس. رأى أن الشخصية الإنسانية تتضمن ثلاثة أنظمة: الهو (id) والأنا (ego) والأنا الأعلى وأن الانسجام بينها يمثّل أساس التكيف النفسي. وقال بوجود آليات تدافع بها الذات عن نفسها كالكبت والإنكار والإبدال وغيرها لتساعد في تحقيق التوازن بين تلك الأنظمة الثلاث. وتبرز فكرة اللاشعور، وأثر الخبرات الطفولية المبكرة في نمو الشخصية كأكثر الأفكار إبداعًا في علم النفس، وما ينسجم مع معطياته الحديثة. استمر الإرث الفرويدي عبر تلامذته الذين عملوا على تطوير أفكاره وإنشاء مدارسهم الخاصة على أساس من لبناته الأولى في التحليل النفسي. وينصبّ معظم النقد الذي يوجّه إلى فرويد على صعوبة التحقق الإمبيريقي من كثير من مفاهيمه وفرضياته.

فستنغر، ليون (1919-1989) (Festinger, Leon): يحتل فستنغر مكانة رفيعة بين علماء النفس، واعتبر في الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي عالم النفس الاجتماعي الأبرز، تتلمذ على يد كيرت ليفين الذي يعتبر من مؤسسي علم النفس الاجتماعي الحديث، وأسهم في إثراء الميدان على الصعيدين المنهجي والنظري. قادته دراساته للاتصال والعلاقات الاجتماعية إلى استبصارات عميقة في طبيعة العمليات النفسية التي تحافظ على الاتساق بين أعضاء الجماعة في رؤيتهم للواقع الاجتماعي، والاتساق المعرفي لدى الفرد ذاته، وإلى استبصارات عميقه في الدوافع التي تكمن وراء تلك العمليات. وانبثقت نظرياته في المقارنة الاجتماعية (social comparison) والتنافر المعرفي (cognitive dissonance) عن منظور معرفي يتعارض إلى حد كبير مع المنظور السلوكي الذي هيمن على علم النفس في النصف الأول من القرن العشرين. ويُنسب إليه الفضل في تحويل التجربة المخبرية إلى أداة قوية في البحث عن المعرفة.

فسك، سوزان (1952 -) (Fiske, Susan): عالمة نفس اجتماعي أميركية، تعمل في جامعة برنستون، لها بحوث أصيلة في مجالات التعصب والصور النمطية والمعرفة الاجتماعية. حصلت على الدكتوراه من جامعة هارفرد. لها ما يزيد عن 250 مقالة علمية منشورة وعدد من الكتب، كما تشارك في

تحرير كتب سنوية تتضمن البحوث الحديثه في ميدان المعرفة الاجتماعية بوجه خاص، وتتمثل أبرز إسهاماتها في نموذج «مضمون الصورة النمطية» و«نظرية التناقض في الاتجاهات الجنسوية». وأدخلت فسك مصطلح «البخل المعرفي» المتداول على نطاق واسع في ميدان المعرفة الاجتماعية لوصف ميل البشر إلى الاقتصاد في التعامل مع المعلومات الاجتماعية. ترأست رابطة العلوم النفسية، وجمعية الشخصية وعلم النفس الاجتماعي، ومؤسسة التقدم بالعلوم السلوكية والدماغ.

فولكان، فاميك (Vamik, Volkan): أستاذ شرف في الطب النفسي من أصل تركي - قبرصي، يعمل في جامعة فرجينيا. درس الطب في جامعة أنقره، ثم تخصص في الطب النفسي على قاعدة التحليل النفسي الفرويدية. احتل مواقع أكاديمية قيادية عديدة في جامعات أميركية كبرى، وعمل في مهمات استشارية سياسية تتصل بالتفاوض وحل النزاعات وشارك في لجان رفيعة ذات صلة بهذا المجال. أسس مركزًا لدراسة الدماغ والتفاعل الإنساني في جامعة فرجينيا مع خبراء في التحليل والطب النفسي، والدبلوماسية، والتاريخ، والعلوم السياسية لتطبيق المعرفة العلمية الحديثة في معالجة التوترات الإثنية والعنصرية، والإرهاب، والصراعات الدولية.

لاسويل، هارولد (Lasswell, Harold) (1902-1976): من رواد علماء السياسة الأميركيين، يُعتبر من أغزر معاصريه إنتاجًا وأصالة في البحث. درَس في جامعة شيكاغو وتأثر بالمفكرين البراغماتيين كما تأثر بفرويد ومدرسة التحليل النفسي. عمل أثناء الحرب العالمية الثانية على تحليل الدعاية النازية، وتركت تحليلاته بصمات هامة في موضوع الدعاية والاتصال. ربط بين علم النفس والسياسة، وبحث في أهمية الشخصية، والبنية الاجتماعية والثقافية في تحليل الظواهر السياسية. اعتمد طرائق منهجية مبتكرة في دراسة موضوعاته، تضمنت أساليبه جمع بيانات، وطرائق تحليل أخذت طريقها إلى حقول مختلفة من العلوم الاجتماعية.

لوك، جون (John Locke) (1632-1704): فيلسوف إنجليزي يعتبر والد الليبرالية الكلاسيكية ومن أهم المفكرين التنويريين وأكثرهم تأثيرًا، ومن أوائل

البريطانيين التجريبيين، متابعًا لخطى فرنسيس بيكون (Francis Bacon). أسهم في بلورة نظرية العقد الاجتماعي، وكان لعمله تأثير كبير في تطور نظرية المعرفة والفلسفة السياسية، وأثرت كتاباته في فولتير (Voltaire) وروسو (Rousseau) وعلى العديد من زعماء الثورة الأميركيين. كان أول من عرّف الذات من خلال استمرارية الوعي، وافترض أن العقل لائحة بيضاء، وأن المعرفة يتم تحديدها من خلال الخبرة المستمدة من معنى الإدراك فحسب، مناقضًا أفكار الفلسفة الديكارتية التي افترضت وجود أفكار ومقولات فطرية في العقل البشري.

ماركس، كارل (1818-1883) (Marx, Karl): فيلسوف واقتصادي اشتراكي ألماني، طوّر نظرية وأيديولوجيا أصبحت تحمل اسمه وأصبحت لها صيغ وتنوّعات في التجارب التي طبقت فيها. وقد بنيت الماركسية على المبدأ المادي في تحريك الاقتصاد، والتاريخ، والأيديولوجيا والمجتمع، وهو ما تمثله المادية الجدلية (وسائل الإنتاج ملكية جماعية تمثل البنية التحتية، وعلاقات الإنتاج تمثّل البنية الفوقية) والمادية الاجتماعية (التحوّل من الرأسمالية إلى الشيوعية التي تسود فيها البروليتاريا). كما بنيت أيضًا على رفض مهمة التفسير بل الدعوة إلى التغيير الذي يحمل بُعدًا ثوريًا، وعلى الصراع الطبقي. أعلن مع إنغلز البيان الشيوعي سنة 1848، وأسس الأممية الأولى. من كتابات ماركس التي أثرت في التاريخ الحديث والمعاصر نذكر: **نقد الفلسفة السياسية لهيغل** (1843)، **أطروحات حول فيورباخ** (1844)، **العائلة المقدسة** (مع إنغلز 1845)، **بؤس الفلسفة** (1847)، **خطاب حول التبادل الحر** (1848)، **أسس نقد الاقتصاد السياسي** (1857-1858)، **رأس المال** (1865-1867) (*Das Kapital*).

ملغرام، ستانلي (1933-1984) (Stanley, Milgram): عالم نفس اجتماعي أميركي، حصل بدايةً على شهادة البكالوريوس في العلوم السياسية، ولكنه اتجه إلى دراسة علم النفس الاجتماعي في ما بعد، والتحق بجامعة هارفرد، حيث أعد أطروحة الدكتوراه تحت إشراف غوردون ألبورت، أحد أعلام هذا الميدان، كما عمل مساعد بحث لدى سولومون آش، أحد رواد المنهج التجريبي في دراسة الظواهر النفسية الاجتماعية. وقد انعكست آثار خبرته

في هذا المنهج على استقصاءاته اللاحقة في سلوك الطاعة لدى البشر. أجرى ملغرام سلسلة من التجارب بأسلوب مبتكر أفضى إلى نتائج مثيرة للاهتمام والجدل في آن. حيث كشفت تجاربه استعداد الناس لإطاعة السلطة حتى عندما تتعارض الأوامر المعطاة مع القيم الأخلاقية لمتلقيها. وعلى الرغم من أن تفسيراته أخذت مقاربة موقفية شدّدت على دور الظروف المحيطة في توجيه السلوك الإنساني، إلا أنه، في الوقت ذاته، أشار في كتابه طاعة السلطة إلى احتمال وجود نزعة فطرية لدى البشر للخضوع للسلطة - وإن كان يظل للمواقف تأثيرها في الانصياع أو التمرد. وقد أهلته إنجازاته العلمية للحصول على جائزة الرابطة الأميركية للتقدم العلمي عام 1965.

مكديرموت، روز (McDermott, Rose): أكاديمية أميركية، تعمل أستاذة في جامعة براون، ترأست الجمعية الدولية لعلم النفس السياسي. نالت الماجستير في العلوم السياسية، والدكتوراه في علم النفس الاجتماعي التجريبي من جامعة ستانفورد. حصلت على زمالة مركز الدراسات المتقدمة في العلوم السلوكية في ستانفورد، وموقعًا مماثلًا للدراسات المتقدمة في هارفرد. ونالت جوائز على التميز في الإنجاز العلمي المبكر. ألّفت ثلاث كتب ولها ما يزيد عن 90 مقالة علمية منشورة في حقول مختلفة. تُجري بحوثًا في «نظرية المرتقب»، والسياسة الخارجية الأميركية، وعلم النفس السياسي والعلاقات الدولية، والهوية، والانفعالات، وصنع القرارات، وعلم النفس التطوري، وقضايا جندرية، والأسس البيولوجية والجينية للسلوك السياسي، والعدوان على وجه الخصوص.

هادي، ليوني (Huddy, Leonie) (- 1958): أكاديمية أميركية من أصل استرالي، تبحث في موضوعات الجندر والسلوك السياسي، والهوية، والتعصب العنصري، والإرهاب، والشعور بالخوف والتهديد، والعلاقات بين الجماعات. نشرت ما يزيد على 60 مقالة علمية، وفصولًا في كتب محررة، وحررت كتاب أكسفورد السنوي في علم النفس السياسي، وكتابين في علم السياسة الجزئي (micropolitics)، وكتابًا عن الاتجاهات الحديثة في علم النفس السياسي.

هوبز، توماس (Hobbes, Thomas) (1679-1588): عالم رياضيات وفيلسوف إنجليزي يُعدّ أحد أكبر فلاسفة القرن السابع عشر وأكثرهم شهرة، خصوصًا في المجال القانوني. وعرف بمساهمته في التأسيس لكثير من المفاهيم التي أدت دورًا كبيرًا ليس على مستوى النظرية السياسية فحسب، بل كذلك على مستوى الفعل والتطبيق في كثير من البلدان. كذلك يعتبر من الفلاسفة الذين وظفوا مفهوم الحق الطبيعي في تفسيرهم لكثير من القضايا المطروحة في عصرهم واشتهر اليوم بأعماله في الفلسفة السياسية. ووضع كتابه الصادر عام 1651 تحت اسم لوياثان الأساس لمعظم الفلسفة السياسية الغربية من منظور نظرية العقد الاجتماعي. كان مناصرًا للملكية المطلقة، ولكنه طور أيضًا بعض أسس الفكر الليبرالي الأوروبي: حق الفرد والمساواة الطبيعية بين جميع البشر والشخصية الاعتبارية للنظام السياسي (التي أدت لاحقًا إلى التمييز بين المجتمع المدني والدولة).

هولستي، أُول (Holsti, Ole) (- 1932): أكاديمي أميركي متخصص في العلوم السياسية يبحث في العوامل النفسية المؤثرة في صنع القرارات السياسية والدبلوماسية. وضع نموذجًا نظريًا في دور النوايا المدركة لدى الخصم السياسي على تحليل المعلومات المستقاة عن ذلك الخصم، ويعرف باسم نموذج سوء النية المتأصل (inherent bad faith model) يفترض فيه أن سوء النية ينطوي على نزعة عدائية، وتجاهل للمؤشرات المنافية لهذا الإدراك، ما يؤثر سلبًا في عملية صنع القرار في العلاقات الدولية.

هيرمان، مارغريت (Hermann, Margaret) (- 1938): أكاديمية أميركية انصبت بحوثها على القيادة السياسية، وصناعة القرارات في السياسة الدولية، والسياسية الخارجية المقارنة، وإدارة الأزمات. عملت على تطوير أساليب لتقويم الأساليب القيادية لرؤساء الدول عن بُعد وآثار أساليب القيادة المختلفة وعمليات اتخاذ القرارات على إدارة الأزمات. ولها عدد كبير من المقالات، وما يقارب عشرة كتب في هذه الموضوعات. ترأست الرابطة الدولية لعلم النفس السياسي، ورابطة الدراسات الدولية، وعملت محررة لمجلة علم النفس السياسي.

المراجع

Books

Adorno, Theodore [et al.]. *The Authoritarian Personality.* New York: Harper and Row, 1950.

Allison, Graham and Philip Zelikow. *Essence of Decision: Explaining the Cuban Misssile Crisis.* 2nd ed. New York: Longman, 1999.

Allport, Gordon. *The Nature of Prejudice.* Reading, MA: Addison Wesley, 1954.

Altemeyer, Bob. *The Authoritarian Specter.* Cambridge, MA: Harvard University Press, 1996.

_______. *Enemies of Freedom: Understanding Right-Wing Authoritarianism.* San Francisco, CA: Jossey-Bass, 1988.

_______. *Right-Wing Authoritarianism.* Winnipeg: University of Manitoba Press, 1981.

Apter, David (ed.). *Ideology and Discontent.* New York: Free Press, 1964.

Arendt, Hannah. *Eichmann in Jerusalem: A Report on the Banality of Evil.* New York: Viking Press, 1963.

Barber, James David. *The Presidential Character: Predicting Performance in the White House.* Englewood Cliffs, NJ: Prentice-Hall, 1985; 3rd ed., 1992.

Barrett, David. *Uncertain Warriors: Lyndon Johnson and his Vietnam Advisers.* Lawrence, KN: University Press of Kansas, 1993.

Beschloss, Michael R. *Reaching For Glory: Lyndon Johnson's Secret White House Tapes, 1964-1965.* New York: Simon and Schuster, 2001.

______. *Taking Charge: The Johnson White House Tapes, 1963-1964.* New York: Simon and Schuster, 1997.

Bjorgo, Tore (ed.). *Root Causes of Terrorism.* Oslo: Norwegian Institute of International Affairs, 2003.

Blight, James and Janet Lang. *The Fog of War: Lessons from the Life of Robert S. McNamara.* New York: Rowman and Littlefield, 2005.

Bloom, Mia. *Dying to Kill: The Allure of Suicide Terror.* New York: Columbia University Press, 2005.

Bobo, Lawrence and Mia Tuan. *Prejudice in Politics: Group Position, Public Opinion, and the Wisconsin Treaty Rights Dispute.* Cambridge, MA: Harvard University Press, 2006.

Brader, Ted. *Campaigning for Hearts and Minds: How Emotional Appeals in Political Ads Work.* Chicago, IL: University of Chicago Press, 2006.

Brown, Roger (ed.). *Social Psychologie.* New York: Free Press, 1965.

Browning, Christopher. *Ordinary Men: Reserve Police Battalion 101 and the Final Solution in Poland.* New York: Harper Collins, 1992.

Burchill, Scott [et al.]. *Theories of International Relations.* 2nd ed. New York: Palgrave Macmillan, 2001.

Burgess, Anthony. *A Clockwork Orange.* Restored Version. New York: W. W. Norton, 1986.

______. *You've Had Your Time.* New York: Penguin Books, 1990.

Burke, John and Fred Greenstein. *How Presidents Test Reality: Decisions on Vietnam, 1954 and* 1965. New York: Russell Sage Foundation, 1989.

Butler, David and Donald Stokes. *Political Change in Britain: Forces Shaping Electoral Choice.* New York: St. Martin's Press, 1969.

Butler, Gillian and Freda McManus. *Psychology: A Very Short Introduction.* New York: Oxford University Press, 1998.

Campbell, Angus [et al.]. *The American Voter.* New York: Wiley Press, 1964, and 1960.

Clark, Mary. *In Search of Human Nature*. New York: Routledge, 2002.

Clarke, Richard. *Against All Enemies: Inside America's War on Terror*. New York: Free Press, 2004.

Connor, Walker. *Ethnonationalism: The Quest for Understanding*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 1994.

Crigler, Ann [et al.] (eds.). *The Affect Effect: Dynamics of Emotion in Political Thinking and Behavior*. Chicago, IL: University of Chicago Press, 2007.

Dallek, Robert. *Flawed Giant: Lyndon Johnson and his Times, 1961-1973*. New York: Oxford University Press, 1998.

Damasio, Antonio. *Descartes' Error: Emotion, Reason and the Human Brain*. New York: Putnam Books, 1994.

Darley, John and Bibb Latane. *The Unresponsive Bystander: Why Doesn't He Help?*. Englewood Cliffs, NJ: Prentice-Hall, 1970.

Davis, Peter (dir.). *Hearts and Minds*. Los Angeles, CA: BBS Productions, 1974.

Dawkins, Richard. *The Selfish Gene*. 30th anniversary edition. New York: Oxford University Press, 2006.

De Rivera, Joseph. *The Psychological Dimension of Foreign Policy*. Columbus, OH: Charles Merrill, 1968.

Dobb, Leonard W. *Patriotism and Nationalism: Their Psychological Foundations*. New Haven, CT and London: Yale University Press, 1964.

Dollard, John [et al.]. *Frustration and Aggression*. New Haven, CT: Institute of Human Relations, 1939.

Dovidio, John, Peter Glick and Laurie Rudman (eds.). *On the Nature of Prejudice: Fifty Years after Allport*. Malden, MA: Blackwell, 2005.

Downs, Anthony. *An Economic Theory of Democracy*. New York: Harper and Row, 1957.

Eulau, Heinz. *The Behavioral Persuasion in Politics*. New York: Random House, 1963.

Eysenck, Michael and Mark Keane. *Cognitive Psychology: A Student's Handbook.* Hove-London: Lawrence Erlbaum, 1990.

Falkowski, Lawrence (ed.). *Psychological Models in International Politics*. Boulder, CO: Westview Press, 1979.

Farnham, Barbara. *Roosevelt and the Munich Crisis: A Study of Political Decision-Making*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 1997.

Festinger, Leon. *Theory of Cognitive Dissonance*. Stanford, CA: Stanford University Press, 1957.

Fick, Paul. *The Dysfunctional President: Inside the Mind of Bill Clinton*. New York: Birch Lane Press, 1995.

Fiorina, Morris. *Retrospective Voting in American National Elections*. London: Yale University Press, 1981.

Fiske, Susan and Shelley Taylor. *Social Cognition*. Reading, MA: Addison Wesley, 1984.

Frank, Justin. *Bush on the Couch: Inside the Mind of the President*. New York: Harper Collins, 2004.

Freud, Sigmund. *Civilization and Its Discontents*. New York: W. W. Norton, 1961.

_______. *Leonardo da Vinci: A Memory of His Childhood*. London: Routledge, 1999.

_______ and William Bullitt. *Thomas Woodrow Wilson, Twenty-Eighth President of the United States: A Psychological Study*. Boston, MA: Houghton Mifflin, 1967.

Gambetta, Diego (ed.). *Making Sense of Suicide Missions*. New York: Oxford University Press, 2005.

George, Alexander. *Presidential Decisionmaking in Foreign Policy: The Effective Use of Information and Advice*. Boulder, CO: Westview Press, 1980.

_______ and Juliette George. *Woodrow Wilson and Colonel House: A Personality Study*. New York: Dover Publications, 1956, and 1964.

Glad, Betty. *Jimmy Carter: In Search of the Great White House*. New York: W. W. Norton, 1980.

Goldhagen's, Daniel. *Hitler's Willing Executioners: Ordinary Germans and the Holocaust.* New York: Alfred Knopf, 1996.

Golding, William. *The Lord of The Flies.* London: Faber and Faber, 1954.

Goodwin, Doris Kearns. *Lyndon Johnson and the American Dream.* New York: Harper and Row, 1976.

Goodwin, Richard. *Remembering America: A Voice from the Sixties.* New York: Perennial Books, 1989.

Gourevitch, Philip. *We Wish to Inform You that Tomorrow we Will Be Killed with Our Families: Stories from Rwanda.* New York: Picador, 1998.

Green, David [et al.]. *Cognitive Science: An Introduction.* Cambridge, MA: Basil Blackwell, 1996.

Green, Donald and Ian Shapiro. *Pathologies of Rational Choice: A Critique of Applications in Political Science.* New Haven, CT: Yale University Press, 1994.

Greenstein, Fred. *The Hidden-Hand Presidency: Eisenhower as Leader.* New York: Basic Books, 1982.

Grossman, Dave. *On Killing: The Psychological Cost of Learning to Kill in War and Society.* Boston, MA: Little and Brown, 1995.

Gurr, Ted Robert. *Why Men Rebel.* Princeton, NJ: Princeton University Press, 1970.

Hafez, Mohammed. *Manufacturing Human Bombs: The Making of Palestinian Suicide Bombers.* Washington DC: United States Institute of Peace, 2005.

Hart, Paul't, Eric Stern and Bengt Sundelius (eds.). *Beyond Groupthink: Political Group Dynamics and Foreign Policy-Making.* Ann Arbor, MI: University of Michigan Press, 1997.

Heider, Fritz. *The Psychology of Interpersonal Relations.* New York: Wiley Press, 1958.

Hemmer, Christopher. *Which Lessons Matter?: American Foreign Policy Decision Making in the Middle East, 1979-1987.* Albany, NY: State University of New York Press, 2000.

Hermann, Margaret (ed.). *A Psychological Examination of Political Leaders.* New York: Free Press, 1977.

Hershman, D. Jablow. *Power Beyond Reason: The Mental Collapse of Lyndon Johnson*. Fort Lee, NJ: Barricade Books, 2002.

Hochberg, Julian. *Perception*. 2nd ed. Englewood Cliffs, NJ: Prentice Hall, 1978.

Hollis, Martin and Steve Smith. *Explaining and Understanding International Relations*. New York: Oxford University Press, 1990.

Horgan, John. *The Psychology of Terrorism*. London: Taylor and Francis, 2005.

Houghton, David Patrick. *US. Foreign Policy and the Iran Hostage Crisis*. New York: Cambridge University Press, 2001.

Hunt, Morton. *The Story of Psychology*. updated and revised edition. New York: Anchor Books, 2007.

Hybel, Alex. *How Leaders Reason: US. Intervention in the Caribbean Basin and Latin America*. Cambridge, MA: Basil Blackwell, 1990.

Hymans, Jacques. *The Psychology of Nuclear Proliferation: Identity, Emotion and Foreign Policy*. New York: Cambridge University Press, 2006.

Iyengar, Shanto and William McGuire (eds.). *Explorations in Political Psychology*. Durham, NC: Duke University Press, 1993.

Janis, Irving. *Groupthink: Psychological Studies of Policy Decisions and Fiascoes*. Boston, MA: Houghton Mifflin, 1982.

_______. *Victims of Groupthink: A Psychological Study of Foreign-Policy Decisions and Fiascoes*. Boston, MA: Houghton Mifflin, 1972.

Jervis, Robert. *Perception and Misperception in International Politics*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 1976.

Jones, Adam. *Genocide: A Comprehensive Introduction*. New York: Routledge, 2006.

Jones, David [et al.] (eds.). *Attribution: Perceiving the Causes of Behavior*. Morristown, NJ: General Learning Press, 1972.

Jost, John T. and Jim Sidanius (eds.). *Political Psychology: Key Readings*. New York: Psychology Press, 2004.

Kauppi, Mark. *International Relations Theory: Realism, Pluralism, Globahsm, and Beyond*. 3rd ed. New York: Prentice Hall, 1998.

Kecmanovic, Dusan. *The Mass Psychology of Ethnonationalism*. New York and London: Plenum Press, 1996.

Kellen, Konrad. *On Terrorists and Terrorism*. Santa Monica, CA: Rand Corporation, 1982.

Keneally, Thomas. *Schindler's Ark*. London: Hodder and Stoughton, 1982.

Keohane, Robert (ed.). *Neorealism and its Critics*. New York: Columbia University Press, 1986.

Key, Valdimer Orlando. *The Responsible Electorate*. Cambridge, MA: The Belknap Press, 1966.

Khong, Yuen Foong. *Analogies at War: Korea, Munich, Dien Bien Phu and the Vietnam Decisions of 1965*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 1992.

Knutson, Jeanne (ed.). *Handbook of Political Psychology*. San Francisco, CA: Jossey Bass, 1973.

Kuklinski, James (ed.). *Thinking About Political Psychology*. New York: Cambridge University Press, 2002.

Larson, Deborah Welch. *Origins of Containment: A Psychological Explanation*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 1985.

Lasswell, Harold. *Power and Personality*. New York: W. W. Norton, 1948.

_______. *Psychopathology and Politics*. Chicago, IL: University of Chicago Press, 1930.

Lau, Richard and David Sears. *Political Cognition*. Hillsdale, NJ: Lawrence Erlbaum, 1986.

Lazarsfeld, Paul, Bernard Berelson and Hazel Gaudet. *The People's Choice*. New York: Columbia University Press, 1948.

Lebow, Richard Ned. *Between Peace and War: The Nature of International Crisis*. Baltimore, MD: The Johns Hopkins University Press, 1981.

_______ and Janice Gross Stein. *We All Lost the Cold War*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 1994.

Lerner, Richard. *Final Solutions: Biology, Prejudice, and Genocide*. University Park, PA: Pennsylvania State Press, 1992.

Lewis, Bernard. *The Crisis of Islam: Holy War and Unholy Terror*. New York: Random House, 2003.

Lindblom, Charles. *Politics and Markets: The World's Political Economic Systems*. New York: Basic Books, 1977.

Lodge's, David. *Thinks...* New York: Viking Press, 2001.

Lodge, Milton and Kathleen McGraw. *Political Judgment: Structure and Process*. Ann Arbor, MI: University of Michigan Press, 1995.

Lorenz, Konrad. *On Aggression*. New York: Harcourt Brace, 1966.

Lupia, Arthur, Matthew McCubbins and Samuel Popkin (eds.). *Elements of Reason*. New York: Cambridge University Press, 2000.

Mackie, Diane and David Hamilton (eds.). *Affect, Cognition and Stereotyping: Interactive Processes in Group Perception*. San Diego, CA: Academic Press, 1993.

Mackie, Danie and Eliot Smith (eds.). *From Prejudice to Intergroup Emotions: Di erentiated Reactions To Social Groups*. Philadelphia, PA: Psychology Press, 2002.

Marcus, George. *The Sentimental Citizen: Emotion in Democratic Politics*. University Park, PA: The Pennsylvania State University Press, 2002.

_______, Russell Neuman and Michael MacKuen. *Affective Intelligence and Political Judgment*. Chicago, IL: University of Chicago Press, 2000.

Marcus, George [et al.]. *With Malice Toward Some: How People Make Civil Liberties Judgments*. New York: Cambridge University Press, 1995.

May, Ernest. *Lessons of the Past*. New York: Oxford University Press, 1973.

McDermott, Rose. *Political Psychology and International Relations*. Ann Arbor, MI: University of Michigan Press, 2004.

_______. *Risk-Taking in International Politics: Prospect Theory in American Foreign Policy.* Ann Arbor, MI: University of Michigan Press, 1998.

McNamara, Robert, James Blight and Robert Brigham. *Argument without End: In Search of Answers to the Vietnam Tragedy.* New York: Public Affairs, 1999.

_______ and _______. *Wilson's Ghost: Reducing the Risk of Conflict, Killing and Catastrophe in the 21 Century.* New York: Public Affairs, 2001.

Mercer, Jonathan. *Reputation and International Politics.* Ithaca, NY: Cornell University Press, 1996.

Milgram, Stanley. *Obedience to Authority: An Experimental View.* New York: Harper and Row, 1974.

Miller, Warren and Merrill Shanks. *The New American Voter.* London: Harvard University Press, 1996.

Moghaddam, Fathali and Anthony Marsella (eds.). *Understanding Terrorism: Psychosocial Roots, Consequences, and Interventions.* Washington D.C.: American Psychological Association, 2004.

Monroe, Kristen (ed.). *Political Psychology.* Mahwah, NJ: Lawrence Erlbaum, 2002.

Muslim Americans: Middle Class and Mostly Mainstream. New York: Pew Research Center, 2007.

Neuman, Russell [et al.] (eds.). *The Affect Effect: Dynamics of Emotion in Political Thinking and Behavior.* Chicago, IL: University of Chicago Press, 2007.

Neustadt, Richard and Ernest May. *Thinking in Time: The Uses of History for Decision Makers.* New York: Freedom Press, 1986.

Nie, Norman, Sidney Verba and John Petrocik. *The Changing American Voter.* Cambridge, MA: Harvard University Press, 1976.

Nisbett, Richard and Lee Ross. *Human Inference: Strategies and Shortcomings of Social Judgment.* Englewood Cliffs, NJ: Prentice-Hall, 1980.

Oliner, Samuel and Pearl Oliner. *The Altruistic Personality: Rescuers of Jews in Nazi Europe.* New York: Free Press, 1988.

Pape, Robert. *Dying To Win: The Strategic Logic of Suicide Terrorism.* New York: Random House, 2005.

Pearlstein, Richard. *The Mind of the Political Terrorist.* Wilmington, DE: SR Books, 1991.

Pedahzur, Ami (ed.). *Root Causes of Suicide Terrorism: The Globalization of Martyrdom.* New York: Routledge, 2006.

_______. *Suicide Terrorism.* Malden, MA: Polity Press, 2005.

Pinker, Steven. *The Blank Slate: The Modern Denial of Human Nature.* New York: Viking Press, 2002.

_______. *How the Mind Works.* New York: W. W. Norton, 1997.

Post, Jerrold. *Leaders and Their Followers in a Dangerous World: The Psychology of Political Behavior.* New York: Cornell University Press, 2004. (Psychoanalysis and Social Theory)

_______ (ed.). *The Psychological Assessment of Political Leaders.* Ann Arbor, MI: University of Michigan Press, 2003.

Preston, Thomas. *The President and His Inner Circle: Leadership Style and the Advisory Process in Foreign Affairs.* New York: Columbia University Press, 2001.

Ratey, John. *A User's Guide To the Brain: Perception, Attention and the Four Theaters of the Brain.* New York: Vintage Books, 2001.

Redlawsk, David (ed.). *Feeling Politics: Emotion in Political Information Processing.* New York: Palgrave Macmillian, 2006.

Reich, Walter (ed.). *Origins of Terrorism: Psychologies, Ideologies, Theologies, States of Mind.* New York: Cambridge University Press, 1990.

Rosenau, James (ed.). *International Poltics and Foreign Policy.* 2nd ed. New York: Free Press, 1969.

Ross, Lee and Richard Nisbett. *The Person and the Situation: Perspectives of Social Psychology.* Philadelphia, PA: Temple University Press, 1991.

Sacks, Oliver. *The Man who Mistook his Wife for a Hat and Other Clinical Tales.* New York: Touchstone, 1998.

Schafer, Mark and Stephen Walker (eds.). *Beliefs and Leadership in World Politics:*

Methods and Applications of Operational Code Analysis. New York: Palgrave Mcmillan, 2006.

Searle-White, Joshua. *The Psychology of Nationalism*. New York and Basingstoke: Palgrave, 2002.

Sears, David, Leonie Huddy and Robert Jervis (eds.). *Oxford Handbook of Political Psychology*. New York: Oxford University Press, 2003.

Sekuler, Robert and Randolph Blake. *Star Trek on the Brain: Alien Minds, Human Minds*. New York: W. W. Freeman, 1998.

Shepsle, Kenneth and Mark Bonchek. *Analyzing Politics: Rationality, Behavior and Institutions*. New York: W. W. Norton, 1997.

Sidanius, Jim and Felicia Pratto. *Social Dominance: An Intergroup Theory of Social Hierarchy and Oppression*. New York: Cambridge University Press, 1999.

Silke, Andrew. *Research on Terrorism: Trends, Achievements and Failures*. London: Frank Cass, 2004.

_______ (ed.). *Terrorists, Victims and Society: Psychological Perspectives on Terrorism and Its Consequences*. Chichester, UK: Jon Wiley Press, 2003.

Simon, Herbert Alexander. *Models of Man, Social and Rational: Mathematical Essays on Rational Human Behavior in a Social Setting*. New York: Wiley Press, 1957.

_______. *Reason in Human Affairs*. Stanford, CA: Stanford University Press, 1983.

Singer, Eric and Valerie Hudson (eds.). *Political Psychology and Foreign Policy*. Boulder, CO: Westview Press, 1992.

Sinno, Abdulkader (ed.). *Muslims in Western Politics*. Bloomington, IN: University of Indiana Press, 2008.

Skinner, B. F. *Beyond Freedom and Dignity*. Indianapolis, IN: Hackett Publishing, 2002.

_______. *Walden Two*. Indianapolis, IN: Hackett Publishing, 2005.

Slater, Lauren. *Opening Skinner's Box: Great Psychological Experiments of the Twentieth Century*. New York: W. W. Norton, 2004.

Smith, Anthony (ed.). *Theories of Nationalism*. 2nd ed. New York: Holmes and Meier, 1983.

Smith, Eric. *The Unchanging American Voter*. Berkeley, CA: University of California Press, 1989.

Sniderman, Paul and Philip Tetlock (eds.). *Prejudice and Politics in American Society*. Stanford, CA: Stanford University Press, 1991.

Sniderman, Paul and Thomas Piazza. *The Scar of Race*. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1993.

Sniderman, Paul, Richard Brody and Philip Tetlock. *Reasoning and Choice: Explorations in Political Psychology*. New York: Cambridge University Press, 1991.

Snyder, Richard, H. W. Bruck and Burton Sapin (eds.). *Foreign Policy Decision-Making: An Approach to the Study of International Politics*. New York: Free Press, 1962.

Sorrentino, Richard and E. Tory Higgins (eds.). *Handbook of Motivation and Cognition*. New York: Guildford Press, 1986.

Steinberg, Blema. *Shame and Humiliation: Presidential Decision Making on Vietnam*. Pittsburgh, PA: University of Pittsburgh Press, 1996.

Stone, William and Paul Schaffner. *The Psychology of Politics*. 2nd ed. New York: Springer-Verlag, 1988.

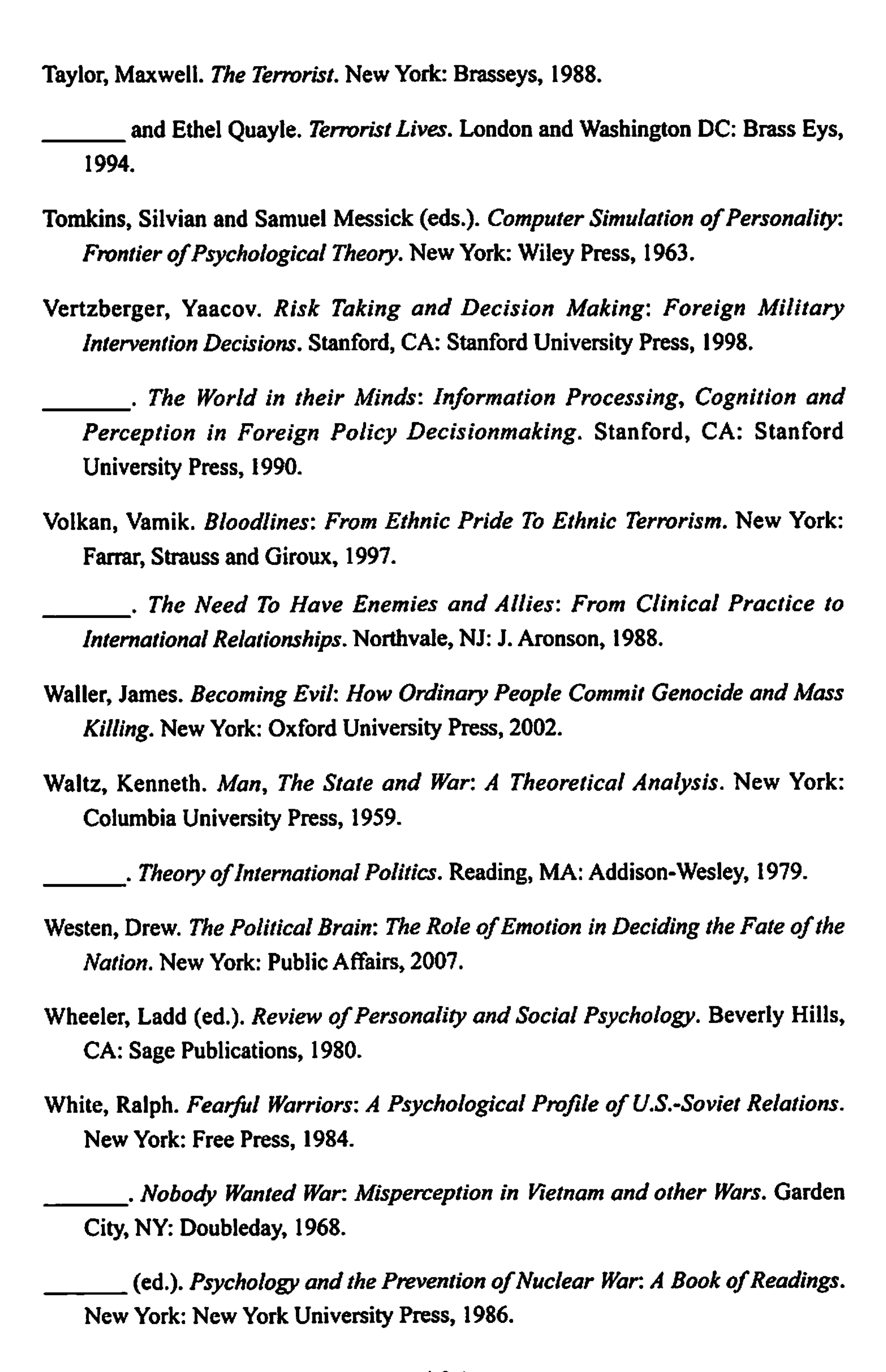
Stouffer, Samuel. *Communism, Conformity and Civil Liberties: A Cross Section of the Nation Speaks its Mind*. New York: Doubleday, 1955.

Strasser, Steven (ed.). *The Abu Ghraib Investigations*. New York: Public Affairs, 2004.

Sullivan, John, James Piereson and George Marcus. *Political Tolerance and American Democracy*. Chicago, IL: University of Chicago Press, 1982.

Tajfel, Henri. *Human Groups and Social Categories*. Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1981.

_______. *Social Identity and Intergroup Relations*. Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1982.



Taylor, Maxwell. *The Terrorist.* New York: Brasseys, 1988.

_______ and Ethel Quayle. *Terrorist Lives*. London and Washington DC: Brass Eys, 1994.

Tomkins, Silvian and Samuel Messick (eds.). *Computer Simulation of Personality: Frontier of Psychological Theory.* New York: Wiley Press, 1963.

Vertzberger, Yaacov. *Risk Taking and Decision Making: Foreign Military Intervention Decisions*. Stanford, CA: Stanford University Press, 1998.

_______. *The World in their Minds: Information Processing, Cognition and Perception in Foreign Policy Decisionmaking*. Stanford, CA: Stanford University Press, 1990.

Volkan, Vamik. *Bloodlines: From Ethnic Pride To Ethnic Terrorism.* New York: Farrar, Strauss and Giroux, 1997.

_______. *The Need To Have Enemies and Allies: From Clinical Practice to International Relationships*. Northvale, NJ: J. Aronson, 1988.

Waller, James. *Becoming Evil: How Ordinary People Commit Genocide and Mass Killing*. New York: Oxford University Press, 2002.

Waltz, Kenneth. *Man, The State and War: A Theoretical Analysis*. New York: Columbia University Press, 1959.

_______. *Theory of International Politics*. Reading, MA: Addison-Wesley, 1979.

Westen, Drew. *The Political Brain: The Role of Emotion in Deciding the Fate of the Nation*. New York: Public Affairs, 2007.

Wheeler, Ladd (ed.). *Review of Personality and Social Psychology.* Beverly Hills, CA: Sage Publications, 1980.

White, Ralph. *Fearful Warriors: A Psychological Profile of U.S.-Soviet Relations.* New York: Free Press, 1984.

_______. *Nobody Wanted War: Misperception in Vietnam and other Wars.* Garden City, NY: Doubleday, 1968.

_______ (ed.). *Psychology and the Prevention of Nuclear War: A Book of Readings.* New York: New York University Press, 1986.

Woodward, Bob. *Plan of Attack*. New York: Simon and Schuster, 2004.

Woodward, Susan. *Balkan Tragedy: Chaos and Dissolution after the Cold War*. Washington DC: Brookings Institution, 1995.

Worchel, S. and L.W. Austin (eds.). *Psychology of Intergroup Relations*. Chicago, IL: Nelson-Hall, 1986.

Zakaria, Fareed. *The Future of Freedom: Illiberal Democracy at Home and Abroad*. New York: W. W. Norton, 1993.

Zaller, John. *The Nature and Origins of Mass Opinion*. New York: Cambridge University Press, 1992.

Zanna, Mark (ed.). *Advances in Experimental Social Psychology*. New York: Academic Press, 1990.

_______ and James Olson (eds.). *The Psychology of Prejudice*. Hillsdale, NJ: Lawrence Erlbaum, 1994.

Zimbardo, Philip. *The Lucifer Effect: Understanding How Good People Turn Evil*. New York: Random House, 2007.

Periodicals

Achen, Christopher and Duncan Snidal. «Rational Deterrence Theory and Comparative Case Studies.» *World Politics*: vol. 41, no. 2, 1989.

Adolphs, Ralph. «Cognitive Neuroscience of Human Social Behavior.» *Nature Reviews: Neuroscience*: vol. 4, no. 3, March 2003.

Amen, Daniel. «Getting Inside their Heads... Really Inside.» *Los Angeles Times*: 5/12/2007.

Anderson, James William. «The Methodology of Psychological Biography.» *Journal of Interdisciplinary History*: no. 11, Winter 1981.

Barrett, David. «The Mythology Surrounding Lyndon Johnson, His Advisers, and the 1965 Decision to Escalate the Vietnam War.» *Political Science Quarterly*: no. 103, 1988.

Berkowitz, Leonard. «Some Aspects of Observed Aggression.» *Journal of Personality and Social Psychology*: vol. 2, no. 3, 1965.

Betts, Richard. «Conventional Strategy: New Critics, Old Choices.» *International Security*: vol. 7, no. 4, 1983.

Blight, James and Janet Lang. «Lesson Number One: Empathize with your Enemy.» *Peace and Conflict*: vol. 10, no. 4, 2004.

Bobo, Lawrence. «Whites' Opposition to Busing: Symbolic Racism or Realistic Group Conflict?.» *Journal of Personality and Social Psychology*: vol. 45, no. 6, 1983.

Breuning, Marijke. «The Role of Analogies and Abstract Reasoning in Decision-Making.» *International Studies Quarterly*: vol. 47, no. 2, 2003.

Crenshaw, Martha. «The Causes of Terrorism.» *Comparative Politics*: vol. 13, no. 4, 1981.

Crichlow, Scott. «Idealism or Pragmatism?: An Operational Code Analysis of Yitzhak Rabin and Shimon Peres.» *Political Psychology*: vol. 19, no. 4, 1998.

Darley, John and Bibb Latane. «Bystander Intervention in Emergencies: Diffusion of Responsibility.» *Journal of Personality and Social Psychology*: vol. 8, 1968.

Darley, John and Daniel Batson. «From Jerusalem to Jericho: A Study of Situational and Dispositional Variables in Helping Behavior.» *Journal of Personality and Social Psychology*: vol. 27, no. 1, 1973.

Devine, Patricia. «Stereotypes and Prejudice: Their Automatic and Controlled Components.» *Journal of Personality and Social Psychology*: vol. 56, no. 1, 1989.

Dyson, Stephen. «Drawing Policy Implications from the «Operational Code» of a «New» Political Actor: Russian President Vladimir Putin.» *Policy Sciences*: vol. 34, nos. 3-4, 2001.

_______. «Personality and Foreign Policy: Tony Blair's Iraq Decisions.» *Foreign Policy Analysis*: vol. 2, no. 3, 2006.

_______ and Thomas Preston. «Individual Characteristics of Political Leaders and the Use of Analogy in Foreign Policy Decision Making.» *Political Psychology*: vol. 27, no. 2, 2006.

Elias, Marilyn. «Freud: So Wrong and Yet So Right.» *USA Today*: 4/5/2006.

Farris, George. «The Drunkard's Search in Behavioral Science.» *Compensation Benefits Review*: vol. 1, no. 2, 1969.

Fazio, Russell [et al.]. «Variability in Automatic Activation as an Unobtrusive Measure of Racial Attitudes: A Bona Fide Pipeline?.» *Journal of Personality and Social Psychology*: vol. 69, no. 6, 1995.

Federico, Christopher and Samantha Luks. «The Political Psychology of Race.» *Political Psychology*: vol. 26, no. 5, 2005.

Finlayson, Alan. «Psychology, Psychoanalysis and Theories of Nationalism.» *Nations and Nationalism*: vol. 4, no. 2, 1998.

Fiske, Susan. «Stereotyping, Prejudice, and Discrimination at the Seam between the Centuries: Evolution, Culture, Mind, and the Brain.» *European Journal of Social Psychology*: vol. 30, no. 3, 2000.

_______ and Philip Linville. «What Does the Schema Concept Buy Us?.» *Personality and Social Psychology Bulletin*: vol. 6, no. 4, 1980.

Gentner, Dedre. «Structure Mapping: A Theoretical Framework for Analogy.» *Cognitive Science*: vol. 7, no. 2, 1983.

George, Alexander. «The «Operational Code»: A Neglected Approach to the Study of Political Leaders and Decision Making.» *International Studies Quarterly*: vol. 13, 1969.

Gibson, James. «Do Strong Group Identities Fuel Intolerance?: Evidence from the South African Case.» *Political Psychology*: vol. 27, no. 5, 2006.

_______. «Political Intolerance and Political Repression during the McCarthy Red Scare.» *American Political Science Review*: vol. 82, 1988.

Gick, Mary and Keith Holyoak. «Schema Induction and Analogical Transfer.» *Cognitive Psychology*: vol. 15, no. 1, 1983.

Goldgeier, James. «Psychology and Security.» *Security Studies*: vol. 6, no. 4, 1997.

Greenstein, Fred. «The Impact of Personality on Politics: An Attempt to Clear Away the Underbrush.» *American Political Science Review*: vol. 61, 1967.

Hamilton, David and Robert Gifford. «Illusory Correlation in Interpersonal

Perception: A Cognitive Basis of Stereotypic Judgments.» *Journal of Experimental Social Psychology*: vol. 12, no. 4, 1976.

Harris, Lasana and Susan Fiske. «Dehumanizing the Lowest of the Low: Neuro Imaging Responses to Extreme Outgroups.» *Psychological Science*: vol. 17, no. 10, 2006.

_______ and _______. «Social Groups that Elicit Disgust are Differentially Processed in MPFC.» *Social Cognitive and Affective Neuroscience*: vol. 2, 2007.

Hart, Allen [et al.]. «Differential Response in the Human Amygdala to Racial Outgroup vs Ingroup Face Stimuli.» *Neuroreport*: vol. 11, 2000.

Hastie, Reid and Bernadette Park. «The Relationship between Memory and Judgment Depends on Whether the Task is Memory-Based or On-Line.» *Psychological Review*: vol. 93, 1986.

Heider, Fritz. «Attitudes and Cognitive Organization.» *Journal of Psychology*: no. 21, 1946.

Hermann, Margaret. «Explaining Foreign Policy Behavior Using the Personal Characteristics of Political Leaders.» *International Studies Quarterly*: vol. 24, 1980.

_______ and Thomas Preston. «Presidents, Advisers, and Foreign Policy: The Effect of Leadership Style on Executive Arrangements.» *Political Psychology*: vol. 15, 1994.

Holsti, Ole. «Cognitive Process Approaches to Decision-Making: Foreign Policy Actors Viewed Psychologically.» *American Behavioral Scientist*: vol. 20, no. 1, 1976.

_______. «The Political Psychology of International Politics: More than A Luxury.» *Political Psychology*: vol. 10, no. 3, 1989.

Houghton, David Patrick. «Essence of Excision: A Critique of the New Version of Essence of Decision.» *Security Studies*: vol. 10, no. 1, 2000.

_______. «Explaining the Origins of the Iran Hostage Crisis: A Cognitive Perspective.» *Terrorism and Political Violence*: vol. 18, no. 2, 2006.

_______. «The Role of Analogical Reasoning in Novel Foreign-Policy Situations.» *British Journal of Political Science*: vol. 26, no. 4, 1996.

Huddy, Leonie. «From Social to Political Identity: A Critical Examination of Social Identity Theory.» *Political Psychology*: vol. 22, no. 1, 2001.

Hurwitz, Jon and Mark Peffley. «Public Perceptions of Race and Crime: The Role of Racial Stereotypes.» *American Journal of Political Science*: vol. 41, no. 1, 1997.

Jervis, Robert. «Hypotheses on Misperception.» *World Politics*: vol. 20, no. 3, 1968.

_______. «Political Implications of Loss Aversion.» *Political Psychology*: vol. 13, no. 2, 1992.

_______. «Review of the Psychology of Nuclear Proliferation.» *Political Psychology*: vol. 28, 2007.

Kahneman, Daniel and Amos Tversky. «Prospect Theory: An Analysis of Decision under Risk.» *Econometrica*: vol. 47, no. 2, 1979.

Kaplan, Jonas, Joshua Freedman and Marco Lacoboni. «Us Versus them: Political Attitudes and Party Affiliation Influence Neural Response to Faces of Presidential Candidates.» *Neuropsychologica*: vol. 45, no. 1, 2007.

Katz, Daniel and Kenneth Braly. «Racial Stereotypes of 100 College Students.» *Journal of Abnormal and Social Psychology*: vol. 28, 1933.

Kecmanovic, Dusan. «Review of Joshua Searle-White: The Psychology of Nationalism.» *Nations and Nationalism*: vol. 9, no. 3, 2003.

Kinder, Donald and David Sears. «Prejudice and Politics: Symbolic Racism Versus Racial Threats to the Good Life.» *Journal of Personality and Social Psychology*: vol. 40, no. 3, 1981.

Kinder, Donald [et al.]. «Presidential Prototypes.» *Political Behavior*: vol. 2, no. 4, 1980.

Kowert, Paul. «Where Does the Buck Stop?: Assessing the Impact of Presidential Personality.» *Political Psychology*: vol. 17, no. 3, September 1996.

Kramer, Roderick. «Revisiting the Bay of Pigs and Vietnam Decisions 25 Years Later: How Well has the Groupthink Hypothesis Stood the Test of Time?.» *Organizational Behavior and Human Decision Processes*: no. 73, 1998.

Kuklinski, James, Robert Luskin and John Bolland. «Where's the Schema?: Going

Beyond the «5» Word in Political Psychology.» *American Political Science Review*: vol. 85, no. 4, 1991.

Lacoboni, Marco, Joshua Freedman and Jonas Kaplan. «This is Your Brain on Politics.» *New York Times*: 11/11/2007.

Larson, Deborah Welch. «The Role of Belief Systems and Schemas in Foreign Policy Decision-Making.» *Political Psychology*: vol. 15, no. 1, 1994.

Lebow, Richard Ned and Janice Gross Stein. «Rational Deterrence Theory: I Think, Therefore I Deter.» *World Politics*: vol. 41, no. 2, 1989.

Levy, Jack. «Misperception and the Causes of War: Theoretical Linkages and Analytical Problems.» *World Politics*: vol. 36, no. 1, 1983.

_______. «Prospect Theory and International Relations: Theoretical Applications and Analytical Problems.» *Political Psychology*: vol. 13, no. 2, 1992.

Lieberman, Matthew [et al.]. «An FMRI Investigation of Race-Related Amygdala Activity in African-American and Caucasian American Individuals.» *Nature: Neuroscience*: vol. 8, no. 6, 2005.

Link, Arthur. «The Presidential Election of 1916, S. D. Lovell.» *Political Science Quarterly*: vol. 96, no. 1, 1981.

Lodge, Milton and Charles Taber. «The Automaticity of Affect for Political Leaders: Groups, and Issues: An Experimental Test of the Hot Cognition Hypothesis.» *Political Psychology*: vol. 26, no. 3, 2005.

_______ and _______. «Motivated Skepticism in the Evaluation of Political Beliefs.» *American Journal of Political Science*: vol. 50, no. 3, 2006.

Lodge, Milton, Patrick Stroh and John Wahlke. «Black Box Models of Candidate Evaluation.» *Political Behavior*: vol. 12, no. 1, 1990.

Lodge, Milton, Kathleen McGraw and Patrick Stroh. «An Impression-Driven Model of Candidate Evaluation.» *American Political Science Review*: vol. 83, 1989.

Mantell, David. «The Potential for Violence in Germany.» *Journal of Social Issues*: vol. 27, no. 4, 1971.

Marcus, George. «Emotions in Politics.» *Annual Review of Political Science*: vol. 3, 2000.

McDermott, Rose. «The Feeling of Rationality: The Meaning of Neuroscientific Advances for Political Science.» *Perspectives on Politics*: vol. 2, no. 4, 2004.

_______. «Prospect Theory in Political Science: Gains and Losses from the First Decade.» *Political Psychology*: vol. 29, 2004.

_______. «Prospect Theory in International Relations: The Iranian Hostage Rescue Mission.» *Political Psychology*: vol. 13, 1992.

McGraw, Kathleen. «Contributions of the Cognitive Approach to Political Psychology.» *Political Psychology*: vol. 21, no. 4, 2000.

Mearsheimer, John. «Back To The Future: Instability in Europe after the Cold War.» *International Security*: vol. 15, no. 1, 1990.

_______. «Why We Will Soon Miss the Cold War.» *Atlantic Monthly*: vol. 266, no. 2, 1990.

Mercer, Jonathan. «Rationality and Psychology in International Politics.» *International Organization*: vol. 59, no. 1, 2005.

Miller, Arthur, Martin Wattenberg and Oksana Malanchuk. «Schematic Assessments of Presidential Candidates.» *American Political Science Review*: vol. 80, June 1986.

Monroe, Kristen. «Review Essay: The Psychology of Genocide.» *Ethics and International Affairs*: no. 9, no. 1, 1995.

_______, James Hankin and Renee Van Vechten. «The Psychological Foundations of Identity Politics.» *Annual Review of Political Science*: vol. 3, 2000.

Patel, Sally. «The Perils of Putting National Leaders on the Couch.» *New York Times*: 29/6/2004.

Phelps, Elizabeth [et al.]. «Performance on Indirect Measures of Race Evaluation Predicts Amygdala Activation.» *Journal of Cognitive Neuroscience*: vol. 12, no. 5, 2000.

Pratto, Felicia [et al.]. «Social Dominance Orientation: A Personality Variable Predicting Social and Political Attitudes.» *Journal of Personality and Social Psychology*: vol. 67, no. 4, 1994.

Rahn, Wendy. «The Role of Partisan Stereotypes in Information Processing about Political Candidates.» *American Journal of Political Science*: vol. 37, no. 2, 2003.

Ripley, Brian. «Psychology, Foreign Policy, and International Relations Theory.» *Political Psychology*: vol. 14, 1993.

Ruston, J. Philippe. «Ethnic Nationalism, Evolutionary Psychology and Genetic Similarity Theory.» *Nations and Nationalism*: vol. 11, no. 2, 2005.

Schafer, Mark. «Issues in Assessing Psychological Characteristics at a Distance.» *Political Psychology*: vol. 21, no. 3, 2000.

_______ and Scott Critchlow. «Bill Clinton's Operational Code: Assessing Source Material Bias.» *Political Psychology*: vol. 21, 2000.

Searle, John. «Minds, Brains and Programs.» *Behavioral and Brain Sciences*: vol. 3, no. 3, 1980.

Sears, David and P. J. Henry. «Over Thirty Years Later: A Contemporary Look at Symbolic Racism and its Critics.» *Advances in Experimental Social Psychology*: vol. 37, 2005.

Sears, David [et al.]. «Is it Really Racism?: The Origins of White Americans' Opposition to Race Targeted Policies.» *Public Opinion Quarterly*: vol. 61, no. 1, 1997.

Shafer, Mark and Stephen Walker. «Democratic Leaders and the Democratic Peace: The Operational Codes of Tony Blair and Bill Clinton.» *International Studies Quarterly*: vol. 50, no. 3, 2006.

Shafir, Eldar. «Prospect Theory and Political Analysis: A Psychological Perspective.» *Political Psychology*: vol. 13, no. 2, 1992.

Sidanius, James [et al.]. «Social Dominance Theory: Its Agenda and Method.» *Political Psychology*: vol. 25, no. 6, 2004.

Sidanius, Jim, Erik Devereaux and Felicia Pratto. «A Comparison of Symbolic Racism Theory and Social Dominance Theory as Explanations for Racial Policy Attitudes.» *Journal of Social Psychology*: vol. 132, 1992.

Silke, Andrew. «Cheshire-Cat Logic: The Recurring Theme of Terrorist Abnormality in Psychological Research.» *Psychology, Crime and Law*: vol. 4, no. 1, 1998.

Singer, J. David. «The Level-of-Analysis Problem in International Relations.» *World Politics*: vol. 14, no. 1, 1961.

Smith, M. Brewster. «Realistic Empathy: A Key to Sensible International Relations.» *Peace and Conflict*: vol. 10, no. 4, 2004.

Sniderman, Paul [et al.]. «The New Racism.» *American Journal of Political Science*: vol. 35, 1991.

Stern, Eric and Bengt Sundelius. «The Essence of Groupthink.» *Mershon International Studies Review*: vol. 38, no. 1, 1994.

Suedfeld, Peter. «President Clinton's Policy Dilemmas: A Cognitive Analysis.» *Political Psychology*: vol. 15, no. 2, 1994.

_______ and Philip Tetlock. «Integrative Complexity of Communications in International Crises.» *Journal of Conflict Resolution*: vol. 21, 1977.

Sylvan, Donald, Thomas Ostrom and Katherine Gannon. «Case-Based, Model-Based, and Explanation-Based Styles of Reasoning in Foreign Policy.» *International Studies Quarterly*: vol. 38, nos. 61-90, 1994.

Tapias, Molly [et al.]. «Emotion and Prejudice: Specific Emotions Towards Outgroups.» *Group Processes and Intergroup Relations*: vol. 10, no. 1, 2007.

Tetlock, Philip [et al.]. «Assessing Political Group Dynamics: A Test of the Groupthink Model.» *Journal of Personality and Social Psychology*: no. 63, 1992.

Tierney, John. «The 2004 Campaign: Using MRIs to See Politics on the Brain.» *New York Times*: 20/4/2004.

Tingley, Dustin. «Neurological Imaging as Evidence in Political Science: A Review, Critique, and Guiding Assessment.» *Social Science Information*: vol. 45, no. 1, 2006.

Volkan, Vamik. «September 11 and Societal Aggression.» *Group Analysis*: vol. 35, 2002.

Walker, Stephen. «The Evolution of Operational Code Analysis.» *Political Psychology*: vol. 11, no. 2, June 1990.

_______. «The Interface between Beliefs and Behavior: Henry Kissinger's Operational Code and the Vietnam War.» *Journal of Conflict Resolution*: vol. 21, no. 1, 1977.

_______ and Mark Schafer. «The Political Universe of Lyndon B. Johnson and His Advisors: Diagnostic and Strategic Propensities in their Operational Codes.» *Political Psychology*: vol. 21, no. 3, 2000.

Weinstein, Edwin, James William Anderson and Arthur Link. «Woodrow Wilson's Political Personality: A Reappraisal.» *Political Science Quarterly*: vol. 93, no. 4, 1978.

Wendt, Alexander. «The Agent-Structure Problem in International Relations Theory.» *International Organization*: vol. 41, no. 3, Summer 1987.

Wessells, Mike G., Micheal D. Roe and Susan McKay. «Pioneers in Peace Psychology: Ralph K. White.» *Peace and Conflict*: vol. 10, no. 4, 2004.

Westen, Drew [et al.]. «The Neural Basis of Motivated Reasoning: An FMRI Study of Emotional Constraints on Political Judgment During the US Presidential Election of 2004.» *Journal of Cognitive Neuroscience*: vol. 18, no. 11, 2006.

White, Ralph. «Misperception and War.» *Peace and Conflict*: vol. 10, no. 4, 2004.

_______ and Richard Wagner. «The Earliest Pioneer: Ralph K. White.» *Peace and Conflict*: vol. 10, no. 4, 2004.

Winter, David. «Things I've Learned about Personality from Studying Political Leaders at a Distance.» *Journal of Personality*: vol. 73, no. 3, June 2005.

Wood, Jeremy. «Is 'Symbolic Racism' Racism?: A Review Informed by Intergroup Behavior.» *Political Psychology*: vol. 15, no. 4, 1994.

Zajonc, Robert. «Feeling and Thinking: Preferences Need No Inferences.» *American Psychologist*: vol. 35, 1980.

Congresses

The Annual Meeting of the American Political Science Association, Washington, DC, 2005.

The Annual Meeting of the American Political Science Association, Philadelphia, 2006.

The International Society of Political Psychology Conference, Portland, OR, 2007.

Reports and Websites

The Christian Science Monitor Website, <http://www.csmonitor.com/specials/terrorism/lite/expert.html>.

«Clarke's Take on Terror.» CBS News Website: 21 March 2004, <http://www.cbsnews.com/stories/2004/03/19/60minutes/main607356.shtml>.

Comedy Central Website, <http://www.comedycentral.com/motherload/ index.jhtml?ml_video =84518>.

Duke Website, <http://www.ssri.duke.edu/anes/index.html>.

Hudson, Rex. «The Sociology and Psychology of Terrorism: Who Becomes a Terrorist And Why?.» Report Prepared under an Interagency Agreement by the Federal Research Division, Library of Congress (Washington, D.C.): September 1999, <http://www.loc.gov/rr/frd/pdf-files/Soc_Psych_of_Terrorism.pdf>.

«Iran Says More UN Steps Won't Stop Its Nuclear Work.» Reuters: 3 June 2007.

M. C. Eschers Website (2008), <http://www.mcesher.com>.

Nisbet, Erik and James Shanahan. «MSRG Special Report: Restrictions on Civil Liberties, Views of Islam, and Muslim Americans.» December 2004, <http://www.eriknisbet.com/pdfs/reportla>.

PBS American Experience, Woodrow Wilson Website, <http://www.pbs.org/wgbh/amex/wilson/>.

Reynolds, Ted. «Understanding Nuclear Weapons Proliferation.» Unpublished Manuscript.

Sidanius, James. «The Psychology of Group Conflict and the Dynamics of Oppression: A Social Dominance Perspective.» Duke University Press: 1993.

Talaska, Cara, Susan Fiske and Shelly Chaiken. «Legitimating Racial Discrimination: A Meta-Analysis of the Racial Attitude-Behavior Literature Shows that Emotions, Not Beliefs, Best Predict Discrimination.» Social Justice Research: Social Power in Action (in press).

Film

Kennedy, Rory (dir.). «Ghosts of Abu Ghraib». Moxie Firecracker Films: 2007. (DVD)

فهرس عام

-ت-

-ث-

-ج-

-ز-

-س-

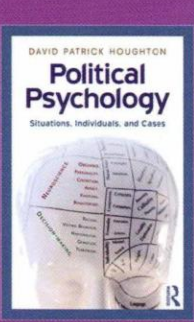
-ل-

-ن-

-و-

-ي-

هذا الكتاب



مع أن علم النفس السياسي قد نشأ، تاريخيًا، في مرحلة متأخرة نسبيًا من تطور العلوم الاجتماعية، إلا أن موضوعه الأساس قديم قدم السلوك السياسي، بل النشاط الإنساني في المجال العام. فحين يسأل سائل: "لماذا يفعل الناس ما يفعلونه في سلوكهم العام؟"، فإن أول ما يكتشفه هو أن كل نظرة سياسية إلى العالم تبنى في النهاية على نظرة في الطبيعة البشرية والنفس الإنسانية.

ومن خلال استعراض تحليلي نظري وتطبيقي لطيف واسع من الآراء، قديمها وحديثها، وما طرحته شتى النظريات في ميادين علم النفس والفلسفة والسياسة، يخلص هذا الكتاب إلى أن ثمة نمطين أساسيين من المقاربات لفهم السلوك السياسي الإنساني: أولهما مقاربة موقفية تعتبر البيئة، أو الموقف المحيط بالفرد، أكثر أهمية في تشكيل سلوك الفرد أو دوره في المجال العام من نزعاته أو خصائصه الشخصية أو انتمائه الحزبي؛ أما الأخرى فهي المقاربة النزوعية التي ترى أن شخصية الفرد وما لديه من اعتقادات وقيم أو حتى موروثات جينية، أكثر تأثيرًا في هذا المضمار؛ بل يمكن، على العموم، النظر إلى السلوك السياسي على أنه حدث مدفوع بأسباب داخلية أو مؤثرات خارجية أو بمزيج من هذين النوعين.

المؤلف

دايفد باتريك هوتون (David Patrick Houghton) أكاديمي بريطاني يعمل أستاذًا في جامعة وسط فلوريدا في الولايات المتحدة، وعمل قبل ذلك في جامعات بريطانية وأميركية. ومن مجالات اهتمامه: علم النفس السياسي، صنع القرار في السياسة الدولية، السياسة الخارجية الأميركية والعلاقات الإيرانية - الأميركية. له خمسة كتب وعدد من المقالات والدراسات العلمية.

المترجمة

ياسمين سالم حداد تحمل الدكتوراه في علم النفس الاجتماعي من جامعة روتشستر في الولايات المتحدة الأميركية. عملت في الجامعة الأردنية أستاذة ورئيسة لقسم علم النفس، وتعمل الآن في جامعة الإمارات العربية المتحدة. شاركت في ترجمة وتحرير كتابين مرجعيين في علم النفس الاجتماعي وعلم النفس التطبيقي.

- فلسفة وعلم نفس
- اقتصاد وتنمية
- لسانيات
- آداب وفنون
- تاريخ
- علم اجتماع وأنتروبولوجيا
- أديان ودراسات إسلامية
- علوم سياسية وعلاقات دولية

السعر: 15 دولارًا

ISBN 978-614-445-046-8
9 786144 450468

المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies